د. محمَّد عبد المُحْسِن

"وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ"

المسيانيَّة في صراع المفسدين على ميراث التَّقوى

مقدِّمة للدُّكتور بَهَاء الأَمِير



١٤٤١هـ-٢٠٢٠م

شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا" (سورة النِّساء: الآية ١٣١).

يثني الله تعالى على عباده المؤمنين الَّذين لا يهابون بطش السَّلاطين، ولا كيد الماكرين، ولا سيف الجلَّادين بقوله تعالى "مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)" (سورة الأحزاب: آيتان ٣٨-٣٩). جعل الله تعالى من سُننه الكونيَّة إرسال الأنبياء لتبليغ رسالاته للنَّاس كما أُنزلت، دون تحريف يرضي متَّبعي الشّهوات، ولا تبديل يخدم المنتفعين وأصحاب المصالح. وقد اختصَّ سبحانه فئة من عباده الصَّالحين، من ورثة الأنبياء، بالعلم النَّافع ليخرجوا به العامَّة من الظُّلمات إلى النُّور، دون أن يخشوا لومة لائم. أتقدَّم بجزيل الشُّكر والتَّقدير لكافَّة العاملين في مجال الدَّعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، سواءً عبر مؤلَّفات منشورة أو برامج مذاعة.

من هؤلاء، أختصُّ بتقديم الشُّكر والتَّقدير إلى العالم النَّابه، صاحب الفضل الكبير عليَّ بعد الله تعالى، الدُّكتور بهاء الأمير، المتخصّص في العقائد الباطنيَّة وتاريخ الحركات السّريَّة، الَّذي شرَّفني بتقديم كتابي الأوَّل ونشْره عبر قنواته الخاصَّة بنشر مؤلَّفاته، وأعانني بإيضاح الأخطاء، ثمَّ غمرني بفضله من جديد بتكرار الأمر مع كتابي الثَّاني، وقد ساعدتني مؤلَّفاته في تطوير أفكار موضوعات الكتاب بجزأيه وترقيتها، وأختصُّ بالذّكر من هذه المؤلَّفات كُتبه **اليهود والماسون في الثورات والدساتير** (٢٠١٢م)، و**تفسير القرآن بالسِّريانيَّة: أكاذيب ودسائس** (٢٠١٧م)، و**ولي الأمر المتغلِّب وهندسة المعيار والميزان** (٢٠١٨م)، وا**ليهود والحركات السريَّة في الكشوف الجغرافيَّة وشركة الهند الشرقيَّة البريطانيَّة** (٢٠١٩م)، ومقال "الخلافة والمُلك والدَّولة العثمانيَّة وبلاليص ستان" (٢٠١٩م).

لن أنسى أبدًا الفضل العظيم الَّذي منحنيه الدَّاعية الكبير، "العلِم العلَم والبحر الخضم"، الشَّيخ الدُّكتور محمَّد الزُّغبي، الَّذي توسَّط الإعلامي الشَّاب محمَّد الشَّاعر، المذيع على قناة الرَّحمة الفضائيَّة الدّينيَّة، لإرسال مقالاتي إليه، قبل جمعها في كُتُب، وقد أبدى الشَّاعر اهتمامًا بتوصيل المقالات، ما جعلني أتوقَّع اهتمامًا مماثلًا من الشَّيخ العلَّامة، وأسأل الله تعالى أن ينفعنا جميعًا بما علَّمنا وأن يزيدنا علمًا.

برغم تعذُّر التَّواصل معها، لا يكمن أبدًا الإغفال عن إسهام الدُّكتورة زينب عبد العزيز، أستاذ اللغة الفرنسيَّة وآدابها بجامعتي القاهرة والأزهر في مصر، في إنجاز هذا المؤلَّف بما جرى الاستعانة به من نتاجها الفكري في كتابها القيّم **حرب صليبيَّة بكلِّ المقاييس** (٢٠٠٣م)، ومقالها " تأملات تجريدية حول ' نيوم '"، المنشور عبر مدوَّنتها في ٢ أبريل ٢٠١٨م، وللدُّكتورة كامل التَّوقير والتَّقدير على ما تمثِّله من نموذج ملهم لاستغلال دراسة الحضارة الغربيَّة في كشْف أباطيل الاستشراق والتَّصدي للهجمة الغربيَّة الشَّرق على الإسلام وأهله، بلا هدف سوى إخراج المسلمين من صحيح ملّة إبراهيم، و "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ **يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا** وَلَٰكِن كَانَ **حَنِيفًا مُّسْلِمًا** وَمَا كَانَ مِنَ **الْمُشْرِكِينَ**" (سورة آل عمران: الآية ٦٧).

أتقدَّم كذلك بجزيل الشُّكر إلى الإعلامي المرموق الدُّكتور أحمد الهوَّاس، ورئيس تحرير موقف **رسالة بوست،** الَّذي منحني فرصة لم أكن أتصوَّر الحصول عليها بنشر مقتطفات من مقالاتي عبر الموقع، برغم حداثة عهدي بمجال الكتابة، وبرغم البون الشَّاسع بين درجتي العلميَّة وخبراتي العمليَّة وما يتمتَّع به غالبيَّة المشاركين بمقالاتهم على الموقع. أشكر للدُّكتور الهوَّاس تشجيعه وصبره ودماثة أخلاقه، وأسأل الله تعالى أن ينصر قضيَّة أهل الشَّام، قضيَّة الأمَّة الإسلاميَّة بأسرها. لن أنسى أن حواراته قبل ما يقرب من ١٥ عامًا عن القبَّالة والماسونيَّة مع الدُّكتور بهاء الأمير كانت بداية معرفتي بهذا المجال، وفي ضوئها بدأت القراءة، وبفضل الله تعالى لم يمر عامان كاملان حتَّى أنجزت كتابي الأوَّل في عام ٢٠١٨م.

وبذكر قضيَّة أهل الشَّام، يجدر تقديم الشُّكر العميق والتَّقدير الكبير لكافَّة الدُّعاة إلى سبيل الله وناشري كلمة الحقّ من أهل بيت المقدس، وأختصُّ بالتَّحيَّة والتوقير الشَّيخ خالد المغربي، مفسّر القرآن الكريم المتطوّع بالمسجد الأقصى الأسير، صاحب

الفضل الكبير عليَّ في تشجيعي على الكتابة، وقد كان في البداية قارئي الأوَّل ومتابعي الأوحد، أسأل الله تعالى أن يتمَّ فكَّ أسره. أتقَّدم كذلك بجزيل الشُّكر إلى الشيخ كمال الخطيب، إمام مسجد عمر بن الخطَّاب في كفركنا في الجليل، شمال فلسطين، والمؤلّف والقيادي السّياسي، على تلقّيه كافَّة مقالاتي تباعًا، بداية من مطلع عام ٢٠١٩م، وأشكر الله تعالى أنَّ جعل من أفكارها ما يتوافق مع ما ذكره في خُطب الجمعة، وبخاصَّة خُطبه " أمريكا: الزاني لا ينكح إلا زانية" في ٨ فبراير ٢٠١٩م، و "ماسح الذنوب وماسح العيوب" في ١٥ فبراير ٢٠١٩م، و "الإسلام بين التجديد والثبات" في ١ مارس ٢٠١٩م، و "الهويَّة الإيمانيَّة بين أصحاب موسى وأصحاب مُحمَّد" في ١٤ يونيو ٢٠١٩م. أتقدَّم ببالغ الشُّكر إلى الشَّيخ الشَّاب نضال صيام، الخطيب والدَّاعية الإسلامي بالمسجد الأقصى، أحدث المهتمين باستقبال مقالاتي، وأشكر له حُسن خُلقه واستعداده للاطّلاع، وأسأل الله تعالى منه الفضل العظيم بأن ينقل ما يصله عبر خطبه في أولى القبلتين وثالث المساجد الَّتي يُشد إليها الرّحال.

أخيرًا، أتقدَّم بتحيَّة خالصة لكلّ مهتم بشأن الأمَّة الإسلاميَّة، وكلّ حريص على نشْر الوعي الدّيني الصَّحيح، وأتمنى على الله له التَّوفيق، وإن لم أعرف هويَّته أو يكون بيني وبينه تواصُل أو معرفة مباشرة، وأسأل كلَّ غيور على دينه ومستنكر لحال أمَّته أن يسهم في توصيل العلم الَّذي نحسبه نافعًا إلى كلّ مهتم، عسى الله أن يرفع من قدره، كما رفع من قدر هدهد سليمان، موصل رسالة الإسلام إلى عُبَّاد الشّيطان، الَّذي تنزَّل في ذِكره قُرآن يُتلى إلى يوم القيامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب: "وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ" المسيانيَّة في صراع المفسدين على ميراث التَّقوى"، من تأليف دكتور محمد عبد المحسن.

دكتور بهاء الأمير

الحمد لله الذي أنزل قرآنه وعداً مفعولاً ووحياً محفوظاً، والصلام والسلام على النبي الأمي الذي يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل مكتوباً، كاشفاً للوحي وبه مبعوثاً، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا كتاب: "**وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**" **المسيانيَّة في صراع المفسدين على ميراث التَّقوى**"، وهو الكتاب الثاني لدكتور محمد عبد المحسن، وهو محرر ومترجم، وحاصل على ماجستير في الأسلوبيَّات المعرفيَّة، من قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، بجامعة عين شمس، وعلى دكتوراة في التحليل متعدِّد الوسائط للخطاب الإعلامي، من قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، بجامعة حلوان، ومهتم بالديانات والعقائد والمقارنة بينها، وباليهودية والقبالاه أو التراث الباطني اليهودي وآثارها في مختلف الأمم والحضارات عبر التاريخ.

ودكتور محمد عبد المحسن يتعامل مع المسألة اليهودية من منظور مفتوح، وينقب عنها من خلال آثارها في الأمم وصلتها بتاريخ العالم وحوادثه الكبرى ومساره، بخلاف كتل من الباحثين، أكاديميين وغير أكاديميين، تتعامل مع اليهود والمسألة اليهودية من خلال أنها مسألة مغلقة، ويبحثون فيها على أنها نفق يسيرون داخل جدرانه ولا يرون شيئاً خلفها، ولا يعنيهم ولا يرد على أذهانهم البحث عن صلة ما يرونه في النفق بما حدث ويحدث في العالم المفتوح خارجه.

ويتفرع عن ذلك ميزة وفرق آخر بين المنهج النادر الذي يمثله دكتور محمد عبد المحسن وبين أفراد الكتل الذين تخرجهم خطوط الإنتاج الآلية في المعاهد والجامعات، وهي أنه يتعامل مع المسألة اليهودية بجوانبها المختلفة من خلال آثار اليهود وأفكارهم وموافقة ما يشهده العالم من أحداث لعقائدهم وغاياتهم، وإن لم يظهروا هم فيها، بينما الكتل الآلية ليس مطروحاً عندهم ولا يرد عليهم أن اليهود لهم صلة بما يحدث إلا إذا رأوا في صدارته يهوداً بزي الحاخامات ووثائقه مختومة بنجمة داوود!

والتعامل مع اليهود والمسألة اليهودية بالمنهج المفتوح قليل أو نادر، لأنه يتطلب سعة في المعارف، واتساعاً في العقل، وبصيرة نافذة، وجلداً وهمة عالية، وإحاطة بأحداث التاريخ وكواليسها، وقدرة فائقة على التحليل والربط، وعلى رؤية ما لا يراه الآخرون، بينما السير في المسألة اليهودية بطريقة النفق المغلق يحتاج إلى جهد شاق وبحث دؤوب للوصول إلى ما هو مكتوب فيها، وبعد ذلك ليس إلا جمع ما دونه فلان مع ما قاله علان، وضم فقرات مما كُتب هنا إلى فقرات مما كتب هناك.

وكتاب: "**وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**"، يتكون من ثلاثة أقسام، أو ثلاثة مقالات، المقالة الأولى: "**أهم وسائل الغزو الفكري للإعداد لألفيَّة المسيَّا: التَّبشير والاستشراق**"، وهي بيان لأن التبشير والاستشراق من وسائل تهيئة العالم عموماً، وبلاد الإسلام خصوصاً، لقدوم المسيا، الذي ينتظره اليهود على أنه الهامشيحاه، أو البطل المخلص، وينتظره البروتستانت على أنه المسيح في مجيئه الثاني.

وتبدأ المقالة بالتبشير على يد بولس الرسول، وبيان أنه رائد التبشير، وما أدخله على ديانة المسيح من عقائد، ثم منه إلى التبشير في العصر الحديث، وتكشف علاقة التبشير وإرسالياته بالاستعمار وسياسات الغرب في بلاد الإسلام، ودور هذه الإرساليات في نشر الأفكار القومية وتقوية النزعات الطائفية لتكون أداة إزاحة الإسلام وتفكيك بلاده، ودور الجامعات الأمريكية في ذلك، ثم مس دكتور محمد عبد المحسن الغاية الخبيئة من التبشير، في فقرتين عن: "**علاقة الإرساليَّات بنشأة إسرائيل**"، و: "**موقف الإرساليَّات من دولة إسرائيل**"، وهي مسألة سنتوقف عندها، لأن دكتور محمد عبد المحسن مس سطحها، دون غوص إلى أعماقها، ثم تنتقل

المقالــة إلــى الاستشــراق، ويختمهــا باســتنتاجات، أهمهــا أن الإيمــان برؤيــا يوحنَّــا اللاهوتي عن فترة ألفيَّة المسيَّا من أهم العوامل الدافعة لإرسال المبشِّرين إلى العالم الإسلامي، وأن التبشير والاستشراق امتداد للحروب الصليبية، أو هي حرب صليبيَّة باردة تعتمد على الغزو الفكري والثقافي.

والمقالـة الثانيـة فـي الكتـاب: "**الإسـلاموفوبيا: اسـتراتيجيَّة صـهيونيَّة مدروسـة لتشويه الإسلام**"، ومرة أخرى يمس دكتور محمد عبد المحسن علاقة الصورة التي ترسـمها وسـائل الإعـلام والآداب الغربيـة للإسـلام والمسـلمين، بـاليهود ومشـروعهم ودولـتهم، وأنهـا تصـب مباشـرة فـي مصـلحتها، ويتطـرق إلـى رعايـة الدولـة اليهوديـة والمنظمـات الصـهيونية للإسـلاموفوبيا، وإلـى دور المنظمـات الغربيـة المسـيحية الصهيونية في إذكاء نيرانها، من أجل اعتقادهم في نبوءات أنبياء بني إسرائيل عن : "**حرب كونيَّة فـي آخر الزمان تُظهر إسرائيل علـى سائر الأمم**"، وفي ثنايا ذلك يتعرض دكتور محمد عبد المحسن لأحداث الحادي عشر من سبتمبر وتفجير أبراج التجارة العالمية في الولايات المتحدة، وكيف تم توظيفها في تشويه الإسلام، وإفزاع عموم النـاس فـي الغرب مـن المسلمين، ويعرض كتباً ألفها بـاحثون غربيون وذهبوا فيهـا إلـى ضـلوع الإدارة وأجهـزة الأمـن والاسـتخبارات الأمريكيـة فـي هـذه الأحـداث، بالإهمال المتعمد وغض الطرف، أو بالتواطؤ الصريح، لأنه يستحيل من غير ذلك تنفيذها بالطريقة التي تمت بها.

والمقالة الثالثة عنوانها: "**في معركة الحداثة الغربيَّة مع "رجعيَّة" المسلمين": لأيٍّ منهمـا الغَلَبَـة؟**"، وفيهـا يعـرض دكتـور محمـد عبـد المحسـن مواقـف المفكـرين الإسلاميِّين المعاصرين من الحضـارة الغربيَّـة وحداثتها، وأبرز من عرض مواقفهم الشيخ سفر الحوالي، ثم يعرض أسباب تأخُّر المسلمين عن مسيرة النَّهضة الغربيَّة، وكيف تكون مواجهة تحديات الحداثة الغربيَّة، من منظور بعض العلمانيين العرب، ثم بعض تجارب التحديث وتجديد التعليم الديني ومحاولات التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية في مصر وتركيا وإيران.

وثمة مسألتان في كتاب دكتور محمد عبد المحسن، نتوقف عندهما، إحداهما بالتجلية، والثانية بالمناقشة.

فالمسألة الأولى هي صلة التبشير وإرسالياته بالمشروع اليهودي وإنشاء دولة اليهود، وهي مسألة مسها دكتور محمد عبد المحسن، ولكن من بعيد، ودون تنقيب عن جذورها.

يقول دكتور محمد عبد المحسن في موضعين من مقالته عن التبشير والاستشراق:

" **وهكذا، استطاع المستعمر البريطاني تأسيس الكنيسة البروتستانتيَّة، بهدف دفع المسلمين إلى ترك دينهم ... يشير باريت (٢٠١٢) إلى أنَّ الإرساليَّات لم تلعب دورًا فاعلًا في فلسطين سوى بعد الحرب العالميَّة الثانية عام ١٩٤٥ ميلاديًّا، حيث مُنيت التجارب الأولى قبل قرن من ذلك الزمن بالفشل نتيجة الاستجابة المحدودة، غير أنَّ الجمعيَّة المعمدانيَّة الجنوبيَّة قد أصدر قرارها عام ١٨٩٦ ميلاديًّا –عام قبل المؤتمر الصهيوني الأوَّل– ببعث إرساليَّة معمدانيَّة إلى فلسطين، معتبرةً ذلك أمرًا مُلحًّا**"

فأما أن بريطانيا أسست كنيستها البروتستانتية من أجل دفع المسلمين إلى ترك دينهم، فالحقيقة هي أن أول أسقفية وكنيسة بروتستانتية في الشرق كله، هي التي أنشأتها بريطانيا في القدس، لكي تكون إحدى وسائل تمهيد الأرض المقدسة لإعادة اليهود، واليهود أنفسهم هم من كانوا خلف إنشائها، وأول أسقف بروتستانتي في القدس وفي الشرق كله، كان حاخاماً يهودياً!!

ويمكن الجمع بين هذه الحقيقة وبين ما قاله دكتور محمد عبد المحسن، بأن ترك المسلمين لدينهم وإزاحة الإسلام من وعي شعوب الشرق وتركيب السلطة فيه ومن أنسجة مجتمعاته، شرط في المشروع اليهودي، ما كان له أن يكون ولا أن يتقدم من غيره.

وأما ما نقله دكتور محمد عبد المحسن، من أن الإرساليات لم تلعب دوراً فاعلاً سوى بعد الحرب العالمية الثانية، وأنها مُنيت بالفشل قبل ذلك، وارتباط إرسال أول إرسالية بروتستانتية بظهور الحركة الصهيونية والتمهيد لعقد مؤتمرها الأول، فصحة ذلك أن الإرساليات أقدم من ذلك، وأنها نجحت نجاحاً كبيراً، فهي التي وضعت

البذور الأولى للمشروع اليهودي في القدس وفلسطين، وخطت الخطوات الأولى فيه، وكل ما تلا ذلك حتى ظهور هرتزل والحركة الصهيونية كان من آثار ما فعلته، وبناءً على ما أنجزته.

والبعثات التبشيرية إلى الشرق، لم تزدهر وتصبح مشروعاً منظماً ترعاه دول الغرب ومؤسساته، إلا بعد تحول انجلترا إلى البروتستانتية، وتحول فرنسا إلى العلمانية!

أما فرنسا، والدول الكاثوليكية عموماً، فحتى أوائل القرن التاسع عشر كان وجود الإرساليات التبشيرية المرتبط بها متقطعاً، ونشاطها في الشرق ضعيفاً، وينحصر في رعاية الطوائف التابعة للكنيسة الكاثوليكية.

ولم يكن للإرساليات التبشيرية علاقة بالمسلمين على الإطلاق، بل وحين تجاوز نشاط الإرساليات الكاثوليكية رعاية طوائف الكاثوليك، إلى تحويل الأرثوذكس، وهم مسيحيو الشرق الأصلاء، إلى الكاثوليكية، وهي مذهب غربي وترتبط طوائفه بدول الغرب وسياساتها، أدركت الآستانة خطورة ذلك، وصدر فرمان وخط همايوني، سنة ١٨١٨م، بعودة المتحولين إلى الكاثوليكية الغربية إلى مذاهبهم الشرقية الأصلية، ونص الخط الهمايوني على أن:

"**الذين يتبعون دين الإفرنج من رعايا طايفة الروم يرتدون إلى رتبتهم القديمة، وأن يحصل التنبيه المحكم بهذا الخصوص، والذين يتحركون خلافه، ما لهم يؤخذ لجانب الميري، وهم يُنفوا ويتباعدوا إلى ديار أخرى**"

ولم يزدهر نشاط الإرساليات الكاثوليكية في الشرق، ويمتد نشاطها إلى العمل بين المسلمين، إلا منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وكان خلف هذا الازدهار عاملان، الأول سقوط الكاثوليكية في فرنسا وتحولها إلى العلمانية(!)، والثاني وقوع مصر والشام تحت سلطة خريج حارة اليهود في اليونان العثمانية، محمد علي باشا.

وفرنسا العلمانية الماسونية بعد الثورة، ألغت المسيحية رسمياً، ومنعت الطقوس والشعائر، وطردت الرهبان والأساقفة، وحولت الكنائس إلى معابد لعبادة العقل،

حقيقة لا مجازاً، ومحت أيقونات القديسين وكل ما يمت للعقيدة من الكنائس، ووضعت مكانها صور الغانيات ومغنيات الأوبرا لتكون رموزاً للعقل والحرية.

والماسوني نابليون بونابرت حين صار الإمبراطور سنة ١٨٠٤م، وضم إلى إمبراطوريته إيطاليا، غزت جيوشه المناطق التابعة للفاتيكان، واقتحمت الفاتيكان نفسه، واعتقلت البابا بيوس السابع Pius VII، سنة ١٨٠٩م، وظل معتقلاً في فونتنبلو Fontainebleau، إلى أن سقط نابليون سنة ١٨١٤م.

وبداية ازدهار الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية في الشرق، كان في عهد الملك لويس فيليب الأول Louis Philippe I، الذي بدأ سنة ١٨٣٠م، وفي عهد الرئيس ثم الإمبراطور نابليون الثالث Napoleon III، الذي بدأ سنة ١٨٤٨م، وكلاهما من الماسون، وأبو لويس فيليب، دوق أورليانز Louis Philippe، Duke of Orléans، كان الأستاذ الأعظم للشرق الأعظم الفرنسي، وأحد أعمدة ثورة الماسون في فرنسا، ونابليون الثالث هو لويس نابليون، وكان هو نفسه نائب الأستاذ الأعظم للشرق الأعظم الفرنسي، في عهد أخيه الإمبراطور نابليون بونابرت، وأخوهما الثالث جوزيف كان الأستاذ الأعظم.

وقد كان بين الرهبان والمبشرين أعضاء الإرساليات كاثوليك متدينون مخلصون ومتحمسون، ويسعون بالتبشير إلى نشر المسيحية فعلاً، ولكن فرنسا العلمانية الماسونية، كانت ترسل الإرساليات التبشيرية إلى الشرق وتغدق عليها، ليس من أجل نشر الكاثوليكية، التي تغلق كنائسها وتطارد رهبانها وتصادر أملاكها في فرنسا نفسها، بل من أجل زعزعة الإسلام في الشرق، وإذابة رابطته من بين شعوبه، وإحلال العقيدة القومية محله، وغرس نزعات الاستقواء والانفصال بين الأقليات، ليكون ذلك كله أداة بث القلاقل في الدولة العثمانية وتفكيك الشرق وتهيئته ليستقبل اليهود ويكون محضناً لمشروعهم.

وهي نفسها غاية أول من يصل إلى حكم مصر والشام من خريجي حواري اليهود، محمد علي باشا، من فتحه مصر والشام أمام الإمبراطوريات الماسونية والبعثات التبشيرية من مختلف المذاهب، ومن رعايته لكل ما يزعزع الإسلام ويخرجه من تركيب السلطة ويذيبه في أذهان المسلمين ويزيل آثاره من مجتمعاتهم، وفي

إحدى رسائله نص الماسوني القبالي بروسبير إنفانتان Prosper Enfantin، زعيم جماعة السان سيمونيين الذين أتى بهم محمد علي إلى مصر، في غلاف تمدين مصر بالمدارس والمشروعات الإنشائية، على أن:

"الباشا جاء بهم إلى مصر لتحويل المسلمين عن دينهم"!!.

وأما الإرساليات البريطانية، والإرساليات الأمريكية فرع منها أو امتداد لها، فازدهارها كان بعد تحول انجلترا إلى البروتستانتية، وهذا التحول إلى البروتستانتية كان بتمويل من اليهود ومن أجلهم، والخطوة الأولى فيه كانت ثورة كرومويل سنة ١٦٤٩م، التي صعدت بالبروتستانت البيوريتان إلى السلطة، وحولت انجلترا إلى دولة برلمانية، وتمويل ثورة كرومويل كان من يهود هولندا بزعامة حاخام أمستردام القبالي، منشه بن إسرائيل Menasseh Ben Israel.

وبعد نجاح ثورة كرومويل جاء منشه بن إسرائيل إلى انجلترا بنفسه، وقدم خطابات وعرائض أمام مجلس الدولة والمحكمة العليا والبرلمان، تلاها فتح انجلترا أمام اليهود وإلغاء المرسوم الذي أصدره الملك إدوارد الأول Edward I، سنة ١٢٩١م، بطرد اليهود ومنعهم من دخول انجلترا.

والخطوة الثانية كانت التحول الكامل إلى البروتستانتية، مع الثورة البروتستانتية التي توصف بأنها مجيدة، والتي أطاحت بالملك جيمس الثاني James II، آخر ملوك انجلترا من الكاثوليك، سنة ١٦٨٩م، ونصبت مكانه البروتستانتي وليم الثالث William III، وزوجته ماري البروتستانتية، ابنة جمس الثاني، بعد أن غزا وليم الثالث انجلترا بالاتفاق مع أعضاء البرلمان البروتستانت، ووليم الثالث ليس إنجليزياً، بل كان حاكم المقاطعات الهولندية، وهو من أسرة أورانج، إحدى فروع الأسرة الميروفنجية.

وغزو وليم الثالث لانجلترا وتحولها للبروتستانتية، موله يهود هولندا أيضاً، فتمويل الحملة على انجلترا، وقدره مليونا جيلدر، قدمها لوليم الثالث قرضاً دون ضمانات، ودون حتى اشتراط ردها، اليهودي لوبيز سُواسُّو Lopez Suasso، وكان من أكبر أصحاب الأسهم في شركة الهند الغربية الهولندية، وقام اثنان من

تجـار هولنـدا اليهـود، همـا ماخـادو Machado وبيريـرا Pereira، بتـوفير المـؤن والطعام لقوة الغزو بالكامل، الجيش والأسطول.

والإرساليات البروتستانتية البريطانية إلى الشرق بدأت أوائل القرن التاسع عشر، وكانت كلها تابعة لجمعية يهود لندن، وهي جمعية أسسها سنة ١٨٠٨م في لندن اليهودي الألماني المتحول إلى البروتستانتية جوزيف صمويل فردريك فري Joseph Samuel Frederick Frey، وسماها: "جمعية لندن لزيارة المرضى والبائسين والتخفيف عنهم، ولإرشاد الجهلة، خصوصاً من الأمة اليهودية The London Society For The Purpose Of Visiting And Relieving The Sick And Distressed، And Instructing The Ignorant Especially Of The Jewish Nation"، ثم غيَّر اسم الجمعية إلى : "جمعية لندن للتبشير بالمسيحية بين اليهود".

وكان تأسيس جمعية يهود لندن، وبعثها الإرساليات للشرق، ضمن اجتياح حركة إعادة اليهود إلى فلسطين لأوساط الساسة والنخب والأدباء في بريطانيا، على أن ذلك من شروط المجيء الثاني للمسيح، وأن اليهود سوف يتحولون عند مجيئه إلى المسيحية لأنه هو نفسه الهامشيحاه الذي ينتظرونه، وهي الحركة التي كان يقودها ويبث عقائدها اليهود المتحولون إلى البروتستانتية، وغزو بها انجلترا، وامتطوا ظهرها واستوطنوا رأسها، وساقوها في اتجاه مشروع العودة إلى فلسطين واستيطانها.

وبكفاح جمعية يهود لندن وجهودها، وبمؤازرة الساسة لها، وعلى رأسهم وزير الخارجية البريطاني الماسوني من الدرجة الثالثة والثلاثين هنري جون تمبل بالمرستونHenry John Temple Palmerston، نجحت الجمعية في إنشاء أول أسقفية بروتستانتية في الشرق، وكانت في القدس، ونصت ديباجة بيان تأسيسها الصادر في ٩ ديسمبر ١٨٤١م، على أنه:

"**من المستحيل ألا نرى يد العناية الإلهية فيما يحدث في الشرق، فقد فتحت باباً للمسيحيين، خصوصاً أمتنا، للعمل من أجل مملكة المخلِّص، ومن أجل إعادة شعب الإله العتيق إلى أرضه**".

وأول أسقف بروتستانتي في القدس، وفي الشرق كله، هو مايكل سولومون ألكساندر Michael Solomon Alexander ، وهو يهودي بولندي كان يقوم بتعليم التلمود في مدينة بوزن البولندية Posen، ثم هاجر إلى انجلترا، وصار حاخام اليهود في نورويتش Norwich، وبليماوث Plymouth، ثم تحول إلى البروتستانتية ضمن مئات اليهود الذين تحولوا واستوطنوا عقل بريطانيا بهذا التحول، وكان عضواً في جمعية يهود لندن، وهي التي اختارته ليكون أول أسقف بروتستانتي في القدس والشرق، وكان سبب اختياره، كما يقول توماس جيدني Thomas Gidney، سكرتير الجمعية، في كتابه: تاريخ جمعية لندن للتبشير بالمسيحية بين اليهود، الذي ألفه من أرشيفها ووثائقها، أن:

"**أسقفية القديس جيمس، يجب أن تكون لرجل من نسل إبراهيم Descendant Of Abraham، ومن ثَم تم اختيار أبرز العبريين المسيحيين في انجلترا، مايكل سولومون ألكساندر، وقد تبوأ ألكساندر منصب أستاذ العبرية وآداب الربانيين، في جامعة الملك King's College، في لندن، ومن ثم صار مؤهلاً للمقام الذي تم اختياره له**".

وهذا هو تشكيل أول أسقفية بروتستانتية في القدس، وفي الشرق كله:

"**صار في أورشليم/القدس الآن، أسقف، وكاهن، وشماس، جميعهم عبريون في عبريين All Hebrews Of The Hebrews، ويقيمون في جبل صهيون، ووضع ثلاثة من الربانيين في أورشليم/القدس أنفسهم تحت تصرف الأسقف، وهم الربي أبراهام Abraham، والربي بنيامين Benjamin، والربي إليعازر Eliezer، وانضم اثنان آخران من الربانيين إلى كنيسة المسيح العبرية في جبل صهيون**"

والمسألة الثانية في كتاب دكتور محمد عبد المحسن، والتي نتوقف عندها بالمناقشة، هي مسألة أصل مسألة المخلِّص في الإسلام، يقول دكتور محمد عبد المحسن:

"عقيدة المسيانيَّة تؤمن بظهور مخلِّص (Messiah) في آخر الزَّمان، يؤسِّس مملكة عالميَّة، ويوحِّد إيمان البشر، ويقضي على كافَّة أشرار الأرض، وينشر العدل والرَّخاء والمساواة، بل ويكفِّر خطايا الآثمين بمجرَّد الإيمان به وبدعوته، جدير بالذِّكر أنَّ مفهوم المخلِّص له أصل في الإسلام؛ حيث أنَّ النبيَّ (ﷺ) قد بشَّر في الحديث الوارد في صحيح أبي داود (٤٢٨٢)، عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه وأرضاه) بظهور رجل من أهل بيته يقضى على الفتن ويصلح أمر المسلمين ويقضي على الطغاة والجبابرة "لو لم يبقَ منَ الدُّنيا إلَّا يومٌ لطوَّلَ اللَّهُ ذلِكَ اليومَ حتَّى يَبعثَ فيهِ رجلًا منِّي -أو من أَهْلِ بيتي-يواطئُ اسمُهُ اسمي، واسمُ أبيهِ اسمُ أبي يملأُ الأرضَ قِسطًا وعدلًا، كما ملئت ظُلمًا وجَورًا"، غير أنَّ مفهوم المخلِّص المسلم الذي أخبر عنه النبيَّ (ﷺ) يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم المخلِّص في عقيدة بني إسرائيل ... أمَّا عمَّا يشترك فيه مفهوم المخلِّص في عقيدة بني إسرائيل وفي الإسلام، أنَّ المسيَّا يقهر طغاة الأرض وينشر السَّلام "يَقْضِي بَيْنَ الأُمَمِ وَيُنْصِفُ لِشُعُوبٍ كَثِيرِينَ، فَيَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ. لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفًا، وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ" (سفر اشعياء: إصحاح ٢، آية ٤)، ويصير قائدًا للأمم كافَّة "يَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَصْلَ يَسَّى الْقَائِمَ رَايَةً لِلشُّعُوبِ، إِيَّاهُ تَطْلُبُ الأُمَمُ" (سفر اشعياء: إصحاح ١١، آية ١٠)"

في هذه العبارات يقول دكتور محمد عبد المحسن، إن عقيدة المخلِّص الذي تتوحد الأمم بالإيمان به، ويقيم منها مملكة عالمية، وينشر العدل والمساواة، وتُغفر خطايا الإنسان باتباع دعوته، لها أصل في الإسلام، وأن بعض صفاته في إخبارات أنبياء بني إسرائيل تتوافق مع صفاته في الإسلام، وهو قول صحيح ونتَّفق معه فيه، ولكننا نخالفه بعد ذلك فيما ذهب إليه من أن هذا المخلِّص هو الرجل من نسل النبي (عليه الصلاة والسلام) ويوافق اسمُه اسم النَّبي، والذي أخبرت عنه السنة أنه من علامات آخر الزمان.

ورأينا في هذه المسألة، أن المخلِّص في الإسلام، وهو نفسه الذي أخبر أنبياءُ بني إسرائيل قومهم بصفته، وأمروهم بانتظار قدومه واتباعه عند ظهوره، هو النبي الخاتم محمد رسول الله، وليس الرجل الذي من نسله ويحمل اسمه.

وهنا لابد من وقفة منهجية، ضاعت من أذهان كثير ممن يتعاملون مع السنة النبوية في هذا الزمان، وترتب على ضياعها أحكام مغلوطة وأوهام كثيرة وأخطاء كبيرة، فلا يجوز فهم أي مسألة في السنة بمعزل عن القرآن، أو الاستنباط منها بما يخالف نصوصه وروحه وقواعده، فكما أن السنة مبينة وكاشفة للقرآن، ويُفهم من خلالها، فكذلك القرآن ضابط للسنة وإطار لها، ولا يصح استنباط شيء منها في أي مسألة خارج حدوده.

والمخلِّص الذي أخبر الله عز وجل أنبياء بني إسرائيل بخبره، وكلفهم جميعاً إبلاغ بني إسرائيل بصفته، وأن يأمروهم بانتظاره واتباعه، مسألة أصلها في القرآن، وصفاته فيه، وهي نفسها التي بقيت في كتب أنبياء بني إسرائيل، بعد أن حولها الكتبة من إخبارات في النبي الخاتم الذي يعيد الوحي إلى العالم، ويقيم مملكته به، ويضع العدل والميزان في الأرض، وتتوحد الشعوب والأقوام بالإيمان به، حولها الكتبة إلى نبوءات في البطل اليهودي الذي يستعيد الأرض المقدسة ويعيد بني إسرائيل إلى أورشليم ويقيم لهم فيها مملكة يحكمون العالم كله منها.

وفي القرآن يخبرنا عز وجل أنه:

"**وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا**" **(آل عمران: ٨١).**

وأن المؤمنين من أهل الكتاب هم:

"**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل**"**(الأعراف: ١٥٧).**

ويخبرنا أن:

"**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**" **(الأنعام: ٢٠)**

وأن هذا النبي الخاتم:

"**رحمة للعالمين**"**(الأنبياء: ١٠٦)**

ومرسل إلى الناس كافة:

"**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**"(**الأعراف: ١٥٨**).

وأن له الحكم بما أنزل الله على الأمم كلها، من آمن ومن لم يؤمن:

"**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق**" (**المائدة: ٤٨**).

وأن صفته التي أخبر بها أنبياء بني إسرائيل في التوراة أنه:

"**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة**"(**الفتح: ٢٩**).

وأنه عز وجل كتب في زبور داوود أن أمة هذا النبي الخاتم، التي تتوحد فيها شعوب الأرض، هم عباده الصالحون الذين يرثون الأرض كلها:

"**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**"(**الأنبياء: ١٠٥**).

وهو الذي بشر به المسيح بني إسرائيل، وذكر لهم اسمه صريحاً، وأمرهم بانتظاره واتباعه:

"**وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوارة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**"(**الصف: ٦**).

وبعد هاتين المسألتين، ثمة ملاحظة، ففي مقالة التبشير والاستشراق، وضع دكتور محمد عبد المحسن فقرة عنوانها: **"تسلُّل الروحانيَّات إلى الإسلام**"، وفيها وصف البابية والبهائية بأنها: " **تجسيد انسلاخ الفكر الشِّيعي من صحيح الإسلام إلى الروحانيَّات**".

ولا يسوغ وصف البابية والبهائية وأمثالها من العقائد الباطلة، بأنها روحانيات، وأن الروحانيات هي مقابل صحيح الإسلام، وأن وجودها فيه تسلل، وروح كل شيء حياته وجوهره الصافي، والله عز وجل يقول:

"**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**" (**الشورى: ٥٢**)

ودكتور محمد عبد المحسن أشار في ثنايا كلامه إلى أن هذا وصف المستشرق والمبشر صمويل زويمر للبابية والبهائية، والأصوب كان أن يوضع ما قاله زويمر بين أقواس على أنه نص كلامه، وأن يعدل دكتور محمد عبد المحسن في كلامه هو، عن لفظ الروحانيات إلى الوصف الصحيح، وهو الغنوصية أو الباطنية، التي تجعل داخل الإنسان وما يصدر عنه من تأملات مصدراً لعقائده وفهمه للألوهية وصلتها بالإنسان والوجود.

وبقي أن نذكر بإكبار المنقبة التي احتواها كتاب دكتور محمد عبد المحسن، وهي منقبة صارت نادرة في هذا الزمان، حتى كادت تنعدم، ألا وهي فضيلة المراجعة والرجوع إلى الحق، ففي تقديمنا لكتاب دكتور محمد عبد المحسن الأول: "**ليسوؤوا وجوهكم**"، **القبالة في ميزان القرآن الكريم والسنة النبوية**"، انتقدنا موقفه من الدولة العثمانية، وقلنا إنه يتحامل عليها تحاملاً غير منصف ولا موضوعي، وفنَّدنا مطاعنه لها، خصوصاً نفيه صفة الخلافة عنها، وصرفه حديث النبي عليه الصلاة والسلام في فاتح القسطنطنية عن السلطان محمد الفاتح، واتهاماته للسلطان عبد الحميد الثاني.

وفي هذا الكتاب: "**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**"، راجع دكتور محمد عبد المحسن موقفه، وأعاد للدولة العثمانية اعتبارها، وهي الدولة التي جمعت بلاد الإسلام في ثلاث قارات، وجاهدت اعداءها أربعة قرون، وفتوحاتها هي التي أدخلت شعوب جنوب أوروبا ووسطها في دين الله أفواجاً، وسقطت وهي تقاتل دفاعاً عن القدس، فيقول إنه تبين له:

" **صحَّة انتماء دولة آل عثمان إلى دولة الإسلام، وصدْق اعتبارها دولة خلافة إسلاميَّة؛ لاحتكامها إلى الشَّريعة الإسلاميَّة، برغم خروجها، مثل الدَّولتين الأمويَّة والعبَّاسيَّة، عن مبدأ الشُّورى في بيعة الخليفة بتوريث الحُكم**".

ومنقبة دكتور محمد عبد المحسن، وإقراره بأن الدولة العثمانية هي في الحكم مثل ما سبقها من دول الإسلام بعد الدولة النبوية والخلافة الراشدة، يجعلنا نذكر بما قلناه

فـي تقديمنا لكتابـه الأول، وفـي غيره من المواضـع، وهو أن الدولـة العثمانيـة ليست دولة مقدسة، وباستثناء السلطان عبد الحميد الثاني لم يكن سلاطينها المتأخرون في كفاءة سلاطينها المتقدمين، وارتكبت في أواخرها أخطاءً جسيمة سياسية وعسكرية واقتصادية، وتسلل إليها اليهود واخترقتها الماسونية، وانتشرت فيها الحركات الباطنية، وهي في ذلك تشبه الدولة العباسية في أواخر عهدها، ولكن نقد الدولة العثمانية وبيان أخطائها مسألة، وما يقوم به حفظة الأكلشيهات والموظفون ومشايخ البلاط في دويلات بلاليص ستان التي أقامتها الإمبراطوريات الماسونية من إهدار شرعية الدولة العثمانية وإسقاطها من بين دول الإسلام لتبرير تواطؤ هذه الدويلات مع الإمبراطوريات الماسونية على الدولة العثمانية مسألة أخرى.

والآن نتركك ترتحل مع كتاب دكتور محمد عبد المحسن: "**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**"، وتستكشف آفاقه.

دكتور بهاء الأمير

القاهرة

١٤ جمادى الآخرة ١٤٤١هـ/٨ فبراير ٢٠٢٠م

"وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ"

المسيانيَّة في صراع المفسدين على ميراث التَّقوى

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: "الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ **هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** (٢) **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** (٣) **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** (٤) أُولَئِكَ **عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ** وَأُولَئِكَ هُمُ **الْمُفْلِحُونَ** (٥)" (سورة البقرة: آيات ١–٥).

الحمد لله تعالى الذي أرسل رسوله مُحمَّدًا (ﷺ) بالهدى ودين الحقِّ ليُظهره على الدِّين كلَّه، وكفى بالله شهيدًا، ولو كره المشركون، وعانَد الكافرون، وكذَّب المفسدون، واتَّبع أهواءهم الفاسقون. الحمد لله تعالى الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وأمره أن يحكم بما أنزله إليه من شريعة سماويَّة، وضعها خالق الخَلْق والأعلى درايةً بهم وبما يصلح أحوالهم، والأشدُّ حرصًا على هدايتهم إلى سبيل الرَّشاد كيلا يفتنهم متاع الدُّنيا فيوردهم اتِّباع الأهواء إلى النَّار وما للظالمين من أنصار، مصداقًا لقوله تعالى "وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)" (سورة المائدة: آيتان ٤٩–٥٠).

الحمد لله تعالى الذي أبان لعباده المؤمنين في قرآنه الكريم سبيل الدَّعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، وضَرَب لهم المثل بالأمم السَّابقة، التي تناسَت الميثاق الذي أخذه الله تعالى من بني آدم بالثَّبات على الإيمان به والإقرار له بالرُّبوبيَّة، مصداقًا لقوله "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ

عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)" (سورة الأعراف: آيتان ١٧٢–١٧٣). الحمد لله تعالى الذي أعدَّ لعبادة المؤمنين جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، جزاءً بما كانوا يعملون من الصَّالحات، وربَط على قلوب المستضعَفين من عباده بأن وعَدَهم بميراث الجنَّة، وبأنَّ العاقبة لهم في الآخرة، التي يهلك ويخسر فيها المفسدون ولا يفوز فيها إلَّا المؤمنون، ولكن بشرط الالتزام بالتَّقوى، مصداقًا لقوله تعالى "**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**" (سورة القصص: آية ٨٣).

الحمد لله تعالى الذي بدأ القرآن العظيم بآيات محكمات توضح شروط الالتزام بالتَّقوى، وهي الإيمان بالغيب وإقام الصَّلاة والإنفاق ممَّا رزقهم الله والإيمان بما أُنزل على خاتم النبيِّين(ﷺ) وبما يصدِّق لما جاء به من كُتب الأنبياء السَّابقين (سورة البقرة آيات ٢–٥). والحمد لله تعالى الذي جعل أطول سور القرآن الكريم (سورة البقرة) سورةً تذكِّر بتهافُت بني إسرائيل، آخر الأمم قبل أمَّة سيِّد وَلَد آدم (ﷺ)، على الدُّنيا، وهي قصَّة البقرة، التي جادلوا نبيَّهم موسى (عليه وعلى سائر أنبياء الله ورُسُله أزكى الصلوات وأتم التَّسليم)، طامعين أن تحيي موتاهم وتكفل لهم الخلود في الأرض.

أمَّا بعد، يتناول هذا المؤلَّف، **المسيانيَّة في صراع المفسدين على ميراث التَّقوى**، في جزأيه، "وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ" و "وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي"، عقيدة المسيانيَّة (Messianism)، التي تشترك فيها اليهوديَّة والمسيحيَّة والزرادشتيَّة والبوذيَّة والهندوسيَّة والطاويَّة والبابيَّة، التي تؤمن بظهور مخلِّص (Messiah) في آخر الزَّمان، يؤسِّس مملكة عالميَّة، ويوحِّد إيمان البشر، ويقضي على كافَّة أشرار الأرض، وينشر العدل والرَّخاء والمساواة، بل ويكفِّر خطايا الآثمين بمجرَّد الإيمان به وبدعوته. جدير بالذِّكر أنَّ مفهوم المخلِّص له

أصل في الإسلام؛ حيث أنَّ النبيَّ (ﷺ) قد بشَّر في الحديث الوارد في صحيح أبي داود (٤٢٨٢)، عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه وأرضاه) بظهور رجل من أهل بيته يقضى على الفتن ويصلح أمر المسلمين ويقضي على الطغاة والجبابرة "لو لم يبقَ منَ الدُّنيا إلَّا يومٌ لطوَّلَ اللَّهُ ذلِكَ اليومَ حتَّى يَبعثَ فيهِ رجلًا منِّي –أو من أَهْلِ بيتي–يواطئُ اسمُهُ اسمي، واسمُ أبيهِ اسمُ أبي يملأُ الأرضَ قِسطًا وعدلًا، كما ملئت ظُلمًا وجَورًا".

غير أنَّ مفهوم المخلِّص المسلم الذي أخبر عنه النبيَّ (ﷺ) يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم المخلِّص في عقيدة بني إسرائيل. أخبرت أسفار العهد القديم كثيرًا عن المسيَّا المخلِّص، ولعلَّ أكثرها تبشيرًا به وبطبيعة عمله سفر اشعياء، الذي يُسمَّى "الإنجيل الخامس"؛ من كثرة ما جاء به من تفاصيل عن المسيَّا وزمنه. أمَّا عمَّا يشترك فيه مفهوم المخلِّص في عقيدة بني إسرائيل وفي الإسلام، أنَّ المسيَّا يقهر طغاة الأرض وينشر السَّلام "يَقْضِي بَيْنَ الأُمَمِ وَيُنْصِفُ لِشُعُوبٍ كَثِيرِينَ، فَيَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ. لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفًا، وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ" (سفر اشعياء: إصحاح ٢، آية ٤)، ويصير قائدًا للأمم كافَّة "يَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَصْلَ يَسَّى الْقَائِمَ **رَايَةً لِلشُّعُوبِ، إِيَّاهُ تَطْلُبُ الأُمَمُ**" " (سفر اشعياء: إصحاح ١١، آية ١٠). وأمَّا عن أبرز الاختلافات بين العقيدتين أنَّ المسيَّا الإسرائيلي يقضي على الموت باعتباره تجسيد الربِّ؛ ممَّا يعني أنَّ حياة بني إسرائيل بعد ظهوره لا تعرف الزَّوال، ولا يؤرقها عوز أو قلَّة، كما يقول اشعياء في "يَبْلَعُ الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ، وَيَمْسَحُ **السَّيِّدُ الرَّبُّ** الدُّمُوعَ عَنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَيَنْزِعُ عَارَ شَعْبِهِ عَنْ كُلِّ الأَرْضِ" (سفر اشعياء: إصحاح ٢٨، آية ٨)، وفي "مَفْدِيُّو الرَّبِّ يَرْجِعُونَ وَيَأْتُونَ إِلَى صِهْيَوْنَ بِالتَّرَنُّمِ، وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ **فَرَحٌ أَبَدِيٌّ. ابْتِهَاجٌ وَفَرَحٌ يُدْرِكَانِهِمْ. يَهْرُبُ الْحُزْنُ وَالتَّنَهُّدُ**" " (سفر اشعياء: إصحاح ٥١، آية ١١). يتنافى ذلك مع ما ورد في قوله تعالى في القرآن الكريم "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (سورة آل

عمران: الآية ١٨٥)، وكذلك مع قوله "قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (سورة الجمعة: الآية ٨).

لا يقف الاختلاف عن هذا الحدِّ؛ فمن بين الأمور التي تسترعي الانتباه أنَّ المسيَّا في عقيدة بني إسرائيل هو تجسيد للربِّ؛ كون روح الربِّ حلَّت في جسده، كما يقول المسيَّا عن نفسه في سفر اشعياء "**رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّ الرَّبَّ** مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ" (إصحاح ٦١: آية ١). ومن بين الاختلافات الهامَّة كذلك وعد الكتاب المقدَّس المؤمنين بالمسيَّا ممَّن ضحُّوا بحياتهم من أجل نشْر رسالته وثبتوا أمام الفتن والأذى، بأن يشاركوه الحُكم لمدَّة ألف سنة "رَأَيْتُ عُرُوشًا فَجَلَسُوا عَلَيْهَا، وَأُعْطُوا حُكْمًا. وَرَأَيْتُ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ يَسُوعَ وَمِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْجُدُوا لِلْوَحْشِ وَلاَ لِصُورَتِهِ، وَلَمْ يَقْبَلُوا السِّمَةَ عَلَى جِبَاهِهِمْ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ، فَعَاشُوا **وَمَلَكُوا مَعَ الْمَسِيحِ أَلْفَ سَنَةٍ**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ٢٠، آية ٤). أمَّا عن فترة مُلك المهدي، المخلِّص المسلم، فهي تتراوح بين خمس وتسع سنين، والرأي الأكثر شيوعًا هو أنَّ مُلكه سبع سنين، استنادًا إلى الحديث الصَّحيح، عن أبي سعيد الخُدري (رضي الله عنه وأرضاه) الوارد في **المستدرك على الصَّحيحين** للحاكم، أنَّ النبيَّ (ﷺ) قال "الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى الأَنْفِ يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا **يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ**".

لا يتوقَّف الأمر عند مشاركة مَن يشهدون ظهور المسيَّا المخلِّص إيَّاه في حُكم الألف سنة، إنَّما يمتدُّ إلى إحياء مَن مات من المؤمنين به قبل موتهم ليهنؤوا في زمنه "**تَحْيَا أَمْوَاتُكَ، تَقُومُ الْجُثَثُ.** اسْتَيْقِظُوا، تَرَنَّمُوا يَا سُكَّانَ التُّرَابِ" (سفر اشعياء: إصحاح ٢٦، آية ١٩). غير أنَّ الله تعالى قد حصر في قرآنه القدرة على إحياء الموتى في نفسه، مصداقًا لقوله "وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ

بِأَمْرِهِ **ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ**" (سورة الرُّوم: الآية ٢٥)، ولقوله "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" (سورة يس: آيتان ٧٨-٧٩).

انطلاقًا من إيمان الغرب المسيحي بعقيدة ألفيَّة المسيًّا، أو المسيح الذي يؤمن بعض أهل الكتاب بأنَّه هو المخلِّص المذكور في سفر اشعياء بينما لا يعترف بذلك آخرون، بدأ الإعداد لسيطرة أتباع المخلِّص على العالم، بتأسيس مملكة عالميَّة بعد القضاء على سائر ملوك الأرض، ممَّن يُهلكهم المسيًّا، بوصفه "**مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ**" جميعًا، ويجعل لحومهم غنيمة للطَّير "مِنْ فَمِهِ يَخْرُجُ سَيْفٌ مَاضٍ لِكَيْ يَضْرِبَ بِهِ الأُمَمَ. وَهُوَ سَيَرْعَاهُمْ **بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ**، وَهُوَ يَدُوسُ مَعْصَرَةَ خَمْرِ سَخَطِ وَغَضَبِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَلَهُ عَلَى ثَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ اسْمٌ مَكْتُوبٌ: «مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ». وَرَأَيْتُ مَلاَكًا وَاحِدًا وَاقِفًا فِي الشَّمْسِ، فَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا لِجَمِيعِ الطُّيُورِ الطَّائِرَةِ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ: «هَلُمَّ اجْتَمِعِي إِلَى عَشَاءِ الإِلهِ الْعَظِيمِ. لِكَي **تَأْكُلِي لُحُومَ مُلُوكٍ، وَلُحُومَ قُوَّادٍ، وَلُحُومَ أَقْوِيَاءَ، وَلُحُومَ خَيْلٍ وَالْجَالِسِينَ عَلَيْهَا، وَلُحُومَ الْكُلِّ: حُرًّا وَعَبْدًا، صَغِيرًا وَكَبِيرًا**. وَرَأَيْتُ الْوَحْشَ وَمُلُوكَ الأَرْضِ وَأَجْنَادَهُمْ مُجْتَمِعِينَ لِيَصْنَعُوا حَرْبًا مَعَ الْجَالِسِ عَلَى الْفَرَسِ وَمَعَ جُنْدِهِ..**وَالْبَاقُونَ قُتِلُوا بِسَيْفِ الْجَالِسِ عَلَى الْفَرَسِ الْخَارِجِ مِنْ فَمِهِ، وَجَمِيعُ الطُّيُورِ شَبِعَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٩، آيات ١٥-٢١).

من أجل تأسيس تلك المملكة العالميَّة، حشد أبناء الغرب جهودهم في سبيل تطوير مصادرهم المعرفيَّة، ودعمها بكافَّة ما يمكن أن يخدمهم من علوم تطبيقيَّة وفلسفات نظريَّة في تحسين أوضاعهم الحياتيَّة الدُّنيويَّة، في تناسٍ تامٍّ لحقيقة زوال الدُّنيا وآنيَّة نعيمها، ولكن كيف لا يتناسون تلك الحقيقة والكتاب المقدَّس يعد بنعيم أبدي فور ظهور المخلِّص، الذي "**يَبْلَعُ الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ**" (سفر اشعياء: إصحاح ٢٨، آية ٨)؟ بدأ ازدهار الغرب في مجال العلوم في القرن

الرَّابع عشر الميلادي، مع عصر النَّهضة الأوروبيَّة، والذي أفضى لاحقًا إلى تطوير تقنيات غيَّرت وجه الحياة في العالم. ازداد الغرب ازدهارًا علميًّا في القرون اللاحقة، وبخاصَّة في عصر التَّنوير الأوروبي، في القرنين السَّابع عشر والثَّامن عشر للميلادي؛ ليبدأ عصر جديد من التقدُّم التقني، ارتبط بالانحلال الأخلاقي والدَّعوة إلى فصل الدِّين عن الدَّولة، فيما عُرف بعصر الحداثة العلماني (Secular Modernism).

يرى الدُّكتور بهاء الأمير، مؤرِّخ الحركات السريَّة والخبير في العقائد الباطنيَّة، أنَّ العلوم التي استند إليها الغرب في تحقيق نهضته مستمدَّة في الأصل من التُّراث الباطني اليهودي، المعروف بـ "القبَّالة–Kabbalah"، وفي هذا يقول الأمير في كتابه **تفسير القرآن بالسِّريانيَّة: أكاذيب ودسائس** (٢٠١٧) عن عصر النَّهضة أنَّه "كان إيطاليًّا في مكانه وغلافه، **يهوديًّا قباليًّا إسبانيًّا في قلبه وفحواه**" (ص٣٧٣). وبالإشارة إلى التأثير الإسباني على عصر النَّهضة، فالمقصود هو ما أخذه اليهود الأندلسيِّين عن علماء المسلمين، في أوج الازدهار العلمي والحضاري لدولة الإسلام في الأندلس على مدار سبعة قرون، قبل سقوطها بالكامل عام ١٤٩٢ ميلاديًّا.

يضيف الأمير في الكتاب ذاته (٢٠١٧)، أنَّ أسرة دي مديتشي (De Medici)، التي يُرجع إليها الفضل في تدشين عصر النَّهضة وإثرائه بالعلوم والفلسفات من أُسر اليهود الخفيِّين، ممَّن أخذوا على عاتقهم "**نشْر الإلحاد والإباحية، وبعْث الفلسفة الإغريقيَّة والأفكار الوثنيَّة، ونشْر التعاليم القباليَّة، وإعادة تكوين كل شيء في أوروبا بها، الأخلاق والمعتقدات والعلوم والفنون والآداب**" (ص٣٧٣). بعد أن كان مركزًا للعلوم والحضارة أثرى العالم كلَّه بفيض معارفه، وقع العالم الإسلامي، وبخاصَّة بلاد المغرب العربي، فريسة في أيدي الحركات السرِّيَّة لليهود الصرحاء والخفيِّين، ممَّن غزوه بالقبَّالة وأفكارها "وما يرتبط بها من فنون السحر والتنجيم والتأثير والتخييل، مغلَّفة بالكتابة العربيَّة، ومطعَّمة بالآيات

القرآنيَّة، **ومموَّهة في بعض الطرق الصوفيَّة**" (ص٣٧٥). وبعد أن كان العالم الإسلامي مصدرًا للعلوم، صار متلقِّيًا للعلوم التقنيَّة الغربيَّة، ومتهافتًا على منجزات عصر الحداثة من منتجات استهلاكيَّة جعلت منه عبدًا لها.

لم يفت الغرب، الذي يدَّعي العلمانيَّة في الظَّاهر، بينما يؤمن تمام الإيمان بعقيدة المسيَّا المخلِّص ويتَّبع تمام الاتِّباع لنبوءات الكتاب المقدَّس في تشكيل سياساته واتِّخاذ قراراته الحربيَّة في واقع الأمر، أن يقضي على عناصر القوَّة في العالم الإسلامي، وأهمها العقيدة الإسلاميَّة الحقَّة وما يرتبط بها من شريعة سماويَّة سنَّها الله تعالى لتنظيم حياة عباده. وإغراءً باللحاق بركب المدنيَّة، وتحقيق منجزات حداثيَّة تضاهي ما أنجزه الغرب، دعا قياصرة هذا الزَّمان وأكاسرته إلى تنحية الشَّريعة الإسلاميَّة جانبًا، وتطبيق العلمانيَّة الحداثيَّة، باستبدال دولة الخلافة الإسلاميَّة بدولة مدنيَّة حديثة، تستند إلى القوانين الوضعيَّة، وتطبِّق الدِّيموقراطيَّة الليبراليَّة.

أشار كتاب "**ليسوؤوا وجوهكم**": **القبَّالة في ميزان القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة** (٢٠١٩) باستفاضة، وتحديدًا في المقال السَّادس (ص٤٥٤)، إلى مكائد الماسونيَّة وعملائها لإسقاط دولة الخلافة العثمانيَّة. أوضح المقال دور اليهود في إفساد فترة حُكم السُّلطان عبد الحميد الثَّاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)، برغم جهوده المضنية لإنقاذ الدَّولة في فترة أفولها. وربَّما كان لرفض عبد الحميد الثَّاني بيع الأرض المقدَّسة لليهود، لتأسيس وطني قومي في الظَّاهر، وللتهيئة لمملكة المخلِّص بعد بناء الهيكل الثَّالث في موضع مصلَّى قبَّة الصَّخرة في المسجد الأقصى في حقيقة الأمر، عظيم الأثر في عداء اليهود لآخر دول الخلافة الإسلاميَّة.

يرجع الفضل، بعد الله تعالى، إلى الدُّكتور بهاء الأمير، مقدِّم الكتاب، في تبيين صحَّة انتماء دولة آل عثمان إلى دولة الإسلام، وصدْق اعتبارها دولة خلافة إسلاميَّة؛ لاحتكامها إلى الشَّريعة الإسلاميَّة، برغم خروجها، مثل الدَّولتين الأمويَّة

والعبَّاسيَّة، عن مبدأ الشُّورى في بيعة الخليفة بتوريث الحُكم. وقد أوضح الأمير رأيه في مقال "الخلافة والمُلك والدَّولة العثمانيَّة وبلاليص ستان" (٢٠١٩م)، موجِّهًا نقدًا لاذعًا لمن أطلق عليهم "الأغرار وأهل الكهف" ممَّن ينكرون خلافة آل عثمان (ص٢٠). يميِّز الأمير بين "تركيا الكماليَّة" التي طبَّقت نظامًا علمانيًّا محاربًا للإسلام، وبين الدَّولة العثمانيَّة، التي ظلَّت تحتكم إلى الشَّريعة الإسلاميَّة حتَّى أواخر عهدها، قبل أن يبدأ محمَّد الخامس، أخ عبد الحميد الثَّاني ووريث عرشه بعد إجباره على التنحِّي على يد اليهود عام ١٩٠٩ ميلاديًّا، محاكاة المؤسَّسات الغربيَّة والاستناد إلى القوانين الوضعيَّة، برغم تعهُّده بتشكيل "حكومة دستوريَّة استشاريَّة" عملًا بـ "الشَّريعة المطهَّرة، وبالعقل والنَّقل معًا"، نقلًا عن المستشرق اليهودي الشَّهير برنارد لويس في مقاله " Islam and Liberal Democracy: A Historical Overview–الإسلام والدِّيموقراطيَّة الليبراليَّة: نظرة تاريخيَّة عامَّة"، المنشور عبر مجلَّة ذا أتلانتيك (The Atlantic) الأمريكيَّة، في عدد فبراير ١٩٩٣ ميلاديًّا. عودةً إلى مقال الأمير (٢٠١٩م) آنف الذِّكر، فقد لخَّص رأيه في منكري خلافة آل عثمان في العبارة التَّالية، ونسأل الله ألَّا يجعلنا منهم بإرشادنا إلى الرَّأي السديد (ص١٣):

> وبعض هؤلاء الموظفين ومشايخ البلاط ومن يتلقفون عنهم من العوام تلتبس عندهم الدولة العثمانية بتركيا الكمالية، فيكون الكلام عن الدولة العثمانية وموقعها من الإسلام وتاريخه ودوله، ثم إذ فجأة تجد أحد هؤلاء الأغرار قد خرج من الكهف الذي يقبع فيه ليرد على ذلك بالطعن في تركيا وكَيْل التهم لأردوغان.

يتكوَّن الجزء الأوَّل من الكتاب، الذي يحمل العنوان الفرعي "وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ"، من ثلاثة مقالات. يتناول المقال الأوَّل طبيعة الدَّعوة إلى المسيحيَّة، بداية من زمن رُسُل المسيح، وتطوُّر الدَّعوة إلى ما أصبحت عليه حملة التَّبشير العالميَّة اليوم. أمَّا المقال الثَّاني، فموضوعه "الإسلاموفوبيا"، أو رُهاب الإسلام، باعتباره استراتيجيَّة خبيثة تستهدف التنفير من الإسلام؛ لتركه باعتناق المسيحيَّة أو، على الأقل، لإثناء غير المسلمين عن اعتناقه. في حين يرصد المقال

الثَّالث، وهو الأطول والأكثر تشعُّبًا، صراع الحداثة الغربيَّة مع المسلمين، والتحديات التي تواجه العالم الإسلامي، في خضّم الدَّعوة إلى نشر العلمانيَّة وتكوين دين عالمي جديد يتنافى بالكليَّة مع صحيح الإسلام.

في النهاية، تطرأ على الذِّهن مجموعة من التساؤلات، الردُّ عليها متروك لمَن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد:

-مَن هم "الْمُفْسِدُونَ" الذين يعملون على إعادة تشكيل هويَّة العالم تحت زَعم إزالة الحواجز بين الأمم وتعزيز التواصل الإنساني، وعلى نشْر الفواحش والمنكرات تحت مُسمَّى الدِّفاع عن الحريَّات، وعلى تجريم العمل وفق الشَّريعة السماويَّة الحقَّة في سبيل تطبيق الدِّيموقراطيَّة الليبراليَّة في ضوء قوله تعالى "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا **إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** (١١) أَلَا **إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ** وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)" (سورة البقرة)؟

-لماذا قرَنَ الله تعالى التهافت على متاع الدُّنيا بالكفر بالآخرة والخسران فيها، مصداقًا لقوله تعالى "مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)" (سورة هود)؟

-مَن هم الذين ذكرهم الله في خواتيم سورة (مريم) بأنَّهم "قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨)"؛ فذمَّ الله تعالى فعلهم " لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣)"، وتوعَّدهم بالهلاك واختصَّهم به دون عباده المتَّقين "فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)"؟

-على أيِّ أمَّة حقَّقت منجزات هائلة في مجال العلوم اقترنت بشركها بالله وكفرها بالآخرة، ينطبق قول الله تعالى في خواتيم سورة (غافر) "فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)"؟ وهل كلِّ أمَّة اتَّبعت هذا النَّهج مصيرها خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة؛ كون ذلك المصير "سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ"، مصداقًا لقوله تعالى "فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)" (سورة غافر)؟

-هل يقصد النبيُّ (ﷺ) بحديثه "واللَّهِ ما الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلَّا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هذِه، وأَشارَ يَحْيَى بالسَّبَّابَةِ، في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بمَ تَرْجِعُ" (صحيح مسلم: ٢٨٥٨) أنَّ غاية طلب العلم هي الاستغناء عن السُّؤال، وتحقيق الكفاية، والتزُّود بما يخدم حياة الإنسان الأبديَّة في الآخرة، والحفاظ على الإيمان، والثَّبات على الدِّين، وليس الانغماس في متاع الدُّنيا ومقايضة إرضاء جبابرة العصر بالتوقُّف عن العمل بالشَّريعة لتطبيق العلمانيَّة؟

-إذا كان قول الله تعالى في سورة آل عمران "**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**" (الآية ٤٩) يتَّفق مع ما ورد في إنجيل متَّى "**لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ**" (إصحاح ١٥: آية ٢٤) في انحصار رسالة المسيح، عيسى بن مريم أو يسوع النَّاصري، في "**بَنِي إِسْرَائِيلَ**" أو "**بَيْتِ إِسْرَائِيلَ**"، من أين تستمدُّ حملة التَّبشير العالميَّة، التي تستهدف تهيئة العالم لألفيَّة المخلِّص، شرعيَّتها؟

-ألا ينطبق على مَن يعتبرون أنَّ المصادر الثَّابتة للوحي الإلهي، وهي القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة، لا تتناسب مع كلِّ زمان ومكان، وأنَّ إدخال الفلسفات المستمدَّة من العقائد الوثنيَّة على العقيدة الإيمانيَّة هو الأنسب لزمننا هذا، وأنَّ الاهتداء إلى الحقِّ لا يأتي إلَّا من خلال الانخراط في جلسات تأمُّليَّة تنهال خلالها الفيوضات الرَّبانيَّة وتتكشف الحقائق الكونيَّة، قول الله تعالى "إِن

يَتَّبِعُونَ إِلَّا **الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ** وَلَقَدْ جَاءَهُم **مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى**" (سورة النَّجم: الآية ٢٣)؟

-هل صدَق السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، الذي خُلع من الحُكم بفعل مكائد الماسونيَّة العالميَّة وعلى يد عملائها وقُيِّدت حركته ٩ سنوات بقي خلالها تحت الإقامة الجبريَّة، لمَّا قال "**بعْث الأمَّة من جديد ليس في تقليد المدنيَّة الأوروبيَّة، إنَّما في العودة إلى أساس قوَّتنا، وهو الإسلام**"؟ وهل أصاب سلفه، السُّلطان سليم الثَّالث لمَّا أعلن الجهاد ضدَّ الحملة الفرنسيَّة، واصفًا أعضاء بأنَّهم "كفَّار لا يؤمنون بالآخرة"؟



محمَّد عبد المحسن مصطفى
طالب علم في مجال الدّيانات المقارَنة بالإسلام
١٨ جمادى الآخرة ١٤٤١هـ/١٢ فبراير ٢٠٢٠

أهم وسائل الغزو الفكري للإعداد لألفيَّة المسيَّا: التَّبشير والاستشراق

بسم الله الرحمن الرحيم

"**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلك لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ" (٥٠)** (سورة آل عمران: آيات ٤٨–٥٠)

"**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلك بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)**" (سورة المائدة: الآية ٧٨)

"**هؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً: «إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ**" (إنجيل متَّى: إصحاح ١٠، آيات ٥–٧)

"**فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ** وَعَمِّدُوهُمْ **بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ**" (إنجيل متَّى: إصحاح ٢٨، آية ١٩)

مقدِّمة

بعد أن استعرض كتاب "**لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ**": **القبَّالة في ميزان القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة** (١٤٤٠هـ–٢٠١٩م) تطوُّر عقيدة بني إسرائيل، منذ انحرافها عن صحيح الرسالة السماويَّة بعد العودة من السبي البابلي ومرورًا بتأثيرات أهل كهوف قُمران، ونشأة عقيدة المخلِّص وما يرتبط بها من طقوس تأمليَّة تشابه العديد من طقوس الأمم الوثنيَّة التي تأثَّر بها بنو إسرائيل؛ وبعد الإشارة إلى تأثُّر عقيدة بني إسرائيل بعقائد ثيوصوفيَّة، على رأسها القبَّالة؛ وبعد الكشف عن جذور القبَّالة، والإشارة إلى دعوتها إلى نشر علومها وطقوسها تمهيدًا لاستقبال المخلِّص

في آخر الزمان؛ يأتي الدور على رصد وسائل نشر تلك العلوم والطقوس لكي تحلَّ محلَّ العقيدة السماويَّة وتهيِّئ العقول لاستقبال آدمي يُعبد من دون الخالق باعتباره تجسيدًا له بعد حلول الرُّوح القُدُس عليه.

تتعقَّب هذه الدراسة نشأة الدعوة إلى اعتناق المسيحيَّة والإيمان بعقيدة الفادي المخلِّص، وتلقي الضوء على أهم مؤسِّسيها، وإن كان معظم علماء مقارنة الأديان اتَّفقوا على أنَّ بولس الرَّسول هو أوَّل مبشِّر بالمعنى المتعارف عليه، كما أجمعوا على أنَّ تأثُّره بالعقائد الفلسفيَّة الشرقيَّة السائدة في موطن ميلاده–طرسوس الواقعة جنوبي الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة–له الإسهام الأكبر في تشكيل العقيدة المسيحيَّة بمفهومها السائد إلى اليوم. وتعتمد الدراسة على إسهامات مفكِّرين إسلاميِّين أسهموا في درء شبهات الغرب، ودحض مزاعم المستشرقين عن الإسلام، وبلورة افتراءات أعداء الدين على الرسالة السماويَّة، وعلى رأسهم الشيخ محمَّد الغزالي، والشيخ عبد الجليل عبده شلبي، والإمام عبد الحليم محمود.

١.أهداف التَّبشير والاستشراق: إخراج المسلمين من الظلمات إلى النور، أم...؟

اجتهد الغرب غير المسلم منذ فشل الحملات الصليبيَّة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ميلاديًّا في سدِّ الثغرات، وإزالة العقبات التي تحول دون تحقيق هدفه الأساسي بإخضاع العالم الإسلامي إلى سُلطانه، واستعادة أراضي المشرق الإسلامي، التي حكمها على مدار قرون قبل الإسلام. تعلَّم الغرب من خطئه السابق حينما غزا العالم الإسلامي قبل تحريف المسلمين عن عقيدتهم وسحق ثقافتهم واستبدالها بالثقافة الغربيَّة المتعارضة مع صحيح الإسلام في أغلب سماتها. ولذلك، طُبِّقت وسائل للغزو الفكري تتوافق مع مختلف درجات التعليم والثقافة؛ فأُطلقت إرساليَّات تبشيريَّة تستهدف البسطاء ومتواضعي التعليم، كما جُنِّد علماء ومثقَّفون لإقناع المثقَّفين من المسلمين بتأخُّر ثقافتهم عن ركب المدنيَّة، وباحتواء عقيدتهم على تناقضات تهدِّد سلامتها، بل وبأنَّ الإسلام لم يعد يصلح لهذا الزمان؛ أي أنَّ من يريد اللحاق بقطار الحداثة والمدنيَّة عليه بالتخلِّي عن أصول دينه واتِّباع ملَّة الغرب.

حرص الدكتور عبد الجليل عبده شلبي-أستاذ الشريعة الإسلاميَّة ومقارنة الأديان والأمين العام الأسبق لمَجمع البحوث الإسلاميَّة-في كتابه **الإرساليَّات التَّبشيريَّة: كتاب يبحث في نشأة التَّبشير وتطوُّره وأشهر الإرساليَّات التَّبشيريَّة ومناهجها** (١٩٩٨) على إيضاح الفرق بين طبيعة التَّبشير والاستشراق، مبيِّنًا أنَّ الاستشراق أحد أفرع التَّبشير التي استقلَّت لاحقًا لتصبح مجالًا منفصلًا للبحث يستهدف استمالة عقول الدارسين والمفكِّرين. لم يتخلَّ المستشرقون عن تجارب المبشِّرين في دراساتهم لعقليَّة المسلمين، كما بدأ كثيرٌ منهم دراسة العربيَّة ثمَّ الثقافة الإسلاميَّة بعد خبرتهم في مجال التَّبشير؛ **والسبب في ذلك صعوبة إقناع عامَّة المسلمين بضرورة التخلِّي عن دينهم إلَّا بإقناعهم بمواطن الضعف فيه. قد تنطلي بعد الادعاءات على السذَّج والأميِّين، ولكن ليس على المتعلِّمين.**

ويبدأ الدكتور شلبي دراسته المستفيضة عن نشأة التَّبشير بالإشارة إلى عدم صحَّة اعتقادات مُسلَّم بها في المسيحيَّة، من بينها سنة ويوم ميلاد المسيح. يوضح شلبي أنَّ المسيح عيسى بن مريم-عليه وعلى سائر أنبياء الله ورسله أزكى الصلوات وأتم التسليم-لم يولد في الخامس والعشرين من ديسمبر، هو أيضًا لم يولد في العام الأول من الألفيَّة الأولى وفق التأريخ الميلادي، من المرجَّح أنَّ ميلاد نبي الله عيسى كان قبل ذلك الموعد بأربعة أو ستة أعوام. ويكمن سبب عدم وجود رواية ثابتة عن تاريخ مولده إلى نُدرة التفاصيل عن حياته قبل بعثته في المصادر الإسلاميَّة. أمَّا بخصوص ما ورد عن يسوع في المصادر المسيحيَّة، فالقصَّة التي سردتها الأناجيل هي أنَّ مريم وخطيبها يوسف النجار كانا من سكان قرية الناصرة في بيت لحم، وكلاهما من نسل الملك داود، أي من سبط يهوذا بن يعقوب. وفق الأناجيل الثلاثة الأولى-متَّى ومرقس ولوقا-جاء الملاك لمريم ليهبها غلامًا، دون اتصال جسدي بأي رجل، وقد تزامن ذلك مع حملة شنَّها الإمبراطور هيرودس لإحصاء الحوامل، تخوُّفًا من ظهور طفل من أبناء بني إسرائيل سيهدم ملكه. وضعت مريم الغلام، وأسمته يسوع-الخلاص بلغة قومها-وذهبت به إلى الهيكل في أورشليم، ثم عادت به إلى الناصرة. خوفًا على رضيعها من بطش الإمبراطور الذي أراد قتل صبيان بين إسرائيل، استجابت مريم ليوسف المجَّار حينما أراد أن يصحبهما إلى مصر، تنفيذًا لأمر الملاك الذي ظهر ليوسف

وطلب منه ذلك. بقي الثلاثة في مصر حتَّى عاد الملاك إلى يوسف ليخبره بموت الإمبراطور، عادوا جميعًا إلى الناصر. وهناك، شبَّ يسوع وظهرت عليه علامة الفطنة ورجاحة العقل وفصاحة اللسان. عمَّد القديسُ يوحنَّا المعمدان يسوعَ في نهر الأردن وهو ابن تسعة وعشرين عامًا تقريبًا، وبعدها سُجن يوحنَّا، ليعلن يسوع عن دعوته التي أثارت ضدَّه بني إسرائيل وأدَّت إلى اضطهاده، ومن ثمَّ صَلبه. وقد أوضح في الفصل الأوَّل أنَّ ما يتعلَّق بيوم ميلاد المسيح والظروف المحيطة بالميلاد هو في الأصل مُستمد من الهندوسيَّة والبوذيَّة وعقائد شرقيَّة أخرى.

٢.بداية دعوة المسيح وانطلاق رحلة التَّبشير بعد وفاته

ما يتعلَّق بحياة يسوع في الأناجيل بمسألة التَّبشير هي أنَّه بدأ رحلة **التكريز**–أي التَّبشير– أسوةً بيوحنَّا، الذي روى إنجيل متَّى أنَّه كان "**يَكْرِزُ** فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّة. قَائِلاً: «**تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ**. فَإِنَّ هذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً»" (إصحاح ٣: آيات ١–٣). في ذلك الحين، استجابت فئة من بني إسرائيل، وكان عبارة عن فرق مختلفة المذاهب من اليهود، لدعوة يوحنَّا، وكان يسوع من بينهم. جاء يسوع إلى يوحنَّا طالبًا التعميد، مثل باقي القوم. وبعد أن انتهى تعميد يسوع، وقعت معجزة نزول الروح القُدُس عليه، كما يروها إنجيل متَّى "**فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللهِ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ**" (إصحاح ٣: آية ١٦). وبعد نزول الروح القُدُس والتحامه بجسد يسوع، جاءت مباركة الرب للابن الذي اتَّحد معه من خلال اشتراكهما في الروح: "وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: «هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ»" (إصحاح ٣: آية ١٧).

بدأت رحلة يسوع التَّبشيريَّة، وكانت مدينة الجليل مهد دعوته، والبطش بيوحنَّا المعمدان المحفِّز له: "وَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ أَنَّ يُوحَنَّا أُسْلِمَ، انْصَرَفَ إِلَى الْجَلِيلِ" (إنجيل متَّى: إصحاح ٤: آية ١٢). تجاوز يسوع بعد ذلك اختبارات الشيطان ليكفر بالربِّ ويتخِّذه وليًّا له، و "مِنْ ذلِكَ الزَّمَانِ **ابْتَدَأَ يَسُوعُ يَكْرِزُ وَيَقُولُ: «تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ»**" (إنجيل متَّى: إصحاح ٤: آية ١٧). ويوضح إنجيل متَّى طبيعة نشاطه التَّبشيري "كَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ كُلَّ

الْجَلِيلِ يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهِمْ، **وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ فِي الشَّعْبِ**" (إصحاح ٣: آية ٢٣). وأسهبت الأناجيل في سرد معجزات يسوع في شفاء المرضى وإحياء الموتى والنجاة من المآزق، لكنَّها لم تتناول معجزتين ذكرهما القرآن الكريم، وهما الكلام في المهد وخلق الطير من الطين (شلبي، ١٩٩٨، ص٢٤).

وُلد نبي الله عيسى في مرحلة عصيبة في تاريخ بني إسرائيل؛ فقبل ميلاده بحوالي سبعة عقود، انهارت مملكة يهودا، التي حكمتها السلالة الحشمونيَّة–تُعرف أيضًا بالسلالة المكابيَّة، نسبةً إلى يهوذا المكابي بن الكاهن متياس–على يد الرومان بعد احتلالهم المملكة عام ٦٣ قبل الميلاد. ولكسب الشرعيَّة والتأييد اليهودي–والنسبة هُنا إلى مملكة يهودا، وليس الديانة اليهوديَّة–تزوَّج إمبراطور يهودا الروماني، هيرودس الكبير، الأميرة مريم الحشمونيَّة، إلا أنَّه أعدمها لاحقًا، ومعها أبناءه منها، وباقي أفراد السلالة الحشمونيَّة، وفق ما ترويه موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة. ويروي كتاب **حياة يسوع المسيَّا وزمنه– The Life and Times of Jesus the Messiah** (١٨٨٣)، للعالم اللاهوتي ألفريد إيدرشيم، إلى أنَّ إحلال الاستقرار والأمن في فلسطين في تلك المرحلة كان صعبًا، وبخاصة مع تزامُن ذلك بمرور الدولة الرومانيَّة باضطرابات داخليَّة. لم يكن هيرودس ليُخضع بني إسرائيل إلَّا بزواجه من بناتهم؛ نظرًا لبغض بني إسرائيل حينها تجاه الرومان، وتحالفهم مع الفرس ضدَّهم في الحروب. وكوفئ هيرودس على ذلك بتنصيبه ملكًا على يهودا والجليل والناصرة. وقد عانى بنو إسرائيل في ظلِّ حُكم الرومان ظلمًا فادحًا؛ بسبب استحواذ الحكام على الخيرات واستعبادهم الشعب، ناهيك عن الضرائب الباهظة، والمعاملة الدونيَّة؛ فانتظروا المخلِّص الموعود به في أسفار صموئيل الثاني واشعياء ودانيال وزكريًّا، وغيرها، ليُظهرهم على الأمم، ويُهلك عدوَّهم، ويحكم العالم معهم.

من المعروف أنَّ بني إسرائيل قد انحرفوا عن صحيح دينهم والرسالة الموسويَّة بسبب تأثيرات الاحتكاك بالوثنيِّين من أبناء بابل وآشور. ترك بنو إسرائيل الرسالة الحقَّة التي جاءهم بها أنبياء الله موسى وهارون وداود وسليمان، وغيرهم من الأنبياء، فاتَّخذوا العقيدة التي توافق هوى أنفسهم، وهي عبادة آلهة الأمم الوثنيَّة، وبخاصة بعل وعشتروت، الثنائي الإلهي

البابلي. ويعترف كتَّاب أسفار الملوك وأخبار الأيَّام بأنَّ هذا الشرك بالله الواحد الأحد كان السبب وراء ما أصابهم من ذلٍ، وانتهى بهم إلى الوقوع سبايا في يد البابليِّين منذ نهاية القرن السابع إلى وسط القرن السادس قبل الميلاد. وبعد عودتهم من السبي البابلي، أعاد بنو إسرائيل كتابة التوراة؛ غير أنَّ ما ورد في تلك النسخة شُهد بتحريف، والشاهد الأكبر هو تناقضه الجلي مع ما جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة. مع ذلك، احتفظ بنو إسرائيل، ولو في الظاهر، بإيمانهم بوحدانيَّة الربِّ، ورفضوا اعتناق عقيدة الرومان الوثنيَّة، كما يروي سفرا المكابيِّين.

يرى الدكتور شلبي أنَّ دعوة المسيح جاءت لتلبية احتياجات تلك المرحلة العصيبة في تاريخ بني إسرائيل، بعد خضوعهم إلى قوَّة أجنبيَّة وثنيَّة، في الوقت الذي يرون فيه أنفسهم سادة العالم الذين سيخرج من بينهم من يُخضع ملوك الأرض لسلطان اليهود. تشبَّث بنو إسرائيل بعقيدتهم المستمدَّة من أسفار العهد القديم، المكتوبة بعد العودة من السبي البابلي وتحت تأثير احتكاكهم بالوثنيِّين من أهل تلك البلاد. وكما سبقت الإشارة في حالة هيرودس والسنهدرين، نشبت خلافات بين الحكام الرومان وحكماء بني إسرائيل، وأراد كلٌّ فريق إثبات نفسه، ووصل الأمر إلى حدِّ سعي اليهود إلى إشعال ثورة ضدِّ الرومان، واعتقدوا أنَّ المسيَّا، الذي حان وقت ظهوره وفق حساباتهم، سيُظهرهم على كافَّة الأمم. ومع انتشار الظلم المتمثِّل في أكل الصيارفة اليهود أموال الناس بالباطل، واتِّساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء، وقبل هذا وذاك رفض الكتبة والفريسيِّين والصدوقيِّين من اليهود ما جاء به الأنبياء، قبل المسيح، كان المشهد في أمسِّ الحاجة إلى قول فصل يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وتركَّزت دعوة المسيح على التسامح وفتح باب التوبة أمام العصاة، بعد أن أغلقها الأحبار وتشدَّدوا في فرض العقوبات على الخاطئين، كما دعت إلى فهم المقصود بما جاء في نصوص العهد القديم، وليس الالتزام بالتفسير الظاهري.

في نفس السياق، يتناول المؤرِّخ الديني المتخصِّص في تاريخ المسيحيَّة شارل جينيبير في كتابه Le Christianisme antique (١٩٢١)، والذي نشره الإمام عبد الحليم محمود–شيخ الأزهر الأسبق وأستاذ الفلسفة الإسلاميَّة ومقارنة الأديان–باسم **المسيحيَّة: نشأتها**

وتطوُّرها، نشأة المسيحيَّة دراسة تاريخيَّة، وليست دينيَّة، على اعتبار أن تطوُّر الديانة يحتاج إلى دراسة الأبعاد التاريخيَّة للزمن الذي نشأت فيه.

ويضيف جينيبير (١٩٢١) أنَّ كتابة الأناجيل بدأت في الثلث الأخير من القرن الميلادي الأول، لكنَّهت لم تكن سوى "عناصر شتَّى مشوَّشة من حياة كما تصوَّرها المسيحيُّون عندما أوشك جيل أصحابه على الانقراض. **وقد حاول المحرِّرون المتتابعون لتلك الأناجيل...أن ينسِّقوا رواياتهم، ويُدخلوا عليها شيئًا من الانسجام**" (ص٢٨). غير أنَّ المحرِّرين تعرَّضوا لمعضلة كبيرة، وهي "صعوبة التمييز بين الأحداث التاريخيَّة وبين تلك التي فرض الإيمان وقوعها"، لتقل "بين الذكريات الحقيقيَّة الحيَّة وبين الوحي الإلهي" (ص٢٨). اختلفت الحكم من رواية إلى أخرى، كما لم تكن وثيقة الارتباط بالسياق الذي قيلت فيه. أمَّا عن السيرة الذاتيَّة، فلم تكن سوى حكايات متناثرة لا رابط بينها، كما لم تعطِ صورة كاملة عن يسوع (ص٢٨). وكانت مهمَّة محرِّري الأناجيل التنسيق بين تلك الروايات، واختيار المرتبط منها ببعضه. ونأتي إلى أهم عنصر في الأناجيل في تشكيل عقيدة المسيحيَّة، وهو الصلب، والذي يرى جينيبير أنَّ تناوُله بدا مشوَّشًا بسبب مرور زمن طويل ما بين حدوثه وتدوين الأناجيل، وكان استجماع أحداثه من الذاكرة مشوبًا بشيء من عدم الارتباط. ويضيف الكاتب أنَّ أحداث الصلب تأثَّرت في مخيِّلة المحرِّرين بـ "الأساطير المختلفة الشائعة في الشرق" (ص٢٩).

نشأ يسوع بعيدًا عن أفكار الكتبة من بني إسرائيل، وكذلك لم يتأثَّر بفِكر الفريسيِّين، فكانت دعوته الامتداد الطبيعي لما جاء به الأنبياء السابقون، ورسالته هو تجديد رسالة الأنبياء من آل إبراهيم، بلا تأثيرات شرقيَّة أو غربيَّة. كما تروي الأناجيل، اضطر يسوع للتبشير بدعوته بعد سجن يوحنَّا؛ فما كان ليترك التَّبشير بالملكوت برغم التضييق والاضطهاد. يشير جينيبير (١٩٢١) إلى أنَّ يسوع "لم يؤسس شيئًا جديدًا: لم يأتِ بدين جديد، ولا حتَّى بأيٍّ من طقوس العبادة جديد. لم يأتِ إلَّا بتصوُّر جديد للتقوى في إطار الديانة اليهوديَّة، تلك الديانة التي لم يزعم قط أنَّه يبغي التغيير من معتقدات، أو من شرعها وشعائرها. اعتمدت تعاليمه على فكرة حلول مملكة الله التي آمن بها هو كما آمن بها سائر مواطنيه، إلَّا فهمها وعبَّر عنها بطريقته

الخاصَّة. ويجدر بنا الإشارة إلى أنَّ هذه الطريق الخاصَّة نفسها قد لا تكون أصيلة لديه، بل لعلَّه أخذها عن غيره من سابقيه. أمَّا أن تُنسب إليه إرادة تأسيس كنيسة...تكون كنيسته هو...كنيسة تختص بالعبادات والطقوس التي يعينها لها ويظهر فيها رضاه عنها...كنيسة يمهِّد لها فتْح الأرض جميعًا...فهذا قول لا يقره واقع الأحداث، ولا صريح التسلسل التاريخي" (ص٤٨). ويضيف الكاتب بخصوص التَّبشير بدعوة يسوع في كافَّة أنحاء العالم "كلُّ ذلك لا يمكن اعتباره إلَّا تحريفًا لفكرته"، وهو ما كان ليرضى بذلك (ص٤٨–٤٩).

٣.بولس الرَّسول: رائد دعوة التَّبشير أم مؤسِّس المسيحيَّة؟

يفترض الكاتب جينيبير (١٩٢١) أنَّ فَهم المسيحيَّة على أصولها لا يمكن سوى من خلال دراسة الأبعاد التاريخيَّة والثقافيَّة المؤثِّرة في نشأتها؛ يقول الإمام عبد الحليم محمود في إصداره المترجم من كتابه "الرأي المتفق عليه عامَّةً هو أنَّه للوصول إلى فَهم مبدأ المسيحيَّة و((جوهرها))، وإلى إدراك الأسباب التي نشأت منها، لا يكفي استيعاب المراجع المسيحيَّة والتحقيق المدقِّق في التفكير الديني والأخلاقي والاجتماعي بين أرجاء العالم اليوناني الروماني، حيث انبثق الإيمان ونما وتطوَّر، بل إنَّ سرَّ نشأة هذا الدين وطبيعته الأولى، يجب الرجوع في دراسة جوانب كثيرة منهما إلى حضارات سوريا وآسيا الصغرى ومصر، وكذلك بلاد ما بين النهرين، وكل هذه البيئة التي ظهر فيها بادئ ذي بدء، ثمَّ وجد العناصر الأولى للحياة والانتشار" (ص١٩).

تستمد المسيحيَّة أصلها من اليهوديَّة؛ فهي عبارة عن تصوُّر لعقيدة المسيانيَّة التي آمن بها بنو إسرائيل بعد الاختلاط بالأمم الوثنيَّة خلال سنوات السبي البابلي. **وشكَّل يسوع صورة للمسيًّا الموعود، ولكن غير مكتملة**؛ وهذا ما تسبَّب في حرب اليهود عليه. تأثَّر المؤمنون بدعوة يسوع وبصحَّة تجسيده للمسيًّا الموعود به في العهد القديم بأحداث حياته، منذ ميلاده وحتَّى صلْبه للتكفير عن خطايا البشر، وبخاصَّة الخطيئة الأولى–أكْل آدم وزوجه من الشجرة وسقوطهما من الجنَّة. أمَّا باقي بني إسرائيل، فلم يصدِّقوا كونه المسيًّا. ومن المثير للاهتمام أنَّ المسيحيِّين الأوائل لم يعمدوا إلى تدوين تجربة إيمانهم بالمسيح وتصديقهم دعوته التي كذَّبها القوم؛ وربما السبب إيمانهم باقتراب نهاية العالم وبداية ملكوت الربِّ، واعتقادهم

أنَّ عودة يسوع المبشَّر بها قريبة، سواءً في شخصه، أو في شخص "المعزِّي"، المبشَّر به في إنجيل يوحنَّا (إصحاح ١٤: آية ١٦). غير أنَّ خيبة أمل أصابت المنتظرين لمَّا لم يعد يسوع. يقول الكاتب "لم تظهر بذرة الشك في قُرب العودة المأمولة للمسيح إلَّا عندما انتهى أجل هذا الجيل الأوَّل من المؤمنين، وبانتهائه لم يعد هناك شهود ((مباشرين)) لحياة المسيح" (ص.٢٧). وكان ذلك أكبر دافع وراء تدوين "الذكريات التي افترضوا صحَّتها في الأخبار المتوارثة شفاهًا" (ص٢٧).

يرى الكثيرون، بما فيهم جينيبير، أنَّ بولس هو مؤسِّس ما يُعرف اليوم بالديانة المسيحيَّة؛ والسبب أنَّ تأثير العقائد السائدة في الأمم السابقة المؤمنة بآلهة وثنيَّة لم يكن لأيٍّ من الرُّسُل الأحد عشر الآخرين ليُحدثه. عرَّف بولس نفسه بأنَّه يهودي من سبط بنيامين، وُلد في مدينة طرسوس الواقعة جنوب الدولة البيزنطيَّة الشرقيَّة–تقع في دولة تركيا اليوم–وقد اعترف بأنَّه كان فريسيًّا "وَلَمَّا عَلِمَ **بُولُسُ** أَنَّ قِسْمًا مِنْهُمْ صَدُّوقِيُّونَ وَالآخَرَ فَرِّيسِيُّونَ، صَرَخَ فِي الْمَجْمَعِ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ، **أَنَا فَرِّيسِيٌّ ابْنُ فَرِّيسِيٍّ**. عَلَى رَجَاءِ قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ أَنَا أُحَاكَمُ»" (سفر أعمال الرُّسُل: إصحاح ٢٣، آية ٦). لا شكَّ أنَّ نشأة بولس في مدينة أمميَّة يسكنها الأغيار، وليس في كنف دولة يهودا، قد أثَّر على فكره؛ فقد كانت طرسوس–مسقط رأسه–مركزًا لنشر الفلسفة الرواقيَّة، ويشير تناوُل لسيرة بولس الرَّسول منشور على موقع St. Takla التَّبشيري إلى أنَّ الرواقيَّة تركت تأثيرها الجلي على وصف الرسول لمبادئ دعوة المسيح. أمَّا عن قصَّة إيمان بولس بالمسيح وانضمامه إلى الرُّسُل، فهو يرويها في سفر أعمال الرُّسُل: "حَدَثَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ إِلَى دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ **نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ**، فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتًا قَائِلاً لَهُ: «**شَاوُلُ، شَاوُلُ!** لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟». فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟» فَقَالَ الرَّبُّ: «أَنَا **يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ**. صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ»" (الإصحاح ٩: آيات ٣–٥). ومن هنا، يجب علينا إيضاح إسهام بولس الرَّسول في تحوُّل مجرى دعوة المسيح، بإدخال عقائد لم يعرفوا الحواريُّون أو التلاميذ من قبل.

والرواقيَّة هي فلسفة تقوم على الإيمان **بالجبريَّة**، أي أنَّ الإنسان مسيَّر ولا يتدخَّل في تصريفات الأقدار الإلهيَّة، كما تقوم على فلسفة **وَحدة الوجود**. ووفق ما تذكره موسوعة

ويكيبيديا الرقميَّة عن نشأة الرواقيَّة، فقد انتشرت تلك الفلسفة في القرن الرابع قبل الميلاد، في أوج الحضارة الهلنستيَّة، "تحت تأثير **الأفكار التي تدعو إلى المواطنة العالميَّة**، وتحت تأثير الأفكار ذات النزعة الفرديَّة، وتحت تأثير **التطورات التقنيَّة** التي فرضها التوسع في المعرفة الرياضيَّة". ويعبِّر بولس الرَّسول في رسائله عن تلك النزعة القدريَّة، وعن هيمنة الإله الخالق على زمام الأمور في الكون، وخضوع كافَّة المخلوقات إلى سلطانه في رسائله إلى الأمم لدعوتها إلى المسيحيَّة. ويرى الكاتب وليام باركلي في كتابه **رسالتا غلاطية وأفسس– The Letters to the Galatians and Ephesians**(١٩٧٦) أنَّ أقوى تأثير للرواقيَّة على فِكر بولس يتجلَّى في دعوته لأهل أفسس باعتبارهم والبشر كافَّة "**جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِدٌ**، كَمَا دُعِيتُمْ أَيْضًا فِي رَجَاءِ دَعْوَتِكُمُ **الْوَاحِدِ. رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ. إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ**" (رسالة أفسس: إصحاح ٤، آيات ٤-٦). وتبرز الآية ٦ إيمان بولس بعقيدة وحدة الوجود "**إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ**"، باعتقاده في حلول الإله في الكون كلِّه، بما في ذلك أجساد البشر؛ ويتأكَّد ذلك أكثر في الآية ١٠ من الإصحاح ١ "**لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ**". وقد عبَّر في أكثر من موضع في الرسالة عن إيمانه بالجبريَّة، وتسيير الأمور بحسب مشيئة الربِّ، ونذكر منها ما جاء في الإصحاح ١: "إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، **حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ**" (آية ٥)؛ و "إِذْ عَرَّفَنَا **بِسِرِّ مَشِيئَتِهِ، حَسَبَ مَسَرَّتِهِ الَّتِي قَصَدَهَا فِي نَفْسِهِ.** لِتَدْبِيرِ مِلْءِ الأَزْمِنَةِ، **لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ**، فِي ذَاكَ. الَّذِي فِيهِ أَيْضًا نِلْنَا نَصِيبًا، مُعَيَّنِينَ سَابِقًا حَسَبَ قَصْدِ الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ **حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ**" (آيات ٩-١١). يواصل بولس تبشيره بدعوة المسيح، الذي يرى أنَّ بالإيمان به يحل الروح القُدُس في المؤمن، فيضمن الخلاص يوم الدينونة: "لِنَكُونَ لِمَدْحِ مَجْدِهِ، نَحْنُ الَّذِينَ قَدْ سَبَقَ **رَجَاؤُنَا فِي الْمَسِيحِ**. الَّذِي فِيهِ أَيْضًا أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، **إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمُ**، الَّذِي فِيهِ أَيْضًا **إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ**" (رسالة أفسس: إصحاح ١، آيتان ١٢-١٣).

يشير وليام باركلي في كتابه آنف الذكر (١٩٧٦) إلى أنَّ فكرة حلول الإله في الخلق كلِّه من تأثير اعتناقه عقيدة الرواقيِّين، الذين اعتقدوا أنَّ الإله "**نار، أنقى من كلِّ النيران الأرضيَّة فهو روح ناريَّة في أوضح وأنقى صورها**. وكانوا يعتقدون أنَّ ما يُعطي الإنسان حياة هو أنَّ **جذوة من هذه النار**،" وترمز هذه الجذوة إلى الإله واهب الحياة "جاءت **وحلَّت في جسده**" (ص٢١٢ في ترجمة الكتاب). والسؤال: هل يختلف وصف روح الإله وهي تحلُّ في جسد المخلوق لتمنحه الروح وفق المعتقد الرواقي عن وصف حلول الروح القُدُس في المسيح بعد تعميده، كما وردت في الأناجيل؟ هكذا وصف إنجيل متَّى حلول الروح القُدُس في المسيح: "**فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللهِ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ**" (إصحاح ٣: آية ١٦)؛ وهكذا وصفه إنجيل مرقس "وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يَسُوعُ مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ **وَاعْتَمَدَ مِنْ يُوحَنَّا فِي الأُرْدُنِّ**. وَلِلْوَقْتِ وَهُوَ صَاعِدٌ مِنَ الْمَاءِ رَأَى السَّمَاوَاتِ قَدِ انْشَقَّتْ، **وَالرُّوحَ مِثْلَ حَمَامَةٍ نَازِلاً عَلَيْهِ**" (إصحاح ١: آيتان ٩-١٠)؛ وهذا هو وصْف حلول الرُوح القُدُس في المسيح في إنجيل يوحنَّا: "وَشَهِدَ يُوحَنَّا قَائلاً: «إِنِّي قَدْ **رَأَيْتُ الرُّوحَ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ** مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ. **وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ**، لكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لأُعَمِّدَ بِالْمَاءِ، ذَاكَ قَالَ لِي: **الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلاً وَمُسْتَقِرًّا عَلَيْهِ، فَهذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ**" (إصحاح ١: آيتان ٣٢-٣٣)؛ أمَّا إنجيل لوقا، فلم يتناول تعميد المسيح.

تجدر الإشارة إلى تأثُّر بولس بعقيدة الغنوصيَّة، كما يتَّضح في "لاَ أَزَالُ شَاكِرًا لأَجْلِكُمْ، ذَاكِرًا إِيَّاكُمْ فِي صَلَوَاتِي. **كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ** وَالإِعْلاَنِ فِي مَعْرِفَتِهِ. **مُسْتَنِيرَةً عُيُونُ أَذْهَانِكُمْ**، لِتَعْلَمُوا مَا هُوَ رَجَاءُ دَعْوَتِهِ، وَمَا هُوَ غِنَى مَجْدِ مِيرَاثِهِ فِي الْقِدِّيسِينَ" (رسالة أفسس: إصحاح ١، آيات ١٦-١٨). وتذكيرًا بأهم عناصر العقيدة الغنوصيَّة، فهي أنَّ الحكمة هي ضالَّة الإنسان، ولا يجدها إلَّا بالاتصال الروحاني بالإله من خلال جلسات تأمُّليَّة من التسبيح والذكر، وعادةً ما يكون الروح القُدُس هو الوسيط في هذه توصيل نور الإله الروحاني إلى جسد الإنسان المادِّي. تجدر الإشارة كذلك إلى أنَّ وصف الإله بالأب، في الآية ٦ من الإصحاح ١ في الرسالة "**إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ**" يعبِّر عن صميم عقيدة القبَّالة، التي تعتبر أنَّ الخَلق يتم من خلال عمليَّة تزاوج بين ثنائي إلهي، ذكر وأنثى،

ويُرمز للذكر بالأب، وللأنثى للأم. وتفترض القبَّالة أنَّ الذَكَر الإلهي–يهوه–قد انفصلت عنه قرينته–شخيناه–بعد الخطيئة الأولى، بأكل الإنسان الأوَّل من الشجرة المحرَّمة وسقوطه إلى الأرض، وأنَّ هذا الانفصال قد أحدث خللًا كونيًّا لن ينصلح إلَّا بعودة جميع بني إسرائيل إلى الأرض المقدَّسة، وأنَّ العودة لن تكون إلَّا في وجود المسيَّا المخلِّص، وهذه العودة لن تحدث إلَّا بالإيمان بالمخلِّص كي تجتمع الأرواح البشريَّة المشتَّتة بعد تشرذمها، وتوضح ذلك الآية ١٠ من الإصحاح ١ في رسالة أفسس "**لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ**". على هذا النحو، يأتي خلاص البشر، كما توضح الآيتين التاليتين "لِنَكُونَ لِمَدْحِ مَجْدِهِ، نَحْنُ الَّذِينَ قَدْ سَبَقَ **رَجَاؤُنَا فِي الْمَسِيحِ**. الَّذِي فِيهِ أَيْضًا أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، **إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمُ**، الَّذِي فِيهِ أَيْضًا **إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ**" (رسالة أفسس: إصحاح ١، آيتان ١٢–١٣).

ويتعرَّض شارل جينيبير في كتابه Le Christianisme antique (١٩٢١) لنشأة بولس الرَّسول، والعوامل الفكرَّية والعقائديَّة المشكِّلة لفكره، والتي استمدَّها من نشأته في طرسوس. ولا شكَّ أنَّ اتِّضاح ملامح اعتناق عقائد القبَّالة والغنوصيَّة والرواقيَّة في رسائل بولس الرَّسول يشير إلى تنوُّع فكري لم يُتح لباقي الرُّسُل، الذين أشارت الأناجيل إلى بساطتهم. يرى الدكتور شلبي أنَّ مفهوم التثليث ما كان ليُدخله أحدٌ من الرُّسُل سوى بولس، الذي اطَّلع على معتقدات ديانات الأمم السابقة، وطبَّقها على الديانة السماويَّة (ص٤٦). وقد أشار سفر أعمال الرُّسُل إلى نشوب خلاف بين بولس القدِّيس برنابا، كما يشير سفر أعمال الرُّسُل في "**فَحَصَلَ بَيْنَهُمَا مُشَاجَرَةٌ حَتَّى فَارَقَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ.** وَبَرْنَابَا أَخَذَ مَرْقُسَ وَسَافَرَ فِي الْبَحْرِ إِلَى قُبْرُص. وَأَمَّا بُولُسُ فَاخْتَارَ سِيلاَ وَخَرَجَ مُسْتَوْدَعًا مِنَ الإِخْوَةِ إِلَى نِعْمَةِ اللهِ" (سفر أعمال الرُّسُل: الإصحاح ١٥، آيتان ٣٩–٤٠).

ولا شكَّ أنَّ الاختلاف العقائدي بين برنابا وبولس، والذي تكشف عنه المقارنة بين مضموني إنجيل الأول ورسائل الثاني، كان سبب ذلك الخلاف. وقد افتتح بولس رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس بتعبير عن شكواه مما كان يلاقيه من معارضة وانتقاد في رحلاته الدعويَّة، وبخاصة في إحدى رحلاته في آسيا، حيث كان يهلك، وبدأ ييأس من حياته: "**كَمَا تَكْثُرُ آلاَمُ**

الْمَسِيحِ فِينَا، كَذلِكَ بِالْمَسِيحِ تَكْثُرُ تَعْزِيَتُنَا أَيْضًا. فَإِنْ كُنَّا نَتَضَايَقُ فَلأَجْلِ تَعْزِيَتِكُمْ وَخَلاَصِكُمُ، **الْعَامِلِ فِي احْتِمَالِ نَفْسِ الآلاَمِ الَّتِي نَتَأَلَّمُ بِهَا نَحْنُ أَيْضًا. أَوْ نَتَعَزَّى فَلأَجْلِ تَعْزِيَتِكُمْ وَخَلاَصِكُمْ. فَرَجَاؤُنَا مِنْ أَجْلِكُمْ ثَابِتٌ.** عَالِمِينَ أَنَّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ **شُرَكَاءُ فِي الآلاَمِ،** كَذلِكَ فِي التَّعْزِيَةِ أَيْضًا. فَإِنَّنَا لاَ نُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ **ضِيقَتِنَا الَّتِي أَصَابَتْنَا فِي أَسِيَّا، أَنَّنَا تَثَقَّلْنَا جِدًّا فَوْقَ الطَّاقَةِ، حَتَّى أَيِسْنَا مِنَ الْحَيَاةِ أَيْضًا.** لكِنْ كَانَ لَنَا فِي أَنْفُسِنَا حُكْمُ الْمَوْتِ، لِكَيْ لاَ نَكُونَ مُتَّكِلِينَ عَلَى أَنْفُسِنَا بَلْ عَلَى اللهِ الَّذِي يُقِيمُ الأَمْوَاتَ. الَّذِي نَجَّانَا مِنْ مَوْتٍ مِثْلِ هذَا، وَهُوَ يُنَجِّي. الَّذِي لَنَا رَجَاءٌ فِيهِ أَنَّهُ سَيُنَجِّي أَيْضًا فِيمَا بَعْدُ" (رسالة كورنثوس ٢: إصحاح ١، آيات ٥-١٠). ويرى بعض مفسِّري الكتاب المقدَّس أنَّ بولس ربَّما يقصد واقعة ذُكرت في الإصحاح ١٩ في سفر أعمال الرُّسُل (آيات ٢٩-٣١): "**امْتَلأَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا اضْطِرَابًا، وَانْدَفَعُوا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى الْمَشْهَدِ** خَاطِفِينَ مَعَهُمْ غَايُوسَ وَأَرِسْتَرْخُسَ الْمَكِدُونِيَّيْنِ، رَفِيقَيْ بُولُسَ فِي السَّفَرِ. **وَلَمَّا كَانَ بُولُسُ يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ بَيْنَ الشَّعْبِ، لَمْ يَدَعْهُ التَّلاَمِيذُ.** وَأُنَاسٌ مِنْ وُجُوهِ أَسِيَّا، كَانُوا أَصْدِقَاءَهُ، أَرْسَلُوا يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ **أَنْ لاَ يُسَلِّمَ نَفْسَهُ إِلَى الْمَشْهَدِ**". وتروي هذه الآيات عن حملة عدائيَّة شنَّها اليهود ضد بولس بسبب دعوته المخالفة للناموس، وربَّما لمطالبته المكرَّرة بإبطال العمل به، على اعتبار أنَّ الإنجيل قد نَسَخه. أراد يهودي مرتد عن المسيحيَّة دحْض بولس ومعارضة ما كان يدعو إليه؛ فحدث اضطراب. غير أنَّ ملاحقات اليهود لبولس لم تقف عند ذلك الحد، حيث "حَصَلَتْ **مَكِيدَةٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَيْهِ،** وَهُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَصْعَدَ إِلَى سُورِيَّةَ، صَارَ رَأْيٌ أَنْ يَرْجعَ عَلَى طَرِيقِ مَكِدُونِيَّةَ" (أعمال الرُّسُل: إصحاح ٢٠، آية ٣).

ويحدِّد الدكتور شلبي (١٩٩٨) باختصار أهم الأسس التي بُنيت عليها المسيحيَّة "أخذت المسيحيَّة كيانها الأساسي من اليهوديَّة فالعهد القديم مقدَّس فيهما معًا، و(استلهمت) منها جوانب الاخلاق والروحانيَّات، و(المسيحيُّون) اعتبروا أنفسهم الشعب المختار كما فعل اليهود، وورثوا عنهم الرهبنة وفكرة الإخاء، وأخذت من الأفلاطونيَّة الحديثة جوانبها الروحيَّة والصوفيَّة، كما أخذت من الرواقيَّة، وعالجت فكرة اتِّحاد المخلوق بالخالق عن طريق الوساطة؛ إذ جعلت المسيح يجمع بين الوصفين معًا، لأنَّ الجسد الفاني لا يتَّحد بالإله

الباقي، وهكذا كانت مزيجًا من عدد من الديانات والفلسفات، وظلَّت تعاصرها حتَّى القرن الثالث عشر" (ص٤٩).

يكفي التأمُّل في عنوان كتابه عن تأثير بولس الرَّسول في تشكيل العقيدة المسيحيَّة في مهدها، وهو **المسيحيَّة دين الله المنزَّل على المسيح أم هي ديانة بولس؟** (٢٠٠٧)، ليعرف رأي الكاتب الفلسطيني نبيل نيقولا بوخاروف–الباحث في مقارنة الأديان–في اتِّهام بولس بتحريف رسالة المسيح عن المضمون الذي نزلت به من السماء، لتصبح أشبه بعقائد الوثنيِّين عن إنسان يمتلك صفات الألوهيَّة جاء لينقذ البشر من إثم الخطيئة الأولى، ويفتح أمامهم أبواب مملكة الجنَّة بمجرَّد الإيمان به، ولا يفرقها عن العقائد الوثنيَّة سوى الوجود التاريخي الحقيقي للمسيح.

وصف الكاتب بولس الرَّسول بالكثير من الصفات السلبيَّة، منها النفاق والتلوُّن في سبيل استمالة الناس إليه بشتَّى الطرق (ص٣٣)، والغرور والتفوُّق على الملائكة أنفسهم في المنزلة (ص٣٥)، وساق على ذلك أدلَّة من رسائله. ويصل الأمر بالكاتب إلى حدِّ التشكيك في صحَّة رواية بولس عن رؤيته الربِّ يسوع في السماء في طريقه إلى دمشق، الواردة في ثلاثة مواضع في سفر أعمال الرُّسُل في إصحاح ٩ (آيات ٣–٩)، وإصحاح ٢٢ (آيات ٦–١٢)، وإصحاح ٢٦ (آيات ١٢–١٨). ويقول الكاتب عن تلك الروايات "كان المعنى الحقيق من هذا الادِّعاء هو تضليل الناس عن كريق الحق والافتراء عليهم" (ص٣٨). ويجد الكاتب فيما جاء في رسالة بولس الرَّسول إلى غلاطية ثمة اعتراف يشير إلى أنَّ إنجيله لم يكن وحيًا إلهيًّا " ثُمَّ بَعْدَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً صَعِدْتُ أَيْضًا إِلَى أُورُشَلِيمَ مَعَ بَرْنَابَا، آخِذًا مَعِي تِيطُسَ أَيْضًا. وَإِنَّمَا صَعِدْتُ بِمُوجَبِ إِعْلاَنٍ، **وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمِ الإِنْجِيلَ الَّذِي أَكْرِزُ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، وَلكِنْ بِالانْفِرَادِ عَلَى الْمُعْتَبَرِينَ، لِئَلاَّ أَكُونَ أَسْعَى أَوْ قَدْ سَعَيْتُ بَاطِلاً**" (رسالة غلاطية: إصحاح ٢، آيتان ١–٢)؛ ويتساءل الكاتب: لو أنَّ هذا الإنجيل كان وحيًا إلهيًّا منزَّهًا عن الخطأ، فما الحاجة إلى الاستشارة بشأنه؟

نعرف من سفر أعمال الرُّسُل أنَّ الحواري برنابا هو الذي قدَّم بولس إلى تلاميذ المسيح وأقنعهم بصدق إيمانه "**أَخَذَهُ بَرْنَابَا وَأَحْضَرَهُ إِلَى الرُّسُلِ، وَحَدَّثَهُمْ كَيْفَ أَبْصَرَ الرَّبَّ فِي**

الطَّرِيقِ وَأَنَّهُ كَلَّمَهُ، وَكَيْفَ جَاهَرَ فِي دِمَشْقَ بِاسْمِ يَسُوعَ. فَكَانَ مَعَهُمْ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ فِي أُورُشَلِيمَ وَيُجَاهِرُ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ" (سفر أعمال الرُّسُل: إصحاح ٩، آيتان ٢٧–٢٨). غير أنَّ هذا الاتصال والتقارب لم يستمرَّا طويلًا؛ ويُرجع الكاتب السبب في ذلك إلى إدخال بولس عقيدة بنوَّة يسوع للرب، كما جاء في رسالته إلى أهل غلاطية (إصحاح ١: آية ١٦)، ورسالته إلى أهل كورنثوس (إصحاح ١: آية ١٩)، ورسالته إلى أهل روميَّة (إصحاح ٨: آية ٣–إصحاح ١: آية ٤). ويعترف بولس في رسائل أخرى بتخلِّي الجميع عنه، مع استثناءات قليلة، ومن نماذج ذلك ما جاء في رسالته الثانية إلى تلميذه تيموثاوس "أَنْتَ تَعْلَمُ هذَا أَنَّ **جَمِيعَ الَّذِينَ فِي أَسِيَّا ارْتَدُّوا عَنِّي**" (رسالة تيموثاوس: إصحاح ١، آية ١٥)، مطالبًا إيَّاه بالانضمام إليه بعد أن تركه كثيرٌ من تلاميذه "بَادِرْ أَنْ تَجِيءَ إِلَيَّ سَرِيعًا. **لأَنَّ دِيمَاسَ قَدْ تَرَكَنِي إِذْ أَحَبَّ الْعَالَمَ الْحَاضِرَ وَذَهَبَ إِلَى تَسَالُونِيكِي، وَكِرِيسْكِيسَ إِلَى غَلاَطِيَّةَ، وَتِيطُسَ إِلَى دَلْمَاطِيَّةَ. لُوقَا وَحْدَهُ مَعِي. خُذْ مَرْقُسَ وَأَحْضِرْهُ مَعَكَ** لأَنَّهُ نَافِعٌ لِي لِلْخِدْمَةِ"، وتشير الآية ١١ إلى أنَّ مرقس ولوقا–كاتبي اثنين من الأناجيل الأربعة المعترف بها–كانا في صُحبة بولس الرَّسول وتتلمذا على يديه (إصحاح ٤: آيات ٩–١١). ويعترف بولس في رسالته إلى أهل فيلبي بأنَّهم وحدهم مَن سانده في أزمته وقتما سُجن، ما لم يفعله شعب أي كنيسة أخرى "وَأَنْتُمْ أَيْضًا تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْفِيلِبِّيُّونَ أَنَّهُ فِي بَدَاءَةِ الإِنْجِيلِ، لَمَّا خَرَجْتُ مِنْ مَكِدُونِيَّةَ، **لَمْ تُشَارِكْنِي كَنِيسَةٌ وَاحِدَةٌ** فِي حِسَابِ الْعَطَاءِ وَالأَخْذِ **إِلاَّ أَنْتُمْ وَحْدَكُمْ**" (رسالة فيلبي: إصحاح ٤، إصحاح ١٥).

لم يتوقَّف الخلاف بين بولس وطليعة المؤمنين بالمسيح على المسائل الفكريَّة، بل امتدَّ إلى تبايُن مضمون الدعوة التي ينشرها كلُّ فريق، لدرجة أنَّ بولس أمر أتباعه بالتمسُّك بما جاءهم به من تعاليم، وبعدم اتِّباع مخالفيه، واصفًا هؤلاء بـ "أعداء الصليب" الذين مصيرهم "الهلاك"، كما جاء في **رسالته إلى أهل فيلبي** "**كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي مَعًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ**، وَلاَحِظُوا الَّذِينَ يَسِيرُونَ هكَذَا كَمَا نَحْنُ عِنْدَكُمْ قُدْوَةٌ. لأَنَّ كَثِيرِينَ يَسِيرُونَ مِمَّنْ كُنْتُ أَذْكُرُهُمْ لَكُمْ مِرَارًا، وَالآنَ أَذْكُرُهُمْ أَيْضًا بَاكِيًا، **وَهُمْ أَعْدَاءُ صَلِيبِ الْمَسِيحِ. الَّذِينَ نِهَايَتُهُمُ الْهَلاَكُ**، الَّذِينَ إِلهُهُمْ بَطْنُهُمْ وَمَجْدُهُمْ فِي خِزْيِهِمِ، الَّذِينَ يَفْتَكِرُونَ فِي الأَرْضِيَّاتِ" (رسالة فيلبي: إصحاح ٣، آيات

١٧–١٩). وكان بولس قد سبَّ مخالفيه في نفس الرسالة، معيبًا عليهم تمسُّكهم بالشريعة المنسوخة "أُنْظُرُوا **الْكِلاَبَ.** انْظُرُوا **فَعَلَةَ الشَّرِّ.** انْظُرُوا **الْقَطْعَ**"، والمقصود بـ "**الْقَطْعَ**" المختونين، الذين قطعوا أجزاءً من أجسادهم دون اهتمام بتهذيب أرواحهم (رسالة فيلبي: إصحاح ٣، آية ٢).

وجاء في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس توصية بنشر العلوم الصحيحة، وإبعاد الناس عمَّا أسماه "خرافات" تناقِض صحيح رسالة يسوع وتزعزع الإيمان به " إِلَى تِيمُوثَاوُسَ، الابْنِ الصَّرِيحِ فِي الإِيمَانِ: نِعْمَةٌ وَرَحْمَةٌ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا. كَمَا طَلَبْتُ إِلَيْكَ أَنْ تَمْكُثَ فِي أَفَسُسَ، إِذْ كُنْتُ أَنَا ذَاهِبًا إِلَى مَكِدُونِيَّةَ، **لِكَيْ تُوصِيَ قَوْمًا أَنْ لاَ يُعَلِّمُوا تَعْلِيمًا آخَرَ. وَلاَ يُصْغُوا إِلَى خُرَافَاتٍ وَأَنْسَابٍ لاَ حَدَّ لَهَا، تُسَبِّبُ مُبَاحَثَاتٍ دُونَ بُنْيَانِ اللهِ الَّذِي فِي الإِيمَانِ**" (رسالة تيموثاوس ١: إصحاح ١، آيات ٢–٤). ويشير بولس في رسالته، التي بدأها باعتباره رسول من "**اللهِ أَبِينَا وَالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا**"، إلى تعاليم تخالف ما جاء به، وتثير جدلًا يهدِّد الإيمان الذي ترسِّخه تعاليمه، وقد قال الآية ٤ أنَّها "**تُسَبِّبُ مُبَاحَثَاتٍ دُونَ بُنْيَانِ اللهِ الَّذِي فِي الإِيمَانِ**"، مما يعني أنَّها لا تؤمن ببنوَّة الإله ليسوع، ولا بأنَّ الإيمان بيسوع مفتاح الخلاص، ولا بأنَّه–باعتباره رسول يسوع–يتلقَّى منه الوحي من خلال تجليَّاته له، أو بواسطة الروح القُدُس الذي ملأه. وينهى بولس تلميذه تيموثاوس في نهاية الرسالة عن الاستماع إلى المخالفين في الرأي "**إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُعَلِّمُ تَعْلِيمًا آخَرَ، وَلاَ يُوافِقُ كَلِمَاتِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ الصَّحِيحَةَ، وَالتَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ حَسَبَ التَّقْوَى.** فَقَدْ تَصَلَّفَ، وَهُوَ لاَ يَفْهَمُ شَيْئًا، بَلْ هُوَ مُتَعَلِّلٌ بِمُبَاحَثَاتٍ وَمُمَاحَكَاتِ الْكَلاَمِ، الَّتِي مِنْهَا يَحْصُلُ الْحَسَدُ وَالْخِصَامُ وَالافْتِرَاءُ وَالظُّنُونُ الرَّدِيَّةُ. وَمُنَازَعَاتُ أُنَاسٍ فَاسِدِي الذِّهْنِ وَعَادِمِي الْحَقِّ، يَظُنُّونَ أَنَّ التَّقْوَى تِجَارَةٌ. **تَجَنَّبْ مِثْلَ هؤُلاَءِ**" (رسالة تيموثاوس ١: إصحاح ٦، آيات ٣–٥).

ويُعلن بولس صراحةً خلافه مع تلاميذ المسيح في رسالته إلى أهل غلاطية في الإصحاح الثاني، ويذكر بالأسماء بطرس وبرنابا، ويصف مخالفيه بـ " الإِخْوَةِ الْكَذَبَةِ الْمُدْخَلِينَ خُفْيَةً، الَّذِينَ دَخَلُوا اخْتِلاَسًا لِيَتَجَسَّسُوا حُرِّيَّتَنَا الَّتِي لَنَا فِي الْمَسِيحِ كَيْ يَسْتَعْبِدُونَا. اَلَّذِينَ لَمْ نُذْعِنْ لَهُمْ بِالْخُضُوعِ وَلاَ سَاعَةً، لِيَبْقَى عِنْدَكُمْ حَقُّ الإِنْجِيلِ" (رسالة غلاطية: إصحاح ٢، آيتان ٤–٥)؛

ويتحدَّث بولس في هذه الآيات عن خلافه مع التلاميذ بشأن تمسُّكهم بالشريعة، على خلاف ما أراد هو "وَلكِنْ لَمَّا أَتَى بُطْرُسُ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ قَاوَمْتُهُ مُواجَهَةً، لأَنَّهُ كَانَ مَلُومًا. لأَنَّهُ قَبْلَمَا أَتَى قَوْمٌ مِنْ عِنْدِ يَعْقُوبَ كَانَ يَأْكُلُ مَعَ الأُمَمِ، وَلكِنْ لَمَّا أَتَوْا كَانَ يُؤَخِّرُ وَيُفْرِزُ نَفْسَهُ، خَائِفًا مِنَ الَّذِينَ هُمْ مِنَ الْخِتَانِ. وَرَاءَى مَعَهُ بَاقِي الْيَهُودِ أَيْضًا، حَتَّى إِنَّ بَرْنَابَا أَيْضًا انْقَادَ إِلَى رِيَائِهِمْ!" (رسالة غلاطية: إصحاح ٢، آيات ١١-١٣). ويطرح الكاتب سؤالًا هامًّا في هذا السياق، وهو إذا كان بولس الرَّسول هو المؤسِّس الحقيقي للمسيحيَّة، كما نعرفها اليوم، فما الحاجة إلى الاستناد إلى تعاليم التلاميذ، الذين يصفهم بولس بالكذب والرياء؟ (ص٥٠).

وكمثل الكاتب الفرنسي شارل جينيبير، مؤلِّف كتاب **المسيحيَّة القديمة** (١٩٢١) -المترجم بعنوان المسيحيَّة: نشأتها وتطوُّرها-يرى الكاتب **أنَّ هناك مصدرين أساسيِّين استقى منهما علومه، الأوَّل هو تعاليم اليهود الفريسيِّين، والثاني الفلسفات اليونانيَّة السائدة في موطن ميلاده.** وأهم العقائد التي تتفرَّد بها دعوة بولس هي: التجسُّد، الصلب لفداء البشر والتكفير عن الخطيئة الأولى، التثليث، بنوَّة الإله للمسيح، وإلغاء شريعة موسى.

عقائد أدخلها بولس الرَّسول على رسالة المسيح والردُّ عليها

كما سبقت الإشارة، يعتبر بوخاروف أنَّ بولس الرَّسول قد حرَّف رسالة المسيح عن أصلها، بإدخاله مُحدثات ما أنزل الله بها من سلطان، على رأسها "خرافة الصليب، وعقيدة الفادي، وتكفير الخطايا بزعم أنَّ عيسى قد مات على الصليب تكفيرًا لخطايا المذنبين والعصاة"؛ وهكذا، تحوَّلت رسالة عيسى الموافقة للرسالة الإبراهيميَّة، والمصدِّقة للتوراة المنزَّلة على موسى إلى "ديانة وثنيَّة صليبيَّة كُفريَّة" (ص١٢). وقد ساعدت المحدثات التي أتى بولس في نشر صورة مغايرة لحقيقة المسيح، وهي صورة منفِّرة، مثل التي جاء بها يوحنَّا اللاهوتي في رؤياه. يوصف الإله الربُّ يسوع في رؤيا يوحنَّا اللاهوتي بصفات تدل على القسوة والغلظة، على عكس الصورة الرحيمة الحانية التي تصل إلى مَن يدرس المسيحيَّة، وبخاصَّة بعد الاطِّلاع على الآية في إنجيل متَّى التي تقول "وَأَمَّا أَنَا (يسوع) فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ" (إنجيل متَّى: إصحاح ٤، آية ٥٥). جاء في الإصحاح ١ "وَفِي وَسْطِ السَّبْعِ الْمَنَايِرِ شِبْهُ ابْنِ إِنْسَانٍ،

مُتَسَرْبِلاً بِثَوْبٍ إِلَى الرِّجْلَيْنِ، وَمُتَمَنْطِقًا عِنْدَ ثَدْيَيْهِ بِمِنْطَقَةٍ مِنْ ذَهَبٍ. وَأَمَّا رَأْسُهُ وَشَعْرُهُ فَأَبْيَضَانِ كَالصُّوفِ الأَبْيَضِ كَالثَّلْجِ، وَعَيْنَاهُ **كَلَهِيبِ نَارٍ**. وَرِجْلاَهُ شِبْهُ **النُّحَاسِ النَّقِيِّ**، كَأَنَّهُمَا مَحْمِيَّتَانِ فِي **أَتُونٍ**. وَصَوْتُهُ كَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ. وَمَعَهُ فِي يَدِهِ الْيُمْنَى **سَبْعَةُ كَوَاكِبَ، وَسَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدَّيْنِ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ، وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَهِيَ تُضِيءُ فِي قُوَّتِهَا**. فَلَمَّا رَأَيْتُهُ سَقَطْتُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ كَمَيِّتٍ، فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَيَّ قَائِلاً لِي: «لاَ تَخَفْ، **أَنَا هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ، وَالْحَيُّ. وَكُنْتُ مَيْتًا، وَهَا أَنَا حَيٌّ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ!** آمِينَ. **وَلِي مَفَاتِيحُ الْهَاوِيَةِ وَالْمَوْتِ**" (إنجيل متَّى: إصحاح ١، آيات ١٣-١٨). وجاء في وصف يسوع كذلك في رؤيا يوحنَّا اللاهوتي "**يَرْعَى جَمِيعَ الأُمَمِ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ**" (إنجيل متَّى: إصحاح ١٢، آية ٥). وُصف كذلك في الرؤيا ذاتها عند عودته إلى الأرض على هذا النحو "**وَعَيْنَاهُ كَلَهِيبِ نَارٍ**، وَعَلَى رَأْسِهِ تِيجَانٌ كَثِيرَةٌ، وَلَهُ اسْمٌ مَكْتُوبٌ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُهُ إِلاَّ هُوَ. وَهُوَ **مُتَسَرْبِلٌ بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بِدَمٍ**، وَيُدْعَى اسْمُهُ «كَلِمَةَ اللهِ». وَالأَجْنَادُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ كَانُوا يَتْبَعُونَهُ عَلَى خَيْلٍ بِيضٍ، لاَبِسِينَ بَزًّا أَبْيَضَ وَنَقِيًّا. **وَمِنْ فَمِهِ يَخْرُجُ سَيْفٌ مَاضٍ لِكَيْ يَضْرِبَ بِهِ الأُمَمَ. وَهُوَ سَيَرْعَاهُمْ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ، وَهُوَ يَدُوسُ مَعْصَرَةَ خَمْرِ سَخَطِ وَغَضَبِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**. وَلَهُ عَلَى ثَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ اسْمٌ مَكْتُوبٌ: «مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ»" (إنجيل متَّى: إصحاح ١٩، آيات ١٢-١٦).

وكمثل الكاتب الفرنسي شارل جينيبير، مؤلِّف كتاب **المسيحيَّة القديمة** (١٩٢١) -المترجم بعنوان المسيحيَّة: نشأتها وتطوُّرها-يرى الكاتب أنَّ هناك مصدرين أساسيِّين استقى منهما علومه، الأوَّل هو تعاليم اليهود الفريسيِّين، والثاني الفلسفات اليونانيَّة السائدة في موطن ميلاده. وأهم العقائد التي تتفرَّد بها دعوة بولس هي: التجسُّد، الصلب لفداء البشر والتكفير عن الخطيئة الأولى، التثليث، بنوَّة الإله للمسيح، وإلغاء شريعة موسى.

يقوم التجسُّد على مرحلتين أساسيَّتين: الحلول والاتِّحاد. أمَّا عن **الحلول**، فهو يعتمد على حلول عنصر في عنصر آخر، دون أن يفقد أيٌّ منهما خصائصه المستقلَّة. وبعد أن يفنى كلُّ عنصر في الآخر لتكوين عنصر جديد، يحدث **الاتِّحاد**. وكما يصف بولس المسيح، فهو ابن الرب "الَّذِي صَارَ مِنْ **نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَةِ الْجَسَدِ**، وَتَعَيَّنَ **ابْنَ اللهِ** بِقُوَّةٍ **مِنْ جِهَةِ رُوحِ**

الْقَدَاسَةِ، بِالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ: يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا"؛ أي أنَّ الروح القُدُس حلَّت في الجسد البشري، فحدث اتِّحاد هو يسوع المسيح، الربُّ في صورةٍ بشريَّة ملموسة (رسالة أهل روميَّة: إصحاح ١، آيتان ٣-٤). ويُعتقد لدى المسيحيِّين أنَّ الربَّ هو "الروح الأعظم، وهو آب جميع الأرواح"، والآب كلمة ساميَّة معناها الأصل، والربُّ بذلك هو أصل الأرواح ومنبعها، وجوهر كلِّ شيء (ص٥٣).

ويستشهد المسيحيُّون على صحَّة عقيدتهم تلك بالآية ١٦ في الإصحاح ٣ في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس "وَبِالإِجْمَاعِ عَظِيمٌ هُوَ سِرُّ التَّقْوَى: **اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ، تَبَرَّرَ فِي الرُّوحِ، تَرَاءَى لِمَلاَئِكَةٍ**، كُرِزَ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، أُومِنَ بِهِ فِي الْعَالَمِ، رُفِعَ فِي الْمَجْدِ". وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هذا المفهوم مُستمدٌّ بالكامل من عقيدة القبَّالة اليهوديَّة، التي ترى الإله الخالق عين لانهائيَّة، منها تنبع الأرواح وإليها تعود؛ ولهذا السبب، يُعتبر منبع الأرواح هذا بمثابة الأب. وقد ذكر شمعون بن يوحاي في كتاب الزوهار أنَّ عين صوف قد خَلَق الإنسان على صورته، ثم أطلقه في رحلة حياة يتعلَّم فيها الخير والشرَّ، وبعد انتهاء رحلته، يعود إلى حيث بُعث، فيتَّحد من جديد مع ذلك المصدر النوراني.

ومن المثير للدهشة أنَّ اثنين من الأناجيل يتضمَّنان آيات تشير إلى طبيعة المسيح البشريَّة ومروره بالتجارب البشريَّة المعهودة، ومن نماذج ذلك خلوده إلى النوم " فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اتْبَعْنِي، وَدَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ». وَلَمَّا دَخَلَ السَّفِينَةَ تَبِعَهُ تَلاَمِيذُهُ. وَإِذَا اضْطِرَابٌ عَظِيمٌ قَدْ حَدَثَ فِي الْبَحْرِ حَتَّى غَطَّتِ الأَمْوَاجُ السَّفِينَةَ، **وَكَانَ هُوَ نَائِمًا** (إنجيل متَّى: إصحاح ٨، آيات ٢٢-٢٤)، وشعوره بالجوع "فَبَعْدَ مَا صَامَ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، **جَاعَ أَخِيرًا**" (إنجيل متَّى: إصحاح ٤، آية ٢)، وكذلك بالتعب "وَكَانَتْ هُنَاكَ بِئْرُ يَعْقُوبَ. فَإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ **تَعِبَ مِنَ السَّفَرِ**، جَلَسَ هكَذَا عَلَى الْبِئْرِ، وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ" (إنجيل يوحنَّا: إصحاح ٤، آية ٦).

أمَّا عن الرد القرآني، فهناك العديد من الآيات الداحضة لهذه العقيدة بالكاملة، منها الآية ٧٢ في سورة المائدة "**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ**

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ"، ومنها كذلك الآية ١١ في سورة الشورى "فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**"، وكذلك سورة الإخلاص كاملة.

بالنسبة إلى عقيدة الصلب والفداء للتكفير عن الخطيئة الأولى، فهي كذلك في صُلب عقيدة القبَّالة، التي تعتقد أنَّ الإنسان الأوَّل سقط إلى الأرض من موقعه السماوي إلى جانب الإله الخالق بعد خطيئة أكله من الشجرة المحرَّمة، وحتَّى يعود إلى موقعه السابق، عليه بخوض رحلة طويلة يمرُّ خلالها بشتَّى التجارب، حتَّى يستحق العودة إلى حيث جاء. ويعتبر صعود يسوع إلى يمين أبيه في السماء دليل على اكتسابه الخبرة الأرضيَّة التي أرضت الآب–مصدر الأرواح–عنه، فقبل عودته إليه؛ وهو بذلك الابن البار المخلوق على صورة الربِّ. أمَّا عن جعْل الإيمان بالمسيح شرط للخلاص، هو يرجع كذلك إلى عقيدة في القبَّالة تعتقد أنَّ أرواح البشر جميعًا كانت روحًا واحدة تحطَّمت وتشرذمت بسقوط الإنسان الأوَّل، ولا سبيل لالتئامها إلَّا من خلال الإيمان بالمخلِّص–the Messiah–الذي تجتمع فيه الأرواح.

ويتجلَّى ذلك في رسالة بولس الرَّسول إلى أهل روميَّة "**لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، خَلَصْتَ**" (إصحاح ١٠: آية ٩). وقد جاء في رسالة بولس إلى العبرانيِّين أنَّ الدم كان لازمًا للتطهُّر من الآثام "وَكُلُّ شَيْءٍ تَقْرِيبًا يَتَطَهَّرُ حَسَبَ النَّامُوسِ **بِالدَّمِ، وَبِدُونِ سَفْكِ دَمٍ لاَ تَحْصُلُ مَغْفِرَةٌ!**" (إصحاح ٩: آية ٢٢)، وتتضمن رسالته إلى أهل أفسس نفس المضمون "الَّذِي فِيهِ لَنَا **الْفِدَاءُ بِدَمِهِ، غُفْرَانُ الْخَطَايَا**، حَسَبَ غِنَى نِعْمَتِهِ" (إصحاح ١: آية ٧)، هذا إلى جانب آيات أخرى في أكثر من رسالة لبولس الرَّسول. ومضمون ما يقصده بولس من هذا كلِّه هو تبشير المؤمنين بيسوع بالتطهُّر من آثامهم، مهما كانت، وبدخول النعيم الأبدي بعد أن كفَّر عن البشر أجمعين ذنوبهم "إِذِ الْجَمِيعُ **أَخْطَأُوا** وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ. **مُتَبَرِّرِينَ مَجَّانًا بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ.** الَّذِي **قَدَّمَهُ اللهُ كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ**، لإِظْهَارِ بِرِّهِ، **مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ اللهِ**" (رسالة أهل روميَّة: إصحاح ٣، آيات ٢٣–٢٥). وما يوصي به بولس هو التمسُّك بالإيمان بالمسيح، كي لا يفقدوا التقديس الذي شملهم بعد تقديمه قربانًا لمحو خطاياهم، كما جاء في

رسالته إلى العبرانيِّين "لأَنَّهُ **بِقُرْبَانٍ** وَاحِدٍ قَدْ **أَكْمَلَ إِلَى الأَبَدِ الْمُقَدَّسِينَ**" (إصحاح ١٠: آية ١٤)؛ ويبشِّر بولس المؤمنين بالمسيح بأنَّ ملكوت السماوات فُتح لهم، وتلك ميزة لم تُتح إلَّا بفداء يسوع لهم " فَإِذْ لَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ ثِقَةٌ بِالدُّخُولِ إِلَى «الأَقْدَاسِ» بِدَمِ يَسُوعَ (إصحاح ١٠: آية ١٩). وينهى بولس الرَّسول في رسالته إلى أهل روميَّة المؤمنين بالعقيدة التي كان يدعو إليها عن الشكِّ فيما يقول؛ لأنَّ ما وعَدَ به الربُّ سيُنفِّذه "تَيَقَّنَ أَنَّ مَا وَعَدَ بِهِ هُوَ قَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَهُ أَيْضًا" (إصحاح ٤: آية ٢١)، وفضل المغفرة–بلا عمل يُتقَّرب به إلى الله–ينحصر في المؤمنين بيسوع وبتكفيره عنهم خطاياهم بدمه "**مِنْ أَجْلِنَا نَحْنُ** أَيْضًا، الَّذِينَ سَيُحْسَبُ لَنَا، **الَّذِينَ نُؤْمِنُ بِمَنْ أَقَامَ يَسُوعَ رَبَّنَا مِنَ الأَمْوَاتِ. الَّذِي أُسْلِمَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا وَأُقِيمَ لأَجْلِ تَبْرِيرِنَا**" (إصحاح ٤: آيتان ٢٤–٢٥)، ومن يؤمن بتلك العقيدة وجبت له الجنَّة بعد أن تنعَّم بتكفير الخطايا "**فَإِذْ قَدْ تَبَرَّرْنَا بِالإِيمَانِ لَنَا سَلاَمٌ مَعَ اللهِ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ**" (إصحاح ٥: آية ١).

ويفتح الحديث عن فداء المسيح البشر بدمه المجال لتناوُل أهم مقاصد بولس الرَّسول: الإشارة إلى صلْب يسوع بغية التطفير عن الخطيئة الأولى بمعصية الإنسان الأوَّل للرب، كما وردت في سفر التكوين (إصحاح ٣: آية ٦). وفي رسالته إلى أهل روميَّة، يقول بولس أنَّ خطيئة الإنسان الأوَّل شملت كلَّ الخلق أجمعين، حتَّى قبل أن يولدوا "**مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ**" (إصحاح ٥: آية ١٢)؛ وعلى هذا النحو ظلَّ حال البشريَّة، حتى جاء يسوع وطهَّرهم بدمه " **لأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً، هكَذَا أَيْضًا بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَارًا**" (إصحاح ٥: آية ١٩). ويعاود بولس في رسالته إلى أهل روميَّة التذكير بأنَّ التطهُّر من الخطيئة الأولى استوجب موت المسيح على الصليب؛ وكل من يؤمن به يميت الإنسان السابق غير المؤمن في نفسه **بالمعموديَّة**، فيكون قد كفَّر عن خطيئة الإنسان الأوَّل، الذي حملها كلُّ إنسان حتَّى قبل أن يولد. وهذا الاتِّحاد مع المسيح يضمن النجاة معه والدخول إلى مرحلة الحياة الأبديَّة بعد عودته إلى الحياة " **أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلَّ مَنِ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ. فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ،**

حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِمَجْدِ الآبِ، هكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ أَيْضًا فِي جِدَّةِ الْحَيَاةِ؟ لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا قَدْ صِرْنَا مُتَّحِدِينَ مَعَهُ بِشِبْهِ مَوْتِهِ، نَصِيرُ أَيْضًا بِقِيَامَتِهِ. عَالِمِينَ هذَا: أَنَّ **إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ مَعَهُ لِيُبْطَلَ جَسَدُ الْخَطِيَّةِ، كَيْ لاَ نَعُودَ نُسْتَعْبَدُ أَيْضًا لِلْخَطِيَّةِ"** (إصحاح ٦: آيات ٣-٦). ويشرح بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ما يقصده بهذا الاتِّحاد "لأَنَّنَا **جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضًا اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ**، يَهُودًا كُنَّا أَمْ يُونَانِيِّينَ، عَبِيدًا أَمْ أَحْرَارًا، **وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحًا وَاحِدًا**" (إصحاح ١٢: آية ١٣).

ويسوق الكاتب من الأدلَّة ما يثبت أنَّ فكرة الصلب لأجل الفداء من عقائد الأمم الوثنيَّة، التي تشرَّبها بولس في موطن ميلاده-طرسوس-التي يعتقد أهلها أنَّ الإله الذي يعبدونه "مات من أجلهم، ثمَّ قام من قبره، وأنَّه إذا دُعي بإيمان حقيقي ورافق الدعاء الطقوس الصحيحة، استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم، وأشركهم معه في موهبة الحياة الخالدة المباركة" (ص٧١). ويستنتج الكاتب بذلك أنَّ "بولس قد استمدَّ فكرة الفداء والتضحية وتكفير الخطايا البشريَّة من عقائد الأمم الوثنيَّة، ثم دمجها في عقيدته" (ص٧٢). ويتساءل الكاتب عن سبب طلب المسيحيِّين في صلواتهم المغفرة من الربِّ، وفق ما جاء في الآية ١٢ في الإصحاح ٦ من إنجيل متَّى "**وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا** كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا"، وقد دعا يسوع بذلك قبل صلبه وفدائه البشر وتكفيره آثامهم.

نعرف أنَّ عقيدة بولس الرَّسول تقتضي التوقُّف عن العمل بالناموس، مما يعني أنَّ ما ورد في العهد القديم من آيات تشير إلى أنَّ الربَّ لا يحمِّل الذنب إلَّا من اقترفه؛ لكنَّ الكاتب مع ذلك يشير إلى العديد من الآيات التي تحمل هذا المضمون، منها " لاَ يُقْتَلُ الآبَاءُ عَنِ الأَوْلاَدِ، وَلاَ يُقْتَلُ الأَوْلاَدُ عَنِ الآبَاءِ. كُلُّ إِنْسَانٍ بِخَطِيَّتِهِ يُقْتَلُ" (سفر التثنية: إصحاح ٢٤، آية ١٦)، و "لاَ تَمُوتُ الآبَاءُ لأَجْلِ الْبَنِينَ، وَلاَ الْبَنُونَ يَمُوتُونَ لأَجْلِ الآبَاءِ، بَلْ **كُلُّ وَاحِدٍ يَمُوتُ لأَجْلِ خَطِيَّتِهِ**" (سفر أخبار الأيَّام ٢: إصحاح ٢٥، آية ٤)، و "اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ. **اَلابْنُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ، وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الابْنِ.** بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ، وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ" (سفر حزقيال: إصحاح ١٨، آية ٢٠).

نأتي إلى مسألة في غاية الحساسيَّة في المسيحيَّة، وهي تأليه المسيح عيسى بن مريم، الذي يصفه بولس الرَّسول في رسالته إلى أهل روميَّة قائلًا عنه "**الْمَسِيحُ حَسَبَ الْجَسَدِ**، الْكَائِنُ عَلَى الْكُلِّ **إِلهًا مُبَارَكًا إِلَى الأَبَدِ**" (إصحاح ٩: آية ٥)، وقد أوضح بولس في مقدِّمة نفس الرسالة أنَّ للمسيح طبيعتين: بشريَّة وإلهيَّة "الَّذِي صَارَ مِنْ **نَسْلِ دَاوُدَ مِنْ جِهَةِ الْجَسَدِ**، وَتَعَيَّنَ **ابْنَ اللهِ** بِقُوَّةٍ **مِنْ جِهَةِ رُوحِ الْقَدَاسَةِ**، بِالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ: يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا" (إصحاح ١: آيتان ٣-٤). ويقول بولس في رسالته إلى فيلبي أنَّ يسوع كان يتمتَّع بكامل الصفات الألوهيَّة، لكنَّه تخلَّى عنها في سبيل التجسُّد في صورة بشريَّة يتقرَّب بها إلى البشر، فيجذبهم إليه "الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، **لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً للهِ**. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ" (إصحاح ٢: آيتان ٦-٧).

وبرغم تلك الإشارة المتكرِّرة إلى كمال ألوهيَّة المسيح، فهناك كذلك إشارات عديدة في رسائل بولس إلى أنَّ المسيح هو الابن، والرب هو الآب، ولكلٍّ استقلاليَّته. وقد قدَّم بولس الرَّسول الإله باعتباره أب يسوع في مقدِّمته رسالته إلى أهل أفسس "مُبَارَكٌ **اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ**، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ" (إصحاح ١: آية ٣)، وهو نفسه تقديمه له في رسالته إلى أهل روميَّة، في قوله "نِعْمَةٌ لَكُمْ **وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ**" (إصحاح ١: آية ٧)، وفي "لِكَيْ تُمَجِّدُوا **اللهَ أَبَا رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ**، بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَفَمٍ وَاحِدٍ" (إصحاح ١٥: آية ٦). ونُلاحظ أنَّ "الله" هو الآب و "المسيح" هو الرب، وفق وصف بولس، ويتَّضح ذلك أكثر في العديد من الآيات في رسائله، نذكر منها ما جاء في رسالته الثانية إلى تسالونيكي "وَرَبُّنَا نَفْسُهُ **يَسُوعُ الْمَسِيحُ، وَاللهُ أَبُونَا** الَّذِي أَحَبَّنَا وَأَعْطَانَا عَزَاءً أَبَدِيًّا وَرَجَاءً صَالِحًا بِالنِّعْمَةِ" (إصحاح ٢: آية ١٦).

تمتاز الروح، وفق عقيدة بولس الرَّسول، بطبيعة نورانيَّة غير ماديَّة، وهي أزليَّة، على عكس الجسد الفاني المخلوق من التراب. الروح تنبع من الإله الخالق وتربط الإنسان به؛ أمَّا الجسد، فهو من الأرض ويعود إليها ويجر الإنسان إلى الانغماس في الشهوات الجالبة للخطايا؛ وتشير هذه الآية في رسالة بولس إلى أهل روميَّة إلى هذا المفهوم "وَإِنْ كَانَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ، **فَالْجَسَدُ مَيِّتٌ بِسَبَبِ الْخَطِيَّةِ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَحَيَاةٌ بِسَبَبِ الْبِرِّ**" (إصحاح ٨: آية

١٠). والمقصود أنَّ الخطايا تميت الجسد، على عكس الإيمان، الذي يمنح الروح الحياة الأبديَّة.

ونأتي إلى مسألة في غاية الأهميَّة في المسيحيَّة، وهي طبيعة الروح القُدُس ووظيفته. فبينما حُدِّدت طبيعة الروح القُدُس في القرآن الكريم بحامل الوحي الملاك جبريل، ووظيفته بنقل الوحي الإلهي ونفخ الروح وتنفيذ أوامر إلهيَّة لمؤازرة البشر في أوقات الضيق، جعل بولس الرَّسول منه كائنًا إلهيًّا مستقلًّا له قدرات خارقة ترقى إلى القدرات الإلهيَّة. والتحام الروح القُدُس بجسد المسيح هو الذي جعل منه إلهًا، وفق ما ذكره بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس "**وَلَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ**" (إصحاح ١٢: آية ٣). والروح الذي هو مخلوق للربِّ، يمكنه أن يعرف ما بداخل الربِّ دون أن يقوله، كما جاء في الرسالة ذاتها "الرُّوحَ يَفْحَصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقَ اللهِ" (إصحاح ٢: آية ١٠).

ومن أهم التشريعات المثيرة للجدل التي أخرجها بولس الرَّسول إبطال العمل بالناموس بسبب تغيُّر الظروف التي نزل فيها عن زمن المسيح، ولأنَّه يصبح أحيانًا ضعيفًا وعديم النفع؛ وقد ورد ذلك في رسالته إلى العبرانيِّين "إِنْ تَغَيَّرَ الْكَهَنُوتُ، فَبِالضَّرُورَةِ **يَصِيرُ تَغَيُّرٌ لِلنَّامُوسِ** أَيْضًا" (إصحاح ٧: آية ١٢)، وكذلك في "يَصِيرُ **إِبْطَالُ الْوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ مِنْ أَجْلِ ضَعْفِهَا وَعَدَمِ نَفْعِهَا. إِذِ النَّامُوسُ لَمْ يُكَمِّلْ شَيْئًا**" (إصحاح ٧: آيتان ١٨–١٩). وقد أبطل بولس كذلك أحكام نجاسة المأكولات، كما وردت في العهد القديم، معتبرًا ألَّا شيء نجس إلَّا ما اعتبره المرء كذلك، كما جاء في رسالته إلى أهل روميَّة "إِنِّي عَالِمٌ وَمُتَيَقِّنٌ فِي الرَّبِّ يَسُوعَ أَنْ **لَيْسَ شَيْءٌ نَجِسًا بِذَاتِهِ، إِلاَّ مَنْ يَحْسِبُ شَيْئًا نَجِسًا**، فَلَهُ هُوَ نَجِسٌ. فَإِنْ كَانَ أَخُوكَ بِسَبَبِ طَعَامِكَ يُحْزَنُ، فَلَسْتَ تَسْلُكُ بَعْدُ حَسَبَ الْمَحَبَّةِ" (إصحاح ١٤: آيتان ١٤–١٥). وأحلَّ بولس أكل لحم الخنزير، برغم وجود آيات في سفر التثنية (إصحاح ١٤: آية ٨) وسفر اللاويِّين (إصحاح ١١: آيتان ٧–٨)، معتبرًا أنَّ الصلاة تطهِّر أي نجس في رسالته الأولى إلى تيموثاوس (إصحاح ٤: آيتان ٤–٥). وأحلَّ بولس كذلك شرب الخمر، برغم نصوص العهد القديم الناهية عن ذلك، منها ما جاء في سفر حبقوق (إصحاح ٢: آية ٥)، وسفر الأمثال (إصحاح ٢٣: آية ٢٠). ونجد بولس ينصح تلميذه تيموثاوس في رسالته الأولى إليه بشرب

الخمر، إذا كان في ذلك استشفاء (إصحاح ٥: آية ٢٣). وبرغم تكرار الإشارة في الأناجيل إلى تكرار المسيح الصلاة–كما جاء في إنجيل مرقس "وَفِي الصُّبْحِ بَاكِرًا جِدًّا قَامَ وَخَرَجَ وَمَضَى إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ، **وَكَانَ يُصَلِّي هُنَاكَ**"(إصحاح ١: آية ٣٥)، وفي إنجيل لوقا "وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ **يَعْتَزِلُ فِي الْبَرَارِي وَيُصَلِّي**" (إصحاح ٥: آية ١٦)، و "وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ خَرَجَ إِلَى الْجَبَلِ **لِيُصَلِّيَ**. وَقَضَى اللَّيْلَ كُلَّهُ **فِي الصَّلاَةِ للهِ**" (إصحاح ٦: آية ١٢)، كما كان يوصي بالصلاة والدعاء "وَإِذْ كَانَ **يُصَلِّي فِي مَوْضِعٍ**، لَمَّا فَرَغَ، قَالَ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ: «يَا رَبُّ، **عَلِّمْنَا أَنْ نُصَلِّيَ كَمَا عَلَّمَ يُوحَنَّا أَيْضًا تَلاَمِيذَهُ**». فَقَالَ لَهُمْ: «مَتَى **صَلَّيْتُمْ** فَقُولُوا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ، لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا كُلَّ يَوْمٍ،" (إصحاح ١١: آيات ١–٣) –نجد بولس الرَّسول يقلل من أهميَّة الصلاة "الرُّوحُ أَيْضًا يُعِينُ ضَعَفَاتِنَا، لأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا" (رسالة روميَّة: إصحاح ٨، آية ٢٦).

وفي النهاية، يشكِّك الكاتب في صحَّة تنزُّل رسائل بولس عليه من الربِّ، باعتبارها وحيًا إلهيًّا، تاركًا لقارئها الحكم في مدى إمكانيَّة تنزُّل مثل تلك الأقوال من السماء (ص١٣٢). **ويشير بوخاروف كذلك إلى دور بولس الرَّسول في "دمج الأفكار الوثنيَّة" بالوحي الإلهي، لتضليل الناس عن الرسالة السماويَّة الحقَّة التي جاء بها أولو العزم من الرُّسُل**–عليهم جميعًا أزكى الصلوات وأتم التسليم (ص١٣٢). ويشير الدكتور شلبي (١٩٩٨) إلى أنَّ اختيار بولس الاعتكاف في ذلك كهوف قمران كان تأسيًا بالأنبياء، **اعتقادًا منه أنَّه هو المخلِّص؛ وقد يبرر هذا الاعتقاد عداوَه تجاه دعوة نبي الله عيسى السماويَّة لمخالفتها عقائد القبَّالة والغنوصيَّة والغائيَّة التي تشبَّعت بها أسفار العهد القديم**، وقد قال عنه الدكتور شلبي بالنَّص "**قيل أنَّه لم يكن مكتمل التفكير والعقل**، وهو قد سَلَك مسلك الأنبياء الإسرائيليِّين في اعتكافهم في شمال الجزيرة–جنوب الأردن، **وفي هذا المعتكف اختلَّ عقله**" (ص٥٩). ولعلَّ في هذا الافتراض ما يشير كذلك إلى اتِّخاذه مهمَّة القديس يوحنَّا في التَّبشير بيسوع، كما تشير الأناجيل الأربعة ورسائله، رغمَّ مهمَّة نبي الله يحيى في القرآن كانت التصديق بصحَّة رسالة نبي الله عيسى. ويشير الدكتور شلبي إلى مصادر ترجِّح

استخدام بولس الرَّسول عبارات غامضة "كانت تُستعمل بين صوفيِّي اليونان والرومان وبعض الفرق الشرقيَّة"، مضيفًا أنَّ رسالة المسيح التي بين يدينا اليوم أُدخلت عليها تحريفات أشخاص "استقرَّ في أذهانهم أنَّهم يمثِّلون وحيًا جديدًا من الله"، وادَّعوا رؤية الربِّ الخالق والروح القُدُس، وهي ادِّعاءات يشترك معهم فيها إلى يومنا هذا ممارسو طقوس الصوفيَّة.

٤ .التَّبشير زمن رُسُل المسيح

سبقت الإشارة في الدراسة عن مخطوطات البحر الميَّت أنَّ أهم رُسُل المسيح قد لقوا مصيرًا مأساويًّا؛ فقد قُتل بطرس صلبًا، وبولس ذبحًا أو حرقًا، وقد لقي يعقوب البار، أخ المسيح يسوع بن يوسف في إنجيل يوحنَّا، حتفه على يد هيرودس، إمَّا بالسيف، أو بإلقائه من شرفات الهيكل أثناء دعوته. أمَّا مرقس، ابن أخت برنابا ومؤسس الكنيسة المصريَّة، فقد شُنق وجُرَّ جسده في الشوارع، ثمَّ مُثِّل به. ويعني ذلك المصير أنَّ رُسُل المسيح لم يجدوا من الحفاوة والترحيب ما يشجِّعهم على الاستمرار.

مرَّت الدعوة بعد المسيح بمشكلات متعدِّدة، فإلى جانب اضطهادات اليهود لأتباع المسيح، حالت محدوديَّة ثقافة التلاميذ دون توصيل الرسالة بمضمونها الصحيح. وتطوَّرت الدعوة التَّبشيريَّة تطوُّرا جذريًّا بعد دخول بولس الصورة وانضمامه إلى "رُسُل المسيح". اختار يسوع رسله لاستكمال مهمَّة التَّبشير بعد صلبه، ومنحهم سلطانًا يتكلَّمون به كي يصدِّقهم الناس، وفق ما ورد في **سفر أعمال الرُّسُل:** "وَفِيمَا هُوَ مُجْتَمِعٌ مَعَهُمْ أَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يَبْرَحُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ، بَلْ يَنْتَظِرُوا «**مَوْعِدَ الآبِ الَّذِي سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي. لأَنَّ يُوحَنَّا عَمَّدَ بِالْمَاءِ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَسَتَتَعَمَّدُونَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ**، لَيْسَ بَعْدَ هذِهِ الأَيَّامِ بِكَثِيرٍ»" (إصحاح ١: آيتان ٤–٥)؛ وتحدِّد الآية ١٣ من الإصحاح ١ أسماء الأحد عشر رسولًا " بُطْرُسُ وَيَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا وَأَنْدَرَاوُسُ وَفِيلُبُّسُ وَتُومَا وَبَرْثُولَمَاوُسُ وَمَتَّى وَيَعْقُوبُ بْنُ حَلْفَى وَسِمْعَانُ الْغَيُورُ وَيَهُوذَا أَخُو يَعْقُوبَ". وتجهَّز الرُّسُل بالكامل بعد لقائهم بيسوع، الذي أتاهم في اليوم الخمسين "وَلَمَّا حَضَرَ يَوْمُ الْخَمْسِينَ كَانَ الْجَمِيعُ مَعًا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. وَصَارَ بَغْتَةً مِنَ السَّمَاءِ صَوْتٌ كَمَا مِنْ هُبُوبِ رِيحٍ عَاصِفَةٍ وَمَلأَ كُلَّ الْبَيْتِ حَيْثُ كَانُوا جَالِسِينَ. وَظَهَرَتْ لَهُمْ أَلْسِنَةٌ مُنْقَسِمَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ نَارٍ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَامْتَلأَ الْجَمِيعُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَابْتَدَأُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُخْرَى

كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا" (سفر أعمال الرُّسُل: إصحاح ٢: آيات ١-٤). وتقف أمام مَن يدَّعون أنَّ الإله الخالق قد تجسَّد في صورة المسيح آيات في سفر الخروج تشير إلى سؤال موسى لربِّه أن يراه بعينيه "فَقَالَ (موسى): «أَرِنِي **مَجْدَكَ**». فَقَالَ: «أُجِيزُ كُلَّ جُودَتِي قُدَّامَكَ. وَأُنَادِي بِاسْمِ الرَّبِّ قُدَّامَكَ. وَأَتَرَاءَفُ عَلَى مَنْ أَتَرَاءَفُ، وَأَرْحَمُ مَنْ أَرْحَمُ». وَقَالَ: «**لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَرَانِي وَيَعِيشُ**». وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَ ذَا عِنْدِي مَكَانٌ، فَتَقِفُ عَلَى الصَّخْرَةِ. وَيَكُونُ مَتَى اجْتَازَ مَجْدِي، أَنِّي أَضَعُكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ، وَأَسْتُرُكَ بِيَدِي حَتَّى أَجْتَازَ. ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي، **وَأَمَّا وَجْهِي فَلاَ يُرَى**»" (إصحاح ٣٣: آيات ١٨-٢٣).

ويتَّفق ذلك مع دعوة يسوع تلامذته بعد قيامته، لمَّا رأوه فوق الجبل في الجليل "**فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ** وَعَمِّدُوهُمْ **بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ**" (إنجيل متَّى: إصحاح ٢٨، آية ١٩)؛ وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ يسوع طلب أن يكون التَّبشير والتعميد "**بِاسْمِ الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ**" برغم أنَّ مفهوم التثليث لم يكن قد أُدخل على عقيدته بعد. غير أنَّ في هذا تناقض صريح مع مهمَّة نبي الله عيسى المحدَّدة في القرآن الكريم، فقد أشارت إليه الآية ٤٩ من سورة آل عمران باعتباره "**وَرَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرَائِيلَ** أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ"، كما قدَّم هو نفسه إلى بني إسرائيل باعتباره رسولًا من الله إليهم "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم**" (سورة الصف: آية ٦). ولا يتناقض ما جاء في الآية ١٩ من إصحاح ٢٨ في إنجيل متَّى مع القرآن فحسب، بل مع ما جاء في الإصحاح ١٠ من إنجيل متَّى ذاته؛ فقد أوصى يسوع رسله الاثني عشر بعد تكريز (تبشير) الأمم، إنَّما بني إسرائيل "هؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً: «**إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ**" (آيات ٥-٧).

وكما يشير جينيبير، أخذ الحواريُّون جزءًا كبيرًا من عقيدتهم من رؤاهم للمسيح، وهي رؤى بدأت مع بطرس الرسول، ثم انتقلت إلى غيره من جماعته، ممن رأوا المسيح في نفس الهيئة التي وصفه بطرس عليها. ويقول الكاتب في هذا الصدد، "سواء أُرجع الأمر إلى التهيؤات والأحلام، أو إلى تفسير محموم لظواهر حسيَّة معينة، فالنتيجة واحدة: وهي أنَّ الصيَّادين

من أهل الجليل لم يكونوا ليستطيعوا تحليل ما حدث لهم، بل استسلموا كلَّ الاستسلام إلى ما ظنُّوه من وحي الله. وأدَّت الرؤى بالحواريِّين إلى الاقتناع بأنَّ عيسى "حي" أو-على الأقل- "بروحه" التي مجَّده الله" (ص٥٠). ويضيف الكاتب "الاقتناع بأنَّه حيٌّ يقتضي الاقتناع بأنَّه لم يعد ميتًا"، أي بُعث من قبره بجسد ما، وهذا ما فتح المجال أمام الاعتقاد في قيامة يسوع من قبره بعد ثلاثة أيَّام. واستنادًا إلى عقيدة القيامة هذه، "رسخت أسطورة البعث، ثمَّ نمت وتطوَّرت على الأخص في ربوع اليونان" (ص٥٠-٥١). ويرى الكاتب أنَّ من يتبَّع عقيدة بعث الإله بعد الموت يجد أنَّ أصولها في "الأسطورة الشرقيَّة القديمة التي تدور حول فكرة إله يموت ثمَّ يُبعث ليسير بأتباعه نحو حياة الخلود"، وقد نُقلت تلك الفكرة العقيدة المسيحيَّة المتأثِّرة بالفكر اليوناني، "فلم يلبث عيس أن تحوَّل بها من مسيح يهودي وشخصيَّة محليَّة لا أثر فيها للتراث اليوناني ولا يفهمها أهل اليونان، إلى ((عيسى المسيح، السيد والمنقذ، ابن الله وخليفته على الأرض، الذي يهتف باسمه سائر المؤمنين، وتنحني له الخليقة كلَّها إكبارًا وإجلالًا))-على حدِّ تعبير القديس بولس" (ص٥٢).

أمَّا عن رؤيا بطرس، فسفر أعمال الرُّسُل يقول عنها "رَأَى (بطرس) السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَإِنَاءً نَازِلاً عَلَيْهِ مِثْلَ مُلاَءَةٍ عَظِيمَةٍ مَرْبُوطَةٍ بِأَرْبَعَةِ أَطْرَافٍ وَمُدَلاَةٍ عَلَى الأَرْضِ. وَكَانَ فِيهَا كُلُّ دَوَابِّ الأَرْضِ وَالْوُحُوشِ وَالزَّحَّافَاتِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ. وَصَارَ إِلَيْهِ صَوْتٌ: «**قُمْ يَا بُطْرُسُ، اذْبَحْ وَكُلْ**». فَقَالَ بُطْرُسُ: «**كَلاَّ يَا رَبُّ! لأَنِّي لَمْ آكُلْ قَطُّ شَيْئًا دَنِسًا أَوْ نَجِسًا**». فَصَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا صَوْتٌ ثَانِيَةً: «**مَا طَهَّرَهُ اللهُ لاَ تُدَنِّسْهُ أَنْتَ!**»" (إصحاح ١٠: آيات ١١-١٥). وبينما كان بطرس حائرًا في معنى الرؤيا، جاءه الروح القُدُس ليخبره بالاستجابة لبضعة رجال أرسلهم الروح إليه ليبدأ مهمَّة دعوة الأمم، أي الأغيار "وَإِذْ **كَانَ بُطْرُسُ يَرْتَابُ فِي نَفْسِهِ**: مَاذَا عَسَى أَنْ تَكُونَ الرُّؤْيَا الَّتِي رَآهَا؟، إِذَا الرِّجَالُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا مِنْ قِبَلِ كَرْنِيلِيُوسَ، وكَانُوا قَدْ سَأَلُوا عَنْ بَيْتِ سِمْعَانَ وَقَدْ وَقَفُوا عَلَى الْبَابِ. وَنَادَوْا يَسْتَخْبِرُونَ: «هَلْ سِمْعَانُ الْمُلَقَّبُ بُطْرُسَ نَازِلٌ هُنَاكَ؟». وَبَيْنَمَا بُطْرُسُ مُتَفَكِّرٌ فِي الرُّؤْيَا، قَالَ لَهُ الرُّوحُ: «هُوَ ذَا ثَلاَثَةُ رِجَال يَطْلُبُونَكَ. لكِنْ قُمْ وَانْزِلْ وَاذْهَبْ مَعَهُمْ غَيْرَ مُرْتَابٍ فِي شَيْءٍ، لأَنِّي أَنَا قَدْ أَرْسَلْتُهُمْ». فَنَزَلَ بُطْرُسُ إِلَى الرِّجَالِ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ مِنْ قِبَلِ كَرْنِيلِيُوسَ، وَقَالَ: «هَا أَنَا الَّذِي تَطْلُبُونَهُ. **مَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي**

حَضَرْتُمْ لأَجْلِهِ؟». فَقَالُوا: «إِنَّ كَرْنِيلِيُوسَ قَائِدَ مِئَةٍ، رَجُلاً بَارًّا وَخَائِفَ اللهِ وَمَشْهُودًا لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةِ الْيَهُودِ، **أُوحِيَ إِلَيْهِ بِمَلاَكٍ مُقَدَّسٍ أَنْ يَسْتَدْعِيَكَ إِلَى بَيْتِهِ وَيَسْمَعَ مِنْكَ كَلاَمًا**» (سفر أعمال الرُّسُل: إصحاح ١٠، آيات ١٧-٢٢).

فهم بطرس بعد مقابلة كرنيليوس أنَّ من قصدهم في الرؤيا قائلًا عنهم "**دَنِسًا أَوْ نَجِسًا**" (سفر أعمال الرُّسُل: إصحاح ١٠، آية ١٤) هم الأغيار، الذين هم وفق عقيدة اليهود من لا يؤمن بالربِّ، الذي غيَّر هذا المفهوم لدى بطرس بأن قال ثلاث مرَّات "**مَا طَهَّرَهُ اللهُ لاَ تُدَنِّسْهُ أَنْتَ!**" (سفر أعمال الرُّسُل: إصحاح١٠، آية ١٥). وكما جاء على لسانه، تغيَّر ذلك المفهوم لدى بطرس، ولم يعد تعتبر الأغيار-الأجانب، وفق تعبيره-دنسين أو نجسين: "قال (بطرس) لهم: «**أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ كَيْفَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَى رَجُل يَهُودِيٍّ أَنْ يَلْتَصِقَ بِأَحَدٍ أَجْنَبِيٍّ أَوْ يَأْتِيَ إِلَيْهِ**. وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ **أَرَانِي اللهُ أَنْ لاَ أَقُولَ عَنْ إِنْسَانٍ مَا إِنَّهُ دَنِسٌ أَوْ نَجِسٌ**. فَلِذلِكَ جِئْتُ مِنْ دُونِ مُنَاقَضَةٍ إِذِ اسْتَدْعَيْتُمُونِي. فَأَسْتَخْبِرُكُمْ: لأَيِّ سَبَبٍ اسْتَدْعَيْتُمُونِي؟»" (سفر أعمال الرُّسُل: إصحاح ١٠، آيتان ٢٨-٢٩). وببدء بطرس حديثه بقول "**أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**" يؤكِّد أن مفهوم العنصريَّة ضد غير اليهود متأصِّل في عقيدتهم، ومعروف لدى الأغيار، ويبدو أنَّ يسوع جاء لمحو هذا المفهوم وبداية مرحلة جديدة في التآخي بين البشر. غير أنَّ الأغيار لن يصلوا أبدًا إلى النقاء الروحاني لليهود، أسلاف من تحدَّث إليهم الربُّ وتلقُّوا منه ألواح الشريعة على جبل الطور.

وعلى أي حالٍ، وكما جاء في سفر أعمال الرُّسُل، **كان بطرس وبولس أوَّل من قطع رحلة التَّبشير بعد قيامة المسيح**، ويرى الدكتور عبد الجليل شلبي (١٩٩٨) أنَّ بطرس كان بمثابة تابع لبولس، لما كان للثاني من خبرات وقراءات في تاريخ الأمم السابقة وفي فلسفاتهم؛ فبولس "يهودي درس اليهوديَّة والثقافة اليونانيَّة، استفاد من مدرسة الإسكندريَّة كثيرًا وإن لم يحضر إليها، فنقل إلى المسيحيَّة ثقافته" (ص٥١). أمَّا عن موقف تلاميذ المسيح، فقد استجابوا له، ومن ثمَّ لم يجد بولس عائقًا في تغيير مفاهيم الإنجيل الأصلي، وإدخال عقائد الأمم الوثنيَّة التي أفسد التوراة من قبل؛ فأصبح الإنجيل مكمِّلًا بالفعل للتوراة ومصدِّقًا لما فيها، ولكن مخالفًا لصحيح القرآن الكريم، وهذا يعني تحريف الكتابين، مصداقًا لقوله

تعالى في سورة آل عمران "نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ" (آية ٣).

ويرى جينيبير في كتابه آنف الذِّكر (١٩٢١) أنَّ دعوة المسيح بدأت بمنتهى البساطة للدعوة إلى سبيل الله الواحد، وذكر أنَّ بعثته هي لخراف بيت إسرائيل الضالَّة. ويرى الكاتب أنَّ مسألة بنوَّته للربِّ ربما تكون سوء فهم من بعض التلاميذ، ممن ابتدعوا فكرة التثليث فيما بعد وقالوا أنَّ الأقانيم الثلاثة واحد في الجوهر. فقد بدأت بدعوة رجل يُدعى يسوع الناصري، من مدينة الجليل في بيت لحم، في زمن الإمبراطور الروماني طيباريوس. لم تتجاوز حدود الدعوة الأولى النصح بعمل الخير لاقتراب ملكوت الربِّ، والنهي عن الظُّلم والاستغلال والاحتيال لأكل مال الضعفاء. ولمَّا لم تُعجب دعوته النظام الحاكم، والذين كان الحاكم المفوَّض من الدولة الرومانيَّة وحكماء اليهود أهم المؤثِّرين فيه، أُمر بقتله بعد مؤامرة حاكها حكماء اليهود. لم تنتهِ الدعوة بعد صَلب يسوع، إنَّما استمرَّت بتفويض شخصي منه، بعد قيامته، وأخذت تجتذب البسطاء شيئًا فشيئًا حتَّى انفصلت عن اليهوديَّة، وشكَّلت دينًا جديدًا. أثارت المسيحيَّة قلق الدولة الرومانيَّة، فأمرت بمحاربة معتنقيها؛ غير أنَّ السلطة الحاكمة رأت ألَّا سبيل لاستمرار المحاربة في ظلِّ انتشارها المتزايد، فاستسلم الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع الميلادي، وأصبحت المسيحيَّة دينًا رسميًّا للإمبراطوريَّة الشرقيَّة.

يستند المبشِّرون بالمسيحيَّة وفق العقيدتين الكاثوليكيَّة والأرثوذكسيَّة شرعيَّة دعوتهم التَّبشيريَّة ليس من اتِّصال رُسُل المسيح الأوائل به شخصيًّا قبل صلبه، إنَّما من اجتماعه به بعد قيامته، ومن تعمُّدهم بالرُوح القُدُس، كما جاء في الإصحاحين ١ و٢ من سفر أعمال الرُّسُل. وقد لاقى الرُّسُل معاناة شديدة، وقُتل معظمهم شرَّ قتلة، وعلى رأس المقتولين يأتي بطرس، الذي صُلب في روما، وكان معه بولس، الذي قُتل بعد سجنه عام ٦٦ ميلاديًّا. ويُذكر أن سفر أعمال الرُّسُل قد تناول بوضوح قصَّة هروب بطرس الرسول من سجن هيرودس على يد الملاك، الذي جاء وحطَّم قيوده "فَكَانَ بُطْرُسُ مَحْرُوسًا فِي السِّجْنِ، وَأَمَّا الْكَنِيسَةُ فَكَانَتْ تَصِيرُ مِنْهَا صَلاَةٌ بِلَجَاجَةٍ إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِهِ. وَلَمَّا كَانَ هِيرُودُسُ مُزْمِعًا أَنْ يُقَدِّمَهُ، كَانَ

بُطْرُسُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ نَائِمًا بَيْنَ عَسْكَرِيَّيْنِ مَرْبُوطًا بِسِلْسِلَتَيْنِ، وَكَانَ قُدَّامَ الْبَابِ حُرَّاسٌ يَحْرُسُونَ السِّجْنَ. وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ أَقْبَلَ، وَنُورٌ أَضَاءَ فِي الْبَيْتِ، فَضَرَبَ جَنْبَ بُطْرُسَ وَأَيْقَظَهُ قَائِلاً: «قُمْ عَاجِلاً!». فَسَقَطَتِ السِّلْسِلَتَانِ مِنْ يَدَيْهِ. وَقَالَ لَهُ الْمَلاَكُ: «تَمَنْطَقْ وَالْبَسْ نَعْلَيْكَ». فَفَعَلَ هكَذَا. فَقَالَ لَهُ: «الْبَسْ رِدَاءَكَ وَاتْبَعْنِي». فَخَرَجَ يَتْبَعُهُ. وَكَانَ لاَ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي جَرَى بِوَاسِطَةِ الْمَلاَكِ هُوَ حَقِيقِيٌّ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْظُرُ رُؤْيَا" (أعمال الرُّسُل: إصحاح ١٢، آيات ٥–٩).

وفي برهان جديد على أنَّ المسيحيَّة البولسيَّة قد صيغت بما يتَّفق مع صُلب العقيدة اليهوديَّة، وجَّه الرُّسُل الذين هربوا من يهودا فينيقيَّة وقبرص وأنطاكية–وهي بلدان انتشر فيها الفكر المستمد من الرواقيَّة والغنوصيَّة، أو لتقل القبَّالة–جهودهم لتبشير اليهود، وهذا ما يرويه الإصحاح ١١ في سفر أعمال الرُّسُل "أَمَّا الَّذِينَ تَشَتَّتُوا مِنْ جَرَّاءِ الضِّيقِ الَّذِي حَصَلَ بِسَبَبِ اسْتِفَانُوسَ فَاجْتَازُوا إِلَى فِينِيقِيَةَ وَقُبْرُسَ وَأَنْطَاكِيَةَ، **وَهُمْ لاَ يُكَلِّمُونَ أَحَدًا بِالْكَلِمَةِ إِلاَّ الْيَهُودَ فَقَطْ**" (آية ١٩). ويذكر الإصحاح ذاته أنَّ أنطاكية هي أوَّل مدينة سُمِّي فيها أتباع المسيح "مسيحيِّين"، كما تقول الآية ٢٦ "وَدُعِيَ التَّلاَمِيذُ «مَسِيحِيِّينَ» فِي أَنْطَاكِيَةَ أَوَّلاً". وكان الخلاف الأساسي بين المسيحيَّة البولسيَّة واليهوديَّة هو رفض البولسيَّة التقيُّد بأعمال الناموس الموسوي، برغم أنَّ المسيح قد قال في إنجيل متَّى (إصحاح ٥: آية ١٧) "**لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ**".

أخرَج بولس الرَّسول الدعوة التَّبشيريَّة من نطاقها المحدود في اليهود، أو بني إسرائيل بوصف القرآن، إلى سائر الأمم، مستشهدًا في ذلك بدعوة يسوع الرُّسُل بعد قيامته إلى تبشير الأمم، كما تذكر الآية ١٩ من الإصحاح ٢٨ في إنجيل متَّى آنفة الذِّكر. وكما سبق الإشارة، تركَّزت الدعوة خارج يهودا على اليهود في مدن دانت بعقائد قريبة من اليهوديَّة في مضمونها، مثل أنطاكية وفينيقيَّة وقبرص، وجاء بولس ليدعو أممًا وثنيَّة اختصَّها برسائله الأربع عشرة، هي **كورنثوس وفيلبي وتسالونيكي** في اليونان، **وغلاطية وأفسس** الواقعتين في الأناضول والمتأثِّرتين بالحضارة الهلنستيَّة، **وكولوسي** الواقعة في آسيا الصغرى والخاضعة للدولة البيزنطيَّة الشرقيَّة. وجَّه بولس الرَّسول دعوته بالمسيح ابن الله الذي في الإيمان به الخلاص إلى أمم اعتنقت عقائد دينيَّة تقوم على تعدُّد الآلهة وبنوَّة إله السماء لبشر باعتبارهم

أنصاف آلهة، وعقائد فلسفيَّة اعتبرت الإله الخالق روحًا ناريَّة تمنح الجسم البشري الحياة وتُكسبه الحكمة؛ فسهُل على عقليَّات أبناء تلك المدن قبول رسالة المسيح بمفردات بولس عن غيرهم. ويتَّفق وصف بولس في سفر أعمال الرُسُل لطبيعة الربِّ لمَّا رآه في طريقه إلى دمشق مع عقيدة الرواقيَّة، التي ترى الإله نارًا نقيَّة تمنح الحياة والفهم، "حَدَثَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ إِلَى دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ **نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ**" (إصحاح ٩: آية ٣)؛ ويتَّفق هذا الوصف كذلك مع المشاهدات الصوفيَّة للإله في الخلوات.

لم يتوقَّف خلاف بولس مع اليهود في مسألة التوقف عن العمل بالناموس، بل إنَّ نقطة الخلاف الجوهريَّة كانت في رفض اليهود تصديق زعمه أنَّ المسيَّا الموعود به في أسفار العدد، وصموئيل الثاني، وإشعياء، ودانيال قد ظهر في جسد يسوع بن يوسف، الذي ظهر وكذَّبه بنو إسرائيل، ثمَّ صلبوه، وفق معتقدهم. وكما كان اليهود–ولم يزالوا إلى عصرنا هذا– ينتظرون مخلِّصًا سيُظهرهم على كافَّة الأمم ويُخضع جميع الرقاب إلى سلطانهم، كان الرومان يترقَّبون ظهور المخلِّص لقتله والقضاء على دعوته، تمامًا مثلما حديث وقت ظهور نبي الله عيسى، ظنًّا منه أنَّه الموعود بحُكم العالم. ولمَّا رفض النبي عيسى مسايرة اليهود في مخططهم الإمبريالي، هم من أشعل ضدَّه الفتنة، مدَّعين أنَّه أراد أن يكون ملكًا لليهود، على أساس أنَّه صاحب نبوءة العهد القديم.

لن ننسى أنَّ تلك المرحلة شهدت ثورة اليهود ضدَّ الرومان، والمثير أنَّ تلك الثورة بدأت عام ٦٦ ميلاديًا، نفس عام مقتل بولس وبطرس على يد الإمبراطور الروماني، نيرون. ولن ننسى أنَّ اليهود تمسَّكوا بعقيدة المسيَّا المخلِّص، ويبدو أنَّ التمسُّك بتلك العقيدة هو سبب الصراع الدامي بينهم وبين الرومان، مما أدَّى إلى هلاكهم وشتات من بقي منهم في الأرض. ولم تكن رحلة بولس التَّبشيريَّة موفقَّة بما يكفي، فقد تعرَّض للسجن عام ٥٠ ميلاديًّا، فطالب بمحاكمته في روما، باعتباره مواطنًا رومانيًّا، وبالفعل اقتيد إلى روما، وبعد ذلك تضاربت الأقاويل عنه، وقد قُتل بقطع رأسه على أغلب الظنِّ.

٥.المسيحيَّة والتَّبشير بها بعد زمن رُسُل المسيح

استمدَّت المسيحيَّة شرعيَّتها بين الديانات التي سادت في الأزمنة القديمة واعتبرت إلهها ابنًا لإله السماء، من حقيقة وجود المسيح بين البشر. وكان لليهود المشتَّتين في بقاع الأرض، وبخاصَّة في الإسكندريَّة، دور بارز في نشر المسيحيَّة البولسيَّة. لم يجد اليهود المختلطين بأبناء الأمم الأخرى، التي سادت فيها عقائد الرواقيَّة والأفلاطونيَّة الحديثة–المستمدَّتين في الأصل من القبَّالة–مانعًا عن الإيمان بعقيدة تبشِّر بالنعيم في الملكوت بمجرَّد الإيمان بالمسيح، باعتباره المخلِّص. أمَّا عن الرسالة الصحيحة التي جاء بها نبي الله عيسى بن مريم، فقد لاقى ناشروها اضطهادًا أجبرهم على التوقف عن الدعوة. وقد شنَّ أباطرة الرومان حربهم على المسيحيَّة في مهدها، وربَّما كان الإمبراطور تراجان (٩٨–١١٧ ميلاديًّا) أوَّل من بدأ تلك الحرب. واستمرَّت الحرب على المسيحيَّة حتَّى أعلن الإمبراطور قسطنطين عام ٣٢٥ ميلاديًّا المسيحيَّة دينًا رسميًّا بعد مجمع نيقيَّة، ولكن على أساس اعتبار أنَّ المسيح ابنٌ للربِّ مساوٍ له في الألوهيَّة، **وقد وصدَّق على قرار التثليث ٣١٨ عضوًا فقط من أصل ٢٠٤٨ عضوًا شاركوا في المجمع، راضخين إلى تهديد الإمبراطور الوثني قسطنطين وصديقه كاهن روما.** وجاء مجمع القسطنطينيَّة عام ٣٨١ ميلاديًّا ليضيف إليهما الرُّوح القُدُس؛ فتشكَّل بذلك الثالوث المقدَّس الذي تؤمن به المسيحيَّة إلى يومنا هذا.

يتناول الدكتور شلبي (١٩٩٨) في أحد أجزاء دراسته التفصيليَّة مفهوم البابويَّة في المسيحيَّة، موضحًا أنَّ لكل كنيسة بابا مهمَّته التَّبشير وإقناع العامَّة بمعجزات المسيح وسرد قصَّته وآلامه في سبيل خلاص البشريَّة، ولكن بطريقة مبسَّطة يسهل على متواضعي التعليم فهمها (ص٨٨). ولا شكَّ أنَّ أصعب المفاهيم على عقليَّة البسطاء الثالوث المقدَّس، وتحوُّل الخبز والنبيذ إلى لحم المسيح ودمه، وحديث المسيح مع الشياطين في أجسام المرضى. وحرصت الدولة البيزنطيَّة على شرح تلك المفاهيم لمَّا أصبحت المسيحيَّة الدين الرسمي للدولة، فأصبح هناك تيَّارٌ ديني يوازي التيَّار السياسي السائد.

لم يكن فرض السيطرة على الكنيسة في الدولة البيزنطيَّة بالسهل، مع انقسامها إلى فرعين أساسيِّين: الكنيسة الشرقيَّة تحت إشراف أسقف القسطنطينيَّة، والكنيسة الغربيَّة تحت وصاية بابا روما. نشبت الخلافات بين الكنيستين بسبب اختلافهما المذهبي، ومحاولة كلٍّ منهما إثبات أفضليَّتها على الأخرى؛ فبينما رأت الكنيسة الشرقيَّة أجدر بإخضاع الكنائس الأخرى إلى وصايتها كونها أول كنيسة أُسِّست بعد دخول قسطنطين الأوَّل المسيحيَّة في القرن الرابع الميلادي، وكونها راعي المجامع المسكونيَّة، وجدت الكنيسة الغربيَّة نفسها أولى بموقع الريادة، على اعتبار تستند إلى تعاليم القديس بطرس، رسول المسيح، الذي استُشهد في روما خلال رحلته التَّبشيريَّة مع بولس الرَّسول عام ٦٦ ميلاديًّا. وقد أثيرت مسألة تفضيل كنيسة روما على كنيسة القسطنطينيَّة في مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ ميلاديًّا، الذي نتج عنه انشقاق الكنائس الشرقيَّة عن الكنائس الغربيَّة. وقد أصدر الإمبراطور الروماني عام ٤٥٥ ميلاديًّا قرارًا يقضي بخضوع جميع الأساقفة لسلطان بابا روما. واستمرَّت الدعوة إلى المسيحيَّة على ذلك النحو لأكثر من مائة وخمسين عامًا، بلا منافس تخضع له قلوب العباد، إلى أن ظهرت الرسالة المحمديَّة في الجزيرة العربيَّة ببعثة أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا مُحمَّد (ﷺ) تقريبًا عام ٦١٠ ميلاديًّا. واشتدَّ عداء المسيحيِّين تجاه الإسلام بعد فتح بيت المَقدس على يد الخليفة عمر بن الخطَّاب عام ٦٣٦، وظلَّت الغصَّة في قلوبهم حتَّى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وقتما شُنَّت الحملات الصليبيَّة على العالم الإسلامي.

يدَّعي المستشرق الأمريكي اليهودي برنارد لويس في مقالة بعنوان **أوروبا والإسلام** (١٩٩٠) أنَّ الحملات الصليبيَّة نهاية القرن الحادي عشر الميلادي (١٠٩٩) **استهدفت استعادة أراضي العالم المسيحي، التي استولى عليها المسلمون بوازع من عقيدة الجهاد، وبخاصة مهد المسيح في بلاد الشام.** ويدَّعي لويس كذلك أنَّ التاريخ الإسلامي ينفي عن تلك الهجمات الصفة الدينيَّة، بأن يشير إلى منظِّمي الحملات باسم "الفرنجة"، أو "الكفرة"، بينما يُعرف هؤلاء باسم الصليبيِّين، ويُعرف كذلك أن الغطاء الديني كان لإخفاء أهداف الغرب الحقيقيَّة، وعلى رأسها السيطرة على خيرات العالم الإسلامي، الذي اعترف لويس ذاته بثرائه المادِّي مقارنةً بالعالم المسيحي، ووضع حدٍّ للزحف الإسلامي، وبخاصة السلجوقي، إلى

أوروبا. يضيف لويس أنَّ الحملات الصليبيَّة بدأت بعد ما يقرب من خمسة قرون من خروج المسيحيِّين من العالم الإسلامي، وهي أقل من نصف الفترة منذ ذلك الحين ويومنا هذا.

شعر مسيحيُّو الغرب، على حدِّ وصف لويس (١٩٩٠)، بالمرارة لفقدانهم السيطرة على الشام ومصر والعراق وشمال إفريقيا؛ فكلُّها بقاع غُرست فيها المسيحيَّة حتَّى قبل أوروبا، ومن هنا كانت الخشية من تسرُّب الإسلام إلى العالم المسيحي الغربي أشد. ولعلَّ في التأثير الثقافي الهائل للإسلام والحضرة العربيَّة على إسبانيا وصقلية ما ضاعف من ذلك الخوف، خاصةً وأنَّ المتمسِّكين بالمسيحيَّة تبنوا استخدام العربيَّة (ص٩٤). وكان ذلك الخوف الدافع الأكبر لبدء دراسة العربيَّة في المحافل العلميَّة الغربيَّة. عكف الرهبان في أديرة أوروبا الغربيَّة على دراسة العربيَّة، سعيًا إلى فهم الإسلام لدحضه وتشويهه؛ فترجموا القرآن الكريم إلى اللاتينيَّة، ودرسوا النصوص الإسلاميَّة، في جهود عُرفت بعد قرون باسم "الاستشراق". أمَّا عن النتائج المرجوَّة من تلك الجهود ابتعاد المسيحيِّين عن فكرة الدخول في الإسلام، وإقناع المسلمين أنفسهم باتِّصاف دينهم بسلبيَّات وتناقضات تحط من قدره مقارنةً بالمسيحيَّة.

ويقول الدكتور شلبي في كتابه **الإرساليَّات التَّبشيريَّة** (١٩٩٨) أنَّ الأساس الديني للحروب الصليبيَّة يرجع إلى العداء بين الإسلام والمسيحيَّة منذ انتشار دعوة النبي في جزيرة العرب، ووصولها إلى الشام، التي كانت تحت سيطرة الدولة البيزنطيَّة، وانتزاعها من أيديهم في عهد الخليفة عمر بن الخطَّاب-رضي الله عنه وأرضاه-في القرن السابع الميلادي. وبعد أن دبَّ الضعف في أرجاء الدولة الإسلاميَّة شرقًا وغربًا، انتهز الغرب تلك الفرصة، وبدأ الزحف الصليبي على الشرق الإسلامي نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. وقد بدأت محاولة انتزاع الأراضي التي دخلها المسلمين من أيديهم في إسبانيا قبل ذلك بسنوات، حينما نظَّمت جماعة من رهبان الأديرة الكلونيَّة حملة لاستعادة الأندلس، واستجاب لها بعض أمراء أوروبا وهاجموا المسلمين عام ١٠١٨ ميلاديًّا.

ازدادت أحقاد الدولة البيزنطيَّة على المسلمين بعد هزيمتها في معركة ملاذكرت عام ١٠٧١ ميلاديًّا، ووقوع الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس أسيرًا في يد القائد المسلم ألب أرسلان، وإطلاق سراحه بعد دفعه فدية كبيرة، مما تسبِّب في إذلال الرومان وأثار رعبهم من

إمكانية تقدُّم المسلمين وإحرازهم مزيدًا من الانتصارات، التي كانت تعني سقوط دولتهم. ومع حدوث اضطرابات دائرة الحكم في دولة السلاجقة بعد موت ألب أرسلان، انتهز الرومان الفرصة، واجتمعوا بالبابا أروبان الثاني لإقناعه بمباركة غزو بلاد المسلمين لإيقاف تقدُّم السلاجقة من ناحية، والاستيلاء على خيرات العالم الإسلامي من ناحية أخرى. وكان الشعار الذي رفعته الكنيسة الغربيَّة وقتها "استعادة قبر المسيح والصلاة على الصخرة التي صُلب عليها"، وهكذا يُكتب لهم النعيم في ملكوت الآخرة. واستولى الصليبيُّون عام ١٠٩٩ ميلاديًّا بالفعل على المسجد الأقصى، وارتكبوا فيه مجازر في حق الكبار والصغار، ولم يوقِّروا شيخًا أو يعتقوا امرأة، وبحسب ما جاء في كتاب **الكامل** لابن الأثير (١٢٣١ ميلاديًّا)، وصل عدد المقتولين داخل أسوار المسجد الأقصى ٧٠ ألفًا.

انتفض القائد الكردي صلاح الدين الأيُّوبي، مؤسس الدولة الأيُّوبيَّة في مصر في عام ١١٧٤ ميلاديًّا، لتحرير الأرض المقدَّسة بعد العمل الإجرامي الشنيع الذي ارتكبه أرناط، ملك الكرك، أواخر عام ١١٨٦ ميلاديًّا بالإغارة على قافلة للحجَّاج ضمَّت أخت صلاح الدين، ضمن خطَّة رسمها أرناط للاستيلاء على الحرمين، ونبش قبر الرسول، ووضع جثمانه الشريف في متحف. كانت تلك الحادثة الدافع الأكبر للسلطان المسلم للانتصار للمقدَّسات الإسلاميَّة، وتهيَّأت أسباب الحرب عبد انتهاك أرناط الهدنة بينه وبين المسلمين، وقد أقسم صلاح الدين على أن يذبح أرناط بيديه لو طالته؛ فجهَّز الجيش، وانطلق إلى الشام لتبدأ المعارك، وكانت حطِّين المعركة الفاصلة، ليسقط الجيش الصليبي في الثاني من أكتوبر عام ١١٨٧ ميلاديًّا.

وازداد النشاط التَّبشيري في العالم الإسلامي بعد الحملات الصليبيَّة، حينما عني الرهبان بدراسة العلوم الإسلاميَّة، وحينها أُعطيت محاضرات في التاريخ والفكر الشرقي في مدارس إعداد المبشِّرين، ثم فتحت الجامعات الأوروبيَّة فصولًا للتدريس الدراسات الشرقيَّة، بما في ذلك الديانات واللغات والثقافة، فيما بات معروفًا لاحقًا بعلم **الاستشراق**. ولا شكَّ في أنَّ العلوم التي نقلها الغرب عن المسلمين خلال فترة الطفرة العلميَّة في الأندلس قد شكَّلت لديهم وعيًا فائقًا، استطاعوا من خلاله لاحقًا تطوير علوم صنعت حضارتهم الماديَّة. **وتتخصَّص**

مدارس التَّبشير في إعداد الدعاة إلى الإيمان بيسوع المسيح ابن الربِّ، مفتاح الخلاص وسبيل الفوز بنعيم ملكوت الآخرة، علميًّا لتوصيل الرسالة إلى البسطاء وإقناعهم بمزايا اعتناق تلك الرسالة، كما يقول الدكتور شلبي في كتابه (١٩٩٨، ص١٤٩). أمَّا الإرساليَّات فهي بعثات من المبشِّرين، تفد إلى البلدان غير المسيحيَّة لإقناع أهلها برسالة يسوع من خلال الترغيب. فعادةً ما تؤسس إلى جانب الكنيسة مدرسة أو مستشفى، ومن خلال حُسن المعاملة، وتقديم الخدمات الطبيَّة والتعليميَّة، يكتسب المبشِّرون حب البسطاء وثقتهم، مما يسهِّل مهمَّة الوصول إلى عقولهم وإقناعهم بالمسيحيَّة.

يقول الدكتور شلبي (١٩٩٨) "وكانت نشأة هذه الإرساليَّات...نتيجة لفشل الحملات الصليبيَّة؛ إذ أدرك الأوروبيُّون أنَّ الشرقيِّين تفوَّقوا عليهم بعامل الدين، وأنَّ المشاعر الدينيَّة هي التي اجتذبت المسلمين من الأماكن البعيدة ليقفوا–متطوِّعين–إلى جانب المحاربين المسلمين، ونال العسكريِّين اليأس البالغ من انتصارهم على قوم يتمسَّكون بدينهم كلِّ هذا التمسُّك، ونال رجال الكنيسة حزن أعمق؛ إذ كانوا يتوقَّعون بعد خطاب أوربان والجمع الغفير الذي استجاب له أن تسيطر أوروبا في جولة خاطفة على الشرق وأن تسود المسيحيَّة كلَّ ربوعه. فلمَّا باءت كلُّها بالفشل الذريع، ولم ينل الأوروبيُّون بعد طول الزمن وتكرار المحاولات سوى خسارة الأرواح والأموال والعتاد، لجأوا إلى غزو سلمي مأمون العاقبة، هو العمل على نشر المسيحيَّة بالدعاية والإغراءات الماديَّة. ودعا الأمر إلى إعداد مبشِّرين ذوي مقدرة على أداء هذه الرسالة، مسلَّحين بثقافات خاصَّة تمكِّنهم أن ينالوا بالسلم ما لم ينله تطاوُل الحروب" (ص١٥١). ويرجع فضل الأسبقيَّة في هذا إلى **المستشرق الإسباني رامون لول،** أكبر وأشهر مبشِّر في العصر الوسيط، وأوَّل من بنى منهجًا تبشيريًّا علميًّا.

٦.بداية التَّبشير وفق مناهج علميَّة متخصِّصة

وُلد رامون لول في جزيرة مايوركا الإسبانيَّة عام ١٢٣٦ ميلاديًّا، بعد استعادة الإسبان لها من العرب. وبرغم نشأته البعيدة عن الدين، فقد كوَّن ثقافة واسعة في مختلف المعارف، بفضل حرصه على التعلُّم وكثرة جولاته بين المدن لاكتساب المعرفة. ومن بين المجالات التي اجتذبت انتباه لول **التصوُّف، فعكف على دراسة الفلسفة، ونظم الشعر الصوفي المعبِّر عن**

فلسفته، والمتأثِّر بأعلام الصوفيَّة العرب قبل الغربيِّين. ويقول الكاتب محمد عبد الله الشرقاوي في كتابه **المستشرقون ونشأة التصوف الإسلامي** (٢٠١٧) –نقلًا عن ترجمة الدكتور طاهر أحمد مكِّي لكتاب **الأصول العربية لفلسفة رايموندو لوليو** (١٩٨٠)، تأليف المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا–أنَّ القطب الصوفي محيي الدين بن عربي كان له عظيم الأثر على التكوين الفكري لرامون لول. وينسب ريبيرا الفضل في عُمق ثقافة لول العربيَّة إلى اجتهاده في دراسة العربيَّة، وهكذا لم يطَّلع على ترجمات رديئة للاتينيَّة للفلسفة العربيَّة، إنَّما اكتسب معرفة مباشرة بأهم ما أنجزته الثقافة الإسلاميَّة. غير أنَّ تركيز لول انصبَّ على الصوفيَّة، فألَّف كتابين بالعربيَّة في هذا المجال، هما **التأليف والتوحيد** و**التأمُّل**.

سبقت الإشارة إلى عدم إيمان لول في صباه بأي دين، لكنَّ موقفه من الإيمان قد تبدَّل حينما رأى المسيح–وفق روايته–ثلاث مرات في يوم واحد، وطلب منه حينها الإيمان به، والعمل في سبيل تهيئة الظروف لاستقبال المخلِّص. ومنذ ذلك الحين، كرَّس لول جهده في سبيل الدعوة إلى المسيح، وهداية الكفَّار، وثنيِّين كانوا أم مسلمين. ويختلف لول عن غيره من المبشِّرين في اتِّباعه منهج مدروس في الوصول إلى عقليَّة المسلم. فبعد أن درس لول العربيَّة، ودرس طقوس عبادة المسلمين واطَّلع على عقائدهم الإيمانيَّة، كوَّن منهجًا يقوم على اجتذاب المسلمين إلى دينه من خلال إدخال طقوسهم إلى المسيحيَّة. فمثلًا، دعا لول إلى الخشوع في الصلوات الكنسيَّة، تمامًا مثل خشوع المسلمين في صلاتهم، كما دعا إلى إنشاد ما أسماها "أسماء الله المائة"، في كتاب يحمل الاسم ذاته، وفي هذا تقليد واضح لترديد المتصوِّفين أسماء الله التسعة وتسعين في حلقات الذِّكر. وفي كتابه **الصديق والمحبوب**، دعا لول إلى الزهد والسمو فوق مباهج الحياة، وإلى تعليم الرهبان الخشوع والتأمل.

وكما سبقت الإشارة، إدخال لول مفاهيم إسلاميَّة إلى المسيحيَّة كان لإقناع المسلمين بصحَّتها، وكان منهجه يقوم على ثلاثة أركان:

١–تعليم المبشِّرين اللغات الشرقيَّة، وضرورة إلمامهم بثقافة القوم الذين يتَّجهون إليهم. وانطلاقًا من تلك الدعوة، أمر ملك إسبانيا عام ١٢٧٤ ميلاديًّا بتأسيس كليَّة للدراسات الشرقيَّة، ربَّما كانت الأولى، لتتبعها ٥ كليَّات مشابهة أُلحقت بجامعات أوروبيَّة، إعمالًا

بتوصية مجمع فيينا المسكوني عام ١٣١١ ميلاديًّا، وبناءً على اقتراح لول، الذي كان من المشاركين به. حدَّد لول العربيَّة والسريانيَّة والعبريَّة والإغريقيَّة لتكون أجدر اللغات بالاهتمام.

٢-تأليف كُتُب تشرح المسيحيَّة وتكشف عن طبيعة دعوتها، والسبب في تلك الخطوة كان مطالبة مناظريه من علماء المسلمين إثبات ادِّعاءاته بشأن الإسلام، وتبرير تفوُّق المسيحيَّة عليه وجدارتها بالاعتناق عنه. غير أنَّ تلك الفكرة لم تجد الترحيب والحماسة الواجبين؛ فأُجِّل المشروع بعض الوقت حتَّى بدأت تصدر مؤلَّفات تطعن في الإسلام لصالح المسيحيَّة.

٣-تدريب المبشِّرين على الشجاعة في الدعوة إلى المسيحيَّة، مهما كانت العواقب، ولو وصلت إلى الموت. وقد وصف لول طريق التَّبشير في مذكِّراته بالشاق والمؤلم، لكنَّه سيؤدي في النهاية إلى نشر المسيحيَّة وتعميم الإيمان بها في العالم كلِّه. وكان المبشِّرون بعد فشل الحملات الصليبيَّة قد لقوا صعوبة شديدة ممارسة أعمالهم، بعد اهتزاز صورتهم في عيون المسلمين.

ويعتبر المبشِّر الإنجليزي وليام كاري (١٧٦١-١٨٣٤م) الابن البكر لرامون لول، برغم وجود ما يقرب من ٥٠٠ عام بين جهودهما التَّبشيريَّة؛ ويرجع ذلك إلى تطبيق كاري كافَّة التعليمات والتوصيات التي تركها لول، وبخاصَّة فيما يتعلَّق بتعلُّم لغة القوم الذين يتوجَّه إليهم وثقافتهم على النحو اللائق. تعلَّم كاري اللاتينيَّة واليونانيَّة والفرنسيَّة والعبريَّة، كما درس الهنديَّة قبل سفره إليها. وعملًا بنصيحة لول بترجمة الكتاب المقدَّس إلى اللغات الأخرى، أنجز كاري ترجمة بنغاليَّة للكتاب المقدَّس في خمس سنوات قبل مباشرة جهوده التَّبشيريَّة في الهند؛ وعملًا بنصيحة لول كذلك بنشر كتب تشر المسيحيَّة وتبرهن على صحَّة معتقدها، نشر كاري كتبًا تبشيريَّة استهدفت إعداد المبشِّرين، وقد لاقت رواجًا واسعًا حينها. وبفضل رواج أفكار كاري، تلقَّى تبرعات هائلة عاونته في عمله. تضافرت جهود كاري في الهند مع جهود الاحتلال البريطاني، وبناءً على توصياته، أُسست العديد من الكنائس في الدول الشرقيَّة، كما تُرجم الكتاب المقدَّس إلى العديد من لغاتها، وقد ترجم كاري بنفسه ١٠٠٠ صفحة منه إلى السنسكريتيَّة، لكنه مات قبل إتمام الترجمة.

في مقالها الذي يتضمَّنه كتاب **المبشِّرون الأمريكيّون والشرق الأوسط: لقاءات أساسيَّة–** American Missionaries and the Middle East: Foundational Encounters (٢٠١١)، تعترف بيث بارون–أستاذ التاريخ في جامعة مدينة نيويورك CUNY–في الفصل التاسع من الكتاب، الذي يركز على مقارنة أعمال الإرساليَّات، بأنَّ **الإرساليَّات التَّبشيريَّة إلى الشرق الأوسط اتَّخذت سمة التحديث والتطوير، حيث عمد المبشِّرون إلى إخفاء نواياهم الحقيقة في "تحويل المسلمين عن دينهم"؛ وذلك بسبب التوجيهات الإسلاميَّة المعادية لهذا السلوك.** كان لابد من توجيه داعمي الإرساليَّات ماليًّا إلى ضرورة كتم نواياهم الحقيقيَّة، ومن إقناعهم بأنَّ تحويل المسلمين عن الإسلام هو لإنقاذ أرواحهم من الهلاك في الجحيم إن ماتوا دون أن يؤمنوا بأنَّ الخلاص هو بالإيمان بالمخلِّص–وهو يسوع المسيح، وفق العقيدة المسيحيَّة. وتشير الكاتبة إلى مسألة أنَّ الجامعات والمعاهد المتخصِّصة في إعداد المبشِّرين قد حرصت على تلقينهم أرقى علوم العصر، مما منحهم صفة المحدِّثين. مع ذلك، فمعظم المبشِّرين لم يحصلوا على تعليم عالٍ؛ فانحصرت مهامهم في الوعظ، والتدريس، والتطبيب، ونشر مطبوعات الكتاب المقدَّس، وانصب تركيزهم على بسطاء المجتمعات، أي الشرائح العريضة من الفئات الشعبيَّة (ص٢٦٠).

استغلال المدارس والجمعيَّات الخيريَّة وملاجئ الأيتام في التَّبشير

جاء المبشِّرون إلى الشرق المسلم في صورة متعدِّدة، وبنطاقات واسعة للفكر المسيحي. وانتمى هؤلاء إلى مختلف بلدان العالم، على رأسها الولايات المتحدة، وبريطانيا وهولندا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وسويسرا، وأوروبا الإسكندنافيَّة. **وتجدر الإشارة إلى أنَّ الانتماء العقائدي لهؤلاء المبشِّرين لم يقتصر على مذهب بعينه، فكان منهم البروتستانت والكاثوليك.** وتلفِت بارون إلى أنَّ ملاجئ الأيتام كانت من أهم بيئات عمل المبشِّرين، وتلقي الضوء على تاريخ ملجأين للفتيات في مصر مطلع القرن العشرين، وقد أُسس أحدهما في العاصمة المصريَّة، القاهرة، والآخر في جنوب مصر، على يد مبشِّرتين أمريكيَّتين. أسست ملجأ القاهرة المبشِّرة مارغريت سميث، ضمن مشروعات الكنيسة المشيخيَّة المتحدة في أمريكا الشماليَّة (United Presbyterian Church of North America)؛ أمَّا ملجأ أسيوط

فكان من تأسيس مواطنتها ليليان تراشر، باعتباره مؤسسة مستقلَّة، ثم ضمَّته لاحقًا إلى جمعيات كنيسة الربِّ (Assembly of God Church).

وكانت فكرة جمْع الأيتام تحت سقف واحد، وعزلهم عن أقاربهم، وفصلهم عن أقرانهم من أبناء وطنهم، مع منحهم الرعاية والتأهيل المهني المناسبين، من أحدث أساليب الدعم الاجتماعي للدولة المصريَّة، التابعة حينها للإمبراطوريَّة العثمانيَّة. فعمد المستعمر البريطاني فور سيطرته على البلاد عام ١٨٨٢ ميلاديًّا إلى إغلاق المدارس والملاجئ، وخصخصة الخدمات الاجتماعيَّة. ومن هنا، وجدت الإرساليَّات البروتستانتيَّة والكاثوليكيَّة منفذًا سهلًا، كما تروي بارون **(ص٢٦٣)**. وضمَّت الملاجئ بين جدرانها أيتامًا من مختلف الطوائف المسيحيَّة، إلى جانب المسلمين. **وكان تحويل اليتيمات المنتميات إلى أسر مسلمة إلى المسيحيَّة أهم إنجاز للمبشِّرين**، وكان التحوُّل بمحض إرادة أبناء الملاجئ، وبدافع من أساليب التنشئة والتوجيه.

تذكر بارون أنَّ المبشِّرين الأمريكيِّين من أتباع الكنيسة المشيخيَّة المتحدة قد قطعوا رحلتهم إلى الشرق المسلم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بهدف "احتلال" المدن والبلدات المصريَّة، على حد وصفهم أنفسهم. **جدير بالذكر هنا أنَّ هذه الإرساليَّات جاءت للتمهيد للاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢، من خلال تسهيل مهمَّة المستعمر بإظهار صورة محبَّبة، تتمثَّل في منح التعليم والعلاج وفرص العمل والتثقيف وتطوير المهارات. وبما أنَّ الإرساليَّات استهدفت الفئات المهمَّشة ومتواضعة التعليم أكثر شيء، فكان من السهل جدًّا إقناعهم ببراءة المستعمر وحُسن أهدافه، برغم أنَّ الأموال المبذولة في تلك المشروعات هي قطرة من فيض خيرات المستعمرات المنهوبة بلا رقيب.**

كان للمبشِّرين من أعضاء الكنيسة المشيخيَّة المتَّحدة النصيب الأكبر من الجهد خلال القرن الذي قضوه في مصر، وقد حصر أعضاء ما عُرف بـ "الجمعيَّة التَّبشيريَّة المصريَّة" على اللقاء للتشاور بخصوص الخدمات التعليميَّة والعلاجيَّة. وقد كان الاعتماد على العنصر النسائي في تلك المهام أكبر؛ بالطبع لشدَّة تأثير القوَّة الناعمة على متواضعي التعليم. وكان تعلُّم العربيَّة من أهم الخطوات المتَّبعة في سبيل تحريف البسطاء عن دينهم؛ غير أنَّ اللكنة

الغربيَّة ظلَّت حائلًا دون اتِّساع رقعة المنجذبين. فمن معجزات العربيَّة صعوبة إتقانه على غير الناطقين بها ممن لغتهم الأم الإنجليزيَّة، إلَّا أنَّ العكس هو الصحيح في حالة تعلُّم العرب الإنجليزيَّة!

تشير بارون، في مقالها آنف الذِّكر (٢٠١١)، إلى أنَّ الجهود والإسهامات الذاتيَّة كان لها عظيم الأثر في تأسيس المدارس والملاجئ، وغير ذلك من المرافق اللازمة لإنجاز المهام التَّبشيريَّة؛ فكان المسيحيُّون المخلصون يجمعون التبرُّعات من بعضهم، ويتبادلون الأفكار الإرشاديَّة. وكان من بين كبار المسهمين زوجان أمريكيَّان من أتباع جماعة الأصدقاء الدينيَّة، أو الكويكرز. وتعود نشأة هذه الجماعة إلى منتصف القرن السابع عشر الميلادي، وتحديدًا في إنجلترا، حيث انشقَّ مؤسِّسوها عن الكنيسة الإنجليزيَّة حديثة النشأة، فتعرَّضوا بذلك إلى اضطهاد كنسي كبير، مما دفع بعضهم إلى اللجوء إلى أمريكا. وتذكر موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة أنَّ وليم بين–أحد مؤسِّسي جماعة الكويكرز–هو مؤسس ولاية بنسلفانيا؛ كي تكون ملجأ أبناء جماعته من الاضطهاد الإنجليزي، وكان ذلك عام ١٦٨٢ ميلاديًّا.

وتتحدَّث بارون عن ليليان تراشر، المبشِّرة الأمريكيَّة الوافدة إلى صعيد مصر، باعتبارها صاحبة تجربة ناجحة في التَّنصير تستحقُّ الاحترام والدراسة. ركَّزت تراشر جهودها على أكثر أبناء مصر تهميشًا حينها، سواءً من الأيتام أو الأطفال المهجورين (ص٢٦٩). ولكي تضمن "تحوُّل الأطفال جسديًّا وروحيًّا" إلى الصورة التي كانت ترتئيها، كانت تُجبر ذويهم على توقيع إقرارات بعدم المطالبة باستعادتهم حتى بلوغهم الثامنة عشرة من العمر (ص٢٧٢). وتروي تراشر في مذكِّراتها عن طفل "محمداني" تحدَّث إليها، ضمن آخرين، عن تجربته بعد تعلُّمه في مدرستها، قائلًا "في قريتي كنتُ آثمًا؛ أمَّا اليوم، فقد حفظني الربُّ، ولو قُطعتُ إربًا، لن أعبد الأوثان".

أثمرت البذرة التي زرعتها تراشر عن مؤمنين بالخلاص اليسوعي عن حقٍّ، منهم المصلِّي، والواعظ، والمرنِّم؛ وأصبح هؤلاء بدورهم يؤدُّون نفس الدور الذي كانت تؤدِّيه هي معهم مع غيرهم من الوافدين الجدد. غير أنَّ الرياح بدأت تأتي بما لا تشتهيه السفن، حيث بدأت السلطات الرسميَّة بإخراج المسلمين من الملجأ بعد اشتداد حملة مناهضة التَّبشير.

وبرغم إجلاء المبشِّرين إلى السودان خلال الحرب العالميَّة الثانية، بقيت تراشر في أسيوط، وطلبت جمع تبرعات من أمريكا. وبفضل تبرعات المصريين والأمريكيين، نجحت تراشر في التوسع؛ فحوَّلت مستشفاها إلى حضانة للأطفال دون السبعة أشهر، وأنشأت مستشفى آخر لعلاج الكبار. وبرغم خروج غالبيَّة الإرساليَّات التَّبشيريَّة مع جلاء المستعمر البريطاني في خمسينات القرن الماضي، بقيت تراشر في مكانها، كما لم تتأثر مؤسستها. وتُرجع بارون ذلك إلى معرفة جمال عبد الناصر –ثاني رؤساء مصر في العهد الجمهوري–بمؤسستها قبل صعوده إلى السلطة، حيث تقع المؤسسة في منطقة قريبة من مسقط رأس أبيه في بني مُر في صعيد مصر. جدير بالذِّكر أن مؤسسة تراشر وفَّرت المأوى للأطفال الميتَّمين من جرَّاء العدواني الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦.

خلَّدت الولايات المتحدة ذكرى المبشِّرة ليليان تراشر، فتناول سيرتها الذاتيَّة كتب وعمل سينمائي، واعتُبرت من أبطال المسيحيَّة. تحوَّلت تراشر إلى أسطورة، ومن أحدث ما صدر عن حياتها مسلسل للأطفال بعنوان Lilian Trasher: The Greatest Wonder in Egypt، أو ليليان تراشر: أكبر العجائب في مصر. ويفتح الحديث عن هذا النموذج في التَّبشير المجال للتحدُّث عن دور الإرساليَّات الأمريكيَّة إلى منطقة الشرق الأوسط في تنفيذ سياسات غربيَّة في العالم الإسلامي لا علاقة لها بالدين.

٧.علاقة الإرساليَّات البروتستانتيَّة بالسياسة الغربيَّة في العالم الإسلامي

بعد أن تناولت الدراسة عن مخطوطات البحر الميِّت نشأة المذهب البروتستانتي–المعروف بالصهيونيَّة المسيحيَّة–على يد القسِّ الألماني مارتن لوثر منتصف القرن السادس عشر استنادًا إلى العهد القديم في الكتاب المقدَّس، يرصد هذا القسم جهود أتباع هذا المذهب لنشر المسيحيَّة بين أبناء العالم الإسلامي. وكما اعتقد مؤسِّس المذهب أنَّ الاستناد إلى العهد القديم سيُقنع الكثيرين من اليهود باعتناق المسيحيَّة، تعمل الإرساليَّات المتَّبعة للمذهب على تنصير المسلمين، إعدادًا لاستقبال المخلِّص. **وكانت نبوءة ألفيَّة المسيَّا، التي تخبر عنها رؤيا يوحنَّا اللاهوتي في الإصحاح ٢٠، من أهم العقائد المحرِّكة لإرسال المبشِّرين.** وأضفت المعتقدات الأخرويَّة شعورًا بالعجالة على جهود المبشِّرين، ممن أرادوا تهيئة الأجواء

لاستقبال مخلِّص آخر الزمان. ولم تقتصر أهداف التَّبشير على تنصير غير المسيحيِّين، بل امتدت إلى تحويل المسيحيِّين الأرمن والسريانيِّين والمارونيِّين، برغم أنَّ مذاهبهم تعود إلى رسل يسوع الناصري، على عكس المذهب البروتستانتي، الذي ظهر في القرن السادس عشر، مفتقرًا إلى الكهنوت الذي منحه يسوع إلى الرُّسُل، وتناقلته الأجيال إلى يومنا هذا.

يتحدَّث الباحث الأمريكي جون باريت في رسالة دكتوراه بعنوان **International Politics, American Protestant Missions and the Middle East – السياسات الدوليَّة، الإرساليَّات البروتستانتيَّة الأمريكيَّة، والشرق الأوسط** (٢٠١٢) عن "الاهتمام الأكبر" الذي أولته الإدارة الأمريكيَّة بالإرساليَّات التَّبشيريَّة إلى الشرق الأوسط في الفترة السابقة للحرب العالميَّة الأولى، معترفًا في مستخلص رسالته بأنَّ **الإرساليَّات لعبت دورًا بالغ التأثير أثناء الحرب وفي أعقابها، ليس فقط في الدعوة إلى عدم الحرب في صفوف الجيش العثماني، إنَّما كذلك في تأييد حركات الاستقلال عن الدولة العثمانيَّة ومساندة الوصاية الأمريكيَّة على المنطقة. يعترف الباحث بنشر تلك الإرساليَّات الأفكار الغربيَّة وبثِّها في عقول الطلاب، وبتشجيع الحركات القوميَّة، مما أسهم في تفسُّخ الدولة العثمانيَّة**–الرابط الوحيد، والأخير حتَّى يومنا هذا، للشعوب المسلمة. غير أنَّ دور الإرساليَّات تضاءل في أعقاب الحرب العالميَّة الأولى، إلَّا أنَّها استعادت نشاطها بعد الحرب العالميَّة الثانية؛ والسبب في ذلك هو تنامي مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وتسليطها الاهتمام على أنشطة أهم.

انطلقت أولى الإرساليَّات التَّبشيريَّة إلى الشرق الأوسط عام ١٨١٩ ميلاديًّا، وبحلول عام ١٩٢٥، تجاوز عدد تلك الإرساليَّات المائتين. وقد وُلدت فكرة إرسال أولى الإرساليَّات إلى الشرق الأوسط خلال اجتماع خمسة من طلَّاب كليَّة ويليامز الأمريكيَّة، وهي كليَّة تأسَّست في ولاية ماساتشوستس لتدريس العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، عُقد عام ١٨٠٦ ميلاديًّا. تباحث الطلاب الخمسة أهميَّة نشر المسيحيَّة في الشرق الأوسط؛ وكان رأي الأغلبيَّة هو التأكيد على تلك الضرورة، وإن كان هناك رأي افترض أنَّ تحديث الشرق المسلم يجب أن يسبق التَّنصير. وقد ساندت السلطات الرسميَّة في ماساتشوستس تلك الفكرة بمرور الوقت،

حتى أُسِّس عام ١٨١٠ المجلس الأمريكي لمفوضي الإرساليَّات الأجنبيَّة (ABCFM). ظلَّ هذا المجلس الأعلى نشاطًا بين المؤسسات المعنيَّة بالتَّبشير، مقارنة بمؤسسات أخرى تخصَّصت كذلك في إعداد المبشِّرين وتدريبهم. وبوجه عام، شهدت الفترة ما بين عامي ١٨٨٠ و١٩٣٠ ميلاديًّا النشاط الأعلى في إرسال المبشِّرين إلى الشرق المسلم. وقد تضاعف عدد المنظمات التَّبشيريَّة من ١٦ فحسب عام ١٨٦٠ إلى ٩٠ عام ١٩٠٠ ميلاديًّا؛ كما تضاعف عدد المبشّرين من قاعدة محدودة عام ١٨٨٠ إلى أكثر من ٩ آلاف عام ١٩١٥ ميلاديًّا.

سبقت الإشارة في القسم الرابع في هذه الدراسة إلى أنَّ رُسُل المسيح قد اكتسبوا شرعيَّة دعوتهم التَّبشيريَّة من رؤياهم المسيح بعد قيامته وتكليفه لهم بالمهمَّة، وفق ما جاء في سِفر أعمال الرُّسُل (إصحاح ١: آيتان ٤-٥). وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ افتقار البروتستانتيَّة إلى التسلسل الرسولي-apostolic succession أهم ما يُعاب على هذا المذهب ويثير الشكوك حول صحَّته. وقد أوضح الأنبا شنودة الثالث-رئيس الكنيسة الأرثوذكسيَّة السابع عشر بعد المائة-في إحدى عظاته أنَّ كهنة الكنيستين الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة قد حصلوا على ما أطلق عليه "**السلطان الكهنوتي**" من رُسُل يسوع، ما يلزم أهم الطقوس الكنسيَّة، من تعميد وإقامة الصلوات ورسم القساوسة. ويستند الأنبا شنودة في ذلك إلى ما ورد في الإصحاح ١٠ من رسالة بولس الرَّسول إلى أهل روميَّة (آيات ١٣-١٥) " لأَنَّ «**كُلَّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَخْلُصُ**». **فَكَيْفَ يَدْعُونَ بِمَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِمَنْ لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يَسْمَعُونَ بِلاَ كَارِزٍ؟ وَكَيْفَ يَكْرِزُونَ إِنْ لَمْ يُرْسَلُوا؟** كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «مَا أَجْمَلَ أَقْدَامَ الْمُبَشِّرِينَ بِالسَّلاَمِ، الْمُبَشِّرِينَ بِالْخَيْرَاتِ»". ويشير الأنبا شنودة إلى تعمُّد أتباع البروتستانتيَّة الاستشهاد بالآية ١٣ "**كُلَّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَخْلُصُ**" وحدها، متجاهلين ضرورة انتقال الكهنوت عبر الأجيال من الرُّسُل الأوائل، وكذلك انتقال "**نفخة الرُّوح القُدُس**"، التي نفخها يسوع في الرُّسُل، ونقلها الرُّسُل إلى الكهنة، وهي ذاتها التي نفخها باباوات الكنيسة إلى يومنا هذا.

وشدَّد الأنبا شنودة على أهميَّة "الدخول في القنوات الشرعيَّة" لرَسم الكهنة، مستشهدًا بما حدث مع شاؤول الطرسوسي، الذي دعته الأقانيم الثلاثة إلى التكريز (التَّبشير): الابن في الإصحاح ٩ من سفر أعمال الرُّسُل؛ والروح القدس في الإصحاح ١٣ من نفس السفر (آية ٣) "قَالَ **الرُّوحُ الْقُدُسُ: «أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ»**"؛ والآب في الإصحاح ١ من رسالة بولس الرَّسول إلى أهل غلاطية (آيتان ١٥-١٦) " لَمَّا سَرَّ اللهَ الَّذِي أَفْرَزَنِي مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَدَعَانِي بِنِعْمَتِهِ. أَنْ يُعْلِنَ ابْنَهُ فِيَّ لأُبَشِّرَ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، لِلْوَقْتِ لَمْ أَسْتَشِرْ لَحْمًا وَدَمًا".

ومع هذا التعارض العقائدي بين المذهبين البروتستانتي والأرثوذكسي، رأت الإرساليَّات أنَّ في إصلاح أحوال الكنائس الشرقيَّة وإعلاء شأنها ضرورة قصوى ستنجز مهمة نشر تعاليم الكتاب المقدَّس في أولى مراحل التَّنصير، على أن يتبع ذلك التحوُّل إلى البروتستانتيَّة. وأطلق المبشِّرون على تلك الخطوة "التجربة العظيمة". برغم الصدام بين المبشِّرين وكنائسهم المحليَّة، وجد الطرفان مجالًا للاتفاق والتفاهم إذا ما تعلَّق الأمر بنزاعهما المشترك ضدَّ المسلمين.

أيُّهما أوَّلًا: التَّبشير أم التَّحديث؟

واجهت الإرساليَّات الأمريكيَّة إلى العالم الإسلامي تحديًا آخر غير الصراع المذهبي والعقائدي، وهو تأخُّر المسلمين عن رَكب المدنيَّة. ويعتبر الجدال بين أولويَّة التحديث أم التَّنصير من أهم السمات المميِّزة لأعمال الإرساليَّات في مهدها. أراد المبشِّرون من الأمم الأخرى اعتناق عقائدهم وطقوسهم الدينيَّة، ولكن مع اتِّباع الأعراف المجتمعيَّة والتعليميَّة والسياسيَّة الغربيَّة. تعلَّم المبشِّرون من تجربتهم السابقة مع الأمريكيِّين الأصليِّين- Native Americans، مَن أُطلق عليهم المسمَّى الخاطئ "الهنود الحُمر"، الذين تعذَّر اجتذابهم إلى المسيحيَّة بسبب تمسُّكهم بعاداتهم البدائيَّة. ويشير جوزيف جرابيل في كتابه الدبلوماسيَّة البروتستانتيَّة والشرق الأدنى: تأثير التَّبشير على السياسات الأمريكية (١٨١٠-١٩٢٧) - Protestant Diplomacy and the Near East: Missionary Influence on American Policy, 1810-1927 (١٩٧١) إلى أهم خطوة اتَّبعتها الإرساليَّات

التَّبشيريَّة، تمهيدًا لعمليَّة التَّنصير، برفع شعار: **تمدين الشعوب قبل تنصيرها.** لجأت الإرساليَّات إلى نشر الوعي التعليمي والسياسي، وتقديم الرعاية الصحيَّة، وتشجيع النمو الاقتصادي.

أتت الإرساليَّات التَّبشيريَّة إلى بلدان تعاني من الفقر والجهل والتأخُّر؛ ولضمان الانجذاب إليها، كان لابد وأن تصاحبها مجموعة من الشعارات والوعود بإصلاحات اقتصاديَّة واجتماعيَّة وأخلاقيَّة و، بالطبع، دينيَّة. وقد ذكر روفوس أندرسون–كاهن أمريكي عمل مساعدًا للمجلس الأمريكي لمفوضي الإرساليَّات الأجنبيَّة–في كتابه نظريَّة الإرساليَّات إلى الكفرة–The Theory of Missions to the Heathen (١٨٤٥) **أنَّ أهم العقبات في طريق تنصير الشعوب الأخرى عدم اعتناق تلك الأمم للأفكار والأخلاقيَّات الأساسيَّة للغرب، فيما يخص العدالة والمساواة وحقوق الإنسان ومعايير الحكم.** ويضيف أندرسون أنَّ التعليم ووسائل الإعلام من أهم أذرع الإرساليَّات في تنفيذ مشروعاتها.

على ذلك، يشير وليام هاتشسون في كتابه مهمَّة إلى العالم: الفكر البروتستانتي الأمريكي والإرساليَّات الأجنبيَّة– Errand to the World: American Protestant Thought and Foreign Missions(١٩٨٧) أنَّ تركيز المشروع التَّبشيري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد سُلِّط على **تأسيس مدارس تخدم أغراض التَّبشير من خلال المناهج الدراسيَّة والتدريب السلوكي. فأصبح الاهتمام ببناء المدارس يفوق الحرص على تأسيس كنائس جديدة؛ وكان السبب الأهم وراء ذلك طبيعة استجابة الشعوب الأخرى للحملات التَّبشيريَّة.** وبقي الصدام بين المنظِّرين بشأن أولويَّة التمدين على التَّنصير أو العكس حتَّى عشيَّة الحرب العالميَّة الأولى، حينما لم يبقَ من أهداف الإرساليَّات ما يلائم الأحداث سوى الأمل في النمو المجتمعي من خلال التعليم ونشر الديموقراطيَّة وتوفير الرعايَّة الصحيَّة واستخدام التقنيات الحديثة؛ أمَّا ركيزتا البعثات التَّبشيريَّة–ألفيَّة المسيَّا ومصفوفة التمدين والتَّنصير–فقد تراجع الاهتمام بهما. ويرجع السبب في ذلك إلى عدم إمكانية تصوُّر عودة المسيح على السحاب خلال سنوات الحرب وفي خضم ويلاتها المضنية. كان لابد من اللعب

على وتر ماديٍّ ملموس يغيِّم على الجانب الخارق للطبيعة في نبوءة يوحنَّا اللاهوتي إلى حين انقشاع غمَّة الحرب.

٨.دور الإرساليَّات في تشجيع الفكر القومي والنزعات الطائفيَّة باستغلال مؤسَّسات التعليم

كما رأى مصطفى خالدي وعُمر فرُّوخ في كتابهما الشهير **التَّبشير والاستعمار في البلاد العربيَّة** (١٩٥٣)، استغلَّ المبشِّرون العلم، الذي هو وسيلة للتحرر والرقي، في استعباد البشر، ثم دفعهم إلا الاستسلام إلى الاستعمار الخارجي بدافع من تحقيق المكسب المادي. ينصبُّ اهتمام المدارس الإرساليَّة على تخريج أفرادًا مسيحيِّين، وإن لم ينتفِ هدف الاستفادة من تفوُّقهم العلمي في تحقيق منافع دنيويَّة. غير أنَّ المنفعة من هؤلاء لا تصبُّ سوى في مصلحة الغرب المسيحي في خدمة مشروعاته. تُعد المدارس الإرساليَّة والبعثات إلى الغرب الطلَّاب ليكونوا قادة أوطانهم، ولا شكَّ أنَّ تلقينهم من الأفكار ما ينفع الغرب وحده هو أكبر ضامن لعمل هؤلاء بما يتَّفق وسياسة الغرب وأهدافه في بلاد الإسلام؛ ولهذا السبب، أولت الإرساليَّات اهتمامًا كبيرًا بالتعليم العالي.

منحت الامتيازات الأجنبيَّة التي انتزعها الاستعمار البريطاني من السُلطة الحاكمة في المستعمرات الآسيويَّة والإفريقيَّة، الفرصة لإرسال البعثات التَّبشيريَّة باسم الصداقة، والإسهام في رفع المعاناة، وتقديم الخدمات الطبيَّة والتعليميَّة. وهكذا، استطاع المستعمر البريطاني تأسيس الكنيسة البروتستانتيَّة، بهدف دفع المسلمين إلى ترك دينهم.

رأى المبشِّرون في بداية عملهم في العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر في الدولة العثمانيَّة عقبةً كبيرةً في سبيل تحقيق أهدافهم. غير أنَّ ذلك الموقف المعادي قد تغيَّر بمرور الوقت؛ **حيث رأى المبشِّرون في سياسات الدولة ما يستدعي التعاطف والتأييد، على أمل تعديل السياسات الأخرى المعادية للفكر الغربي. وقد تبدَّد الأمل في تغيير الدولة العثمانيَّة سياساتها لمجاراة النمط الغربي بالكامل عام ١٩٠٨ ميلاديًّا، حينما تمرَّد مجموعة من خرِّيجي المدارس والكليَّات غربيَّة الإدارة، من أعضاء حزب تركيا الفتاة، على السلطان عبد الحميد الثاني. كان من بين هؤلاء شباب تلقُّوا تعليمهم في جامعة البوسفور – Boğaziçi**

Üniversitesi، التي أسَّسها عام ١٨٦٣ ميلاديًّا كريستوفر روبرت، وهو مبشِّر أمريكي كرَّس ما بقي من حياته وقتها للتعليم الداعم لنشر الفكر الغربي والمتعارض مع التعاليم الإسلاميَّة. أُسِّست الجامعة وقتها باسم كليَّة روبرت، وقد تغيَّر اسمها لاحقًا بعد أنَّ أمَّمتها الحكومة التركيَّة.

استغلَّ المبشِّرون الأمريكيُّون، وعلى رأسهم جيمس بيرتون، اشتعال الصراع بين الدولة العثمانيَّة والأرمن بالتزامن مع بداية الحرب العالميَّة الأولى، والعنف الممارَس تجاه الأرمن، فطالب بيرتون وقتها بوصاية أمريكيَّة على أرمينيا، على أمل أن يُجبر الجيش الأمريكي الدولة العثمانيَّة على منْح الأرمن الاستقلال. من المثير للاهتمام أنَّ أبرز المؤيدين لمساعي بيرتون وقتها رؤساء الجامعات والمعاهد الأمريكيَّة في تركيا. وبالفعل، تحقَّق ما سعى إليه بيرتون، ومنحت **معاهدة سيفر** (١٩٢٠ ميلاديًّا) الاستقلال للدولة الأرمينيَّة.

ولم يتوقَّف دور بيرتون عند ذلك الحد؛ فقد كان من أبرز المشاركين في مفاوضات معاهدة لوزان (١٩٢٣ ميلاديًّا)، التي اعترفت بالجمهوريَّة التركيَّة، باعتبارها وريث الدولة العثمانيَّة، التي تمزقت وتحوَّلت إلى دول مستقلَّة، إيذانًا بسقوط الخلافة الإسلاميَّة عام ١٩٢٤ ميلاديًّا. عيَّن بيرتون نفسه مستشارًا للوفد الأمريكي، وممثلًا لمختلف المجالس التَّبشيريَّة في الشرق الأوسط. ولعب كيليب جيتس –رئيس جامعة البوسفور –دورًا مشابهًا؛ فقد كان مستشارًا رسميًّا. غير أنَّ جهود المبشِّرين لم تفلح تلك المرَّة في ضمان استقلاليَّة أرمينيا، حيث أنَّ معاهدة لوزان أبطلت معاهدة سيفر السابقة عليها.

كما سبقت الإشارة، **أسَّست الإرساليَّات عددًا من المدارس والجامعات لخدمة أغراض التَّنصير، ولعلَّ أشهرها الجامعة الأميريكيَّة في بيروت (AUB) والجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة (AUC). حرص المدرِّسون في تلك المؤسَّسات التعليميَّة على إبداء تعاطُف مع القضايا السياسيَّة لأبناء البلدان التي خدموا بها، مؤيدين حقَّ الشعوب العربيَّة في تقرير مصيرها.** ويعتبر هوارد بليس–رئيس الجامعة الأمريكيَّة في بيروت، ونجل مؤسِّسها، دانيال بليس–خير مثال على ذلك؛ فقد شارك في مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩ ميلاديًّا بهدف تكوين جبهة ضغط غربيَّة للمطالبة باستقلال البلدان العربيَّة.

برغم أنَّ نتائج الجهود طويلة الأمد للإرساليَّات كانت محدودة، فقد نجحت المؤسسات التعليميَّة التي أنشأتها في إنجاز خطوة في غاية الأهميَّة في طريق الإعداد لعمليَّة التَّنصير، **وهي إذكاء الشعور القومي لدى الجماهير العربيَّة، باعتباره بديلًا عن الانتماء إلى خلفيَّة إسلاميَّة موحَّدة.** غُذِّيت أدمغة الطلَّاب بأفكار غربيَّة خالصة في مجالات السياسة والاقتصاد والعلوم الاجتماعيَّة، وأصبح الخرِّيجون القادة والزعماء وأصحاب القرار، **ولا مجال للتساؤل عن الانتماء العقدي والسياسي لأمثال هؤلاء، ومدى خدمته لقضايا الأمَّة الإسلاميَّة عن حقٍّ.** ويقول روبرت كابلان عن الجامعة الأمريكيَّة في بيروت في كتابه **المستعربون: رومانسيَّة النخبة الأمريكيَّة– The Romance of an American Elite** (١٩٩٣) "**تبنَّت الجامعة مناخًا حرًّا في الفكر والنقاش، مما أثمر عن القوميَّة العربيَّة ومنحها فرصة التطوُّر. ويمكن القول بأنَّ القوميَّة العربيَّة ثمرة هذه الجامعة**" (ص٣٧).

دور الجامعات الأمريكيَّة في العالم العربي في عمليَّة التَّبشير

تخصِّص هيذر شاركي، أستاذ التاريخ في قسم حضارات ولغات الشرق الأدنى في جامعة بنسلفانيا الأمريكيَّة، خامس فصول كتابها American Evangelicals in Egypt: Missionary Encounters in an Age of Empire–**الإنجيليُّون الأمريكيُّون في مصر: لقاءات تبشيريَّة في عصر الإمبراطوريَّة** (٢٠٠٨)، لتناوُل دور الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة في منظومة التَّبشير، مستعرضةً قصَّة تأسيسها على يد تشارلز واطسون، المبشِّر الإنجيلي الذي تربَّى في مصر؛ لأنَّ أباه كان عضوًا الإرساليَّة الأفريقيَّة التابعة للكنيسة المشيخيَّة المتَّحدة في أمريكا الشماليَّة. كما تسر شاركي، استقال واطسون عام ١٩١٦ ميلاديًّا من منصب سكرتير الهيئة الإرساليَّة الأجنبيَّة في فيلادلفيا، ليبدأ مساعيه لتأسيس "كنيسة مسيحيَّة في مصر" بدعم من "الكنيسة المشيخيَّة المتَّحدة في أمريكا الشماليَّة وجناحها التَّبشيري" (ص١٤٩). تركَّزت جهود واطسون وقتها على البحث عن مكان مناسب لتأسيس الجامعة، بعد جمع التبرُّعات اللازمة، والحصول على موافقة السلطات البريطانيَّة، التي كانت تفرض حينها الحماية على مص، وتزامَن ذلك مع الحرب العالميَّة الأولى. وقد أوضح

واطسون في خطاب الاستقالة الذي أرسله بتاريخ ٢٤ أبريل ١٩١٦ ميلاديًّا، إلى هيئة الإرساليَّات الأجنبيَّة للكنيسة المشيخيَّة المتَّحدة في أمريكا الشماليَّة، أنَّ وظيفته التي أراد تركها لم تشعره بأنَّه كان يخدم عمليَّة التَّبشير على النحو الذي كان يريده، مضيفًا اعتقاده بأنَّه وكأنَّما "استُدعي" لتقديم خدمة أكثر عمومًا، هي "شكل أكثر تخصُّصًا من الجهود التَّبشيريَّة يستهدف تقديم يسوع المسيح للعالم الإسلامي بطريقة مفعمة بالحيويَّة". وتعترف شاركي بأنَّ "الرابط الصريح بين الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة والإرساليَّة التَّبشيريَّة" قد يصيب البعض بالدهشة (ص١٤٩).

فتحت الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة أبوابها أمام الطلَّاب عام ١٩٢٠ ميلاديًّا، بفضل جهود واطسون، الذي حرص منذ البداية على استقلالها عن إرساليَّة الكنيسة المشيخيَّة المتَّحدة، مما أثار حفيظة بعض المبشِّرين المشاركين في التخطيط لتأسيسها. غير أنَّ واطسون عمل على ضمِّ الجامعة حديثة النشأة إلى المجلس المشترك بين الإرساليَّات، وكان عبارة عن منتدً يجمع مختلف المؤسَّسات التَّبشيريَّة البروتستانتيَّة في مصر؛ هذا بالإضافة إلى تخصيص برنامج تدريبي للعربيَّة للمبشِّرين بالمسيحيَّة في مصر. وكانت لواطسون خلال سنوات رئاسته للجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة (من ١٩٢٠ إلى ١٩٤٥)، مشاركة فعَّالة في العديد المنظَّمات المسكونيَّة البروتستانتيَّة، من بينها World's Sunday School Association (WSSA)–الرابطة العالميَّة لمدارس الأحد، كما أسهم في تأسيس International Missionary Council (IMC)–مجلس التَّبشير الدولي، و Near East Christian Council (NECC)–المجلس المسيحي للشرق الأدنى، اللذين انبثق عنهما لاحقًا World Council of Churches (WCC)–مجلس الكنائس العالمي، و Middle East Council of Churches–مجلس كنائس الشرق الأوسط، كما ذكر ويليام آر. هوج في كتابه **Ecumenical Foundations–مؤسَّسات مسكونيَّة** (١٩٥٢). غير أنَّ هويَّة تشارلز واطسون بوصفه مبشِّرًا ربَّما نُسيت بعد أن جنحت الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة للعلمانيَّة.

تشير هيذر شاركي إلى أنَّ رحلة تشارلز واطسون التَّبشيريَّة تمتدُّ إلى ثلاث مراحل مختلفة مرَّت على الحقل التَّبشيري في مصر، وهي مرحلة ما قبل الحرب العالميَّة الأولى، التي باشر خلالها المبشِّرون مهامهم بلا قيود أو معوِّقات؛ ومرحلة سنوات الحرب، والتي أُجبر خلالها المبشِّرون على تغيير استراتيجيَّاتهم نتيجة المشاعر العدائيَّة التي أبداها المسلمون؛ وأخيرًا مرحلة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية، والتي شهدت تقيُّد علاقة أمريكا بالعالم العربي بمزيد من الموتِّرات، في أعقاب تأسيس دولة إسرائيل ونشوب الصراع العربي–الإسرائيلي، الذي ساندت فيه أمريكا، ولم تزل تساند، الجانب الإسرائيلي. وقد عبَّر واطسون في كتابيه **Egypt and the Christian Crusade–مصر والحملة الصليبيَّة المسيحيَّة** (١٩٠٧) و**In the Valley of the Nile–في وادي النيل** (١٩٠٨)، بأنَّ أمريكا، بفضل ما تنعم به من ازدهار ووفرة، على عاتقها دور لخدمة العالم، ولا شكَّ أنَّ كان يقصد بذاك الدور ترقية الهمج والأجلاف من أبناء الأمم غير المسيحيَّة بعد هدايتهم إلى نور المسيح. واقترح واطسون استغلال موارد أمريكا المتزايدة في خدمة أهداف التَّبشير.

الدور التَّبشيري للجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة

كما ذُكر من قبل، حرص تشارلز واطسون على فصل الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة عند تأسيسها عن العمل المباشر للإرساليَّات التَّبشيريَّة في مصر. ومع هذه الاستقلاليَّة عن جهود الكنيسة المشيخيَّة في السياسة والإشراف، اعتقد كبار المبشِّرين الأمريكيِّين في مصر أنَّ الجامعة حديثة النشأة بمثابة امتداد لعمل الإرساليَّات، وأنَّها "ستستخدم التعليم في رعاية الكنيسة الإنجيليَّة في مصر"، كما تذكر شاركي (ص١٥٢). وكما تشير وثيقة للمجمع الأعلى للكنيسة الإنجيلية، المعروف باسم سنودس النيل الإنجيلي، تحت عنوان "الجامعة بالقاهرة والإرساليَّة الأمريكيَّة في مصر"، تعود إلى عام ١٩٢١ ميلاديًّا، اعتبر قادة التَّبشير الإنجيلي أنَّ الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة سوف تكمل "منظومة التعليم العالي البروتستانتي في مصر" وتجتذب "أبناء المستنيرين الأقباط والمسلمين إلى التعليم الإنجيلي والحقيقة الإنجيليَّة". تشير شاركي إلى أنَّ فكرة تأسيس الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة طُرحت لأوَّل مرَّة عام ١٨٩٩ ميلاديًّا، لمَّا بدأ الحديث عن الحاجة إلى "**جامعة أو كليَّة مسيحيَّة في مصر**" تخدم الأهداف

التَّبشيريَّة؛ وبحلول عام ١٩١٥، اندرجت خطط تأسيس ذلك الكيان التعليمي تحت مسمَّى "**Christian University for Egypt**"، أو جامعة مسيحيَّة لمصر، نقلًا عن شاركي (ص١٥٢).

قبل تأسيس الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة، طُرحت فكرة تأسيس جامعة تخدم أهداف التَّبشير في العالم الإسلامي أكثر من مرَّة، تذكر شاركي منها ما أوصى به مبشِّرون بريطانيُّون وأمريكيُّون عام ١٩٠٦ ميلاديًّا، خلال اجتماع لهم لمناقشة التحديات التي تواجه جهودهم. وضع المؤتمرون أيديهم على أكثر ما احتاجوا إليه لدعم جهودهم، وهو تدريب المبشِّرين على كيفيَّة التعامل مع المسلمين، وإعداد موادَّ مطبوعة بلغات العالم الإسلامي، خاصَّة مع التحدي الذي مثَّلته مؤسَّسة الأزهر الشريف، التي تدرِّب الدعاة إلى الإسلام من شتَّى أنحاء العالم. تلقَّت فكرة التعاون التعليمي بين المبشِّرين دفعة نوعيَّة بعد مؤتمري ادنبره في اسكتلندا عام ١٩١٠، ولكهنؤ في الهند عام ١٩١١، وقد تولَّى المبشِّر الأمريكي الأشهر، صمويل زويمر، الوافد من Reformed Church in America، أو الكنيسة المُصلَحة في أمريكا، مهمَّة تنفيذ خطَّة التدريب التعاوني بين المبشِّرين. انتقل زويمر إلى مصر عام ١٩١١ ميلاديًّا، وعمد إلى تأسيس Cairo Study Centre، أو مركز القاهرة للدراسات، بالتعاون مع مبشِّرين بارزين آخرين، لتدريس المبشِّرين العربيَّة والإسلام.

من هنا، حرص تشارلز واطسون على ضمِّ مركز القاهرة للدراسات إلى الجامعة الأمريكيَّة حديثة التأسيس في القاهرة، ولكن بعد تغيير اسمه إلى School of Oriental Studies، أو كليَّة الدراسات الشرقيَّة. ظلَّت تلك الكليَّة تدرِّب المبشِّرين على التعامل بالعربيَّة مع المسلمين حتَّى منتصف الخمسينات من القرن الماضي. تطوَّر برنامج تدريس العربيَّة لإعداد المبشِّرين في الستينات، ليصبح مركز الدراسات العربيَّة، ثمَّ مركز دراسة العربيَّة في الخارج، مع الحفاظ على "الرؤية البروتستانتيَّة" التي أُسِّست الجامعة لخدمتها (ص١٥٥). وتشير شاركي إلى أنَّ واطسون برغم إيمانه بعالميَّة الإرساليَّة التَّبشيريَّة إلى مصر، وبضرورة الوصول إلى كافَّة الطلَّاب المصريين لتعريفهم بالمسيحيَّة، حرص المبشِّر المخضرم على تخفيف الخطاب ديني الطابع في تعاملاته مع الطلَّاب، المنتمين إلى الثقافة الإسلاميَّة. من

ثمَّ، استوجب اجتذاب الطلَّاب المسلمين إلى الجامعة وتنويع هويَّات الملتحقين بها "تحييد الهويَّة البروتستانتيَّة للجامعة" (ص١٥٩). وتذكر شاركي أنَّ واطسون كان يتأسَّف على تلك الممارسة المعروفة بـ "العلمنة"، وإن كانت منتشرة في كبرى المؤسسات التعليميَّة الأمريكيَّة التي أُنشأت لخدمة التَّبشير البروتستانتي؛ بل وكان واطسون يكره مسمِّى "العلمنة"، ويطلق عليه "حامض العلمانيَّة"، نقلًا عن شاركي (ص١٦٠).

وبرغم ذلك الحرص على تغليب الطابع العلماني على الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة، اتُّهمت الجامعة بارتكاب "جرائم" تبشيريَّة أثارت الشكوك حول طبيعة أهدافها (ص١٦٠). لعلَّ من أشهر ما أُخذ على الجامعة في هذا السياق، توزيع صمويل زويمر، الذي كان عضوًا في هيئة التدريس في كليَّة الدراسات الشرقيَّة، منشورات جدليَّة مسيحيَّة في الأزهر عام ١٩٢٨ ميلاديًّا؛ ومن أشهرها كذلك تحوُّل طالب يُدعى يوسف عبد الصمد إلى المسيحيَّة عام ١٩٣٢، برغم أنَّ تحوَّل على يد مبشِّر مصري، وقد شهد العام ذاته محاولة طالب فلسطيني اسمه عبد القادر الحسيني، فضح الهويَّة الدينيَّة للجامعة، من خلال قراءة محتوى بعض مؤلَّفات مكتبة في كليَّة الدراسات الشرقيَّة لإثبات أنَّ الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة "عدوَّة للإسلام"، كما ورد في كتاب The American University in Cairo: 1919-1987- الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة: ١٩١٩-١٩٨٧ (١٩٨٧) للورانس آر. ميرفي.

اعترف واطسون في رسالة وجَّهها بتاريخ ٢٢ فبراير من عام ١٩٣٣ ميلاديًّا، إلى أحد زعماء Missionary Education Movement، أو حركة تعليم المبشِّرين، بأنَّ الحملة المناهضة للتنصير التي شُنَّت ضدَّ الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة، أجبرت القائمين عليها على إعادة النظر في سياستها التعليميَّة. برغم أنَّها كانت جامعة خاصَّة مستقلَّة يمكنها التَّبشير بالمسيحيَّة دون قيود، فاضطرت إدارة الجامعة إلى تغليب الهويَّة العلمانيَّة، خاصَّة بعد أن بدأت تتلقَّى الدعم الحكومي. واستجابةً للحملة الهجوميَّة التي اتَّهمت الجامعة بالتَّنصير، أعاد واطسون النظر في تدريس مادَّة في علم الاجتماع، تضمَّن منهجها الدراسي دراسات في الكتاب المقدَّس، ودراسة عن حياة يسوع المسيح، ودراسات في علم الاجتماع المسيحي، إلى جانب دراسات في الفلسفة والديانات المقارنة، كانت تعكس "وجهة النظر المسيحيَّة"، نقلًا عن شاركي

(ص١٦٢). وكان واطسون قد استعان بمواطنه، جيمس كواي، المبشِّر التابع الكنيسة المشيخيَّة المتَّحدة في أمريكا الشماليَّة والمتخصِّص في الدراسات اللاهوتيَّة، لتدريس تلك المادَّة.

يروى جيمس كواي في مذكِّراته، التي عنونها **A Missionary Journey–رحلة مبشِّر**، عن تجربته في تدريس الكتاب المقدَّس وعلم الأخلاق من منظور مسيحي، لمجموعة من ١٥ طالبًا من المسلمين. بعد نقاشات عن مسائل اجتماعيَّة تخصُّ المجتمع المسلم، نشأت بين كواي وطلَّابه صداقة شجَّعته على مباشرة مهمَّة التعريف بالمسيحيَّة. وكما سجَّل في مذكِّراته بتاريخ ١٣ يناير ١٩٢٩ ميلاديًّا، حمل كواي مجموعة من نُسَخ الكتاب المقدَّس لطلَّابه المسلمين، ونصحهم بالاطِّلاع على محتواها؛ لفهم المزيد عن حياة يسوع، بعد تعرُّفهم على الجانب الأخلاقي لشخصيَّته، متظاهرًا بعد الاستعجال في تحصيل قيمة النسَخ. فوجئ كواي بالطلَّاب، عدا اثنين منهم، يتركون، ليس قيمة النسَخ، إنَّما النسَخ ذاتها. ذهبت روح الصداقة والألفة، وصار الطلَّاب يحضرون المحاضرات لاضطرارهم لذلك.

بحلول عقد الثلاثينات من القرن الماضي، أعاد تشارلز واطسون تقييم الجهود التَّبشيريَّة في العالم الإسلامي، بدفع من المشاعر المناهضة للتبشير في تلك الفترة، معترفًا في خطاب أرسله إلى أحد زعماء حركة تعليم المبشِّرين بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٢٧، بـ "فشل المسيحيَّة في فعل الخير"، وفي "حلِّ المشكلات الاجتماعيَّة"، وفي تعزيز "التعاون الدولي". وفي يناير من عام ١٩٣٢، نشر واطسون مقالًا تحت عنوان "Rethinking Missions –إعادة النظر في الإرساليَّات"، كان بمثابة "النقطة المفصليَّة" في تاريخ العمل التَّبشيري، كما رأى ويليام ارنست هوكينج في كتابه **Re-Thinking Missions: A Layman's Inquiry after One Hundred Years–إعادة النظر في الإرساليَّات: تحقيق شخص عادي بعد مائة عام** (١٩٣٢)؛ كونه أجبر المبشِّرين على الاعتراف بفضائل الديانات غير المسيحيَّة، والتشكيك فيما اعتُبر من الثوابت في الحقائق الأخلاقيَّة التي اعتقد فيها المفكِّرون البروتستانت.

اقتنع واطسون في السنوات اللاحقة بأنَّ التَّنصير بطريقته التقليديَّة لم يكن الخيار الصحيح. في كُتيِّب أعدَّه للمتبرِّعين للجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة في أمريكا، أشار واطسون إلى أنَّ الأهمَّ من مُسمَّى المنهج التَّبشيري هو محتواه. ليس من الضروري التصريح بأنَّ الهدف من المنهج التعليمي هو التعريف بالمسيحيَّة، ويكفي جرِّ المسلم إلى "قبول مضمون المسيحيَّة"، بما في ذلك "رؤيا المسيح للربِّ"، و "دعوة المسيح للتآلف مع الرب"، و "أسلوب حياة المسيح"، و "مُثُل المسيح للاستقامة والفضيلة"، نقلًا عن شاركي (ص١٦٧).

في عام ١٩٣٧ ميلاديًّا، نشر واطسون كتابًا يحمل عنوان **What is This Moslem World–ما هذا العالم الإسلامي**، مثَّل نقلة نوعيَّة في تصوُّره عن المسلمين؛ حيث بدأ الكتاب باعتذار للمسلمين عن الصورة "القاسية وغير المنصفة" التي رُسمت للإسلام في الأدب الغربي. اعترف واطسون في هذا الكتاب بالضغوط القوميَّة التي كانت تعرقل مساعي المبشِّرين، ممَّن دعاهم إلى التخلِّي عن الغرور المصاحب لارتباطهم بالمشروع الإمبريالي الغربي، وإلى إبراز نبرة التسامح التي تشتهر بها الأناجيل، مع نشر الحبِّ الربَّاني من خلال العمل الاجتماعي لخدمة الشعوب المسلمة. يُذكر أنَّ واطسون قد أطلق فكرة العمل الاجتماعي من خلال أحد برامج الجامعة، يُعرف بـ Extension Program، أو برنامج التمديد، بدأ عام ١٩٢٤ ميلاديًّا، واعتبره واطسون تعبير عن المشاركة المدنيَّة للجامعة.

استهدفت خدمات برنامج التمديد كافَّة طوائف المجتمع المصري، وكان من بين تلك الخدمات تنظيم محاضرات عامَّة لأشهر الشخصيَّات المصريَّة، وكان من بينهم مناصرو حقوق المرأة، مثل هدى شعراوي، وقوميُّون، مثل سلامة موسى. وأجَّرت الجامعة في الفتة ما بين عامي ١٩٣٧ و١٩٣٩ قاعة ايوارت، المتاخمة لمقرِّها القديم في ميدان التحرير في قلب القاهرة، لدار الإذاعة المصريَّة؛ لبثِّ الحفل الغنائي الشهري للمطربة العربيَّة الأشهر، أم كلثوم. المفارقة أنَّ استضافة قاعة تابعة للجامعة لحفلات غنائيَّة أثار حفيظة بعض المبشِّرين الإنجيليِّين في مصر، ممَّن رأوا أنَّ إذاعة أغنيات تؤجج المشاعر الشهوانيَّة يتعارض مع رسالة الجامعة المسيحيَّة. غير أنَّ واطسون رأى في ذلك تبرئة للأغنيات العاطفيَّة من السمعة البذيئة، مع الاعتراف بأنَّ حب الرجل للمرأة غريزة ربَّانيَّة!

بادر برنامج التمديد كذلك في تدريس التربية الجنسيَّة (sex education)، وحرص الدكتور فخري فرج، وهو كاثوليكي اتُّهم لاحقًا بازدراء الإسلام، على إلقاء محاضرات عن الأمراض التي تتنقل عبر الاتصال الجسدي. من هنا، استشعر واطسون أهميَّة إثارة تأثير البغاء على الصحَّة العامَّة في مصر. كان واطسون من مؤيِّدي ترخيص أوكار البغاء، وإخضاع العاملات في ذلك المجال لرقابة شرطيَّة وصحيَّة، وقد حرص المبشِّر الرائد على إتاحة تدريب مهني لممارِسات البغاء دون مواظبة بغرض إعالة أسرهن، داعيًا إلى إنشاء عيادات لمعالجة أمثال تلك الحالات، مع الحفاظ على سريَّة المريضات وعدم الخوض في تفاصيل حياتهنَّ. ووفق ما ذكره مقال عنوانه " Americans' university Growing up in Cairo–جامعة الأمريكيِّين تنمو في القاهرة"، عالجت عيادة رعاية الأطفال التي أسَّسها واطسون، أكثر من ألفي حالة في الشهر الواحد، هذا خلال عام ١٩٢٨ وحده. لمس واطسون كذلك دور تقديم الرعاية الصحيَّة في توسيع نطاق الجهود التَّبشيريَّة، ملفتًا إلى أهميَّة تقديم عناية طبيَّة لمرضى الرمد، خاصَّة مع ارتفاع نسبة الإصابة بالعمى أو فقدان البصر في إحدى العينين عن سائر بلدان العالم، والذي يلعب انتشار العدوى البكتيريَّة فيه دورٌ كبير.

أوضح تشارلز واطسون في كتيِّب دعائي تحت اسم **What's the Big Idea–ما هي الفكرة الكبيرة** (١٩٤٢) أنَّ المهمَّة المسندة إلى الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة كانت إقامة "جسر من الصداقة" بين مصر والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، مضيفًا أنَّ "الفكرة الكبيرة" وراء ذلك الصرح التعليمي نقل ما تمتلكه أمريكا من "مصادر هائلة من المعرفة العمليَّة **والديناميَّة المسيحيَّة**" بهدف تحسين الأوضاع في مصر. لم يخفِ واطسون في كتيِّب للتعريف بأهداف الجامعة الجانب الديني، أو لتقل المسيحي، في المهمَّة التعليميَّة لتلك الجامعة. تشير شاركي إلى أنَّ واطسون لم يفقد أبدًا إيمانه بإمكانيَّة استغلال الجامعة في خدمة المسيحيَّة، حتَّى أنَّه أعرب عام ١٩٤٤ ميلاديًّا، أي العام السابق على تركه رئاسة الجامعة، أن تسمح الأمم المتَّحدة، التي كانت على وشك التدشين، بحريَّة المعتَقد الديني، ممَّا يسمح بمباشرة أعمال التَّبشير بلا تقييد.

تلقي شاركي في نهاية الفصل المخصَّص لدور الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة في خدمة الإرساليَّات التَّبشيريَّة، الضوء على مشاركة الجامعة في تنفيذ مهام تخدم سياسات الإدارة الأمريكيَّة. حرص نائب واطسون في أبريل من عام ١٩٤٣ ميلاديًّا على التأكيد على ضرورة عدم دخول الجامعة في ارتباط مباشر مع أعمال الإدارة الأمريكيَّة. ومع ذلك، وبعد أشهر معدودات، أبرمت الجامعة مع وزارة الحرب الأمريكيَّة اتفاقًا يلزمها بتدريس الرياضيَّات والعلوم والإنجليزيَّة لأفراد الجيش الذين يمرُّون عبر أراضي الشرق الأوسط، خلال الفترة الباقية من الحرب العالميَّة الثانية، نقلًا عن شاركي (ص١٧٥).

الجامعات الأمريكيَّة في العالم الإسلامي ونشر الفكر القومي

لا تختلف الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة عن نظيرتها في بيروت، التي سبقت الإشارة إليها، في نشر القوميَّة، باعتبارها بديلًا عن الهويَّة الإسلاميَّة المشترَكَة بين شعوب العالم الإسلامي. فقد رأى مؤسس الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة، تشارلز واطسون، ضرورة مزج الجهود التَّبشيريَّة بالفكر القومي. **انضمَّ واطسون هو الآخر إلى إحدى إرساليَّات الكنيسة المشيخيَّة استهدفت تأسيس جامعة مسيحيَّة في مصر.** لم يدَّخر واطسون جهدًا في تدبير المال اللازم لتأسيس تلك الجامعة في مصر، وقد نجح في ذلك بالفعل، لتتأسس الجامعة عام ١٩١٩–تزامنًا مع نهاية الحرب العالميَّة الأولى، وبداية مرحلة جديدة في خطَّة التَّبشير الغربيَّة. **ومن المفارقات أنَّ الجامعة التي أُسِّست بهدف نشر وعي يتناغم مع عقائد الغرب المؤمنة بظهور المخلِّص في آخر الزمان، قد عارضت جماعة من أساتذتها قرارًا للكونجرس الأمريكي صدر عام ١٩٤٥ ميلاديًّا، دعا إلى تأييد الولايات المتحدة تأسيس دولة يهوديَّة في الشرق الأوسط. أضف إلى ذلك أنَّ جون بادو–رئيس الجامعة–قد أرسل إلى الرئيس الأمريكي ترومان عام ١٩٤٦ يحذِّره من استناد السياسات الأمريكيَّة إلى السياسات الأمريكيَّة الداخليَّة، في إشارة إلى الحشد الجماهيري للجماعات اليهوديَّة. وفي أعقاب اعتراف الرئيس ترومان بدولة إسرائيل عام ١٩٤٨، أعدَّ بادو اعتراضًا مفصَّلًا وصف فيه تلك الخطوة بأنَّها "مجحفة تجاه الحقوق العربيَّة الفلسطينيَّة، ومضرَّة بأفضل مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط".**

تجدر الإشارة إلى أنَّ إذكاء المشاعر القوميَّة لدى طلَّاب المؤسَّسات التعليميَّة الأمريكيَّة من العرب، يتعارض بالكليَّة مع فكرة تأسيس وطن قومي لليهود على أرضٍ عربيَّة. وجدير بالذكر كذلك أنَّ معارضة القائمين على بعض المؤسَّسات تبشيريَّة المرجعيَّة والأهداف لتأسيس إسرائيل والتأييد الغربي لذلك منعدمة التأثير في مواجهة التأييد العارم من مؤسَّسات تبشيريَّة أخرى؛ وكأنَّ معارضة تأسيس إسرائيل–مقر سيطرة المخلِّص وأتباعه على العالم–من قِبل بعض أتباع المؤسَّسات التَّبشيريَّة كان لامتصاص ثورة العرب، والحفاظ على جانب من ثقتهم في الغرب، من خلال الادِّعاء بأنَّ المفاوضات السياسيَّة ستعيد الأمور إلى نصابها.

إدراكًا لحقيقة أنَّ عدد المتنصِّرين عبر السنين لم يكن يُذكر إذا ما قورن على الأقل بعدد المهتدين إلى الإسلام، لم يجد الغرب **وسيلة أفضل من استغلال الدارسين في مؤسِّساته التعليميَّة في نشر الأفكار التي تريد غرسها في المجتمعات**. ويقول الكاتبان مصطفى خالدي وعُمر فرُّوخ (١٩٥٣) بالنصِّ "ومن رأي المبشِّرين أن تؤسس الكليات في المراكز الإسلاميَّة، ولذلك لم يكتفوا ببيروت بل أرادوا أن يكون ثمة كلية في القاهرة نفسها إلى جانب الجامع الأزهر. وهكذا أصبح للمبشرين الأمريكيِّين الكلية الأمريكيَّة في القاهرة، بعد كلية روبرت في إسطنبول أيضًا. ولم يكن رأي المبشِّرين الفرنسيِّين مخالفًا لذلك فأنشأوا كلية لهم في مدينة لاهور" (ص٧٩–٨٠).

ويتطرَّق مصطفى خالدي وعُمر فرُّوخ (١٩٥٣) إلى مفارقة وقعت في الجامعة الأميركيَّة في بيروت كشفت عن الأهداف التَّبشيريَّة للجامعة، برغم السمة العلمانيَّة التي تتَّخذها. ردًّا منها على احتجاج الطلَّاب المسلمين على إجبارهم الدخول إلى الكنيسة يوميًّا، أصدرت الجامعة عام ١٩٠٩ ميلاديًّا بيانًا قالت فيه "**هذه كليَّة مسيحيَّة، أُسِّست بأموال شعب مسيحي، هم اشتروا الأرض، وهم أقاموا الأبنية، وهم أنشأوا المستشفى وجهَّزوه، ولا يمكن للمؤسَّسة أن تستمرَّ إذا لم يساندها هؤلاء، وكلّ هذا قد فعله هؤلاء ليُوجِدوا تعليمًا يكون الإنجيل من موادِّه؛ فتُعرَض منافعه الحقيقيَّة المسيحيَّة على كلِّ تلميذ. وكلُّ طالبٍ يدخل مؤسَّستنا يجب أن يعرف سابقًا ماذا يُطلب منه**" (ص١٠٨). ويذكر خالدي وفرُّوخ كذلك موقف مجلس أمناء الجامعة حيال الواقعة ذاتها "**إنَّ الكليَّة لم تؤسَّس للتعليم العلماني، ولا لبثِّ الأخلاق**

الحميدة، ولكن من أولى غاياتها أن تُعلِّم الحقائق الكبرى التي في التوراة، وأن تكون مركزًا للنور المسيحي، وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على النَّاس وتوصيهم به" (ص١٠٩).

علاقة الإرساليَّات بنشأة إسرائيل

يشير باريت (٢٠١٢) إلى أنِّ الإرساليَّات لم تلعب دورًا فاعلًا في فلسطين سوى بعد الحرب العالميَّة الثانية عام ١٩٤٥ ميلاديًّا، حيث مُنيت التجارب الأولى قبل قرن من ذلك الزمن بالفشل نتيجة الاستجابة المحدودة. غير أنَّ الجمعيَّة المعمدانيَّة الجنوبيَّة قد أصدر قرارها عام ١٨٩٦ ميلاديًّا–عام قبل المؤتمر الصهيوني الأوَّل–ببعث إرساليَّة معمدانيَّة إلى فلسطين، معتبرةً ذلك أمرًا مُلحًّا. ويُعتبر الفلسطيني شكري موسى، ابن مدينة الناصرة، الذي اعتنق المذهب المعمداني أثناء دراسته في أمريكا، من أوائل مَن باشروا مهمَّة التَّبشير، وقد خلفه أحد أبناء إخوته بعد رحيله عام ١٩٢٨، عامان بعد تأسيس الكنيسة المعمدانيَّة في الناصرة. واستكمالًا لجهود موسى، وفَد المعمدانيُّون إلى فلسطين في ثلاثينات القرن الماضي، ليباشروا بناء الكنائس المعمدانيَّة ومدرسة الناصرة المعمدانيَّة. غير أنَّ اندلاع الحرب العالميَّة الثانية قد عطَّل أعمال المبشِّرين وأجبرهم على العودة إلى أمريكا.

ويلقي الباحث الضوء على حقيقة أنَّ المسيحيَّة الصهيونيَّة قد تلقَّت دعمًا من المحافظين في إسرائيل. يضرب الباحث المثل في ذلك بالقسِّ الأمريكي جيري فالويل، الذي دعاه رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق مناحيم بيجن–مؤسس حزب الليكود–إلى إسرائيل عام ١٩٧٨ ميلاديًّا، ومنحه عام ١٩٨٠ وسام جابوتنسكي تقديرًا لصداقته مع إسرائيل، وأهداه طائرةً خاصَّةً. نال فالويل حفاوة مماثلة من رؤساء الحكومات التالين، وعلى رأسهم إسحق رابين، وآرييل شارون، وبنيامين نتنياهو، الذي دعا عام ١٩٩٦ مجموعة من الزعماء المسيحيِّين إلى إسرائيل للتعبير عن دعمهم لإسرائيل وإطلاق حملة إعلانيَّة لأورشليم موحَّدة تحت زعامة إسرائيليَّة. وقد أثنى نتنياهو في خطاب ألقاه ضمن فعاليَّات قمَّة أورشليم التي عقدتها منظَّمة مسيحيُّون متَّحدون من أجل إسرائيل (CUFI) على جهود أتباع المسيحيَّة الصهيونيَّة، معتبرًا أنَّ جهودها سابقة على جهود الصهيونيَّة اليهوديَّة، بل ومكَّنت لها. ويُنسب إلى نتنياهو

وإيهود أولمرت–رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق–ثناؤهما على أقطاب الفكر المسيحي الصهيوني، على اعتبار أنَّهم هم من تحمَّلوا مسؤوليَّة شرح القضايا الحاسمة التي تواجه إسرائيل للملايين من المسيحيِّين. ومن بين مهام هؤلاء بلا شكٍّ تبرير أفعال الحكومة الإسرائيليَّة؛ فعلى سبيل المثال، استعان بيجن عند ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١ ميلاديًّا بالقس جيري فالويل في إقناع الرأي العام بضرورة الفعل. أضف إلى ذلك، جمع القساوسة البروتستانت ملايين الدولارات تبرعاتٍ لنُصرة قضيَّة إسرائيل، هذا إلى جانب عائدات السياحة الدينيَّة، حيث يشكِّل الحجاج المسيحيُّون ثُلُث عدد السائحين الوافدين إلى إسرائيل، ويلعب القساوسة دورًا بارزًا في إقناع معتنقي العقيدة الصهيونيَّة بهذه الزيارة، وإن لم يكن كافَّة السائحين المسيحيِّين يؤمنون بتلك العقيدة.

وتستمد الإرساليَّات ثقتها في الانتصار الماحق في النهاية برغم الصعوبات والإخفاقات وحالات الفشل من إيمانها العميق بقُرب عصر الهيمنة المسيحيَّة العالميَّة، مع قُرب ألفيَّة المسيَّا. وبرغم أنَّ نبوءات آخر الزمان هي المرجعيَّة الأساسيَّة لجهود التَّبشير، فإنَّ الجهود المبذولة في فلسطين لم تتغيَّر في طبيعة الاستراتيجيَّات المتَّبعة هناك؛ والسبب في ذلك هو ندرة حالات التحوُّل إلى المسيحيَّة، **فأدرك المبشِّرون أنَّ الأهم هو كسب ثقة المسلمين وتكوين صداقات معهم، على أن تسبق تلك الخطوة الدعوة إلى المسيحيَّة**. يذكر الباحث بالنص "بناء الصداقة والثقة، على سبيل المثال، بين المسيحيِّين وغيرهم يُعتبر خطوة أوَّليَّة حاسمة في مشاركة الإنجيل" (باريت، ٢٠١٢، ص١٠٩).

يرى باريت (٢٠١٢) أنَّ العديد من الأفكار المرتبطة بفترة ما قبل الألفيَّة تسرَّبت إلى الثقافة الأمريكيَّة، وربَّما هذا ما يدفع الكثيرين إلى تأييد دولة إسرائيل، على اعتبار أنَّها ستشهد أحداث نهاية العالم، وستحتضن المخلِّص وأتباعه في عصر ذهبي لم يُرى مثله. ويقدِّم الكاتب جون هاجي–أحد أشد المدافعين عن المسيحيَّة الصهيونيَّة–نموذجًا معبِّرًا عن هذا الفكر. ذكر هاجي في كتابه **العد التنازلي لأورشليم: تحذير إلى العالم– Jerusalem Countdown: A Warning to the World** (٢٠٠٦) أنَّ الحرب الأخيرة على أورشليم أوشكت، وهي حرب عالميَّة ستؤثِّر على العالم بأسره. دعا هاجي إسرائيل إلى عدم

منح الفلسطينيِّين أدنى مساحة من الأرض حتَّى يبرهنوا على نيَّتهم العيش في سلام إلى جانب الإسرائيليِّين؛ ويجب قبل كلِّ شيء تخلِّي كافَّة المنظَّمات الإرهابيَّة المتستِّرة بغطاء فلسطيني عن السلاح.

يضيف هاجي في كتابه **العد التنازلي لأورشليم** (٢٠٠٦) "الربُّ يتوعَّد الأمم التي تعادي إسرائيل؛ أمريكا، العرب، الاتحاد الأوروبي، الأمم المتَّحدة، روسيا، الصين–بالطبع كافَّة الأمم–في وادي القضاء. أي أمَّة تحسب أنَّها يمكنها التدخُّل في خطَّة الربِّ تجاه إسرائيل، بما في ذلك الولايات المتَّحدة، لا تقف أمام إسرائيل فحسب، إنَّما (تقف) في الأساس أمام الربِّ. يبعث الربُّ أمم العالم على أساس معاملتها دولة إسرائيل" (ص٢٠١).

ويصل الأمر بالكاتب الأمريكي مايكل دي. إيفانز، وهو مؤلِّف وصحافي ومعلِّق يترأس العديد من المؤسَّسات غير الربحيَّة ويعتنق المسيحيَّة الصهيونيَّة، إلى حدِّ الزعم بأن الرخاء الاقتصادي الأمريكي مرتبط بمدى مساندة الإدارة الأمريكيَّة دولة إسرائيل. يذكر إيفانز في كتابه **النبوءات الأمريكيَّة–The American Prophecies** (٢٠٠٤) أنَّ الكساد الأعظم الذي أصاب بلاده في ثلاثينات القرن الماضي كان عقابًا على معاداة الساميَّة، مشيرًا في سياق آخر إلى أنَّ أحداث ١١ سبتمبر ما كانت لتقع لو أنَّ الأمريكيِّين لم يتخلُّوا عن الوضوح الأخلاقي.

يتناول الكاتب جويل روزنبيرغ–يهودي الأصل–في كتابه **مركز الزلازل–Epicenter** (٢٠٠٦)، ويقصد بمركز الزلازل منطقة الشرق الأوسط، نبوءة الكتاب المقدَّس عن حشد روسيا وإيران القوى للهجوم على إسرائيل في آخر الزمان. يتحدَّى الكاتب النبوءة، مطالبًا الولايات المتَّحدة بعدم الوقوف مكتوفة الأيدي في انتظار القدر الإلهي، وداعيًا إلى منع إيران امتلاك سلاح نووي. ويتفق مايك إيفانز مع روزنبيرغ في ذلك، ويرى أنَّ الولايات المتَّحدة يمكنها اختيار التحالف المناسب لها في آخر الزمان، والاصطفاف إلى جانب إسرائيل في حربها المقدَّسة.

يستنتج الباحث أنَّ المنظور الإنجيلي تجاه الشرق الأوسط متأثِّر بعقيدة ما قبل الألفيَّة، التي تعتقد أنَّ معاهدةً–لتقل صلحًا–ستُبرم بين إسرائيل وضدِّ المسيح لوقف الحرب، لكنَّها ستُنتهك من خلال هجوم مباغت. من اللافت أنَّ مضمون هذه النبوءة يتشابه مع ما جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله (ﷺ) والوارد في مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، والمستدرك على الصحيحين "**ستصالحون الروم صلحاً آمناً** فَتَغْزونَ أنتم وهم عدواً من ورائهم فَتَسْلَمُونَ وَتْغنَمون ثم تَنْزِلونَ بمَرْجٍ ذي تَلُولَ فيقوم رجل من الروم فيرفع الصليب ويقول: غَلَبَ الصَّليب فيقوم إليه رجل من المسلمين فَيَقْتِلُه فيغدر الروم وتكون الملاحم فيجتمعون لكم في ثمانين غاية مع كل غاية اثنا عشر ألفًا". لا شكَّ في أنَّ مضمون الحديث متقارب مع مضمون النبوءة الإنجيليَّة، لكنَّ الفئة الباغية عكس الأخرى في كلٍّ؛ ولا شكَّ كذلك في أنَّ ضد المسيح هو إمام المسلمين في هذا الحين، لكنَّ الغادر هو الروم وفق معتقد المسلمين، في ضوء الحديث المذكور.

موقف الإرساليَّات من دولة إسرائيل

عاد المبشِّرون إلى فلسطين بعد انتهاء الحرب، وعمدوا إلى بناء مزيد من المؤسَّسات الداعمة لمساعيهم، واستهدفت تلك المؤسَّسات تقديم خدمات الدعم الصحي والتنمية المحليَّة. ولم تثمر جهود التَّبشير على مدار ستة عقود عن نسبة تُذكر من المتحوِّلين إلى المسيحيَّة، كما أنَّ غالبيَّة البروتستانت من الفلسطينيِّين يهاجرون إلى بلدان أخرى لتفادي صعوبات الحياة في موطنهم الأصلي.

وانقسمت مواقف الإرساليَّات حيال دولة إسرائيل والمسيحيَّة الصهيونيَّة ما بين الانتقاد والتأييد. طالبت الجمعيَّة المعمدانيَّة الجنوبيَّة بموقف محايد تجاه القضيَّة، وكذلك أبدت كليَّة بيت لحم للكتاب المقدس تأييدها المستمر للفلسطينيِّين، وتفرَّغت لتدريبهم على مقاومة الظلم من خلال نبْذ أشكال العنف كافَّة باتِّباع نهج استراتيجي روحاني. ومؤسس كليَّة بيت لحم هو بشارة عوض، فلسطيني الأصل، أمريكي المولد، وُلد لأم تحوَّلت إلى المسيحيَّة بتأثير من إحدى الإرساليَّات الأمريكيَّة. عاد عوض إلى فلسطين للمشاركة في جهود التَّبشير بعد تلقِّيه التعليم اللاهوتي اللازم. وقد عبَّر أخوه أليكس عوض، عضو مجلس إدارة كليَّة بيت لحم

وصاحب جهود تبشيريَّة مشابهة، في كتابه **من خلال أعين الضحايا: قصَّة الصراع العربي الإسرائيلي- Through the Eyes of the Victims: The Story of The Arab-Israeli Conflict** (٢٠٠١)، عن معاناة الشعب الفلسطيني، مطالبًا بمساندتهم في تأسيس دولته، ومنتقدًا سلبيَّة مشاعر مسيحيِّي الغرب تجاه حقوقه.

وقد عقدت كليَّة بيت لحم للكتاب المقدَّس عام ٢٠١٠ ميلاديًّا مؤتمرًا أطلقت عليه "المسيح عند الحاجز-Christ at the Checkpoint" لمناقشة مسألة حاسمة، وهي **كيف ينبغي على أتباع المسيح الاستجابة إلى الصراع السياسي متعدِّد الأوجه؟** وقد مُنح المؤتمر دعمًا من شخصيات مسيحيَّة بارزة في المجتمع الأمريكي، وشهد مشاركة عدد كبير من الإنجيليِّين الأمريكيِّين، وقد خرج المؤتمر بأربعة أهداف أساسيَّة: ١-تمكين الكنيسة الفلسطينيَّة وتشجيعها؛ ٢-فضح حقيقة الظلم على الأراضي الفلسطينيَّة ونشر الوعي بالعوائق في طريق المصالحة وإحلال السلام؛ ٣.تكوين منصَّة للتعامل الجاد مع أقطاب المسيحيَّة الصهيونيَّة، وفتح مجال للحوار المستمر في إطار العقيدة الإنجيليَّة؛ ٤.تشجيع المشاركين على الدفاع عن مساعي المصالحة التي تبذلها الكنيسة الفلسطينيَّة/الإسرائيليَّة، وتبعات ذلك على مستوى الشرق الأوسط.

وتجدر الإشارة هُنا إلى مثال ساقه الكاتبين مصطفى خالدي وعُمر فرُّوخ في كتابهما **التَّبشير والاستعمار في البلاد العربيَّة** (١٩٥٣) آنف الذِّكر، عن تحيُّز المؤسَّسات الإنسانيَّة الغربيَّة التابعة للإرساليَّات في تقديم خدماتها، وهو ما فعله **الصليب الأحمر خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ميلاديًّا**. ويستشهد الكاتبان بمقال نشرته جريدة الديار في عددها ١٦٢٨، الصادر في ٧ يوليو من عام ١٩٤٨، **وفيه يحتجُّ الدكتور جورج حنَّا، رئيس لجنة إغاثة فلسطين في بيروت وعضو جمعيَّة الصليب الأحمر اللبناني. كان عنوان المقال** "**حتَّى الصليب الأحمر الدولي يتحيَّز لليهود**". جاء في نصِّ المقال الموجَّه إلى رئيسة جمعيَّة الصليب الأحمر اللبنانيَّة "**أتقدَّم بالشكوى المرَّة من الإهمال الذي يبديه الصليب الأحمر الدولي تجاه المستشفى (مستشفى الصليب الأحمر اللبناني في عكَّا) ... وفيما نرى الصليب الأحمر الدولي يُعنى بتموين ورعاية الجرحى واللاجئين والمحاصرين من اليهود**

فهو يتظاهر بالعجز عن مساعدة مستشفى الصليب الأحمر اللبناني. إنَّ جميع المعلومات التي وصلتنا من مصادر لا يُشك بثقتها تدل على أنَّ الأشخاص العاملين في مستشفى الصليب الأحمر اللبناني في عكَّا والمحجوزين فيها يقاسون العذاب والحرمان، وأنَّ أولئك الأبطال الإنسانيِّين مهملون من قِبل الصليب الأحمر الدولي المفروض فيه أن يكون عونًا لهم. فالصليب الأحمر الدولي، على ما أعلم، مؤسَّسة إنسانيَّة عالميَّة لا تفرِّق بين الجهات المختلفة، ولو كانت متحاربة."

ومن الملفت أنَّ الدكتور جورج حنَّا لم يكن الوحيد ليقدِّم احتجاجًا على أوضاع عكَّا إبَّان حرب عام ١٩٤٨؛ **إذ احتجَّ المطران جاورجيوس حكيم–مطران عكَّا وحيفا والناصرة وسائر منطقة الجليل لطائفة الروم الكاثوليك**–وفق ما نشرته مجلَّة كل شيء اللبنانيَّة، في عددها ٦٨ الصادر في ٩ يوليو من عام ١٩٤٨ ميلاديًّا في صفحتها الأولى. وجاء في نص احتجاج المطران حكيم عن حالة عكَّا "إِنَّ حالَتَهَا تُدْمِي الفُؤَادَ إِذْ أَنَّ العَرَبَ فِيهَا، وَعَدَدُهُمْ ثَلاثَةُ آلافِ عَرَبِيِّ تَقْرِيبًا مَحْصُورُونَ بَيْنَ أَسْوَارِ البَلْدَةِ القَدِيمَةِ وَحالَتُهُمْ الصِّحِّيَّةُ وَالغِذَائِيَّةُ سَيِّئَةٌ لِلْغَايَةِ. وَقَضَاءُ عَكَّا فِي حالَةٍ يُرْثَى لَهَا، **فَالعَرَبُ البَاقُونَ فِيهِ يُعَامَلُونَ كَالحَيَوَانَاتِ لاَ يَهْتَمُّ بِهِمْ أَحَدٌ وَلاَ يَجِدُ مُعْظَمُهُمْ مَسْكَنًا أَوْ مَأْوَى، كَمَا لاَ يَجِدُ مَرَضَاهُمْ أَيَّ نَوْعٍ مِنَ العِنَايَةِ... آسَفُ أَنْ يَعْمَلَ الصَّلِيبُ الأَحْمَرُ الدَّوْلِيُّ تَحْتَ رَايَةِ الصَّلِيبِ.**" ويبدو أنَّ الطبيب جورج حنَّا والمطران جاورجيوس حكيم أرادا التعبير عن تعاطفهما مع مسلمي فلسطين، ومدَّ يد الصداقة، متبرِّئين ممَّا فعله مسيحيُّون غيرهما باسم الصليب لتأسيس دولة ممهِّدة لاستقبال المخلِّص.

٩.المبشِّرون والمستشرقون: دعاة للتَّحديث أم للخضوع إلى قوى الاستعمار؟

في كتابه **المبشِّرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام**، يطلق الدكتور محمد البهي–وزير الأوقاف المصري الأسبق–على **ناشري الثقافة المضادَّة لصحيح الإسلام "عملاء التَّبشير والاستشراق"**، ويصفهم بأنَّهم "**عملاء الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي**...الذين درَّبتهم **دعوة التَّبشير على إنكار المقوَّمات التاريخيَّة والثقافيَّة في ماضي هذه الأمَّة، وعلى التنديد والاستخفاف في صورة البحث**، وعلى أساس من أسلوب الجدل

والنقاش في الكتابة أو الإلقاء عن طريق المحاضرة أو الإذاعة". (ص١). يُزعم أنَّ "الإسلام هو سبب تأخُّر الأمَّة؛ ولذلك، هناك اتجاه إلى "التنفير من حياة المسلمين الحاضرة؛ لأنَّها حياة بدائيَّة ذليلة"، على حدِّ وصف البهي (ص٢).

ويستشهد البهي بما جاء في مقالٍ نشرته مجلَّة العالم الإسلامي-Muslim World عام ١٩٣٠ ميلاديًا بعنوان **The political geography of the Mohammedan world-الجغرافيا السياسيَّة للعالم المحمّداني** ما يعني "**إنَّ شيئًا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي. ولهذا الخوف أسباب، منها: أنَّ الإسلام منذ أن ظهر في مكَّة لم يضعف عدديًّا، بل دائمًا في ازدياد واتِّساع. ثمَّ إنَّ الإسلام ليس دينًا فحسب، بل إنَّ من أركانه الجهاد. ولم يتَّفق قط أنَّ شعبًا دخل في الإسلام ثمَّ عاد نصرانيًّا**" (ص٦-٧). أراد الغرب المسيحي الثأر لهزيمته وفشل الحملات الصليبيَّة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، على يد الفتح الإسلامي منذ معركة حطِّين عام ١١٨٧ ميلاديًّا. وتجدر الإشارة إلى أنَّ مجلَّة العالم الإسلامي-Muslim World هي أخطر مجلَّة تبشيريَّة، وفق وصْف الدكتور البهي، ويكف أنَّ مؤسسها هو أشهر مبشِّري القرن العشرين، صمويل زويمر، المعروف بطعنه الحاد في صحيح الإسلام. لم يسعَ التَّبشير إلى توهين المسلمين من خلال الدعوة المباشرة إلى تركهم دينهم واعتناق المسيحيَّة، إنَّما من خلال إفساد الدين والحط من قيمته في نفوسهم؛ ومن ثم يصبحون أكثر استعدادًا لتلقِّي أي عقيدة أخرى، فما بالك لو عقيدة سماويَّة يُتَّهم الإسلام بأنَّه نسخة مشوَّهة منها؟!

أمَّا عن مدى التقارب بين التَّبشير والاستشراق، يرى الدكتور البهي أنَّ "**كلاهما دعامة الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلاميَّة، والغضّ من اللغة العربيَّة، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربيَّة، وكذا بين الشعوب الإسلاميَّة، والتنديد بحال الشعوب الإسلاميَّة الحاضرة، والازدراء بها في المجالات الدوليَّة العالميَّة**" (ص١).

ويروي القسُّ السابق المهتدي إلى الإسلام إبراهيم خليل أحمد في كتابٍ يحمل شهادته على عالم التَّبشير **المستشرقون والمبشِّرون في العالم الإسلامي** (١٩٦٤) رحلته من مهاجمة

الإسلام بنشر أبحاثٍ تطعن في القرآن الكريم إلى اعتناق الإسلام؛ والعجب أن يكون **سبب الاهتداء هو فواتح سورة الجنّ.** قرر خليل الالتحاق بكليَّة اللاهوت الإنجيليَّة بعد ما رآه من أهوال الحرب العالميَّة الثانية، فأراد أن يسلك طريقًا صحيحا لنشر السلام. لا تخضع تلك الكليَّة لإشراف الحكومة المصريَّة، إنَّما جامعة برنستون الأمريكيَّة، ومعظم أساتذتها كانوا من الأمريكيِّين. وأهم المواد المقررة: الإنجليزيَّة (أدب وقواعد)، العربيَّة (القرآن الكريم والأحاديث وطعن المستشرقين في الإسلام، إلى جانب الآراء الفقهيَّة)، اليونانيَّة (قراءة الأناجيل)، العبريَّة (قراءة العهد القديم)، مقارنة الأديان، تفسير الكتاب المقدَّس، الفلسفة (مفهوم الألوهيَّة)، وتاريخ الكنيسة. برغم نجاحه الباهر في جهوده، وتهافُت الإرساليَّات الغربيَّة على الاستعانة به في مدارسهم في صعيد مصر، وبرغم استعداده لإعداد رسالة علميَّة في مهاجمة القرآن الكريم، وجد خليل في نفسه شغفًا بالقرآن الكريم. وكانت مسألتا الوحدانيَّة والغفران في الإسلام المسيحيَّة ما أغراه بترك دين آبائه والدخول في الإسلام.

يحتاج العمل التَّبشيري، على حدِّ وصْف خليل (١٩٦٤)، إلى حماية عسكريَّة، خشية أن يتعرَّض المبشِّرون إلى انتهاكات من الملتزمين دينيًّا في البلدان التي يقصدونها. وعادةً ما كانت الإرساليَّات تصاحب القوى الاستعماريَّة وتخضع لرعايتها وحمايتها. أمَّا في البلدان المستقلَّة، فالتَّبشير يتولَّاه أبناء الوطن أنفسهم، حتَّى لا تُجبرهم أيَّة قوانين على مغادرة البلاد، أو أيَّة معوقات تفرضها الجنسيَّة الأجنبيَّة. **ويُلحق بالمؤسَّسات التَّبشيريَّة–كاثوليكيَّةً كانت أم بروتستانتيَّة–مطبعة لنشر كتب تتناول التراث الإسلامي بالهجوم والتشكيك.** ويتولى عمليَّة إعداد المنشورات **دارسو الثقافة الشرقيَّة والثقافة الإسلاميَّة في الجامعات الأوروبيَّة، سواءً من الغربيِّين أو المواطنين المحلِّيِّين.** وكان يُشرف على أعمال التَّبشير البروتستانتيَّة الأمريكي كينيث كريج، وكان شديد التعصُّب ضد الإسلام، ودرَّس لفترة في الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة، وقد تولَّى مهمته بعد تركه مصر القسُّ صمويل زويمر، أشهر مبشِّري القرن العشرين.

وأكثر ما يركِّز عليه المبشِّرون في حربهم على الإسلام ادِّعاء أنَّ القرآن الكريم موضوع، وليس منزَّل من السماء، وأنَّ الفلسفة الإسلاميَّة ليست إلَّا تقليد للفلسفة الإغريقيَّة يتَّفق مع

نصِّ القرآن. وهناك جهود متواصلة تسعى إلى إحياء الشعوبيَّة والقوميَّات، مثل الفرعونيَّة في مصر، والآشوريَّة في العراق، والبربريَّة في شمال أفريقيا، والطورانيَّة في تركيا. وقد وصل الأمر إلى الدعوة إلى **الكتابة بالعاميَّة** في كلِّ دولة عربيَّة تختصُّ بلهجة للغة، **وكان المستشرق الفرنسي ماسينيون هو أول من دعا إلى ذلك، لكنَّ دعوته فشلت. وبالنسبة إلى مصر، تسبَّب هذا الاتِّجاه إلى إحياء القوميَّات في تأسيس جماعة دينيَّة مسيحيَّة أطلقت على نفسها** "**جماعة الأمَّة القبطيَّة**"، وقد طالبت تلك الجماعة بالإصلاح الكنسي؛ فاختطفت بطريرك الكنيسة المصريَّة يوساب الثاني، وأراد أعضاء الجماعة قتله بعد أن أجبروه على التوقيع على مطالبهم الإصلاحيَّة، لكنَّ مخططهم فشل بفشل مخطط قتل البطريرك.

يجري توجيه الرأي العام العربي **بطريقتين:** ١-الاستعانة بدارسي الاستشراق والتَّبشير "**عملاء الاستعمار**"، على حدِّ وصْف خليل (١٩٦٤)، من مواطني الاستعمارات السابقة المحلِّيِّين، ممن تشرَّبوا الفكر الغربي وصار يشكِّل توجُّهاتهم، بل وآمنوا بعقائد الغرب لدرجة المشاركة في نشرها، برغم معارضتها الصارخة لصحيح الإسلام (ص٨٠). ٢-توظيف المتخصِّصين في الدراسات الشرقيَّة لتنفيذ مهمَّة الطعن في الإسلام بطرق علميَّة تنصف المسيحيَّة على حسابه. تتلخَّص عمليَّة توجيه الرأي العام في استغلال الدارسين في الغرب من أبناء المسلمين في رسم صورة إيجابيَّة للحضارة الغربيَّة، ونشر الشعور بمدى النفع العائد على الأمَّة باتِّباع نهج الغرب، أملًا في تحقيق ما حقَّقه من تقدُّم مذهل في سائر المجالات. وتحت هذا الغطاء، **يعمل العائدون من البعثات الأجنبيَّة على الإقرار بسياسة المستعمر، وأحقيَّته في تولِّي زمام الأمور في بلدان تحتاج إلى دَفعة اقتصاديَّة وحضاريَّة. وهكذا، يظهر المستعمر في صورة المعاون الحريص على مصلحة الشعوب، وبالتالي أيُّ معارضة لمساعيه إجحاف ينبغي المقاومة.**

الاستشراق تحت المجهر

سبقت الإشارة في مقدِّمة الدراسة إلى أنَّ الاستشراق هو عبارة عن أداة تبشيريَّة هدفها تحريف الدارسين والمثقَّفين من أبناء المسلمين عن دينهم، إن لم يكن بالتنصُّر، فعلى الأقل بازدراء

الإسلام، والتكبُّر على أداء فرائضه، واعتباره غير صالح في زمن التطوُّر والمدنيَّة. وفي هذا الجزء، نستعرض بعض آراء المستشرقين عن الإسلام، وردود علماء مسلمين على ادِّعاءاتهم. ويرجِّح المؤرِّخون أنَّ بداية الاستشراق الفعليَّة كانت في القرن الرابع عشر الميلادي، وبدافع من الهزيمة النفسيَّة التي مرَّ بها الصليبيُّون بعد خروجهم من العالم الإسلامي، وتحديدًا **بصدور مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢ ميلاديًّا، بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في الجامعات الأوروبية**. فقد وجد الغرب في نشر الثقافة المعادية للإسلام والمحطَّة من قدره وسيلة لتعطيل انتشار دعوته، وإن كان المنفعة الكبرى من تلك الحرب منع أبناء الغرب من التأثُّر بالإسلام ودراسته دراسةً قد توصل إلى اعتناقه. ولذلك، انكبَّ علماؤهم ومثقَّفوهم على دراسة صحيح الرسالة الإسلاميَّة، لتصيُّد الأخطاء، وادِّعاء التناقضات، وتلبيس الحقَّ بالباطل.

بعد زوال الاستعمار عن بلاد المسلمين بعد أنَّ أنجز مهمته الأساسيَّة، رأت الدوائر الاستعماريَّة أنَّ من الضروري وجود مَن لديهم خلفيَّة واسعة عن مجال الاستشراق في السفارات والقنصليات وسائر المؤسسات الدوليَّة، ودور هؤلاء هو التواصل مع كافة أصحاب الفكر والرأي والسياسيِّين للتعرف على أفكارهم وتسييرهم على النهج الذي يتوافق مع الاتجاهات السياسيَّة للمستعمر، وبالطبع فعبيد المال والسلطة هم أول العملاء الذين يستخدمهم موظفو الدوائر الاستعماريَّة في تنفيذ مخططاتهم. وهؤلاء هم من بُدأت بهم جهود الاستشراق في العالم الإسلامي.

عن تضافُر جهود التَّبشير والاستشراق مع قوى الاستعمار تقول الدكتورة فاطمة هدى نجا في كتابها **نور الإسلام وأباطيل الاستشراق** (١٩٩٣)، أنَّ المسلمين ابتُلوا **بالمستشرقين والإرساليات والاستعمار**، فلم يدع ذلك الثالوث المقيت دعامة من دعائم الإسلام إلا وزعزعها، وحتى حينما رحل الاستعمار العسكري، فقد خلَّف وراءه رواسب للغزو الثقافي والفكري تركت أثرها مع الأسف على عقليات الأمة، وهي التي مهَّدت الأوضاع لتصبح على ما هي عليه الآن. **بدَّل ذاك الثالوث العديد من المفاهيم الإسلامية الراسخة بأخرى معيبة، ولمَّا أهمل المسلمون دينهم، أصبحت تلك المفاهيم هي المسيطرة على العقول والمحرِّكة**

للتصرفات. كان الاستعمار **بمثابة الحروب الصليبيَّة في ثوبها العصري، وقد بدأ بحملة نابليون أواخر القرن الثامن عشر على مصر، والعجيب أنَّ فشل الحروب الصليبيَّة قد انعكس على تقدُّم الغرب في شتى النواحي، فقد دبَّ الضعف في مختلف المجالات، بينما خرج المسلمون من أزمتهم أقوى من السابق بمراحل.** متسلحين بالتقدُّم العلمي، هاجم الأوروبيُّون الشرق من جديد، في محاولة جديدة لتحريفه عن عقيدته المستمدة من الوحي الإلهي. واستهدف الاستشراق في المقام الأول دراسة كلِّ ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، من ناحية لخدمة أهداف التَّبشير، ومن الناحية الأخرى لدعم جهود الاستعمار.

وكما تذكر نجا (١٩٩٣)، استهدف الاستشراق في المقام الأول دراسة كلِّ ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، من ناحية لخدمة أهداف التَّبشير، ومن الناحية الأخرى لدعم جهود الاستعمار. كان معظم المستشرقين الأوائل قساوسة ورهبان، وكان بعضهم موظفين، كما كان من بينهم بعض اليهود، **وللأمانة كانت قلة من هؤلاء تدرس الشرق لأهداف البحث العلمي، وكانت نتاجاتها بشأنه منصفة.** ونقل الإفرنج عن المسلمين الكثير من العلوم أثناء الحملات الصليبيَّة، وإن كانوا قد تعمدوا حرق المكتبات بما حوت من معارف وعلوم في الشام وليبيا والأندلس. وتمت أول عملية لنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية عام ١٢٥٠ ميلاديًّا، على يد روبرت أوف تشستر وهرمن الألماطي، بتكليف من بطرس الموقر، رئيس دير كلوني. **كانت طليطلة الإسبانيَّة، حتى بعد سقوطها في يد الإفرنج، أهم مركز للدراسات الإسلامية، وكانت أيضًا أهم مراكز نقل كنوز المعرفة العربية إلى اللغات الأوروبيَّة.** ويشير جوستاف دوجا في كتابه **تاريخ المستشرقين في أوروبا من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر،** إلى أنَّ حركة نقل العلوم العربيَّة في القرن الثالث عشر هي البداية الفعلية لجهود الاستشراق.

تميزت المرحلة الأولى للاستشراق بوجود اتجاهين مختلفين حيال الإسلام: **الأول ينظر إليه من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأباطيل وتحريف الحقائق؛ أما الثاني، فقد نظر إلى الإسلام بشيء من الموضوعية والإنصاف، مبلورًا بعض حقائقه، وطامسًا حقائق أخرى، أبرزها استناد الإسلام إلى الوحي الإلهي في المرتبة الأولى.** كان دعاة التَّنصير، من متَّبعي

عقيدة المسيانيَّة، على يقين بضرورة تعلُّم لغات المسلمين قبل الشروع في جهودهم؛ والسبب هو السعي إلى إيجاد ثغرات ينفذون منها إلى الإسلام؛ **ومن هنا، لا يمكننا أن نفصل الاستشراق عن الإسلام، فالدافع الديني كان السبب الأساسي في نشأة الاستشراق.** لم تجد الجامعات الأوروبيَّة حرجًا في التصريح بأنَّ أحد أهداف تدريس العربيَّة تنصيري.

بدأ المستشرقون في جمع المخطوطات الإسلاميَّة في القرن السابع عشر، فيما أخذ الاستشراق طابعًا علميًّا في القرن التاسع عشر، على يد الفرنسي سلفستر دي ساسي، الذي جعل من باريس مركزًا لدراسات اللغة العربيَّة، ولم تكن جهوده موجهة نحو الإسلام، إنَّما نحو الأدب. وتكمن أهمية دي ساسي في أنَّه أول من أسس منهجًا اتَّبعه تلامذته لاحقًا في الدراسة، حيث يتميز هذا المنهج بترتيب المعلومات بطريقة سهَّلت على الدارسين الخوض في ذلك المجال، اعتمادًا على مقتطفات وأمثلة معبِّرة نقلت الشرق إلى الدارسين بصورة مبسَّطة. **لا شكَّ في أنَّ أعمال دي ساسي ومعاصره إرنست رينان قد أسهمت بالصورة الأكبر في تبرير الجهود الاستعمارية، واختُلقت فكرة دونية الشرق، مقارنةً بالغرب، مما يمنح المشروعيَّة لفكرة أنَّ الغرب هو مركز الكون، وينبغي تعميم ثقافته على كافة أجزاء العالم الأخرى، وهو نوع جديد من الاستعمار القائم على الهيمنة الثقافيَّة.** منحت أفكار دي ساسي ورينان وغيرهما التبرير الواضح للمستعمر الغربي للانقضاض على الشرق الإسلامي في حملات منظمة استهدف اغتصاب أراضيه والاستيلاء على ثرواته، **بينما كان مبررها الظاهري هو نقل هذه البقعة المظلمة من العالم من الرجعيَّة والتخلف إلى العلم والتطوُّر.**

الحرب على العربيَّة

إحياءً لدعوة المستشرق الفرنسي ماسينيون إلى الكتابة بالعاميَّة، عني المستعمر بمحاربة العربيَّة، كونها لغة التعبُّد والدعاء وأداء الفروض الدينية الإسلاميَّة، ولذلك كان فرض اللغة الأولى للمستعمر في المدارس ومنحها الاهتمام الأساسي، بما يضر بالعربيَّة. وكان الألماني ولهلم سبيتا من أوائل الداعين إلى استخدام العامية في الكتابة من خلال كتابه **قواعد اللغة العاميَّة في مصر** أواخر القرن التاسع عشر، محاولًا التنفير من الفصحى بادعاء أنَّها صعبة في قواعدها، وهذا بالطبع ما يزال التبرير المستخدَم إلى يومنا هذا في الجامعات الغربية في

التنفير من الفصحى. وادعى وليم ولكوكس، الذي كان مقيمًا في مصر، أنَّ سبب انحطاط المصريِّين وابتعادهم عن الابتكار هو تقيُّدهم بالعربيَّة في الكتابة، وكأنَّ الاستعمار الغاشم لا دخل له، كما ادعى نفس الرجل أنَّ العاميات التي يتحدث بها أبناء البلدان العربيَّة اليوم لا تمت بالفصحى بصلة، إنما هي اللهجات السابقة للفتح الإسلامي.

ودعا كارل فولرس، الذي تولَّى رئاسة دار الكتب المصريَّة بعد ولهلم سبيتا، إلى الكتابة بالعاميَّة، وأصدر كتابًا سمَّاه "اللهجة العامية الحديثة في مصر"، وقد وجَّه فيه المصريِّين إلى استعمال الحروف اللاتينيَّة (نفس ما فُعل بالتركيَّة) عند الكتابة بالعاميَّة بسبب جمود الفصحى، وهذا نفس ما دعا إليه الإنجليزي سِلدُن ولمور، الذي كان قاضيًا في المحاكم الأهليَّة إبان الاحتلال البريطاني، في كتاب "لغة القاهرة"، دعا في كذلك إلى الكتابة بالحروف اللاتينيَّة. كما دعا وليم ولكوكس عام ١٩٢٦ من جديد إلى استخدام العاميَّة، التي أطلق عليها اللغة المصريَّة، في الكتابة، وهو ما أيَّده حينها الكاتب المفتون بالقيم الغربية سلامة موسى، **وقد دعا عميد الأدب العربي طه حسين، خريج الأزهر وعاشق الثقافة الغربيَّة، إلى إخضاع العربيَّة إلى سُنَّة التطور واعتبار الفصحى لغة دينيَّة، مثل السريانيَّة والقبطيَّة واليونانيَّة القديمة.** ويؤازر الكتابة بالعاميَّة عددٌ كبير من المأجورين والعملاء المستغربين المفتونين بثقافة الغرب، ممن نالوا الدرجات العلميَّة في كُبرى الجامعات الأوروبيَّة والأمريكيَّة، قديمًا وحديثًا، حيث لم ييأس المستعمرون إلى يومنا هذا من فكرة الكتابة بالعاميَّة لقتل الفصحى، كما يعتقدون.

١٠.نماذج من آراء المستشرقين تجاه الإسلام

نستعرض في هذا الجزء نموذجين من آراء مفكِّرين غربيِّين عن الإسلام، والرد عليها، مع إظهار نسبة العداء والإجحاف في نظرة الفِكر الغربي إلى الإسلام وأبنائه. ما يتميَّز به المؤلَّفان قيد التحليل–مقال Europe and Islam–**أوروبا والإسلام (١٩٩٠)** للمستشرق اليهودي الأشهر خلال القرن العشرين برنارد لويس وكتاب **Seize the Moment–الفرصة السَّانحة (١٩٩٢)** للرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون–شعور الكاتبين بالحذر تجاه التوسُّع الإسلامي في العالم، وإمكانيَّة وصوله إلى الغرب، ومن ثمَّ خضوع العالم بأكمله

إلى سُلطان المسلمين. وكما سبقت الإشارة في هذه الدراسة، فإنَّ جهود التَّبشير والاستشراق في العالم الإسلامي يدفعها ويوجِّهها الإيمان بعقيدة ألفيَّة المسيَّا، المذكورة في رؤيا يوحنَّا اللاهوتي. وكما يؤمن الغرب بهذه النبوءة، فمن المؤكَّد أنَّهم على دراية بنبوءات آخر الزمان الواردة في السُّنَّة النَّبويَّة، المبشِّرة بوصول الإسلام إلى كافَّة أطراف الأرض، وسيطرته على كامل ربوعها. روى ثوبان أنَّ رسول الله (ﷺ) قال "**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ**"، وهو حديث أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وأحمد، وابن حبان، وابن أبي شيبة، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في السنن الكبرى، والطبراني في مسند الشهاب. أضف إلى ذلك، وعد الرسول بخروج رجل من عترته في آخر الزمان، كما جاء في الحديث الحَسن في صحيح الترمذي " لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ثُمَّ اتَّفَقُوا حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلًا مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي، **يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا**"، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ سيطرة حاكم المسلمين على زمام الأمور في الأرض كلِّها، وفيه تأكيد لما ذُكر في الحديث السابق. ولمعرفة الغرب بتلك النبوءة، فقد وُضعت استراتيجيَّة مضادَّة تسعى إلى عدم تحقُّقها، وتدخل جهود التَّبشير والاستشراق ضمن عناصر تلك الاستراتيجيَّة.

استعراض مقال Europe and Islam–أوروبا والإسلام لبرنارد لويس

يعلِّق لويس في البداية عن إقرانه أوروبا والإسلام في عنوان المحاضرة برغم عدم تماثلهما؛ فأوروبا قارَّة تُقرن بقارَّة مثلها، والإسلام يُذكر معه الديانات الأخرى. **والسبب في إقران أوروبا بالإسلام أنَّ الإسلام لا يمثِّل مجرد تعاليم دينيَّة، بل هو مؤسَّسة كاملة تتحكَّم في حياة المسلمين بالكامل. يقصد المستشرق الأشهر في العالم بذلك ما يُدَّعى عن شموليَّة الإسلام، فالخليفة هو رأس الدولة السياسي والديني في آن واح؛ فلا سبيل بذلك للصراع بينه وبين المرجعيَّات الدينيَّة، على عكس الحال مع الأباطرة وباباوات الكنيسة في أوروبا المسيحيَّة.** ويشير الكاتب إلى أنَّ نبيَّنا محمدًا (ﷺ) لم يُحرم عليه دخول الأرض المقدّسة/أرض الميعاد مثل نبي الله موسى–أو لنقل موشيه–وكذلك لم يتعرَّض للاضطهاد

والإيذاء البدني حتى الموت على الصليب مثل نبي الله المسيح عيسى بن مريم–والأصح وفق المسيحيَّة يسوع بن يوسف–كما لم يلقَ أتباعه الاضطهاد على مدار قرون إلى حين نشر رسالته.

أسَّس محمدٌ–رسول الله تعالى إلى الناس كافَّة–أول دولة إسلاميَّة، وحكمها بمشاركة أصحابه. وبعد أن انتقل إلى جوار ربِّه، استكمل أصحابه مسيرته السياسيَّة والدينيَّة والعسكريَّة، وإن كانت مسيرته الروحانيَّة قد انتهت بانقطاع الوحي. نجح المسلمون الأوائل في الحفاظ على إرث رسولهم، وحقَّقوا في سنوات معدودة انتصارات مؤزَّرة، حتَّى امتدت دولتهم من الصين والهند إلى جبال البرانس على حدود فرنسا. لا يُقرن الإسلام بذلك بالمسيحيَّة وحدها، إنَّما بالعالم المسيحي معها. ويأتي الإسلام الثالث في الترتيب بعد المسيحيَّة، وقبلهما البوذيَّة، في نشر دين على مستوى العالم بأسره. صحيح، وفق رأي الكاتب، أنَّ الفُرس–يقصد أتباع الزرادشتيَّة–واليهود قديمًا أخرجوا مفاهيم شموليَّة، لكنَّهم لم يعملوا أبدًا على نشرها وإقناع العالم كلِّه بها. غير أنَّ المسيحيَّة هي أول ديانة أشاعت أنَّ هناك حقيقة واحدة لابد أن يعتنقها الناس كافَّة، ومن واجب معتنقيها نشرها في الأمم الأخرى، وتبع الإسلام المسيحيَّة في ذلك.

ظهر الإسلام والمسيحيَّة في الشرق الأوسط، ويشتركان في إرث هائل، مفاهيم يهوديَّة عن التوحيد والنبوَّة والوحي والكتاب المقدَّس؛ العلوم والفلسفة الإغريقيَّة؛ الإدارة والقوانين الرومانيَّة؛ علاوة على ما بقي من آثار الحضارات القديمة. يدَّعي لويس تقارُب المصطلحات الدينيَّة للديانتين، بالإضافة إلى استخدامهما العربيَّة. وما يثبت ذلك سهولة ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينيَّة، التي تُرجمت إليها الأناجيل، لاحتوائها على المصطلحات المطلوبة؛ ويأتي ذلك على عكس ما حدث عند ترجمة القرآن إلى اللغات الشرقيَّة، التي استوجبت استخدام مصطلحات عربيَّة وشرحها للقارئ بسبب عدم وجود مثيل لها في تلك اللغات.

اعتقاد الإسلام والمسيحيَّة بأنَّ كلًّا منهما يحمل الرسالة الحقَّة الوحيدة جعل تعايشهما صعبًا؛ ولذلك مُحي الإسلام من عدَّة بلدان أعاد المسيحيُّون غزوها، مثل إسبانيا والبرتغال وصقلِّية. ولا ينطبق الأمر ذاته على علاقة اليهوديَّة والمسيحيَّة، فالأخيرة ترى أنَّ الأولى ديانة غير

مكتملة سابقة عليها، أتمَّتها المسيحيَّة وتفوَّقت عليها؛ ويبرِّر هذا استمرار اليهوديَّة في أوروبا، ولو بنسبة تقل كثيرًا عن نسبة إشغال المسيحيَّة لبلدانها. يعتبر المسيحيُّون الإسلام مجرَّد هرطقة، أو ديانة مختلقة ابتدعها أفَّاقٌ مدَّعٍ-يقصدون به رسولنا الكريم خير البريَّة-حتَّى أنَّهم كانوا يطلقون على المسلم **محمِّداني**، أو شرقي، أو مغاربي، أو تركي، أو تتري؛ غير أنَّ مُسمى تركي كان الأكثر شيوعًا بعد ظهور الخلافة العثمانيَّة، وكان مسمًّ يوحي بالقوَّة والاعتبار. في حين ينظر الإسلام إلى المسيحيَّة باعتبارها ديانة مُحرَّفة؛ لتضمُّنها مفاهيم تتعارض بالكامل مع صحيح العقيد الإسلاميَّة، وعلى رأسها الثالوث وألوهيَّة المسيح وبنوَّته للربِّ. وجرت تسمية أتباع المسيحيَّة بـ "النصارى"، المصطلح القرآني لوصفهم، على أساس انتماء أوائل المؤمنين بالمسيح إلى بلدة الناصرة في بيت لحم.

لم يكن للمسيحيِّين تحت الحُكم الإسلامي أيُّة سيادةٍ، وانتموا إلى كنائس وثقافات متنوعة؛ مما حصر العالم المسيحي في أوروبا، مع استثناءات لا تُذكر، من بينها إثيوبيا. ويعني هذا أنَّ الحضارة الأوروبيَّة كانت مسيحيَّة. ومقارنةً بالإسلام، كان العالم المسيحي فقيرًا ومتأخِّرًا ومحدود الفعَّاليَّة، وكان يفقد أراضيه بالتدريج لصالح الأمَّة المسلمة. **ويشكِّك الكاتب في صحَّة الرسائل التي بعثها الرسول إلى ملوك الفرس والروم والحبشة، مستشهدًا في ذلك بآراء بعض العلماء المسلمين، محاولًا الإيحاء بأنَّ السيف كان وسيلة نشر الإسلام في مهد الرسالة، وليس الكلمة.** يجرُّنا هذا الزعم إلى تناوُل مفهوم الجهاد، ليس الصحيح النابع من العقيدة الإسلاميَّة، إنَّما المزعوم النابع من افتراءات المستشرقين. يزعم الكاتب أنَّ الجهاد هو حرب مقدَّسة يشرعنها مفهوم بذل النفس في سبيل الله والفوز إمَّا بـ "إحدى الحسنيين"، النصر أو الشهادة. يدَّعي لويس أنَّ عقيدة الجهاد تقوم على استمراريَّة الكفاح المسلَّح إلى حين فرض الإسلام على كافَّة الأمم؛ وحتَّى تحقيق ذلك الهدف، لا سلام، وإن لم تكن الهدنات والمعاهدات مستبعدة (ص٨٩).

وكما سبق الإشارة في الدراسة السابقة عن سقوط الدولة العثمانيَّة بفعل مؤامرات اليهود، فإنَّ التوسُّع الإسلامي في أجزاء من أوروبا كان أكثر ما يؤرق الغرب، ويُشعره التهديد. ويتفاخر لويس بأنَّ **تأثُّر أبناء الدولة العثمانيَّة بالثقافة الغربيَّة كان له التأثير الأكبر في التعجيل**

بسقوطها. فقد نجحت البعثات الدبلوماسيَّة إلى أوروبا خلال القرن الثامن عشر في إثارة إعجاب المبتعثين، مِمَّن وجدوا في إنجازات الغرب ما يستحق الاقتداء به، مما أغرى السلطان سليم الثالث بتأسيس سفارات دائمة لبلاده في العواصم الغربيَّة، ليخرج بذلك عن نهج سابقيه في إرسال السفراء وقت الضرورة. **بدأ منذ ذلك الحين إرسال الطلاب المسلمين إلى الغرب لدراسة العلوم الحديثة، واكساب خبرات مباشرة عن الحضارة الغربيَّة.** كما بدأ منذ القرن الثامن عشر الاهتمام بتعلُّم اللغات الأجنبيَّة، والترجمة عن الأمم الأخرى إلى العربيَّة أو التركيَّة والفارسيَّة، بعد أن اقتصرت الترجمة في السابق على منجزات الحضارة الإغريقيَّة القديمة.

يشير لويس إلى أنَّ الضرورة العسكريَّة، وليس الذكاء السياسي، هو ما دفع المسلمين إلى تعلُّم لغات "الأقوام الكافرة"، على حدِّ تعبيره؛ غير أنَّ التقدم في تعلُّم تلك اللغات كان محدودًا، وقليل جدًّا من أتقن لغة أوروبيَّة (ص١٢٦). وفي أواخر القرن الثامن عشر، كان السلطان سليم الثالث أول من طلب الاستعانة بفريق للتدريب العسكري من فرنسا، ليكون أول فريق في قائمة طويلة وفدت من مختلف البلدان الغربيَّة. واقتصر تأسيس دور النشر على القاهرة وإسطنبول، وركَّز النشر على كتب العلوم العمليَّة، مع بعض الكتب التاريخيَّة.

تضاعف وتيرة التغريب واعتناق القيم الأوروبيَّة بعد قدوم وسائل الإعلام إلى العالم الإسلامي. وكانت أول صحيفة تُطبع في الشرق الأوسط هديَّة من الثورة الفرنسيَّة إلى عاصمة الخلافة، وبدأت في النشر من داخل مقر السفارة الفرنسيَّة في إسطنبول؛ وتأتي مصر في الترتيب الثاني في خوض تجربة نشر الصحف، وكان ذلك على يد الفرنسيِّين أنفسهم. غير أنَّ تأثير تلك المنشورات الصحافيَّة كان ضئيلًا جدًّا بسبب نشرها بالفرنسيَّة. كانت إسطنبول والقاهرة كذلك أول عاصمتين تُنشر فيهما صحيفة باللغة الرسميَّة، التركيَّة والعربيَّة، على التوالي؛ وقد خضعت كلتا الصحيفتين إلى رقابة حاكم البلاد. أثمرت تجربة نشر الصحف في العالم الإسلامي عن رفع نسبة الوعي الشعبي بالأحداث الجارية، والحرص على الإلمام بجديدها.

نأتي إلى مسألة التعليم، فبعد أن اقتصر التعليم في السابق على العلوم الدينيَّة، ظهرت الحاجة إلى الإلمام بعلوم أخرى، ما استدعى الاستعانة بوسائل تعليميَّة جديدة، وتدريب المعلِّمين عليها. بعد تأسيس مدارس جديدة لسدِّ تلك الحاجة، تطلَّب الأمر إعداد جيل جديد من المعلِّمين يتَّبع الوسائل الغربيَّة في التدريس. وبالتدريج، فقد رجال الدين سطوتهم. نذكِّر هنا بدور الأكاديميَّات العلميَّة الإرساليَّة في المطالبة بتغييرات جذريَّة في نظام الحكم في الدولة العثمانيَّة، والتي أشهرها كليَّة روبرت التي خرَّجت زعماء حركة تركيا الفتاة. نظَّم الشباب الأتراك مظاهرات جابت العاصمة للمطالبة بالحريَّة والمدنيَّة، وانضمَّ إليهم المتعلِّمون في الخارج، ليُحدثوا حالة من الفوضى أسهمت في بلبلة النظام الحاكم، ودقَّت مسمارا جديدًا في نعش الخلافة.

على مدار زمن طويل، وفدت أيديولوجيَّات التغيير ضد الحكام الظالمين، من خلال الإصلاح أو الثورة، من أوروبا، وعلى يد الطلاب الدارسين في الخارج، والدبلوماسيِّين والمنفيِّين (ص١٣٣). أدخلت أوروبا على العالم الإسلامي مفاهيم الوطنيَّة والليبراليَّة خلال القرن التاسع عشر؛ وبعد أنَّ أدَّت تلك المفاهيم مهمتها واختفت، ظهرت مفاهيم جديدة في القرن العشرين، منها الفاشيَّة والشيوعيَّة. أحدثت تلك المفاهيم تغييرات جذريَّة في العالم الإسلامي، وقلبت موازين القوى. مع ذلك، فالضعف، والتبعيَّة الاقتصاديَّة، والتخلُّف عن الأمم المتقدِّمة لم تزل سمات هذا العالم؛ أي أنَّ اتِّباع النسق الغربي في تصريف الشؤون الحياتيَّة لم يأتِ بالتقدُّم، إنَّما بالتأخُّر، ولا شكَّ أنَّ التخلِّي عن العمل وفق صحيح الإسلام كان له عظيم الأثر في حالة التردِّي التي تعيشها الأمَّة (ص١٣٣).

يختتم لويس مقاله بالإشارة إلى حقيقة في غاية الأهميَّة، وهي استقرار ملايين المسلمين–عربًا وعجمًا–في أوروبا والولايات المتحدة لأجيال، ونجاح هؤلاء في التعايش السلمي مع غير المسلمين، وتأسيسهم حياة مهنيَّة واجتماعيَّة مثمرة، **لأول مرة منذ انسحاب المسلمين عبر مضيق جبل طارق إلى موطنهم**. لا يمكن تجاهُل حقيقة أنَّ هؤلاء المسلمين تربطهم بموطنهم الأصلي آلاف الروابط، من لغة وثقافة وعلاقات أسريَّة و–قبل كلِّ شيء–دين. ويرى لويس أنَّ لوجود هؤلاء وأبنائهم وأحفادهم تداعيات في غاية الأهميَّة بالنسبة إلى أوروبا

وأمريكا. **ما يقصده المستشرق الأشهر في العالم أنَّ تجربة هؤلاء هي نموذج لحياة المسلمين تحت حُكم غير المسلمين، بقبول شروط الغرب للبقاء في جنَّته واتِّباع إملاءاته، ولو على حساب الانتماءات الأصليَّة لهؤلاء، وبخاصة الدينيَّة. ساير المهاجرون الغرب وخضع لمتطلبات الحياة فيه؛ فحقَّقوا المنفعة الماديَّة المرجوَّة، وهربوا من كابوس العوز والتأخُّر في بلادهم، غير مدريكن أنَّ تسلُّط الغرب على العالم الإسلامي هو سبب ما هربوا منه في بلادهم، وأنَّ ما اكتسبوه مجرَّد ماديَّات جذبتها إليهم شهوة النفس. ليس من المستبعد أن يصبح المهاجرون المسلمون ورقة ضغط يستغلُّها الغرب مستقبلًا لدفع ذويهم في بلاد العالم الإسلامي لاعتناق قيم الغرب على حساب دينهم، ولنقْل تجارب الغرب إلى العالم الإسلامي لإغراء المتلهِّفين إلى الكسب المادي باغتنام كلِّ فرصة تُرضي اليهود والنصارى.**

أهم رسائل لويس في هذا المقال سعي المسلمين منذ بداية البعثة النبويَّة التوسُّع في العالم الغربي، وفشلهم في ذلك عُقدة لن تُحلَّ سوى بتحقيق ذلك الهدف، النابع في الأصل من نبوءاتهم الدينيَّة. ويرى الكاتب أنَّ المسلمين قد نجحوا في الاستقرار في الغرب لمَّا أرضوا الغربَ عنهم وانصاعوا لمعايير الإقامة والعمل فيه. وما يعنيه ذلك أنَّ الإسلام بعقائده لا يصلح للتعايش مع الغرب، ولا يمكن أبدًا تحقيق السلام بين العالمين الإسلامي والغربي سوى من خلال التخلُّص من أي عقائد تزرع الشقاق بين الطرفين.

نقد الدكتور محمَّد مورو لكتاب Seize the Moment–الفرصة السَّانحة لريتشارد نيكسون

ينقُد المفكِّر الإسلامي المصري محمَّد مورو في كتابه **الإسلام وأمريكا–حوار أم مواجهة** (٢٠٠١) كتابَ **Seize the Moment–الفرصة السَّانحة** (١٩٩٢)، الذي ألَّفه الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتي. وما شجَّع مورو على إجراء دراسته النقديَّة لكتاب نيكسون أنَّ الترجمة العربيَّة التي أجراها أحمد صدقي مراد تتَّسم بالدفاع عن النمط الغربي، مما يحبِّب القارئ في فكرة سيطرة أمريكا على العالم

الإسلامي، ويمنح محاولته الشرعيَّة، بحيث يجعلها تبدو وكأنَّها منحة وهبة تقضي على الجهل وتنير العقل بالوعي الجديد الذي سينقل الشرق المتخلف إلى أرفع المكانات.

وتعني الترجمة الحرفيَّة لعنوان الكتاب "انتهزوا الفرصة"، وفي ذلك رسالة للغربيِّين إلى انتهاز الفرصة المتاحة لديهم بفرض مزيد من السيطرة على العالم قبل أن يسبقهم المسلمون إلى ذلك. إن كانت الحرب العالميَّة الأولى قد قضت على الحكم الإمبراطوري في بلدان وجدها اليهود عقبة في سبيل تحقيق مصالحهم، وهي الدولة العثمانية وألمانيا وروسيا، وإن كانت الحرب العالميَّة الثانية قد قضت على النازيَّة والفاشيَّة ودقت أول مسمار في نعش الاشتراكيَّة، وإن كانت الحرب الباردة قد قضت على الاشتراكيَّة، فالمواجهة المقبلة هي بين الصهيونيَّة والإسلام. إذا كان اعتقاد الغرب المسيحي هو بانتصار الصهيونيَّة، فالغرب ذاته يعلم أنَّ نبوءات الإسلام خلاف ذلك.

يدَّعي نيكسون في كتابه أنَّ **أمريكا تحمل إلى العالم رسالة إخاء ومحبة ودعوة إلى الرخاء،** في الوقت الذي لن يمحو التاريخ الإبادة الجماعية لشعوب أمريكا الأصليِّين على يد أسلافه من الغزاة الأوروبيِّين، كما أنَّ تاريخها حافل بكافة الأدلة على انتهاكها حقوق الإنسان وخرقها قواعد الإخاء والمحبة في سبيل تنفيذ مخططاتها. يبدو أنَّ نيكسون يتغافل عن حقيقة أنَّ الشيوعيَّة ما هي إلا نتاج الفكر اليهودي الذي استهدف جرَّ البشر إلى حروب عالميَّة تفني جانبًا كبيرًا منهم وتوسع نطاق سيطرة اليهود على باقي البشر، مدعيًا أنَّ انهيار الشيوعية دليل على صلاح الرأسماليَّة، في حين أنَّ القضاء على الشيوعيَّة قد حان لمَّا أدَّت مهمَّتها.

يشرح نيكسون في سبعة فصول التحديات التي تواجه أمريكا في طريقها لفرض السيطرة على العالم، معتبرًا النزاعات الدينيَّة والقبائليَّة من أهم مسببات الصراع في الفترة المقبلة، وداعيًا يدعو أمريكا إلى نشر أفكارها ومبادئها، لتكون مثلًا يُحتذى به، **خاصة وأنَّها ليس لديها طموحات إمبرياليَّة.** ويعترف الرئيس الأسبق بأنَّ الولايات المتحدة هي جزء أساسي في الحضارة الأوروبيَّة، مشيرًا إلى ضرورة تكوين وطن مشترك من كاليفورنيا إلى كامشاتكا الرُّوسيَّة. يتناول نيكسون كذلك مستقبل المثلث الباسيفيكي، الذي يتكون من روسيا والصين

واليابان، بحيث يدعو إلى تأجيج الصراعات في ذلك المثلث واستغلالها لصالح تسهيل سيطرة أمريكا على بلدان تلك المنطقة، معتبرًا أنَّ بلاده وحدها هي التي بإمكانها حفظ التوزان الأمني في تلك البقعة.

يطرح نيكسون في الفصل الخامس من الكتاب، وعنوانه "العالم الإسلامي"، مجموعة من الأفكار والتصورات حول الإسلام، ويرسم عددًا من الاستراتيجيات التي ينصح الغرب باتباعها إزاء العالم الإسلامي، مضيفًا أنَّ **عدد المسلمين وقت إعداد الكتاب عام ١٩٩٢ بلغ مليار مسلم، وأنَّهم يتحدثون مئات اللغات واللهجات، وينتمون إلى ١٩٠ جنسيَّة، ويعيشون على أراضٍ يبلغ طولها عشرات الآلاف من الأميال، ويسيطرون على غالبيَّة نسبة النفط في العالم، في سبيل دق ناقوس الخطر الذي تشكِّله تلك القوة الخامدة.** ومع التحذير من التهديد الذي يشكِّله المسلمون، يعتقد نيكسون أنَّ العالم الإسلامي غير قادر على الاتحاد لتكوين كتلة متناغمة ومتوافقة الأهداف تنزع الهيمنة من الغرب؛ والسبب كبر مساحة العالم الإسلامي–حوالي ١٠ آلاف ميل–وتشعُّب الثقافات التي ينتمي إليها أبناؤه، بالإضافة إلى التبايُن العقائدي للمسلمين، ما بين معتنقي مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، والمتشيعين والمتصوِّفين.

يقسِّم نيكسون تيارات الفكر والسياسة في العالم الإسلامي إلى ثلاثة تيارات: ١–التقدم، الذي يتبنى العلمانيَّة ويعانق الغرب باتباع نموذجه الحضاري، وتركيا كانت حينها خير مثال لذلك التيار؛ ٢–الرجعيَّة، متمثلةً في الديكتاتوريَّة العراقيَّة المتبعة للفكر القومي المتعصب؛ و٣–الأصوليَّة، وهي القوَّة الثوريَّة الكامنة، التي رآها تسعى إلى بعث الإسلام وإعادة مجده السابق، متخذةً من عدائها تجاه الغرب حافزًا لذلك. ويدعو نيكسون إلى **دعم العلمانيِّين، من أسماهم التقدميِّين، الذين** "**يسعون إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر (الغرب) من الناحية السياسيَّة والاقتصاديَّة**".

يضع الرئيس الأمريكي الأسبق يده على أهمِّ أسباب الصراع بين أمريكا والعالم الإسلامي، وهو استعصاء الأخير على مساعي الاندماج مع الحضارة الأمريكيَّة من خلال تطبيق معايير الحداثة (Modernism)، زاعمًا أنَّ بلاده تتَّبع سياسات ترمي إلى إلحاق بلدان

المسلمين بـ "العالم الحديث"، اقتصاديًّا وسياسيًّا. وتكمن المشكلة في تنفيذ ذلك في أنَّ تطبيق معايير الحداثة يتطلَّب الجمع بين "أفضل ما في الغرب" والعادات الاجتماعيَّة والثقافات القوميَّة؛ حيث يقف التشدُّد الديني، في رأي نيكسون، عائقًا يصبح الإفلات منه في طريق تعميم القيم الغربيَّة. يدعو الرئيس الأسبق إلى دعم دعاة الحداثيِّين في العالم الإسلامي "لمصلحتهم ولمصلحتنا"، ويقصد أنَّ الغرب مستفيد من نشر قيم الحداثة في بلدان تعاني الفقر ودكتاتوريَّة الحُكم. يضيف نيكسون أنَّ من بين أهم التحديَّات التي تواجه مساعي التحديث في العالم الإسلامي ارتفاع نسبة الفقر بين مواطنيه، إلى جانب غياب العدالة في توزيع الثروات، مدلِّلًا على ذلك بارتفاع مستوى المعيشة ودخل الفرد في دول الخليج العربي الغنيَّة بالنفط، مقارنةً بدول الشام ومصر واليمن.

لم يخفِ الرئيس الأمريكي المعزول أنَّ "النفط وإسرائيل" يشكِّلان أهم "المصالح الآنيَّة" لأمريكا، مضيفًا أنَّ المصلحتين تتنافران أحيانًا. يوضح نيكسون أنَّ الحفاظ على أمن إسرائيل يخلق لأمريكا مشكلات في بعض الأحيان في إحكام سيطرتها على النفط الخليجي، ويضرب المثل في ذلك بإيقاف تدفُّق النفط الخليجي إلى الغرب أيَّام حرب أكتوبر/تشرين من عام ١٩٧٣ ميلاديًّا. من ناحية أخرى، يثير التعاون الأمني الأمريكي مع الخليج في مخاوف إسرائيل أحيانًا، مشيرًا إلى واقعة بيع أسلحة متطوِّرة إلى السعوديَّة عام ١٩٨٢، التي تسبَّبت في أزمة مع إسرائيل وقتها. ويعترف نيكسون صراحةً "**إنَّ أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل**... وإنَّ التزامنا نحو إسرائيل عميق جدًا، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق، نحن مرتبطون بهم ارتباطًا أخلاقيًّا، **ولن يستطيع أي رئيس أمريكي أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل**".

التعاون الأمني بين إسرائيل وأمريكا حيويٌّ؛ ومن ثمَّ، فالحفاظ على أمنها وبقائها يشكِّل أهميَّة قصوى لأمريكا، لدرجة أنَّ "لا رئيس أمريكا أو كونجرس سيسمح بتدمير إسرائيل"، التي ترتبط بأمريكا بدافع من "الحرص الأيديولوجي والأخلاقي على ضمان بقاء الديموقراطيَّات المحاصَرة"، إلى جانب الحفاظ على إرث الحرب العالميَّة الثانية، على حدِّ تعبير نيكسون. يضيف الرئيس المعزول أنَّ مؤيِّدي إسرائيل يطالبون السياسة الأمريكيَّة بدعم حكومات حزب

الليكود إلى أقصى حدٍّ، ويشدِّدون على الأحقيَّة التي يكفلها الكتاب المقدَّس لزعماء الليكود في مطالبتهم بانتزاع أراضي الضفَّة الغربيَّة، التي يطلقون عليها المسمَّى الديني "يهودا والسَّامرة"، من الفلسطينيِّين، هذا إلى جانب مساندتهم موقف إسرائيل في رفضها البات لأيٍّ تفاوُض مع زعماء منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة (PLO)، وكذلك أيِّ تفاوُض عن الوضع النهائي للأراضي المحتلَّة، أو أيِّ تسوية لا تنصُّ على أحقيَّة إسرائيل في إلحاق القدس الشرقيَّة ومرتفعات الجولان بإسرائيل. ويعتقد نيكسون أنَّ موقف الإدارة الأمريكيَّة لا بدَّ وأن يكون منصفًا في التعامل مع النزاع العربي–الإسرائيلي، وإن لم ينفِ أهميَّة الدعم غير المشروط لأمن إسرائيل وبقائها.

يدعو الرئيس الأسبق إلى "معادَلة أخلاقيَّة" عند الفصل بين "الدول المعتدية والمدافِعة"، خاصَّة عند دراسة كيفيَّة دخول الأراضي المحتلَّة في حرب الأيَّام الستَّة–حرب يونيو/حزيران ١٩٦٧ ميلاديًّا–في حيازة إسرائيل. لم يحدِّد نيكسون أيِّ طرف يقصد بـ "المعتدية" و "المدافِعة"، وإن كان قد أشار إلى أنَّ "التحرُّكات العدوانيَّة من جانب الدول العربيَّة أوجدت الأزمة"، وإن اعترف بأنَّ إسرائيل هي التي أطلقت الهجمات الأولى. يطرح نيكسون فكرة إنهاء النزاع بين إسرائيل والعالم العربي لإيقاف نزيف الدماء، وكذلك استنزاف الأموال التي تنفَق على المنحة الدفاعيَّة التي تمنحها أمريكا لإسرائيل. المفارقة أنَّ نيكسون يجد في تخلِّي إسرائيل عن بعض الأراضي التي احتلَّتها شرطًا لإحلال السلام، مستشهدًا برأي دافيد بن غوريون، أحد آباء إسرائيل المؤسِّسين والملقَّب بـ "نبيِّ العهد القديم"، القائل بأنَّ "المتشدِّدين" الداعين إلى الاستيلاء على أراضي العرب سوف يعطِّلون مساعي إسرائيل، التي ستصبح "غير يهوديَّة وغير ديموقراطيَّة"، ويقصد أنَّ الدولة العبريَّة سيتوجَّب عليها اتِّخاذ تدابير قمعيَّة لإخضاع العرب، بعد تمرُّدهم الناتج عن استعمار أراضيهم.

لم يكن إبرام اتفاقيَّة سلام بين إسرائيل وجيرانها العرب صعبًا في تلك المرحلة، ويعتقد نيكسون أنَّ الأوضاع التي تمرُّ بها الدول العربيَّة في وقت تأليف كتابه–عام ١٩٩٢ ميلاديًّا–وفَّرت بيئة خصبة لذلك. المثير للاهتمام أنَّ ما استعرضه نيكسون من مشكلات قبل أكثر من ربع قرن لم يزل مستشريًا إلى اليوم. يذكر نيكسون أنَّ العراق مزَّقتها الحرب–يقصد

حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠–وصارت في عزلة عن جيرانها، وتعاني مشكلات اقتصاديَّة؛ ومنظَّمة التحرير الفلسطينيَّة فقدت مصداقيتها بسبب تلقِّيها الدعم من صدَّام حسين–الرئيس العراقي الأسبق، والعدو الألدِّ لأمريكا وإسرائيل–وتخلِّي السعوديَّة عنها؛ أمَّا سوريا، فتعاني من مشكلات اقتصاديَّة، ولا يُنتظَر أن تستخدم سلاحها روسي الصُّنع يمكن توجيهه لمحاربة إسرائيل؛ والأردن يلهيها المأزق الاقتصادي والتشدُّد السياسي؛ وبالنسبة إلى مصر، فقد أبرمت اتفاقيَّة سلام مع إسرائيل استعادت من خلالها أراضيها المحتلَّة، وليس من المتوقَّع أن تدخل في مواجهة حربيَّة مع إسرائيل. ويرى نيكسون أنَّ الزعماء العرب يعون جيِّدًا أنَّ السلام مع الدولة العبريَّة "فرصتهم الأخيرة لمنع إسرائيل من ضمِّ أراضٍ من خلال تأسيس مستعمرات جديدة".

ويحدِّد نيكسون ٤ مواصفات أساسيَّة يُشترط توافرها في أيِّ اتفاقيَّة سلام بين إسرائيل والعرب: ١–اعتراف جيران إسرائيل من العرب بها دبلوماسيًّا؛ و٢–تأمين حدود إسرائيل؛ و٣–عودة الأراضي المحتلَّة عام ١٩٦٧؛ و٤–الحكم الذاتي للفلسطينيين. جدير بالذِّكر أنَّ تلك المواصفات، ما عدا الثالث، تنطبق على خطَّة السلام التي اقترحها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، والتي أُعِدَّت تحت إشراف صهره وكبير مستشاريه اليهودي جاريد كوشنر، والمعروفة باسم صفقة القرن–Deal of the Century. يعرب الرئيس الأمريكي الأسبق عن مخاوفه على أمن إسرائيل من تهديدين محتملين، الأوَّل هو العدوان الخارجي واسع النطاق، والثاني هو الهجمات الخاطفة التي تنظِّمها جماعات إرهابيَّة، على حدِّ وصفه. ولا حلَّ تلك التهديدات سوى السلام، التدريجي الطوعي القائم على الصداقة مع إسرائيل والاقتناع بأحقِّيتها في الأرض المقدَّسة، وليس المفروض قسرًا. ويقول نيكسون "عند إعداد سياسات تستهدف إشراك العالم الإسلامي، ينبغي أن نبدأ بالاحترام والفهم تجاه أناس يشعرون بأنَّهم وجدوا من الغرب عدم الفهم والتمييز والاستغلال. يجب ألَّا نحاول فرض قيمنا عليهم". ويعترف نيكسون بأنَّ الحضارة الغربيَّة ليست متفوِّقة جوهريًّا على الحضارة الإسلاميَّة، مضيفًا أنَّ المسلمين قادوا العالم المسيحي، من الناحية الجيوسياسيَّة، ومستوى المعيشة، والتسامح الديني، وسن القوانين، والمعرفة العامَّة على مدار خمسة قرون، ما بين ٧٠٠ و١٢٠٠ ميلاديًّا.

يختتم نيكسون الفصل الخامس في كتابه بالإشارة إلى ضرورة أن تردَّ الحضارة الغربيَّة الجميل للحضارة الإسلاميَّة، بأن تسهم في نهضة المسلمين بعد أن أثمرت العلوم التي أخذها الغرب عنهم في تأسيس النهضة الغربيَّة المزدهرة منذ ما يقرب من ثلاثة قرون. يستشهد نيكسون بمقولة لويل ديورانت، صاحب الموسوعة التاريخيَّة الشهيرة **قصَّة الحضارة** (١٩٣٥–١٩٧٥) "خسر الغرب الحروب الصليبيَّة، لكنَّه انتصر في معركة العقائد. طُرد كلُّ حارب مسيحي من الأرض المقدَّسة لليهوديَّة والمسيحيَّة؛ أمَّا الإسلام، الذي أدماه انتصاره المتأخِّر وعصف به المغول، فقد هوى إلى عصر ظلامي من الجمود المعرفي والفقر. أمَّا الغرب المنهزم، الذي أنضجته جهوده وتجاوُزه هزيمته، فقد تعلَّم بشغف من عدوِّه، ونصب الكاتدرائيَّات إلى السماء، وخاض غمار بحار العقلانيَّة، وحوَّل لغاته الجديدة الفظَّة إلى إبداعات دانتي وتشوسر وفيلون، ومضى بروح عالية إلى عصر النهضة".

ويدعو نيكسون المسلمين هنا إلى الاندماج في الحضارة الغربيَّة، والتخلي عن الثقافة الإسلاميَّة وقصرها على العبادات، أي حصر الدين في دور العبادة، لينسى المسلمون بذلك فكرة الجهاد في وجه الاعتداءات الإسرائيليَّة على الأراضي العربيَّة، فدولة إسرائيل لن تعود دولة معادية حينها، بل دولة صديقة، برغم سعيها الأساسي إلى تكوين كيان في المنطقة يسيطر على مفاصلها ويعرقل نهضتها ويُخضع أبناءها إلى السلطان الغربي–**طالما أنَّ هناك إسلام، لا يمكن أبدًا أن تقوم دولة إسرائيل الكبرى، سبيل النجاة الوحيد للغرب الذي يضمن صموده.** ولا يمانع السياسي الأمريكي فكرة أن يلعن أصدقاء بلاده أمريكا علنًا لإرضاء شعوبهم، مع احتفاظهم بالود والصداقة في السر، مثلما فعل هؤلاء في زمن واقعة إلقاء أمريكا القنابل على ليبيا.

يحاول الغرب الترويج لفكرة أنَّ حضارته هي نتاج التفاعل والتزاوج مع حضارات العالم الأخرى، ومن ثمَّ ليس غريبًا تعميمها على بقية العالم اليوم، وهذا الرأي خاطئ؛ لأنَّ الحضارة الغربيَّة غيبة تمام الغرابة عن الحضارات في العالم الإسلامي، ولم يحدث أي تزاوُج أو اقتران. والحقيقة هي أنَّ أوروبا في القرون الوسطى كانت مجموعة من الإمارات والإقطاعات التي مزَّقتها الحروب والصراعات، ثم بدأ عصر النهضة اعتمادًا على منجزات الحضارتين

الإغريقيَّة والرومانيَّة، ومع انتشار المفاهيم الإغريقيَّة وامتزاجها بالثقافتين السكسونيَّة والجرمانيَّة، أصبح هناك ما يُعرف حاليًا بالحضارة الأوروبيَّة. ومع الاكتشافات الجغرافية، وبخاصة اكتشاف الإسبان والبرتغاليين لما بات يُعرف الآن بالقارتين الأمريكيتين، **بدأ عهد الاسترقاق والنهب، فاستفادت أوروبا من تلك الثروات الطائلة في تحسين أوضاعها، وبدأت النظريات الفلسفية المدعية تفوُّق الرجل الأبيض على سائر البشر، كما بدأ الترويج لمفهوم "عبء الرجل الأبيض". وأهم ما تجدر الإشارة إليه أنَّ الغرب بدعوته إلى الاندماج الثقافي معه لا يقصد بذلك أن يمنح الآخر نفس حقوقه، إنَّما يقصد ضمان تبعيته له وخضوعه لسلطته ورضاه عن السلب والنهب الذي يكتسب شرعيَّة.**

١١.عرض نموذج من ردود المفكِّرين الإسلاميِّين على دعاة التَّنصير

نعرض في هذه النقطة ملخَّصًا لأهم ما اشتمل عليه كتاب الدكتور مُحمَّد عمارة–المفكِّر الإسلامي وعضو مجمع الدراسات الإسلاميَّة التابع للأزهر–الذي يحمل عنوان **استراتيجيَّة التَّنصير في العالم الإسلامي: بروتوكولات قساوسة التَّنصير** (١٩٩٢)، ويتناول فيه الحملة الغربيَّة التي شُنَّت على الإسلام في تسعينات القرن الماضي، في أعقاب سقوط الاتحاد السوفييتي. وما أغرى الدكتور عمارة بإعداد ذلك الكتاب تصريح مجلة شؤون دوليَّة–Foreign Affairs، التابعة للمعهد الملكي للشؤون الدوليَّة بجامعة كامبردج البريطانيَّة، العلني، بأنَّ الإسلام أصبح العدو الجديد للغرب بعد انتهاء أمر الاشتراكيَّة، فاستحقَّ الإسلام بذلك أن يكون الهدف الجديد للهجوم الغربي:

لقد شعر الكثيرون في الغرب بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحلُّ محلّ الاتحاد السوفيِّيتي. وبالنسبة إلى هذا الغرض، فإنَّ الإسلام جاهز في المتناول. فالإسلام مقاوم للعلمنة، وسيطرته على المؤمنين به قويَّة، وهي أقوى الآن ممَّا كانت عليه قبل مائة سنة مضت؛ **ولذلك، فهو بين ثقافات الجنوب الهدف المباشر للحملة الغربيَّة الجديدة**، ليس لسبب سوى أنَّه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلي وحقيقي للمجتمعات الغربيَّة التي يسودها مذهب اللاأدريَّة وفتور الهمَّة واللامبالاة، وهي آفات من شأنها أن تؤدِّي إلى هلاك تلك

المجتمعات ماديًّا، فضلًا عن هلاكها معنويًّا، كما نشرت مجلَّة شؤون دولية، يناير ١٩٩٠ ميلاديًّا.

ولا شكَّ أنَّ التَّنصير هو أقوى سلاح يُحارب به الإسلام بمحاولة تفكيك قوَّته البشريَّة، وسلْب أبنائه، مع إفساد عقيدته وتنفير الناس من طقوسه. ومن بين استراتيجيَّات الحرب الغربيَّة على الإسلام استراتيجيَّة للتنصير، أُعلنت صراحةً في مؤتمر عُقد لستَّة أيام في ولاية كولورادو الأمريكية عام ١٩٧٨، وبالمصادفة بدءًا من يوم ١٥ مايو، يوم تأسيس دولة إسرائيل! واشتملت توصيات ذلك المؤتمر على إطلاق حملة تنصير عالميَّة لاقتلاع الإسلام من جذوره، أملًا في القضاء على دعوته إلى الأبد. أعلن المؤتمر عن مجموعة من البروتوكولات صدرت في كتاب بعنوان The Gospel and Islam–**الإنجيل والإسلام** (١٩٧٨)، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربيَّة في كتاب من ألف صفحة بعنوان **التَّنصير: خطَّة لغزو العالم الإسلامي**. وتولَّى الدكتور عمارة في هذا الكتاب تلخيص الترجمة العربيَّة في نقاط تشمل كلَّ المحتوى وتفي بما تضمَّنه.

وتعريفًا بمؤتمر التَّنصير الصادرة عنه تلك البروتوكولات، فقد عُقد تحت رعاية مشتركة من لجنة لوزان لتنصير العالم في أمريكا الشماليَّة ومركز التَّنصير العالمي. ولجنة لوزان لتنصير العالم هي لجنة انبثقت عن أعمال المؤتمر الدولي للتنصير لعام ١٩٧٤ ميلاديًّا، والذي أُعلن فيه لأوَّل مرَّة ميثاق لوزان للتنصير. ويشتمل ميثاق لوزان المذكور على الأساس الديني للعمل التشاركي في مجال التَّبشير والتَّنصير. وشارك في المؤتمر ١٥٠ شخصًا، غالبيَّتهم من أمريكا الشماليَّة، وبعضهم من آسيا وإفريقيا، إلى جانب بعض العرب من العاملين في الغرب، أو المبشِّرين في بلادهم.

تروي فيفيان ستيسي–المبشِّرة الأمريكيَّة ومؤسِّسة United Bible Training Centre، أو مركز الكتاب المقدَّس المتَّحد للتدريب–وهي من المشاركين في مؤتمر ١٩٧٨، أنَّ أبحاث المؤتمر لم تشتمل على ما يتناول علاقة الإسلام بالماركسيَّة، وكأنَّما أراد المؤتمرون أن يبرِّروا سبب تحويل الهجوم على الإسلام بعد أن ينتهي أمر الاتحاد السوفييتي، المتبنِّي للماركسيَّة بشتَّى مفاهيمها. وتضيف ستيسي أنَّ المشاركين شعروا بعدم ارتياح حيال عدم

إلمامهم بالأساليب الجديدة التي أعلن عنها منظِّمو المؤتمر لدفع الناس إلى التفكير والتفاعل، بالطبع فيما يتعلَّق بتعاليم الكتاب المقدَّس التي يشجِّع المؤتمر على نشرها. غير أنَّ المنظِّمون تحلُّوا بما يكفي من الصبر لتدريب المبشِّرين على كيفيَّة استخدام الأساليب التَّنصيريَّة الحديثة. وبالطبع، تخلَّل جلسات المؤتمر صلوات شارك فيها مصريُّون ولبنانيُّون وآخرون ممَّن دعوا الربَّ بإخلاص لإنقاذ أرواح المسلمين. وتقول ستيسي "تجلَّى حضور الرُّوح القُدُس معنا في آخر الجلسات الصباحيَّة حينما أبدى المشاركون استعدادهم لأن يستخدمهم الربُّ في أيَّما أراد". واعتمد تنفيذ التوصيات المستقبليَّة على أربع قوى: ١-الكنيسة والأمَّة؛ ٢-التَّنصير ونمو الكنيسة؛ ٣-استخدام الإعلام؛ و٤-البحث والتدريب في مجال الدراسات اللاهوتيَّة.

يبدأ الدكتور عمارة كتابه (١٩٩٢) بالتعبير عن رأيه في مساعي الاستعمار الجديد الذي تقوده الولايات المتَّحدة للهيمنة على العالم الإسلامي، ومحو إرادته، وتحويله إلى تابع ذليل ليس من حقِّه ممارسة شعائره الدينيَّة بحريَّة، ولا الاحتفاظ بثرواته. يقول عمارة بالنَّص

إنَّ حال الهيمنة الأمريكيَّة، وقوَّتها المتغطرسة اليوم، مع الاستضعاف العربي والإسلامي الراهن، تكاد أن تجعل القلم يستدعي صورًا من عصر المماليك! فـ ((السلطان الأمريكي)) لا يريد شريكًا ولا بديلًا... وهو يريد من النُّظم ((الحاكمة)) في وطن العروبة وعالم الإسلام أن تقنع بدور، وتقف عن حدود ((الحريم))! ... هو يسعى مع تيَّارات الفكر والسياسة، التي سقطت مشروعيَّتها النهضويَّة-مثل الماركسيِّين-أو التي تخاف من المشروع الإسلامي للنهضة-مثل قطاع من العلمانيِّين والليبراليِّين-... إلى القبول بدور ((الطواشي...والخصيان)) في ((حَرَملك)) بعض النظم في وطن العروبة وعالم الإسلام**... إنَّه ينزع سلاحنا القتالي، في الوقت الذي يعيد فيه عصر القواعد الأجنبيَّة على أرضنا من جديد...وإذا أعطانا سلاحنا، فهو يحرص تفوُّق قاعدته-إسرائيل-على أوطاننا جمعاء! ثمَّ هو لا يسمح لنا باستخدام هذا السلاح إلَّا في صراعات داخليَّة، يدبِّرها، ويدفع إليها، ويؤجِّج نيرانها.** (ص١١)

يؤكد الكاتب أنَّ الإسلام هو الذي اتخذته الحضارة الغربيَّة عدوًّا بعد انهيار الماركسيَّة، وهذا يحتاج إلى تأمُّل كبير، فاليهود هم من صنعوا الماركسيَّة، ثم استخدموها لإشعال الحرب العالمية الثانية، أي أنَّها لم تكن إلا وسيلة لتحقيق أهداف خاصة لديهم، ولما أدَّت مهمتها تخلَّصوا منها، وحان دور المواجهة بين اليهود، متمثلين في الفكر الصهيوني، وبين الإسلام، فهذه هي الحرب العالميَّة الثالثة التي يخطط لها زعماء الماسونيَّة لاجتثاث الإسلام، كما يعتقدون، وهي ذاتها الملحمة الكبرى التي أخبر عنها الرسول الكريم.

عمدت الثقافة الغربيَّة قبل القرن العشرين إلى تنحية الدين لإفساح المجال أمام الفكر العلماني، لكنَّها سرعان ما أعادته إلى المركز ليلعب من جديد دورًا محوريًّا في السياسة الدوليَّة. يلفت عمارة إلى أنَّ البعد الديني المسيحي الذي يدفع الغرب إلى مناصبة العداء للإسلام **ليس رغبةً في هداية المسلمين إلى الصراط المستقيم والحرص على عدم حرمانهم من النعيم الأبدي، إنَّما هو الخوف من يقظة المسلمين بفضل ما في دينهم من نور وهدى، مخافة أن يؤثِّر ذلك على مستقبل النظام الدولي.**

وكان "المؤتمر الإنجيلي الأول حول تنصير العالم" قد عُقد في برلين في عام ١٩٦٦، في برلين، وأعقب انعقاده عدة مؤتمرات إقليمية ووطنية حول العالم. وفي عام ١٩٧٤، عُقد في لوزان "المؤتمر العالمي الثاني حول تنصير العالم"، ثم اقترح القس "دون ماكري"، الذي سبق وأن عمل منصِّرًا في باكستان منذ عام ١٩٥٠ ميلاديًّا والذي دعا إلى إنشاء كنيسة تناسب الحاجات المحلية للبلدان الإسلاميَّة، عقد مؤتمر كولورادو على لجنة التَّنصير في لوزان. وجاء مؤتمر عام ١٩٧٨ لمراجعة كيفية إسهام كلٍّ منهم بما لديه من خبرات، من أجل توحيد الجهود واستحداث الأنسب لتنفيذ الخطة المتعلقة بتنصير كافة مسلمي العالم.

بدأ القسُّ ستانلي مونيهام–رئيس مؤتمر ١٩٧٨–حديثه بالتشديد على تميُّز مؤتمر التَّنصير العالمي عن غيره من المؤتمرات، معتبرًا أنَّه قادر على "**تغيير مجرى التاريخ...فهذه هي المرَّة الأولى، خلال جيلين، يُعقد فيها مؤتمرٌ يضمُّ هذا العدد من قادة النصارى ليناقشوا عمليَّة تنصير المسلمين**". أقرَّ مونيهام بأنَّ مواجهة الإسلام بالطرق القديمة لم يكن ممكنًا بسبب التغير المتواصل الذي يطرأ عليه، وبخشيته من ثورة المسلمين بسبب رفضهم للعلمنة.

ويرجع السبب في تصعيد حركة التَّنصير في العالم الإسلامي إلى تصاعُد الصحوة الدينيَّة في العالم الإسلامي، ومن المفارقة أنَّ في العام التالي للمؤتمر وقعت حادثة ادِّعاء ظهور المهدي، المعروفة بحادثة الحرم المكِّي، أو حادثة جهيمان.

اتَّفق قساوسة التَّنصير على أنَّ الإسلام منذ ظهوره قبل ما يقرب من ١٥٠٠ عام يمثِّل تحديًا للمسيحية، واعترفوا بفشل الحملات الصليبية في القرون الوسطى في القضاء على الإسلام واستعادة البقاع التي صارت تحت وطأته، وأصبحت خطتهم الجديدة هي وراثة الإسلام وأهله جميعًا، وفق ما ورد في سفر المزامير في العهد القديم " اسْأَلْنِي فَأُعْطِيَكَ الأُمَمَ مِيرَاثًا لَكَ، وَأَقَاصِيَ الأَرْضِ مُلْكًا لَكَ" (مزمور ٢: آية ٨). لم يخفِ المؤتمرون إيمانهم برؤيا يوحنا اللاهوتي بشأن عودة المسيح ليحكم العالم من جديد ألف عام، وبأنَّ تلك العودة باتت وشيكة، فأخذوا على عاتقهم مهمة الشروع في تنصير العالم استعدادًا لتلك العودة. ودعا المؤتمر إلى تضافُر جهود الإرساليَّات الأمريكيَّة مع الكنائس المحليَّة في سبيل تنفيذ المخطط، ولعلَّ في هذا ما يفسِّر صعود عدد الكنائس القبطيَّة في أمريكا من ٢ إلى ٢٥٢ منذ مطلع السبعينات وحتى عام ٢٠١٢، بالطبع من أجل التنسيق بين الكنائس المحليَّة وقيادات التَّنصير داخل أمريكا. تحقيق رؤيا يوحنا اللاهوتي وعودة المسيح استدعت خلق ديانة جديدة تجمع بين اليهوديَّة والنصرانيَّة، وهذا يشير إلى تضافُر الجهود بين الطرفين لاقتلاع الإسلام وإهلاك جميع المسلمين والعرب في الملحمة الكبرى، تحقيقًا لنبوءة يوحنَّا اللاهوتي، وحينها سينزل المسيح، وفق اعتقادهم.

اعتبر القساوسة أنَّ التَّنصير لم يعد ممكنًا من خلال الهجوم على القرآن الكريم، إنما من خلال حُفاظِّه، أي باستخدام من ينتسبون زورًا إلى الإسلام في الترويج إلى أفكار لا تمت له بصلة لزعزعة الثوابت والفتك بالمسلَّمات، وهذا ينطبق عليه نصُّ حديث رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلَّم) برواية الصحابي حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه وأرضاه) "**يَكُونُ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا** "، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَ، قَالَ : " **هُمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**"، وصدق قول الرسول الكريم. **ودعا القساوسة إلى اكتشاف المصطلحات القرآنيَّة التي يمكن أن تكون جسرًا يعبر من خلاله المبشِّرون إلى**

المسلمين، أي إيجاد أرضيَّة مشتركة، مثل استخدام أوصاف مثل "روح الله" و"كلمة الله"، بالإضافة إلى اللعب على وتر "رفع المسيح"، مع تجنُّب الخوض في مسألة صلبه المنافية للعقيدة الإسلاميَّة.

اعترف القساوسة بأنَّ هدفهم الأهم ليس متَّبعي الكتاب والسُنَّة، إنما ضعاف النفوس من المؤمنين بالجن، ويجدون في اتِّباع المسيح وسيلة للتخلص من مطاردات الأرواح الخبيثة، مشيرين إلى نجاح تلك التجربة مع مسلمي إندونيسيا، كما اعترف منظِّم المؤتمر بأنَّ نظرة التعالي والتفوق العرقي حيال المسلمين العرب قد أسفرت عن فشل جهود التَّبشير، خاصة وأنَّ الزهو بالثقافة الغربيَّة يثير الامتعاض؛ والسبب هو أنَّ تلك الثقافة مليئة بالتناقضات. ويسعى قساوسة التَّنصير، في سبيل الهروب من النبذ الذي يواجه المتنصرين حديثًا، إلى تغليف المحتوى النصراني بغلاف إسلامي، للإبقاء على المتنصِّرين في الثقافة الإسلاميَّة، ليتحللوا منها بالتدريج. و**تشترط أبحاث المؤتمر فهم الإسلام فهمًا صحيحًا قبل اختراقه بالأساليب المناسبة، وهذا استوجب تأسيس العديد من المراكز المتخصصة في ذلك، مستغلين بذلك الثغرات الداخليَّة المختلفة بين المسلمين، سواء مذهبيَّة أو عرقيَّة أو قوميَّة أو طبقيَّة، وأيضًا الثغرات الخارجيَّة، مثل ثغرة تقليد الغرب، وثغرة العلمانيَّة.** إلى جانب الثغرات السابق ذكرها، دعا القساوسة إلى دراسة مواطن القوة والمنعة والاستعصاء في الإسلام، إمَّا للالتفاف حولها وتجنُّبها، أو لمحاولة كسر شوكتها. باختصار، كما وضع بولس الرَّسول مضامين النصرانيَّة في أوعية إغريقيَّة وثنيَّة، يسعى هؤلاء إلى وضع نفس المضامين في أوعية إسلاميَّة لإفساد الإسلام. ومن أمثل ذلك الدعوة إلى صلاة نصرانيَّة فيها ركوع وسجود على الطريقة الإسلاميَّة. **من الملفت أنَّ القسَّ الكاثوليكي اللبناني عبدو رعد قد رفع الآذان في معلم لحزب الله جنوبي لبنان، وفق ما نقلته شبكة سي إن إن الإخباريَّة. وقد اعتذر القسُّ لآبائه الروحيِّين، موضحًا أنَّه "قام بتلاوة الآذان بشكل عفوي ومن دون أي قصد، ومن غير قناعة".**

CNN بالعربية | الشرق الأوسط | العالم | منوعات | اقتصاد | تِك | رياضة | صحة | ستايل | سياحة

دبي، الإمارات العربية المتحدة (CNN) -- بعد الفيديو الذي أثار ضجة في لبنان حول الأب المخلصي عبدو رعد وهو يؤدي الآذان خلال مشاركته في حفل إفطار في معلم مليتا، أصدر رعد بياناً أكّد فيه على إيمانه الكاثوليكي الصريح والتزامه بتعاليم الكنيسة الجامعة، وقوانين رهبانيتي الباسيلية المخلصية.

وتقدّم الأب رعد بإعتذاره الشديد أمام رؤسائه الروحيين قائلاً إنه "قام بتلاوة الآذان بشكل عفوي ومن دون أي قصد، ومن غير قناعة"، بحسب بيان تناقلته مواقع الكترونية محلية في لبنان.

وأوصى المؤتمر اختراق الثقافة الإسلاميَّة، وزرع النصرانيَّة في أوعيتها ومصطلحاتها ورموزها وأنماطها وعاداتها وتقاليدها وأعرافها، وبذلك لا يجد المرتد عن الإسلام غربة في تعامله مع الثقافة الجديدة، ويتراجع التركيز على الثقافة الإسلاميَّة مع ازدياد المحتوى المسيحي لدى المرتد. كما أعلن المنظِّمون أنَّ هدفهم هو غرس روح المسيح وتعاليمه في الفكر الإسلامي، بحيث يصبح ما يسمونه بالمسلم النصراني، واللاهوت الإسلامي، والمسجد العيسوي، والجماعات الصوفيَّة النصرانيَّة. و**الإيمان بالتعاويذ التي تمدُّ بالقوة من أهم السمات الواجب توفُّرها في المستهدفين من عمليات التَّنصير**. ويضمن هذا التحول التدريجي عن الإسلام عدم التراجع عن اعتناق المسيحية.

يتطرَّق الدكتور عمارة في كتابه إلى مسألة في غاية الحساسيَّة، وهي استخدام المال في عمليَّة التَّنصير بالترغيب والترهيب معًا، تجدر الإشارة إلى أنَّ أحد أبحاث ذلك المؤتمر كان تحت عنوان "**الغذاء والصحة وسائل لتنصير المسلمين**". ويشير الكاتب إلى استغلال الأجانب وجودهم للعمل في بلدان مسلمة في بناء كنائس تدعو إلى عقيدتهم، ومن هنا تبدأ الرحلة التَّبشيرية لتتغلغل في أحشاء البلدان، فعملهم المدني يمنحهم من الحريَّة في التعامل مع سائر القطاعات ما لا يُمنح للمبشِّر المتخصص، وهذه النماذج موجودة وبكثرة في بلدان الخليج العربي في المستشفيات والمدارس. **وتوصي البروتوكولات بافتعال أزمات حادة تُجبر المسلمين على الكُفر بدينهم والاحتماء بالمسيحيَّة، ومن أبرز تلك الأزمات الفقر والمرض والحروب والكوارث**، فلا يجد المنكوبون سوى المؤسَّسات الطبيَّة والخدميَّة للمبشِّرين ملجأً. ويذكِّرنا هذا بقوله تعالى "**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا على مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حتى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ولكنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**" (سورة المنافقون: آية ٧)، وقد

فسَّر ابن عباس (رضي الله عنه وأرضاه) تلك الآية بقوله أنَّ قصدهم هو: **لا تطعموا محمدًا وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة، فيتركوا دينهم ويتخلُّوا عن نبيِّهم.**

يعتبر هؤلاء أنَّ الرخاء من معوقات التَّنصير، وأنَّ الأزمات المفتعلة من العوامل والأوضاع الممهدة لحملات التَّنصير، وهذا نراه بأعيننا من حولنا في بلداننا الإسلامية في الفترة الأخيرة، فالحروب تجتاح عدة بلدان، أمَّا الأزمات الاقتصادية الطاحنة فهي تتعاقب على العالم الإسلامي كلِّه، وإن كان ما حدث في مصر قبيل نهاية عام ٢٠١٦ من أحدث تلك الأزمات، وينطبق على ذلك قوله تعالى في الآية ١٢٠ من سورة آل عمران " إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ". يتساءل الكاتب مستنكرًا: **من الذي يُنكر مسؤوليَّة حضارة هؤلاء القساوسة عن البؤس والضيم الذي يعيش فيه المسلمون؟ عن النهب الاقتصادي والهيمنة السياسيَّة وحراسة التخلف في بلادنا؟ عن صناعة نُظم الحكم المحليَّة التي تكرِّس التبعية الاقتصاديَّة للغرب؟ فتبقى أرضنا البكر بورًا، وثرواتنا منهوبة بأدنى الأثمان، وسلاحنا منزوعًا، العلم النافع محجوبًا، فنعيش في البؤس الاقتصادي الذي صنعوه، ثم بدأوا يستغلونه في إجبارنا على ترك ديننا؟!**

١٢.الحملة العالميَّة لتنصير المسلمين: جهود "الرسول إلى الإسلام" نموذجًا

أعدَّ الدكتور ناصر بن إبراهيم آل تويم، أستاذ الثقافة الإسلاميَّة في كليَّة الشريعة، التابعة لجامعة الإمام محمَّد بن سعود السعوديَّة، دراسة عنوانها صمويل زويمر: حياته ورحلاته (٢٠١٣)، عن أهم المحطَّات في حياة المبشِّر والرحَّالة والمستشرق الأمريكي الرائد، صمويل مارينوس زويمر (١٨٦٧–١٩٥٢ ميلاديًّا)، الملقَّب بـ "الرسول إلى الإسلام"؛ لما بذله من جهود استهدفت تنصير المسلمين في منطقة الشرق الأوسط، وبخاصَّة في شبه الجزيرة العربيَّة، مطلع القرن العشرين، بتكليف من الكنيسة البروتستانتيَّة الأمريكيَّة. وُلد صمويل زويمر لعائلة متديِّنة من أصول فرنسيَّة، لأبٍ التحق بالسلك الكنسي بعد خدمته في الجيش لسنوات، وأمٍّ لم تمنعها مشكلاتها الصحيَّة من العمل التطوُّعي في الكنيسة. كان صمويل الثالث عشر في الترتيب بين خمسة عشر ابن لتلك العائلة، مات بعضهم في الصغر بسبب

تردِّي الرعاية الصحيَّة، ومن الملفت أنَّ جميع أبناء تلك العائلة سلكوا طريق العمل الكنسي، وعلى رأسهم الابن الأكبر، جيمس فريدريك، الذي أصبح لاحقًا رئيس المعهد اللاهوتي الغربي للتعليم العالي في ولاية ميشيغان الأمريكيَّة.

تعريف عام بصمويل زويمر

بدأ زويمر رحلته التَّبشيريَّة عام ١٨٨٩ ميلاديًّا، في عمر الثانية والعشرين، واستمرَّت تلك الرحلة إلى عام ١٩٢٩ ميلاديًّا، حينما غادر مصر، التي خدم فيها لمدَّة ١٦ عامًا، ليعمل أستاذًا في التَّبشير وتاريخ الأديان في معهد برنستون اللاهوتي، إلى أن تقاعد في عمر السبعين ليتفرَّغ لكتابة مؤلَّفات تخدم جهود التَّبشير. لم يكوِّن زويمر آراءه عن العالم الإسلامي من خلال القراءات فقط، إنَّما من خلال التعامل المباشر مع المسلمين في شبه الجزيرة العربيَّة وآسيا الصغرى ومصر، لمدَّة تُقدَّر بـ ٤٠ عامًا، وقد ساعده ذلك في كتاب وتحرير مجلَّة العالم الإسلامي (Moslem World) لمدَّة ٣٥ عامًا، والتي أسَّسها عملًا بتوصيات مؤتمر ادنبره التَّبشيري العالمي المنعقد عام ١٩١٠ ميلاديًّا. أمَّا عن بداية رحلة زويمر في العالم الإسلامي، فكانت حينما أطلق مع زميليه، القُسَّين جيمس كانتين وجون لانسينغ، البعثة العربيَّة الأمريكيَّة عام ١٨٨٩ ميلاديًّا، وإن كانت لكانتين الريادة في الانطلاق إلى بيروت في ذلك العام، ليلحق به زويمر بعد إتمام دراسته في المعهد اللاهوتي، متَّجهًا إلى اليمن، ثم البصرة في العراق، ثم إلى البحرين. كرَّس زويمر جزءً من مسيرته الطويلة لكتابة مؤلَّفات تبشيريَّة تعكس الرؤية المسيحيَّة بأسلوب مبسَّط يقبله المتلقِّي المسلم، وقد قال في العدد الأول لمجلَّة العالم الإسلامي (Moslem World) "إذا كانت كنائس العالم المسيحي لتصل إلى العالم الإسلامي بالإنجيل، فيجب أن يعرفوا عنه ويعرفوه".

أمَّا عن المذهب المسيحي الذي اعتنقه صمويل زويمر، وشكَّل أساسه العقائدي، فكان الكالفينيَّة، وهو مذهب بروتستانتي يُعرف بـ "اللاهوت المصلح"، يتميَّز بالتمسُّك بتعاليم بولس الرَّسول والقدِّيس أوغسطين، فيما يتعلَّق بالسمو الإلهي والتشديد على أنَّ البرَّ بالإيمان بالمسيح، وليس بالأعمال. ومن عقائد الكالفينيَّة الحتميَّة القدريَّة، أو التدبيريَّة الإلهيَّة، بمعنى أنَّ الربَّ قد اختار فئة من خلقه اختصَّهم بالخلاص قبل الخليقة. اعتبر زويمر أنَّ الغاية

الأساسيَّة للإرساليَّات لم تكن تنصير المسلمين، إنَّما تحقيق مجد الربِّ بنشر دعوته في شتَّى أنحاء العالم. اعتمد المبشِّر الشهير على الحوار ونشر المعارف المسيحيَّة في بداية رحلته التَّبشيريَّة، خارجًا عن النمط التَّبشيري المعروف، الذي يعتمد على الإغراء بمكتسبات ماديَّة.

نشأة زويمر وتعليمه

بالنسبة إلى مسيرة زويمر العلميَّة، فقد حصل على درجة الليسانس عام ١٨٩٠ ميلاديًّا من كليَّة هوب في جامعة ميشيغان، ثمَّ على الماجستير من مدرسة نيوبرونزويك اللاهوتيَّة في ولاية نيوجيرسي، كما حصل على الدكتوراه من كليَّة هوب عام ١٩٠٤ ميلاديًّا، هذا بالإضافة إلى دراسته للحقوق وحصوله على شهادة دكتوراه أخرى عام ١٩١٩ ميلاديًّا من جامعة روتجرز.

أمَّا عن تنشئة المبشِّر الرائد في منطقة الشرق الأوسط، فقد أسهمت بصورة كبيرة في توجيهه إلى إطلاق رحلته الطويلة في العالم غير المسيحي. ورث صمويل زويمر عن أبيه ميله إلى نشر المسيحيَّة في الخارج، حيث أراد أبوه السفر إلى إفريقيا للمشاركة في الإرساليَّات المتَّجهة إليها. ويذكر جيه كريستي ولسون في تأريخه لسيرة زويمر في كتاب Apostle to Islam , A Biography of Samuel M. Zwemer–رسول إلى الإسلام: حياة صمويل م. زويمر (١٩٥٢)، أنَّ صمويل نذرته في طفولته لخدمة الكنيسة، أسوةً بقصَّة حنَّا، أم مريم العذراء، في الإنجيل، لمَّا نذرتها لخدمة الهيكل. اعتاد زويمر منذ طفولته على المشاركة في تجديد الكنائس وبناء مرافقها، من خلال التدرُّب على حرفة النجارة، وبدأ رحلته في الوعظ في سنٍّ مبكِّرة، وكان يقرأ صفحات من الإنجيل خلال دروس الأحد. وكان زويمر ينضم صيفًا إلى الجمعيَّة الإنجيليَّة الأمريكيَّة في نيويورك، ليشارك في توزيع نُسخ الإنجيل، وفي جمع التبرُّعات لصالح جهود التَّبشير، التي كانت يكتب عنها مقالًا شهريًّا يُنشر في مجلَّة هوب. ولا شكَّ في أنَّ مطالعة مؤلَّفات من الأدب المسيحي كان له عظيم الأثر في التكوين الذهني للمبشِّر الرائد، وقد تجلَّى ذلك في مؤلَّفاته الشخصيَّة لاحقًا.

رحلات زويمر التَّبشيريَّة

بدأ زويمر في تعلُّم العربيَّة قبل سفره إلى العالم الإسلامي، ولكن حال مرض معلِّمه دون استكمال الدراسة، ليبدأ من جديد بعد سفره، كما جاء في كتاب رسول إلى الإسلام: حياة صمويل م. زويمر (١٩٥٢) للكاتب جيه كريستي ولسون. اتَّخذت رحلات زويمر إلى الأقاليم العربيَّة طابعًا استكشافيًّا في البداية، وكانت اليمن ومدنها مثار اهتمامه الأكبر، وعاش فيها لفترة تحمَّل فيها ارتفاع درجة الحرارة، ومشاقَّ التنقُّل بين المدن في غياب وسائل مواصلات مريحة. لم يجد زويمر مانعًا من مخاطبة أهل اليمن في الأسواق ودعوتهم إلى الإيمان بالمسيح، باعتباره النبيِّ المخلِّص، واعتاد وقتها على توزيع نسخ من الإنجيل، وتحسَّن خلال تلك الفترة مستواه في العربيَّة. وكانت البصرة المحطَّة الثانية لزويمر، بعد فترة في مصر تدرَّب فيها على أساليب التَّبشير.

نقلًا عن دراسة الدكتور ناصر آل تويم (٢٠١٣)، واجها زويمر في بداية رحلته صعوبات بسبب المعارضة القويَّة للإرساليَّات التَّبشيريَّة وقتها، كما عبَّر زويمر نفسه في كتابه Arabia, the Cradle of Islam–شبه الجزيرة العربيَّة، مهد الإسلام (١٩٠٠)، حيث وصل الأمر إلى إغلاق مكاتب التَّنصير، والمطالبة بإجلاء المبشِّرين عن البلاد. ويبدو أن زويمر قد استفاد من تجربته في البصرة بعد سفره إلى البحرين، التي تردَّد عليها بداية من عام ١٨٩٢ ميلاديًّا، حيث اختلفت التجربة هناك، لمَّا تركَّزت جهود التَّبشير على نشر المؤلَّفات، وقد وجد زويمر في ذلك بابًا للتبشير لا يمكن غلقه. لجأ زويمر في البحرين إلى حيلة اجتذبت إليه قلوب العامَّة، وهي تقديم خدمات علاجيَّة وتأسيس مشفً يتبع الإرساليَّة. تشجَّع زويمر بعد تجربته في البحرين على التوجُّه إلى مناطق أخرى في شبه الجزيرة العربيَّة، وكانت الأحساء والهفوف في أقصى الشرق من بين وجهاته. مارس المبشِّر المتحمِّس مهامه المعتادة، من التحاور مع الناس وبيع نُسخ الإنجيل، ولكنَّ تعطَّلت جهوده بسبب إصابته بالحمى نتيجة ارتفاع درجة الحرارة؛ فعاد إلى البحرين. لم ييأس زويمر من تجربته الأولى في البصرة، ولم تثنه عن معاودة زيارة العراق؛ فاتَّجه إلى مُدن يكثر فيها المسيحيُّون. لم تتوقف رحلات زويمر في العالم الإسلامي إلى عام ١٩١٢ ميلاديًّا، حينما

عُيِّن قائدًا للتنصير في المركز الرئيس في القاهرة، باعتبارها مركزًا مؤثِّرًا في مجال التَّبشير، عاصمةً لإفريقيا والعالم العربي، نقلًا عن دراسة الدكتور ناصر آل تويم (ص٦٧٦).

لم يتوقَّف صمويل زويمر عن زيارة شتَّى مُدن العالم بهدف نشر تعاليم الكتاب المقدَّس والتعريف بالمسيحيَّة، وشملت رحلاته شمال إفريقيا وغربها، وتركيا، وإيران، والسودان، وإندونيسيا، وعُمان، إلى جانب إلقائه العديد من المحاضرات في مُدن أوروبيَّة ومشاركته في تدريب المبشِّرين. ويشير الدكتور ناصر آل تويم (٢٠١٣) إلى أنَّ جهود زويمر ركَّزت على "المناداة بأهميَّة تنصير المسلمين، التعرُّف على الاحتياجات التَّنصيريَّة، إصدار المطبوعات، عقد المؤتمرات المصغَّرة والاجتماعات، وتدريب العاملين في حقل التَّنصير" (ص٦٩١-٦٩٢). المفارقة أنَّ عدد الذين نجح زويمر في تنصيرهم خلال رحلته الطويلة لم يتجاوز ١٢ شخصًا، وفق ما ورد في دراسة إل. في. ويرف التي تحمل عنوان " Our Muslim Neighbors: The Contribution of Samuel M. Zwemer to Christian Mission-جيراننا المسلمون: إسهام صمويل إم. زويمر في التَّبشير المسيحي" (١٩٧٧).

في تناوُله لأهم ملامح مسيرة صمويل زويمر في دراسة عنوانها " An American Missionary to Islam: Samuel Marinus Zwemer-مبشِّر أمريكي إلى عالم الإسلام: صمويل مارينوس زويمر" (٢٠١٤)، يشير الباحث الأكاديمي جلال أمانة إلى أنَّ الإسلام والمسيحيَّة أكثر الديانات اهتمامًا بالدعوة في العالم، وإن كان الإسلام يحتفظ بموقع القوَّة في مواجهة عمليَّات التَّبشير، وفي التعامل مع المسيحيَّة بوجه عام، منذ زمن نبيِّنا مُحمَّد (ﷺ)، الذي أقنع نصارى نجران بدخول الإسلام، ونشرت الأجيال الجديدة التي نشأت على تعاليم الإسلام الدين في شتَّى بقاع الأرض. مع ذلك استطاع زويمر استغلال ما يعتبره علماء اللاهوت المسيحي نقاط ضعف في الإسلام، ويأتي على رأس تلك النقاط عدم تركيز الإسلام على الخلاص البشري والتكفير عن الخطيئة، وإن اعترف بفضل النبي (ﷺ) في إصلاح شبه الجزيرة العربيَّة بدعوته. انتقد زويمر في الإسلام كذلك مفهوم الألوهيَّة، الذي يغيب عنه مظهر الحنو الأبوي لإله تجسَّد في صورة ابنه ليتقرَّب إلى البشر، ثمَّ ضحَّى بابنه الوحيد في سبيل خلاصهم. ويرى أمانة أنَّ زويمر استطاع تطويع رسالته التَّبشيريَّة بحسب

المعطيات المتاحة في ذلك العصر، ولم يختلف في رأيه عن الإسلام عن معاصريه، بأن اعتبر أنَّ في التمسُّك به رجعيَّة وتشدُّد، وبالابتعاد عن تعاليمه تقدُّم ومسايرة لروح العصر الحديث. اعتبر زويمر أنَّ مهمَّة تحويل المسلمين إلى المسيحيَّة تواجه تحديًا كبيرًا، وهو إهدار دم المرتدِّين عن الإسلام؛ ولذلك حذَّر الكنيسة من ذلك الخطر الدائم.

إكمالًا لما أثاره الباحث جلال أمانة في دراسته عن زويمر (٢٠١٤)، نستعرض أهمَّ ما ورد في رسالة علميَّة للباحث يؤانس بيكلي، حصل بها على درجة الماجستير في الفلسفة من جامعة برمنجهام البريطانيَّة، وعنوانها " Samuel Zwemer's Missionary Strategy Towards Islam–استراتيجيَّة صمويل زويمر التَّبشيريَّة تجاه الإسلام" (٢٠١٢). يركِّز بيكلي، تمامًا مثل أمانة، على زعم زويمر بأنَّ الإسلام مقترن بالرجعيَّة والابتعاد عنه مقترن بالتقدُّم، متَّخذًا من الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب نموذجًا للتشدُّد سلبي التأثير على الإسلام، ومن المفكِّر الهندي السيد أحمد خان نموذجًا للإصلاح الديني. وجد زويمر أنَّ النموذج الذي روَّج له محمَّد بن عبد الوهَّاب، صاحب الدعوة إلى التخلُّص من البدع والمحدثات التي انتشرت في زمنه ونالت من ثوابت الدين، ما يستعصي على جهود التَّبشير. في حين رأى المبشِّر الرائد أنَّ في نموذج أحمد خان، الداعي إلى التركيز على الفلسفة وتقديم العقل على النقل المقارب لفكر المعتزلة، ما لا يهدِّد مساعي التَّنصير.

يشير بيكلي في مقدِّمة دراسته إلى أنَّ هدفه الأساسي كان تحليل استراتيجيَّة صمويل زويمر التَّبشيريَّة، التي انعكست في نظرته إلى نبيِّنا مُحمَّد (ﷺ) ودوره في الخلاص البشري، والقرآن الكريم وحقيقة تنزُّله بوحي إلهي، وتقديره للحركات الإصلاحيَّة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي. بفضل إتقانه للعربيَّة وحياته الطويلة بين العرب، استطاع زويمر أن يجري دراسات لا تُضاهى عن العالم الإسلامي؛ ومن هنا جاءت تسميته "الرسول إلى الإسلام"، وكان الكاتب جيه. كريستي ويلسون من أوائل مروِّجي هذه التسمية، التي حملها عنوان كتابه رسول إلى الإسلام: حياة صمويل م. زويمر (١٩٥٢). في حين يرى باحثون أنَّ جهود زويمر تخدم الحركة الاستعماريَّة الصهيونيَّة–المسيحيَّة في المرتبة الأولى، من خلال استهداف العقليَّة المسلمة بأفكار تتنافى مع صحيح الإسلام، وكان الباحث الأكاديمي

البريطاني عطاء الله صدِّيقي من مؤيِّدي هذا الرأي، كما ذكر في دراسة عنوانها " Islam and Christian Theology–الإسلام واللاهوت المسيحي" (٢٠٠٥). وتكمن أهميَّة التراث الفكري الذي خلَّفه زويمر فيما يعكسه من فهم للرؤية البروتستانتيَّة للإسلام. من جديد، يذكِّر بيكلي بأنَّ هناك موضوعات شديدة الحساسيَّة في الدراسات الإسلاميَّة، من بينها نبوَّة النبي (ﷺ)، وطبيعة الوحي الإلهي الذي تنزَّل به القرآن الكريم، مذكِّرًا بردِّ الفعل العنيف من العالم الإسلامي تجاه الأديب البريطاني، كشميري الأصل، سلمان رشدي عند إطلاق روايته The Satanic Verses–آيات شيطانيَّة (١٩٨٨)، التي اتُّهم رشدي بسببها بالإساءة إلى النبي (ﷺ)، وإلى الدعوة الإسلاميَّة في مهدها، بأن شبَّع تنزُّل الوحي برؤى خرافيَّة.

اكتشف زويمر أنَّ الدراسات عن الإسلام التي أجراها أتباع البروتستانتيَّة قليلة نسبيًّا، وفطن إلى أنَّ نقد الإسلام لا يكون إلَّا من خلال التعامل مع المسلمين ودراسة الدين كما يفهمه معتنقوه. عبَّر زويمر عن أحد أهم أهدافه جهوده العلميَّة في دراسة الإسلام، وهو "تنصير العالم الإسلامي في هذا الجيل"، متَّخذًا إيَّاه شعارًا في الحياة، كما ذكر في كتابه A Call to Prayer for Moslem World–دعوة إلى الصلاة للعالم الإسلامي (١٩٢٣). لا يمكننا أن نغفل عن حقيقة أنَّ المرجعيَّة الأساسيَّة لأفكار زويمر كانت عقيدة ألفيَّة المسيَّا ومجيئه الثاني، التي هي جزء من المذهب البروتستانتي، الذي تفرَّع منه ما يُعرف بالمسيحيَّة الصهيونيَّة، أو الأصوليَّة، أو اليمينيَّة المتطرِّفة، التي لا هدف لها أهم من تهيئة العالم لاستقبال المسيح، ويُعد التَّنصير استراتيجيَّة حيويَّة بالنسبة لها. اعتبر المبشِّر الرائد أنَّ التَّبشير بالخلاص الركيزة الأساسيَّة التي يجب أن يقوم عليها عمل المبشِّرين، وهذا ما لا يقدِّمه الإسلام.

نظرة زويمر إلى الإسلام كما يعكسها أحد مؤلَّفاته

يتناول صمويل زويمر في كتابه Islam: A Challenge to Faith–الإسلام: تحدٍّ للإيمان (١٩٠٧)، وكما يحدِّد عنوانه الفرعي دراسات في الدين المحمدي والاحتياجات والفرص في العالم المحمدي، الإسلام، في دراسة مفصَّلة لتاريخه، منذ نشأته وانتشاره في شبه الجزيرة العربيَّة، وأهم عقائده وطقوسه، والانقسام العقائدي بين السُّنَّة والشيعة، والتحديات التي يشكِّلها

أمام حركة التَّنصير العالميَّة. يبدأ زويمر كتابه بالإشارة إلى أنَّ الإسلام ظهر في مكَّة في فترة كانت رياح التَّنصير قد وصلت إليها فيه، ولن ننسى أنَّ عام مولد نبيِّنا مُحمَّد (ﷺ) يُعرف بعام الفيل (٥٧٠ أو ٥٧١ ميلاديًّا)، نسبة إلى الغزو الذي تزعَّم أبرهة الأشرم، حاكم اليمن المفوَّض من مملكة أكسوم الحبشيَّة المسيحيَّة، باستخدام فيلة اقتيدت من أجل تدمير الكعبة المشرَّفة. أمَّا عن دافع أبرهة، فكان صرف العرب عن الحجِّ إلى الكعبة البيت الحرام، الذي جعله الله تعالى قيامًا للناس (سورة المائدة: آية ٩٧)؛ لدفعهم إلى الحجِّ إلى الكنيسة التي بناها في صنعاء، وجعل منها تحفة معماريَّة، مطلقًا عليها القُليس.

غير أنَّ ما لم يكن في الحسبان قد وقع، بأن جعل الله تعالى كيده وجيشه في تضليل، بأن سخَّر طيرًا صغيرة الحجم تلقي عليهم حجارة من طين، فتكت بهم وخيَّبت مسعاهم، كما يخبرنا بيان الحقِّ سبحانه في سورة الفيل "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)". وبرغم هذه الآية والمعجزة الربَّانيَّة التي أحبطت تلك الغزوة الصليبيَّة تبشيريَّة الدافع، تجد صمويل زويمر في القرن الرابع عشر الهجري، يدرس أسباب انتشار الإسلام في جزيرة العرب وما ترتَّب عليه من تعطيل لمساعي التَّنصير حينها، وكأنَّ إيمانه بالتدبيريَّة الإلهيَّة لم يهدِه إلى أنَّ إرادة الله هي التي حالت دون تدمير بيت الله الحرام، الذي جعله هدايةً للعالمين، مصداقًا لقوله تعالى "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ" (سورة آل عمران: آية ٩٦). يتأسَّف زويمر في أوَّل فصول كتابه على ضياع فرصة شيوع المسيحيَّة في جزيرة العرب، بقوله "ظهر الإسلام في منطقة كانت في مرمى المسيحيَّة؛ فمكَّة لا تبعد عن القُدس (معقل المسيحيَّة وقتها بزعامة الدولة البيزنطيَّة) أكثر من ثمانمائة ميل، مسافة قطعها مُحمَّد (ﷺ) في شبابه. ظهر الإسلام في وقت كان من المفترض أن تكون جزيرة العرب قد اعتنقت المسيحيَّة، التي انتشرت في القرون الستَّة التي سبق فيها إنجيل المسيح عقيدة مُحمَّد (ﷺ) حتَّى حدود المحيطات، الهادي والهندي والأطلسي..." (ص١-٢). يعترف زويمر بأنَّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي هزم المسيحيَّة

في عُقر دارها، في القُدس في القرن الأوَّل الهجري، ثمَّ في القسطنطينيَّة في القرن التاسع الهجري؛ ولذلك، فهو يتساءل: ما هي أسباب تلك الهزيمة؟

يذكِّر صمويل زويمر بأنَّ شبه الجزيرة العربيَّة قبل الإسلام كانت عبارة عن قبائل يدين معظمها بديانات وثنيَّة، إلى جانب مستعمرات يهوديَّة ومسيحيَّة في المناطق التجاريَّة. كان الشام يخضع وقتها للنفوذ البيزنطي، أو الدولة الرومانيَّة الشرقيَّة المسيحيَّة، بينما كان العراق تحت سيطرة الفرس المجوس؛ أمَّا اليمن، فكما سبقت الإشارة، كانت تحت سيطرة الدولة الحبشيَّة المسيحيَّة. إذا ما تأمَّلنا في طبيعة الديانات الوثنيَّة المنتشرة في شبه الجزيرة العربيَّة زمن البعثة النبويَّة، لوجدنا أنَّ بعضها كان يؤمن بأنَّ الطبيعة هي التي كانت تهب الحياة ثم تنتزعها، وآمن بعضها بوجود إله خالق وأنكر البعث والنشور، فيما آمن بعضٌ آخر بالخالق والخَلق، لكنَّهم أنكروا نبوَّة النبيِّين واتَّخذوا أصنامًا آلهة من دون الله، قُدِّمت إليها القرابين، وذُبحت لها النذور، ونُظِّمت لأجلها رحلات الحج، وفق ما جاء في كتاب The Original Sources of the Quran–مصادر القرآن الأصليَّة (١٩٠٥)، للقُس ويليام سانت كلير تسديل.

المسيحيَّة في جزيرة العرب قبل الإسلام

يُعتبر كتاب Early Christianity in Arabia–بداية المسيحيَّة في جزيرة العرب (١٨٥٥) لتوماس رايت، المرجع الأهم بشأن بداية دخول المسيحيَّة جزيرة العرب وانتشارها. يقول بولس الرَّسول في رسالته إلى أهل غلاطية أنَّه مكث في جزيرة العرب فترة لم يحدِّدها، بينما يزعم زويمر أنَّه بقي هناك ٣ سنوات (ص١٧). يقول بولس الرَّسول "لَمَّا سَرَّ اللهَ الَّذِي أَفْرَزَنِي مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَدَعَانِي بِنِعْمَتِهِ. أَنْ يُعْلِنَ ابْنَهُ فِيَّ لأُبَشِّرَ بِهِ بَيْنَ الأُمَمِ، لِلْوَقْتِ لَمْ أَسْتَشِرْ لَحْمًا وَدَمًا. وَلاَ صَعِدْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ، إِلَى الرُّسُلِ الَّذِينَ قَبْلِي، بَلِ انْطَلَقْتُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ رَجَعْتُ أَيْضًا إِلَى دِمَشْقَ" (رسالة أهل غلاطية: إصحاح ١، آيات ١٥–١٧). ما يثير الانتباه هو أنَّ شبه الجزيرة العربيَّة، المشار إليها بالاسم المختصر "الْعَرَبِيَّةِ"، كانت الوجهة الأولى للمبشِّر الأوَّل، بولس الرَّسول، حتَّى قبل الشَّام وأوروبا. يضيف زويمر أنَّ مجمع نيقيَّة (عام ٣٢٥ ميلاديًّا) شهد مشاركة أساقفة من العرب، من بينهم أساقفة البصرة. غير أنَّ الآثار والنقوش

تثبت أنَّ جنوب غرب اليمن كان أكثر مناطق شبه الجزيرة العربيَّة اعتناقًا للمسيحيَّة، كما يرى زويمر، مذكِّرًا بقصَّة بناء القليس، ليكون بديلًا عن الكعبة بوصفه قبلةً للحُجَّاج، وذلك عام ٥٦٧ ميلاديًّا، أي قبل مولد النبيِّ (ﷺ) بنحو ثلاث سنوات. ويسوق زويمر العديد من الأدلَّة على معرفة العرب بالمسيحيَّة، واعتناق مشاهير منهم لها؛ مستنتجًا معرفة النبيِّ (ﷺ) بالمسيحيَّة قبل بعثته.

لم تكن المسيحيَّة وحدها الديانة السائدة في شبه الجزيرة العربيَّة، فكان هناك أقليَّة يهوديَّة، كما كان هناك مَن يدينون بالحنفيَّة، ملَّة أب الأنبياء إبراهيم (عليه وعلى سائر أنبياء ورُسُله أزكى الصلوات وأتم التسليم)، ولعلَّ أشهر من دانوا بهذه الديانة قبل البعثة المحمَّديَّة، زيد بن عمرو بن نفيل، وهو قرشي موحِّد، لم يعبد الأصنام قبل البعثة، وهو ابن عم الفارق عمر بن الخطَّاب بن نفيل (رضي الله عنه وأرضاه). وفق الحديث ٣٨٢٧ في صحيح البخاري، الذي رواه عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما)، ارتحل زيد بن عمرو بن نفيل إلى الشام والعراق، بحثًا عن الدين التوحيدي الصحيح؛ فعرف من الربَّانيِّين والأحبار الذين قابلهم أنَّ نبيًّا سيُبعث في مكَّة بالهدى ودين الحقِّ، ولم يدر في خُلد بن نفيل أنَّ هذا النبي هو مُحمَّد بن عبد الله بن عبد المطَّلب بن هاشم (ﷺ). المفارقة أنَّ زيد بن عمرو بن نفيل قُتل خلال رحلة عودته إلى مكَّة، ويُروى أنَّه سُمع وقت وفاته يقول "اللهمَّ إن كنتَ حرمتني صحبةَ نبيِّك، فلا تَحرم منها ابني سعيدًا"؛ وبالفعل صار ابنه سعيد بن زيد من صحابة النبيِّ مُحمَّد بن عبد الله (ﷺ)، بل ومن العشرة المبشَّرين بالجنَّة. وقد قال النبيُّ (ﷺ) عن زيد بن عمرو بن نفيل "يُحشَرُ ذاك أمَّةً وحدَه بيني وبين عيسى ابن مَريم"(الحديث ٨١٨٧ في السُّنن الكبرى للنسائي).

يستنتج صمويل زويمر من التنوُّع العقائدي السائد في جزيرة العرب قبل البعثة المحمَّديَّة أن الإسلام عبارة عن خليط من الوثنيَّة والمسيحيَّة واليهوديَّة والحنفيَّة، أو "تطوُّر شامل وطبيعي جدًّا" لتلك العقائد، مضيفًا أنَّه مجرَّد خطوة من الحنفيَّة التوحيديَّة اتَّخذها النبيُّ (ﷺ) لتشكيل ديانة جديدة مستقلَّة عمَّا جاء به موسى وعيسى (عليهما وعلى سائر أنبياء ورُسُله أزكى الصلوات وأتم التسليم) (ص٢٥). الأغرب من ذلك أن اعتبر زويمر أنَّ فترة الجاهليَّة كانت

مجالًا "للبحث الروحاني عن الإله"، وكانت كذلك "زمنًا من الفوضى السياسيَّة والاجتماعيَّة" في غرب جزيرة العرب، ممَّا يعني وجود بيئة صالحة لرجل عبقري يمكنه استغلال تلك الأوضاع الاجتماعيَّة والسياسيَّة والدينيَّة لتكوين عالم جديد، وهو مُحمَّد بن عبد الله (ﷺ) (ص٢٥).

الانقسام والتفكُّك في تاريخ الدعوة الإسلاميَّة

يرى صمويل زويمر أنَّ نجاح دعوة الإسلام في جزيرة العرب لم يُكتب له الاستمراريَّة بعد خروج الدعوة من ذلك النطاق؛ بسبب التحديات التي واجهها من المسيحيَّة والزرادشتيَّة والبرهميَّة. يعلِّق المستشرق الأمريكي على تنبُّؤ النبيِّ الكريم عن تفرُّق أمَّة الإسلام إلى العديد من الفرق، التي تنحرف عن صحيح رسالته (ﷺ) بتأثيرات من مِلل ضالَّة، حيث روى عوف بن مالك أنَّ النبيَّ (ﷺ) قال "سَتَفْتَرِقُ أُمّتي علَى بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، أَعْظَمُها فِرْقَةُ قَوْمٍ يقيسونَ الأُمورَ بِرَأْيِهِمْ فَيُحَرّمونَ الْحلالَ وَيُحَلّلونَ الْحرامَ"، والحديث ورد في المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، على شرط البخاري ومسلم، لكنَّهما لم يخرجاه. للحديث رواية أخرى، تُنسب كذلك إلى عوف بن مالك، عن النبيِّ أنَّه قال (ﷺ) "افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً. فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ. وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً. فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً. وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ"، رواه أبود داوود والترمذي وابن ماجة وأحمد، وقال الترمذي عنه، أنَّه حسن صحيح.

تُعرف الفرقة الوحيدة المبشَّرة بالجنَّة بين فرق المسلمين بـ "الفرقة الناجية"، وهي التي أوضح النبيُّ ماهيَّتها لمَّا سأله صحابته "قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي"، رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني. يتبيَّن من هذا الوصف النبوي لماهيَّة هذه الفرقة أنَّها فرقة أهل السُّنَّة والجماعة، الملتزمة بصحيح ما جاء في القرآن الكريم والأحاديث النبويَّة، والرافضة للمُحدَثات، أساس البدع والضلالات، والمعارضة لمزج الفلسفات المستمدَّة من الثقافات الوثنيَّة بصحيح الدين. يعيب زويمر على علماء أهل السُّنَّة عدم الانفتاح على الفلسفات الإغريقيَّة، خاصَّة إرث أفلاطون وأرسطو، لافتًا النَّظر إلى اعتبار ابن رُشد وابن سينا

والفارابي من الزنادقة، في رأي بعض المفكِّرين المسلمين؛ لإدخالهم أفكارًا مستمدَّة من الفلسفات القديمة على صحيح الدين. يشير زويمر إلى وجود أربعة مذاهب فقهيَّة، الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، تتَّفق في الأصول، وتختلف في أمور فرعيَّة، يصفها بأنَّها "تفاهات غير هامَّة" (ص١٣٨).

ينتقل صمويل زويمر إلى استعراض أهم فرقة رئيسة لمعتنقي الإسلام، تشكِّل نسبة ليست بالهيِّنة منهم، وهي فرقة الشِّيعة، وهم أنصار الإمام عليٍّ بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه)، الذين اعتقدوا في أحقيَّته في الخلافة بعد أن لقي النبيُّ (ﷺ) ربَّه، زاعمين أنَّه وصيُّه الذي أسرَّ إليه بعلم باطني تتوارثه سلالته. يلقي زويمر الضوء على العداء التاريخي للشِّيعة تجاه الخلفاء الثلاثة الأوائل، أبي بكر وعُمر وعُثمان. يتعمَّد الشِّيعة في عيد لهم يُطلق عليه عيد الغدير، خبز فطائر على صورة الخلفاء الثلاثة الأوائل، ويحشونها بالعسل، ثمَّ يقطِّعونها بالسكاكين، ليسيل العسل منها، كأنَّما هو دم الخلفاء السائل بعد تمزيق أجسادهم. سُمِّي عيد الغدير بهذا الاسم نسبة إلى خُطبة النبي (ﷺ) في صحابته بعد حجَّة الوداع في غدير خمٍّ، قائلًا (ﷺ) "من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيثما دار، اللهم هل بلغت". وبرغم صحَّة الحديث الوارد في صحيح الإمام مُسلم، فهو لا يحمل تصريحًا مباشرًا من النبي (ﷺ) بأنَّ يعهد بالخلافة من بعده إلى الإمام عليٍّ. تنقسم فرقة الشِّيعة إلى ٣٢ فرقة مستقلَّة، تتَّفق في اعتقادها بانحصار الإمامة في ذريَّة النبيِّ (ﷺ) من نسل ابنته فاطمة الزهراء وزوجها عليٍّ بن أبي طالب (ر ضي الله عنهما). أمَّا عن أهم نقاط الخلاف، فهي هويَّة الإمام الأحق بالإمامة، حتَّى ظهور الإمام المهدي.

عقيدة الإمام المهدي: تصوُّر محسوب على الإسلام لعقيدة المخلِّص

يُعتبر الإيمان بالإمام المهدي، "المنتظر" لدى الشِّيعة والمبشَّر به لدى السُّنَّة، أساس المعتقَد الشِّيعي، وترى فرقة الإماميَّة الاثني عشريَّة أنَّ اثني عشر إمامًا انحدروا من نسل النبيِّ (ﷺ)، آخر محمَّد بن الإمام الحسن العسكري، المختفي في سرداب في مدينة سامرَّاء، منذ ما يقرب من ١٢٠٠ عام، حيث يُعتقد أنَّه في غيبة منذ عام ٢٥٧ هجريًّا تقريبًا، بعد وفاة

أبيه، برغم تعدُّد الروايات المؤكِّدة أنَّ الحسن العسكري لم يعقِّب. لا يختلف الشِّيعة بكافَّة فرقهم على أنَّ المهدي "سيملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلأت جورًا وظُلمًا"، كما لا يختلفون في مبالغتهم غير المنطقيَّة في قدرات هذا الإمام وما سيُحدثه من تغيير جذري لموازين القوَّة في العالم بأسره. يرى إدوارد سيل في كتابه The Faith of Islam–إيمان الإسلام (١٨٨٠) ثمَّة تشابه بين عقيدة الإماميَّة وعقيدة المسيانيَّة، من حيث الإيمان بالحاجة إلى وجود "وسيط، يشبه كلمة الآب الذي كشف من خلاله عن نفسه لأبنائه"، وكأنَّما عقيدة الإمام المهدي هي نتاج تأثُّر الشِّيعة بعقيدة تجسُّد الربِّ في صورة المسيح، كما ينقل زويمر عن سيل (ص١٣٩). جدير بالذِّكر أنَّ أحمد الكاتب، الباحث في الشأن الشِّيعي، قد فنَّد نظريَّة الإمامة في كتابه تطوُّر الفكر السياسي الشيعي من الشُّورى إلى ولاية الفقيه (١٩٩٨)، مستنتجًا أنَّ الاعتقاد في وجود الإمام الاثني عشر مجرَّد فرضيَّة فلسفيَّة ابتدعها ملالي الشِّيعة لسدِّ فراغ غياب إمام يُلتف حوله، وقد استُغلِّت في تحقيق مكاسب ماديَّة وسُلطة سياسيَّة (ص١٥٥).

ويحدِّد زويمر ثلاث نقاط خلاف أساسيَّة يتميَّز بها الشِّيعة عن السُّنَّة، وهي فتح باب الاجتهاد، من خلال استنباط الأحكام الشرعيَّة من المصادر الفقهيَّة بما يتناسب مع إيقاع العصر، بدلًا من التقيُّد بالقرآن الكريم والأحاديث النبويَّة؛ وإقامة احتفالات دينيَّة أشبه ما تكون مسرحيَّات الأسرار (Mystery plays)، وهي مسرحيَّات انتشرت إقامتها في أوروبا في القرون الوسطى في الأعياد الدينيَّة لتجسيد حياة القدِّيسين وإظهار معاناتهم في سبيل نشر رسالتهم، وتُعتبر طقوس الشِّيعة في العاشر من محرَّم كلَّ عام (عاشوراء) في ذكرى مقتل الإمام الحسين بن عليٍّ (رضي الله عنهما) من أشهر تلك الاحتفالات؛ وإباحة زواج المُتعة، وهو زواج مؤقَّت لا تتقيَّد إجراءاته بما ورد في القرآن وصحَّ عن النبيِّ (ﷺ) وصحابته الكرام من شروط لصحَّة الزواج.

تسلُّل الروحانيَّات إلى الإسلام

يرى صمويل زويمر أنَّ الإسلام عانى لقرون ممَّا أطلق عليه "الانحلال"، بعد أن تسلَّلت إلى صحيحه عقائد بدعيَّة مُستمدَّة من الديانات الوثنيَّة، على رأسها وَحدة الوجود، والعقلانيَّة،

مضيفًا أنَّ مثل تلك العقائد مارست تأثيرًا قويًّا على العقيدة الإسلاميَّة، ولكن دون أن تحلَّ محلَّ صحيح العقيدة. يشير القُس هنري وودوارد هالبرت في دراسته " The Philosophical Disintegration of Islam–الانحلال الفلسفي للإسلام" (١٨٩٩) إلى أنَّ "العقائد الهرطوقيَّة المسيحيَّة، والفلسفة الإغريقيَّة، والروحانيَّة المشرقيَّة والآريَّة سحقت فرقة الشِّيعة سريعًا. وبرغم أنَّ بلاد فارس لم تضم إلى الإسلام أكثر من ١٠ ملايين تابع في أكثر أوقات ازدهار الإسلام فيها (أكثر قليلًا من واحد من عشرين من عدد المسلمين كافَّة)، فقد آوت (بلاد فارس)، ومنذ الأزمنة الباكرة، أكثر الفرق هرطقةً وعدائيَّةً من سائر أنحاء العالم. وجدت العقلانيَّة المُحمَّديَّة بيئة خصبة لها في بلاد فارس" (ص٥١).

يزعم زويمر أنَّ الروحانيَّة عُرفت بين بعض معتنقي الإسلام منذ مهد رسالته، في محاولة منهم للتمرُّد على ما أطلق عليه "الطقوس الشكليَّة العقيمة والعقيدة الجامدة"، من خلال الانخراط في طقوس تأمُّليَّة روحانيَّة تتَّسم بالزُّهد في الماديَّات (ص١٤٢). يذكِّر هذا التمسُّك بالروحانيَّات في معرفة الربِّ والسمو على الطقوس الشكليَّة، بما أخبر عنه إنجيل يوحنَّا عن ماهيَّة الربِّ بقوله "أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ، أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ. لأَنَّ الْخَلاَصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ. وَلكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ، وَهِيَ الآنَ، حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا»" (إنجيل يوحنَّا: إصحاح ٤، آيات ٢٢–٢٤). أمَّا عن أهم عقائد الصوفيَّة، فهي الإله وحده هو الموجود، وما عدا ذلك لا يوجد إلَّا بالاقتران به؛ الرُّوح تهبط على الجسد مثلما يدخل الطائر القفص، ولا تجد راحتها إلَّا بعد أن تفارقه لتلتحم من جديد بمصدرها، وهو الإله الذي نفخها؛ ليس للإنسان إرادة شخصيَّة والأقدار مُحدَّدة من قِبل الإله؛ الاتصال بالإله هو أسمى الغايات، ولا يتحقَّق إلَّا برحمة منه؛ وأهم طقس ديني هو إنعاش الرُّوح بالذِّكر، بترديد أسماء الإله والتأمُّل في صفاته، تحيُّنًا للحظة تنزُّل رحمته وتحقُّق الوصل معه. يضرب زويمر المثل في الفرق المحسوبة على الإسلام، أو لتقل المنبثة منه لتستقلَّ بديانة جديدة، التي تجمع بين الفكر الروحاني وعقائد الشِّيعة الإماميَّة بالبهائيَّة.

البابيَّة والبهائيَّة: تجسيد انسلاخ الفكر الشِّيعي من صحيح الإسلام إلى الباطنيَّة

يعرِّف صمويل زويمر البابيَّة والبهائيَّة بأنَّهما ديانتين ليستا من الإسلام في شيء، إنَّما نشأتا في أرض إسلاميَّة، يقصد بها بلاد فارس، اعتراضًا على بعض تعاليم الإسلام، واستنادًا إلى العديد من عقائد الشِّيعة، وعلى رأسها الإماميَّة. ورثت البابيَّة، وهي الأصل الذي تفرَّعت عنه البهائيَّة، عن الشِّيعة الفكر الباطني؛ ولعلَّ في ذلك ما أغرى آلاف الشِّيعة في بلاد فارس إلى اعتبار ميرزا عليّ محمَّد، مؤسِّس البابيَّة، مخلِّصهم. يُنسب اسم الديانة البابيَّة إلى الاعتقاد بأنَّ الإمام الثاني عشر منذ غيبته الثانية في ٣٢٩ هجريًّا-الأولى كانت عام ٢٥٧ هجريًّا تقريبًا-كوَّن قنوات اتِّصال مع بعض الرجال الثقات، ويُعرف أحد هؤلاء باسم "الباب". أعلن ميرزا عليّ محمَّد نفسه الباب، زاعمًا أنَّ الاتِّصال بالإله ينحصر فيه، في تطبيق مثالي للاعتقاد بوجود وسيط بين المرء وخالقه، الواردة في إنجيل يوحنَّا على لسان يسوع النَّاصري "«أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي. لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضًا. وَمِنَ الآنَ تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ»" (إنجيل يوحنَّا: إصحاح ١٤، آيتان ٦-٧). تفرَّعت البهائيَّة من البابيَّة بعد مقتل الباب ميرزا عليّ محمَّد بتحريض شاه الفُرس عام ١٨٤٩ ميلاديًّا، على يد ميرزا حسين المازندراني، الذي نُفي مع أتباعه إلى عكَّا، في الأرض المقدَّسة، وطوَّر فِكره إلى أن أعلن نفسه إلهًا بعد حلول الرُّوح القُدُس فيه، وأُطلق عليه "بهاء الله".

اعتقد صمويل زويمر أنَّ ظهور البابيَّة والبهائيَّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي قبل بداية عمله التَّبشيري عام ١٨٨٩ ميلاديًّا بفترة وجيزة، هو إشارة إلى "انحلال الدين والفلسفة الإسلاميَّة"، وأنَّ ذلك "بداية النهاية" بالنسبة إلى الإسلام "باعتباره نظامًا فكريًّا لم يعد يُقنع الواعي" (ص١٤٨). يبدو أنَّ دعوة بعض أتباع البابيَّة وقتها إلى إيقاف العمل بالشريعة الإسلاميَّة، المنسوخة في اعتقادهم حتَّى تأتي الشريعة الجديدة مع الإمام المنتظر، وفق ما أورد الدكتور عمر فاروق فوزي في كتابه **الخمينيَّة وصلتها بحركات الغلو الفارسيَّة وبالإرث الباطني** (٢٠٠١)، قد أوهمت زويمر بأنَّ المسلمين صاروا يبحثون عن مخلِّص، أرقى من النبيِّ (ﷺ).

نشأة الوهَّابيَّة ودورها في تطوير الفكر الإسلامي

لا يمكن اعتبار الوهَّابيَّة فرقة جديدة مستقلَّة؛ إنَّما هي حركة تجديد وإصلاح، ثار مؤسِّسها، الإمام محمَّد بن عبدالوهَّاب، على مظاهر البدع الممتزجة بصحيح الدين، والمتمثِّلة في ممارسة طقوس الصوفيَّة، وعلى رأسها زيارة الأضرحة والتوسُّل بالأولياء، إلى جانب انتشار استخدام المسبحات، والذهب، والجواهر، والخمر، والدخان. استند بن عبدالوهَّاب إلى المذهب الحنبلي، أشدِّ المذاهب الفقهيَّة، في تمييزه بين صحيح الدِّين والمُحدثات، وكان القرآن الكريم والأحاديث النبويَّة مرجعه الأول. حارب مؤسِّس الوهَّابيَّة بسيفه مظاهر البدع، خاصَّة بعد أن وجد الدَّعم من الأمير محمَّد بن سعود، أمير الدرعيَّة، الذي تحالَف معه في القضاء على الردَّة في إقليم نجد. يعتقد زويمر أنَّ "الحالة الأخلاقيَّة، والاجتماعيَّة، والفكريَّة في الإمبراطوريَّة الوهَّابيَّة القديمة، في وسط شبه الجزيرة العربيَّة، دليل كافٍ على أنَّ الإصلاح الإسلامي لا يمكنه إنقاذ شعب أو رفع شأنه. لا أمل، لشبه الجزيرة العربيَّة على الأقل، في الإسلام؛ فقد خضع للتجربة على مدار ١٣ عشر قرنًا، وفشل، ولا يزيد الوهَّابيُّون وتاريخهم ذلك إلَّا تأكيدًا. لم يخضع الإسلام لإصلاح اجتماعي أو أخلاقي دائم في أيِّ أرضٍ دخلها، منذ بداية دعوته؛ هو نظام ميؤوس منه" (ص١٥٢).

مشكلات تواجه عمليَّة التَّبشير

يقف صمويل زويمر على أهم أسباب فشل الحملات التَّبشيريَّة في العالم الإسلامي في تحقيق أهدافها، وهو التعارض بين عقيدة الإسلام والعقيدة المسيحيَّة، خاصَّة فيما يخصُّ الخلاص ومفهوم الألوهيَّة. غير أنَّ الأمل في تهذيب الكافرين من المسلمين، في رأي زويمر، لم يكن منعدمًا، وقد استدل في ذلك بما قالته المبشِّرة البريطانيَّة إيزابيلا ليلياس تروتر، عن تجربتها في الجزائر عن المسلمين، في منشور لها عنوانه " A Challenge to Faith–تحدٍّ للإيمان"، وقد استمدَّ زويمر منه عنوان ذلك المنشور عنوان كتابه قيد الدراسة. تقول تروتر عن المسلمين وبلادهم "أراضٍ بائرة ونفوس ميتة؛ عميان وباردون وجامدون، ليس كمثل أيٍّ من غيرهم من الكافرين. مع ذلك، لأنَّنا نحبُّهم، نرى أنَّ إمكانيَّة للتضحية، والتحمُّل، والحماس، والحياة لم تنعدم. ألم يكن ابن الربِّ الذي مات من أجلهم كذلك يرى

إمكانيَّة لذلك؟"، نقلًا عن زويمر (ص٢٠٩). أمَّا عن أبسط وسائل إحياء موات قلوب المسلمين، فهي نشر الكتاب المقدَّس، الذي أثبت أنَّه أفضل تمهيد للعمليَّة التَّبشيريَّة. يزعم زويمر أنَّ ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى تُفقد النص الأصلي الكثير من قيمته، بل ولا تنقل المعنى بحذافيره. أمَّا ترجمات الكتاب المقدَّس، فهي تحافظ على روعة النص وقوَّة تأثيره. بعد ذلك، يأتي تقديم المساعدات الطبيَّة والتعليميَّة، ثمَّ الوعظ بما يخاطب عقول الجمهور المستهدَف.

المشكلات والمخاطر

يكتب صمويل زويمر في الفصل قبل الأخير من كتابه عن المعوِّقات التي تواجه عمليَّة التَّبشير الأمريكيَّة منذ بدايتها في القرن الثامن عشر الميلادي، موضحًا أنَّ المبشِّر الرائد صمويل جيه. ميلز، المعروف بإسهاماته في تأسيس جمعيَّة الاستيطان الأمريكيَّة (American Colonization Society) والمجلس الأمريكي لمفوَّضيِّ الإرساليَّات الأجنبيَّة (American Board of Commissioners for Foreign Missions)، لمَّا قطع بدأ تركيزه على العالم الإسلامي، فطن إلى الصعوبات المتوقَّعة هناك، وما تتميَّز به عمَّا يمكن تعطيل المساعي التَّبشيريَّة في أيِّ مكان آخر. ينقل زويمر عن ميلز مقولته بخصوص الحملات التَّبشيريَّة إلى العالم الإسلامي "لم يكن الوقت قد حان، وتلك الخطوة لم تزل مبكِّرة. إذا أُرسل المبشِّرون سوف يُقتلون، والحاجة تقتضي حربًا صليبيَّة جديدة قبل إرسال الإنجيل إلى التُّرك والعرب" (ص٢٢٣). يتحدَّث زويمر مطلع القرن العشرين عن ثبوت صحَّة قول صمويل جيه. ميلز قبل قرن من ذلك الزمن، مشدِّدًا على التحدي الذي كان يواجه عمليَّة التَّبشير، التي لا بدَّ وأن تتكلل بتنصير العالم الإسلامي، شاء مَن شاء وأبى مَن أبى، ويقول زويمر في ذلك "العالم المحمَّدي لا بدَّ وأن يتنصَّر، وسوف يتنصَّر، إن لم تفقد مهمَّة المسيح العظيمة معناها أو لا تسعف قوَّته في تنفيذها" (ص٢٢٤).

يدعم زويمر مواجهة تحدِّيات نشر المسيحيَّة في التربة المسلمة من خلال "حرب صليبيَّة جديدة وأنبل من حرب السياسة والتجارة" (ص٢٢٥). ويعتقد المبشِّر الرَّائد أنَّ الإسلام سيُقهر تحت أقدام "الإنسانيَّة والحضارة والتنوير"، وسيتوقَّف استبداله بالمسيحيَّة على مدى نجاح

حملات التَّبشير بإقناع المسلمين بمدى احتياجهم إلى المسيح (ص٢٢٥). ينقل زويمر بمنتهى الصراحة عن المبشِّرين في بعض المناطق الوثنيَّة، تشديدهم على منع دخول الإسلام البقاع التي يقصدونها؛ كي لا يضاعف من صعوبة جهودهم. لا يُنكر تأثير الدعوة الإسلاميَّة في عرقلة جهود التَّنصير في آسيا وإفريقيا، وإن كان الإسلام ذاته، كما يرى زويمر، بدأ يواجه مخاطر، على رأسها حملات التشكيك والهجوم. يضرب زويمر المثل بالهند في تأسيس جمعيَّات تدافِع عن الإسلام، زاعمًا أنَّها تقلِّد أساليب الإرساليَّات التَّبشيريَّة في الهجوم على المسيحيَّة، وإثبات عدم صحَّة عقيدتها. ومع كلِّ المعوِّقات والشدائد التي تعرقل مساعي التَّنصير، يعتقد زويمر أنَّ المعركة محسومة لصالح حملات التَّبشير؛ حيث أنَّ "المعركة معركة الربِّ، والانتصار سيكون كذلك حليفه" (ص٢٤٣). أمَّا عن سلاح تلك المعركة، فهو "حب المسيح، المتجلِّي في المستشفيات، والمدارس، والخطابة الحصيفة؛ والمتجسِّد في حياة المبشِّرين المخلصين"، وهذا ما سيكسب المسلمين بلا مقاومة ويقضي على تعصُّبهم (ص٢٤٣).

لعلَّ أكثر ما يدعو إلى التأسُّف فيما يقوله زويمر في تناوُله لأحوال العالم الإسلامي مطلع القرن العشرين، أنَّ تردِّي تلك الأحوال كان بمثابة فرصة غير مسبوقة، يجب استغلالها في خدمة جهود التَّنصير، في وقت كان نصف العالم يرزح فيه تحت وطأة الاستعمار المسيحي، بعد أن تقلَّصت دولة الخلافة الإسلاميَّة، التي كانت لم تزل قائمة متمثِّلة في الدولة العثمانيَّة، إلى مساحات تقل كثيرًا عمَّا كانت عليه زمن الصحابة. كانت المطالبة بنشر الحريَّات، والخروج من بوتقة الرجعيَّة، والانضمام إلى العالم المتحضِّر الباب الذي تسلَّل منه الغرب إلى قلب المجتمع الإسلامي في معقل الخلافة، ولو راجعنا دور حركتي تركيا الفتاة والاتحاد والترقِّي في نشر العلمانيَّة، لعرفنا كيف أسهم الانسلاخ من ربقة الإسلام في تسلُّط الغرب على المسلمين ونهب خيرات بلادهم، تحت مسمَّى نشر الديموقراطيَّة والدفاع عن القيم الإنسانيَّة المهدرة في المجتمعات الإسلاميَّة.

يختتم زويمر كتابه بمقولة لا يمكن الإغفال عن مضمونها، ولا عن تأثيرها الفارق في توجيه الحملات الاستعماريَّة الغربيَّة؛ يقول المبشِّر الرَّائد، في سياق حديثه عن آفاق نشر المسيحيَّة،

"يُنطق اسم مُحمَّد (ﷺ) خمس مرَّات في محلِّ ميلاد المسيح، بينما لا يجرؤ مسيحي أن يدخل إلى محلِّ مولد محمَّد (ﷺ)" (ص٢٥٥). تكمن حساسيَّة تلك العبارة، السابقة على وعد بلفور بوطن قومي لليهود على أرض فلسطين عام ١٩١٧ ميلاديًّا بعشر سنين، في تحريضها الضمني على انتزاع الأرض المقدَّسة، التي تضمُّ مدينة الناصرة، حيث وُلد يسوع المسيح. المقصود ضمنيًّا هو، إن لم تكن المسيحيَّة تسيطر على مهد المسيح، فكيف لها أن تسيطر على باقي أنحاء العالم. الأشدُّ خطورةً في مقولة زويمر هو انتقاده للنصِّ الديني، الوارد في السُّنَّة النبويَّة، الذي يحظر دخول الحرمين، في مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة، حيث وُلد النبي (ﷺ) وعاش ودُفن، على غير المسلمين. يقول النبيُّ (ﷺ)، في الحديث الوارد في صحيح البخاري (رقم ٣٠٥٣) وصحيح مُسلم (رقم ١٦٣٧) "أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ"، ويقول في الحديث الصحيح "لَا يَجْتَمِعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ"، أخرجه الإمام أحمد في مُسند الإمام أحمد بن حنبل، ورواه الإمام مالك في الموطَّأ.

يضيف زويمر عن تأسُّفه على استمرار الأرض المقدَّسة إلى ذلك الوقت (عام ١٩٠٧ ميلاديًّا) في قبضة المسلمين "لم تزل الأرض المقدَّسة في أيدٍ مدنَّسة، وقد وقف العالم المسيحي محدقًا وقتما كان سيف الهلال (الإسلام) مرفوعًا في أرمينيا وكريت"، ويتساءل زويمر "ألا يجب أن ننتفض لنستعيد المملكة المفقودة؟" (ص٢٥٥). وبرغم ما تحمله عبارات زويمر من تحريض على استخدام القوَّة، فهو يدَّعي أنَّ قوَّة السلاح ليس ما كان يلزم "الحرب المقدَّسة" التي دعا إليها، إنَّما "سيف الرُّوح، الذي هو كلمة الربِّ"، مُطلقًا على تلك المعركة "حملة للخدمة والحب المسيحي" (ص٢٥٦).

١٣. انطلاق دعوة التَّبشير بملكوت الربِّ: فيلم بولس، رسول المسيح (٢٠١٨م)

تبدأ أحداث الفيلم في روما، عاصمة الدولة الرومانيَّة، التي وفد إليها رسولا المسيح بطرس وبولس. وبرغم مرافقة القدِّيس بطرس لبولس الرَّسول في تلك الرحلة، وبرغم إشارة المصادر التاريخيَّة لعصر الرُّسُل إلى أنَّ نهايتهما كانت في الفترة ما بين عامي ٦٤ و٦٦ ميلاديًّا على يد الإمبراطور نيرون، لا يظهر بطرس ضمن شخصيَّات الفيلم باعتباره مشاركًا لبولس في

مصيره بعد اتِّهامهما سويًّا بممارسة السحر الأسود وبإثارة الشغب والتحريض على الفتنة. وتجدر الإشارة إلى أنَّ **بطرس الرسول يُعتبر المؤسِّس الفعلي للكنيسة الكاثوليكيَّة**، التي تمجِّده باعتباره أوَّل بطريرك لروما وأنطاكية، بل وتُطلق على كاتدرائيَّتها اسم Basilica Sancti Petri–أي كاتدرائيَّة القديس بطرس، أو بازليك القديس بطرس وتعرف رسميًّا باسم بازليك القديس بطرس البابويَّة، وفق موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة. فهل يرجع هذا التجاهل إلى **الصراع المذهبي بين الكاثوليك والبروتستانت**، الذين ينتمي إليهم صُنَّاع الفيلم؟

عرفنا من سفري أعمال بطرس وأعمال بطرس وبولس أنَّ رسولي المسيح يسوع الناصري عمد إلى إقناع الإمبراطور نيرون باعتناق المسيحيَّة من خلال عرض للألعاب البهلوانيَّة في المنتدى الروماني، ادَّعي فيه سمعان المجوسي تمتُّعه بقدرات إلهيَّة، من بينها القدرة على التحليق في الهواء. وبعد انكشاف حقيقة ممارسته ألعابًا سحريَّة، ثار الإمبراطور نيرون ثورة جنونيَّة أمر بعدها بسجن بطرس وبولس، وكانت نهايتهما الإعدام، صلبًا في حالة بطرس، وذبحًا في حالة بولس. وتزامن ذلك مع اندلاع حريق روما الكبير في يوليو من عام ٦٤ ميلاديًّا، وقد اتَّهم الإمبراطور نيرون أتباع الرسولين بتدبير ذلك الحريق الذي دمَّر ثلثي مدينة روما، وفق قول المؤرِّخ الروماني بابليوس كورنِليوس تاسيتُس.



صورة ١–من فيلم "بولس رسول المسيح"

تسلِّط أولى مشاهد الفيلم الضوء على معاناة المسيحيِّين في روما من بطش الإمبراطور نيرون، الذي اتَّهمهم بدبير حرق المدينة. وكان من بين وسائل التعذيب كذلك إقامة عروض سيرك تشارك فيها حيوانات مفترسة، يُقدَّم فيها المسيحيِّون الأوائل فرائس لتلك الحيوانات، بالإضافة إلى حرقهم أحياءً.

ويظهر بولس الرَّسول وحيدًا في زنزانته، يعاني نتيجة للجلْد على يد جنود نيرون.



صورة ٢–من فيلم "بولس رسول المسيح"

وكان بولس سجين زنزانة مُظلمة تحت الأرض، لا يأتيها النور إلَّا من منفذ علوي، وبقي فيها يتعبَّد بالذِّكر.



صورة ٣–من فيلم "بولس رسول المسيح"

واضطرت جماعة المسيحيِّين المضطهدين إلى الانعزال والتخفِّي، في معاناة من الضيق والعوز. واختلفت الجماعة فيما بينها؛ فالبعض اقترح الاستمرار في روما وتحمُّل المعاناة في

سبيل توصيل كلمة الربِّ، بينما رأى آخرون ضرورة الهروب إلى مدينة أفسس الإغريقيَّة للحفاظ على الرسالة ونشرها من هناك.



صورة ٤–من فيلم "بولس رسول المسيح"

ويظهر القديس لوقا–كاتب الإنجيل الثالث–في استهجان شديد لما ألمَّ بمؤمني روما، عازمًا على التواصل مع بولس الرَّسول لإيجاد حلٍّ لمحنة جماعتهما. ويقوم بدور القدِّيس لوقا نفس مقدِّم شخصية يسوع الناصري في فيلم Passion of Christ–آلام المسيح.



صورة ٥–من فيلم "بولس رسول المسيح"

كان بولس محتجزًا في سجن الإمبراطور نيرون، وقد أمر بقتله بتهمة الخداع والخيانة، والتآمر لحرق روما، على أن يُحبس في زنزانة مُظلمة إلى حين تنفيذ الإعدام. ويُرجع الفيلم السبب في حريق روما هو محاولة نيرون القضاء على انتشار المسيحيَّة باتِّهام المسيحيِّين الأوائل بتدبير الأمر، مما يمنحه المبرر لاضطهادهم والقضاء على دعوتهم في مهدها.

وعن طريق الحيلة، يصل القدِّيس لوقا إلى بولس في سجنه، فيجده ثابتًا على عقيدته، ومحتفظًا بعزمه على نشْر رسالة المسيح، التي اختاره لنشرها. وتتعدَّد مشاهد التعذيب والقتل والتشريد لمسيحيِّي روما على يد جُند نيرون، وهو في ثباتٍ على دينهم، متَّخذين من معاناة بولس الرَّسول الأسوة. وهُنا، يتولَّى القدِّيس لوقا مهمَّة تطبيب الجراح، وتسكين الآلام، ومنح الدعم الروحاني.



صورة ٦–من فيلم "بولس رسول المسيح"

يصل القدِّيس لوقا إلى بولس الرَّسول من جديد في زنزانته، ويحثُّه بشدَّةٍ على تثبيت إيمان المضطهدين من بني جماعتهما بكتابة قصَّته، وبخاصة وأنَّهم لن يروه أو يتواصلوا معه مباشرةً وقد أوشك على الموت. وهنا، يقول بولس الرَّسول عبارة في غاية الأهميَّة "أخشى أن ينظر الناس إليَّ قبل المسيح"، في تلميح من القائمين على العمل إلى اعتبار **بولس المؤسِّس الحقيقي للمسيحيَّة**. يعترض القدِّيس لوقا على ما قاله بولس، موضحًا أنَّه "رأى المسيح فيه" لمَّا رأى بولس يدعو إلى الإيمان به، وهو (القدِّيس لوقا) لم يرَ المسيح أبدًا؛ وحينها ترك القدِّيس لوقا عائلته وأصدقاءه وحياته، وتبِع بولس. ومن ثمَّ، يبدأ بولس في سرد قصَّة حياته. وهُنا، تبدأ رحلة تدوين الرسالة المسيحيَّة، التي انتشرت لاحقًا وعرفها العالم بأسره. ويعتبر الجزء الذي يتلوه بولس ويكتبه لوقا جزءًا من سفر أعمال الرُّسُل.



صورة ٧–من فيلم "بولس رسول المسيح"

تبدأ القصَّة حينما كان بولس شابًا تعلَّم على يد جماعة اليهود الفريسيِّين، وشارك بنفسه في اضطهاد اليهود لإستيفانوس، ورجمه له حتَّى موته–نفس القصَّة المذكورة في سفر أعمال الرُّسُل.



صورة ٨–من فيلم "بولس رسول المسيح"

ويشارك بولس في الرجم بمنتهى غلظة القلب، بينما يتلقَّى إستيفانوس الضربات في ثبات



صورة ٩–من فيلم "بولس رسول المسيح"

ويمارس بولس الكثير من أشكال الاضطهاد ضدَّ المسيحيِّين الأوائل، من مطاردة واعتداء بالضَّرب.



صورة ١٠-من فيلم "بولس رسول المسيح"

غير أنَّ غلظته تهدأ قليلًا عند مشاهدته أحد أطفال المسيحيِّين يصلِّي ويدعو في خشوع



صورة ١١-من فيلم "بولس رسول المسيح"

وبعد أن يقنع جماعة اليهود في هيكل أورشليم بضرورة مطاردته المسيحيِّين الفارِّين إلى دمشق لمنع انتشار الرسالة، تقع الحادثة الفارقة في حياته، وربَّما في حياة المسيحيَّة بمفهومها الذي صيغت وفقه واحتفظت به إلى اليوم، وهو-كما جاء في سفر أعمال الرُّسُل- **ظهور يسوع أمام بولس** وترديده: "**شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟**". فَقَالَ (شَاوُلُ): «مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟» فَقَالَ الرَّبُّ: «أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ". (سفر أعمال الرُّسُل: إصحاح ٩، آيتان ٤-٥).



صورة ١٢–من فيلم "بولس رسول المسيح"

وتتواصل الأحداث تمامًا كما ورد في الآيات التالية في الإصحاح ٩ في نفس السفر "فَقَالَ وَهُوَ **مُرْتَعِدٌ وَمُتَحَيِّرٌ**: «يَا رَبُّ، مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟» فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «قُمْ وَادْخُلِ الْمَدِينَةَ فَيُقَالَ لَكَ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَ». وَأَمَّا الرِّجَالُ الْمُسَافِرُونَ مَعَهُ فَوَقَفُوا صَامِتِينَ، يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلاَ يَنْظُرُونَ أَحَدًا. فَنَهَضَ شَاوُلُ عَنِ الأَرْضِ، وَكَانَ وَهُوَ مَفْتُوحُ الْعَيْنَيْنِ لاَ يُبْصِرُ أَحَدًا. فَاقْتَادُوهُ بِيَدِهِ وَأَدْخَلُوهُ إِلَى دِمَشْقَ. وَكَانَ **ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ يُبْصِرُ**، فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ" (سفر أعمال الرُسُل: إصحاح ٩، آيات ٦–٩).

ونلاحظ حالة الفزع والتشنُّج التي دخل فيها شاوُل وقت سماع صوت المسيح ورؤيته.



صورة ١٣–من فيلم "بولس رسول المسيح"

ويفقد شاوُل بصره ثلاثة أيَّام، ويستعيده بمساعدة أحد التلاميذ يُدعى حنانيًا، الذي أمره يسوع بذلك "وَكَانَ فِي دِمَشْقَ تِلْمِيذٌ اسْمُهُ حَنَانِيَّا، فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ فِي رُؤْيَا: «يَا حَنَانِيَّا!». فَقَالَ: «ها أَنَا ذَا يَا رَبُّ». فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «قُمْ وَاذْهَبْ إِلَى الزُّقَاقِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمُسْتَقِيمُ، وَاطْلُبْ فِي

بَيْتِ يَهُوذَا رَجُلاً طَرْسُوسِيًّا اسْمُهُ شَاوُلُ. لأَنَّهُ هُوَ ذَا يُصَلِّي، وَقَدْ رَأَى فِي رُؤْيَا رَجُلاً اسْمُهُ حَنَانِيَّا دَاخِلاً وَوَاضِعًا يَدَهُ عَلَيْهِ لِكَيْ يُبْصِرَ»" (سفر أعمال الرُّسُل: إصحاح ٩، آيات ١٠–١٢).



صورة ١٤–من فيلم "بولس رسول المسيح"

وبعد أن يتم إيمان بولس، يقفز في المياه ليتعمَّد، ثمَّ يبدأ رحلة التَّبشير برسالة المخلِّص.



صورة ١٥–من فيلم "بولس رسول المسيح"

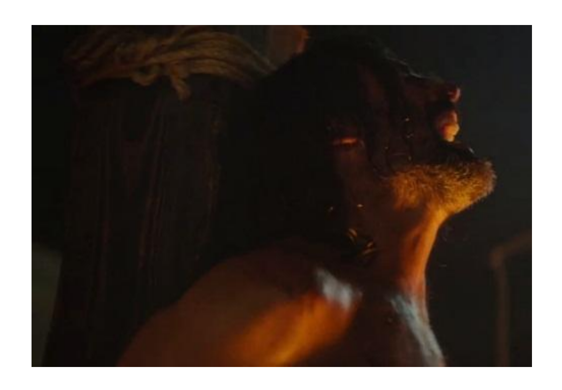
يسعى أحد المسيحيِّين الأوائل إلى تأسيس جماعة للتبشير بإنجيل المسيح في روما برغم الاضطهاد، ويساعدهم في ذلك أثرياء من أبناء روما، أملًا في التخلُّص من الطاغية–نيرون–الذي حرَقَ المدينة ليتَّهم جماعة المسيحيِّين بإشعال ثورةٍ ضدَّه.



صورة ١٦–من فيلم "بولس رسول المسيح"

والمفارقة أنَّ محافظ السجن المسؤول عن تعذيب بولس والمسيحيِّين الأوائل يبدأ في التعاطف مع معاناتهم، بعد أنَّ تسلَّل الإيمان إلى قلبه، وبخاصة بعد أن عجز تقديم القرابين للآلهة المتعدِّدة في روما عن إشفاء عن ابنته. حينها، يشعر محافظ السجن بالإثم تجاه تعذيب أتباع المسيح، بل ويعترف بأنَّ بولس "كبش فداء" لطيش الإمبراطور نيرون، المسؤول الحقيقي عن حرق روما.

يفقد القدِّيس لوقا شيئًا من ثباته بعد تكرار عمليَّات القتل والرجم والحرْق، وحينها يثبِّت بولس إيمانه بمقولته "الحبُّ هو السبيل الوحيد"؛ الثبات هو سبيل نشر الدعوة، وقد ثبت المسيح برغم ما لاقاه.



صورة ١٧–من فيلم "بولس رسول المسيح"

ومع ازدياد الإيذاء والقتل والتشريد، يفكِّر أحد شباب المسيحيِّين في اقتحام سجن نيرون وتحرير بولس، ومن ثمَّ إشعال ثورة للإطاحة بُحكم الطاغية، **لكنَّ حماسة الطائش تلجمه حكمة كبار أعضاء الجماعة.** مع ذلك، تشتعل ثورة شباب المسيحيِّين، ويقتحمون السجن لتخليص بولس ولوقا والمسجونين ظلمًا. غير أنَّ بولس يرفض الهرب وينبذ أعمال العنف ضد الإمبراطوريَّة الرومانيَّة "باسم المسيح"، مشيرًا إلى أنَّ يسوع مات على الصليب ولم يهرب، وبتضحيته، تخلَّصت البشريَّة من آثامها، فكيف يهرب هو من واجبه ببذل روحه دفاعًا عن دعوته. ويبقى بولس في زنزانته المظلمة.

يعود ادِّعاء ممارسة بولس لأعمال السِحر الأسوَد، وقدرته على معالجة عضال الأدواء، فيسأل محافظُ السجن بولسَ: "هل تُشفى ابنتي لو دعوت المسيح، إلهَك؟" فيرد بولس: "لا أعرف"، لكنَّه يرشِّح له القديِّس لوقا ليتولَّى مهمَّة العلاج، فيرفض، خوفًا من غضب الآلهة.



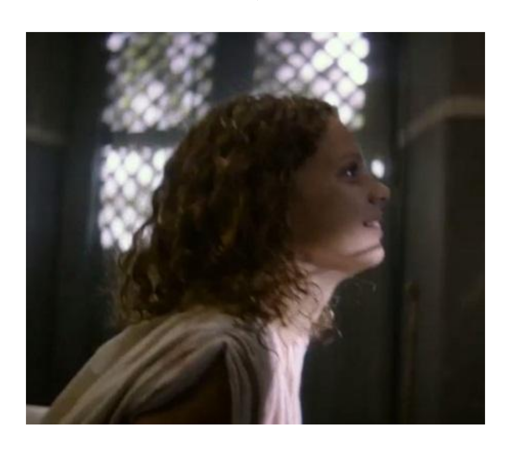
صورة ١٨–من فيلم "بولس رسول المسيح"

ويمارس محافظ السجن طقوسًا لإرضاء الآلهة دون جدوى.



صورة ١٩–من فيلم "بولس رسول المسيح"

وفي النهاية، يضطر الروماني جامد القلب، تحت تأثير فشل أطباء روما وضغوط زوجته، إلى الاستعانة بلوقا، بعد أن كان ينوي إعدامه بسبب كتابته رسائل بولس. وبعد أن ينجح لوقا في علاج الطفلة وينقذها من الموت، برغم نيَّة أبيها قتله.



صورة ٢٠-من فيلم "بولس رسول المسيح"

يعرف محافظ السجن حقيقة المسيحيِّين، وطبيعة معاناتهم، فيكتشف مدى الظلم الواقع عليهم، وحينها يُفرج عن المسجونين ظُلمًا منهم.



صورة ٢١-من فيلم "بولس رسول المسيح"

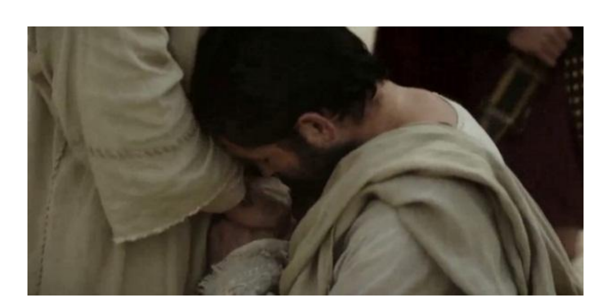
عرف محافظ السجن الحقيقة بعد أن زار مكان اختباء المسيحيِّين، الذي أرسله لوقا إليه لإحضار الدواء؛ شاهد الروماني متحجر القلب حال المتَّهمين بإثارة الفتنة والتحريض على الفوضى، فلان قلبه وتبرعم الإيمان فيه. وحينها، يشعر محافظ السجن بالندم حيال ما فعل تجاه المسيحيِّين، ويبكي تأسُّفًا على ما اقترفت يداه، فيدعو له بولس الرَّسول بكمال الاهتداء إلى طريق المسيح، الذي بدأ ينفذ إلى قلبه ويريه الحقَّ والباطلَ.

يُقدم محافظ السجن على إعدام بولس الرَّسول رغمًا عن إرادته، وهو يعلم أنَّه "كبش فداء" استخدمه الإمبراطور الطاغية في تبرير محاربة رسالة المسيح.



صورة ٢٢–من فيلم "بولس رسول المسيح"

ويودِّع القدِّيس لوقا بولس الرَّسول، عازمًا على استكمال المسيرة وتدوين ما أملاه عليه.



صورة ٢٣–من فيلم "بولس رسول المسيح"

وتحفظ اللفافات التي كتبها لوقا الرسالة، وتنتقل إلى أيدي جماعة المسيحيِّين الأوائل.



صورة ٢٤–من فيلم "بولس رسول المسيح"

وتفارق الجماعة روما في سلام، عازمةً على نشر الدعوة من بلد أكثر أمانًا.



صورة ٢٥–من فيلم "بولس رسول المسيح"

ويستسلم بولس الرَّسول لقدَره، بعد أن حمَّل الرسالة للقديس لوقا.



صورة ٢٦–من فيلم "بولس رسول المسيح"

وتصعد روحه إلى السماء، ويستقبله الشهداء جميعًا.



صورة ٢٧–من فيلم "بولس رسول المسيح"

ثمَّ ينظر بعيدًا، فيجد يسوع الناصري قادمًا إليه.



صورة ٢٨–من فيلم "بولس رسول المسيح"

أهم رسائل الفيلم

١–براءة بولس الرَّسول والمسيحيِّين الأوائل من تدبير الثورة وأعمال الشغب ضدَّ النظام الحاكم في روما، الذي ادَّعى ذلك لوأد رسالة المسيح في مهدها.

٢–دحض اتِّهام بولس الرَّسول **بممارسة أعمال سحر وشعوذة في سبيل التأثير على الرومان للإيمان بدعوته؛** فأدواته في نشر الرسالة هي الكلمة النابعة من إيمانٍ عميق وفقط.

٣–ثورة المسيحيِّين الأوائل كانت بدافع **الثأر من الإمبراطور نيرون على الظلم** الذي وجهه إلى تلك الجماعة، وكان شباب الجماعة الموتورين وراء تلك الثورة، **على ضدِّ رغبة الحكماء،** وعلى رأس بولس الرَّسول. ويخبر رفض بولس الهروب من السجن–والموت–عن رغبته في التكفير عن آثام اضطهاد والمسيحيِّين الأوائل، متأسِّيًا باستشهاد يسوع على الصليب.

٤–الإثم يلزمه التكفير، وكما كفَّر بولس الرَّسول عن إثمه، **من المنتظر أن يدفع محافظ السجن ثمن ما اقترفه من آثام لإرضاء الإمبراطور الظالم.**

٥–الجلوس في **غرفة مظلمة لا يدخلها النُّور سوى من منفذ واحد** السمة الغالبة على أماكن وجود بولس الرَّسول والقدِّيس لوقا والمسيحيِّين الأوائل، ومعهم ابنة محافظ السجن المريضة.

١٤.خاتمة بأهم الاستنتاجات

١.بدأت دعوة الأمم غير اليهود إلى المسيحيَّة بأمر من المسيح إلى الرُّسُل الاثني عشر بعد قيامته، برغم نهيه في حياته تبشير غير اليهود. وكان لرؤى الرُّسُل للمسيح دور كبير في تلقِّيهم العلم عنه. والسؤال: ما مدى مشروعيَّة ذلك الأمر بنشر المسيحيَّة إذا كان العهد القديم يقول أنَّ الربَّ لا يُرى بالعين "وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَ ذَا عِنْدِي مَكَانٌ، فَتَقِفُ عَلَى الصَّخْرَةِ. وَيَكُونُ مَتَى اجْتَازَ مَجْدِي، أَنِّي أَضَعُكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ، وَأَسْتُرُكَ بِيَدِي حَتَّى أَجْتَازَ. ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي، **وَأَمَّا وَجْهِي فَلاَ يُرَى**»" (سفر الخروج: إصحاح ٣٣، آيتان ٢٢-٢٣)؟

٢.الإيمان برؤيا يوحنَّا اللاهوتي عن فترة ألفيَّة المسيَّا من أهم العوامل الدافعة لإرسال المبشِّرين إلى العالم الإسلامي. **ومن أهم سمات فترة ما قبل الألفيَّة وقوع العالم تحت سيطرة ملك شرير، هو عبارة عن مسيح مدَّعٍ يُطلق عليه Antichrist، أو ضدّ المسيح، سيتحكَّم في اقتصاد العالم ويجبر البشر على عبادة الشيطان.** ومن بين عقائد تلك الفترة كذلك تعرُّض دولة إسرائيل إلى هجمة مباغتة ستجبرها على عقد معاهدة مع الأغيار، الذين سيُهلكهم الربُّ بقدرته الفائقة برغم تفوُّقهم العسكري. هناك شعور سائد بين معتنقي هذه العقيدة بأنَّ تلك الأحداث قد تبدأ في أيِّ وقت، وأنَّ الجيل الذي سيشهد تلك الأحداث قد وُلد.

٣. أيقن السياسيُّون الغربيُّون منذ فشل الحملات الصليبيَّة في تحقيق أهدافهم في العالم الإسلامي أنَّه لا سبيل إلى تلك الأهداف سوى من خلال حرب صليبيَّة باردة تعتمد على الغزو الفكري والثقافي. **واعتمدت جهود التَّبشير على ركيزتين أساسيَّتين: الإقناع بالمسيحيَّة والتنفير من الإسلام؛ واعتمد ذلك بدوره على إبراز عناصر تشترك فيها المسيحيَّة مع الإسلام-أهمَّها الجانب الروحاني متمثِّلًا في طقوس الصوفيَّة-وإلقاء الشبهات حول الإسلام والطعن في عقائده. ولم يكن ليقوم بتلك المهمَّة-مع أشد الأسف- سوى دارسين لعلوم القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة من المسلمين، تنفيذًا لمخطط أخبث، وهو طعن المسلمين أنفسهم في دينهم.**

٤.تشير نتائج الدراسات التي تابعت نتائج جهود الإرساليَّات إلى العالم الإسلامي إلى أنَّ المبشِّرين لم يجنوا ثمار جهودهم الرامية إلى تحويل العالم الإسلامي إلى النصرانيَّة، ولم يستجب إلى دعوتهم سوى فئات محدودة من ضعاف النفوس، في مجتمعات فقيرة وأميَّة ترزح تحت وطأة الاستعمار. غير أنَّ مَن تعانوا مع الغرب على حساب دينهم بغية تحقيق منافع دنيويَّة لم يصلوا إلى ما رنوا إليه. ويقول مصطفى خالدي وعمر فرُّوخ في كتابهما آنف الذكر (١٩٥٣) عن المتنصِّرين من أبناء العالم العربي "**هؤلاء الذين دخلوا النصرانية حُبًّا بالدنيا، لأنَّ الدول المستعمرة لم تحمل هؤلاء على النصرانيَّة حتى تمتعهم بما يتمتع به النصراني الأوروبي والنصراني الأمريكي الأبيضان. من أجل ذلك جعلت لهم كنائس بدائيَّة خاصة بهم ومدارس فطريَّة خاصَّة بهم وحرمت عليهم كل نشاط يريده البيض لأنفسهم ثم انتظرت منهم أن يكونوا دائمًا في خدمتها ضد قومهم وأبناء جلدتهم**"(ص٢٥٣).

٥. كما رأى الكاتب الفرنسي شارل جينيبير في كتابه آنف الذكر (١٩٢١)، لم يكن بولس من أهل الأرض المقدَّسة، إنَّما من يهود المهجر، ممن تربُّوا على أراضٍ لها لغتها وثقافتها وعقائدها الدينيَّة، التي أثَّرت في تكوينهم الفكري. **ويذكر الكاتب أنَّ تحليل رسائل بولس الرَّسول الكبرى يوضح أنَّها تنبع من أربعة مصادر أساسيَّة: "دعوى الاثني عشر الأساسيَّة، ومن الأفكار اليهوديَّة–التي يرجع بعضها مباشرةً إلى النصوص المقدَّسة القديمة، بينما يرجع البعض الآخر إلى اعتبارات دينيَّة حديثة نسبيًّا–ثمَّ من المفاهيم المنتشرة في الأوساط الوثنيَّة اليونانيَّة، ومن الذكريات الإنجيليَّة والأساطير الدينيَّة الشرقيَّة"** (ص٧٠). **ويضيف الكاتب "وعندما نقول أنَّه كان يونانيًّا، فإنَّما نقصد بذلك أنَّه أُشرب في بيئة طرسوس شيئًا من الروح الإغريقيَّة بطريقة تكاد تكون لا شعوريَّة، وأنَّه لقن اللغة اليونانيَّة، فمُنح بذلك أقوى أداة للفكر والعمل، وأيسر الوسائل في عصره للتعبير عن الرأي والدفاع عنه"** (ص٨٢).

٦.يندر وجود تأثير مباشر للإرساليَّات التَّبشيريَّة على السياسات الدوليَّة، ومن أمثلة ذلك عجز الإرساليَّات المتعاطفة مع القضيَّة الفلسطينيَّة عن إقناع الكنائس الأمريكيَّة بتغيير موقفها المؤيد لإسرائيل. وعلى العكس من ذلك، فتأثير جهود الإرساليَّات عظيم فيما يتعلق

ببث أفكارها من خلال التعليم؛ فالكليَّات والجامعات التي أسَّستها الإرساليَّات بمثابة منابع للنشاط السياسي. والتأثير المباشر هو للسياسات الدوليَّة على عمل الإرساليَّات، وليس العكس. السياسات هي التي تستوجب الغطاء الديني الذي توفِّره العقائد التي تستند إليها أعمال الإرساليَّات، وعلى رأسها المسيانيَّة. من هنا، تتوقف أعمال الإرساليَّات خلال فترات الحروب، **وكأنَّها أدَّت مهمتها في شحذ الهمم، وإعداد الساحة أمام الجيوش، والتأثير على موقف الجماهير من الفريقين المتنازعين في الحرب.**

٧. من المثير للدهشة أنَّ كبار المبشِّرين، أمثال "فاندر" و"زويمر" و"فيتراك" يرون أنَّ الإسلام "**حركة دينيَّة معادية للنصرانيَّة مخططة تخطيطًا يفوق قدرة البشر**"، بدلًا من الاعتراف **بأنَّه وحي من الله**، وأنَّه لا يناقض عقيدتهم.

٨.يعترف قساوسة التَّنصير بأنَّ افتعال الأزمات الاقتصاديَّة ونشر الأمراض من بين حيل دفْع الأمم إلى ترك دينها. وقد ذَكَر رئيس مؤتمر عام ١٩٧٨ المنعقد في ولاية كولورادو الأمريكيَّة، أنَّ المسلمين المغتربين أنسب فئة تُستهدف، فهم يلجئون إلى الغرب **لفقدانهم الفرص والدعم في بلادهم، وهنا تبدأ عملية تنصيرهم ليعودوا إلى بلادهم وينشطوا في مجال التَّنصير–يتجلى ذلك في البرامج التدريبيَّة التي تنظِّمها أمريكا لاجتذاب طلاب من بلدان نامية يعانون من مشكلات في بلادهم لإعادة تشكيل تكوينهم الفكري وجعلهم وسيلة لنشر الفكر الغربي وللدعوة إلى التحرر من القيود الدينيَّة والاجتماعيَّة التقليديَّة بهدف اعتناق الحداثة والمدنيَّة التي يوفرها الغرب.**

٩.خلاصة رحلة الدكتورة فاطمة هدى نجا في رحلة قطعتها في الجامعات الغربيَّة للتحري والبحث في مجال الاستشراق هي **أنَّ المستشرقين في جمهورهم من القساوسة أو الاستعماريين أو اليهود، وأنَّ الاستشراق في الدول الاستعماريَّة أقوى منه في الدول غير الاستعمارية، وأنَّ الاستشراق بوجه عام يتمتع بتأييد كلٍّ من الكنيسة ووزارة الخارجيَّة.**

١٠. يُعلن الإمام مُحمَّد الغزالي في مقدمة كتابه **صيحة تحذير من دعاة التَّنصير (٢٠٠٥)** اندهاشه من موقف رجال الكنيسة من الإسلام، برغم أنَّ رسول الإسلام (عليه أفضل الصلاة

وأتم السلام) لم يأتِ سابًّا لرسول الله عيسى بن مريم ولم يخالفه في منهجه، بل اعترف بنبوَّته، وأفرَد القرآن الكريم مساحة لا يُستهان بها لتناوُل قصة المسيح وأمه، **وقد اعترف المبشِّر البريطاني الأشهر صمويل زويمر في كتاب "المسيح في الإسلام- The Moslem Christ" بأنَّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي يعترف بعيسى بن مريم نبيًّا، ولكن ليس إلـهًا وابنًا للإله-وهذه هي نقطة الخلاف**. ويقول الأديب البريطاني برنارد شو "**لقد طبع رجال الكنيسة في القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود حالك، إما جهلًا وإما تعصُّبًا، إنَّهم في الحقيقة كانوا مساقين بإحساس واحد، هو بُغض محمَّدٍ ودينه، وهو يقولون إنَّ محمَّدًا عدوٌ للمسيح، ولقد درست سيرة محمَّدٍ الرجل العجيب، وفي رأيي إنَّه بعيدٌ جدًّا عن أن يكون عدوًّا للمسيح، وإنَّما ينبغي أن يُدعى منقذ البشرية**".

١١.تقليل بولس الرَّسول من أهميَّة الصلاة بحركات الجسد، اعتقادًا منه أنَّ الصلاة بالرُّوح تغني، كما جاء في رسالته إلى أهل روميَّة "الرُّوحُ أَيْضًا يُعِينُ ضَعَفَاتِنَا، لأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا" (رسالة روميَّة: إصحاح ٨، آية ٢٦)، يذكِّرنا بما قاله الساحر التائب حامد آدم بأنَّ التكليف **بأداء الفرائض الدينيَّة يُرفع عن المتصوِّف بعد أن غُفرت ذنوبه** بعد مرحلة الحضرة الإلهيَّة، وكذلك بما قاله مصطفى عبد الخالق، الذي يدَّعي أنَّه المهدي المبشَّر به في السُّنَّة النبويَّة، حينما أشار إلى أنَّه ظلَّ يصلِّي حتَّى جاءه التكليف بمهمَّته الإصلاحيَّة بعد أن حلَّ الرُّوح القُدُس عليه. ويتنافى ذلك بالكليَّة مع ما روته الأناجيل عن مواظبة المسيح على الصلاة (إنجيل مرقس: إصحاح ١، آية ٣٥-إنجيل لوقا: إصحاح ٥، آية ١٦؛ إصحاح ٦: آية ١٢). وقد جاء عن لسان نبي الله عيسى في الآية ٣١ من سورة مريم "وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ **وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**". كما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن نبي الله-صلى الله عليه وسلم-كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه، فقالت عائشة: لمَ تصنع هذا يا رسول الله **وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!** قال: ((أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا))؛ متفق عليه.

الإسلاموفوبيا: استراتيجيَّة صهيونيَّة مدروسة لتشويه الإسلام أم حيلة مكشوفة؟

بسم الله الرحمن الرحيم

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ **هَلْ تَنقِمُونَ** مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ **وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن **لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** (٦٠)" (سورة المائدة: آيتان ٥٩-٦٠).

"وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، **وَتَكُونَ بَرَكَةً. وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ**»" (سفر التكوين: إصحاح ١٢، آيات ١-٣).

مقدِّمة

منذ أزمنة بعيدة، يتعرَّض الإسلام ومعتنقوه إلى حملة ضارية يشنُّها غير المسلمين، بهدف الإقلال من شأنه والحد من انتشار وتثبيط الراغبين في اعتناقه، وإن كان الهدف الأكبر صعب المنال هو تشجيع المسلمين أنفسهم على تركه، وإن كام البديل هو الإلحاد. تُعرف مساعي إثارة المشاعر السلبيَّة تجاه الإسلام، وإذكاء العداوة بين المسلمين والأمم الأخرى من خلال نشر الكراهية ضدَّ المسلمين، بظاهرة ''الإسلاموفوبيا''، أو رهاب الإسلام. أثار انتشار ما يُعرف بالإسلاموفوبيا في المجتمعات الغربيَّة، تساؤلات كثيرة عن أصل تلك الظاهرة؛ فاعتبرها البعض الصورة العصريَّة لطعن مستشرقي القرون الأخيرة في الإسلام، وبخاصَّة بعد فشل الحملات الصليبيَّة في القرون الوسطى، بما يخدم أغراض التبشير، ونشر المسيحيَّة؛ فيما رأى بعضٌ آخر أنَّها نتاج ما ترسَّخ في العقليَّة الغربيَّة من مفاهيم مكذوبة عن الإسلام، أسفرت عن عداء متوارَث. غير أنَّ هناك تفسيرًا آخر لظاهرة الإسلاموفوبيا، قد يكون الأقرب إلى الصحَّة، وهو التأثير الذي مارسه المعتقَد الديني، بالاعتقاد في نشوب

معركة حاسمة في آخر الزمان بين المسيحيِّين والمسلمين، تدور رحاها بعد ما يُعرف بـ "سنوات المحنة الكبرى" (Tribulation Years)، وهي مرحلة يتسلَّط فيها "ضدُّ المسيح" (Antichrist) على اليهود، الذين يهلك غالبيَّتهم، حتَّى يظهر المخلِّص–يسوع الناصري وفق عقيدة الصهيونيَّة المسيحيَّة–ويقضي على المسيح الكاذب.

بعد الإشارة إلى تأثير المعتقَد الديني في تكوين مشاعر عدائيَّة تجاه الإسلام وأهله، لم يعد مجال لإنكار أنَّ المستفيد الأكبر من حملات نشر الإسلاموفوبيا أقطاب الصهيونيَّة في العالم، بأذرعها المتعدِّدة، وعلى رأسها المؤسَّسات التبشيريَّة الغربيَّة. أظهرت الدراسات الحديثة التي تناولت هذه الظاهرة، أنَّ إثارة الكراهية تجاه الإسلام تضاعف بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ميلاديًّا، بتفجير برجي مركز التجارة العالمي، في مدينة نيويورك الأمريكيَّة، واتِّهام تنظيم القاعدة المصنَّف إرهابيًّا بتنفيذه. غير أنَّ الدراسات ذاتها أثبتت أنَّ الحملات العدائيَّة تجاه الإسلام تدعمها شبكات تمويل تتبع جماعات معادية للمسلمين، مؤسِّسوها من اليهود وأتباع اليمين المسيحي، وهم معتنقو الصهيونيَّة المسيحيَّة، والتي تُعرف كذلك بالمسيحيَّة الأصوليَّة. يرى محلِّلون أنَّ الإسلاموفوبيا استراتيجيَّة معاصرة للحركة الاستعماريَّة الغربيَّة، تستهدف تكريس سمو الغرب المسيحي، في مقابل دنو العالم العربي المُسلم، بما يخدم أغراض تبرير تسلُّط الاستعمار على بلاد المسلمين، ولعلَّ أشهر مثال على ذلك قمع الاحتلال الإسرائيلي لشعب الأرض المقدَّسة من المسلمين، بحجَّة مواجهة "الإرهاب الفلسطيني" والهمجيَّة العربيَّة، استغلالًا للمفهوم المروَّج عن تشجيع الإسلام على قتل غير المسلمين باسم الدين.

تلقي هذه الدراسة الضوء على دور الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة في نشر الإسلاموفوبيا عبر مؤسَّساتها التبشيريَّة وأذرعها الإعلاميَّة، مع توضيح تأسيس الانتماء الديني للمهاجرين الإنجليز البروتستانت الأوائل مطلع القرن السابع عشر إلى هناك، وقتما كانت تُعرف بمستعمرات العالم الجديد، وقبل إعلان استقلالها عن التاج البريطاني، أواخر القرن الثامن عشر. تتناول الدراسة بالتفصيل كيف أسهمت عقيدة مهاجرين، شبَّهوا هجرتهم إلى العالم الجديد وعبورهم المحيط الأطلسي إليه، بخروج بني إسرائيل من مصر وعبورهم البحر

الأحمر إلى الأرض المقدَّسة، في تشكيل السياسة الأمريكيَّة تجاه العالم الإسلامي، وبخاصَّة ما يُعرف بـ ‘‘الصراع الفلسطيني–الإسرائيلي’’، في ضوء ما يتناوله الدكتور فؤاد شعبان، في كتابه **من أجل صهيون: التراث اليهودي–المسيحي في الثقافة الأمريكيَّة (٢٠٠٣).** تشير الدراسة إلى أنَّ من أسباب التأييد الأمريكي غير المشروط لإسرائيل، اعتبار أنَّ لكلِّ رئيس أمريكي دور مقدَّر ومحتوم يفضي في النهاية إلى تأسيس ‘‘مملكة الربِّ’’، وتهيئة العالم لاستقبال المخلِّص، بوصف الرئيس الأمريكي على مرِّ الأزمنة ‘‘وريث كورش’’، ملك الفرس الذي أعاد بني إسرائيل من السبي البابلي إلى الأرض المقدَّسة، وأسهم في بناء هيكلهم الثاني، وفق تسمية المؤرِّخ اليهودي بول تشارلز مركلي، في كتابه **American Presidents, Religion, and Israel: The Heirs of Cyrus–الرؤساء الأمريكيون والدين وإسرائيل: ورثة كورش (٢٠٠٤).**

١.تعريف الإسلاموفوبيا وأصل التسمية

وفق تعريف موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة، يُشير مطلح Islamophobia، الذي جرى تعريبه إلى الإسلاموفوبيا، إلى مشاعر الخوف، أو الكراهية، أو التعصُّب ضدَّ المسلمين، باعتبارهم مصدرًا للإرهاب، أو قوَّة جيوسياسيَّة تهدِّد الهيمنة الغربيَّة؛ أمَّا المعنى الحرفي للتسمية، فهو رُهاب الإسلام، على أساس أنَّها تتكوَّن من مقطعين، هما Islam وphobia، التي تعني الرهاب أو الخوف. دخلت التسمية إلى معجم الإنجليزيَّة عام ١٩٢٣ ميلاديًّا، نقلًا عن الفيلسوف الفرنسي آلان كويلين، في استخدامه مصطلح ‘‘islamophobie’’ في الإشارة إلى "تحيُّز ضدَّ الإسلام منتشر بين شعوب الحضارة المسيحيَّة والغربيَّة"، وفق ما جاء في مقال عنوانه "Histoire et mythe conspirationniste du mot «islamophobie»–تاريخ كلمة ’’الإسلاموفوبيا‘‘ ونظريَّة المؤامرة المرتبطة بها"، المنشور على موقع temps presents التاريخي الفرنسي في ١٩ يونيو من عام ٢٠١٩ ميلاديًّا. غير أنَّ شيوع استخدام هذا المصطلح يرجع إلى مؤسَّسة رنيميد ترست (Runnymede Trust)، وهي خليَّة تفكير بريطانيَّة، عند استغلالها إيَّاه في إدانة إثارة المشاعر السلبيَّة تجاه الإسلام وأهله، بهدف التنفير منهم والحطِّ من قدرهم.

٢. الإسلاموفوبيا في تقديم الإسلام والمسلمين عبر وسائل الإعلام

في دراسة تحت عنوان " Representation of Islam and Muslims in Social Media: A Discourse Analysis of Facebook–تقديم الإسلام والمسلمين عبر وسائل التواصل الاجتماعي: تحليل خطاب فيسبوك" (٢٠١٨)، نُشرت عبر دوريَّة Journal of Media Critique، تناول الباحثان محمَّد اتِّفاق وتوفيق أحمد بالتحليل، الخطاب المستخدَم في مشاركات زوَّار شبكة التواصل الاجتماعي الأعلى استخدامًا، فيسبوك، في الحديث عن الإسلام والمسلمين. أثبتت الدراسة أنَّ الإسلام هو أكثر ديانة تُقدَّم بصورة سلبيَّة، وكانت موضوعات الحجاب والنقاب والجهاد والإرهاب (الإسلامي) أكثر الموضوعات إثارة للجدل حول الإسلام. يرى الباحثان أنَّ تناوُل صورة الإسلام عبر وسائل الإعلام الحديثة قد تطوَّر كثيرًا في السنوات الأخيرة، منذ الطفرة الإلكترونيَّة الهائلة، التي نشرت استخدام الإنترنت في تسعينات القرن الماضي. منذ ذلك الحين، يجتهد الباحثون في تعقُّب صورة الإسلام المنقولة عبر وسائل الإعلام، وإن ندرت الدراسات التي تتناول كيفيَّة استخدام وسائط الإعلام الإلكترونيَّة في نشر "خطاب معادٍ للإسلام" (ص٤٠).

تتنوَّع الدراسات عن الإسلام والإنترنت من حيث موضوعاتها، فهناك الإسلام الإلكتروني، وممارسات المسلمين عبر الفضاء الإلكتروني، وتكوين المعرفة الإسلاميَّة عبر الإنترنت، ومناقشة بعض القضايا الإسلاميَّة المعاصرة عبر الإنترنت، إلى جانب استخدام الجماعات الجهاديَّة الإنترنت في نشر أفكار متطرِّفة. لم يجد موضوع سوء تقديم الإسلام والمسلمين عبر وسائل التواصل الاجتماعي الاهتمام الواجب في نظر الباحثين، ومن بين الدراسات القليلة التي تناولت هذا الموضوع، دراسة للباحث عمران أوان، من جامعة مدينة برمنجهام البريطانيَّة، عنوانه " Islamophobia and Twitter: A Typology of Online Hate Against Muslims on Social Media–الإسلاموفوبيا وتويتر: تصنيف للكراهية الإلكترونيَّة ضدَّ المسلمين عبر وسائل التواصل الاجتماعي" (٢٠١٤)، ويشير صاحبها إلى ضرورة التعامل مع نشر العداء الإلكتروني ضد الإسلام بنفس درجة الجديَّة في مواجهة العداء ذاته في التعاملات المباشرة".

وتثبت دراسة أجراها باحث تابع لمعهد مكافحة الكراهية الإلكترونيَّة (OPHI)، تحت عنوان " Islamophobia on the Internet: The growth of online hate targeting Muslims–الإسلاموفوبيا عبر الإنترنت: نمو الكراهية الإلكترونيَّة ضدَّ المسلمين" (٢٠١٣)، وجود مشاعر سلبيَّة تجاه المسلمين على شبكة فيسبوك. تشير الكثير من الدراسات إلى تعمُّد الإعلام الغربي إظهار صورة سلبيَّة للمسلمين، بالإشارة إلى مشاركتهم في أعمال عدائيَّة ضدَّ الغرب، مثل تفجير برجي مركز التجارة العالمي، وخطف طائرات، وتنفيذ هجمات انتحاريَّة. أُجريت العديد من الدراسات التفصيليَّة عن الصورة السلبيَّة التي تُنقل عن الإسلام والمسلمين عبر منابع صناعة الوعي الغربيَّة، ولعلَّ جهود الباحث الفلسطيني الشهير إدوارد سعيد، في كتابيه **Orientalism–الاستشراق** (١٩٧٨) و**Covering Islam–تغطية الإسلام** (١٩٨٢)، من أشهر الأعمال في هذا السياق، إلى جانب جهود كثيرة لباحثين آخرين. ويرى الباحثان محمَّد اتِّفاق وتوفيق أحمد أنَّ كلَّ ما خرجت به الدراسات المعنيَّة بتحليل صورة الإسلام في الإعلام الغربي تؤكِّد ما سبق وأن قاله مهاتير محمَّد–رئيس الوزراء الماليزي–في بحث نُشر عام ١٩٩٧ تحت عنوان "Islam: The misunderstood Religion – الإسلام: الدين المُساء فهمه"، عن أنَّ "الإسلام هو ربَّما أكثر دين يُساء فهمه في أيامنها هذه، وبالطبع عبر التاريخ. لا تقتصر إساءة الفهم على غير المسلمين وحدهم، بل تمتدُّ إلى المسلمين أنفسهم" (ص٦٩١).

تركِّز الحملات الدعائيَّة ضدَّ المسلمين على عدَّة جوانب، أبرزها تشويه صورة الإسلام وإبراز الممارسات السلبيَّة الفرديَّة لمعتنقيه باعتبارها سمة أساسيَّة للمسلمين، وإظهار الإسلام باعتباره خطرًا على المجتمع الغربي، ومن ثمَّ تبرير الكراهية ضدَّ المسلمين والحذر من التعامل معهم، باعتبار هم مكمن الخطر وأصل التهديد، وهذا بدوره يبرِّر الاعتداءات الغربيَّة على أراضي المسلمين بوصفها دفاعًا، وليس هجومًا. تزداد مشاعر الخوف تجاه المسلمين عند التحدث عنهم مع ربطهم بمفاهيم سلبيَّة لدى الغرب عن الإسلام، وعلى رأسها الشموليَّة، والإرهاب العالمي، والإسلام السياسي المتعصِّب، والجهاد الإسلامي، والاستبداد، والفاشيَّة. ولعلَّ من أشهر المؤلَّفات التي لعبت على هذا الوتر كتاب **What Went Wrong? The**

أين يكمن الخطأ: Clash of Islam and Modernity in the Middle East– تعارُض الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط (٢٠٠٣) ، الذي زعم فيه كاتبه، المستشرق الأمريكي اليهودي برنارد لويس، المعروف بعدائه المعلَن للإسلام، أنَّ الإسلام هو مركز الخوف، ومتعارض مع الديموقراطيَّة والحداثة. ويعتبر نمط "المسلم الإرهابي" من أشهر الأنماط المستخدمة في تصوير المسلمين في الإعلام الغربي، هذا إلى جانب الاتِّصاف بالشرِّ، وعدم الأهليَّة للثقة، والعنف. أمَّا النساء، فيُقرن حجابهنِّ بالرجعيَّة، والجهل، والخضوع لسلطة الرجل.

أهم نتائج الدراسة

قسَّم الباحثان عيِّنات البحث قيد الدراسة، والمستمدَّة من ٥٠ صفحة على شبكة فيسبوك، الصورة السلبيَّة للمسلمين إلى ٥ تصنيفات، هي: ١–المسلمين بوصفهم تهديدًا للسلام والحياة الطبيعيَّة؛ و٢–المسلمين بوصفهم تهديدًا للأمن والسلم العام؛ و٣–المسلمين بوصفهم تهديدًا لأسلوب الحياة والحضارة؛ و٤–المسلمين بوصفهم تهديدًا للأيديولوجيَّة والديانات الأخرى؛ و٥–المسلمين بوصفهم تهديدًا للقوى السائدة وللآخرين. أمَّا عن نتائج تحليل التصنيف ١– تهديد السلام والحياة الطبيعيَّة–فقد تبيَّن أنَّ المسلمين مرتبطون في ذهن أصحاب المشاركات عبر فيسبوك بمفهومي "إخضاع البلدان من خلال الجهاد" و "نشر الوحشيَّة والعنف". يُعتقد أنَّ المسلمين بلا قلب في قتل الشعوب، وكأنَّهم آلة قتل، مما يجعل من أهم مصادر الخطر على البشريَّة، مثلهم في ذلك مثل الحيوانات الضارية. علاوة على ذلك، يُنبذ نقاب المسلمات، باعتباره وسيلة يمكن استغلالها في الإخلال بالأمن. وقد استوقفت الباحثين عبارة توضح مدى سلبيَّة نظرة الغرب للمسلمين، حيث تقول "**من خلال القنابل والقتل، ينشر المسلمون والإسلام والشريعة. باختصار، كلُّ المجرمين مسلمون**" (ص٤٥).

بالنسبة إلى التصنيف ٢–تهديد الأمن والسلم العام–أشارت المشاركات قيد الدراسة إلى اقتران المسلمين بالإرهاب، والخروج على القانون، والتعصُّب، ويُضرب الأمثلة في ذلك بحوادث خطف الأطفال والطائرات، ومهاجمة المباني، وقتل الأبرياء. يُقرن نقاب المسلمات بـ "الخوذات"، ويُنظر إلى المنتقبات باعتبارهنَّ "ضالعات في أعمال بلطجة". نأتي إلى

التصنيف ٣–تهديد أسلوب الحياة والحضارة–والذي أحدث اختلاف أسلوب الحياة الغربي عن الأسلوب المتَّبع في البلدان الإسلاميَّة تأثيرًا كبيرًا في تكوُّنه. من أهم الموضوعات المثيرة للجدل في هذا السياق، إجبار الفتيات على الزواج، وتحرير المرأة المسلمة، وتحريم الاختلاط ومصافحة المرأة للرجل، ووضع المرأة في المجتمع المسلم. تتعامل بعض المشاركات مع أسلوب الحياة الإسلامي بشيء من السخرية، خاصَّة فيما يخصُّ تطبيق الشريعة على النساء. ويوجد استخفاف ببعض الشعائر الدينيَّة، من بينها نحر الذبائح في عيد الأضحى، الذي يوصف بالميل إلى العنف والتعطُّش إلى الدماء. ومن أهم المفاهيم التي تكوَّنت لدى المشاركين: الإسلام لا يتناسب مع الحياة الغربيَّة، باعتباره مستندًا إلى عقيدة لا تعرف التسامح وتشجِّع على العنف تحت مسمًّى تطبيق الشريعة، والمقصود بذلك تطبيق الحدود.

في حين تشير نتائج تحليل التصنيف ٤–تهديد الأيديولوجيَّة والديانات الأخرى–إلى اعتبار كافَّة الأنشطة الخبيثة للإرهابيين من تعاليم الإسلام، مع اعتبار الأفكار المستمدَّة من القرآن الكريم أبعد ما تكون عن الاعتدال. ترفض المشاركات قيد الدراسة المدارس الدينيَّة التي تشجِّع على التعليم الإسلامي من باب حريَّة العقيدة. الأهم ممَّا سبق أنَّ بعض المشاركات تنظر إلى الإسلام، ليس بوصفه دينًا، إنَّما "طائفة سياسيَّة" تستهدف سلب حريَّات البشر (ص٤٦). بالنسبة إلى علاقة الإسلام بالديانات الأخرى، فقد عكست المشاركة نظرة في غاية النفور؛ على اعتبار أنَّ النصوص الدينيَّة تنظر إلى غير المسلمين باعتبارهم "كفَّارًا"، ممَّا يعني انعدام التسامح مع غير المسلمين، الذين لا يؤتمَن عليهم في وسط المسلمين. يُذكر أنَّ الإسلام هو الديانة الوحيدة بالحرب، وبخاصَّة في مواجهة أتباع الديانات الأخرى؛ حيث يُعتقد أنَّ المسلم على استعداد للقتل، وكأنَّما في ذلك أداء لواجب ديني.

أخيرًا، أظهرت نتائج تحليل التصنيف ٥–تهديد القوى السائدة والآخرين–وجود شعور بالتهديد لدى الغرب من هيمنة الإسلام على بلاده، الذي قد يُخرجها من دائرة الرقي والمدنيَّة. ومن بين مصادر ذلك القلق تنامي عدد المهاجرين المسلمين إلى الغرب. هذا، ويُعتقد أنَّ تطبيق النظام الإسلامي في الحُكم، بعودة الخلافة الإسلاميَّة، يعني القتل الجماعي لغير المسلمين.

ومن بين التعليقات على ماهيَّة الإسلام، تقول مشاركة أنَّ الإسلام ليس دينًا، ولا ثقافة، ولا عرقًا، ولا أيديولوجيَّة سلميَّة، إنَّما "طائفة شيطانيَّة" (ص٤٧).

من الدراسات الحديثة التي تناولت تداول خطاب الكراهية ضدَّ الإسلام عبر وسائل التواصل الاجتماعي، دراسة أجرتها باحثة تتبع جامعة الرور في بوخوم الألمانيَّة، عنوانها " Hate in a Tweet: Exploring Internet-Based Islamophobic Discourse-الكراهية في تغريدة: استكشاف خطاب الإسلاموفوبيا عبر الإنترنت" (٢٠١٨). تتناول هذه الدراسة مواصفات خطاب إثارة الكراهية ضدَّ المسلمين، في أعقاب الاستفتاء البريطاني لعام ٢٠١٦ ميلاديًّا، حول عضويَّة الاتحاد الأوروبي، والذي أثار خطابًا عدائيًّا ضدَّ المسلمين من سكَّان بريطانيا. أظهر تحليل مجموعة من التغريدات المشارَكة عبر شبكة تويتر للتدوين المصغَّر، أنَّ الصورة النمطيَّة للمسلمين تتَّسم بالعنف، والرجعيَّة، والعجز عن التأقلم مع القيم الغربيَّة.

تتبَّع الباحثة أصل الإسلاموفوبيا، أو رهاب الإسلام، مشيرةً إلى أنَّ بداية الترويج لعداء الإسلام للغرب كان في القرن السابع الميلادي، وقد بدأ الشعور بتهديد الإسلام للحضارة الغربيَّة مع تبنِّي النظرة الاستشراقيَّة للعالم العربي. أمَّا عن وسيلة نشر رهاب الإسلام، فهي بتقديمه بصورة سلبيَّة عبر وسائل الإعلام. تستند الباحثة في تعريفها للإسلاموفوبيا إلى ما ورد في هذا الصدد في تقرير لمؤسسة رنيميد ترست البحثيَّة البريطانيَّة تحت عنوان "Islamophobia: A Challenge for Us All-الإسلاموفوبيا: تحدٍّ لنا جميعًا" (١٩٩٧)، حيث عرَّف التقرير الإسلاموفوبيا بأنَّه "عداء لا أساس له للإسلام...يشير إلى النتائج العمليَّة لذلك العداء، كما يتجلَّى في التمييز غير المنصف تجاه المسلمين، جماعات وأفراد، وفي استبعاد المسلمين من الشؤون السياسيَّة والاجتماعيَّة السائدة" (ص٤). ويحدد التقرير ثمانية آراء عن الإسلام تشكِّل أساس الإسلاموفوبيا، وهي: ١-جامد، لا يتغيَّر وفق المؤثِّرات الخارجيَّة الجديدة؛ و٢-منفصل، لا يتوافق مع أيٍّ من الثقافات الأخرى؛ و٣-متدنٍ، مقارنةً بالثقافة الغربيَّة؛ و٤-عدائي، أي عنيف وعدواني ويشكِّل عنصر تهديد؛ و٥-استغلالي، أي مجرَّد أيديولوجيَّة سياسيَّة، وليس عقيدة دينيَّة؛ و٦-انتقاده للغرب غير مقبول؛ و٧-الممارسات التمييزيَّة تجاه المسلمين مبرَّرة، وإقصاء المسلمين من الحياة العامَّة مشروع؛ و٨-

الإسلاموفوبيا مقبول باعتباره أمرًا طبيعيًّا ومبرَّرًا. تسفر هذه الآراء المنغلقة عن الإسلام عن عنف بدني ولفظي ورمزي. لعلَّ من أشهر صور الاعتداء البدني على المسلمين ملاحقتهم بسبب زيِّهم الإسلامي، ويعتبر تمزيق حجاب المسلمات من أكثر الممارسات العدوانيَّة انتشارًا.

باختصار، يمكن تعريف الإسلاموفوبيا بأنَّه إظهار الكراهية ضدَّ المسلمين، فقط بسبب انتمائهم الديني، ويرتبط بذلك ببعض العناصر الاجتماعيَّة الأخرى، ممَّا يمنح هذه الكراهية شكلًا من أشكال العنصريَّة الاجتماعيَّة. ولا يختلف نشر الإسلاموفوبيا عبر الإنترنت عن ذلك؛ فأدقُّ تعريف لنشر الإسلاموفوبيا عبر وسائط التواصل الاجتماعي هو استغلال تلك الوسائط في إثارة المشاعر السلبيَّة تجاه المسلمين، والتحريض ضدَّهم، وتعزيز عدم التسامح، من خلال التنمُّر والتهديد. الفارق الأبرز بين هذا الشكل من الإسلاموفوبيا وإثارة الكراهية في التعاملات اليوميَّة، أنَّ استخدام وسائل التواصل الاجتماعي غير مباشر؛ ومن ثمَّ، هناك مجال لمنع الاعتداء اللفظي أو البدني المباشر.

أهم نتائج الدراسة

تتوافق نتائج تحليل التغريدات قيد الدراسة مع الآراء التي حدَّدها تقرير رينيميدي تراست (١٩٩٧) باعتبارها المشكِّلة للنظرة الغربيَّة عن الإسلام. يوصف الإسلام بالجمود، والعنف، عدم القدرة على التكيُّف مع القيم الغربيَّة. يُلاحَظ أنَّ بعض التغريدات تجرِّد المسلمين من الآدميَّة، وتزعم ضرورة إقصائهم عن المجتمعات؛ على أساس أنَّ الإسلام عبارة عن أيديولوجيَّة نفعيَّة، وليس عقيدة دينيَّة. تستنتج الباحثة أنَّ تقنية ربط الوسائط المتعدِّدة التي تعتمد عليها شبكة تويتر يمكنها نشر المشاعر العدائيَّة بمنتهى السرعة والسهولة، مما يستوجب فرض رقابة على المحتوى العدائي تجاه الآخرين، ومعاقبة المتورِّطين في نشر خطاب الكراهية.

بما أنَّ الميل إلى العنف المؤدِّي إلى الانخراط في أعمال إرهابيَّة من أهم الصفات التي تُلحق بالإسلام، من الضروري تناوُل مفهوم الإرهاب في عصرنا الحالي، في محاولة للكشف

عن سبب وصم الإسلام دون غيره من الديانات به. أجرى رشاد مقبل العريقي، أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة الباحة السَّعودية، دراسة تفصيليَّة عنوانها " Terrorism in Contemporary Era Narration–الإرهاب في الرواية العصريَّة" (٢٠١٨)، عن نظرة الغرب إلى الإسلام باعتباره المصدِّر الأوَّل للعنف في العالم، لدرجة أصبحت تبرِّر شنِّ حربٍ على العالم الإسلامي، تحت ذريعة محاربة التطرُّف الإسلامي. تتناول هذه الدراسة كيفيَّة التعامل مع الإرهاب في مجموعة الروايات الحديثة، تعبِّر عن نظرة الغرب تجاه العالم الإسلامي، وهي رواية **The Submission–التقديم** (٢٠١١) لآمي والدمان، و**Terrorist–إرهابي** (٢٠٠٦) لجون أبدايك، و**The Last Jihad–الجهاد الأخير** (٢٠٠٢) لجويل روزننبرغ. أظهرت الدراسة أنَّ الروايات التي كُتبت في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر لعام ٢٠٠١ ميلاديًّا، تأثَّرت كثيرًا بالنظرة السلبيَّة المروَّج لها عبر وسائل الإعلام، عن دور الإسلام في نشر فكر معادٍ للغرب. ويجد الباحث أنَّ مثل هذه الكتابات ينشر رهاب الإسلام، والمشاعر العدائيَّة تجاه معتنقيه لدى الغرب، كما يجد مبالغة في تصوير التهديد الذي يشكِّله الإسلام على المجتمعات غير المسلمة، برغم ضلوع الكثير من غير المسلمين في أعمال عدائيَّة تجاه الآخرين.

يتعجَّب الباحث من تعمُّد غضِّ الطرف عن صور العداء تجاه المسلمين في شتَّى بقاع الأرض، والتي توصف بأنَّها أعمال إرهابيَّة، من بينها ما يلاقيه مسلمو الروهينغيا في شرق آسيا، وما تعرَّض له مسلمو البوسنة والهرسك في الفترة ما بين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٥، حيث يُقدَّر عدد المقتولين بـ ٢٠٠ ألف شخص، إلى جانب مليونين من المهجَّرين. ذُكر الإرهاب في القرآن الكريم، في الآية ٦٠ في سورة الأنفال "وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ **تُرْهِبُونَ** بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ"؛ والمقصود بـ "الإرهاب" هنا الردع، وليس الاعتداء.

يرى الباحث أنَّ الحرب المعلنة على الإسلام وراءها أسباب سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة؛ فالهدف الأساسي هو السيطرة على منابع الثروة النفطيَّة والمعدنيَّة في الدول المسلمة. أضف إلى ذلك، هناك سعيٌ لتفريغ الدين من مضمونه، نشر ثقافة دينيَّة جديدة، تبيح اتِّباع

الشهوات، وتحصر العبادة في داخل جدران المساجد. في حين يؤهِّل جوهر الإسلام معتنقيه لقيادة الأمم، والثورة على الظلم، وهذا ما يجد فيه الغرب والأسر الحاكمة في العالم العربي الخطر، كما يقول الباحث (ص٧٠). غير أنَّ الغرب لا ينظر إلى الإسلام إلَّا باعتباره أيديولوجيَّة، وغاية سياسيَّة، تجتمع فيها العقيدة والسياسة، مما يبرِّر سعيه المتواصل لإحباط أيِّ مظهر من مظاهر وصول الإسلام السياسي إلى السلطة؛ لأنَّ في ذلك نهاية لأسلوب الحياة العلماني، الذي يسهِّل ترويض المسلمين. يضرب الباحث المثل في محاربة أنظمة الحكم القائمة على أساس إسلامي بالإطاحة بالرئيس المصري الأسبق، محمَّد مرسي، عضو جماعة الإخوان المسلمون، التي باتت توصف بـ "الإرهابيَّة" بعد أن كانت تُعرف بالجماعة "المحظورة". انتُخب مرسي رئيسًا من خلال انتخابات تعدُّديَّة، أشرت عليها العديد من المنظَّمات الدوليَّة والمحليَّة، ولم يُشكَّك في نزاهتها. مع ذلك، لم يدم حُكم مرسي سوى عام و٣ أيام فقط–من ٣٠ يونيو ٢٠١٢ إلى ٣ يوليو ٢٠١٣–ليُطاح به بعد اتهامات بعدم الكفاءة والاستبداد ورعاية الإرهاب.

الإرهاب المحسوب على الإسلام في الرواية الحديثة

يستعرض الباحث تحليله لما تضمَّنته أحداث رواية **The Submission–التقديم** (٢٠١١) لآمي والدمان، وتتناول الرواية التحكيم بين عرضين مختلفين لأنسب تصميم للنُّصُب التذكاري لأحداث ١١ سبتمبر. تبدأ المشكلة بعد أن يقع اختيار لجنة التحكيم على تصميم لمعماري مسلم، أمريكي ولكن هندي الأصل، الذي لم يشفع له سلوكه العلماني وتماهيه مع الغرب في إبعاد شُبهة الإرهاب عنه. يرى الباحث أنَّ أصابع الاتهام تشير باستمرار إلى العرب والمسلمين، حتَّى دون انتظار نتائج التحقيقات، وإثبات تورُّط مسلمين في الأعمال الإرهابيَّة. من المثير للاهتمام أنَّ الروائيَّة تشير إلى سعي المسلمين إلى التعايش السلمي مع الأمريكيِّين، الأمر الذي تجلَّى في انخراطهم في نشاطات مجتمعيَّة، وهنا يُطرح سؤال "**ولكن هل تريد أمريكا أن تحيا في سلام مع المسلمين؟**" (ص٧٩).

أرادت الروائيَّة نقل صورة حياديَّة للعداء الغربي للإسلام، بأن عبَّرت عن الظلم الذي يلاقيه المسلمون من جرَّاء الممارسات العدائيَّة الغربيَّة؛ فإحدى شخصيَّات الرواية تطالب بـ "أنصاب

تذكاريَّة" لنصف مليون عراقي قُتلوا نتيجة العقوبات الأمريكيَّة، ولآلاف الأفغان الذين راحوا ضحيَّة الردِّ على أحداث ١١ سبتمبر، ولغيرهم من المسلمين في الشيشان والبوسنة وفلسطين، الذين لم تحرِّك أمريكا ساكنًا للدفاع عنهم (ص٧٩-٨٠). تتضمَّن الأحداث كذلك إشارات إلى حالات اعتداء على المسلمين، نتيجة انتشار مشاعر الكراهية ضدَّهم عبر وسائل الإعلام، من تنفيذ الجماعات المعادية للمهاجرين المسلمين.

يثير فوز تصميم المعماري المسلم جدلًا واسعًا، تلعب فيه وسائل الإعلام دورًا شديد التأثير. ويتجلَّى في تناوُل فوز المعماري العلماني، معتنق قيم الغرب، رهاب الإسلام في أبشع صوره؛ وجدت لجنة التحكيم تحديًا كبيرًا في وضع اسم المصمم-محمَّد خان-على نُصُب تذكاري لأحداث يُعتقد أنَّ مسلمين منفِّذوها، مما يثير امتعاض أسر ضحايا الأحداث. تنتهي الأحداث بمحاولة إقناع المعماري المسلم بسحب تصميمه من المسابقة، ولكن الجدل المثار حول التصميم يمنحه شهرة واسعة. ولعلَّ أهم رسالة تنقلها الرواية هي غياب الثقة بين الغرب والمسلمين، وتعذُّر إيجاد قنوات للتواصل وتبادل الخبرات.

نأتي إلى ثاني نموذج من الروايات الحديثة، التي أثارت اهتمام الباحث رشاد العريقي، وهي **Terrorist-إرهابي** (٢٠٠٦) لجون أبدايك، والتي تدور أحداثها حول أمريكي، من أب مصري وأم أيرلنديَّة-أمريكيَّة، يعاني من فقدان الرعاية بسبب انفصال والديه في صغره. يقع البطل في شَرَك شيخ يمني يتعلَّم على يديه العربيَّة والدين الإسلامي، ويستغلُّه هذا الشيخ في أعمال إرهابيَّة بعد تهيئته الذهنيَّة لتلك المهمَّة. يبدأ الشيخ اليمني بتلقين البطل أن يتجنَّب رذائل المجتمع الأمريكي، وأن يلتزم بـ "الصراط المستقيم" الذي يضمن له الفوز في دنياه وآخرته. يسعى الشيخ اليمني، وكان عضوًا في خليَّة إرهابيَّة إسلاميَّة، إلى توريط البطل في هجوم انتحاري يستهدف موقع هام في مدينة نيويورك، ولكنَّ الأخير يفطن إلى خبث نوايا الشيخ على يد مستشار التوجيه في المدرسة الثانويَّة، وكان يهوديًّا تخلَّى عن ديانته وصار شديد الانتقاد للمجتمع الأمريكي. يدرك البطل أنَّ رضا الله لا يكون بقتل الأبرياء، فتُحبط العمليَّة الإرهابيَّة.

يرى الباحث أنَّ الغرب لا يسيء فهم الإسلام فحسب، إنَّما يحتفظ من الأفكار السابقة ما يدفعه إلى تكوين صورة مسبقة عن الإسلام تؤدي إلى الرهاب، أو الإسلاموفوبيا. تركِّز هذه الرواية على نموذج سلبي للدعاة الإسلاميين، المفترض أنَّهم يعيشون داخل أمريكا، ممَّن يوصمون الإسلام بنشر تعاليم تحريضيَّة ضدَّ غير المسلمين. يكره البطل المجتمع، الذي يراه كافرًا، ويسعى إلى عدم الاندماج مع أفراده، خشية انحراف أخلاقه عن الصراط القويم، الذي رسمه له الداعية. ترسم الرواية الصورة النمطيَّة للعربي والمسلم باعتباره إرهابيًّا، إلى أن يثبت خلاف ذلك؛ فبرغم أنَّ البطل لا يكمل طريق التخريب والقتل، ولا يشارك في أيِّ عدوان، يمحنه عنوان الرواية صفة "إرهابي"، ممَّا يعكس ربط الغرب أيِّ عمل عدواني بالعرب والمسلمين، حتَّى ولو لمجرَّد الشكِّ. المفارقة، كما يرى الباحث، هي أنَّ الروائي جعل ضلال البطل على يد داعية إسلامي علَّمه التشدُّد وكراهية الآخر المخالف لعقيدته وسلوكيَّاته، بينما جعل هدايته وتخلِّيه عن السلوك العدواني على يد يهودي آثر العلمانيَّة. المفارقة الأكبر هي أنَّ اليهودي كان على علاقة غير شرعيَّة بوالدة البطل، مما يعني أنَّ الروائي يريد من المسلم، كي يتعايش مع الآخر، التخلِّي عن تعاليم دينه، وعدم تطبيق الإسلام في جوانب الحياة على تنوُّعها.

أخيرًا، نصل إلى رواية **The Last Jihad**–**الجهاد الأخير** (٢٠٠٢)، والتي نتناولها بمزيد من التفاصيل لاحقًا، وهي من تأليف جويل روزنبرغ، وهو يهودي يجمع بين الجنسيَّتين الأمريكيَّة والإسرائيليَّة، وهو خبير استراتيجي في مجال الاتصالات، إلى جانب عمله في الكتابة. تتحدَّث الرواية عن خبيرين استراتيجيين يعملان في البورصة الأمريكيَّة، يعدَّان مشروعًا سريًّا لاستخراج النفط من ساحل تل أبيب وقطاع غزَّة، في ظلِّ الصراع الدائر بين إسرائيل وفلسطين، ويتوقَّعان مكاسب مرضية للجانبين. غير أنَّ الرياح تأتي بما لا تشتهيه السفن؛ حيث يُعدُّ لعمل إرهابي في نيويورك وواشنطن بخطف إحدى الطائرات، ممَّا يجبر الإدارة الأمريكيَّة على شنِّ حرب على الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل في الشرق الأوسط.

يتناول روزنبرغ خلال الرواية أحداث ١١ سبتمبر لعام ٢٠٠١ ميلاديًّا، برؤية لا تختلف أبدًا عن رؤية الإعلام الغربي للأحداث. يدَّعي الكاتب أنَّ العرب، وبخاصَّة الفلسطينيِّين، شعروا

بنشوة الثأر من أمريكا بعد هذا العمل التفجيري المدوِّي، في اتِّهام مباشر للعرب والمسلمين بتشجيع الإرهاب، وربَّما بتدبيره. يبالغ الكاتب في تصوير الأعمال الإرهابيَّة المتلاحقة، والمنتشرة في كافَّة أنحاء العالم، ويشير فيها بأصابع الاتِّهام دائمًا إلى المسلمين. تصل أعمال العنف إلى القصور الحاكمة، في أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، والسَّعودية، والمشترك أنَّ الحكَّام ينجون. علاوة على ذلك، تنتشر الأعمال الإرهابيَّة في مختلف العواصم الغربيَّة. تمنح هذه الأعمال العدائيَّة الغرب مبرِّرًا قويًّا لشنِّ حرب ضدَّ الإرهاب في العالم الإسلامي، وإن كانت نيَّته الحقيقيَّة هي فرض السيطرة على مصادر الثروة لدى المسلمين. يشير الباحث رشاد العريقي إلى أنَّ الرواية التي نُشرت عام ٢٠٠٢ ميلاديًّا، كانت تمهِّد الأجواء لغزو العراق واحتلالها في العام التالي "لإفساح المجال لإسرائيل لتنفيذ أجندتها في الشرق الأوسط، بتأييد الغرب ومباركته، وبخاصَّة أمريكا، باعتبارها الساعي الأساسي لاتخاذ موقف من النظام الحاكم في العراق" (ص٧٨). اعتُبر نظام صدَّام حسين في العراق تهديدًا لمصالح الغرب في الشرق الأوسط، خاصَّة مع مطالبته بمحو إسرائيل من المنطقة.

يُلاحظ أنَّ أحداث الرواية تتوافق مع الخطاب الأمريكي الرسمي بشأن تورُّط نظام صدَّام حسين في دعم تنظيم القاعدة؛ وتتناول الرواية البحث عن أدلَّة على مشاركة العراق في تفجير برجي التجارة؛ لإقناع الشعب الأمريكي بأنَّ العراق وإيران وكوريا الشماليَّة تشكِّل "محور الشرِّ" اللازم التخلُّص منه لتحقيق الديموقراطيَّة، ولكن الحرب لم تخلِّف سوى الدمار وسرقة ثروة الشعب العراقي النفطيَّة. لن ننسى أنَّ الإعلام الغربي روَّج أنَّ العراق تمتلك أسلحة دمار شامل وأسلحة بيولوجيَّة، ثمَّ تبيَّن كذِب كافَّة تلك المزاعم. تفتح رواية **الجهاد الأخير** المجال للحديث عن تأثير عقيدة الصهيونيَّة المسيحيَّة في توجيه السياسة الأمريكيَّة، وهذا ما يتناوله القسم التالي بإيضاح.

٣.إسرائيل ونشر الإسلاموفوبيا: جهود معلَنة ومصلحة مباشرة

في مقال مستقل عنوانه Israel and Islamophobia، أو إسرائيل والإسلاموفوبيا، تتناول موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة موقف الدولة العبريَّة من نشر خطاب الكراهية تجاه المسلمين وتشويه صورتهم، موضحةً أنَّها تتخذ منحى تتميَّز به عن غيرها، وهو نشر العداء تجاه

الإسلام ومعتنقيه في البلدان الأخرى؛ لمنح قمعها لشعب الأراضي المحتلَّة من الفلسطينيِّين الشرعيَّة، وتبرير الاعتداء على المسلمين. غير أنَّ الاتفاقيَّات والمعاهدات الدوليَّة فرضت قيودًا على الممارسة الإسرائيليَّة لأعمال نشر العداء تجاه الإسلام؛ حيث أصبحت إسرائيل تتلقَّى اتهامات بممارسة الظلم الاجتماعي.

يشير مقال ويكيبيديا إلى توجيه نشطاء سياسيِّين يساريِّين اتهامات لإسرائيل بتوظيف ٦ منظَّمات بارزة في نشر الإسلاموفوبيا. تكوِّن تلك المنظَّمات، وغالبيَّتها منظَّمات صهيونيَّة تتمتَّع بنفوذ كبير داخل أمريكا، شبكة تستهدف نشر الخطاب العدائي تجاه الإسلام. تنسِّق تلك المنظَّمات جهودها، وتتعاون مع وسائل الإعلام في بثِّ أفكارها، وهناك ما يثبت تواصلها مع وكالة الاستخبارات الإسرائيليَّة، الموساد.

بتاريخ ٩ مايو من عام ٢٠١٨ ميلاديًّا، نشرة مدوَّنة Dissent Voice، أو الصوت المعارض، الإخباريَّة مقالًا تحت عنوان " The Israeli Government Role in Promoting Islamophobia Internationally–دور الحكومة الإسرائيليَّة في نشر الإسلاموفوبيا دوليًّا"، استهلَّته بالإشارة إلى أنَّ دراسة الإسلاموفوبيا تتركَّز في الغالب حول الجوانب الدينيَّة والسياسيَّة والأبعاد العنصريَّة لهذه الممارسة، مما يعني تجاهُل حقيقة استغلال بثِّ الكراهية تجاه المسلمين "سعيًا إلى تنفيذ أجندة قوميَّة". يطوِّر كاتب المقال فكرته، بالإشارة إلى اتِّخاذ الحكومة الإسرائيليَّة من الإسلاموفوبيا "أداة استراتيجيَّة" تستغلُّها في "إجازة وتبرير التطهير العرقي للفلسطينيين في الأراضي الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلي، وكذلك في دعم العدوان الإسرائيلي على معظم البلدان المسلمة في المنطقة. يساعد تعزيز الإسلاموفوبيا وتشجيعها دوليًّا في تعظيم الدعم الدولي لمشروع الإبادة الصهيوني".

تتضافر جهود المنظَّمات الصهيونيَّة المشاركة في عمليَّة نشر الفكر العدائي تجاه الإسلام، وتتولى وزارة الشؤون الاستراتيجيَّة الإسرائيليَّة مهمَّة الإشراف على أعمالها، التي تستند إلى التنسيق، والتقارير الاستخباراتيَّة، والتخطيط الاستراتيجي، والعمل السرِّي، والدعم الفنِّي، وغير ذلك من الخبرات. يشير مقال Dissent Voice إلى أنَّ وزارة الشؤون الاستراتيجيَّة الإسرائيليَّة قد كبرت حجمًا وضاعفت من سريَّتها في الآونة الأخيرة، بتوصية من معهد ريوت

البحثي الإسرائيلي، الذي يحمل رؤيته الخاصَّة عن **أشدِّ التهديدات الاستراتيجيَّة خطورةً على مستقبل إسرائيل، مقدِّمًا "صورة إسرائيل وتأثيرها في البلدان الأخرى، خاصَّة أمريكا وأوروبا" على أمنها العسكري.** على ذلك، اعتُبرت حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS)، التي شنَّها فلسطينيُّون بهدف إجبار إسرائيل على احترام القوانين الدوليَّة بفرض عقوبات تجاريَّة عليها، تهديدًا يستوجب المقاومة. يضيف المقال أنَّ تعاوُن وزارة الشؤون الاستراتيجيَّة مع الموساد قد ازداد، خاصَّة في مشاركة المعلومات؛ وقد أصبحت الوزارة مسؤولة عن الدعاية وممارسة التأثير في البلدان الأخرى والسيطرة على الإعلام بهدف "استمالة الرأي العام إلى نتائج تحددها أهداف إسرائيل الاستراتيجيَّة".

من نماذج تعاوُن وسائل التواصل الاجتماعي المشاركة في تشكيل الرأي العام مع الحكومة الإسرائيليَّة، التعاون الشخصي بين مارك زوكربيرج، مؤسس شبكة فيسبوك، وبنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء الإسرائيلي. فبعد لقاء زوكربيرج بنتنياهو، استعان الأوَّل موظَّفة سابقة في السفارة الإسرائيليَّة في واشنطن في رقابة ما يُسمَّى "الأخبار الزائفة" على الشبكة الاجتماعيَّة الأكثر استخدامًا على الإطلاق. ولا تختلف شبكة تويتر للتدوين المصغَّر عن فيسبوك في تطبيق سياسة فرض الرقابة على المنشورات، لكنَّ رقابتها تتغاضى عن المحتوى التحريضي ضدَّ الإسلام، وتتخذ موقفًا متناقضًا تجاه المحتوى "المعادي للساميَّة".



يختتم الكاتب مقاله بسؤال: "ماذا نستنتج من كلِّ هذه المعلومات عن اضطلاع إسرائيل والحركة الصهيونيَّة في رعاية الإسلاموفوبيا؟". يوضح الكاتب أنَّ المواقف الشخصيَّة والتركيبات الاجتماعيَّة ليست وحدها مصدر الفكر المعادي للإسلام، مشدِّدًا على أهميَّة الاعتراف بدور إسرائيل والجهات المتعاونة معها في نشر هذا الفكر والتصدِّي لأيِّ صوت

معارض يسعى إلى كشف الحقيقة. يضيف الكاتب مسألة تثير بعض الدهشة إلى أن يُعرف تبريرها، وهي أنَّ جهود الجماعات الصهيونيَّة لمعادة الإسلام تتضمَّن مساعٍ لتشجيع التعاون بين معتنقي اليهوديَّة والمسيحيَّة مع المسلمين. أمَّا عن تبرير ذلك، فهو تخفيف النقد الذي يستهدف إسرائيل، من خلال الدفع بالمسلمين لعدم انتقاد إسرائيل، حرصًا على عدم إيذاء مشاعر أصدقائهم من اليهود.

علاقة المسيحيَّة الصهيونيَّة بالإسلاموفوبيا

في عدد فبراير/مارس ٢٠١٣، نشرت مجلَّة تقرير واشنطن عن شؤون الشرق الأوسط (WRMEA)، المعنيَّة بالأحداث الجارية في الشرق الأوسط وتحليلها وبسياسات الولايات المتَّحدة في المنطقة، كواليس نقاش عُقد برعاية مجلس المصلحة والوطنيَّة (CNI) والمجلس الدولي لدراسات الشرق الأوسط (ICMES)، في مركز زوَّار مجلس النوَّاب الأمريكي في مدينة واشنطن دي سي، تناوَل علاقة المسيحيَّة الصهيونيَّة بنشر الفكر العدائي تجاه الإسلام. في ملاحظاته الاستهلاليَّة، حرص المدير التنفيذي لمجلس المصلحة الوطنيَّة، فيليب جيرالدي، وهو ضابط سابق في المخابرات الحربيَّة ومتخصص في مكافحة الإرهاب لدى وكالة الاستخبارات المركزيَّة، على التمييز بين المسيحيِّين المتصهينين والمسيحيِّين الإنجيليِّين، موضحًا أنَّ المسيحيِّين المتصهينين شغوفون بمفهوم دولة إسرائيل، الجامعة لشتات اليهود في آخر الزمان، ترقُّبًا لمعركة مجيدو والمجيء الثاني للمسيح، باعتباره المخلِّص في عقيدتهم (يجدر التذكير هُنا بكُفر اليهود بيسوع الناصري باعتباره مخلِّصهم، حيث ينتظرون الماشيح بن داود المبشَّر به في أسفار العهد القديم، خاصةً في سفري اشعياء ودانيال). أشار جيرالدي إلى أنَّ المسيحيِّين المتصهينين، الذين نجحوا في حشد التأييد لقضيَّتهم، هم من يعتبر الإسلام والمسلمين أعداء.

Washington Report on Middle East Affairs, January/February 2013, Pages 53-54

Muslim-American Activism

Christian Zionism and Islamophobia



شهد النقاش مشاركة فؤاد شعبان، نائب رئيس جامعة اليرموك الخاصَّة في سوريا وأستاذ الأدب والترجمة في جامعة البترا الأردنيَّة ومؤلِّف كتاب **من أجل صهيون: التراث اليهودي-المسيحي في الثقافة الأمريكيَّة** (٢٠٠٣)، الذي تضمَّنت كلمته إشارات إلى ما أسماه "الكثير من الملاحظات المزعجة والمسيئة للإسلام في الفترة الأخيرة". تحدَّث شعبان بإيجاز عن تاريخ الصهيونيَّة المسيحيَّة في أمريكا، الذي يرى أنَّه بدأ بكريستوفر كولومبوس، الذي أطلق رحلته الاستكشافيَّة الشهيرة لإيجاد طريق جديد إلى الهند. ويجدر التذكير بأنَّ كولومبوس كان عضوًا في منظمة "الجنود الفقراء للمسيح"، وقد تغذَّي فكره بأفكار الحركات الباطنيَّة المناهضة للإسلام، التي نشطت بعد سقوط الأندلس أواخر القرن الخامس عشر، سعيًا لإلحاق مزيد من الهزائم بالمسلمين. يضيف شعبان أنَّ شنَّ رحلته بهدف جمع المال اللازم لاستعادة الأرض المقدَّسة من المسلمين، وتحويل الجميع إلى المسيحيَّة، استعدادًا لاستقبال المخلِّص، وكان يجد في ذلك انتصارًا على ما أطلق عليه "إمبراطوريَّة مُحمَّد".

يذكِّر شعبان بأنَّ البيوريتانيِّين (Puritans)، وهو أتباع مذهب بروتستانتي متشدِّد يُعرف بـ "التطهيريَّة" (Puritanism)، لمَّا وصلوا إلى "العالم الجديد" (New World)، في الساحل الشرقي لأمريكا، اعتبروا أنفسهم مثل بني إسرائيل لمَّا عبروا البحر الأحمر مع نبي الله موسى، هربًا من فرعون، وقد قدَّم كلًّا من توماس جيفرسون وبنجامين فرنكلين-اثنين من الآباء المؤسسين للولايات المتَّحدة-ختمًا للمستعمرات الثالثة عشر الأولى-في محاكاة لعدد

أسباط بني إسرائيل الاثني عشر ومعهم سبط يهود الخزر–يُظهر موسى وهو يقود بني إسرائيل إلى خارج مصر. يتناول شعبان ما سبق تفصيله في الدراسة السابقة، عن جهود التَّصير في العالم الإسلامي، مذكِّرًا بأنَّ الإيمان بعقيدة ألفيَّة المسيَّا دفع الكنائس البروتستانتيَّة إلى إرسال المبشِّرين إلى شتَّى بقاع الأرض، وإن كان تركيزها انصبَّ على العالم العربي، ترقُّبًا لمعركة مجيدو، ومجيء المسيح (المخلِّص) الثاني.

ذكر نورتون مزفنسكي، رئيس المجلس الدولي لدراسات الشرق الأوسط (ICMES) والأستاذ الفخري في جامعة ولاية كونيتيكت الوسطى، في كلمته أنَّ تركيز المسيحيَّة الصهيونيَّة على الإسلام بدأ في منتصف سبعينات القرن الماضي، مُرجعًا السبب في ذلك إلى حرب الأيام الستَّة عام ١٩٦٧ ميلاديًّا، ووقف إمداد الغرب بالنفط في فترة حرب أكتوبر ١٩٧٣، في ردٍّ على دعم أمريكا لإسرائيل في الحرب ضدَّ العرب. يضيف أستاذ دراسات الشرق الأوسط أنَّ أتباع المسيحيَّة الصهيونيَّة قد رأوا العراق أثناء حرب الخليج الأولى، عام ١٩٩١ ميلاديًّا، باعتبارها بابل المذكورة في سفر رؤيا يوحنَّا اللاهوتي، وقد رحَّبوا باجتياح العراق عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا لمَّا رأوه تمهيدًا لمعركة أرمجدون.

واختتمت أليسون وير، رئيس مجلس المصلحة والوطنيَّة (CNI)، النقاش بالإشارة إلى أنَّ المسيحيَّة الصهيونيَّة لم تنتشر من فراغ، مذكِّرةً بأنَّ إسرائيل قد قدَّمت للقُس المسيحي الأصولي والمنصِّر الشهير جيري فالويل طائرة خاصَّة، كما شجَّعت على التحالف مع المسيحيَّة الصهيونيَّة. أثارت وير مسألة حساسَّة، وهي أنَّ المدير التنفيذي لمنظَّمة مسيحيُّون متَّحدون من أجل إسرائيل ليس مسيحيًّا، إنَّما يهودي، مضيفةً أنَّه له صلة قرابة من الدرجة الرابعة بإيهود باراك، وزير الدفاع ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، وأنَّ القريبان يقضيان وقتًا طويلًا معًا كلَّما زار الأخير واشنطن.

تقدِّم زمالة السلام المشيخيَّة (Presbyterian Peace Fellowship)، وهي منظَّمة أمريكيَّة تتبع الكنيسة المشيخيَّة، وتسعى إلى نشر السلام، تناولًا لقضيَّة علاقة الصهيونيَّة بالإسلاموفوبيا، في مقال تحت عنوان " CONFRONTING CHRISTIAN ZIONISM, ISLAMOPHOBIA, AND ANTISEMITISM–مواجهة المسيحيَّة الصهيونيَّة،

والإسلاموفوبيا، ومعاداة الساميَّة"، مع التركيز على حالة النائبة الأمريكيَّة، صوماليَّة الأصل، في مجلس نواب مينيسوتا عن الحزب الديمقراطي، وما تتعرَّض له من حملة هجوم شرسة يتزعَّمها الرئيس الأمريكي بنفسه، يُرجعها البعض إلى ارتدائها الحجاب ودافعها الشديد عن القضيَّة الفلسطينيَّة وانتقاداتها لإسرائيل.



توضح كاتبة المقال، وهي عضو في مجلس نشطاء زمالة السلام المشيخيَّة، أنَّها شاركت عبر حسابها على شبكة فيسبوك رسمًا تعبيريًّا للنائبة إلهان عمر، كُتب أعلاه "نساند إلهان"، وأدناه "فلسطين ستتحرَّر"، في محاولة لدعم موقفها في ظلِّ الهجوم الشرس الذي تتعرَّض له، بعد انتقادها لجماعة الضغط الصهيونيَّة، الإيباك. حرصت إلهان عمر على الاعتذار عمَّا صدر منها؛ لما يعنيه من تعميق لمعاداة الساميَّة، لكنَّها حرصت كذلك على التشديد على دعمها للقضيَّة الفلسطينيَّة. أرادت كاتبة المقال بذلك التلميح إلى أنَّ ما فعلته النائبة الشابَّة لا يستحق كلَّ ما لاقته من هجوم، مشيرةً إلى أنَّها أثناء متابعة ردود الفعل على موقف إلهان عمر، صادفت عبارة تضمَّنها خطاب مايك بنس، نائب الرئيس الأمريكي، أمام الكنيست الإسرائيلي في يناير ٢٠١٨، تقول "طليعة المستوطنين في بلدي كذلك رأوا أنفسهم حُجَّاجًا أرسلتهم العناية الإلهيَّة لتأسيس أرض ميعاد جديدة". تكشف هذه العبارة، في رأي كاتبة المقال، عن شدَّة الولاء بين القوميَّتين الأمريكيَّة والإسرائيليَّة، بما يعزز عقيدة الخصوصيَّة الأمريكيَّة (American exceptionalism)، وهي الاعتقاد بتميُّز أمريكا عن سائر بلدان العالم واستئثارها بمهمَّة نشر الديموقراطيَّة والحريَّة، وهذا بدوره يبرِّر سياسة الاستعمار الاستيطاني.



صورة ١-"تضامنًا مع إلهان عمر"

تستعرض كاتبة المقال رؤيتها لتاريخ المسيحيَّة الصهيونيَّة، التي تراها بدأت في القرن السابع عشر للميلاد، مع انتشار اعتقاد البيوريتانيَّة والكالفينيَّة، وكلاهما من الجماعات البروتستانتيَّة، بأنَّ اليهود، باعتبارهم شعب الربِّ المختار، تنبغي عودتهم إلى الأرض المقدَّسة، تمهيدًا لتحقُّق نبوءة العهد الجديد بمحاكمة يسوع للأمم (إنجيل متَّى: إصحاح ١٩، آية ٢٨؛ رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٢، آية ٥، وإصحاح ١٩: آيات ١٢-١٦). أغرى انتشار المسيحيَّة الصهيونيَّة في إنجلترا البيوريتانيِّين بالسعي إلى تحويل اليهود إلى المسيحيَّة، وبتشجيع عودة اليهود إلى الأرض المقدَّسة. ردًّا على الزَّعم بتفوُّق المسيحيين على سائر الأمم، تقول الكاتبة أنَّ هذا الزَّعم يمدُّ بجذوره في التراث المشيخي، مما دفعها إلى "هدم معتقداتها عن المسيحيَّة الصهيونيَّة"، وفي ذلك تقول "أتعلَّم أنَّ إسرائيل القديمة لم تكن دولة قوميَّة حديثة، وأنَّ شعب يهودا (دولة لبني إسرائيل على الأرض المقدَّسة) ليس المستعمر المسيحي لأمريكا، وأنَّ خلاص بني إسرائيل لا يشابه التدخُّل الأمريكي في الشرق الأوسط لحماية شركات الوقود الأحفوري".

وبعد هذه المقدِّمة الطويلة عن أصل الفكر الصهيوني المسيحي وطبيعة أهدافه، تلقي الكاتبة باللوم على أفكار تفوُّق الجنس الأبيض والريادة المسيحيَّة فيما لاقاه ٤٩ مسلم في حادث إطلاق نار على مسجد في نيوزيلندا منتصف مارس ٢٠١٩. يستدعى ذلك تناوُل عقائد الصهيونيَّة المسيحيَّة بشيء من التفصيل، مع الإشارة إلى تأثير تلك العقائد في توجيه السياسة الغربيَّة تجاه العالم الإسلامي.

٤.دور الصهيونيَّة المسيحيَّة في إثارة العداء تجاه الإسلام

يَعتبر الدكتور فؤاد شعبان، أستاذ دراسات الأدب والترجمة في جامعة البترا الأردنيَّة، أنَّ التراث اليهودي–المسيحي مارَس تأثيرًا كبيرًا على الثقافة الأمريكيَّة، منذ الحملات الاستيطانيَّة البريطانيَّة الأولي على أمريكا الشماليَّة. كما يشير شعبان في كتابه **من أجل صهيون: التراث اليهودي–المسيحي في الثقافة الأمريكيَّة** (٢٠٠٣)، يتبلور التأثير اليهودي–المسيحي، أو لتقل البروتستانتي، على الثقافة الأمريكيَّة في بداية تكوُّنها، في تشبيه المهاجرين الأوائل، وغالبيتهم من الطهوريُّين، أو البيوريتانيِّين، وهم ينتمون إلى جماعة مسيحيَّة بروتستانتيَّة متشدِّدة، هجرتهم إلى أمريكا بخروج بني إسرائيل من مصر إلى أرض كنعان. وعمد هؤلاء المهاجرون الأوائل إلى استخدام أسماء لمدنهم استمدُّوها من الكتاب المقدَّس. ويعتقد شعبان أنَّ الاستناد إلى تعاليم الكتاب المقدَّس ونبوءاته لم يزل يؤثِّر على الثقافة الأمريكيَّة، "ومازال هذا الفكر اليهودي–المسيحي يعمل بصورة جليَّة في سلوك الأمريكيين ومواقفهم في العالم العربي والنزاع العربي–الإسرائيلي حتَّى اليوم" (ص١٣).

يحصر شعبان تركيزه في هذه الدراسة المفصَّلة على ثلاثة تجليَّات لتأثير الفكر اليهودي–المسيحي على الثقافة الأمريكيَّة: الاعتقاد بأنَّ أمريكا اصطفاها الربُّ على الأمم جميعها لتحقيق هدف سامٍ يخدم البشريَّة؛ والإيمان بوجود حتميَّة تاريخيَّة ترتبط بخطَّة للدهر، تبدأ بخلق الإنسان الأوَّل وتنتهي بحلول مملكة الربِّ عند ظهور المخلِّص؛ والاعتقاد في مملكة الربِّ في نهاية الزمان مرتبط جغرافيًّا بالأرض المقدَّسة، على اعتبار أنَّها محلُّ مملكة الربِّ، وتمنح الحتميَّة التاريخيَّة لأمريكا دورًا بارزًا في تهيئة العالم لتأسيس تلك المملكة بالإعداد أوَّلًا لمجيء المخلِّص، وهو المجيء الثاني للمسيح يسوع بن يوسف والأوَّل للمسيًّا بن داود. ويشير شعبان إلى أنَّ المسيحيَّة الصهيونيَّة، أو الأصوليَّة، أو اليمينيَّة المتطرِّفة، هي التي جاءت بمصادر التأثير الديني المتشدِّد المعادي للإسلام ومعتنقيه، مضيفًا نقطتين في غاية الأهميَّة: لا تشترك كافَّة الفرق المنبثقة عن البروتستانتيَّة الأفكار المتطرِّفة للمسيحيَّة الصهيونيَّة؛ الإيمان بدولة عالميَّة في آخر الزمان تدين بدين واحد، ويقودها قائد ربَّاني يوجد في العديد من الديانات، وليس في المسيحيَّة الصهيونيَّة وحدها، ولكن هناك نزعة عدائيَّة

تنطوي عليها عقائد بعض تلك الديانات، من بينها المسيحيَّة الصهيونيَّة، تجاه الأمم الأخرى، بحيث تكون إبادتها حتميَّة من أجل حلول مملكة الربِّ.

تعنى هذه الدراسة في المقام الأوَّل بتحليل تأثير المعتقدات المستمدَّة من الكتاب المقدَّس على السلوك السياسي لليمين المسيحي، في محاولة لسدِّ الفراغ البحثي في مجال دراسة "الميول والنزعات الإرهابيَّة في التطرُّف المسيحي واليهودي"، في مواجهة الجهود الغربيَّة المتواصلة منذ عقود لدراسة ما أُطلق عليه "الإسلام الأصولي" و "الإسلام الشمولي" و "الإرهاب الإسلامي"، لتُستغلُّ تلك المفاهيم في تشويه صورة الإسلام وبثِّ الكراهية تجاه معتنقيه، فيما يُعرف بالإسلاموفوبيا (ص١٧).

كريستوفر كولومبوس: أوَّل من رسم دور أمريكا في تأسيس مملكة الربِّ على الأرض المقدَّسة

يشير المؤرِّخ دلنو ويست في مقاله "Columbus and His World–كولومبوس وعالَمه"، إلى أنَّ من بين ما نُسب إلى كريستوفر كولومبوس من أوصاف أنَّه **كان يهوديًّا، وعضوًا في رهبنة القديس فرانسيس، وعضوًا كذلك في المحفل الماسوني.** عُرف عن كولومبوس بسالته في ركوب البحر، وافتخاره بأنَّه جاب العالم من أجل تنفيذ مشروع استمدَّ فكرته من نبوءات الكتاب المقدَّس، أطلق عليه "مشروع الهند العظيم"، يتلخَّص في الانطلاق في حملة إلى ممالك الشرق، في إعادة للحملات الصليبيَّة. ولإغرائهم بمساعدته بمنحه التمويل اللازم لمشروعه، قدَّم كولومبوس لملوك الأرض وعودًا بمنافع ماديَّة وسياسيَّة سيحصلون عليها في حال تنفيذ مشروعه. ويشير شعبان إلى أنَّ هدف كولومبوس لم يكن منفعة ماديَّة لنفسه، **بل كان تأسيس "مملكة الله على جبل صهيون" بعد "استعادة" الأرض المقدَّسة، بعد ما أسماه "حرب الحياة أو الموت على مملكة مُحمَّد"** (ص٢٥).

وجد كولومبوس الدعم من ملكي إسبانيا، فرناندو وإيزابيلَّا، ويعتبر شعبان أنَّ رسالته إليهما بعد عودته من رحلته الاستكشافيَّة الأولى، وهي بتاريخ ١٥ فبراير ١٤٩٢ ميلاديًّا، بمثابة "وثيقة رسميَّة تمثِّل البرنامج الأيديولوجي للأوروبيِّين في حملاتهم الاستكشافيَّة الاستعماريَّة

والتبشيريّ؛ أمَّا عن أهم أهداف حملة كولومبوس فهي "**غزو العالم وهداية البشريَّة إلى المسيحيَّة، واستعادة الأراضي المقدَّسة، والإعداد لإنشاء مملكة الإله على جبل صهيون في موقع الهيكل**" (ص٢٦). ينقل شعبان عن كتاب **الأمَّة الأمريكيَّة** (١٩٨١) اعتقاد كولومبوس بأنَّه كان بمثابة رسول لهداية العالم إلى المسيحيَّة واستعادة الأرض المقدَّسة من المسلمين. كان كولومبوس يؤمن بأنَّ اسمه–كريستوفر–لم يُختر له اعتباطًا، بل لتهيئته لحمل رسالة نشر المسيحيَّة؛ فقد كان يكتب اسمه باستخدام التعبير "كريستوفرنز"، والتي تعني باللاتينيَّة "حامل المسيح"، كما أنَّ الاسم "كولومبوس" يعني اليمامة، التي ترمز إلى روح القُدُس، كما تصوِّره كطائر يحمل المسيح على جناحيه. اتَّخذ كولومبوس لنفسه مهمَّة المبشِّر العالمي لنشر المسيحيَّة في كلِّ مكان وطأته قدماه.

أبحرت سفينة كولومبوس، سانتا ماريَّا، من ميناء بالوس الإسباني، بتاريخ ٣ أغسطس ١٤٩٢ ميلاديًّا، بصحبة مجموعة من السف الإسبانيَّة. لم يكن كولومبوس متسلِّحًا بالمؤن والعتاد والبحَّارة المهرة والمعرفة النافذة في علوم الجغرافيا والفلك فقط، إنَّما، وقبل كلِّ ما سبق، بإيمان راسخ بـ "الخريطة الرَّوحيَّة التي زوَّدته بها قراءاته للكتاب المقدَّس" (ص٢٩). على ذلك، اعتبر شعبان كولومبوس في طليعة المبشِّرين الغربيين، وكأنَّما سبق بحملته الاستكشافيَّة أواخر القرن الخامس عشر، حملات التبشير بالإنجيل التي انطلقت في القرن التاسع عشر، والتي كانت حركة الإصلاح الديني التي قادها القس الألماني مارتن لوثر في القرن السادس عشر مرجعها الأساسي. المفارقة أنَّ كولومبوس مات عام ١٥٠٦، عشر سنوات قبل إعلان لوثر مواده الاحتجاجيَّة على الكنيسة الكاثوليكيَّة. وينقل شعبان عن فرديناند، ابن كولومبوس، قوله عنه "كان متشدِّدًا متطرِّفًا في حماسه الديني لدرجة تجعلك تظنُّه منتميًا إلى حركة أو مذهب ديني متطرِّف"، مما يعني أنَّ جهود كولومبوس لم تكن بدافع من مطامع دنيويَّة، إنَّما بوازع ديني خالص (ص٣١).

تجدر الإشارة إلى أنَّ كولومبوس لم يخلِّف سوى مؤلَّف واحد تحت عنوان **Libro de la Profecias**–**كتاب النبوءات**، وقد كشف فيه عن سعيه إلى تحقيق نبوءات الكتاب المقدَّس، وبخاصَّة ما جاء في رؤيا يوحنَّا اللاهوتي، وسفر اشعياء. ويتعجَّب شعبان من عدم ترجمة

هذا الكتاب إلى الإنجليزيَّة إلَّا في السنوات الأخيرة، كما لم يُعنَ الباحثون بالتركيز على الجانب الديني في تكوين كولومبوس الذهني، الذي دفعه إلى قطع رحلاته تبشيريَّة الطابع، لنشر المسيحيَّة قبل السيطرة على الأراضي التي دخلها.

ينقل الدكتور بهاء الأمير، المتخصِّص النابه في الدراسات اليهوديَّة وتاريخ الحركات السريَّة، في كتابه **اليهود والحركات السريَّة في الكشوف الجغرافيَّة وشركة الهند الشرقيَّة البريطانيَّة** (٢٠١٩)، عن مارجريتا زامورا، أستاذ التاريخ وآداب الإسبانيَّة والبرتغاليَّة في جامعة وسكنسن الأمريكيَّة، تناوُلها في كتابها **Reading Columbus–قراءة كولومبوس** (١٩٩٣)، رسالة لتعود لكولومبوس، أرسلها إلى فرناندو وإيزابيلا، يعدهما فيها بسعيه الدؤوب لجمع الأموال اللازمة لتجهيز جيش تحرير أورشليم. يقول كولومبوس، كما ينقل الأمير " في خلال سبع سنوات من الآن، سأكون قادراً على أن أوفر لجلالتكما نفقات خمسة آلاف فارس، وخمسين ألف جندي مشاة، **من أجل شن الحرب واستعادة أورشليم/القدس**...وفي خلال خمس سنوات أخرى، سأكون قادرًا على تجهيز خمسة آلاف فارس وخمسين ألف جندي آخرين، وبذلك يكون تحت إمرتكما عشرة آلاف فارس ومائة ألف جندي، يمكن بها أخذ بلاد الهند كلها" (ص١٢٤).

يعلِّق الأمير على ما ورد في تلك الرسالة بأنَّ الحملة التي أطلقها كولومبوس تحت ستار الكشف الجغرافي والتجارة استهدفت في واقع الأمر جمع الأموال لإعداد جيش يزحف إلى العالم الإسلامي؛ "من أجل إعادة بناء هيكل بني إسرائيل في غلاف المسيحيَّة" (ص١٢٥). الطريف في الأمر أنَّ كولومبوس قد اعتقد أنَّه هو المخلِّص المنتظَر، المفترض أن يظهر قبيل نهاية العالم لتأسيس مملكة عالميَّة في القُدس. عن رسالة وردت في كتاب **رسائل كريستوفر كولومبوس النادرة** (١٨١٠)، للمؤرِّخ الإيطالي جاكوبو موريللي، وجَّهها كولومبوس إلى ملكي إسبانيا، بتاريخ ٧ يوليو من عام ١٥٠٣ ميلاديًّا، ترجمتها إلى الإنجليزيَّة كارول ديلاني، في كتابها **Columbus and the Quest for Jerusalem: How Religion Drove the Voyages that Led to America–كولومبوس والبحث عن أورشليم: كيف قاد الدين الرحلات التي أدَّت إلى**

اكتشاف أمريكا (٢٠١١)، ينقل الأمير عن كولومبوس قوله "ستُبنى أورشليم/القدس وجبل صهيون بيد مسيحي... كما قال الرب على لسان نبيه في المزمور الرابع عشر، **وقد اخبرني الأب يواخيم...أنه سيخرج من إسبانيا**" (ص١٢٦).

كما سبقت الإشارة، عبَّر كولومبوس في كتابه الوحيد **Libro de la Profecias-كتاب النبوءات**، عن اعتقاده في مطلع القرن السادس عشر، بأنَّ غالبيَّة نبوءات آخر الزمان تحقَّقت، ولم يبقَ إلَّا القليل، مستدلًّا بما جاء في سفر اشعياء "وَأَجْعَلُ فِيهِمْ آيَةً، وَأُرْسِلُ مِنْهُمْ نَاجِينَ إِلَى الأُمَمِ، إِلَى تَرْشِيشَ وَفُولَ وَلُودَ النَّازِعِينَ فِي الْقَوْسِ، إِلَى تُوبَالَ وَيَاوَانَ، إِلَى الْجَزَائِرِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي لَمْ تَسْمَعْ خَبَرِي وَلاَ رَأَتْ مَجْدِي، فَيُخْبِرُونَ بِمَجْدِي بَيْنَ الأُمَمِ. وَيُحْضِرُونَ كُلَّ إِخْوَتِكُمْ مِنْ كُلِّ الأُمَمِ، تَقْدِمَةً لِلرَّبِّ، عَلَى خَيْل وَبِمَرْكَبَاتٍ وَبِهَوَادِجَ وَبِغَال وَهُجُنٍ إِلَى جَبَلِ قُدْسِي أُورُشَلِيمَ، قَالَ الرَّبُّ، كَمَا يُحْضِرُ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَقْدِمَةً فِي إِنَاءٍ طَاهِرٍ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ. وَأَتَّخِذُ أَيْضًا مِنْهُمْ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ، قَالَ الرَّبُّ" (اشعياء: إصحاح ٦٦: آيات ١٩-٢١). يثير الأمير في كتابه آنف الذِّكر (٢٠١٩)، إلى مفارقة تسترعي الانتباه، وهي إشارة كولومبوس في إحدى رسائله إلى ملكي إسبانيا، إلى النبي اشعياء بأنَّه كان "مبشِّرًا...كرَّس كلَّ جهوده من أجل...دعوة جميع الشعوب إلى **عقيدتنا الكاثوليكيَّة المقدَّسة**"، نقلًا عن الأمير (ص١٢٨).

الطريف هو أنَّ النبي اشعياء هو أحد أربعة من أنبياء بني إسرائيل، اقتيدوا إلى مملكة نبوخذ نصَّر، زمن السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد. صحيح أنَّ سفر اشعياء يُنعت بـ "الإنجيل الخامس" لكثرة نبوءاته عن مخلِّص بني إسرائيل، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ تبشير بقدوم المخلِّص تأسيس للكاثوليكيَّة التي ظهرت بعد ذلك ما يقرب من الألف عام. المفارقة الأكبر أنَّ الكاثوليكيَّة ليس من عقائدها إعداد العالم لاستقبال المخلِّص آخر الزمان، حتَّى أنَّ البابا بيوس الرابع يناير من عام ١٩٠٤ قد أعلن في خطاب، وجَّهه إلى تيودور هرتزل-مؤسس الحركة الصهيونيَّة-عن عدم تأييده إقامة دولة يهوديَّة في فلسطين؛ والسبب هو كُفر اليهود بألوهيَّة يسوع الناصري ونبوَّته.

يلخِّص الأمير حقيقة مساعي كولومبوس بقوله أنَّها لا تمتُّ للكنيستين الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة بصلة، إنَّما تنفيذ لنبوءات الصهيونيَّة المسيحيَّة، أو لتقل هي "عقيدة الحركات السريَّة التي تسعى لبثِّها في أذهان الشعوب المسيحيَّة في كلِّ العصور" (ص١٣٢). ويخبر الأمير عن حبر الماسونيَّة الأعظم في القرن التاسع عشر، ألبرت بايك، ما جاء في كتابه **Morals and Dogmas of the Ancient and Accepted Scottish Rite of Freemasonry–عقيدة الطقس الإسكتلندي القديم وآدابه (١٨٧١)** قوله "الغرض الظاهر لفرسان الهيكل كان حماية الحجَّاج المسيحيِّين القادمين للأماكن المقدَّسة، ولكن غرضهم السرِّي كان إعادة بناء هيكل سليمان كما وصفه النبي حزقيال في نبوءته، وحين يُبنى هيكل سليمان باسم الكاثوليكيَّة سيصبح عاصمة الكون"، نقلًا عن الأمير (ص١٣٣).

علاقة اليهود بحملات كولومبوس الكشفيَّة

يفرد الأمير في كتابه آنف الذِّكر (٢٠١٩) قسمًا يفصِّل طبيعة الأهداف التي شكَّلت ذهنيَّة كريستوفر كولومبوس، والتي تنبع من عقيدته الحقيقيَّة، وهي اليهوديَّة، على أغلب الظنَّ. يدلِّل الأمير على أصول كولومبوس اليهوديَّة، بما يتَّفق مع رأي المؤرِّخ دلنو ويست في مقاله "Columbus and His World–كولومبوس وعالَمه" عن انتماء المستكشف الشهير إلى الماسونيَّة، التي انضمَّ إليها بدافع من عقيدته اليهوديَّة. يوضح الأمير أنَّ اليهود لاقوا منذ أواخر القرن الرابع عشر، وحتَّى سقوط آخر حصن للمسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢ ميلاديًّا، حينما خُيِّر اليهود بين اعتناق المسيحيَّة أو الخروج من مملكة إسبانيا الموحَّدة، بارتباط فرناندو ملك أراغون، بإيزابيلَّا ملكة قشتالة. اضطرَّت مجموعات من اليهود إلى التظاهر باعتناق اليهوديَّة، وعُرف هؤلاء بالمارانو، وهم من فئة اليهود الخفيِّين، وعن هؤلاء يقول الأمير (ص١٤٠):

واليهود الأخفياء Cypto Jews، هم اليهود الذين يعيشون بين الشعوب فيعتنقون دياناتها ظاهراً ويمارسون طقوسها وشعائرها، دون أن يؤمنوا بها، بينما عقيدتهم الحقيقية أنهم من نسل بني إسرائيل، وأن دماءهم المقدسة تجري في عروقهم، وأن مهمتهم في أي مكان نزلوا فيه من العالم توجيهه في الاتجاه الذي يفضي يوماً ما إلى إعادة دولة بني إسرائيل واستعادة الهيكل، من خلال السيطرة الناعمة على مقاليد الشعوب، بزعزعة العقيدة الإلهية وإزاحتها بالعقيدة القومية، والتسلل إلى الجيوش، وإشاعة الربا، وامتلاك أعصاب الأمم المالية والاقتصادية، واستيطان وعيها وإذابة معاييرها وموازينها عبر وسائل الإعلام ووسائط اللهو والترفيه.

يسوق الأمير الكثير من الأدلَّة على وقوف اليهود سرًّا وراء مشروع كولومبوس الكشفي، ومن بين تلك الأدلَّة ما ورد في كتاب **The Jews and Modern Capitalism–اليهود والرأسماليَّة الحديثة** (١٩١١) لأستاذ الاقتصاد الألماني فيرنر سومبارت، الذي ينقل عنه قوله "اكتشاف أمريكا مرتبط باليهود بطريقة غير عاديَّة...وكولومبوس ومَن كان معه كانوا مجرَّد منفِّذين لمشروع إسرائيلي...فقد تمكَّن اليهود أبراهام زاكاتو، أستاذ الرياضيَّات في جامعة سلمنكا، سنة ١٤٧٣م، من إتمام خرائطه وجداوله الفلكيَّة، وقد ترجم هذه الجداول إلى اللاتينيَّة والإسبانيَّة يهوديٌّ آخر، هو خوسيه فكيوهو...وهذه الجداول هي التي اعتمد عليها كولومبوس في رحلته، وتمويل رحلة كولومبوس الأولى جاء من اليهود" (ص١٤١). يسوق الأمير دليلًا آخر من كتاب أحدث، ومصدر أجدر بالثقة، حيث ينقل عن كتاب **A History of the Marranos–تاريخ المارانوس** (١٩٧٥)، قول مؤلِّفه المؤرِّخ اليهودي سيسيل روث قوله "حملة كولومبوس عام ١٤٩٢م لاستكشاف المحيط، كانت في حقيقتها مشروعًا يهوديًّا، أو بالأخرى مشروع المارانو، وهو ما يجعلنا نعتقد أنَّ كولومبوس نفسه كان من أسرة يهوديَّة تحوَّلت إلى المسيحيَّة...أمَّا عن شركائه في المشروع، فهم من اليهود يقينًا" (ص١٤٢). يوضح روث أنَّ مموِّل الحملة الكشفيَّة، فلويس دي سانتانجيل، ومعاون كولومبوس جابرييل سانشيز، وراعي الحملة ألفونسو دي لا كباليريا، وأعضاء الحملة، ألفونسو دي لا كالي، ورودريجو سانشيز، ومستري برنال، والجراح ماركو، ولويس دي توريز، كلُّهم من اليهود.

الأصول التَّاريخيَّة للتَّراث اليهودي-المسيحي

كما سبقت الإشارة بالتفصيل في دراسة "مخطوطات البحر الميِّت وعقيدة بني إسرائيل الحقيقيَّة"، شنَّ القس الألماني مارتن لوثر حملة على كاثوليكيَّة روما مطلع القرن السادس عشر؛ اعتراضًا على ما رآه من تجاوزات أخلَّت بصحيح العقيدة. أمَّا عن الداعم الأكبر لتلك الحملة، فكان اليهود، ممَّن أقنعوا لوثر بأنَّ تصحيح العقيدة كان يوجب الاستناد إلى العهد القديم، وأرادوا كذلك تصفية حسابهم مع الإمبراطوريَّة الرومانيَّة-مدمِّرة الهيكل الثاني وطاردة بني إسرائيل من الأرض المقدَّسة. غير أنَّ لوثر فطن إلى خداع اليهود في نهاية الأمر، وبعد أن بدأت حملته بمقاله الشهير "المسيح وُلد يهوديًّا" (١٥٢٣ ميلاديًّا)، أنهاها بمقال "عن اليهود وأكاذيبهم" (١٥٤٣ ميلاديًّا). لعلَّ من أهم نتائج حملة لوثر التصحيحيَّة إنهاء استئثار كاثوليكيَّة روما بقراءة الإنجيل وتفسيره؛ فقد بدأت ترجمة الكتاب المقدَّس إلى اللغات السادة حينها.

دخلت البروتستانتيَّة إلى إنجلترا منتصف القرن السادس عشر، بتشجيع من الملك هنري الثامن، لأسباب شخصيَّة بحتة، من بينها عدائه مع صهره السابق، ملك إسبانيا، الذي كانت الكنيسة الكاثوليكيَّة تحت سُلطته. وظهرت فرقة البيوريتانيِّين، أو الطهوريِّين، في القرن السابع عشر، بدافع تطهير الكنيسة الأنغليكانيَّة من بقايا التأثيرات الكاثوليكيَّة. أسفر الانسلاخ التام عن الكاثوليكيَّة نزعة لاستكشاف طبيعة المعتقَد اليهودي، وقراءة تاريخ بني إسرائيل، ممَّا أدَّى بدوره إلى ظهور اهتمام بنبوءات العهد القديم، ومفاهيم عهد الربِّ لأبراهام العبراني بمملكة من نهر مصر إلى نهر الفرات، وأرض الميعاد، واصطفاء الربِّ لبني إسرائيل على سائر الأمم. ولعلَّ من نتائج الانجذاب إلى العنصر اليهودي في أوروبا إثارة التعاطف مع اليهود، بشأن طردهم من الأرض المقدَّسة واضطهاد الأمم لهم، وإن كانت العقيدة البروتستانتيَّة قد وجدت لذلك تفسيرًا، وهو أنَّه عقوبة إلهيَّة على قتلهم يسوع الناصري، وإصرارهم على رفض فكرة كونه المخلِّص الموعود في أسفار العهد القديم. أدَّى الاهتمام بالعقيدة اليهوديَّة في أوروبا إلى حالة من الربط بين العهدين القديم والجديد، من حيث التبشير بالمخلِّص الموعود، الذي سيحكم العالم من مملكة على الأرض المقدَّسة. وقد تنامى لدى علماء اللاهوت

المسيحي اهتمام بدراسة التلمود والتاريخ اليهودي؛ وأسفر ذلك كلُّه عن انتشار عقيدة انتظار المخلِّص، كما أسفر عن اقتناع أوروبا بالحتميَّة التاريخيَّة التي تحمِّل اليهود دورًا محوريًّا في تنفيذ خطَّة الربِّ، وقد انتقل ذلك الاعتقاد إلى الفكر الأمريكي لاحقًا.

أثار هذا التقارب بين الفكرين اليهودي والمسيحي، وما أسفر عنه من تكوُّن عقيدة المسيحيَّة الأصوليَّة، انتقادًا واسعًا في وسط المثقَّفين العرب والغربيِّين، ومن بينهم جورجي كنعان، الذي ينقل عنه شعبان رأيه في أحد مؤلَّفاته "إنَّ أكبر عمليَّة تزييف في التاريخ تتم بصمت وتآمر هي عمليَّة تهويد المسيحيَّة" (ص٤٨). ويشير الباحث السوري ندرة اليازجي إلى وجود تبايُن كبير بين المسيح الذي تتناوله نبوءات العهد القديم وبين يسوع الناصري، الشخصيَّة المحوريَّة في العهد القديم، مثيرًا مسألة في غاية الحساسيَّة، وهي أنَّ "المسيح في التوراة مصطلح يكتنفه الغموض"، وأنَّ "النبوءات لا تنطبق على مَن وُلد في بيت لحم من عذراء"، كما جاء في كتابه **رد على اليهوديَّة واليهوديَّة المسيحيَّة** (١٩٧٨).

يؤدِّي ما سبق طرحه إلى الاستنتاج بأنَّ الفكر المسيحي الجديد الناشئ في الغرب لتحقيق أهداف معيَّنة، قد أدَّى إلى تكوُّن ما يُعرف بـ "المسيحيَّة الغربيَّة"، التي اصطُلح على تسميتها التراث اليهودي–المسيحي، ثمَّ الصهيونيَّة المسيحيَّة. يلخِّص شعبان هذه المسألة في عبارة موجزة "المسيحيَّة الغربيَّة إذن هي مؤسسة غربيَّة المنشأ والتطوُّر، وهذا ما جعل عددًا من المفكِّرين يقولون: **إنَّ الغرب قد اختطف المسيحيَّة، وعمل فيها تشويهًا وتحريفًا عبر القرون لكي تستجيب لظروفه وأطماعه الآنيَّة والمستقبليَّة**" (ص٤٩). يعني ذلك أنَّ الغرب تبنَّى مجموعة من الأساطير التوراتيَّة التي رأى فيها مغنمًا آنيًّا، بفرض سيطرته على العالم من خلال فرض فكرة الحتميَّة التاريخيَّة والدور الإلهي الملقى على عاتقه لنشر المسيحيَّة وتهذيب الهمج من الأغيار، ومستقبليًّا، بالترويج لفكرة أنَّ الخلاص يوم الدينونة هو للمؤمنين بالمخلِّص وحدهم، حيث سيبيد المخلِّص الأمم الأخرى. وكان المفكِّر اليهودي الأمريكي ألفريد ليلينتال من أكثر معارضي فكرة الوطن القومي لليهود على الأرض المقدَّسة، كما جاء في كتابه **The Zionist Connection: What Price Peace–الرابطة الصهيونيَّة: ما ثمن السلام** (١٩٧٨)، وينقل عنه شعبان قوله "إنَّ صانعي الأساطير قد استغلُّوا

العبرانيِّين والإسرائيليِّين والشعب اليهودي بالقول باستمراريَّة تاريخيَّة لهذه الأساطير" ٤٨٦-٤٨٧ (ص٥٠). يضع ليلينتال يده على صُلب المشكلة، وهو سيطرة اليهود على منابع المعرفة الأكاديميَّة والإعلاميَّة، وكتمهم أيَّ صوت يندِّد بممارساتهم الوحشيَّة ضد الشعب الفلسطيني، مستغلِّين بذلك سلاح "معاداة الساميَّة" في إرهاب الساعين إلى نشر الحقيقة.

فهمنا ممَّا سبق أنَّ الولايات المتَّحدة قد تبنَّت الفكر المسيحي المتصهين بدافع نفعي، وكان إيمانها بعقيدة الحتميَّة التاريخيَّة والتدبيريَّة الإلهيَّة من أهم أسباب مباشرتها دورها في الشرق الأوسط، باعتبارها الداعم الأكبر لدولة إسرائيل، والمساند الأوَّل لمسألة تأسيس الهيكل الثالث على ما يُطلق عليه جبل الهيكل، أي الصخرة المعلَّقة، موضع مصلَّى قبَّة الصخرة في المسجد الأقصى. وقد أعرب المؤرِّخ الديني الأمريكي تيموثي ويبر، في مقاله " How Evangelicals Became Israel's Best Friend -كيف أصبح الإنجيليُّون أصدقاء إسرائيل المقرَّبين" (١٩٩٨) عن قلقه من استناد بلاده إلى عقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة (Dispensationalism)، التي تعتبر جزءً لا يتجزَّأ من عقيدة الصهيونيَّة المسيحيَّة، في استشراف المستقبل وتوجيه السياسة الدوليَّة. باختصار، تقوم التدبيريَّة الإلهيَّة-تُعرف كذلك بالقدريَّة-على أساس تقسيم التاريخ الإنساني إلى ٧ حُقب زمنيَّة، وصلت البشريَّة إلى الحقبة السادسة فيها، وهي "دور الكنيسة والنعمة"، وهي الحقبة الممهِّدة لمجيء المخلِّص وحُكم الألف عام. وفقًا لموسوعة ويكيبيديا الرقميَّة، يصرُّ الأصوليُّون على أنَّ الأرض المقدَّسة هي موقع مملكة الألف عام، مما يستلزم فرض السيطرة عليها، استعدادًا لمجيء المخلِّص. يتعارض ذلك مع اعتقاد الكنيسة التقليديَّة بأنَّ إسرائيل الكبرى في آخر الزمان هي مملكة سماويَّة، يُوصل إليها بالسمو الروحاني؛ من ثمَّ، فلا علاقة لها بالأرض المقدَّسة.

يتطرَّق الدكتور بهاء الأمير في كتابه **اليهود والحركات السريَّة في الكشوف الجغرافيَّة وشركة الهند الشرقيَّة البريطانيَّة** (٢٠١٩)، الذي سبقت الإشارة إليه، إلى تأثُّر البروتستانتيَّة، أصل العقيدة الصهيونيَّة في المسيحيَّة، بحركة الصليب الوردي (Rosicrucian)، الذي ظهرت في أوروبا، بوصفها امتدادًا لحركة فرسان الهيكل. ويدلِّل

الأمير على تأثُّر لوثر بحركة الصليب الوردي باتِّخاذه شعارًا لحركته يشبه شعار حركة الصليب الوردي، هو عبارة عن صليب يتوسَّط قلبًا يقع بداخل وردة، ويُعرف بـ "ختم لوثر".



صورة ٢-شعار حركة الصليب الوردي صورة ٣-شعار ختم لوثر

تأثير التراث اليهودي-المسيحي في تكوُّن الفكر الأمريكي

يبدأ الدكتور فؤاد شعبان هذا القسم من دراسته بالإشارة إلى "دور الدين في الحياة الأمريكيَّة"، من خلال التذكير بعقد قُدَّاس في الكاتدرائيَّة الوطنيَّة الأمريكيَّة، بعد أيَّام من تسلُّم الرئيس جورج دابليو بوش الحُكم، في يناير ٢٠٠١ ميلاديًّا، في نفي تامٍّ لما يُثار عن اتِّباع السياسة الأمريكيَّة فِكرًا علمانيًّا (ص٦١). تطرَّق الموعظة التي ألقاها القُس فرانكلن جراهام، نجل القس والمبشِّر الإنجيلي الشهير والمستشار الروحي لعدد من رؤساء أمريكا، إلى النموذج المثالي الذي قدَّمه أنبياء بني إسرائيل للبشريَّة، مشيرًا على الأخص إلى الملك داود، ذلك القائد الإسرائيلي العظيم، الذي مهَّد لتأسيس دولة عالميَّة، حكمها نجله، سليمان، بعد تأسيس الهيكل الأوَّل. كأنَّما أراد جراهام التذكير بالدور الذي فرضته التدبيريَّة الإلهيَّة على رؤساء أمريكا، ورثة كورش، كما أطلق عليهم المؤرِّخ بول تشارلز مركلي، في كتابه آنف الذِّكر (٢٠٠٤)، في تأسيس مملكة إسرائيل الموعودة وإعادة بناء الهيكل، ترقُّبًا لظهور المخلِّص. ما يثبت هذا الافتراض هو تشبيه القُس فرانكلن جراهام تنصيب جورج دابليو بوش رئيسًا على أمريكا بتنصيب داود ملكًا على إسرائيل. واستنادًا إلى ما جاء في سفر التكوين عن أنَّ مباركة الربِّ للأمم مرهونة بمباركة الأمم لنسل أبراهام، رأس سلالة بني إسرائيل، "**وَأُبَارِكُ**

مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ»" (سفر التكوين: إصحاح ١٢، آية ٣)، ذكَّر جراهام الحضور بأنَّ أحباب إسرائيل هم أحباب الربِّ، وأعداؤها هم أعداؤه.

يلقي شعبان الضوء على أهمِّ الأفكار التي حملها المهاجرون الإنجليز الأوائل إلى أمريكا الشماليَّة، والنابعة من إيمانهم بعقيدة الطهوريَّة البروتستانتيَّة، يأتي على رأسها: ١-التدبيريَّة الإلهيَّة، أو خط الربِّ لتسيير الكون، وراء هجرتهم إلى العالم الجديد؛ أي أنَّها تستتبع أداءهم دورًا بارزًا في تأسيس مملكة الرَّبِّ. وسبقت الإشارة إلى تشبيههم أنفسهم بأسباط بني إسرائيل عند عبورهم البحر وخروجهم من مصر إلى أرض كنعان؛ ٢-الاعتقاد في وجود عهد بينهم وبين الرَّبِّ، أسند الرَّبُّ إليهم بموجبه مهمَّة هداية العالم إلى الخلاص وإنقاذه من الضلالات، وهذا ما فتح المجال أمام دور الكنيسة الإنجيليَّة في نشر تعاليم المسيح. اعتبر المهاجرون الطهوريُّون أنفسهم بمثابة حُجَّاج انتقلوا إلى العالم الجديد ضمن الخطَّة الإلهيَّة لتأسيس مملكة إسرائيل؛ ومن هنا اصطُلح على تسميتهم الآباء الحجَّاج (Pilgrim Fathers). برَّر هذا الاعتقاد المجازر التي قام بها المهاجرون ضدَّ المواطنين الأصليِّين لأمريكا الشماليَّة، الذين أطلقوا عليهم الاسم المسيء "الهنود الحمر"، بأنَّ شبَّهوا أنفسهم ببني إسرائيل في حربهم مع سكَّان أرض كنعان، التي قادها النبي يشوع، وصيُّ موسى وخليفته.

اعتاد الوعَّاظ والسياسيُّون في بداية الحملات الاستيطانيَّة على الاستعارة من الكتاب المقدَّس في مواعظهم وخطبهم، في تأكيد على أهميَّة الدور الذي لعبه العامل الديني في توجيه السياسة الأمريكيَّة في مهدها. ومن بين عبارات الكتاب المقدَّس التي مارست تأثيرًا فارقًا في توجيه الفكر الأمريكي الناشئ، الإشارة إلى بني إسرائيل باعتبارهم "الشعب الذي دخل في عهد مع الله". تكرَّرت في العهد الجديد الإشارة إلى التفويض الإلهي لشعبه المختار لتأسيس كنيسة الرَّبِّ، ولعلَّ هذه الآية في رسالة بطرس الأولى خير مثال "وَأَمَّا أَنْتُمْ **فَجِنْسٌ مُخْتَارٌ وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ شَعْبُ اقْتِنَاءٍ**" (رسالة بطرس الأولى: إصحاح ٢، آية ٩)؛ وتعبر هذه الآية في رسالة بولس الرَّسول إلى أهل روميَّة عن نفس المضمون "وَإِنْ كَانَتِ **الْبَاكُورَةُ مُقَدَّسَةً فَكَذلِكَ الْعَجِينُ** وَإِنْ كَانَ **الأَصْلُ مُقَدَّساً فَكَذلِكَ الأَغْصَانُ**" (رسالة روميَّة: إصحاح ١١، آية ١٦). وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ كلمة كنيسة مشتقَّة من الكلمة اليونانيَّة

Eklessia، التي تشير إلى تجمُّع بني إسرائيل؛ وكأنَّما بناء الكنيسة هو بهدف جمع الناس لتشكيل وحدة دينيَّة، تؤمن برسالة واحدة، وتعبد ربًّا واحدًا، في خطوة تمهيديَّة لمجيئه، كما أنَّ في اجتماع بني إسرائيل في الأرض المقدَّسة استعداد لمجيء المخلِّص. من هنا، تحتَّم بناء الكنائس التبشيريَّة بقرب مجيء المسيح في شتَّى بقاع الأرض، ضمن عهد الربِّ لشعبه المفوَّض، وتلك كانت عقيدة كولومبوس اليهودي قبل نشأة الصهيونيَّة المسيحيَّة.

أمريكا بوصفها صهيون الجديدة

ارتبط في الذهنيَّة الأمريكيَّة منذ عهد المهاجرين الأوائل تشبيه أمريكا بمدينة القدس، الواقعة على جبل صهيون، واعتبارها منارة للعالم. وتجد الكاتب الأمريكي رالف والدو ايمرسون يقول عن أمريكا "آخر محاولة للعناية الإلهيَّة لإنقاذ الجنس البشري"، كما ينقل عنه شعبان (ص٨٢). ويتَّفق الكاتب هيرمان ملفيل، حيث يرى أنَّ الأمريكيين قد أسسوا حضارتهم الجديدة، بعد تحرُّرهم من تراث الأمم السابقة التي احتكُّوا بثقافاتها. في كتابه **Redburn: His First Voyage–ريدبورن: رحلته الأولى** (١٨٤٩)، يعبِّر ملفيل عن إيمانه بعقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة، بإشارته إلى المهمَّة الإلهيَّة المسندة إلى الشعب الأمريكي "**الشعب الخاص المختار...إسرائيل هذا العصر**" في نشر التحضُّر والرقي في العالم، وفي هذا يقول "سوف تتبعنا بقيَّة الأمم قريبًا. **فنحن روَّاد هذا العالم**، نحن الحرس في الخطوط الأماميَّة، أرسلنا الله إلى قفار الجاهليَّة لكي نشقَّ طريقًا جديدة في هذا العالم الخاص بنا. **إنَّ البشريَّة تتطلَّع إلى ما كتب الله لعرقنا أن يمنحها.** لا شكَّ أنَّ المسيح السياسي قد نزل فينا" (ص٢١٧).

يزخر الخطاب السياسي في العقود الأولى لحياة المهاجرين الطهوريِّين إلى أمريكا، بالاستعارات من الكتاب المقدَّس، وازداد الأمر في فترة الصراع المسلَّح ضدَّ الإنجليز، خلال سنوات حرب الاستقلال، حيث جرى تشبيه الأمريكيين أنفسهم ببني إسرائيل في صراعهم مع فرعون والمصريين، وقد نظَمَ الشاعر تيموثي دوايت عام ١٧٧١ ميلاديًّا ملحمة شعريَّة عن تلك الفترة، أطلق عليها "The Conquest of Qanaan"، أو غزو كنعان، استند فيها إلى سفر يشوع في العهد القديم، في تناوُله صراع بني إسرائيل مع سكَّان الأرض المقدَّسة، حتى غزوها وأخضعوها بالكامل لسلطانهم، وكان التشبيه هذه المرة لخصم الأمريكيين، الذين

شبَّههم دوايت ببني إسرائيل وشبَّه قائد معركة الاستقلال جورج واشنطن بالنبي يشوع، بالفلسطينيين القدماء. ويبدو أنَّ انتصار الأمريكيين على خصمهم، وتأسيس دولة الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة أواخر القرن الثامن عشر، قد شجَّعهم على التحوُّل من التشبيه المجازي إلى الواقع العملي؛ ففكرة "**إسرائيل هذا العصر**" تحوَّلت إلى سعيٍ جدِّي أطلقته جماعات دينيَّة، إلى استعادة الأرض المقدَّسة.

ظهرت أوائل القرن التاسع عشر، مجموعة من المذاهب الدينيَّة المنبثقة عن البروتستانتيَّة، اشتركت جميعها في الإيمان بألفيَّة المسيَّا، وفي السعي إلى إطلاق حملات تبشيريَّة تجوب العالم، وبخاصَّة العالم الإسلامي، الذي ارتبطت به أمريكا وقتها تجاريًّا. ومن بين أهم دوافع نشر المسيحيَّة في العالم الإسلامي ترقُّب علامات الساعة، والاعتقاد في قُرب حلول مملكة الربِّ، وليس من المنطقي انتظار مجيء المخلِّص دون تهيئة الأجواء لذلك. كان إسقاط دولة الخلافة العثمانيَّة من بين أهم الأهداف؛ لإزالة الرابط الرمزي لمسلمي العالم، والتخلُّص من السيطرة المسلمة على الأرض المقدَّسة، ولن نعيد الإشارة إلى مؤامرات اليهود وأتباع الماسونيَّة العالميَّة لإسقاط الدولة العثمانيَّة، وكيف أسفر نجاح خططهم عن احتلال الأرض المقدَّسة بلا مقابل، بعد أن عرض تيودور هرتزل، مؤسس الصهيونيَّة، على السلطان عبد الحميد الثاني تسديد ديون دولته، في مقابل الموافقة على منح اليهود حقي تأسيس وطن قومي لهم هناك. وكان سقوط دولة الخلافة من بين العلامات الفارقة عند حركات الصهيونيَّة المسيحيَّة.

مساعي الأصوليين لاستعادة الأرض المقدَّسة من "الكفَّار"

منذ بداية القرن التسع عشر، بدأت مساعي الأصوليين من أتباع المذهب الطهوري، إلى استعادة الأرض المقدَّسة، التي اعتبروها حقًّا لهم تكفله النصوص الدينيَّة. وكان القس هيمان همفري من بين المنادين بالزحف المقدَّس إلى المشرق الإسلامي واستعماره، وفق العقيدة الاستيطانيَّة التي يكشف عنها سفر يشوع، "**كُلَّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ بُطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أَعْطَيْتُهُ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى**" (سفر يشوع: إصحاح ١، آية ٣). في موعظة له تحت عنوان "أرض الميعاد"، ألقاها في ٢٩ سبتمبر من عام ١٨١٩ ميلاديًّا، نادي همفري بالعمل الجدِّي لغزو

أرض كنعان، مستعرضًا تاريخ تلك الأرض، ومشيرًا إلى عهد الربِّ لأبرام وذريَّته من أبناء الذبيح، إسحق بمُلك أبدي على تلك الأرض-سبق دحض هذا الزعم وإثبات بطلان هذا العهد. يعترف القس الأصولي في هذه الموعظة بأنَّ آثام بني إسرائيل حالت دون سيطرتهم الدائمة على الأرض المقدَّسة، مشيدًا ببسالة يشوع بن نون في معاركه في مواجهة الفلسطينيين القدماء، إلى أن أسس دولة لبني إسرائيل، وطرد منها الأغيار.

غير أنَّ سيطرة بني إسرائيل ومُلكهم على الأرض المقدَّسة لم يدوما، حيث دبُّ الضعف في دولتهم، إلى أن أُسقطت أكثر مرَّة، وطُردوا بلا رجعة بعد خراب الهيكل الثاني على يد الرومان، في القرن الأوَّل الميلادي. يبدو أنَّ همفري قد تشجَّع على المناداة باستعادة الأرض المقدَّسة بفضل القوَّة المتزايدة للولايات المتَّحدة، ونفوذها المتزايد في العالم الإسلامي، وقد تضمَّنت موعظة "أرض الميعاد" ما يوحي بذلك "المساحات الشاسعة من أملاك الكنيسة ما زالت تحت سيطرة الكفَّار (يقصد المسلمين) ... والمسيحيَّة اليوم تمتلك القوَّة والموارد التي ستمكِّنها باسم الله، ودون تأجيل، أن ترفع علمها على كلِّ أرض يمتلكها الكفَّار". هذا، وأوكل همفري إلى المؤسسة التبشيريَّة في بلاده مهمَّة استعادة الأرض المقدَّسة، من خلال إشعال حماسة المسيحيين ممَّن لن يتقاعسوا عن تلبية نداء الكنيسة، مردِّدين بصوت واحد "من أجل صهيون لن نلزم الصمت...ومن أجل القدس لن نخلد إلى الراحة".

النشاط الاستيطاني الأمريكي في الأرض المقدَّسة

يتطرَّق شعبان إلى انطلاق حملات مسيحيَّة، لم تقتصر على المبشِّرين ولا اليمينيِّين، بل شارم فيها معتدلون، إلى الأرض المقدَّسة في القرن التاسع عشر، بهدف تأسيس مستوطنات. كان الخطاب الديني لعلماء اللاهوت من أشد العوامل المحفِّزة لتلك الهجرة، ومن أشهر ما قيل في هذا الصدد في أعمال كبار المبشِّرين، ما ورد في كتاب جون باركلي المعنون **The City of the Great King: Jerusalem As It Was, As It Is, and As It Is To Be-مدينة الملك العظيم: أورشليم كما كانت، وكما هي، وكما ستكون (١٨٥٨)** "إنَّ جمعيَّة التبشير المسيحيَّة الأمريكيَّة-التي تعمل تحت رعايتها بعثة التبشير في القدس- في مبادرتها لتنفيذ المشروع التبشيري، قررت بالإجماع، وبحكمة واعية، حسب تقاليد تلامذة

المسيح، **أن تمنح الخلاص لإسرائيل، والشعب النبيل الذي انبثقت منه؛ لأنَّ القدس هي لليهود**"، كما ينقل عنه شعبان (ص١٠٦). ومن نماذج دعوات المبشِّرين إلى نشر المسيحيَّة في القدس، دعوة موسى ستيوارت خلال موعظة ألقاها عام ١٨١٩ ميلاديًّا، أمام جماعة من المبشِّرين كانوا على استعداد للتوجُّه إلى المشرق الإسلامي إلى "**الذهاب إلى القدس، ورفع علم الصليب هناك من جديد**".

اعتقد المستوطنون الأمريكيُّون في قُرب مجيء المخلِّص، وكثرت رحلات المستكشفين إلى العالم الإسلامي، وفي مخيِّلة هؤلاء جميعًا أنَّهم أوشكوا على الوصول إلى الخلاص. ويستعرض شعبان نموذج لرسالة من إحدى هؤلاء المهاجرين، تتحدَّث فيها عن تجربتها بعيدًا عن موطنها وأسرتها، والرسالة نُشرت عبر مجلَّة The Monthly Gospel Visitor–زائر الإنجيل، وهي مجلَّة تبشيريَّة شهريَّة، في عددها ١٢، الصادر عام ١٨٥٩ ميلاديًّا؛ تقول المهاجرة ليديا ماريًّا شولر في رسالتها، المؤرَّخة بتاريخ ١٠ مايو ١٨٥٤ ميلاديًّا، والمرسلة من سهول شارون "عندما شعرت بعبء الخطايا التي اقترفتها، ولم أجد أحدًا يستطيع أن يزيح هذا العبء عن صدري سوى ذلك الذي روى بدمه هذه الأرض، ناداني وقال لي: تعالي وسأمنحك الراحة والخلاص". يضيف شعبان في تناوُله لكتابات شولر عن تجربتها الاستيطانيَّة، أنَّ المبشِّرة الأمريكيَّة تعكس في تأمُّلاتها عن المدينة العتيقة أنَّ الفكر التبشيري الأمريكي كان مدفوعًا برغبة عارمة في "استعادة" المدينة ذات الطابع الديني، والتي "دنَّسها المحتلُّون" (ص١١٠).

دور التُّراث اليهودي–المسيحي في "الحرب على الإرهاب" بعد أحداث ٩/١١

شارك عدد من أبرز السياسيين الأمريكيين، على رأسهم جورج دابليو بوش وعدد من رؤساء أمريكا السابقين، في اجتمع ديني عُقد في الكاتدرائيَّة الوطنيَّة، إحياءً لذكرى ضحايا تفجير برجي التجارة في نيويورك في ١١ سبتمبر من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا. حرص بوش خلال كلمته على الإشارة إلى الواجب الديني تجاه العالم بتخليصه من الأفكار المتشدِّدة، الناشرة للإرهاب، واختُتم الحدث الكبير بترتيل نشيد "The Battle Hymn of the Republic– ترتيلة الجمهوريَّة للحرب". يعلِّق شعبان على ذلك بقوله أنَّ هذا النشيد وثيق الصلة بالتراث

اليهودي–المسيحي في أمريكا؛ حيث أنَّ أبياته تردِّد المجيء الثاني للمسيح ليقهر الأمم الكافرة به، ويسحق قوى الشر (ص١٨١).

يعني ذلك أنَّ الحرب على أفغانستان (٢٠٠١)، الممهِّدة للحرب على العراق (٢٠٠٣)، انطلقت بدافع ديني من أعلى منبر الكاتدرائيَّة الوطنيَّة؛ برغم ما يشيعه السياسيُّون الأمريكيُّون عن فصل الدين عن السياسة، وقد دحض الدبلوماسي والمؤرِّخ الفرنسي ألكسيس دو توكفيل، في كتابه **De La Démocratie en Amérique** (١٨٢٣)، أو عن الديموقراطيَّة في أمريكا، بقوله "ليس هنالك دولة في العالم يمارس فيها الدين المسيحي تأثيرًا ونفوذًا في نفوس الناس أكثر من أمريكا"، نقلًا عن شعبان (ص٢٠٧). تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى موقف الرئيس الأسبق جون كينيدي، الذي اغتيل عام ١٩٦٣ ميلاديًّا قبل إتمام فترته الرئاسيَّة الأولى، الرافض لإملاءات رجال الكنيسة الكاثوليكيَّة، التي كان يتبعها، على رئيس الولايات المتَّحدة، والرافض كذلك لتأثير قساوسة البروتستانتيَّة على آراء الناخبين. يتناقض هذا الموقف مع ما صرَّح به الرئيس الأسبق بيل كلينتون عام ١٩٩٧ ميلاديًّا، خلال فترته الرئاسيَّة الثانية، عن انتهاء الفترة التي كان يخشى فيها الرؤساء والسياسيُّون التصريح بانتماءاتهم الدينيَّة، أو ممارسة شعائرهم في العلن.

يشير شعبان إلى أنَّ تأثير اليمين المسيحي في الحياة السياسيَّة قد تنامى في النصف الثاني من القرن العشرين، وسبق الإشارة إلى حرص رونالد ريجان، خلال حملته الرئاسيَّة لعام ١٩٨٠، اللعب على وتر المشاعر الدينيَّة، مما شجَّع اليمين المسيحي وقتها على تأسيس لجنة باسم "مسيحيُّون من أجل ريجان"، بهدف جمع تبرُّعات لصالح حملته. جاء ذلك استجابةً لسعي منافسه والرئيس الحاكم وقتها، جيمي كارتر، إلى فصل السياسة عن الدين. ويقدِّم المبشِّر، والقس المعمداني، جيري فالويل نموذجًا لتدخُّل الكنيسة في السياسة، بدعم العلني لحملات المرشَّحين الجمهوريين، رونالد ريجان وجورج بوش (الأب) وجورج دابليو بوش، الذين وصفهم بأنَّهم "وسائل الله لإعادة بناء أمريكا"، نقلًا عن شعبان (ص٢١٠).

نشأة اليمين المسيحي

يأخذنا شعبان إلى مسألة في غاية الأهميَّة، وهي التحالف اليهودي مع الأصوليين المسيحيين في توجيه السياسة الأمريكيَّة لما يخدم عقيدة مجيء المخلِّص. صحيح أنَّ اليمين المسيحي، وهو أحد أحدث أفرع المسيحيَّة الأصوليَّة، قد نشأ حديثًا، في القرن الماضي، لكنَّه يدبُّ بجذوره، بلا شك، في عقيدة المهاجرين الأوائل، من الطهوريِّين. انبثقت العقيدة الطهوريَّة عن الكالفينيَّة، وهو مذهب بروتستانتي أشدُّ تطرُّفًا من المذهب الذي خرج به مارتن لوثر. بدأ نشاط اليمين المسيحي في العقد الثاني من القرن العشرين، ووصف نفسه بـ "الأصولي" (fundamental)؛ نظرًا لسعي أتباعه إلى العودة إلى أصول الدين، وتنقيته ممَّا اعتبروه "ليبراليَّة متزايدة" أحدثت "تشويهًا للدين الصحيح" (ص٢٣٧). يفرِّق شعبان بين الأصوليَّة المسيحيَّة (Christian fundamentalism) والحركة الإنجيليَّة (Evangelicalism)، موضحًا أنَّ الأصوليَّة تمثِّل اليمين المتطرِّف للحركة الإنجيليَّة، التي تتَّسم بقدر من التسامح والليبراليَّة والقدرة على التعايش مع أصحاب المذاهب الأخرى، على عكس المذهب الأصولي. ومن أهم مبادئ اليمين المسيحي: ١-الإيمان بعدم تحريف الكتاب المقدَّس وعصمته، وبأنَّ كلَّ ما فيه وحي إلهي؛ و٢-الإيمان بنبوءات الكتاب المقدَّس والاسترشاد بها؛ و٣-الإيمان بوجود صراع بين قوى الشر والخير سيُحسم في معركة أرمجدون. إضافة إلى تلك المبادئ، يؤمن اليمينيُّون بمبدأ أطلقوا عليه "Double Covenant-العهد المزدوج"، الذي يزعم وجود علاقة خاصَّة بين اليهود والربِّ، انطلاقًا من الآية ٣ من إصحاح ١٢ في سفر التكوين، كما سبق الإشارة. لا يحتاج اليهود إلى الإيمان بيسوع الناصري مخلِّصًا لهم بفضل عهد الربِّ لأبرام، الذي أُثبت بطلانه، في تحدٍّ صريح لما جاء على لسان يسوع في إنجيل يوحنَّا، عن حتميَّة الإيمان به للوصول إلى الربِّ "**أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي**" (إنجيل يوحنَّا: إصحاح ١٤، آية ٦).

عُرفت الأصوليَّة المسيحيَّة بالصهيونيَّة المسيحيَّة بسبب دفاعها المستميت عن حقِّ اليهود في العودة إلى الأرض المقدَّسة، وتأسيس دولة لهم هناك، **الذي يتزامن مع حدوث كوارث طبيعيَّة وحروب كونيَّة من شأنها تغيير خارطة العالم**. ويمارس زعماء اليمين المتطرِّف

ضغوطًا شديدة على الإدارة الأمريكيَّة لكيلا لا تمنح الفلسطينيين حقَّهم في السيادة على مساحة من الأرض المقدَّسة. ويشير شعبان إلى موقف القس جيري فالويل من زيارة بنيامين نتنياهو، إبَّان فترته الأولى رئيسًا لوزراء إسرائيل (١٩٩٦-١٩٩٩ ميلاديًّا)، للولايات المتَّحدة، لمَّا نظَّم فالويل اجتماعًا ضمَّ عددًا من زعماء الأصوليَّة المسيحيَّة، واتَّفقوا على السعي إلى دفع الرئيس الأمريكي حينها، بيل كلينتون، لعدم إجبار إسرائيل على منح الفلسطينيين سلطة على بعض الأراضي. ينقل شعبان عن فالويل قوله "**لدينا أكثر من ٢٠٠ ألف راعي كنيسة إنجيلي في أمريكا. وقد طلبنا منهم جميعًا الصعود على منابرهم واستعمال نفوذهم لدعم دولة إسرائيل ورئيس وزرائها**" (ص٢٤٧).

لا يدَّخر اليمين المسيحي جهدًا في دعم إسرائيل، ماليًّا وسياسيًّا، ولا يخفي زعماء هذه الحركة ولاءهم لإسرائيل؛ حيث يعتبرون أنَّ قضيَّة إسرائيل حيويَّة الطابع بالنسبة إلى أمريكا. تعليقًا على ذلك، يقول فؤاد شعبان "**من الطبيعي أن يصبَّ قادة اليمين المسيحي جامَّ غضبهم على العرب والمسلمين، وأن يستثيروا كراهية العامَّة من الأمريكيين للإسلام والعرب بدعاياتهم المتواصلة عبر كلِّ وسيلة ممكنة**" (ص٢٥٤). يعيدنا هذه التعليق إلى موضوعنا الأساسي، وهو دور الصهيونيَّة في نشر رهاب الإسلام-الإسلاموفوبيا-وطبيعة مراميها ووسائلها في سبيل تحقيق تلك الغاية. ومن بين وسائل إثارة المشاعر السلبيَّة تجاه المسلمين، إبراز معاناة اليهود من "الإرهاب الفلسطيني"، الأمر الذي يستوجب الدعم الأمريكي. وتنشر وزارة الشؤون الخارجيَّة الإسرائيليَّة على موقعها https://mfa.gov.il تقريرًا تتناول فيه تاريخ "الإرهاب" الذي أطلقه الفلسطينيُّون ضدَّ المستوطنين اليهود، منذ تأسيس دولة إسرائيل، وحتَّى حرب الأيام الستَّة، تعنونه "أيُّهما بدأ قبل الآخر: الإرهاب أم الاحتلال؟".



يعمل التقرير على دحض مزاعم قادة حركات المقاومة الفلسطينيَّة بأنَّ "الإرهاب الفلسطيني" ولَّده الاحتلال، وأنَّ "العنف" لن يتوقَّف إلَّا عند انتهاء الاحتلال. يسوق التقرير أدلَّة على أنَّ العمليَّات الإرهابيَّة الفلسطينيَّة، والمقصود عمليَّات المقاومة ورفض الاحتلال، قد بدأت قبل احتلال الضفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة في حرب ٥ يونيو/حزيران ١٩٦٧ ميلاديًّا.

Ministry of Foreign Affairs, March 2002

Palestinian and Arab spokesmen commonly claim that the recent Palestinian terrorism is the result of the Israeli 'occupation' of the West Bank and Gaza, adding that the violence will cease only when the 'occupation' is ended.

Despite this claim, it should be recalled that the many Palestinian and Arab rejectionist factions (such as the Hamas and the Hizbullah) repeatedly declare that even if Israel would fully withdraw from the territories they will continue their attacks, since they refute Israel's basic right to exist.

More importantly, however, the basic premise of the Palestinian claim - that the 'occupation' causes terrorism - is historically flawed. Arab and Palestinian terrorism against Israel existed prior to the beginning of Israeli control over the West Bank and Gaza as a result of the Six Day War of June 1967, and even prior to the establishment of the State of Israel in May 1948.

عداء اليمين المسيحي للإسلام وراء نشر الإسلاموفوبيا

ينقلنا الحديث عن الإرهاب المنسوب إلى المسلمين، إلى تتبُّع أصل العداء من جهة اليمين المسيحي تجاه الإسلام، العداء الذي دفع اليمين المسيحي إلى تعمُّد الحط من قدر الإسلام ومعتقيه وإلصاق أبشع الصفات بهم. يرى شعبان أنَّ الإيمان بالحتميَّة القدريَّة والتدبيريَّة الإلهيَّة من أهم أسباب عداء اليمين المسيحي للإسلام، الذي يُرى باعتباره العنصر السلبي في المعادلة الكونيَّة، ولن ينتهي الشرُّ إلَّا بالقضاء عليه في معركة كونيَّة، هي مجيدو. لن ننسى أنَّ الحملات الصليبيَّة في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر للميلاد، استهدفت استعادة الأرض المقدَّسة من أيدي المسلمين؛ ولن ننسى كذلك أنَّ نفس الدافع كان وراء حملة كريستوفر كولومبوس الاستكشافيَّة أواخر القرن الخامس عشر. غير أنَّ العداء تجاه الإسلام اتَّخذ شكلًا متطوِّرًا في ظلِّ الإيمان بعقيدة ألفيَّة المسيَّا، التي تشكِّل شقًّا أساسيًّا في المذهب الأصولي. لإيمانهم بحُكم الألف عام بعد القضاء على كافَّة الأمم غير المؤمنة بالمسيح/المخلِّص، يعتقد اليمين المسيحي بأنَّ استئصال شأفة الإسلام سيعجِّل بمجيئه. إلى جانب رميه بالتشدُّد والانغلاق على الآخرين والميل إلى العنف ومعاداة اليهود والمسيحيين وكراهية المرأة، يُقرن الإسلام بالتأخُّر عن ركب الحضارة والعجز عن اللحاق بركب المدنيَّة.

دور الإيمان بالنبوءات المستقبليَّة في تشكيل واقع أمريكا

يأتي الإيمان بعقيدة ألفيَّة المسيَّا على رأس العقائد التي يؤمن بها اليمين المسيحي، والتي تتلخَّص في مجيء المسيح نهاية الألفيَّة السادسة، وفق التقويم اليهودي، ليحكم العالم ألف عام، ينعم فيها المؤمنون به بالسلام والأمن والرفاهية. وفق هذه العقيدة، يستأثر أتباع المسيح بالفضل كلِّه، ويظهرون على الأمم، التي يصير الباقون من أبنائها عبيدًا لهم. يُعزى التأثير الأكبر في نشر عقيدة الألفيَّة إلى ثلاثة من المفكِّرين الأمريكيين، هم سيروس سكوفيلد، وويليام بلاكستون، وجون نيلسون داربي؛ ولعلَّ كتاب **Jesus is Coming–المسيح قادم** (١٨٧٨) لويليام بلاكستون من أشهر المؤلَّفات التي أحدثت صدى واسعًا في الأوساط الأدبيَّة، إلى جانب ما حققه من مبيعات هائلة.

وفق رأي شعبان، كان لكتاب **المسيح قادم** عظيم الأثر في انتشار الدعوات إلى عودة اليهود إلى الأرض المقدَّسة لتأسيس مملكة الربِّ، كما كان لمواعظ مؤلِّفه الفضل الأكبر في إقناع العامَّة بضرورة مساندة قضيَّة تأسيس إسرائيل، إلى درجة أنَّ البعض يعتبره "أب الصهيونيَّة"، بأن سبقت جهوده جهود تيودور هرتزل. أسَّس بلاكستون عام ١٨٨٧ ميلاديًّا إرساليَّة شيكاغو العبريَّة، وقطع رحلة إلى المشرق الإسلامي، زار فيها فلسطين، لتترك في نفسه أثرًا كبيرًا، خاصَّة مع وضعه نصب عينيه وعد سفر ارميا بإعادة بناء المدينة المقدَّسة–أورشليم–لتكن مملكة أبديَّة " «هَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، **وَتُبْنَى الْمَدِينَةُ لِلرَّبِّ** مِنْ بُرْجِ حَنَنْئِيلَ إِلَى بَابِ الزَّاوِيَةِ. وَيَخْرُجُ بَعْدُ خَيْطُ الْقِيَاسِ مُقَابِلَهُ عَلَى أَكَمَةِ جَارِبَ، وَيَسْتَدِيرُ إِلَى جَوْعَةَ. وَيَكُونُ كُلُّ وَادِي الْجُثَثِ وَالرَّمَادِ، وَكُلُّ الْحُقُولِ إِلَى وَادِي قَدْرُونَ إِلَى زَاوِيَةِ بَابِ الْخَيْلِ شَرْقًا، **قُدْسًا لِلرَّبِّ. لاَ تُقْلَعُ وَلاَ تُهْدَمُ إِلَى الأَبَدِ**»" (سفر ارميا: إصحاح ٣١، آيات ٣٨–٤٠).

في دراسة تحت عنوان " The Father of Zionism: William Blackstone–-أب الصهيونيَّة: ويليام بلاكستون؟" (٢٠١٠)، يستعرض جوناثان مورهيد إسهامات بلاكستون الفعَّالة في خدمة الصهيونيَّة الأمريكيَّة، وتعزيز العلاقات اليهوديَّة–المسيحيَّة، ولعلَّ أبرز ما يخوِّله لأن يستحق لقب "أب الصهيونيَّة"، أنَّه دعا إلى أوَّل مؤتمر صهيوني عام ١٨٩٠ ميلاديًّا، عقب عودته من فلسطين، ليسبق بذلك مؤتمر الصهيونيَّة الأوَّل، الذي عقده هرتزل

في أغسطس من عام ١٨٩٧ ميلاديًّا. عَقَد بلاكستون مؤتمره يومي ٢٤ و٢٥ نوفمبر من عام ١٨٩٠ في مقر الكنيسة الأسقفيَّة الميثوديَّة الأولى في شيكاغو، بمشاركة ربَّانيين وقساوسة، وكان أهم قرار اتُّخذ إبداء التعاطف تجاه قضيَّة اليهود في العالم، والدعوة إلى عقْد مؤتمر عالمي للنظر في أحوال اليهود، وفتح مجال الحديث عن إمكانيَّة استعادة فلسطين لتأسيس وطن قومي لليهود على أرضها.

تُضاف جهود ويليام بلاكستون إلى جهود سيروس سكوفيلد في نشر عقيدة الألفيَّة، والتي كان من أشهرها **The Scofield Reference Bible–الكتاب المقدس المرجعي** (١٩٠٩)، وهو مؤلَّف يتناول شرح عقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة، والنبوءات المستقبليَّة في الكتاب المقدَّس، والدور الذي تفرضه الحتميَّة القدريَّة على أمريكا في تأسيس مملكة الربِّ، دولة إسرائيل.

حرب كونيَّة في آخر الزمان تُظهر إسرائيل على سائر الأمم

من بين أهم العقائد التي تشكِّل الفكر الأمريكي المستقبلي الوعد بوقوع حرب كونيَّة، تدور رحاها على الأرض المقدَّسة، تهلك خلالها الأمم، عدا أتباع المسيح/المخلِّص، وهي معركة مجيدو. وإلى جانب ما ورد عن هذه المعركة في سفر رؤيا يوحنَّا اللاهوتي، يذكر سفر دانيال (إصحاح ٩) بعض تفاصيل المرحلة التي تقع فيها المعركة، مشيرًا إلى وقوع اليهود وقتها تحت سيطرة ملك شرِّير، يُطلق عليه "ضدُّ المسيح". سبقت الإشارة بالتفصيل، في الدراسة عن أصل عقيدة "المسيَّا المخلِّص" ما بين المصادر الإسلاميَّة والكتاب المقدَّس، إلى رؤيا السبعين أسبوعًا في سفر دانيال، والتي تفصِّل مستقبل بني إسرائيل منذ عودتهم من السبي البابلي وحتَّى ظهور المخلِّص، وتحدِّد سبعين أسبوعًا تفصل الفترتين. وبرغم تركيز الرؤيا على فترة وقعت بالفعل قبل ظهور المسيح يسوع بن يوسف، يعتقد اليهود والبروتستانت في انطباقها على الأحداث المصاحبة لظهور المخلِّص في آخر الأيَّام. في الأسبوع الأخير من تلك الفترة، يتسلَّط على اليهود فيها "ضدُّ المسيح" ويعمل على إهلاكهم، ولكن يظهر المخلِّص الحقيقي نهاية الأسبوع ليقضي عليه.

وتُعرف تلك الفترة بسنوات "المحنة الكبرى" (Tribulation Years)، وقد ورد ذكرها في العهد القديم، في سفر دانيال "**وَشَعْبُ رَئِيسٍ آتٍ يُخْرِبُ الْمَدِينَةَ وَالْقُدْسَ**، وَانْتِهَاؤُهُ بِغَمَارَةٍ، وَإِلَى النِّهَايَةِ حَرْبٌ وَخِرَبٌ قُضِيَ بِهَا. وَيُثَبِّتُ عَهْدًا مَعَ كَثِيرِينَ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ، **وَفِي وَسَطِ الأُسْبُوعِ** يُبَطِّلُ الذَّبِيحَةَ وَالتَّقْدِمَةَ، وَعَلَى جَنَاحِ الأَرْجَاسِ مُخَرَّبٌ حَتَّى يَتِمَّ وَيُصَبَّ الْمَقْضِيُّ عَلَى الْمُخَرِّبِ" (سفر دانيال: إصحاح ٩، آيتان ٢٦–٢٧)؛ أمَّا في العهد الجديد، فقد ذُكرت تلك الفترة في إنجيل متَّى "يَكُونُ حِينَئِذٍ **ضِيقٌ عَظِيمٌ** لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْعَالَمِ إِلَى الآنَ وَلَنْ يَكُونَ" (إنجيل متَّى: إصحاح ٢٤، آية ٢١). أمَّا عن وصف "ضدِّ المسيح" وأفعاله، فقد ذُكر ذلك في رسالة بولس الرَّسول الثانية لأهل تسالونيكي "يُسْتَعْلَنْ إِنْسَانُ الْخَطِيَّةِ، ابْنُ الْهَلاَكِ. الْمُقَاوِمُ وَالْمُرْتَفِعُ عَلَى كُلِّ مَا يُدْعَى إِلهًا أَوْ مَعْبُودًا، حَتَّى **إِنَّهُ يَجْلِسُ فِي هَيْكَلِ اللهِ كَإِلهٍ، مُظْهِرًا نَفْسَهُ أَنَّهُ إِلهٌ**" (رسالة تسالونيكي ٢: إصحاح ٢، آيتان ٣–٤)، مما يعني أنَّه مدَّعٍ للألوهيَّة، يدعو الناس لعبادته، وهذا ينطبق على الأعور الدجَّال. يأتي المخلِّص– المسيح بن يوسف عند المسيحيين والماشيح بن داود عن اليهود–ليقتل المسيح الكاذب، ويقهر قوى الشرِّ في معركة مجيدو، لتبدأ الألفيَّة الموعودة.

تفصِّل رؤيا يوحنَّا اللاهوتي هذه المرحلة، بدءًا بالاستعداد إلى معركة مجيدو "**جَمَعَهُمْ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُدْعَى بِالْعِبْرَانِيَّةِ «هَرْمَجَدُّونَ»**. ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ السَّابعُ جَامَهُ عَلَى الْهَوَاءِ، فَخَرَجَ صَوْتٌ عَظِيمٌ مِنْ هَيْكَلِ السَّمَاءِ مِنَ الْعَرْشِ قَائِلًا: «قَدْ تَمَّ!». فَحَدَثَتْ أَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَبُرُوقٌ. **وَحَدَثَتْ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ، لَمْ يَحْدُثْ مِثْلُهَا مُنْذُ صَارَ النَّاسُ عَلَى الأَرْضِ، زَلْزَلَةٌ بِمِقْدَارِهَا عَظِيمَةٌ هكَذَا**" (رؤيا يوحنَّا: إصحاح ١٦، آيات ١٦–١٨)، ومرورً بمجيء المخلِّص " ثُمَّ رَأَيْتُ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَإِذَا فَرَسٌ أَبْيَضُ وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ يُدْعَى أَمِينًا وَصَادِقًا، وَبِالْعَدْلِ يَحْكُمُ وَيُحَارِبُ. وَعَيْنَاهُ كَلَهِيبِ نَارٍ، وَعَلَى رَأْسِهِ تِيجَانٌ كَثِيرَةٌ، وَلَهُ اسْمٌ مَكْتُوبٌ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُهُ إِلاَّ هُوَ. وَهُوَ مُتَسَرْبِلٌ بِثَوْبٍ مَغْمُوسٍ بِدَمٍ، **وَيُدْعَى اسْمُهُ «كَلِمَةَ اللهِ»**" (رؤيا يوحنَّا: إصحاح ١٩، آيات ١١–١٣)، وانتهاءً بالقضاء على ضدِّ المسيح "**فَقُبِضَ عَلَى الْوَحْشِ وَالنَّبِيِّ الْكَذَّابِ مَعَهُ**، الصَّانِعِ قُدَّامَهُ الآيَاتِ الَّتِي بِهَا أَضَلَّ الَّذِينَ قَبِلُوا سِمَةَ الْوَحْشِ وَالَّذِينَ

سَجَدُوا لِصُورَتِهِ. وَطُرِحَ الاثْنَانِ حَيَّيْنِ إِلَى بُحَيْرَةِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ بِالْكِبْرِيتِ" (رؤيا يوحنَّا: إصحاح ١٩، آية ٢٠).

٥. أسباب التقارب بين اليمين المسيحي وإسرائيل

في مقال عنوانه "How Evangelicals Became Israel's Best Friend-كيف أصبح الإنجيليُّون أقرب أصدقاء إسرائيل" سبقت الإشارة إليه، نُشر عبر مجلَّة كريستيان توداي عام ١٩٩٨ ميلاديًّا، تزامنًا مع الذكري الخمسين لتأسيس دولة إسرائيل، يتناول تيموثي بي. ويبر، أستاذ تاريخ الكنيسة والدراسات اللاهوتيَّة في عدد من المعاهد الدينيَّة الأمريكيَّة، علاقة التواؤم بين الإنجيليِّين في أمريكا ودولة إسرائيل. يرى ويبر أنَّ التجربة أثبتت أنَّ أقرب أصدقاء إسرائيل هم أتباع الكنيسة الإنجيليَّة في أمريكا من المنتمين إلى اليمين المسيحي، وليس أدلُّ على ذلك أكثر من استجابة هذه الفئة بعينها لخطاب بنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء الإسرائيلي وقتها، في مؤتمر "أصوات متَّحدة من أجل إسرائيل"، وهو تحالف مناصر لإسرائيل يُعرف اليوم باسم "تحالف الوحدة من أجل إسرائيل"، في أبريل من عام ١٩٩٨ ميلاديًّا. وقد عبَّر نتنياهو عن مدى التقارب بين بلاده واليمين المسيحي في أمريكا بقوله "**ليس لدينا من الأصدقاء والحلفاء أكثر من الحاضرين في هذه القاعة**".

يشير ويبر إلى أنَّ التقارب بين إسرائيل والعديد من الإنجيليِّين الأمريكيِّين محيِّر، خاصَّة مع الدفاع المستميت للإنجيليِّين عن المصالح الإسرائيليَّة، على حساب حقوق الفلسطينيِّين. لا ينكر الكاتب أنَّ إسرائيل تحارب أعمال التبشير الإنجيليَّة على أرضها، وتقيِّد جهود المبشِّرين، لكنَّ ذلك لم يؤثِّر على سير العلاقات المثمرة بين الطرفين. أمَّا عن تفسير سرِّ ذلك التقارب الشديد، فلا يجد ويبر من التفسيرات أصدق من الإيمان بنبوءات الكتاب المقدَّس. تمثِّل إسرائيل مهد المسيح، فهناك وُلد وعاش، وهناك صُلب وقام؛ لهذا السبب، يقطع آلاف الإنجيليِّين المسافة الطويلة في رحلات حجٍّ إلى إسرائيل "كي يمشوا حيث مشى يسوع" (ص١). يعرف أتباع الكنيسة الإنجيليَّة من الكتاب المقدَّس أنَّ إسرائيل هي موقع انطلاق العديد من الأحداث المصاحبة للمجيء الثاني ليسوع، وأنَّهم وإسرائيل مكلَّفون بأداء

أدوار أسندها إليهم الربُّ لتنفيذ القدر المحتوم؛ ويجدر التذكير في هذا السياق بأنَّ الإيمان بعقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة هو العامل المؤثِّر في ترسيخ هذه الأفكار في عقول الإنجيليِّين.

أمَّا عن أهم المعتقدات المرتبطة بالتدبيريَّة الإلهيَّة فهي:

-بعد اجتماع شتات بني إسرائيل في الأرض المقدَّسة، ستأخذ الحضارة الإنسانيَّة في الانهيار؛ حيث ستنحدر الأخلاق، وتنتشر الجرائم والفوضى، وتتفكَّك الأُسر. مع انتشار الحروب، وتفشِّي الأوبئة، وتغيُّر المناخ، سينشق الكثيرون عن المسيحيَّة، كما سيتخلَّى زعماء دينيُّون عن المعتقدات التاريخيَّة.

-بعد حالة التمزُّق التي ستشهدها الكنيسة، سيظهر زعيم شديد التأثير، سيتزعَّم حلفًا من عشر دول من دول أوروبا الغربيَّة، وسيتلف حوله الكثيرون لما سيعد بتحقيقه من السلام والأمن. ستدخل إسرائيل في اتفاقيَّة أمنيَّة مع هذا الزعيم، جاهلةً بحقيقته، وهو أنَّه "ضدُّ المسيح" (Antichrist)، وستستفيد إسرائيل من هذه الاتفاقيَّة الأمنيَّة في إعادة بناء الهيكل. غير أنَّ هذا الزعيم الديني المدلِّس سينقض الاتفاقيَّة بعد ثلاثة أعوام ونصف، وسيعلن نفسه إلهًا، مضطهدًا كلَّ من يرفض عبادته. سيلقى اليهود في تلك الفترة بلاءً شديدًا؛ ولذلك تُعرف تلك الفترة، التي تمتد إلى ثلاثة أعوام ونصف، بـ "المحنة الكبرى".

-برغم ما سيمتلكه "ضدُّ المسيح" من قدرات خارقة، ستثور الأمم الأخرى عليه، وسيتزامن ذلك مع هجوم يشنُّه حلف شمالي من الدول الواقعة تحت سيطرة روسيا، على إسرائيل، بالتعاون مع حلف جنوبي، ليكون الهجوم مزدوجًا. تجتمع الجيوش الزاحفة من الشرق والغرب، وحينها يسعى الروس إلى تدمير إسرائيل، ولكنَّ الربَّ سيُهلكهم. سيواجه جيش "ضدِّ المسيح" معسكر "ملوك الشرق"، وسيتعارك الخصمان في مجيدو، وهو وادٍ يقع شمال غرب أورشليم. وبعد احتدام المعركة، سيظهر يسوع، باعتباره المسيَّا المخلِّص، ليُخضع جيش "ضدِّ المسيح"، ويقضى على القوى الباقية، وحينها سيقبل به اليهود مخلِّصًا، بعد أن رفضوه في مجيئه الأوَّل، لتبدأ ألفيَّة المسيَّا، وهي سنوات السلام والأمن والرخاء والمؤاخاة، التي سينعم فيها اليهود بالخلاص بعد إنجاز الربِّ وعوده لهم.

يشير ويبر إلى أنَّ القرن التاسع عشر قد شهد إحجام غالبيَّة الإنجيليِّين في أمريكا وبريطانيا، عن الاعتقاد في عودة اليهود إلى الأرض المقدَّسة، واستعادتهم عهدهم مع الربِّ، بعد أن حلَّ غضبه عليهم لكفرهم بيسوع الناصري. ويرجع السبب في ذلك إلى انتشار عقيدة الاستبداليَّة (Supersessionism)، والتي تؤمن بأنَّ الربَّ قد استبدل اليهود بالمسيحيِّين، بأن اختصَّهم بعهده، ليكونوا رعاة الأمم وحفظة الشريعة والهداة إلى دينه. وفق عقيدة الاستبداليَّة، أصبحت الكنيسة إسرائيل الجديدة، وورثت نبوءات الكتاب المقدَّس. خالف المؤمنون بالتدبيريَّة الإلهيَّة هذا الرأي، وسعوا لإيجاد دليل على عودة اليهود إلى الأرض المقدَّسة. من هنا، تأسَّست بعض المستعمرات الزراعيَّة على الأرض المقدَّسة أواخر القرن التاسع عشر، وكان للمبشِّرين الإنجيليِّين دورٌ بارز في التشجيع على تأسيس تلك المستعمرات، وتزامن ذلك مع نشأة الحركة الصهيونيَّة، في أمريكا قبل أوروبا.

لم يبذل من المؤمنين بالتدبيريَّة الإلهيَّة من الجهود الرامية إلى تأسيس وطن لليهود على الأرض المقدَّسة أكثر من وليام بلاكستون، القس الميثودي صاحب كتاب **Jesus is Coming–يسوع قادم** (١٨٧٨)، الذي تُرجم إلى ٤٢ لغة. في عام ١٨٩١ ميلاديًّا، وبعد عودته من المستعمرات اليهوديَّة الجديدة في فلسطين، رفع بلاكستون عريضة تطالب بتأسيس دولة يهوديَّة على أرض فلسطين، ونجح في جمع ٤١٣ توقيعًا لشخصيَّات بارزة في عالم السياسة والقضاء في أمريكا، من بينها رئيس المحكمة العليا، ورئيس مجلس النوَّاب، وعُمد نيويورك وشيكاغو وبوسطن، إلى جانب أباطرة البزنس. سارت الأمور كما أراد المناصرون لقضيَّة اليهود، وجاء انهيار الدولة العثمانيَّة بعد هزيمتها في الحرب العالميَّة الأولى بمزيد من النفع. غير أنَّ أمرًا وقع أثار الشكوك حول نزاهة اليهود، وهو انتشار حالة من الاعتقاد في صحَّة المؤامرة المنسوبة إلى اليهود، بتخطيطهم للسيطرة على العالم بعد إسقاط الحضارة المسيحيَّة، وفق ما ورد في **بروتوكولات حكماء صهيون**. حدث انشقاق في صفِّ المؤمنين بعقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة، بأن أيَّد بعضهم صحَّة البروتوكولات، بينما رأى بعض آخر فيها معاداة للساميَّة وترويج للدعاية النازيَّة.

يشير ويبر إلى جانب مظلم في عقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة تمخَّضت عنه العقائد المتعلِّقة بدور اليهود المعقَّد في النبوءة. صحيح أنَّ اليهود هم الشعب المختار، وورثة عهد الربِّ، ولكن يهود اليوم تحت سيطرة الشيطان، ويشاركون في انهيار الحضارة. اعترض المؤمنون بالتدبيريَّة الإلهيَّة على اضطهاد اليهود، خاصَّة بعد المحرقة النازيَّة (The Holocaust)، لكنَّهم رأوا أنَّ هتلر النازي كان سيفًا من سيوف القدر، سُلِّط على اليهود، كما سُلِّط عليهم من قبل البابليُّون والرُّومان. لم يجد الإنجيليُّون لمساندة اليهود في تلك المحنة، أفضل من إرسال نُسخ العهد الجديد، آملين أن يجد اليهود في يسوع معزِّيًا لهم في تلك المحنة. لم تستمر مرحلة ضعف اليهود طويلًا؛ فقد أسفرت الحرب العالميَّة الثانية عن تضاعُف نفوذهم، ونجحوا في إقناع العالم الغربي بضرورة تأسيس دولة تجمعهم. تأسَّست إسرائيل بالفعل في ١٤ مايو من عام ١٩٤٨ ميلاديًّا، وانضمَّت رسميًّا إلى الأمم المتَّحدة في مايو من العام التالي. أمام التحقُّق المتواصل لنبوءات الكتاب المقدَّس، لم يهتم الإنجيليُّون بحقوق الفلسطينيِّين، خاصَّة بعد أن رأوا في تأسيس دولة إسرائيل بداية نهاية العهد الحالي. غير أنَّ أمرًا ظلَّ يؤرق الإنجيليِّين، وهو أنَّ الدولة الناشئة لم تشغل سوى مساحة محدودة من مساحة دولة إسرائيل المذكورة في الكتاب المقدَّس. من هنا، أيَّد الإنجيليُّون أيَّ حملة استهدفت توسيع مساحة أراضي إسرائيل، ويدخل في ذلك احتلال سيناء خلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وحرب الأيَّام الستَّة عام ١٩٦٧ ميلاديًّا، التي منحت اليهود السيطرة على جبل الهيكل، ليصبح تأسيس الهيكل الثالث مسألة وقت.

شهدت علاقة إسرائيل بالإنجيليِّين تطوُّرًا كبيرًا خلال عقد السبعينات من القرن الماضي، وازداد الدعم الإنجيلي لإسرائيل مع ازدياد الضغوط عليها للتنازل عن بعض الأراضي لصالح جيرانها. وكلَّما تطوَّرت تلك العلاقة، ازداد الدعم السياسي للخطوات التصعيديَّة الإسرائيليَّة تجاه جيرانها. إلى جانب عقد المبشِّرين وعلماء اللاهوت الإنجيليِّين المؤتمرات في إسرائيل لتقريب وجهات النظر وتكاتُف الجهود، عمد بعضهم إلى نشر مؤلَّفات تعبِّر عن العقيدة المحرِّكة للسياسات الإسرائيليَّة، ومن نماذج تلك المؤلَّفات كتاب **The Late Great Planet Earth–كوكب الأرض العظيم المتأخر** (١٩٧٠) لعالم اللاهوت هال ليندسي.

أصبح هذا المؤلَّف الأعلى مبيعًا خلال عقد السبعينات، بفضل شرحه الوافي لعقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة بما يتناسب مع عقليَّة المسيحي المعاصر، من خلال ربط الأشخاص والرموز بالأحداث الجارية. ادَّعى ليندسي أنَّ المقصود في النبوءات بالإمبراطوريَّة الرومانيَّة التي يحييها "ضدُّ المسيح" السوق الأوروبيَّة المشتركة؛ والحلف الشمالي هو الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقيَّة؛ والحلف الجنوبي هو تحالُف عربي–إفريقي بزعامة مصر؛ أمَّا ملوك الشرق، فهم الشيوعيُّون الصينيُّون. تنبَّأ ليندسي أن تنحدر أمريكا من مركز القمَّة قبل زمن "ضدِّ المسيح"، لتصبح قوَّة أدنى مرتبةً؛ بسبب هيمنة الماديَّات على الحياة المعاصرة وانتشار الانحلال الأخلاقي. يُذكر أنَّ ليندسي عبَّر في كتاب **The 1980s: Countdown to Armageddon–الثمانينات: العد التنازلي لمعرجة مجيدو** (١٩٨٢) عن استيائه من التردِّي الأخلاقي في أمريكا، معتقدًا أنَّ بإمكان الأمريكيِّين تدارُك الأمر، وتفادي الانزلاق إلى مرتبة أدنى من القوَّة، من خلال التحرُّك السريع للتصدي لجهود فئة من المتآمرين، يأتي الليبراليُّون على رأسها.

قدَّم الإنجيليُّون إلى إسرائيل كلَّ ما كانت تحتاج إليه، وأثبتوا أنَّهم داعم مخلص ونافع. لم تكن الحكومة الإسرائيليَّة في السابق تولي بدعم الإدارة الأمريكيَّة أو الجالية اليهوديَّة ثقةً كاملةً، لكنَّها ما كانت لتشكَّ في دعم الإنجيليِّين. صحيح أنَّ هناك اختلافات مذهبيَّة، يأتي على رأسها اعتقاد الإنجيليِّين بأنَّ اليهود يحتاجون التحوُّل إلى المسيحيَّة والإيمان بيسوع مخلِّصًا، ولكن هذا الاختلاف لم يمنع المنظَّمات الإنجيليَّة من التفاهم مع أصحاب المذاهب المخالِفة في الأمور ذات الاهتمام المشترك.

THANKS TO EVANGELICALS: ISRAEL TO DEVELOP 24 BIBLICAL SITES IN JUDEA-SAMARIA

By David Sidman **November 18, 2019 , 10:04 am**

Israel has presented senior officials of the Trump administration a proposal to develop up to twenty-four major Biblical tourism sites in Judea and Samaria. The sites will feature a focus on Evangelical Christian tourism, Likud MK and former Jerusalem mayor Nir Barkat is the plan's architect, reports **TOI**.

هذا وقد نشر موقع Breaking Israel News، أو أخبار إسرائيل العاجلة، بتاريخ ١٨ نوفمبر ٢٠١٩ ميلاديًّا، أنَّ بفضل تدخُّل الإنجيليِّين، تسعى إسرائيل إلى تأسيس ٢٤ موقعًا للسياحة الدِّينيَّة مذكورة في الكتاب المقدَّس، وقد تقدَّم مسؤولون إسرائيليُّون إلى كبار ممثلي الولايات المتَّحدة المختصَّين بذلك طلبًا رسميًّا، مشيرين إلى أنَّ الهدف من ذلك المشروع "التركيز على السياحة الصهيونيَّة المسيحيَّة".

٦. تأثير عقيدة "معركة مجيدو" على سياسة اليمين المسيحي

تنضم هذه الدراسة، وعنوانها " Swords into Ploughshares: Christian Zionism and the Battle of Armageddon–يَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا": الصهيونيَّة المسيحيَّة ومعركة مجيدو"، إلى الجهود البحثيَّة للسفارة المسيحيَّة العالميَّة في القدس (ICEJ)، وعي منظَّمة صهيونيَّة مسيحيَّة، التي تستهدف حشد الدعم لدولة إسرائيل، التي "لم تزل تصارع من أجل الشرعيَّة والأمن، في وسط مجموعة من التحدِّيات السياسيَّة والأخلاقيَّة والوجوديَّة المريعة"، كما يذكر الكاتب في المقدِّمة. يتأسَّف الكاتب على "مأساة المحرقة" اليهوديَّة قد تحوَّلت إلى سلاح يُحارب به اليهود، بتشبيه معاناة الفلسطينيين على أيديهم بمعاناتهم على أيدي النازيين؛ كما يتأسَّف على ما يلاقيه داعمو إسرائيل من انتقادات عبر وسائل الإعلام، التي تتهمهم بإعاقة السلام في الشرق الأوسط، وبالسعي إلى التعجيل بنبوءات آخر الزمان. يوضح الكاتب أنَّ دعم منظَّمات الصهيونيَّة المسيحيَّة لإسرائيل دافعه أخلاقي وديني، وأنَّ دعم اليمين المسيحي لتلك القضيَّة ليس سياسي، إنَّما هو نابع من عقيدة دينيَّة، أصلها "نبوءات الكتاب المقدَّس وحقائق العهد الجديد" (ص٢).

يوضح الكاتب أنَّ هذه الدراسة، المنشورة عبر موقع منظَّمة ICEJ، هي الأولى في سلسلة أطلق عليها Good Steward، أو الراعي الصالح، وهي تسمية مستمدَّة من الكتاب المقدَّس تشير إلى حُسن تدبير المسؤولين عن إدارة شؤون الناس. اختار الكاتب لدراسته عنوانًا فرعيًّا مقتبسًا من العهد القديم، وتحديدًا من سفري اشعياء (إصحاح ٢: آية ٤) وميخا (إصحاح ٤: آية ٣)؛ حيث اقتطعت عبارة "**يَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا**" من آيات تتناول فترة السلام العالمي بعد انتهاء معركة مجيدو، وجلوس المخلِّص على عرش أورشليم، ملكًا على

العالم: "يَكُونُ فِي آخِرِ الأَيَّامِ أَنَّ جَبَلَ بَيْتِ الرَّبِّ يَكُونُ ثَابِتًا فِي رَأْسِ الْجِبَالِ، وَيَرْتَفِعُ فَوْقَ التِّلاَلِ، وَتَجْرِي إِلَيْهِ كُلُّ الأُمَمِ. وَتَسِيرُ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ، وَيَقُولُونَ: «هَلُمَّ نَصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ، إِلَى بَيْتِ إِلهِ يَعْقُوبَ، فَيُعَلِّمَنَا مِنْ طُرُقِهِ وَنَسْلُكَ فِي سُبُلِهِ». لأَنَّهُ مِنْ صِهْيَوْنَ تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ، وَمِنْ أُورُشَلِيمَ كَلِمَةُ الرَّبِّ. فَيَقْضِي بَيْنَ الأُمَمِ وَيُنْصِفُ لِشُعُوبٍ كَثِيرِينَ، **فَيَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ. لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفًا، وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ**" (سفر اشعياء: إصحاح ٢، آيات ٢-٤). يضيف الكاتب أنَّ المنهج المتَّبع في هذه الدراسة لا يضع في اعتباره المخاوف المتصاعدة بشأن الصهيونيَّة السياسيَّة، إنَّما ينظر إلى اليهود باعتبارهم، والأرض المقدَّسة، مختارين من قِبل الربِّ، لتحقيق "خلاص العالم" (ص٣). من هنا، يرى الكاتب أنَّ في الدفاع عن مصالح إسرائيل دفاع عن مصلحة العالم بأسره.

معركة مجيدو في سياق المذكور في النبوءات

كما سبق الإشارة، يبدأ الحديث عن معركة مجيدو في الإصحاح ١٦ من سفر رؤيا يوحنَّا اللاهوتي، باعتبارها المواجهة الأخيرة بين الأمم المتمرِّدة بقيادة ضدِّ المسيح، والمسيح ذاته بعد مجيئه. وبرغم معرفة الجميع بسفر الرؤيا ونبوءاته، يعتقد الكاتب أنَّ الكثيرين قد يجهلون حقيقة أنَّ كاتبه، يوحنَّا الرَّسول، "يهودي"، وأنَّ ما ورد في هذا السفر، الذي يدرج ضمن أسفار العهد الجديد، ذُكر في العهد القديم في سياقات مختلفة. يضرب الكاتب المثل في ذلك بما ورد في سفر اشعياء "بَلْ يَقْضِي بِالْعَدْلِ لِلْمَسَاكِينِ، وَيَحْكُمُ بِالإِنْصَافِ لِبَائِسِي الأَرْضِ، **وَيَضْرِبُ الأَرْضَ بِقَضِيبِ فَمِهِ، وَيُمِيتُ الْمُنَافِقَ بِنَفْخَةِ شَفَتَيْهِ**" (إصحاح ١١: آية ٤)، يشابه في وصفه لبأس المخلِّص ما جاء في سفر الرؤيا في السياق ذاته "**وَمِنْ فَمِهِ يَخْرُجُ سَيْفٌ مَاضٍ لِكَيْ يَضْرِبَ بِهِ الأُمَمَ**. وَهُوَ سَيَرْعَاهُمْ بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ، وَهُوَ يَدُوسُ مَعْصَرَةَ خَمْرِ سَخَطِ وَغَضَبِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ" (إصحاح ١٩: آية ١٥). يمجِّد الكاتب السلام المبشَّر به في العهد القديم في عبارة "**يَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا**" (اشعياء: إصحاح ٢، آية ٤؛ ميخا: إصحاح ٤: آية ٣)، ويجد أنَّ من المفارقة أن تُكتب هذه العبارة على لوح جداري خارج مقرِّ الأمم المتَّحدة في مدينة نيويورك الأمريكيَّة، حيث يتعرَّض اليهود ومسؤولو إسرائيل إلى ما أسماه "المؤامرات والاحتقار الدائم" (ص٤). يتساءل الكاتب: "ألا يعلم هؤلاء (الدبلوماسيون

منتقدو إسرائيل) أنَّ اشعياء وميخا يعلنان عبر نفس العبارة أنَّ هذه الرؤية للسلام العالمي لن تتحقق إلَّا بعد أن يحاكم الربُّ الأمم على معاداتها لليهود المجتمعين من شتاتهم في أورشليم؟ لماذا لا يتَّهم أحدٌ الأمم المتَّحدة إذن بالسعي إلى استحضار معركة مجيدو؟ لماذا يتعرَّض الصهاينة المسيحيُّون وحدهم للذم؟" (ص٤).

تنمُّر إعلامي تجاه معركة مجيدو

يقول الكاتب أنَّ الإعلام بدأ في الآونة الأخيرة يتناول حركة الصهيونيَّة المسيحيَّة وكأنَّها حديثة الوجود، بينما هي تعود إلى قرون سبقت، وشهدت أوج تأثيرها مع إصدار وعد بلفور عام ١٩١٧ ميلاديًّا بتأسيس وطن قومي لليهود على الأرض المقدَّسة، واعتراف الرئيس ترومان عام ١٩٤٨ ميلاديًّا بدولة إسرائيل الناشئة. غير أنَّ التناول الإعلامي للصهيونيَّة المسيحيَّة يزداد عدائيَّة في السنوات الأخيرة، وكأنَّما يسعى إلى منح العامَّة صورة غير صحيحة عن عقائد الحركة ودوافعها؛ برغم استناد الاعتقاد في وقوع معركة مجيدو إلى عقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة، والإيمان باختصاص الربِّ أمريكا بدور محوري في تأسيس مملكته على الأرض المقدَّسة. يستند الكاتب في ذلك إلى العديد من الدراسات، التي ربَّما من أحدثها دراسة القس تيموثي ويبر تحت عنوان " How Evangelicals Became Israel's Best Friend –كيف أصبح الإنجيليُّون أصدقاء إسرائيل المقرَّبين" (١٩٩٨)، والتي اعتمدت بدورها على إسهامات سابقة لأشهر منظِّري الصهيونيَّة المسيحيَّة، سيروس سكوفيلد، وويليام بلاكستون، وجون نيلسون داربي.

لم يتوقَّف الانتقاد على الإعلام فحسب، بل امتدَّ إلى أشكال من التحالفات المناوئة للفكر الصهيوني، من بينها ما نشأ بين رجال دين مسيحيين عرب ومنشقِّين عن حركة الصهيونيَّة المسيحيَّة، تحت مسمَّى الدفاع عن القضيَّة الفلسطينيَّة، من خلال تحريف الحقائق، والنيل من معتقدات الحركة، والاستخفاف بأهدافها. بدأ تعاطُف الكنيسة البروتستانتيَّة تجاه القضيَّة الفلسطينيَّة في أعقاب حرب الأيَّام الستَّة، عام ١٩٦٧ ميلاديًّا، و "دخول" اليهود، لتقل احتلالهم، ما أطلق عليه الكاتب "يهودا/السامرة"، مشيرًا بذلك إلى الضفَّة الغربيَّة، وإلى غزَّة.

بُذلت جهود جديَّة في توفير وسائل للتواصل بين كنائس الشرق الأوسط والكنائس الغربيَّة المناصرة للقضيَّة الفلسطينيَّة. يعتبر الكاتب أنَّ من أحدث فعاليات هذا التحالف "العربي/المسيحي/البروتستانتي/الإنجيلي" في مواجهة الصهيونيَّة المسيحيَّة، المؤتمر الدولي الخامس الذي عقده مركز السبيل المسكوني للاهوت التحرر في القدس، في الفترة ما بين ١٤ و١٨ أبريل من عام ٢٠٠٤ (ص١١). وكان من أهم دوافع عقْد المؤتمر "مواجهة الصهيونيَّة المسيحيَّة"، واختُتم بتقريع حاد لـ "تعاليمها المهرطقة". وجاء في البيان الصحافي لمؤتمر مركز سبيل لعام ٢٠٠٤ "تصبُ الصهيونيَّة المسيحيَّة تركيزها على أحداث نهاية العالم المؤدِّية إلى نهاية التاريخ البشري، بدلًا من العي في ظلِّ حُب المسيح وعدله اليوم...نرفض رفضًا قاطعًا عقائد الصهيونيَّة المسيحيَّة، بوصفها تعاليم خاطئة تقوّض رسالة الحبِّ والرحمة والعدل للكتاب المقدَّس". يضيف بيان المؤتمر أنَّ من أسباب رفض تعاليم الصهيونيَّة المسيحيَّة تشجيعها السياسات الأمريكيَّة والإسرائيليَّة "المتشدِّدة"، التي تقدِّم شكلًا من "الإقصاء الراديكالي والحرب الدائمة"، بدلًا من تعاليم المحبَّة ونشر السلام والتفاهم بين الناس، التي هي صحيح رسالة المسيح.

يبدو أنَّ النشاط المناوئ للصهيونيَّة المسيحيَّة قد امتدَّ إلى الكنيسة المشيخيَّة الأمريكيَّة ذاتها، والتي اعتمدت في اجتماعها العام، في يوليو من عام ٢٠٠٤ ميلاديًّا، قرارًا يلزمها بمعارضة الصهيونيَّة المسيحيَّة. وتتنوَّع أنشطة المعارضين لأعمال اليمين المسيحي في أمريكا، وقد أسَّس هؤلاء مجموعة من المنظَّمات ونُظُم الدَّعم، ساعين إلى الوصول إلى أبرز الشخصيَّات، في سبيل خدمة قضيَّتهم. ومن بين الجهود المثمرة لمعارضي الصهيونيَّة المسيحيَّة جمع توقيعات من ٥٩ من الشخصيَّات الهامة من أتباع الكنيسة الإنجيليَّة، من بينهم علماء لاهوت وقساوسة وأساتذة جامعيين، على خطاب وُجِّه في يوليو من عام ٢٠٠٢ ميلاديًّا إلى الرئيس جورج دابليو بوش، يحثُّه على اتِّباع سياسة عادلة في التعامل مع الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، وكذلك على إدراك أنَّ عددًا ليس بالهيِّن من الإنجيليِّين الأمريكيِّين يرفضون تحريف البعض آيات الكتاب المقدَّس لدعم كلِّ سياسة وفعل للحكومة الإسرائيليَّة، بما لا يقبل النقد.

عهد الربِّ لأبراهام محور عقيدة الصهيونيَّة المسيحيَّة

كما سبقت الإشارة، يشكِّل عهد الربِّ لأبراهام، الأب المؤسس، آنف الذِّكر (سفر التكوين: إصحاح ١٢، آيات ١-٣)، الأساس لعقيدة الصهيونيَّة المسيحيَّة، ويعتبر الكاتب أنَّ هذا العهد، والمعروف بـ "عهد الرحمة"، بمثابة "قرار من الربِّ بالخلاص للناس" (ص٢٠). يتكوَّن هذا العهد من شقَّين: الناس والأرض؛ أمَّا عن الشقِّ الأوَّل، فهو قرار الربِّ بتخليص البشر من خطاياهم من خلال مباركتهم أبراهام ونسله؛ وأمَّا عن الثاني، فهو مرتبط بأرض كنعان، التي وهبها الربُّ لأبراهام ونسله. يعني ذلك أنَّ اصطفاء الربِّ لأبراهام مرتبط باصطفائه للأرض، مما يعني أنَّ التخلِّي عن أحد الشقَّين يستتبع التخلِّي عن الآخر. **بعبارة أوضح، إنكار أحقِّيَّة نسل أبراهام في أرض كنعان يعني الحرمان من الخلاص**. يُذكر أنَّ الحديث عن هذا العهد تكرَّر في الكتاب المقدَّس بعهديه؛ فإلى جانب سفر التكوين، ذُكر العهد في سفر التثنية (إصحاح ١: آية ٨)، وسفر يشوع (إصحاح ٢٤: آية ٣)، وسفر أخبار الأيَّام ١ (إصحاح ١٦: آيات ١٣-٢٢)، ومزمور ١٠٥ (آيات ٦-١٥)، وسفر ارميا (إصحاح ٣٣: آيتان ٢٥-٢٦)، وإنجيل لوقا (إصحاح ١: آيات ٦٨-٧٩)، وسفر أعمال الرُّسُل (إصحاح ٧: آيات ١-٨)، وسفر العبرانيين (إصحاح ٦: آيات ١٣-٢٢). تشير النصوص آنفة الذِّكر في الكتاب المقدَّس إلى العهد الأبدي الذي قطعه الربُّ لأبراهام وذريَّته بمُلك متعاقب على الأرض المقدَّسة، وإن كان هناك اعتراف بأنَّ الأرض مِلك للربِّ، وبأنَّه يمكنه إخراج بني إسرائيل منها في حالة العصيان، كما ذُكر في سفر حزقيال (إصحاح ١١: آيات ٧-١٢)، وفي حالة التمرُّد، كما جاء في سفر التثنية (إصحاح ٢٨: آيات ٦٣-٦٨)، وسفر حزقيال (إصحاح ٥: آيات ٧-١٧).

ويرى الكاتب أنَّ إسرائيل جعلها الربُّ "نورًا للأمم"، وأوكل إليها مهمَّة تخريج أسباب الخلاص للبشريَّة، وهذا يستدعي بعض المعاناة في سبيل تحقيق هذا الهدف، خاصَّة وأنَّ الشيطان- عدو الربِّ في الكتاب المقدَّس-يجتهد في إعاقة وصول بني آدم إلى الخلاص. تلا عهد الربِّ لأبراهام عهدان آخران لجيلين لاحقين من نسله: عهد الربِّ إلى موسى، وعهده إلى داود. أمَّا عن العهد الموسوي، أدان البشريَّة على إثمها، مما استلزم عصمة يسوع من الآثام

في حياته لكي يفي بمتطلَّبات الشريعة، ويخلِّص البشريَّة من اللعن (رسالة بولس لأهل روميَّة: إصحاح ٢، آية ٢٩؛ رسالة أهل كولوسي: إصحاح ٢، آية ١١). في حين نصَّ عهد الربِّ لداود على احتفاظ داود وذريَّته بمُلك أبدي على الأرض المقدَّسة، وبالسلطة الدينيَّة كذلك، ويتحقق ذلك في فرد من نسله يكون الوسيط بين الربِّ والبشر، وقد تحقق ذلك في يسوع، الذي أطاع ربَّه، حتَّى في صلبه على خشبة وموته ميتة مهينة. بهذه الطاعة، استحق يسوع أن يصير "الراعي الصالح" للأمم، ومحاكمها جميعها يوم الدينونة (مزمور ١١٠؛ رسالة بولس لأهل أفسس: إصحاح ١، آيات ١٥–٢٣؛ رسالة بولس لأهل فيلبي: إصحاح ٢، آيات ٥–١١؛ رسالة العبرانيين: إصحاح ٥، آيات ٥–١٠).

يوضح الكاتب أنَّ عهد الربِّ لأبراهام لم يكن فقط بذريَّة تبارك الأمم، إنَّما كذلك بأرض تكون محل الهداية والخلاص، مضيفًا أنَّ المجيء الأوَّل ليسوع، باعتباره المخلِّص لدي المسيحيِّين، كفل الشقَّ الأوَّل من العهد–الخلاص يكون بالالتحام الروحي بيسوع–وسيكفل مجيئه الثاني الشقَّ الثاني، وهو تأسيس مملكة الربِّ على الأرض المقدَّسة. يجدر التذكير بأنَّ بني إسرائيل طُردوا من الأرض المقدَّسة مرَّتين، الأولى على يد نبوخذ نصَّر عام ٥٨٦ قبل الميلاد، والثانية على يد قوَّات القائد الروماني تيطس عام ٧٠ ميلاديًّا. يعد الربُّ بعودة أخيرة لبني إسرائيل إلى الأرض المقدَّسة، ويستتبع تلك العودة مجيء المخلِّص، ولكن بشرط الإيمان والإخلاص في التوبة، كما ذُكر في "يَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ السَّيِّدَ يُعِيدُ يَدَهُ ثَانِيَةً **لِيَقْتَنِيَ بَقِيَّةَ شَعْبِهِ**، الَّتِي بَقِيَتْ، مِنْ أَشُّورَ، وَمِنْ مِصْرَ، وَمِنْ فَتْرُوسَ، وَمِنْ كُوشَ، وَمِنْ عِيلاَمَ، وَمِنْ شِنْعَارَ، وَمِنْ حَمَاةَ، وَمِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ" (سفر اشعياء: إصحاح ١١، آية ١١)، وفي "يَقُولُ الرَّبُّ، وَلاَ يُقَالُ بَعْدُ: حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَصْعَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. بَلْ حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَصْعَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ الشِّمَالِ وَمِنْ جَمِيعِ الأَرَاضِي الَّتِي طَرَدَهُمْ إِلَيْهَا. **فَأُرْجِعُهُمْ إِلَى أَرْضِهِمِ الَّتِي أَعْطَيْتُ آبَاءَهُمْ إِيَّاهَا**" (سفر دانيال: إصحاح ١٦، آيتان ١٤–١٥).

أهم نتائج خرج بها الكاتب:

١-تشير عقائد الصهيونيَّة المسيحيَّة، وعلى رأسها الحتميَّة القدريَّة، إلى أنَّ الكنيسة حلَّت محلَّ دولة إسرائيل في كفالة الخلاص للأمم، ولكن ستأتي مرحلة تسبق سنوات محنة اليهود (Tribulation Years)، يتحوَّل فيها اهتمام الربِّ من الكنيسة إلى دولة إسرائيل؛ لكي تعاود مباشرة دورها في تحقيق الخلاص للبشريَّة.

٢-ينبغي أن يستند الدَّعم الكنسي لإسرائيل إلى "صهيونيَّة الكتاب المقدَّس"، التي تقوم على عقيدة العهد، والإيمان بأنَّ الخلاص مرهون بمباركة أبراهام وذريَّته؛ والعهد من شقَّين، أحدهما مرتبط بالخلاص، والآخر متعلِّق بميراث الأرض المقدَّسة في تلك الذريَّة الواجب مباركتها. يوضع في الحسبان في هذا السياق، أنَّ يسوع قد حقَّق الخلاص بمجيئه الأوَّل، وتتبغي عودة بني إسرائيل إلى الأرض المقدَّسة، ليؤسس يسوع في مجيئه الثاني مملكة الربِّ؛ فتنعم البشريَّة بالسلام والرخاء في ظلِّ حُكمه ألف عام.

٣-لا يمكن أن يكون للصهيونيَّة المسيحيَّة أجندة خفيَّة تسعى إلى إشعال معركة مجيدو؛ فهي معركة يتنبَّأ بها سفر رؤيا يوحنَّا اللاهوتي، وتُعتبر آخر محاولة للتمرُّد البشري على الربِّ.

٤-من المتوقَّع أن يهلك ثلثا اليهود في سنوات المحنة، وسيبقى الثلث الأخير لإعلاء كلمة الربِّ. لا يستدعي ذلك من اليهود الجزع، إنَّما الصبر والجلد، موقنين بأنَّ شقاءهم سيزول مع مجيء المخلِّص، الذي سيكون كما وعد الرب، ماحيًا للخطايا، ورابطًا على القلوب، وملكًا عادلًا.

٧.الفكر الصهيوني (المسيحي) وتبرير الاستعمار الغربي/الاحتلال الإسرائيلي

يتضمَّن كتاب **The Bible, Zionism, and Palestine–الكتاب المقدَّس والصهيونيَّة وفلسطين** (٢٠١٦)، مجموعة من المقالات، شارك بها متخصِّصون في الدراسات اللاهوتيَّة والسياسيَّة، يتبعون عدَّة جامعات بريطانيَّة. يشير محرِّر الكتاب، مايكل جي. سانفورد، وهو أستاذ في دراسات الكتاب المقدَّس في جامعة شفيلد البريطانيَّة، إلى أنَّ

الدافع الأساسي وراء تقديم هذا المؤلَّف هو ما أظهرته نتائج مؤتمر حمل نفس عنوان الكتاب، عُقد في الفترة ما بين ٢٤ و٢٦ مايو من عام ٢٠١٢ ميلاديًّا، عن وجود حاجة إلى عقد نقاش بين العلاقة بين عقيدة "الأرض المقدَّسة" والسياسة العالميَّة. تقدِّم المقالات دراسات عن نواحٍ لم تلقَ الاهتمام الكافي من الباحثين فيما يتعلَّق بالصهيونيَّة من مختلف جوانبها، خاصَّة مع الاستدلال بما ورد في الكتاب المقدَّس على صحَّة بعض العقائد المبرِّرة للجهود اليهوديَّة لتأسيس مملكة الربِّ على الأرض المقدَّسة.

يتناول الدكتور مارك فيني، وهو محاضر في مجال دراسات الكتاب المقدَّس في جامعة شفيلد، ومهتم بدراسة الأساس الديني للصراع في الشرق الأوسط، في مقال عنوانه "Christian Zionism, the US, and the Middle East–الصهيونيَّة المسيحيَّة، والولايات المتَّحدة، والشرق الأوسط"، تقارب العلاقات الأمريكيَّة–الإسرائيليَّة في هذه الآونة. يتساءل فيني عن سرِّ الدعم الأمريكي لإسرائيل، على المستوى العسكري والاقتصادي والسياسي، والذي يدفع أمريكا إلى الاعتراض على أيِّ قرار أممي يهدِّد المصالح الإسرائيليَّة، برغم أنَّ أمريكا لا تجني الكثير من هذا الدعم. تمدُّ أمريكا حليفها اليهودي بأحدث المعدَّات اللازمة للأغراض الاستخباراتيَّة والحربيَّة، وكأنَّما أرادت أن تقول للعالم أنَّ ما يمسُّ أمن إسرائيل القومي يمسُّ أمن أمريكا ذاتها، كما تصبُّ في اقتصاده مليارات الدولارات. وبسبب هذا التقارب مع إسرائيل، وقعت أمريكا في مأزق يصعب الخروج منه، وهو تحقيق المعادلة الصعبة، بكسب ثقة العالم الإسلامي، مع ضمان تحقُّق المصالح الإسرائيليَّة على حساب تأسيس دولة فلسطينيَّة. لا يجد الباحث تفسيرًا لهذا التقارب الشديد، الذي كلَّف أمريكا الكثير، سوى بممارسة الصهيونيَّة المسيحيَّة تأثيرًا قويًّا على العقليَّة الأمريكيَّة عبر القرون القليلة الماضية، أي منذ هجرة الطهوريِّين إلى العالم الجديد في القرن السابع عشر، وهذا ما يتناوله بالتفصيل.

يذكِّرنا مايكل فيني بأنَّ هجرة أتباع الحركة الطهوريَّة، المنبثقة عن المذهب البروتستانتي شديد التمسُّك بعقائد العهد القديم، كان لها الأثر الأكبر في تشكيل سياسة الدولة الأمريكيَّة الناشئة، في القرن الثامن عشر للميلاد. هجر الطهوريُّون العلمانيَّة في بلادهم، وآثروا العودة

إلى أصول الدين، ورأوا في أنفسهم شعبًا مختارًا، تمامًا مثل بني إسرائيل لمَّا خرجوا من مصر وعبروا البحر إلى الأرض المقدَّسة. كان جون آدامز، ثاني رؤساء أمريكا (١٧٩٧-١٨٠١)، أوَّل من نادى بعودة بني إسرائيل إلى الأرض المقدَّسة، في تأكيد منه على إيمانه بعقيدة تأسيس مملكة الربِّ في آخر الزمان، ليحكم منها المخلِّص العالم. استطاع الصهاينة الأمريكيُّون عام ١٨٩١ ميلاديًّا، استمالة المئات من صفوة العاملين في مجال البزنس والسياسة، لإقناع الرئيس الأمريكي بنجامين هاريسون للضغط على الدولة العثمانيَّة للسماح لليهود بالعودة إلى فلسطين، وكان الدور الأكبر في ذلك للإنجيلي الأصولي وليام بلاكستون، أب الصهيونيَّة، كما يراه بعض المؤرِّخين.

بعد سقوط الدولة العثمانيَّة عام ١٩٢٢ ميلاديًّا، قررت عصبة الأمم-نواة منظَّمة الأمم المتَّحدة-وضع فلسطين بالأراضي الواقعة تحت الانتداب البريطاني، وباركت أمريكا القرار، برغم عدم انضمامها إلى دول عصبة الأمم، فيما عُرف بـ "الاتفاق الأنجلو-أمريكي بشأن فلسطين"، الصادر عام ١٩٢٤ ميلاديًّا. جاء هذا الاتفاق نتيجة لضغوط العاملين في مجال البزنس في أمريكا، ممَّن أرادوا حصَّة في الفرص التجاريَّة في الأراضي الواقعة تحت الانتداب البريطاني في الشرق الأوسط. لم يدَّخر الصهاينة الأمريكيُّون، خلال عقدي الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي، جهدًا من أجل حشد دعم رجال الدين والسياسة لقضيَّتهم. وفق ما ورد في كتاب **The Politics of Christian Zionism, 1891-1948-سياسات الصهيونيَّة المسيحيَّة، ١٨٩١-١٩٤٨** (١٩٩٨) لبول تشارلز مركلي، تأسَّست عام ١٩٣٢ ميلاديًّا، لجنة فلسطين الأمريكيَّة (The American Palestine Committee-APC)، مطالبة باستعادة اليهود ميراثهم التاريخي للأرض المقدَّسة؛ وقد انضمَّ إلى تلك اللجنة خلال عشر سنوات العشرات من أعضاء البرلمان، والمشرِّعين، والكُتَّاب، والمعلِّمين. لم يتوقَّف نشاط الصهاينة المسيحيِّين عند ذلك الحدِّ؛ فقد أسَّس فريق منهم المجلس المسيحي بشأن فلسطين (CCP-Christian Council on Palestine) عام ١٩٤٢ ميلاديًّا، بهدف اجتذاب رجال الدين إلى حركتهم. في العام ذاته، عَقَد مجموعة من الصهاينة المسيحيِّين مؤتمرًا في فندق بالتيمور في مدينة نيويورك، اختُتم بالإعلان عن

ضرورة تأسيس دولة يهوديَّة في فلسطين، بإجماع المشاركين. عُرف هذا الإعلان لاحقًا بـ "برنامج بالتيمور"، وقد نشأت عنه حركة مؤيِّدة للمطالبات الصهيونيَّة بدولة يهوديَّة تستعيد الميراث الموعود، وقد انضمَّ إليها سياسيُّون بارزون من الحزبين الجمهوري والديموقراطي، من بينهم هاري ترومان، الذي صار رئيسًا لأمريكا (١٩٤٥-١٩٥٣)، وقد شهدت رئاسته تأسيس إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ ميلاديًّا، بعد قرار الأمم المتَّحدة بتقسيم فلسطين الصادر في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ميلاديًّا، وكان ترومان من أوائل المعترفين بالدولة الإسرائيليَّة الناشئة.

أسفرت الاضطرابات الاجتماعيَّة داخل أمريكا، في ستينات وسبعينات القرن الماضي، عن صحوة دينيَّة في اتجاه المسيحيَّة المحافظة والأصوليَّة، خشية الانحدار الأخلاقي. كما سبقت الإشارة، لم يعد السياسيُّون الأمريكيُّون يخشون التصريح بانتماءاتهم الدينيَّة، وقد تقدَّم إلى مقعد الرئاسة عددٌ من المنتمين إلى التيَّار الأصولي، من بينهم جيمي كارتر، ورونالد ريجان. يشير مارك فيني إلى أنَّ ريجان جعل ضمن أولويَّاته تأسيس جيش على أتمِّ استعداد لمعركة مجيدو، بدفع من التعاليم الدينيَّة التي تلقَّاها عن أشهر المبشِّرين الإنجيليِّين، على رأسهم جيري فالويل وبات روبرتسون. وقد ذكر عضو بارز في اللوبي الإسرائيلي في أمريكا، وفق ما نشرته صحيفة واشنطن بوست الأمريكيَّة، بتاريخ ١٤ أبريل ١٩٨٤ ميلاديًّا، في مقال تحت عنوان "Does Regan Expect a Nuclear Armageddon?-هل يتوقَّع ريجان معركة مجيدو نوويَّة؟"، أنَّ الرئيس الأسبق والنائب العام في إدارته كانا يدعوان كي تندلع معركة مجيدو، مما يعكس دور النبوءات الدينيَّة في تشكيل السياسات الأمريكيَّة، وبخاصَّة ما يتعلَّق منها بالشرق الأوسط.

تراجَع دعم الليبراليِّين الأمريكيِّين لإسرائيل في أعقاب عدوانها على الدول المجاورة في ٥ يونيو من عام ١٩٦٧ ميلاديًّا-حرب الأيَّام الستَّة-بينما ازداد دعم المحافظين، المستندين في توجُّهاتهم السياسيَّة إلى نبوءات الكتاب المقدَّس عن آخر الزمان، والذين تعتبر عقيدة تأسيس مملكة الربِّ على جبل صهيون من أهم العقائد المكوِّنة لفكرهم. أسهم التقدُّم شديد السرعة لإسرائيل في زحفها الاستيطاني، وانتصارها المذهل على العرب عام ١٩٦٧ ميلاديًّا، في

حشد مزيد من التأييد لسياساتها بين الأمريكيِّين، ممَّن رأوا أنَّ موقع الهيكل صار في أيدي اليهود، بعد احتلالهم البلدة القديمة في القُدس. وأصبح الشعور بقرب نهاية الزمان، وحلول مملكة الربِّ، من أهم محفِّزات الصحوة الدينيَّة في أمريكا، ويثبت ذلك المبيعات الهائلة التي حققتها مؤلَّفات تتناول أحداث آخر الزمان. ولا شكَّ في أنَّ الإيمان بمعتقدات الصهيونيَّة المسيحيَّة لعب دورًا كبيرًا في الدعم المتواصل للإدارات الأمريكيَّة المتعاقبة للجانب الإسرائيلي، في الصراع الدائر في فلسطين. يتجلَّى ذلك في تغاضي البيت الأبيض عن النشاط الاستيطاني الإسرائيلي في الضفَّة الغربيَّة، ويطبِّق الإسرائيليُّون مبدأ انتهاز الفرص والتحايل حتَّى تحقيق الأهداف بغضِّ النظر عن ردِّ فِعل الأطراف الأخرى.

ويرى مارك فيني أنَّ ردَّ الفعل الأمريكي تجاه التدخُّل الإسرائيلي في الضفَّة الغربيَّة وغزَّة يبلور تأثير الصهاينة المسيحيِّين على توجيه السياسة الرسميَّة الأمريكيَّة. على سبيل المثال، اضطر الرئيس جورج بوش إلى مطالبة أرييل شارون، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، عام ٢٠٠٢ ميلاديًّا، لإيقاف عدوانه المتواصل على الشعب الفلسطيني، وكان ذلك استجابة للنداءات والمطالبات الدوليَّة. بينما اعتُبر ردُّ شارون، بأنَّ عدوانه يندرج تحت مسمَّى الدفاع عن النفس، ردًّا معهودًا ومتوقَّعًا، كان ردُّ اليمين المسيحي في أمريكا مفحمًا؛ فقد ذكر دونالد فاجنر في مقاله "Marching to Zion: The Evangelical-Jewish Alliance-السير إلى صهيون: التحالف الإنجيلي-اليهودي" (٢٠٠٣)، أنَّ اللوبي الداعم لإسرائيل، بالتنسيق مع اليمين المسيحي، أرسل أكثر من ١٠٠ ألف رسالة عبر البريد الإلكتروني إلى الرئيس بوش؛ لحثِّه على عدم تقييد التحرُّكات الإسرائيليَّة. وبالفعل، نجحت الضغوط الصهيونيَّة في إثناء بوش عن موقفه؛ فلم يحرِّك ساكنًا في مواجهة شارون، الذي أكمل عدوانه. ينطبق الأمر ذاته على موقف بوش من خطَّة السلام المقترَحة عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا لإنهاء الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، المعروفة بـ "خارطة الطريق" (Road Map)؛ حيث شنَّ اليمين المسيحي وقتها حملة ضغط لإثناء الرئيس عن التصديق على تلك الخطَّة؛ فسحب بوش تأييده للخطَّة تدريجيًّا. ويعلِّق مارك فيني على ذلك، بأنَّ اليمين المسيحي يعمل على إيقاظ الإيمان بعقيدة المجيء الثاني للمسيح، التي تستوجب تأسيس مملكة بالحدود الجغرافيَّة، التي

يذكرها الكتاب المقدَّس لآخر دولة لبني إسرائيل على الأرض المقدَّسة، في القرن الأوَّل الميلادي.

يجدر بنا في السياق ذاته الإشارة إلى دراسة قيِّمة، أعدَّها الباحث رامي هيجا، أستاذ علم الاجتماع في عدد من الجامعات الأمريكيَّة، عنوانها " The Armageddon Lobby: Dispensationalist Christian Zionism and the Shaping of US Policy Towards Israel–Palestine–لوبي معركة مجيدو: الصهيونيَّة المسيحيَّة القدريَّة وتشكيل السياسة الأمريكيَّة تجاه إسرائيل–فلسطين" (٢٠٠٦)، يتناول فيها تاريخ الصهيونيَّة المسيحيَّة في أمريكا، مع التطرُّق إلى تأثير عقائد تلك الحركة على السياسات الأمريكيَّة المتعلِّقة بالصراع الفلسطيني–الإسرائيلي. يعترف الباحث بالنجاح الذي أحرزه اللوبي المرتقب لمعركة مجيدو في أمريكا في إسكات أيِّ صوتٍ مندِّد بالاعتداءات الإسرائيليَّة على الفلسطينيِّين، وإن كان لذلك تأثيره السلبي، المتمثِّل في إحباط مساعي التفاوض، مما يعني استمرار حالة التوتُّر الأمني في إسرائيل.

يشير الباحث إلى أنَّ التحالف بين الصهاينة المسيحيِّين واللوبي الداعم لإسرائيل في أمريكا قديم، ولكن التطوُّرات التي شهدها الصراع الفلسطيني–الإسرائيلي تستدعي فحص طبيعة هذا التحالف عن قُرب. يلعب اللوبي الصهيوني المسيحي دورًا لا يمكن تجاهُله في توجيه الناخب الأمريكي، وهدفه الأساسي هو تشكيل قاعدة جماهيريَّة مناصرة لإسرائيل، تؤمن بنبوءات الكتاب المقدَّس، وبعقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة، التي ترتبط بتحقُّق تلك النبوءات. يُطلق على الصهاينة المسيحيِّين في أمريكا العديد من الألقاب، من بينها "لوبي معركة مجيدو" و "الإيباك المسيحي"، في إشارة إلى جماعة الضغط اليهوديَّة الأعلى تأثيرًا في أمريكا. تعاني إسرائيل منذ تأسيسها من نظرة المجتمع الدولي السلبيَّة، وخاصَّة بعد قرار الأمم المتَّحدة ٣٣٧٩، الصادر عام ١٩٧٥ ميلاديًّا، الذي اعتبر الصهيونيَّة من أشكال العنصريَّة والتمييز. لذلك، فهي تحتاج إلى تحسين صورتها دوليًّا، ولكن دون تنازلات سياسيَّة أو أرضيَّة. استجابةً لهذه الحاجة، نشأ اليمين المسيحي في أمريكا، وتأسست منظَّمات يهوديَّة أيقنت حينها أنَّ

التحالف مع الصهيونيَّة المسيحيَّة بإمكانه تحسين صورة إسرائيل على المستوى الدولي، اعتمادًا على السياسات الأمريكيَّة.

قلقًا من غياب الحشد الجماهيري لفصيلهم السياسي، شعر المسيحيُّون المحافظون بضرورة وجود كيان مُعترف به يتولَّى هذه المهمَّة؛ فأسس القسُّ والمبشِّر الإنجيلي جيري فالويل نهاية السبعينات من القرن الماضي منظَّمة الأغلبيَّة الأخلاقيَّة (Moral Majority)، بهدف حشد الكنيسة لمساندة مواقف سياسيَّة واجتماعيَّة تخدم مصالح التيَّار المحافظ. نجحت المنظَّمة، بفضل زعيمها شديد التأثير، في اجتذاب آلاف الكنائس والملايين من أتباعها، لتؤسِّس بذلك كتلة مسيحيَّة، تُعرف اليوم بـ "اليمين المسيحي". أظهرت الدراسات أنَّ هذه الحركة أصبحت الأكبر من نوعها في أمريكا، مستأثرةً بالكتلة التصويتيَّة الأكبر للحزب الجمهوري. جدير بالذِّكر أنَّ زعيم حزب الليكود ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، مناحيم بيجين، قد دعا كلًّا من جيري فالويل وزميله بيلي جراهام إلى عشاء فاخر، ليقدِّم لهما ميدالية جابوتنسكي المئويَّة، وهي ميدالية سُمِّيت على اسم فلاديمير جابوتنسكي، الزعيم الصهيوني اليميني، تُهدى لمَن يُعتبر صديقًا مدى الحياة لإسرائيل. ويرى الباحث أنَّ إهداء الميدالية إلى المبشِّرين الداعمين للكيان الصهيوني يمثِّل البداية الرسميَّة لتحالف اليمين المسيحي مع إسرائيل.

يتأسَّف الباحث على أنَّ العالم يشاهد المآسي التي يلاقيها الفلسطينيُّون كلَّ يوم، دون أن يتحرَّك لهم ساكن، بينما يواصل الصهاينة المسيحيُّون دعمهم لإسرائيل وتبرير أعمالها العدوانيَّة. وقد صار من الواضح أنَّ "من خلال نفوذ لوبي الصهاينة المسيحيِّين، يمكن لإسرائيل تنفيذ أهدافها، رغم أنف الاحتجاج والقانون الدولي" (ص٩٣). وبرغم أنَّ الدراسات الحديثة قد أثبتت تفضيل المواطنين الإسرائيليِّين الانسحاب من مستوطنات الضفَّة الغربيَّة، يدعم الصهاينة المسيحيُّون انتشار المستوطنات في الضفَّة الغربيَّة والعنف المتزايد ضدَّ الفلسطينيِّين. من المثير للدهشة أنَّ الحركة الصهيونيَّة المسيحيَّة تدعم إسرائيل بالمال والنفوذ؛ ومع ذلك، فمن عقائدها أنَّ ثلثي اليهود سيهلكون فيما يُعرف بـ "سنوات المحنة

الكبرى". يعني ذلك أنَّ الصهيونيَّة المسيحيَّة في سعيها إلى تحقيق نبوءات الكتاب المقدَّس، فهي تحمل لليهود في ذات الوقت تهديدًا بفناء غالبيَّتهم.

سُبُل تحقيق السلام في الأرض المقدَّسة

يتناول الرئيس الأمريكي الأسبق، جيمي كارتر، في كتاب **We Can Have Peace in the Holy Land: A Plan that Will Work–يمكننا تحقيق السلام في الأرض المقدَّسة: خطَّة ستنجح** (٢٠٠٩) جهوده الرامية إلى تحقيق السلام في الشرق الأوسط، مع الإشارة إلى أهم الجهات الفاعلة، وإلى تدخُّلاته الشخصيَّة لحلِّ النزاع الدائر بين العرب وإسرائيل، مع تبيان أسباب فشل جهوده في هذا السياق. يعتقد كارتر أنَّ من أسباب عجزه عن تحقيق تقدُّم ملموس في حلِّ قضيَّة الأرض المقدَّسة ردود الفعل السلبيَّة للمجتمع اليهودي داخل أمريكا تجاه جهوده، مضيفًا أنَّ الإعلام انتقائي في تناوُله قضيَّة معاناة الفلسطينيِّين.

مع كلِّ ما يبديه كارتر من دعم للفلسطينيِّين، يرى الرئيس الأسبق أنَّ هناك ثلاثة شروط أساسيَّة لتحقيق السلام في الشرق الأوسط: ١–اعتراف الدول العربيَّة المجاورة لإسرائيل بسيادتها وحقِّها في البقاء في سلام؛ و٢–بناء حدٍّ دائم لدولة إسرائيل؛ و٣–ضرورة أن يتخلَّى الفلسطينيُّون عن زعمهم بعدم أحقيَّة إسرائيل في البقاء (ص٢٣–٢٥). وبرغم ذلك، فهو يرى أنَّ المستوطنات الإسرائيليَّة في الأراضي المحتلَّة "غير قانونيَّة وعقبة في طريق السلام" (ص٢٣)، معتبرًا أنَّ نقاط التفتيش والجدار العازل من أكبر عوائق تنفيذ اتفاقيَّات السلام. ينصح كارتر بحلِّ الدولتين لإنهاء الصراع الفلسطيني–الإسرائيلي، منتقدًا تقاعُس الطرفين عن اتِّخاذ قرارات جريئة في هذا الصدد. لا يختصُّ كارتر الصراع بين–الفلسطيني بين حركتي فتح وحماس وحده بالنقد، إنَّما انتقد كذلك الصراع بين الكتل السياسيَّة في إسرائيل، وكذلك المجتمع اليهودي في أمريكا.

يؤرِّخ كارتر الأحداث منذ زمن أب الأنبياء إبراهيم، أو أبراهام العبراني، وحتَّى وقتنا الراهن، ويتناول الأحداث في إطار ديني، نابع من دراسته العميقة للكتاب المقدَّس. غير أنَّه عجز عن تحرير قول فصل بشأن الصراع على المسجد الأقصى، أو جبل الهيكل وفق المسمَّى

اليهودي. بالإشارة إلى مقترحات كارتر لإنهاء الصراع في الأرض المقدَّسة، وبعد تفصيل دور الصهيونيَّة المسيحيَّة في ترسيخ أحقيَّة اليهود في الأرض المقدَّسة، تنبغي الإشارة إلى دور الحملات التبشيريَّة البروتستانتيَّة في تشويه صورة الإسلام، بما يعزز الهيمنة الاستعماريَّة على العالم الإسلامي.

٨.المعتَقد الدِّيني وتشكيل السِّياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة: جيمي كارتر نموذجًا

بالحديث عن مقترحات جيمي كارتر، الرئيس الـ ٣٩ للولايات المتَّحدة الأمريكي (١٩٧٧–١٩٨١)، لإنهاء الصراع على الأرض المقدَّسة، يُفتح المجال للحديث عن تأثير اعتناق عقائد الصهيونيَّة المسيحيَّة على التوجُّهات السياسيَّة لرؤساء الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، برغم ادِّعاء السياسيِّين الأمريكيِّين تطبيقهم نهجًا علمانيًّا في صُنع القرار.

تعريف بجيمي كارتر: رئيس سابق ومبشِّر حالي

يُعتبر إبرام اتفاقيَّة السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٨ ميلاديًّا، والمعروفة باتفاقيَّة كامب ديفيد، من أشهر المنجزات التي تُحسب للرئيس كارتر، الذي عُرف بصداقته للرئيس المصري الراحل، محمَّد أنور السادات، وكان لتلك الصداقة دور بارز في إقناع الأخير بقبول كافَّة نصوص الاتفاقيَّة. وقد ذكر بليك جونز في أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ولاية أريزونا، عنوانها **A Battle for Righteousness: Jimmy Carter and Religious Nationalism–معركة من أجل البر: جيمي كارتر والقوميَّة الدينيَّة** (٢٠١٣)، أنَّ كارتر **استغلَّ معتقداته الدينيَّة في إنجاح مفاوضات كامب ديفيد، مضيفًا أنَّه طالما حرص على مراعاة قيمه الدينيَّة، النابعة من معتقدات الكنيسة المعمدانيَّة البروتستانتيَّة، عند اتِّخاذ القرارات، برغم حرصه على فصل الدين عن الدولة** (ص i). وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى رفض وزير الخارجيَّة المصري وقتها، محمَّد إبراهيم كامل، العديد ممَّا نصَّت عليه الاتفاقيَّة، ما أخبر عنه بالتفصيل في كتابه **السلام الضائع في اتفاقيات كامب ديفيد** (٢٠٠٣)، الصادر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر.

جعل مركز كارتر، وهو منظَّمة غير حكوميَّة لا تستهدف الربح، نشر السلام والارتقاء بالصحَّة لسكَّان العالم على رأس أهدافه، وقد نجح المركز في تحسين أحوال سكان ٨٠ من دول العالم من خلال تسوية المنازعات، والنهوض بالديموقراطيَّة وحقوق الإنسان والفرص الاقتصاديَّة، ومكافحة الأمراض، وتحسين الصحَّة العقليَّة. وقد أثنت مجلَّة فورين أفيرز– Foreign Affairs، الصادرة عن مجلس العلاقات الخارجيَّة الأمريكي، في عدد نوفمبر/ديسمبر ١٩٩٥ ميلاديًّا، على "سعي جيمي كارتر المتواضع لإحلال السلام العالمي"، مبلورةً طبيعة هذا السعي، وهو **التبشير**؛ فقد كان وصف الرئيس الأمريكي الأسبق في عنوان المقال "**رجل التبشير**".

FOREIGN AFFAIRS

Jimmy Carter's Modest Quest for Global Peace: The Missionary Man

By Douglas Brinkley November/December 1995



نشر جيمي كارتر كتابًا دينيَّ الطابع عنوانه **Through the Year with Jimmy Carter: 366 Daily Meditations from the 39th President**–**خلال العام مع جيمي كارتر: ٣٦٦ تأمُّلًا يوميًّا من الرئيس الـ ٣٩** (٢٠١١)، يتناول فيه تجربته الإيمانيَّة، التي أغرته بالسعي إلى تعزيز الإيمان المسيحي لدى أتباعه، مستلهمًا محتوى كلّ تأمُّلٍ مما يتضمَّنه الكتاب من دروس الأحد التي تلقَّاها في كنيسة ماراناثا المعمدانيَّة، بمسقط رأسه بلينز، في ولاية جورجيا الأمريكيَّة، ومستهلًّا كل تأمُّل بآية من الكتاب المقدِّس تعبِّر عن فِكرته. يقسِّم كارتر رحلته الإيمانيَّة التي اختارها له الربُّ في هذا الكتاب إلى أربعة مراحل:

الإطلاق، وهي مرحلة تكوُّن الإيمان المسيحي الخالص في قلبه وتعلُّمه الأساسيَّات الدينيَّة اللازمة لبدء تجربته مع الربِّ؛ والنمو، وهي مرحلة النهوض بالأساسيَّات المكتسبة في المرحلة الأولى، والتي يصبح فيها المرء مسيحيًّا صادق الإيمان، ينعم بحياته ويبارك الآخرين؛ والخدمة، ويسرد في هذه المرحلة كيف اجتذبته "روح المسيح" إلى حياة الخدمة، ليس لفرض قيود على حياة الناس، إنَّما لتحرير الأنفس والقلوب وتوسيع نطاق "مملكة الربِّ"؛ وأخيرًا، مرحلة النضج، وتأمَّل فيها التأثير لصالح الخير العام الذي يُحدثه المسيحي المؤمن في محيطه، ويمتدُّ إلى كافَّة أرجاء العالم.

في التأمُّل ٢٤٨، الذي يحمل عنوان "A Missionary's Questions"، أو أسئلة للمبشِّر، يتناول كارتر هويَّة الشخص الذي يتخلَّى عن حياة الرفاهية، ويسافر إلى أقاصي الأرض لتمدين غرباء في أوزباكستان أو توجو، مستهلًّا التأمُّل بآية من سفر الخروج، يرد فيها موسى على أمر الربِّ له بأن يذهب إلى فرعون لإخراج بني إسرائيل من مصر " فَقَالَ مُوسَى للهِ: «مَنْ أَنَا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَحَتَّى أُخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ؟»" (سفر الخروج: إصحاح ٣، آية ١١). بناءً على فهمه لهذه الآية، يعرِّف كارتر المبشِّر بأنَّه "شخص كُلِّف بمهمَّة لخدمة الربِّ". اتَّخذ كارتر بعثة موسى نموذجًا لرحلة التبشير؛ فقد بدأت بالتأمُّل لمَّا رأى عليقة من العشب في وسط نار ولا تحترق "ظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ. فَقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الآنَ لأَنْظُرَ هذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لاَ تَحْتَرِقُ الْعُلَّيْقَةُ؟»" (سفر الخروج: إصحاح ٣: آيتان ٢-٣). ترك موسى إثر تلقِّيه أمر الربِّ، حياته العاديَّة-حياة البشر العاديين-ليبدأ حياة غير عاديَّة، ولكن تلك الرحلة بدأت بالتأمُّل، وهذه ضالَّة الكثيرين، في رأي الرئيس الأسبق.

الخلفيَّة الدينيَّة للرئيس كارتر

أثار الأسلوب الخطابي الذي استخدمه جيمي كارتر في حملته الانتخابيَّة عام ١٩٧٦، انتباه الكثيرين، ممَّن لاحظوا إيمانه بالطبيعة الآثمة لبني البشر وبوجود سبيل للخلاص؛ فالبشر يولدون آثمين، وفق المعتقد المسيحي، المؤمن بتلطُّخ البشر أجمعين بإثم الخطيئة الأولى لآدم، لمَّا أكل من شجرة المعرفة، كما تشير القصَّة الواردة في سفر التكوين، ولا سبيل

لخلاصهم سوى الالتحام بروح الربِّ، ولا يكون ذلك إلَّا بالإيمان بتجسيده البشري. جدير بالذِّكر أنَّ هذه العقيدة نابعة من الأصل من عقيدة القبَّالة، التي ترى أنَّ بسقوط آدم إلى الأرض، تحطَّمت روحه، التي نبعت منه أرواح البشر، إلى مليارات الأجزاء، وسبيل التحامها وتحقيق الخلاص، أو البرِّ يوم الدينونة، هو الإيمان بالمخلِّص، روح الربِّ. وقد رأى الكاتب ويزلي جي. بيبرت في كتاب **The Spiritual Journey of Jimmy Carter: In His Own Words–حياة جيمي كارتر الروحانيَّة: من أقواله** (١٩٧٨)، أنَّ كارتر قد بنى فلسفته السياسيَّة على معتقدته الديني، ويتَّفق ذلك الرأي مع ما نقله كينيث إي. موريس في كتابه **Jimmy Carter: American Moralist –جيمي كارتر: معلِّم أمريكي للأخلاق** (١٩٩٦)، عن أحد المتطوِّعين في حملة كارتر الانتخابيَّة، بأن اعتبر سياسته تنفيذ لمعتقداته الدينيَّة، وتصوُّراته لما يكون الأفضل لسد احتياجات الناس. وقد وصف المؤرِّخ الديني الأمريكي إي. بروكس هوليفيلد كارتر في حملته الانتخابيَّة عام ١٩٧٦ ميلاديًّا، في مقال بعنوان"The New Republic–الجمهوريَّة الجديدة"، بأنَّه "تجسيد للإنجيليَّة الجنوبيَّة، يدبُّ بجذوره في **العقيدة الطهوريَّة، والتعدديَّة الدينيَّة للقرن الثامن عشر، والواقعيَّة المسيحيَّة**".

ويسلِّط بليك جونز في أطروحته آنفة الذكر (٢٠١٣) الضوء على ببعض المؤثِّرات العقائديَّة التي كان لها الدور الأكبر في تشكيل فِكر جيمي كارتر السياسي، وأبرزها الإنجيليَّة الجنوبيَّة، والواقعيَّة المسيحيَّة، إلى جانب الإيمان بحركة الحقوق المدنيَّة وبدولة إسرائيل. ويعتبر جونز أنَّ الفترة السابقة على تولِّي كارتر حُكم أمريكا شهدت ظهور أصحاب أفكار دينيَّة مشابهة لأفكار كارتر، ولكنَّهم اختلفوا معه في بعض الأمور؛ فشكَّل هؤلاء ما يُعرف بحركة اليمين المسيحي. أهم ما يميِّز عقيدة الإنجيليَّة الجنوبيَّة الميل إلى فصل الكنيسة عن السياسة، وحريَّة الضمير.

من أهم معتقدات الإنجيليَّة الجنوبيَّة ما يُعرف بـ "الولادة الجديدة" (Born again/New birth)، ما يعني انتقال الإنسان بعد إيمانه بالمخلِّص إلى حياة جديدة على الجانب الروحي. تنبع هذه العقيدة ممَّا ورد على لسان يسوع في العهد الجديد، في قوله لتلامذته "الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَبِعْتُمُونِي، **فِي التَّجْدِيدِ**، مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ،

تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِيًّا تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ" (إنجيل متَّى: إصحاح ١٩، آية ٢٨)، وكذلك في "اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ. لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: **يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ.** اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هكَذَا كُلُّ مَنْ **وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ»**" (إنجيل يوحنَّا: إصحاح ٣، آيات ٦-٨). وقد أورد بولس الرَّسول هذه العقيدة في بعض رسائله، كما جاء في " ظَهَرَ لُطْفُ مُخَلِّصِنَا اللهِ وَإِحْسَانُهُ. لاَ بِأَعْمَال فِي بِرّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ - **خَلَّصَنَا بِغُسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ.** الَّذِي سَكَبَهُ بِغِنًى عَلَيْنَا بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ مُخَلِّصِنَا" (رسالة تيطس: إصحاح ٣، آيات ٤-٦). وفي ممارسة لشعيرة الميلاد الجديد في كنيسته المحليَّة، آمن كارتر بيسوع باعتباره مخلِّصه في عُمر الحادية عشرة. غير أنَّه الرئيس الأمريكي الأسبق لم يعتبر أنَّ تلك الشعيرة كانت بمثابة ميلاده الجديدة؛ حيث يرى أنَّ تلك العمليَّة تتشكَّل من عدَّة مراحل. عن ذلك يقول كارتر في كتابه **Living Faith–الإيمان الحي** (١٩٩٦) "ميلادي الجديد لم يكن لمَّا كنتُ في عُمر الحادية عشرة؛ ففي رأيي، هي (الميلاد الجديد) عمليَّة تطوُّريَّة. فبدلًا من **رؤية وميض من الضوء أو رؤية الربِّ فجأة وهو يتحدَّث، فقد تمَّت في سلسلة من الخطوات التي قرَّبتي من المسيح بصورة متواصلة**" (ص٢١-٢٢).

ناوب جيمي كارتر في طفولته على حضور المواعظ في الكنيستين المعمدانيَّة والميثوديَّة، وكان يميل بطبعه إلى الخطب المعتدلة، وانخرط في أنشطة الكنيسة، وشارك في فرق الكشَّافة. ويعترف كارتر بمروره أكثر من مرَّة بفترات شكٍّ في عقيدة، خاصَّةً بعد هزيمته في انتخابات مجالس المقاطعات عام ١٩٦٦. غير أنَّه اعتبر تلك الفترة نقطة فارقة في تاريخ التزامه الديني؛ فقد انتبه كارتر إلى أنَّه لم يزر سوى ١٤٠ أسرة فقط في زيارة تفقُّديَّة نابعة من إيمانه العقائدي، من بين ٣٠٠ ألف مواطن في المقاطعة. بتشجيع من أخته، التي كانت واعظة دينيَّة، قطع كارتر عدَّة رحلات تبشيريَّة في مناطق فقيرة. من اللافت أنَّ هذا الالتزام الديني لم يُثنِ كارتر عن إيمانه، الذي ورثه عن أبيه، بضرورة فصل الكنيسة عن السياسة.

لتحقيق التوازن بين عقيدته الإنجيليَّة وإيمانه بالتعدُّديَّة الدينيَّة في اتخاذ القرارات السياسيَّة، استخدم كارتر عقيدة الواقعيَّة المسيحيَّة، التي تقوم على ثلاثة فرضيَّات مشتقَّة من الكتاب المقدَّس، وهي إثم البشريَّة، وحريَّة البشر، وأهميَّة ما يُعرف بـ "الوصيَّة العظمى"، وفق ما جاء في موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة. وردت "الوصيَّة العظمى" في أكثر من موضع في الكتاب المقدَّس، من بينها إنجيل متَّى (إصحاح ٢٢: آيات ٣٥-٤٠)، وإنجيل مرقص (إصحاح ١٢: آيات ٢٨-٣٤)، وإنجيل لوقا (إصحاح ١٠: آية ٢٧)، وهي توصي بحبِّ الإنسان ربَّه بكلِّ قلبه، وكلِّ نفسه، وكلِّ قوَّته. وفق عقيدة الواقعيَّة المسيحيَّة، ليس من الممكن تأسيس مملكة الربِّ على الأرض؛ بسبب ميل المجتمع بطبعه إلى الفساد.

ويعتبر دفاع جيمي كارتر عن حقوق الإنسان، النابع من معتقداته الدينيَّة ومن خبراته الحياتيَّة التي اكتسبها من حياته في إحدى الولايات الجنوبيَّة المغبون حقُّها مقارنة بجاراتها، أحد أهم أركان نظام حُكمه. وشكَّل إيمان كارتر بحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعيَّة، والمساواة المستقى من تعاليم الكتاب المقدَّس، موقفه تجاه إسرائيل. على عكس غالبيَّة المسيحيين الأصوليين والإنجيليين من المؤمنين بعقيدة ما قبل الألفيَّة، القائمة على الاعتقاد بأنَّ الظهور الثاني للمسيح لم يحدث قبل عودة بني إسرائيل إلى الأرض المقدَّسة، وبعد حرب طاحنة، كان موقف كارتر من إسرائيل مختلفًا، وإن كان قد أشار إلى نشأة دولة إسرائيل الحديثة باعتبار "تحقُّق لإحدى نبوءات الكتاب المقدَّس" خلال حملته الانتخابيَّة، كما ورد في كتاب **American Presidents, Religion, and Israel: The Heirs of Cyrus**-**الرؤساء الأمريكيون والدين وإسرائيل: ورثة كورش** (٢٠٠٤) للمؤرِخ اليهودي بول تشارلز مركلي.

عُرف عن بعض الإنجيليِّين دعمهم غير المشروط لدولة إسرائيل، مستشهدين على ضرورة ذلك التأييد بالآيات من سفر التكوين، التي أمر فيها الربُّ أبرام-الأب الصالح الذي انحدر منه بنو إسرائيل-بالهجرة إلى وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. **وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ**»" (سفر التكوين: إصحاح

١٢، آيات ١–٣)؛ حيث يعتبرون أنَّ الفوز ببركة الربِّ مرهون بمباركتهم بني إسرائيل. على سبيل المثال، اعتبر المسيحي الصهيوني جون هاجي، مؤسس منظَّمة مسيحيون متَّحدون من أجل إسرائيل، الآية ٣ من إصحاح ١٢ في سفر التكوين بمثابة "بيان السياسة الخارجيَّة للربِّ"، كما أوردت فيكتوريا كلارك في كتابها **Allies for Armageddon: The Rise of Christian Zionism–حلفاء من أجل مجيدو: نشأة الصهيونيَّة المسيحيَّة** (٢٠٠٧). أمَّا تأييد كارتر لإسرائيل فكان نابعًا من تقديره لأرض ذُكرت في الكتاب المقدَّس ودارت معظم الأحداث الواردة فيه على أرضها. وقد عبر كارتر عن ذلك في سرده قصَّة زيارته الأولى للأرض المقدَّسة عام ١٩٧٣ ميلاديًّا، التي تركت لديه انطباعًا دائمًا، بأن رأى الأرض التي جرت عليها الأحداث التي تعلَّمها لسنوات في دراسته الدينيَّة، كما أورد في كتابه **We Can Have Peace in the Holy Land: A Plan That Will Work–يمكننا تحقيق السلام على الأرض المقدَّسة: خطَّة ستنجح** (٢٠٠٩). هذا، وقد أشار كارتر إلى تلك الرحلة في كتاب سابق بعنوان **The Blood of Abraham: Insights into the Middle East–دم أبراهام: تأمُّلات متبصِّرة في الشرق الأوسط** (١٩٨٥)، تناول فيه قصَّة طريفة وقعت لمَّا أراد وزوجته حضور صلوات السَّبت في كنيس مستعمرة إيليت هاشهار، حيث صُدما لمَّا لم يجدا سوى شخصين فقط حضرا للصلاة. أعرب كارتر عن قلقه حيال عزوف اليهود عن ممارسة الشعائر الدينيَّة في مقابلة له بجولدا مائير، رئيس وزراء إسرائيل وزعيم حزب العمَّال العلماني وقتها، فلم يجد منها سوى الضحك؛ من ثمَّ، حرص المبشِّر شديد التديُّن على إبراز حقيقة تعلَّمها من الكتاب المقدَّس عن بني إسرائيل، وهي أنَّ انتصاراتهم اقترن بالقرب من الربِّ، وهزائمهم نتجت عن الكُفر.

موقف كارتر من الصراع العربي–الإسرائيلي

حرص جيمي كارتر خلال حملته الانتخابيَّة، عام ١٩٧٦ ميلاديًّا، على التشديد على تأييده دولة إسرائيل، معتبرًا أنَّ بقاءها ليس مسألة سياسيَّة وفقط، إنَّما هو كذلك "واجب أخلاقي"، كما جاء في الجزء ١، من المجلَّد ١ الصادر عن مطبعة الحكومة الأمريكيَّة عام ١٩٧٨ بعنوان **The Presidential Campaign, 1976–الحملة الرئاسيَّة لعام ١٩٧٦**. ولا

شكَّ في أنَّ هذا الاعتقاد كان له عظيم الأثر في مفاوضاته مع طرفي النزاع عند إبرام اتفاقيَّة كامب ديفيد عام ١٩٧٨. لم يغب الكتاب المقدَّس، وبخاصَّة أسفار العهد القديم، عن ذهن كارتر في جلسات التفاوض، واجتماعات السياسات الخارجيَّة، والخطابات الجماهيريَّة، وقد اعترف في كتابه **دم أبراهام** (١٩٨٥) أنَّ التعامل مع قضيَّة إسرائيل كان يستوجب النظر إلى تاريخ الأرض المقدَّسة وشعبها في الكتاب المقدَّس، وفي ذلك يقول "طالما شكَّلت تلك الأسماء والصور جزءًا لا يتجزَّأ من حياته الدينيَّة، وإن كان كثيرٌ منها اتَّخذ مدلولات جديدة ومختلفة بالمرَّة عندما صرتُ رئيسًا للولايات المتَّحدة" (ص٣١).

تجدر الإشارة إلى أنَّ كارتر قد أعلن في كتابه **Keeping Faith: Memoirs of a President**–**الاحتفاظ بالإيمان: مذكِّرات رئيس** (١٩٨٢)، أنَّ لليهود الناجين من المحرقة الحق في الأرض المقدَّسة، وأنَّ في اعتبار إسرائيل "وطني لليهود" ما "يتَّفق مع تعاليم الكتاب المقدَّسة وأوامر الربِّ"، مضيفًا أنَّ "هذه الاعتقادات الأخلاقيَّة والدينيَّة جعلت التزامه بأمن إسرائيل لا يتزعزع" (ص٢٧٤). ويُنسب إلى الرئيس الأسبق والمبشِّر الورع قوله "بوصفي إنسانًا، وأمريكيًّا، ومتديِّنًا، لديَّ التزام كامل ومطلق تجاه إسرائيل، التي هي تحقُّق لنبوءة واردة في الكتاب المقدَّس"، كما جاء في كتاب **الرؤساء الأمريكيون والدين وإسرائيل: ورثة كورش** (٢٠٠٤، ص٨٢)، للمؤرِّخ اليهودي بول تشارلز مركلي، الذي انتقد ادِّعاء كارتر أنَّ دراسته للكتاب المقدَّس وتدريسه في دروس الأحد كان كلَّ ما احتاج إليه للتعرُّف على المجتمع اليهودي الحديث. رأى مركلي أنَّ كارتر كان أكثر تفاهمًا مع أنور السادات منه مع مناحيم بيجن، مما يعني أنَّ معرفة كارتر بالمجتمع الإسرائيلي لم تكن شاملة.

دور اليمين المسيحي في إسقاط كارتر

أيَّد راعي الكنيسة المعمدانيَّة الأولى في نورفك في ولاية فرجينيا، بيلي سميث، في الجمعيَّة المعمدانيَّة الجنوبيَّة (SBC)، ترشُّح جيمي كارتر للرئاسة لعام ١٩٧٦ ميلاديًّا، مشيرًا إلى احتياج الولايات المتَّحدة إلى رئيس "يولد من جديد في البيت الأبيض"، وتتفق الأحرف الأولى من اسمه (**J**immy **C**arter) مع الأحرف الأولى من اسم الربِّ (**J**esus **C**hrist)، وفق ما جاء في كتاب **God's Own Party: The Making of the Christian**

Right–حزب الربِّ: تكوين اليمين المسيحي (٢٠١٠) للكاتب دانيال كيه. وليامز. غير أنَّ هذا التأييد تلاشى عندما عزم كارتر على إعادة الترشُّح للانتخابات عام ١٩٨٠ ميلاديًّا. حرص كارتر على دعوة سميث إلى مكتبه لتهنئته على انتخابه رئيسًا للجمعيَّة المعمدانيَّة الجنوبيَّة، ولكنَّ الأخير انتقد النزعة العلمانيَّة التي اتَّسمت بها سياسة الرئيس الأسبق؛ فقد قال سميث لكارتر قبل مغادرة مكتب الرئيس "ندعو، يا سيادة الرئيس، ألَّا تعود تتخذ العلمانيَّة الإنسانيَّة دينًا"، واعتقد كارتر أنَّ القسَّ كان يقصد اعتراضه على تعديل دستوري يجيز الصلاة الإجباريَّة في المدارس الحكوميَّة، كما ذكر الرئيس الأسبق في أكثر من مؤلَّف، منها **الإيمان الحيّ** (١٩٩٦)، و **Our Endangered Values: America's Moral Crisis–قيمنا المعرَّضة للخطر: الأزمة الأخلاقيَّة لأمريكا** (٢٠٠٥).

نال ترشُّح كارتر للرئاسة عام ١٩٧٦ تأييد المسيحيين المحافظين، لكنَّ أملهم فيه خاب، لمَّا عجز عن دعم أولويَّات سياساتهم. ويرى بليك جونز في أطروحته آنفة الذكر (٢٠١٣) أنَّ برغم اشتراك كارتر مع المسيحيين المحافظين في نفس العقيدة الإنجيليَّة، لم يحرص كارتر في نظرهم على جعل هذه العقيدة الدافع الأساسي لمواقفه السياسيَّة في بعض شئون السياسة الخارجيَّة، من بينها زيادة الإنفاق العسكري، والدعم غير المشروط لإسرائيل، وتطبيع سياسة رادعة معادية للشيوعيَّة (ص١٨١). من هنا، منح اليمين المسيحي الصاعد وقتها تأييده لرونالد ريجان، الممثل المطلَّق وغير المنتظم في ارتياد الكنيسة. كان الاختلاف بين كارتر المسيحيين المحافظين حيال ما يراه كلٌّ طرف التطبيق العملي الفعَّال للعقيدة الإنجيليَّة وراء الامتناع عن تأييد ترشُّحه، وتفضيل منافسه عليه، ولعلَّ تمسُّك كارتر بفصل الكنيسة عن سياسة الدولة من أهم أسباب توتُّر علاقته باليمين المسيحي، حتَّى فات الأوان. ويقول أندرو بريستون في كتابه **Sword of the Spirit, Shield of Faith: Religion in American War and Diplomacy–سيف الروح ودرع الإيمان: الدين في الحرب والدبلوماسيَّة الأميركيَّة** (٢٠١٢) "**تعود مشكلة كارتر بعض الشيء إلى عجزه عن فهم المزاج الديني للبلاد. أخطأ (كارتر) على وجه الخصوص في محاولته الحازمة لفصل الدين عن السياسة**" (ص٥٧٦).

علَّق الإنجيليُّون والأصوليُّون أملًا كبيرًا على الحصول على منصب قياديَّة في إدارة كارتر، ولكن خاب أملهم لمَّا امتنع الرئيس الأسبق عن تعيينهم، بل ورفض مقابلة العديد من جماعاتهم في أول عامين له في البيت الأبيض، وبدت محاولته اللاحقة للتقرُّب إليهم نفعيَّة بعد اقتراب انتهاء فترته، ومن ثمَّ موعد الانتخابات. لم يبدأ دور الإنجيليِّين والأصوليِّين في إسقاط كارتر عند حشد الأصوات للمرشَّح المنافس لكارتر، إنَّما بدأ عند بحثهم المدقق عن مرشَّح جمهوري يعتنق أفكارهم ويبشِّر بتطبيقها في السياسة المتَّبعة، وكان رونالد ريجان الاختيار الأمثل. المفارقة هي أنَّ ريجان، لدى ترشُّحه عن الحزب الجمهوري عام ١٩٧٦، نادرًا ما تناول الدين في خطابه، وانتقد الإنجيليُّون ضحالة معرفته بالعقيدة الإنجيليَّة. تبدَّل الأمر عند ترشُّحه للرئاسة عام ١٩٨٠، لمَّا تحدَّث عن الإيمان، وبلور موقفه المعارض للشيوعيَّة؛ فنال رضا جماعة اليمين المسيحي. على سبيل المثال، أسست مجلَّة Christian Voice–الصوت المسيحي، لجنة أطلقت عليها "مسيحيُّون من أجل ريجان" بهدف جمع التبرُّعات لصالح حملته الانتخابيَّة. أطلقت الجماعة كذلك حملة إعلاميَّة لتسليط الضوء على حياة ريجان الدينيَّة. لعب اليمين المسيحي دورًا مناهضًا لسياسة كارتر لإضعاف مكانته وفرص إعادة ترشُّحه، مستغلًّا أزمة الرهائن الأمريكيين المحتجزين في إيران منذ ٤ نوفمبر ١٩٧٩، وحتَّى ٢٠ يناير ١٩٨١، أي بعد انتهاء ولايته وتسلُّم ريجان الحُكم. انتقدت جماعة اليمين المسيحي موقف كارتر من نظام ملالي إيران حديث النشأة، وطالبته بالردِّ، بينما أعدَّت آليَّة للتواصل المباشر بين ريجان والإنجيليِّين والأصوليِّين، وأثارت الرأي العام ضدَّ كارتر، بانتقاد موقفه تجاه إسرائيل.

مواقف كارتر لإنهاء الصراع العربي–الإسرائيلي

في خطاب ألقاه في كليَّة مانسفيلد عنوانه " Peace with Justice in the Middle East–السلام مع العدالة في الشرق الأوسط"، قال الرئيس الأمريكي الأسبق "أعلن البابا يوحنَّا بولس الثاني (بابا الفاتيكان الأسبق) ذات مرَّة أنَّ الحلَّين ممكنان لتسوية الصراع الفلسطيني–الإسرائيلي، يقصد الواقعي والإعجازي. يشتمل الحل الواقعي على تدخُّل إلهي من السماء؛ أمَّا الإعجازي، فهو إبرام اتفاق طوعي بين الطرفين". ويرى بليك جونز (٢٠١٣) أنَّ

كارتر فشل في لعب دول الفعَّال لتسوية ذلك الصراع بعد انتهاء فترة رئاسته، بل ويرى أنَّه أضرَّ بدور الوسيط المحايد بأن وبَّخ إسرائيل على مواقفها تجاه الفلسطينيِّين، معربًا عن أمله في تأسيس دولة فلسطينيَّة على الضفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة، وكذلك بدء علاقة دبلوماسيَّة رسميَّة بين إسرائيل والعالم العربي. ويذكر جونز (٢٠١٣) أنَّ انتقاد كارتر لإسرائيل ازداد بعد ترك منصبه، ولم يرد في حاجة إلى أصوات اليهود الأمريكيِّين ومؤيدي إسرائيل من الإنجيليِّين والأصوليِّين، بل ووصل الأمر إلى حد انتقاد العقيدة الأصوليَّة لصالح دفاعه عن الحقوق المدنيَّة للشعب الفلسطيني (ص٢٣١). لم يتوقَّف انتقاد كارتر بشأن موقفه من دولة إسرائيل على استعداده لمقابلة زعماء فلسطينيين، مثل ياسر عرفات، الذي اعتبرته الخارجيَّة الأمريكيَّة إرهابيًّا، أو قادة حماس، إنَّما امتدَّ إلى الاستخفاف بالعقيدة الدينيَّة التي استند إليها في تعامله مع قضيَّة إسرائيل. جدير بالذكر أنَّ أستاذ التاريخ بول تشارلز مركلي في كتابه آنف الذكر **الرؤساء الأمريكيُّون والدين وإسرائيل: ورثة كورش** (٢٠٠٤)، قد اعتبر أنَّ كارتر حاد عن النموذج السائد لرؤساء أمريكا في موقفهم من إسرائيل، الذي شبَّهه مركلي بموقف الإمبراطور الفارسي كورش، الذي أعاد بني إسرائيل إلى الأرض المقدَّسة بعد سنوات السبي البابلي، ودعَّم إعادة بناء هيكلهم.

٩.كشف "مركز كارتر" تجاوزات الإسلاموفوبيا: دفاع عن الإسلام أو خدمة للتَّبشير؟

تعريفًا بمركز كارتر، فقد أسَّسه جيمي كارتر بمشاركة قرينته، عام ١٩٨٢ ميلاديًّا، أي العام التالي لتركه رئاسة بلاده. في مايو من عام ٢٠١٨ ميلاديًّا، أصدر مركز كارتر للسلام دليلًا من عدَّة دراسات تحت عنوان Countering Islamophobia Industry: Toward More Effective Strategies–مواجهة صناعة الإسلاموفوبيا: نحو استراتيجيَّات أكثر فعَّاليَّة، تتناول الحملة الدعائيَّة السلبيَّة عن الإسلام، متمثلةً في نشر خطاب الكراهية ضدَّ المسلمين، والتشجيع على نبذهم في المجتمعات التي يشكِّلون فيها أقليَّات. يعترف الرئيس الأمريكي الأسبق، جيمي كارتر، في مقدِّمة الدليل بأنَّ المسلمين عانوا في السنوات الأخيرة من "ممارسات تمييزيَّة غير دستوريَّة"، في ظلِّ "زيادة غير مسبوقة لجرائم الكراهية ضدَّ المسلمين"، على حدِّ وصفه (ص٤). اعتبر كارتر أنَّ القضاء على صور التمييز وتعزيز

احترام حقوق الإنسان من بين أهم مقومات الدفع بالديموقراطيَّة والسلام في العالم، مشيرًا إلى أنَّ في التغاضي عن التمييز الذي يلاقيه المسلمون في المجتمعات غير المسلمين تقويض للحريَّة الدينيَّة، وعدم مراعاة للقيم المتوارثة.

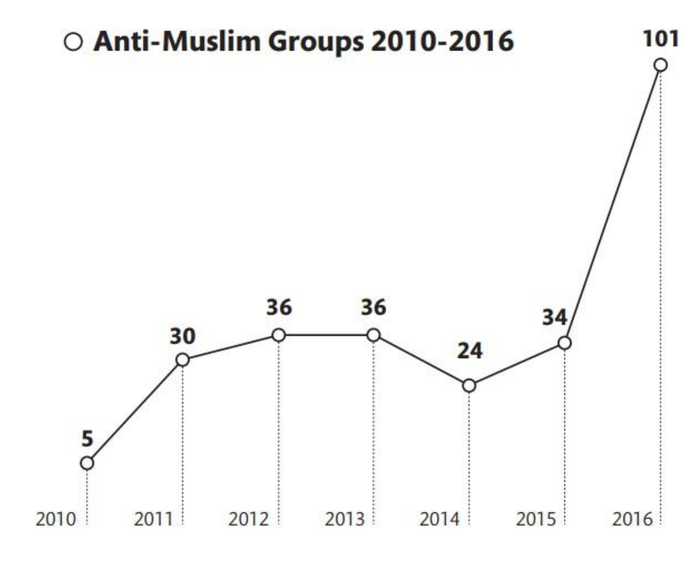
يجد كارتر في الإسلاموفوبيا تحديًّا كبيرًا لبلاده؛ ولذلك حرص مركزه على عقد ندوة في سبتمبر ٢٠١٧، حضرها علماء وصحافيُّون ورموز المجتمع المدني وزعماء دينيُّون، بغية تطوير آليَّة فعَّالة للاستجابة للإسلاموفوبيا. ولأنَّ هدف مركز كارتر هو نشر السلام، ومكافحة الأمراض، وزرع الأمل في نفوس الناس، يستهدف هذا الدليل استراتيجيَّات وممارسات وآليَّات لمكافحة الإسلاموفوبيا.

ارتفاع نسبة جرائم الكراهية ضدَّ المسلمين

تقول هدي عبادي، وهي من العاملين في برنامج كارتر لتسوية النزاعات، في مقال عنوانه "The Carter Center Works to understand and Counter Islamophobia– جهود مركز كارتر لفهم الإسلاموفوبيا ومكافحته"، أنَّ جرائم الكراهية ضدَّ المسلمين في هذه الآونة هي الأكثر على الإطلاق، مشيرةً إلى عدد جماعات الكراهية ضدَّ المسلمين قد ارتفع في الولايات المتَّحدة بنسبة ١٩٧ بالمائة في الفترة ما بين عامي ٢٠١٥ و٢٠١٦، كما ارتفعت الجرائم ضدَّ المسلمين بنسبة ٦٧ بالمائة. كان لأحداث ٩/١١ لعام ٢٠٠١ الدور الأكبر في نشر صورة سلبيَّة عن الإسلام، نتج عنها تعرُّض شباب المسلمين للاضطهاد والتنمُّر بسبب دينهم. **غير أنَّ الباحثة لم تخفِ حقيقة أنَّ نشر فِكر التعصُّب ضدَّ المسلمين يعتمد على** "**شبكة تمويل**" **تقدِّمه فئات تستفيد من نشر تلك الصورة المسيئة للإسلام والمسلمين** (ص٥). وترى عبادي أنَّ نشر رهاب الإسلام ليس عملًا عشوائيًّا أو غير واعٍ، إنَّما هو نتاج عمل شبكة جيدة التمويل ووثيقة الارتباط، من أشخاص ومؤسسات. تسمِّي الباحثة على وجه الخصوص American Freedom Law Center، أو المركز القانوني الأمريكي للحريَّات، وهو من تأسيس اليهودي الأرثوذكسي ديفيد يوروشالمي، ومدوَّنة Jihad Watch (جهاد ووتش).

تعترف الباحثة بأنَّ رهاب الإسلام تكتيك سياسي، من مخلَّفات الحركة الاستعماريَّة في العالم الإسلامي، يُستخدم في الخطاب العام لنشر مشاعر الكراهية ضدَّ المسلمين، خاصَّةً في فترات الانتخابات؛ بهدف إسكاتهم عند المطالبة بحقوقهم. ويتجاوز الإسلاموفوبيا حدود خطاب الكراهية، عندما يصير جزءً من سياسات الهياكل المدنيَّة والقضائيَّة للأنظمة الحاكمة، التي تتعمَّد تشويه صورة المسلمين بحجَّة الأمن القومي.

أوَّل ما يثير الاهتمام في دراسة أخرى يتضمَّنها الدليل، بعنوان Anti–Muslim Hate Groups: A Primer"–الجماعات المعادية للمسلمين: دليل تمهيدي"، أجرتها الباحثة هايدي بيريتش، التابعة للمركز القانوني الجنوبي للقضاء على الفقر (SPLC)، إشارة الباحثة إلى أنَّ الجماعات المعادية للمسلمين تضاعَف في أعقاب تفجير برجي التجارة في مدينة نيويورك في ٩/١١ من عام ٢٠٠١، كما يوضح الرسم البياني التالي:



صورة ٤–الجماعات المعادية للمسلمين ٢٠١٠–٢٠١٦–دليل مركز كارتر مايو ٢٠١٨

لا تنفي الباحثة أنَّ التعصُّب تجاه المسلمين لم يُعرف في أمريكا قبل أحداث ٩/١١، بل انتشرت مشاعر العداء تجاه المسلمين، مثلهم في ذلك مثل اليهود والسود والكاثوليك والمهاجرين. تضيف الباحثة أنَّ الجماعات المعادية للمسلمين تُظهر أشدَّ العداء تجاه معتنقي الإسلام، وتُلحق بهم دائمًا صفات سلبيَّة، أبرزها "فقدان الرُّشد، وانعدام التسامح، والميل إلى

العنف"، وتروِّج تلك الجماعات أنَّ شريعة المسلمين تسمح بالاعتداء الجنسي على الأطفال، بينما تنصَّ على ظُلم المرأة وتجرِّم المثليَّة الجنسيَّة (ص٩). يوصم الإسلام بالدنو عن الثقافة الغربيَّة، وبالتزمُّت ونشر الفكر الرَّجعي، وتضرب الباحثة المثل على ذلك بما جاء على لسان بريجيت جابرييل، مؤسِّس جماعة ACT! for America–اعمل! من أجل أمريكا، المعادية للمسلمين، في تصريح أدلت به لصحيفة نيويورك تايمز الأمريكيَّة، في ٧ مارس ٢٠٠٧ "اختُرقت أمريكا على كافَّة المستويات من قِبل أفراد أرادوا إلحاق الضرر بها"، وهي تقصد بذلك أفرادًا يتعاونون مع مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة المخابرات المركزيَّة ووزارة الدفاع، وغيرها من الأجهزة السياديَّة. ومن بين الأمثلة الواردة في دراسة هايدي بيريتش ما جاء على لسان جابرييل في خطاب وجَّهته إلى القس جون هاجي، مؤسس منظَّمة مسيحيون متَّحدون من أجل إسرائيل، في يوليو ٢٠٠٧، جاء فيه "الفرق، يا رفاق، بين إسرائيل والعالم العربي، **هو الفرق بين الحضارة والهمجيَّة. إنَّه الفرق بين الخير والشرِّ**، وهذا ما نشهده في العالم العربي والإسلامي...هم (العرب والمسلمون) بلا روح، هم أموات موجَّهون للقتل والتدمير".

تنتقل الباحثة على نموذج آخر لنشر الكراهية تجاه المسلمين، وهو الخطاب العدائي لباميلا جيلر، رئيس منظَّمة American Freedom: Defense Initiative–مبادرة الدفاع عن الحريَّة الأمريكيَّة، وتُعرف كذلك باسم Stop Islamization of America، أو أوقفوا أسلمة أمريكا. صرَّحت جيلر لصحيفة فوكس بزنس في مقال عنوانه "Follow the Money"، نُشر في ١٠ مارس ٢٠١١ "الإسلام ليس عرقًا، بل أيديولوجيَّة تتسم بالتشدُّد، هي الأكثر تطرُّفًا وتشدُّدًا على وجه الأرض". وفي ردٍّ لها على تساؤل إذا كان المسلم المتديِّن يمكن أن يصير سياسيًّا معتدلًا، قالت جيلر "كلَّا، كلَّا، لا يمكن...لا أعتقد أنَّ كثيرًا من المسلمين من متَّبعي سُنن الغرب يعرفون أنَّ بأدائهم الصلوات المفروضة ٥ مرَّات في اليوم، هم يلعنون المسيحيين واليهود ٥ مرَّات في اليوم...أؤمن بمفهوم المسلم المعتدل، ولكن أكفر بمفهوم الإسلام المعتدل. في رأيي، المسلم المعتدل هو المسلم العلماني"، كما نشرت صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ ٨ أكتوبر ٢٠١٠، ونقلت الصحيفة عن لسانها في نفس التاريخ "في

الحرب بين الإنسان المتحضِّر والهمجي، أنتَ تناصر المتحضِّر...إن لم ترقد وتموت بسبب العنصريَّة الإسلاميَّة، فأنت إذن عنصري متعصِّب كاره للإسلام".

نموذج آخر تسلِّط الباحثة عليه الضوء، هو الكاتب والناشط السياسي المحافظ ديفيد هورويتز، مؤسس منظَّمة للدفاع عن الحريَّات تحمل اسمه. صرَّح الكاتب اليهودي لصحيفة كولومبيا سبكتاتور في ١٥ أكتوبر ٢٠٠٧ "تقدِّر بعض استطلاعات الرأي أنَّ ١٠ بالمائة من المسلمين يؤيِّدون أسامة بن لادن وتنظم القاعدة، وقد قدَّر استطلاع لشبكة الجزيرة نسبة هؤلاء بـ ٥٠ بالمائة. بعبارة أخرى، يؤيِّد ما بين ١٥٠ مليون و٧٥٠ مليون مسلم حربًا مقدَّسة على المسيحيِّين، واليهود، والمسلمين الآخرين ممَّن لا يصحُّ إيمانهم بالقرآن، وفق معيار بن لادن". يدعم هورويتز العديد من الجماعات المعادية للإسلام، من بينها مدوَّنة جهاد ووتش، وهو لا يقبل مخالفته رأيه في الإسلام، ويعتقد أنَّ جماعة الإخوان المسلمين تجسيد للإسلام الفاشي، وأنَّها المسيطر على المنظمات التي يؤسسها مسلمون، وعلى رأسها جماعات الطلاب المسلمين في الجامعات. ولديفيد هورويتز مؤلَّفات تعبِّر عن فكره، من بينها **Unholy Alliance: Radical Islam and the American Left–التحالف المدنَّس: الإسلام الراديكالي واليسار الأمريكي** (٢٠٠٤)، والذي يتَّهم فيه اليسار الأمريكي بدعم الإرهابيين المسلمين.

تنتقل بنا الباحثة إلى نموذج آخر من داعمي جماعات نشر الكراهية تجاه المسلمين، وهو اليهودي الأرثوذكسي ديفيد يوروشالمي، آنف الذِّكر، والمعروف بدعمه للعديد من الجماعات المعادية للإسلام. في مقال له نشرته مجلَّة المسلم الأمريكي عام ٢٠٠٧، تحت عنوان " War Manifesto — The War Against Islam–بيان الحرب—الحرب على الإسلام"، قال فيه يوروشالمي بالنصِّ "فيما يُعرف بالحرب العالميَّة على الإسلام، كنَّا واضحين تمامًا، إلى جانب ثلَّة من أولي الحزم: لا بدَّ أن تكون هذه الحرب **حربًا على الإسلام وكلِّ المسلمين**...على الجانب العملي، يعني ذلك حظر الشريعة الإسلاميَّة على الفور. وأيُّ مسلم في أمريكا يعتنق الشريعة التاريخيَّة أو يطبِّق السُّنَّة، ينبغي أن يكون عرضةً للترحيل. وستُغلق المساجد التي تلتزم بالشريعة الإسلاميَّة إلى الأبد. ولن يُسمح لأيِّ مسلم،

صفةً أو مماسةً، بالهجرة إلى هذا البلد". وتعلِّق الباحثة معدَّة الدراسة على تصريحات يوروشالمي، معتبرةً أنَّه يخرج من دائرة القبول في المجتمع الأمريكي أيَّ مسلم يمارس الشعائر الدينيَّة الإسلاميَّة، ويقرن الإسلام المتشدد بالشريعة الإسلاميَّة.

تُلقي الباحثة رباب إبراهيم عبد الهادي، الأكاديميَّة الفلسطينيَّة، أستاذ الدراسات الإثنيَّة ودراسات العرق والمقاومة في جامعة سان فرانسيسكو الحكوميَّة، الضوء على حقيقة علاقة جماعات الضغط الصهيونيَّة في أمريكا بدعم الخطاب التحريضي ضدَّ المسلمين، من خلال تمويل جماعات نشر الكراهية تجاه الإسلام، في دراسة عنوانها " الإسلاموفوبيا وصناعات اللوبي الإسرائيلي: علاقات متداخلة، وتوصيات لسياسات مناهضة العنصريَّة". تتَّهم الباحثة جماعات الضغط الصهيونيَّة الضالعة بنشر رهاب الإسلام باستخدام العنصريَّة والترويج للخوف في إسكات وردع المدافعين عن القضيَّة الفلسطينيَّة، من علماء وباحثين ومعلِّمين. تتناول عبد الهادي في هذه الدراسة، تلك الصناعة الصهيونيَّة، وطبيعة تمويلها وأهدافها، موضحةً أنَّها "ليست بحركة شعبيَّة، إنَّما هي قوَّة عملاقة جيِّدة التخطيط وشديدة الترابط، تستخدم عن قصد أشكالًا مختلفة ممَّا تحتوي عليه ترسانتها العرقيَّة والكارهة للأجانب، في تسليح الهجوم على الإسلام والمسلمين، وبخاصة الفلسطينيِّين" (ص١٤).

تعتقد عبد الهادي أنَّ الإسلاموفوبيا ليس بظاهرة جديدة، إنَّما يعود إلى فترة الحملات الصليبيَّة الأوروبيَّة على المشرق الإسلامي خلال الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر للميلاد، وكذلك يرتبط بفترة طرد المسلمين العرب والأفريقيين من الأندلس نهاية القرن الخامس عشر للميلاد، تختصُّ الباحثة هذه الفترة بالاهتمام؛ كونها شهدت مرحلة بداية إطلاق الرحلات الكشفيَّة في المحيط الأطلسي، والتي أسفرت عمَّا يُعرف بـ "اكتشاف العالم الجديد". في رأي عبد الهادي، استند المشروع الاستيطاني–الاستعماري في قارتي أمريكا الشماليَّة والجنوبيَّة، إلى تفسير معيب للكتاب المقدَّس لتبرير الإبادة الجماعيَّة لمواطني أمريكا الأصليِّين، وكذلك لإضفاء الشرعيَّة على عمليَّات خطف الأفريقيين واسترقاقهم واستعمار دول آسيا وأفريقيا. وتصف الباحثة المخضرمة تأسيس دولة إسرائيل على أرض فلسطين استنادًا إلى وعد إلهي بالمثير للسخرية، خاصَّة مع إلصاق صفة الهمجيَّة والرجعيَّة بالعالم العربي،

الذي ينتمي إليه الفلسطينيُّون، بما يتناقض مع الحضارة والمدنيَّة للثقافة الغربيَّة، التي يتماهى معها بنو إسرائيل. وتُعزى التفرقة العنصريَّة بين الشرق والغرب في الدرجة الأولى إلى ما نشره المستشرقون من أباطيل عن تفوُّق الغرب على الشرق بما يؤهِّل الغرب لفرض سيادته على المشرق الإسلامي. هذا، وترى عبد الهادي أنَّ صناعة الإسلاموفوبيا في العصر الحديث من قِبل اللوبي الصهيوني تحاكي طرق المستشرقين في الماضي، من حيث توظيف الأفكار العنصريَّة والاستعماريَّة في تقديم رجال العالم الإسلامي بوصفهم منحازين للذكور، وكارهين للإناث، ومتعطشين للدماء، فيما تُنعت نساء المسلمين بالاستسلام للظلم، وكذلك بالعجز أمام سطوة الرجال.

تخصص الدكتورة رباب عبد الهادي جزءً من دراستها لتناوُل العلاقة المتداخلة بين الإسلاموفوبيا وصناعات اللوبي الإسرائيلي، من حيث الارتباطات والتمويل والأهداف. كشفت الشبكة اليهوديَّة الدوليَّة المناهضة للصهيونيَّة (IJAN) في تقريرها المعنون The Attack on the Palestinian Movement and Other Movements for Justice: The Business of Backlash–عمليَّة الرد العنيف: الاعتداء على الحركة الفلسطينيَّة والحركات الأخرى للسلام (٢٠١٥)، عن طبيعة اللوبي الإسرائيلي، من حيث آليَّات التكوين، والأعمال، والارتباطات، والتمويل، موضحًا أنَّ صفوة المجتمع من أعضاء اللوبي أخفوا عن الفحص العام بيانات هامَّة، على رأسها بيانات ماليَّة. يشير التقرير أنَّ بحلول عام ٢٠١٥، تبيَّن استثمار ٣٠٠ مليون دولار أُنفقت بصورة مباشرة في دعاية وأعمال مراقبة وحروب قانونيَّة، من أجل إسكات العلماء الفلسطينيين وكتم الحُجَّج والدفاعات الموجَّه لصالح القضيَّة الفلسطينيَّة. ويأتي على رأس قائمة الممولين ملياردبرات يهود فاحشو الثراء يعتنقون الفكر اليميني، من بينهم الإخوة كوك، وشيلدون أديلسون، ومؤسسة برادلي، ومؤسسة كوريت، وحاييم صبَّان، وهو رجل أعمال أمريكي–إسرائيلي من أصول مصريَّة. ويوصف صبَّان بأنَّه أكبر ممولي الحملات الانتخابيَّة للحزبين الديموقراطي والجمهوري، وقد ألقى بسهمه في انتخابات الرئاسة لعام ٢٠١٦ بدعم حملة هيلاري كلينتون، مرشَّحة الحزب الديموقراطي، بـ ٧ ملايين دولار. في المقابل، وعدت كلينتون بأن تجعل من أولويَّاتها

التصدي لحركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS)، وهي حركة فلسطينيَّة غير حكوميَّة تستهدف "المقاطعة، وسحب الاستثمارات، وتطبيق العقوبات ضد إسرائيل حتى تنصاع للقانون الدولي والمبادئ العربية لحقوق الإنسان"، كما تعرِّف نفسها عبر موقعها. يتضمَّن تقرير الشبكة اليهوديَّة الدوليَّة المناهضة للصهيونيَّة قائمة بـ ٣٢ من الجماعات والمنشورات استهدف معظمها مهاجمة العلماء الفلسطينيين بصفة عامَّة، وفي جامعة سان فرانسيسكو الحكوميَّة بصفة خاصَّة.

تشير عبد الهادي إلى أنَّ العلاقة بين الإسلاموفوبيا والعنصريَّة تجاه الفلسطينيين، قد تبلورت حديثًا، ضاربةً المثل في ذلك بسيِّدة الأعمال الأمريكيَّة نينا روزنوالد، التي أسست معهد غايتستون، وهو عبارة عن خليَّة تفكير تتبنَّى الفكر اليميني، وتتَّسم منجزاته الفكريَّة بمعاداة الإسلام. تموِّل روزنوالد أشهر ناشري الكراهية ضدَّ المسلمين، أمثال روبرت سبنسر، وفرانك جافني، وديفيد هورويتز، علاوة على لجنة الشؤون العامة الأمريكيَّة الإسرائيليَّة (الإيباك)، وهي جماعة الضغط اليهوديَّة الأعلى تأثيرًا في الولايات المتَّحدة. غير أنَّ جهود تلك الشبكة المتداخلة لم تؤتِ بثمارها؛ فاستطلاعات الرأي تثبت أنَّ الشعب الأمريكي يميل الاصطفاف مع سائر شعوب العالم في مساندة قضيَّة الشعب الفلسطيني، وتستشهد عبد الهادي في ذلك بنتائج خرج بها مركز بيو الأمريكي للأبحاث في يناير ٢٠١٨ ميلاديًّا، أنَّ دعم إسرائيل انخفض من ٤٥ بالمائة عام ١٩٤٨ ميلاديًّا، إلى ٣٨ بالمائة في هذه الآونة، وليس أدلُّ على ذلك أكثر من رد الفعل السلبي الجماعي تجاه قرار الرئيس الأمريكي، دونالد ترامب، بدعم ضمِّ القدس إلى دولة إسرائيل بوصفها عاصمتها الأبديَّة. تضيف عبد الهادي أنَّ استطلاعات الرأي الحديثة أثبتت وجود معارضة لسياسات إسرائيل بين شباب أمريكا؛ فاليهود من شباب أمريكا، على سبيل المثال، يحجمون عن إسرائيل ويرفضون تحدُّثها باسمهم، وفق ما نشرته صحيفة هآرتس الإسرائيليَّة بتاريخ ٢٢ يناير ٢٠١٨، نقلًا عن تحذير للمدير التنفيذي للوكالة اليهوديَّة.



وبرغم حرص العديد من الجماعات اليهوديَّة المناهضة للصهيونيَّة على التعبير عن معارضتها لإسرائيل وسياساتها، ومن بينها الصوت اليهودي من أجل السلام (JVP)، الشبكة اليهوديَّة الدوليَّة المناهضة للصهيونيَّة (IJAN)، وجماعة لو ليس الآن، يبرع اللوبي الإسرائيلي في إيجاد وسائل لإسكات الأصوات المطالبة بحقوق الفلسطينيين. ولعلَّ الاتهام بمعاداة الساميَّة من أشهر وسائل ممارسة الضغوط على مناصري القضيَّة الفلسطينيَّة، من خلال العزل وتلطيخ السمعة وتدمير المسيرة المهنيَّة، هذا إلى جانب الاتهام بترويج الفكر الداعم للإرهاب ضمن "الحرب على الإرهاب" التي شُنَّت في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة؛ وقد يصل الأمر إلى حدِّ الاغتيال وتلفيق التُّهم الجنائيَّة.

تختتم الدكتورة رباب إبراهيم عبد الهادي دراستها المفصَّلة بالتشديد على ما أثبتته الدراسة عن التداخل، أو لنقل التوافق والتناغم، بين حملات بثِّ الكراهية تجاه المسلمين وأهداف اللوبي الإسرائيلي، الذي ثبت ضلوعه بتمويل العديد من جماعات نشر الخطاب العدائي والتحريضي ضدَّ الإسلام ومعتنقيه. وتشير الباحثة كذلك إلى حقيقة أنَّ الهجمة العدائيَّة ضدَّ الإسلام في الولايات المتَّحدة هذه الآونة ليست جديدة أو استثنائيَّة، بل هي امتداد للخطاب العنصري الكاره للأجانب، الذي تروِّجه الجماعات العنصريَّة، والتي تشجَّعت وازدادت جرأة بوصول دونالد ترامب إلى السُّلطة في يناير ٢٠١٧ ميلاديًّا.

تتناول الباحثة ديبا كومار، أستاذ الإعلام ودراسات الشرق الأوسط في جامعة ولاية نيو جيرسي (روتجرز) استغلال إثارة المشاعر السلبيَّة تجاه المسلمين فيما يُعرف بـ "الحرب على الإرهاب"، في دراسة عنونتها " :Expanding the Definition of Islamophobia

توسيع نطاق تعريف الإسلاموفوبيا: Ideology, Empire and the War on Terror– الأيديولوجيَّة، والإمبراطوريَّة، والحرب على الإرهاب". تستهل الباحثة دراستها بتساؤلها عن سبب الارتفاع الشديد لعدد جرائم الكراهية ضدَّ المسلمين في الآونة الأخيرة، برغم مرور ما يزيد على عقد ونصف على أحداث ١١ سبتمبر، وبرغم عدم وقوع حدث على نفس الدرجة من الخطورة والتهديد؛ أمَّا عن الرد على هذا التساؤل، فهو يتوقَّف على طبيعة فهمنا للإسلاموفوبيا، من حيث الهويَّة والمصادر والأهداف.

وفق تقرير تحت عنوان "Terrorism in America after 9/11–الإرهاب في أمريكا في أعقاب ٩/١١"، أعدَّته مؤسسة أمريكا الجديدة البحثيَّة، لم يتجاوز عدد القتلى الأمريكيين على يد جهاديين منذ أحداث ١١ سبتمبر ١٠٠ شخص، بينما بلغ عدد ضحايا العنف المسلَّح خلال الفترة ذاتها ٤٠٠ ألف شخص. ومع ذلك، يواجه المسلمون يوميًّا تصرفَّات عدائيَّة، تتمثَّل في الهجوم اللفظي، والسباب، والنبذ، وكلُّها من أشكال ما يُعرف بـ "الاعتداءات الصغيرة"، التي تسفر عن صدمات نفسيَّة، وتنعكس بالسلب على الصحَّة ونسبة النجاح الشخصي.

تناولت ديبا كومار في كتابها **Islamophobia and the Politics of Empire– الإسلاموفوبيا وسياسات الإمبراطوريَّة** (٢٠١٢) علاقة صورة المسلم الإرهابي بمجموعة من الممارسات الدَّاعمة لهيمنة الحضارات السائدة في صراع القوَّة بين الشرق والغرب. يشكِّل الإسلاموفوبيا أيديولوجيَّة تقبَّلها الفكر العام فيما يُعرف بـ "الحرب على الإرهاب"، وأصبحت تتحكَّم في طبيعة النظرة الغربيَّة للمسلمين. تقوم هذه الأيديولوجيَّة على مجموعة من الأفكار السلبيَّة السائدة عن المسلمين، تصمهم بالعنف وكراهية المرأة وفقدان الرُّشد. وترى كومار أنَّ الولايات المتَّحدة، التي خرجت من الحرب العالميَّة الثانية إحدى أهم القوَّتين المهيمنتين في العالم، استفادت كثيرًا من نشر الفكر السلبي تجاه البلدان التي تقع تحت سيطرتها؛ للحفاظ على موقعها الريادي، ودحر أيِّ قوَّة صاعدة تهدِّد موقعها. وتفترض كومار في مقالها " Constructing the Terrorist Threat: Islamophobia, The Media & The War on Terror–صناعة التهديد الإرهابي: الإسلاموفوبيا، والإعلام، والحرب على

الإرهاب" (٢٠١٧)، أنَّ "التهديد الإرهابي" صُنع بالقصد لخدمة "أهداف وغايات شتَّى" (ص٦٣).

يتمثَّل تنظيم الدولة الإسلاميَّة في العراق والشام (داعش) حاليًا العدو الأمثل للغرب، وأصبحت إصابته لأهداف غربيَّة تمنح التدخُّل الغربي في العالم الإسلامي المشروعيَّة، مع ما تثير اعتداءات التنظيم من مخاوف، خاصَّة مع الدور الذي يلعبه الإعلام في إبراز هجمات التنظيم، برغم وقوع معظم تلك الهجمات في العالم الإسلامي، وأنَّ ضحاياها من المسلمين. تضيف كومار ملاحظة في غاية الأهميَّة، وهي أنَّ مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها تصنِّف الأسباب الأساسيَّة المؤدية إلى الموت في أمريكا، ويأتي السرطان والأمراض التنفُّسيَّة والزهايمر والانتحار على رأسها؛ ومع ذلك، تُنفق تريليونات الدولارات على الحرب على الإرهاب. وتقول كومار "لو كان الهدف هو الحفاظ على أمن الأمريكيِّين، لوجِّهت هذه الأموال تأسيس نظام مجَّاني للرعاية الصحيَّة وخلق فرص عمل" (ص٦٤).

الوجه الآخر لجهود كارتر لنشر "السَّلام"

في مقال عنوانه "مبادرة كارتر: أسلوب جديد للتَّنصير"، نشرته مجلَّة البيان في عددها ٤٨، في فبراير من عام ١٩٩٢ ميلاديًّا، تناول د. حسن علي أحمد جهود الرئيس الأمريكي الأسبق، جيمي كارتر، وزوجته من أجل السلام، معتبرًا إيَّاها ستارًا يخفي هدفًا آخر، وهو التَّنصير، وفي ذلك يقول "التَّنصير، أو ما يُسمَّى تدليسًا التبشير"، كان دافع الرئيس الأسبق، الذي لم يخفِ سعيه لنشر كلمة الربِّ، لتأسيس مركزه "الذي لاقت أعماله نجاحًا ودعمًا كبيرًا من جمعيَّات التَّنصير العالميَّة" (ص٢٥). يتعرَّض كاتب المقال لم سبق تناوُله في المقال السابق، عن تغيُّر أساليب التَّنصير في العصر الحديث، بتغيير نمط المبشِّرين، من خلال توظيف دارسين وباحثين ومثقَّفين في هذه العمليَّة، التي كانت في السابق حكرًا على رجال اللاهوت المسيحي.

يشير حسن علي أحمد إلى تسليط كارتر اهتمامه على قارة أفريقيا، وبخاصَّة السودان، حيث منح دعمه لجورج قرنق، زعيم الحركة الشعبيَّة لتحرير السودان، وأحد أهم المدافعين عن

تقسيمه إلى دولتين. وأثمرت جهود قرنق عن انفصال جنوب السودان في دولة مسيحيَّة مستقلَّة، موالية لإسرائيل، وقد حدث ذلك عام ٢٠١١، بعد وفاة قرنق بـ ٦ سنوات. وبحجَّة الإشراف على الانتخابات، تغلغل كارتر في أفريقيا، مستغلًّا إغراء المال للمساعدة في حل مشكلات القارة الفقيرة في الثروات، على حد وصفه، في تجاوُز أزماتها، مع وعود رنَّانة بإسقاط بعض الديون وتقليص نسبة الفائدة. يثير حسن على أحمد في مقاله نقطة هامَّة، وهي تعاطُف كارتر الصريح مع غير المسلمين في النزاعات العرقيَّة التي يكون المسلمون طرفًا فيها. يضرب الكاتب المثل في ذلك بالأزمة الطاحنة في ليبيريا، التي راح ضحيَّتها آلاف المسلمين، ما بين قتيل وشريد، واتَّخذ فيها كارتر موقفًا مساندًا للجبهة الوطنيَّة الليبيريَّة، وزعيمها المسيحي المتعصِّب، تشارلز تايلور، الذي صار لاحقًا رئيسًا للجمهوريَّة (١٩٩٧-٢٠٠٣).

وينتقد كاتب المقال تعاطُف كارتر الظَّاهري مع القارة الفقيرة، المحرومة من الكثير من الموارد اللازمة لنهضتها، معبِّرًا عن افتضاح حيلة استغلال حاجة شعوب البلدان النامية إلى المساعدات الإنسانيَّة في إدخالهم إلى حظيرة يسوع المسيح، ومتعجِّبًا من تعبير كارتر عن هذه المشاعر تجاه أفريقيا بعد ترك منصبه، بينما كان بإمكانه فعل الكثير لمَّا كان في السلطة؛ وفي ذلك يقول "في فترة حُكمه لم يزد مجموع المساعدات للقارة-جنوب الصحراء- على ٢٥٠ مليونًا من الدولارات، كانت تضيع في أحسن أحوالها-وكارتر يعلم ذلك-بين قلَّة الذين يسيطرون على مقاليد الأمور هناك" (ص٢٩).

نشرت مجلَّة البيان ذاتها، في عددها ١٠١، الصادر في يونيو ١٩٩٦ ميلاديًّا، مقالًا للباحث محمَّد الأحمري عنوانه "كارتر...من الرئاسة إلى التَّنصير"، وفيه يعلِّق الباحث على تأسيس جيمي كارتر مركزًا لخدمة المجتمع بعد تركه منصبه، أسوةً بالعديد من الرؤساء الأمريكيِّين من سابقيه، مع تميُّز مركز كارتر بطابع ديني يُعزى إلى نشأته الدينيَّة وعمله في التبشير. لا ينكر الباحث الجهود التي بذلها مركز كارتر في شتَّى بقاع الأرض لخدمة قضايا إنسانيَّة، من تقديم خدمات الإغاثة والدعم الصحي لآلاف المنكوبين، ولكنَّه يبلور حقيقة استغلال الرئيس الأمريكي الأسبق هذه المساعدات في تشجيع متلقِّيها على اعتناق المسيحيَّة.

يشير الأحمري إلى ما أطلق عليه مركز كارتر "مشروع القرن"، وهو "مشروع دعم زراعي وديني لمئة وعشرة آلاف عائلة إثيوبيَّة"، الذي يجسِّد افتراض كارتر بأنَّ "تطوير أفريقيا يجب أن يتمَّ روحيًّا وماديًّا" (ص١٠٦). ويضيف الباحث أنَّ مشروع إثيوبيا ضمن عشرات المشاريع في قارة أفريقيا، تقع في كينيا ورواندا وبوروندي وغينيا وغانا وزيمبابوي، وغيرها من بلدان العالم. يفخر كارتر بلقاءاته مع الفلاحين، ممَّن يقبلون دخول المسيحيَّة؛ فيقدِّم لهم هو الدعم الروحي، ويبني لهم الكنائس ويوزِّع عليهم الأناجيل. يدير مركز كارتر خططًا تنمويَّة في أفريقيا من خلال إقناع الإدارة الأمريكيَّة والبنك الدولي وكبرى المؤسسات الماليَّة، بتقديم المساعدات الماليَّة إلى البلدان الناميَّة من خلال مركزه التَّنصيري، وتتولى الكنائس التي يبنيها إدارة مشروعات التنمية (ص١٠٧).

١٠.أحداث ١١ سبتمبر: نموذج للإرهاب "الإسلامي" أم مكيدة لتشويه الإسلام؟

كما سبقت الإشارة، أوضحت الباحثة هدى عبادي، في تقريرها الصادر تحت عنوان " The Carter Center Works to understand and Counter Islamophobia–جهود مركز كارتر لفهم الإسلاموفوبيا ومكافحته"، والذي تضمَّن تقرير مركز كارتر الصادر في مايو ٢٠١٨ ميلاديًّا، أنَّ الجماعات المعادية للإسلام في أمريكا ازداد نشاطها لإثارة الكراهية ضدَّ المسلمين بعد أحداث ١١ سبتمبر. أثارت الاتِّهامات التي وجَّهتها إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق، جورج دابليو بوش، لتنظيم القاعدة بتدبير تفجير برجي مركز التجارة العالمي في ١١ سبتمبر من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، انتقادات بعض المطَّلعين على ملابسات الأحداث عن قُرب، وقد صدرت كتب ومقالات تنفي عن القاعدة الاتِّهامات، بل وتشير بأصابع الاتِّهام إلى الإدارة الأمريكيَّة ذاتها بالوقوف وراء الهجمات، التي لم يستفد منها أكثر من أباطرة تجارة المعدَّات الحربيَّة أو أنصار إسرائيل.

الخديعة الرهيبة (٢٠٠٢): تكذيب لإدارة بوش الابن واتِّهام ضمني للصُّهيونيَّة

سعيًا إلى دحض الرواية الأمريكيَّة الرسميَّة بشأن تفجير برجي مركز التجارة العالمي في ١١ سبتمبر من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، نشر الصحافي والناشط السياسي الفرنسي تييري ميسان

كتابه المثير للجدل **L'Effroyable Imposture–الخديعة الرهيبة** عام ٢٠٠٢ ميلاديًّا، أي العام التالي للتفجير، باعثًا الشكوك حول أهداف التفجير والجهات المنتفعة من الواقعة. حقَّق الكتاب مبيعات هائلة في زمن قياسي، في تأكيد على عدم اقتناع الكثيرين بالأدلَّة التي ساقتها إدارة جورج دابليو بوش على تورُّط جماعات إرهابيَّة محسوبة على الإسلام في الواقعة المدوِّيَّة، وعلى استعدادهم لتصديق ما يثير الشبهات حول ما نشرته الإدارة الأمريكيَّة من أدلَّة، خاصَّة فيما يتعلَّق بادِّعاء تورُّط انتحاريين في التفجير، الذي يرى ميسان أنَّه كان من تنفيذ إدارة بوش. تجدر الإشارة إلى أنَّ قادار بخش بالوش، أستاذ العلوم الإداريَّة في عدد من المؤسَّسات التعليميَّة الباكستانيَّة، قد نشر إصدارًا باللغة الإنجليزيَّة لكتاب تييري ميسان تحت عنوان **9/11: The Big Lie–١١/٩: الكذبة الكبرى**.

نال الكتاب ترحيبًا في الأوساط العربيَّة، حتَّى أنَّه رئيس دولة الإمارات العربيَّة المتَّحدة السابق، الشيخ زايد بن سلطان، دعم ترجمة الكتاب إلى العربيَّة، وأهدى ٥ آلاف نسخة منه إلى شخصيَّات عربيَّة، هذا إلى جانب دعم الجامعة العربيَّة ومجلس التعاون الخليجي، وفق ما تنشره موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة. صاحب ما وجده الكتاب من ترحيب ودعم حملات انتقاد واسعة في عدَّة بلدان، من بينها فرنسا، موطن المؤلِّف؛ حيث انتقدت صحيفة لوموند الشهيرة ما يحمله الكتاب من تناقضات، مشيرة إلى أنَّ تلك التناقضات، إلى جانب غياب الرواية الرسميَّة الشاملة الداعمة لحجَّة ميسان، وراء الشعبيَّة الواسعة التي نالها الكتاب. وكما نقلت صحيفة الجارديان البريطانيَّة في مقال عنوان " US invented air attack on Pentagon, claims French book–الهجوم الجوِّي على البنتاجون من تدبير الولايات المتَّحدة، وفق مزاعم كتاب فرنسي" بتاريخ ١ أبريل من عام ٢٠٠٢ ميلاديًّا، صرَّح متحدِّث باسم وزارة الدفاع الأمريكيَّة (البنتاجون) بأنَّ الكتاب "صفعة على الوجه، وإهانة صريحة للشعب الأمريكي، خاصَّة لذكرى ضحايا الهجمات". ويضيف مقال الجارديان أنَّ فرضيَّة ميسان بأنَّ مبنى البنتاجون لم تضربه طائرة مخطوفة من الخارج، بدأت بشائعة نُشرت عبر الإنترنت، ونالت رواجًا بفضل شهرته وظهوره الإعلامي؛ وذلك رغم أنَّ ميسان يستند في ذلك إلى تناقُض روايات شهود العيان، وقلَّة عدد الصور التي تؤرِّخ الواقعة، إلى جانب عدم

العثور على حُطام تلك الطائرة. أمَّا عن تفجير برجي مركز التجارة العالمي، فرأى ميسان أنَّه كان بفعل طائرات خاضعة للتحكُّم عن بُعد. ويتكوَّن الكتاب من ١١ فصلًا، وزِّعت على ٣ أقسام، هي "إخراج دموي"، و "إعدام الديموقراطيَّة في أمريكا"، و "حملة الإمبراطوريَّة".

القسم الأوَّل: إخراج دموي

يبدأ ميسان تفنديه الرواية الرسميَّة الأمريكيَّة للواقعة بتحليل الزعم بأنَّ طائرة من طراز بوينج ٧٥٧ قد اصطدمت بمبنى البنتاجون، متسائلًا عن مصير حطام تلك الطائرة، التي زعمت الرواية الرسميَّة أنَّه احترق بأكمله، ما رآه ميسان خرقًا جليًّا لقوانين الطبيعة، خاصَّة مع عُمق الدمار الذي أحدثه التفجير، والذي لا يُحدثه سوى صواريخ مدبَّبة مخروطيَّة، كما رأى ميسان. ما يعزِّز هذا الرأي صغر حجم الثقب الذي أحدثه التفجير، الذي لا يتوافق مع حجم الطائرة (١٠٠ طن)، ولا مع سرعتها (٢٥٠–٤٤٠ ميللي أمبير في الساعة)، هذا إلى جانب عدم الإشارة إلى وجود ضحايا من ركَّاب تلك الطائرة، الذين يتساءل ميسان عن مصيرهم. يستنتج المؤلِّف من ذلك أنَّ التفجير لا يمكن أن يكون قد تمَّ إلَّا من خلال قذيفة ألقتها طائرة كانت تحلِّق في الأفق، وأنَّ تلك الطائرة تتبع الجيش الأمريكي؛ فلو كانت طائرة ركَّاب مدنيَّة، لأُسقطت في الحال بمجرَّد اقترابها من مبنى وزارة الدفاع.

يتناول ميسان في الفصل الثاني من كتابه تفاصيل الهجوم على برجي مركز التجارة العالمي، بمحاولته إثبات أنَّ الطائرتين اللتين اصطدمتا بالبرجين ربَّما قيدتا إلى هدفيهما عبر إشارات راديويَّة أُصدرتا من خارج البرجين؛ ممَّا يعني أنَّ دمار البرجين لم ينتج عن احتراق أحدثه وقود الطائرة، إنَّما عن موادَّ متفجِّرة زُرعت داخل البرجين. لم توضع تلك الأمور في الاعتبار، وكأنَّ الإدارة الأمريكيَّة أرادت إلحاق التهمة بتنظيم القاعدة لغرض لديها. علاوة على ذلك، تعرَّض مبنى مركز التجارة العالمي ٧ (WTC 7) للانهيار في ٨ ثوانٍ، بعد ٧ ساعات من انهيار البرجين التوأم، دون أي مسبِّب منطقي. الأخطر من ذلك أنَّ تلك هي المرَّة الأولى في التاريخ التي ينهار فيها برجان بُنيا من الفولاذ في ثوانٍ نتيجة الاحتراق. ويشير ميسان إلى عدَّة أمور أخرى تعجز النظريَّة عن تفسيرها، وهي: إذا كان الانهيار نتيجة احتراق تسبَّب فيه وقود الطائرة التي ضربت البرج الجنوبي، كيف ينهار ذلك البرج ٣٠

دقيقة قبل البرج الشمالي، الذي أصيب قبله بـ ٢٠ دقيقة؟ كيف ينهار البرجان بنفس الأسلوب، إذا كان البرج الجنوبي هو الذي اصطدمت به الطائرة من زاوية قريبة وتسبَّب الاصطدام في إنفاذ وقودها؟ كيف استمرَّ الحريق بدرجة ثابتة تصل إلى ٣ آلاف درجة تحت الحطام، لأكثر من ٣ أسابيع، إذا كان الجزء السفلي للبرجين من الخرسانة، التي تفتقر إلى وجود أوكسيجين يعزِّز استمرار الحريق؟

يثير المؤلِّف عدَّة تساؤلات: كيف انهار البرجان؟ هل استُخدمت موادُّ متفجِّرة، خاصَّة وأنَّ رجال الإطفاء سمعوا أصوات انفجار في الجزء السفلي؟ كيف انهار مبنى مركز التجارة العالمي ٧ (WTC 7)، الذي كان منفصلًا عن البرجين، وظلَّ صامدًا لساعات بعد انهيارهما؟ هل كان هذا البرج يأوي قاعدة لوكالة المخابرات المركزيَّة (CIA)، ولذلك جرى تفجيره؟ لماذا قلَّ عدد الموجودين داخل المبنيين ذلك اليوم عن الأيَّام العاديَّة؟ ومَن الذي أرسل رسائل تحذيريَّة ساعتين قبل التفجير؟ الأهم من ذلك، كيف صرَّح الرئيس جورج دابليو بوش بأنَّه شاهد اصطدام طائرة بالبرج الأوَّل قبل وقت الإعلان عن الواقعة؟ يعني هذا التصريح للرئيس الأمريكي الأسبق أنَّ خدمات الاستخبارات الأمريكيَّة صوَّرت الواقعة، ممَّا يعني أنَّها كانت على علم مُسبقٍ بحدوثها، وهذا ما يدفع للتساؤل: لماذا لم تتحرَّك لإنقاذ الضحايا؟

يختتم ميسان القسم الأوَّل من الكتاب بإثارة شكوك حول نزاهة العاملين في بعض الأجهزة الأمنيَّة والاستخباراتيَّة في الولايات المتَّحدة، متسائلًا حول ما كان يحدث في البيت الأبيض يوم ١١ سبتمبر، ومثيرًا الشكوك حول إمكانيَّة وجود مخطَّط انقلابي يومها. سارع مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) بإعداد قائمة من الخاطفين يبلغ عددهم ١٩ شخصًا، جميعهم عرب ومسلمون تتراوح أعمارهم بين ٢٥ و٣٥ عامًا؛ المفارقة هي أنَّ ٥ من بين الـ ١٩ مشتبهًا به وُجدوا أحياء، وخارج أمريكا. ما يزيد الشكوك أنَّ البورصة الأمريكيَّة شهدت نشاطًا مفرطًا خلال الأسابيع السابقة على هجمات ١١ سبتمبر، وقد طُرحت أسهم الشركات المالكة للطائرات المختطَفة وشركات التَّأمين التي صارت معنيَّة بالأحداث لاحقًا، في تداولات داخليَّة، بصورة تثير الشبهات حول المعرفة المسبقة بإمكانيَّة ارتباط تلك الشركات أحداث

هامَّة لاحقًا، الأمر الذي وعت إليه لجنة الأوراق الماليَّة وعمليَّات البورصة في شيكاغو لاحقًا؛ فمنعت المضاربين من الداخل من إتمام تعاملات لهم بقيمة ٢.٥ مليون دولار أمريكي. ويتساءل المؤلِّف: ألم يُجدر بمكتب التحقيقات الفيدرالي تتبُّع المضاربين الذين تربَّحوا من أموال الشركات المتضرِّرة قبل أيَّام من وقوع الحدث؟

القسم الثاني: إعدام الدِّيموقراطيَّة في أمريكا

يتناول ميسان في هذا القسم استغلال الإدارة الأمريكيَّة أحداث تفجير برجي مركز التجارة العالمي، في الإعلان عن "حرب مقدَّسة" على الإرهاب، من خلال صلوات أقيمت في الكاتدرائيَّة الوطنيَّة الأمريكيَّ، يوم ١٤ سبتمبر ٢٠٠١ ميلاديًّا، شارك فيها، إلى جانب الرئيس جورج دابليو بوش، عددٌ من الرؤساء الأمريكيِّين السابقين (بيل كلنتون، وجورج بوش الأب، وجيمي كارتر، وجيرالد فورد)، في حضور المبشِّر الشهير بيلي جراهام. استغلَّ جورج دابليو بوش كلمته في الإشارة إلى أهميَّة "الردِّ على تلك الهجمات وتخليص العالم من الشرِّ"، ويقصد بذلك الإرهاب المنسوب إلى الإسلام، ليكون بذلك أوَّل رئيس أمريكي على الإطلاق يُعلِن حربًا من داخل كاتدرائيَّة، وهي حربٌ جرت تسميتها "الحرب الصليبيَّة العاشرة"، وكان الصحافي والسياسي الأمريكي، ألكسندر كوكبورن، أوَّل من أطلق هذه التسمية، في مقال نشره في ٧ سبتمبر من عام ٢٠٠٢ ميلاديًّا. وقد جاء في نصِّ خطاب جورج دابليو بوش في اليوم الوطني لتأبين ضحايا الهجمات، البالغ عددهم ٣ آلاف شخص، "**هذه الحرب الصليبيَّة، هذه الحرب على الإرهاب،** سوف تأخذ وقتًا".

استغلَّت الإدارة الأمريكيَّة هجمات ١١ سبتمبر الشهيرة في تضييق الحريَّات، من خلال فرض قانون باتريوت آكت، أو قانون مكافحة الإرهاب، أو قانون الوطنيَّة، كما يُترجم اسمه حرفيًّا (PATRIOT Act). تكمن خطورة هذا القانون في منحه السلطات الرسميَّة في أمريكا الحقَّ في الاطِّلاع على كافَّة الأوراق الشخصيَّة للمواطنين، دون إخطار، علاوة على عدَّة تجاوزات أخرى، من بينها:

–السماح للنائب العام باعتقال أيِّ شخص لمجرَّد الاشتباه؛

–تقييد السلطة القضائيَّة في منع السلطة التنفيذيَّة من استغلال البيانات الشخصيَّة في التحقيقات المتعلِّقة بمكافحة الإرهاب والتحقيقات الجنائيَّة العاديَّة؛

–السماح للسلطة التنفيذيَّة بالتحقيق مع المواطنين بحجَّة أنَّ التحقيق لأغراض استخباراتيَّة؛

– السماح للنائب العام باعتقال أي مواطني أجنبي يُشتبه به، إذا ما اعتُقد في تشكيله تهديدًا للأمن القومي، وقد تمتدُّ فترة الاعتقال إلى ٦ أشهر، دون العرض على المحكمة.

القسم الثَّالث والأخير: حملة الإمبراطوريَّة

يتطرَّق ميسان في آخر أقسام كتابه العلاقة المعروفة بين عائلتي جورج بوش الأب الأمريكيَّة وبن لادن السَّعودية، ووجود شراكة بينهما، وبخاصَّة من خلال مجموعة كارليل لإدارة الأصول والخدمات الماليَّة. يثير ميسان الشكوك حول إمكانيَّة تعاوُن إدارة جورج دابليو بوش مع أسامة بن لادن في إحداث هجمات ١١ سبتمبر، كما سبق وأن تعاوَنت معه وكالة الاستخبارات المركزيَّة في عدَّة عمليَّات، على حدِّ قوله. يستدلُّ المؤلِّف في اعتقاده ذلك إلى استمرار إدارة أصول مجموعة بن لادن الاستثماريَّة، برغم حظر عمل منظَّمات يُشتبه في تمويلها أسامة بن لادن وتجميد أصولها. ينتقل ميسان في الفصل العاشر إلى مسألة في غاية الحساسيَّة، وهي تعمُّد الأمريكيِّين اعتقال الأفغان، واقتيادهم إلى معتقل في خليج غوانتانامو، اشتهر بسوء سمعته، وبحرمان معتقليه من أبسط الحقوق البشريَّة، حتَّى حقوق أسرى الحرب. يستنتج ميسان من كلِّ ما سبق أنَّ أسامة بن لادن لا يمكن أن يكون المخطِّط لأحداث ١١ سبتمبر، إنَّما مخطِّطها الفعلي هو الإدارة الحاكمة. قد يكون الأمر صادمًا لبعض الأمريكيِّين، ولكن لا أحد استفاد ممَّا حدث أكثر من العاملين في مجال الطاقة والتسليح، وهو أباطرة المال من اليهود.

١٠."وشهد شاهدٌ من أهلها": ضابطة اتصال أمريكيَّة تتهم الإدارة الأمريكيَّة بالإهمال في منع هجمات سبتمبر

وفق بياناتها الشخصيَّة على موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة، سوزان لينداور هي ضابطة اتصال أمريكيَّة سابقة لدى جهاز الاستخبارات الأمريكي سي آي إيه، وتعمل حاليًا كاتبة وناشطة في

مجال مناهضة الحروب. اكتسبت ليندارو شهرة بعد كشفها ملابسات ما حدث في أحداث ١١ سبتمبر من عام ٢٠٠١، ميلاديًّا، **وادِّعائها أنَّ العمل التفجيري دُبِّر بمعرفة السلطات الرسميَّة، كذريعة للهجوم على دول إسلاميَّة بتهمة رعاية الإرهاب.** سُجنت سوزان ليندارو عام ٢٠٠٤، وأُفرج عنها عام ٢٠٠٩، بعد إثبات عدم أهليَّتها للمثول أمام المحكمة؛ فأُسقطت عنها التُّهم المنسوبة إليها. وليندارو هي ثاني مواطنة أمريكيَّة تُحاكم بموجب قانون Patriot Act، المعروف بالعربيَّة باسم قانون مكافحة الإرهاب، الذي سُنَّ في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر ليمنح الشرطة الأمريكيَّة الحق في مراقبة الأشخاص وتفتيش منازلهم للتحرِّي عن أي مؤامرة إرهابيَّة تُدبَّر.

حوار سوزان ليندارو على قناة روسيا اليوم

حلَّت ليندارو ضيفة على برنامج **رحلة في الذاكرة**، في سلسلة تحمل عنوان "رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر"، التي عرضتها قناة روسيا اليوم عام ٢٠١٣ ميلاديًّا، وأدلت بشهادتها على ما حدث بالضبط قبيل الحدث المدوِّي في نيويورك، وهو ما سبق وأن نشرته في كتاب عام ٢٠١٠، أطلقت **عليه Extreme Prejudice: The Terrifying Story of the Patriot Act–تعصُّب رهيب: القصَّة المخيفة لقانون مكافحة الإرهاب.** أشارت ليندارو في البداية إلى أنَّ بلادها كان تتذرَّع قبل أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة بعام للسيطرة على بعض أجزاء من العالم الإسلامي، بحجَّة كشف مؤامرات إرهابيَّة. تقول ضابطة الاتصال السابقة أنَّ السلطة الرسميَّة كانت على علم بتنفيذ عمل إرهابي في ميناء عدن، عند تفجير المدمِّرة الأمريكيَّة تفجير يو إس إس كول في أكتوبر من عام ٢٠٠٠، وبدلًا من اتخاذ التدابير اللازمة، سحب جهاز الاستخبارات الأمريكي وإدارة الأمن القومي الحراسة من المدمِّرة؛ "**لأنَّهم كانوا يريدون إرسال قوَّاتهم إلى السواحل اليمنيَّة ويحتاجون إلى ذريعة**".

تلفت ليندارو النظر إلى "نقطة مفصليَّة"، **وهي استعداد العراقيين للتفاوض مع أمريكا بأي ثمن، مقابل رفع الحصار عن بلادهم.** الأهم هو إبداء العراق الاستعداد لمعاونة أمريكا في محاربة الإرهاب، ولو تطلَّب الأمر تنفيذ عمليَّات لمحاربة الإرهاب عبر أراضيه؛ وهنا أبدى المحاور اندهاشه، قائلًا "يصعب عليَّ تصديق أنَّ العراق وافق على أن يكون ربَّما كمستعمرة

أمريكيَّة، بناءً على ما تكتبين في كتابك... **يبدو العراق هكذا ربَّما أكثر ولاءً من السَّعودية ودول الخليج مجتمعةً**"، فأجابت لينداور "نعم، هكذا تمامًا، هذه مسألة مدهشة للغاية... **كان العراق في حالة يأس، وكان العراقيُّون لعمل أيِّ شيءٍ لكي يتخلَّصوا من العقوبات. كان صدَّام حسين واثقًا تمامًا من أنَّ الولايات المتَّحدة ينبغي أن ترى إلى أيِّ مدى كان صدَّام صديقًا لها طوال العقود الماضية. انظر! أليس هذا من سخرية الأقدار؟**" تشير لينداور هنا إلى التقارب بين النظام العراقي بعد الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا والنظام الإيراني، الذي يعتبر من أبرز أعداء الولايات المتَّحدة. تضيف ضابطة الاتصال السابقة "**تدمع عيناي عندما أتذكَّر الثمن الذي حاولت الحكومة العراقيَّة أن تدفعه لتقنع الولايات المتَّحدة بأنَّها بحاجة إلى العراق ليقع في وجه التهديد الإيراني، ولكنَّ واشنطن لم يكن في رغبتها الاستماع لكلِّ ذلك. كانت تعدُّ ذريعة لبدء الحرب**".

تنتقل لينداور إلى مسألة أخرى، **وهي وصول معلومات إلى السلطات الرسميَّة الأمريكيَّة تفيد بإمكانيَّة استخدام طائرات مفخَّخة لضرب البرجين التوأم في نيويورك، وأن ريتشارد فيوز، المشرف على عملها، طلب منها نقْل تلك المعلومة إلى دبلوماسيين عراقيين، وتهديدهم بضرب بلادهم، إن لم يتعاونوا مع أمريكا في هذا الصدد.** قالت لينداور وقتها أنَّ العراقيين كانوا على استعداد للتعاون بأي معلومة تفيد، وأنَّ التهديد لم تكن له أي جدوى حينها. غير أنَّ فيوز أصرَّ على لهجة الإهانة والتهديد، قائلًا لها "أبلغي هؤلاء الأوغاد أنَّنا سنقصفهم قصفًا. إن كانوا يعرفون شيئًا، فالأفضل لهم أن يخبرونا به، وإلَّا سنطأهم وطئًا لم يتعرَّضوا لمثله من قبل". **الأهم أنَّ فيوز قال لها أنَّ التهديد صادر من أعلى مستويات الدولة،** وأنَّ هذا القصف "سيعيدهم إلى العصر الحجري"؛ **ففهمت لينداور أنَّ المقصود هو إمَّا رئيس أمريكا، أو نائبه، أو وزير الدفاع، وفهمت كذلك أنَّ العراقيين لم تكن لديهم معلومات كهذه، وبالتالي فعدم إخبارهم سيكون ذريعة لغزوهم بعد هجمات ١١ سبتمبر.** المفارقة أنَّ العراقيين ردُّوا في مايو من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، مشيرين إلى أنَّ الأمريكيين كان عليهم إرسال خبراء من مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، إذا كانوا يعتقدون أنَّ هناك مؤامرة، وأنَّ للأمريكيين كامل الحريَّة في القبض على "المتآمرين"، إن وُجدوا. تقول لينداور "**يبدو واضحًا**

أنَّ العراق سعى دائمًا إلى التعاون؛ حرص العراق دائمًا على تقديم كلِّ ما أرادته واشنطن. وكان ردُّ العراقيين سليمًا تمامًا؛ قالوا إذا كنت ترون أنَّ هناك شيئًا لدينا على غير ما يرام، فتعالوا وابحثوا بأنفسكم".

ظلَّ الهجوم الإرهابي على مركز التجارة العالمي مرتقبًا طوال صيف عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، وتقول ليندا‌ور أنَّها كانت تتحدَّث إلى أصدقائها عن احتماليَّة حدوث تفجير لبرجي المركز باستخدام طائرات مخطوفة، وأنَّ الهجوم كان متوقَّعًا خلال صيف ٢٠٠١، أو في خريف العام ذاته. وتقول ليندا‌ور، ردًّا على سؤال المحاور عن مصدر معلومة حدوث التفجير، قائلةً أنَّ جهاز الاستخبارات ذاته كان مصدر تلك المعلومة، وأنَّ الإدارة الأمريكيَّة كانت تدرس الأمر بعناية؛ لأنَّ المعلومة وصلت إلى أعلى مستويات الإدارة. وكان ريتشارد فيوز على ثقة تامَّة بوقوع الأحداث، لدرجة أنَّه نصح ليندا‌ور بعدم الذهاب إلى نيويورك، لمَّا أرادت الذهاب لمعاودة سؤال الدبلوماسيين العراقيين أن أيِّ معلومات جديدة في هذا الصدد؛ والسبب هو توقُّع فيوز حدوث التفجيرات بين عشيَّة وضحاها، وسقوط عدد كبير من الضحايا. ومع ذلك، غامرت ليندا‌ور بالسفر إلى نيويورك، وقابلت الدبلوماسيين العراقيين، الذين نفوا معرفتهم بالأمر، قائلين لها "أنتِ المصدر الوحيد الذي يتحدَّث طوال الوقت عن العمل الإرهابي".

تقول ليندا‌ور أنَّ كافَّة المعلومات كانت لدى الإدارة الأمريكيَّة، بما في ذلك الهدف، وكان الجميع ينتظر، دون أخذ تدابير وقائيَّة ملموسة؛ فقد كان من الممكن وضع نظم للدفاع الجوي على سطح برجي التجارة، فيصبح من السهل إسقاط أي طائرة تقترب منهما. تعيد ليندا‌ور التأكيد على أنَّ هناك فئة معيَّنة في أعلى هرم السلطة أرادت أيَّ ذريعة للهجوم على العراق، **حتَّى أنَّ الرئيس جورج دابليو بوش أعلن في أبريل ومايو من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، أنَّ العراق ستتعرض لهجوم أمريكي، إذا أخفت إدارة صدَّام حسين معلومات تتعلق بتعرُّض أمريكا لهجوم إرهابي**. تقول ليندا‌ور "**بذلك حاول بوش تهيئة المجتمع الاستخباراتي بأنَّه ينبغي توقُّع شنِّ الحرب على العراق، إذا لم يقدِّم معلومات عن الهجوم المحتمل على أمريكا**". **في حين أكَّد العراقيُّون عدم وجود أيِّ معلومات لديهم في هذا الصدد**. أمَّا بعد حدوث التفجيرات، فقد واجه العراقيُّون سوزان ليندا‌ور باتهام صريح بتدبير تلك الهجمات، فقط

من أجل إيجاد ذريعة لقصف العراق، "سمحتم بقتل أبناء شعبكم في هذه الهجمات؛ فقط لأنَّكم أردتم التخلُّص من صدَّام حسين...تكرهونه لدرجة أنَّكم مستعدُّون للتضحية بشعبكم من أجل التخلُّص منه...فقط لكي تجدوا مبرِّرًا للحرب". وقال أحد الدبلوماسيين للضابطة السابقة "إنَّني لأعجب كيف ستقفون بين يدي الله بعد كلِّ ما فعلتموه". اتَّهم الدبلوماسيون العراقيون الموساد الإسرائيلي بنشر الشائعات حول تورُّط نظام صدَّام حسين في هجمات سبتمبر، مدَّعين أنَّ كراهيتهم لصدَّام أعمتهم، وأنَّ المسألة كلُّها تتعلَّق بمحاولة إيجاد سبب لضرب العراق.



صورة ٥-رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر

تنتقل لينداور إلى مسألة جديدة في غاية الأهميَّة، وهي إيضاح كذب ادِّعاء أنَّ تفجير البرجين كان بسبب اصطدام الطائرات المفخَّخة بهما، بينما كان التفجير من خلال عمليَّة تُعرف بـ "التدمير المُتحكَّم فيه" للبرجين. تقول الضابطة السابقة "كان من المطلوب خداع استغفال الشعب، بحيث يظنُّ أنَّ مختطفي الطائرات وجَّهوا طائراتهم إلى المبنيين، فدُمِّرا". تضيف لينداور "قليل من يعرف أنَّ في الفترة من ٢٢ أغسطس حتَّى ٢ سبتمبر (٢٠٠١ ميلاديًّا)، كانت شاحنات مجهولة الهويَّة تأتي في الثالثة فجرًا إلى مركز التجارة العالمي..."

فوجئت لينداور باتصال هاتفي من مشرفها ريتشارد فيوز، فور تفجُّر البرج الأوَّل، ووقع-على حدِّ قولها-في خطأ لم يكن يقصده، حيث قال لها "**هل يُعقل أن يقع رجل وامرأة معهما كاميرات مثبَّتة أمام موقع الأحداث؟**"، **وما قصده هو أنَّه كان هناك ترقُّب من بعض الصحافيين والمصوِّرين للحدث، وكأنَّما عرفوا بموعد وقوعه. ما يثبت صحَّة هذا الاعتقاد هو أنَّ التصوير لم يكن عرضًا؛ لأنَّ الكاميرا كانت تصوِّر بمنتهى الثبات. أضافت ليندوار أنَّ فيوز قال لها عن وجود مجموعة "من الموساد" كانت موجودة في موقع الحدث، وهي**

التي صوَّرت اللحظات الأولى لاصطدام الطائرة بالبرج الأوَّل؛ فكان التصوير في منتهى الوضوح. كانت تلك المجموعة موجود منذ الصباح، وتنتظر بالكاميرات، ترقُّبًا للحدث، كأنَّما كانوا على علم به. تقول لينداور "**ريتشارد فيوز عميل للسي آي إي رفيع المستوى؛ لذا كان بإمكانه أن يعرف بهذا التصوير. كان على عملاء الموساد أن يصوِّروا بالفيديو هجوم الطائرة الأولى على المركز التجاري، ويرسلوا ذلك فورًا إلى قمَّة السي آي إيه خلال ساعة على الأكثر...تصوَّر على أيِّ درجة كانت الاتصالات بالموساد داخل السي آي إيه، بحيث أنَّهم أوصلوا الشريط فورًا إلى أعلى مستوً، وجرى نقله بسرعة إلى أعلى المناصب في الولايات المتَّحدة**".



صورة ٦-رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر

كانت هذه المعلومات مصدر التصريح الذي أدلى به بوش فور وقوع الهجوم الأوَّل، والذي قال فيه أنَّه رأى تسجيلًا يصوِّر كيف اصطدمت طائرة ببرج التجارة الأول بعد ٥ دقائق من وقوع التفجير، أي قبل عرضه على التلفاز، ثم عاد وكرر ذلك، مشيرًا إلى اعتقاده بأنَّ الاصطدام كان خطأً من الطيَّار. وهنا تقول لينداور "الموساد يحاول ضبط حركة السي آي إيهه، ويبلغها ما يراه ضروريًّا لإسرائيل".

تشير ليندوار إلى أنَّها واجهت مديرها ريتشارد فيوز في مكالمة هاتفيَّة أجرياها فور تفجير البرج الأوَّل، بقولها أنَّها ظلَّت تتحرري من العراقيين على مدار أشهر عن أيِّ معلومات عن عمل إرهابي يستهدف تفجير مركز التجارة العالمي، وأكَّدوا لها عدم معرفتهم، بينما كان الموساد على علم، ولم يخبرهم بالأمر. **فهمت ضابطة الاتصال السابقة حينها أنَّ**

الإسرائيليين "ضحُّوا بأبناء شعبنا وأهلنا؛ لكي يقحمونا مع قياداتنا في حرب حمقاء، لم تكن أبدًا في مصلحة الولايات المتَّحدة. نحن لم تكن لدينا أيُّ مشاكل في العراق، وليس هناك ما يبرر شنَّ الحرب عليه". والمفارقة أنَّ الاتصال انقطع فورًا مع فيوز، ولا تدري ليينداور إذا كان هو من فعل، أم أنَّ الاتصال قُطع عن عمد. تواصل ليينداور تعبيرها عن استيائها من إقدام الإدارة الأمريكيَّة على شنِّ حرب العراق، قائلةً "لقد أنفقنا ٦ تريليونات دولار محسوبة على عجز الميزانيَّة، ودفعنا بالطبقة الوسطى كلِّها إلى الإفلاس، وارتفعت عندنا الضرائب، واختفى جزءٌ كبيرٌ من الضمانات الاجتماعيَّة؛ كلُّ ذلك لأنَّنا نحن الأمريكيين لم نعد نملك إدارة شؤون بلادنا. الأدهى من ذلك أنَّنا دفعنا أيضًا الثمن في صورة القانون الوطني (قانون مكافحة الإرهاب)، الذي قلَّص إلى حدٍّ كبير حقوقنا المدنيَّة". أضافت ليينداور أنَّ المشكلة تكمن في أنَّ أمريكا أدارها حينها شخصٌ انتقاميٌّ حقودٌ، أضرَّ بمصلحة البلاد بسبب غبائه.



صورة ٧-رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر

تذكُر ليينداور بعد ذلك أمرًا في غاية الخطورة، وهو **اتصال الموساد بها أثناء إجرائها مَهمَّة في العراق، لمساومتها بدفع مبلغ خيالي لها، مقابل وثائق ماليَّة وتقارير مصرفيَّة، ومعلومات دقيقة أخرى عن حسابات تنظيم القاعدة.** كان صدَّام حسين قد أعلن بعد أحداث ١١ سبتمبر، عن امتلاكه تلك المعلومات، التي عرضها على أمريكا، إذا كانت تسعى إلى معرفة مصادر تمويل القاعدة. **الخطير في الأمر ليس عرض الموساد مبلغًا خياليًّا مقابل تلك الوثائق فحسب، إنَّما كذلك استعداد صدَّام حسين للتعاون مع الإدارة الأمريكيَّة، بالكشف عن بيانات حسَّاسة عن القاعدة؛ حيث عرض أن يأتي فريق من مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى العراق لإجراء تحقيق. المثير للاهتمام أنَّ العراق خشيت تسليم تلك الوثائق**

إلى السي آي إيه؛ خشية إتلافها عن عمْد، لطمس أيِّ أدلَّة على تجاوُب العراق بشأن مكافحة الإرهاب. رفضت الولايات المتَّحدة تسلُّم هذه الوثائق، التي كانت لتوضح مصادر تمويل القاعدة، وتثبت كذلك حُسن نيَّة العراق الراغب في التعاون مع الإدارة الأمريكيَّة لإنهاء حصاره. تقول لينداور أنَّها ربَّما الوحيدة التي رفضت عرضًا كهذا؛ فالجميع في بلادها لا يمانعون التعاون مع الموساد في مقابل المال. تقول سوزان لينداور بالنَّص "**في واشنطن، الجميع يقبضون أموالًا من الموساد، كلُّهم يقبضون...الكثيرون اعترفوا لي في أحاديث شخصيَّة أنَّهم قبضوا من الموساد...أقصد من العاملين في السي آي إيه، ومن الساسة الأمريكيين...يقبضون من الأيباك، وهو أقوى الهياكل الماليَّة التي تدفع في واشنطن...والأيباك والموساد مرتبطان بشكل وثيق**". الأيباك –AIPAC هو اختصار لجنة الشؤون العامة الأمريكيَّة الإسرائيليَّة، وهي إحدى جماعات الضغط على أعضاء الكونغرس الأمريكي، وهدفها تحقيق الدعم الأمريكي لإسرائيل، كما تخبر عنها موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة.



صورة ٨–رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر

ذكَرَت ليندوار **بشأن تورُّط إسرائيل في أحداث ١١ سبتمبر أنَّها علمت من مسؤول رفيع المستوى،** أنَّ سيَّارات غريبة كانت تنقل متفجِّرات إلى برجي مركز التجارة العالمي على مدار ١٠ أيام، قبل الأحداث بأسبوع واحد. والمثير فيما قاله هذا المسؤول، غير المكشوف عن هويَّته، **أنَّ المؤسسات الرسميَّة الأمريكيَّة وحدها هي من يمكنه نقل متفجِّرات بسيَّارات كهذه. ذكَرَت ليندوار أنَّ المسؤول السري قال لها، أنَّ الكاميرات المثبَّتة في مرآب السيَّارات أسفل برجي مركز التجارة العالمي التقطت مقاطع سجَّلت نشاطًا غريبًا، تمثَّل في مجيء**

ثلاث أو أربع سيَّارات إلى المرآب، وكان مجهولون يخرجون منها "موادَّ مجهولة"، ثم يغادر هؤلاء قبل مجيء الموظَّفين ومباشرتهم أعمالهم. استنتج المسؤول غير المصرَّح بهويَّة **أنَّ حمْل تلك المواد إلى أسفل البرجين خلال الفترة ما بين ٢٢ أغسطس وحتَّى ٢ سبتمبر** (٢٠٠١ ميلاديًّا)، **كان في إطار الإعداد للأحداث التي هزَّت العالم بأسره.** تعرِّف لينداور تلك المواد بأنَّها "**موادَّ جاهزة تمامًا للتفجير، وكان من الضروري تثبيتها**"، **مضيفةً أنَّ الاختصاصيين أجروا تحليلات نظريَّة وعمليَّة، و"أثبتوا عمليًّا أنَّ عملًا تحضيريًّا قد أُعدَّ لوضع المتفجِّرات في البرجين؛ وبات واضحًا بالدليل القاطع أنَّه لا يمكن لأيِّ طائرة إسقاط البرجين بتلك الطريقة**". وجد المحللون في مكان التفجير أثر موادَّ تفجير نووي، مما يؤكِّد أنَّ الهيكل الفولاذي للمبنيين قد دُمِّر من خلال تفجير؛ إذ يستحيل إذابته بهذا الشكل من خلال اصطدام طائرة مفخَّخة فحسب، مما أغرى لينداور ومعاونين لها باستنتاج أنَّ اصطدام الطائرتين بالبرجين كان مصحوبًا بتدمير من الداخل. **تشير لينداور بأصابع الاتهام فيما حدث إلى شخصيَّات بارزة في السي آي إيه، الذين أرادوا إشعال حرب في العراق بأيِّ ثمن،** وفي هذا تقول "الأمر ينطوي على مؤامرة من بعض الشخصيَّات من داخل الاستخبارات، من الذين رغبوا في إشعال الحرب في العراق؛ **لأنَّ العديد من عملاء الاستخبارات الأمريكيَّة يحملون جنسيَّة ثانية، الإسرائيليَّة. إنَّهم في آن معًا مواطنون أمريكيُّون وإسرائيليُّون، وهم يعتمدون العمل المؤيِّد لإسرائيل وفق مبدأ المحافظين الجُدد**".

تؤكِّد لينداور أنَّ **غالبيَّة العاملين في جهاز الاستخبارات الأمريكي كانوا يتمنون إيقاف العمل الإرهابي، وأبلغوا النائب العام الأمريكي بما لديهم من معلومات، مشيرين إلى توقُّعهم حدوث عمل إرهابي مدوٍّ. غير أنَّ المسؤولين آثروا الصمت، وسبب الصمت أنَّ فئة قليلة، تُقدِّرها لينداور بـ ١٥ بالمائة من العاملين في الجهاز من الأعظم شأنًا فيه، أرادوا تنفيذ الهجوم، برغم علمهم بالتدبير له.** في رأي ضابطة الاتصال المتَّهمة بفقدان الأهليَّة للمثول أمام القضاء، شارك هؤلاء في تنفيذ العمليَّة، من خلال تغاضيهم عن زرع المتفجِّرات، ومن خلال عدم الاهتمام بالمعلومات الاستخباراتيَّة التي وصلتهم من أسفل هرم السلطة؛ "**لم تكن مجرَّد عمليَّة فاشلة في اختطاف طائرات، بل مساهمة نشيطة في وضع المواد المتفجِّرة،**

والمتابعة، بحيث يجري الأمر وفق المخطَّط المرسوم له". تضيف لينداور أنَّ رجال الإطفاء سمعوا ما يشبه "سلسلة انفجارات"، وكان كلُّ ذلك بإشراف من "أصحاب الجنسيَّات المزدوجة" من رجال السي آي إيه؛ حيث كان الأمر "**مخطَّطًا مشتركًا مع الموساد، وكان الموساد–دون أدنى شكٍّ–موغلًا حتَّى العُمق في العمليَّة**".

تروي سوزان ليندوار بعد ذلك **قصَّة القبض على خمسة إسرائيليين، بعد ضبطهم وهم يرقصون سرورًا بالهجوم على الأبراج، وقد أُبعدوا إلى إسرائيل، بدلًا من الزجِّ بهم في السجن، على حدِّ قولها**. قُبض على الخمسة أثناء رقصهم على الجسر، بالقرب من شاحنة بها متفجِّرات. أظهرت التحقيقات أنَّ ثلاثة من هؤلاء كانوا من الموساد، وبسؤالهم عن سبب رقصهم، قالوا أنَّهم شعروا بأنَّ شيئًا ما حَدَث **سيدفع الإدارة الأمريكيَّة إلى مساندة قضيَّة بلادهم** "**أخيرًا...مدركةً مَن هم الإرهابيُّون الحقيقيُّون**"، **ويشير المحاور إلى قصدهم العرب والمسلمين**.



صورة ٩–رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر

تتطرَّق ليندوار إلى تغيُّر عقليَّة الأمريكيِّين بعد أحداث ١١ سبتمبر، حيث كانت غالبيَّة موظَّفي السي آي إيه يدعمون إسرائيل، و"كانت إسرائيل صديق الولايات المتَّحدة، دون أن يشكِّك في ذلك أحد. سرنا كتفًا إلى كتف كشركاء في مكافحة الإرهاب...معظم الناس صدَّقوا ذلك، ولكن **بعد ١١ سبتمبر، حدثت صحوة من نوع خاص داخل الاستخبارات**". بعد أن كانت إسرائيل تحصل تراضيًا من الناس على كافَّة الامتيازات، كما لو أنَّ الناس تغاضوا عمدًا عن "المخططات الأنانيَّة" للإسرائيليين، انتبه الأمريكيُّون إلى أنَّ إسرائيل ليست معهم في طريق واحد على الإطلاق، على حدِّ قولها. لمَّا علم الشعب الأمريكي بأنَّ إسرائيل كانت

على علم بالتدبير المُعدِّ مسبقًا للتفجيرات، وامتناعها عن تزويد أمريكا بالمعلومات، ودعمها حرب العراق (٢٠٠٣) لتنفيذ مصالح شخصيَّة ليس للشعب دخل فيها، قالوا "**مهلًا، نحن لسنا أغبياء إلى هذه الدرجة، نحن نعلم جيِّدًا أن المبنيين فُجِّرا، ولدينا شكوكٌ جديَّةٌ جدًّا بأنَّ الأشخاص الإسرائيليين ذوي الجنسيَّات المزدوجة...هم عملاء للموساد، وهم من تلاعبوا بالوضع في مؤسسة استخباراتنا**".

تستكمل لينداور حوارها على قناة روسيا اليوم، وتتحدَّث في الجزء الثاني عن **إلقاء القبض عليها، واتهامها بالتجسُّس لصالح مخابرات أجنبيَّة، هي المخابرات العراقيَّة.** تجيب لينداور عن سؤال المحاور عن سبب القبض عليها، موضحةً أنَّ قبل اعتقالها بشهر، أرادت الإدلاء أمام الكونجرس بشهادتها فيما يتعلَّق بتحقيقات أحداث ١١ سبتمبر. **أرادت لينداور رواية الحقيقة بخصوص المعلومات الاستخباراتيَّة التي وصلت إلى جهاز الاستخبارات الأمريكي؛ فاتصلت بأكثر من سيناتور، من بينهم جون ماكين، المسؤول عن قائمة الشهود، وطالبت بوضع اسمها ضمنهم.** لم تكن لينداور ضليعة في أمور التسريب؛ **فآثرت الإدلاء بالمعلومات التي لديها "من خلال القنوات الرسميَّة؛ لمناقشة هذه الأمور علانيةً"**، وكانت هذه العلانية سبب اتهامها لاحقًا. تقول لينداور "كانت التهمة التي وُجِّهت إليَّ فيما بعد أنَّني تحدثتُ عن تلك الأمور علانيةً عبر قنوات رسميَّة؛ **وكان أعضاء الكونجرس، من الجمهوريين والديموقراطيين، يخشون للغاية أن تنكشف الحقيقة كلُّها للناس...أن يعرف بذلك الشعب الأمريكي، والمجتمع الدولي، وخاصَّةً الشعوب العربيَّة**". تتهم الضابطة السابقة السلطات الرسميَّة بالمبالغة في الكذب حول أحداث ١١ سبتمبر، واختلاف صورة زائفة بالكليَّة "للنشاط الاستخباري ضدَّ العراق وصدَّام حسين"، وكان المسؤولون "مستميتين في الدفاع عن كذبهم".

تشتير ليندا ور إلى أنَّ نشاطها مع الدبلوماسيين العراقيين في سبيل منع الغزو الأمريكي على العراق تكثَّف في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، لكن إدارة بوش الابن أصرَّت على الحرب. تقول ليندا ور نصًّا "**كنتُ عميلًا للسي آي إيه يسعى إلى السلام، وكان بوش لا يرغب إلَّا في الحرب...طوال فترة عملي بذلتُ جهدي لتحريك القضيَّة نحو التسوية**

السياسيَّة...ناضلت من أجل ذلك، وأوصلتُ صوتي إلى كلِّ عضو في الكونجرس. إلى كلِّ عضو ديموقراطي وجمهوري، إلى أعضاء مجلس الأمن الدولي أيضًا. وتحدَّثُ في هذا الموضوع أمام الجمعيَّة العامَّة للأمم المتَّحدة. وفي الوقت الذي حاولتُ فيه إيصال صوتي إلى الجمعيَّة العامَّة للأمم المتَّحدة، كان جورج بوش وتوني بلير يدفعان باتِّجاه الحرب، إنَّهما مجرما حرب حقيقيَّان، روَّجا الأكاذيب، وتلك القصص اللامعقولة عن أنَّ بغداد تخبئ أسلحة الدمار الشامل، وإذا بي أقف في وجه هذه الادعاءات الزائفة، أنا ضابط اتصال لدى السي آي إيه رقم ١ في الشأن العراقي، وأقول علنًا هذا غير صحيح، وليس في العراق أيُّ أسلحة دمار شامل. العراق موافقٌ على كلِّ شروطنا تمامًا!".



صورة ١٠-رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر

أصبحت ليندوار من "المغضوب عليهم" لأنَّها رفضت تهيئة الأمور على النحو المناسب لما أراده بوش، وهنا يقاطع المحاور ليندوار، مشيرًا إلى **قصَّة سكوت ريتر، الذي عمل لسنوات طويلة في العراق، وكان يترأَّس فريقًا من المفتِّشين عن أسلحة الدمار الشامل، وقد أبلغ القيادة الأمريكيَّة مئات المرَّات بأنَّ العراق لا يملك أيَّ أسلحة للدمار الشامل.** المفارقة أنَّ جورج دابليو بوش بعد عام على حرب العراق، قال في خطاب جماهيري "**إنَّ المهمَّة الأمريكيَّة في العراق لم تُنفَّذ**".



صورة ١١-رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر

تعالت صيحات **الاستنكار في صفوف الشعب الأمريكي في ذلك الحين، بعد أن بدأت الحقائق تتكشَّف، وأدرك الناس ألَّا وجود لأسلحة دمار شامل في العراق، كما ادُّعي، وكما أعلن بوش وبلير لاحقًا.** في هذا الحين، **خاف الديموقراطيُّون والجمهوريُّون من معرفة الناس الحقيقة، وأنَّ السلطة كانت تكذب عليهم. كان بوش الابن يستعدُّ للترشُّح لفترة رئاسيَّة ثانية؛ فخاف من خسارة أصوات الناخبين، بعد انتشار الحديث عن حقيقة أسباب الحرب، التي سارت "بخلاف السيناريو المخطَّط له"**، وكان من المتوقَّع تفاقُم الأزمة إذا ما أراد الشعب محاسبة السلطة على أضرار الحرب. كان سبب السخط أنَّ الكثيرين من الأمريكيين أصبحوا مهدَّدين بفقدان وظائفهم، عندئذٍ، قررت السلطات أن تتنصَّل من المسؤوليَّة بكلِّ الطرق، واتَّضح أنَّ كلَّ أولئك المسؤولين الكبار، الذين دفعوا العالم إلى هذه الكارثة هم جبناء تنقصهم الشجاعة، قررُّوا أن يحمِّلوني أنا مسؤوليَّة كذبهم، وأن يجعلوا منِّي كبش فداء". تقول ليندارو هذه الكلمات في أسف بالغ، مذكِّرة العالم بأنَّ "البيت الأبيض أعلن أنَّ المسؤوليَّة عن الحرب تتحمَّلها أجهزة المخابرات، وليس الساسة الذين اتَّخذوا قرارات خاطئة"، بل وقال "هؤلاء الجالسين في الكونجرس أصغوا إلى ما يقوله عملاء الاتصال الأغبياء...الأجهزة المختصَّة-حسب قولهم-جمعت معلومات استخباريَّة كاذبة، اعتمادًا على تقارير ضبَّاط الاتصال السيِّئة".



صورة ١٢–رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر

اعتقدت لينداور أنَّ السلطات أرادت إلقاء المسؤوليَّة عن الحرب على عاتق جهاز الاستخبارات الأمريكي، لكنَّها أدركت لاحقًا أنَّ المسؤوليَّة تُلقى على عاتقها هي وحدها. رفضت الضابطة السابقة الإدلاء بشهادتها في غرفة مغلقة؛ لأنَّها أرادت أن يعرف الجميع "الخطط البديلة عن الحرب في العراق، ومعرفتنا المسبقة عن أحداث سبتمبر". كانت لينداور تعرف أنَّ للمواطن الحق في توجيه النقد للحكومة "**بوسائل سلميَّة، دون اللجوء إلى العنف**"، لكنَّها أُلقي القبض عليها بعد شهر من محاولة الانضمام إلى قائمة الشهود. تعترف لينداور أنَّها أرادت أن يعرف الناخبون الحقيقة، فيطيحوا بجورج دابليو بوش في الانتخابات، ولم تسعَ إلى الإطاحة به بالعنف. تقول الضابطة السابقة في ذلك "كنتُ أؤمن بأمريكا القديمة؛ أؤمن بحقوق المواطن".



صورة ١٣–رفع الستار عن أحداث ١١ سبتمبر

ظلَّت لينداور رهن الاعتقال لسنة ونصف، وبعدها وُجِّهت إليها تهمة التخابر، ولكن دون أن تُنظر قضيَّتها في المحكمة. عُرضت على لينداور بعد ذلك مساومة بإسقاط التُّهم عنها، في

مقابل السكوت وعدم التفوُّه بكلمة أمام أحد، وقد قال لها وكيلها "قضيَّتك خاسرة من البداية؛ لأنَّك مناهضة لإسرائيل. فإذا تم النظر في قضيَّتك في إحدى محاكم نيويورك، فعلى الأرجح ستكون غالبيَّة المحلَّفين من اليهود...وسيسعى المحلَّفون اليهود إلى إدانتكِ؛ لأنَّه لن يروق لهم موقفكِ المعادي لإسرائيل". هنا يعلِّق المحاور بقوله "هذا يعني أنَّ الوقوف ضدَّ إسرائيل في أمريكا ربَّما أخطر من الوقوف ضدَّها حتَّى في إسرائيل؟!"، فأجابته ليندا ور بمنتهى التأكيد "**نعم...إذا كنتَ ضدَّ إسرائيل فأنتَ متَّهمٌ بالخيانة...وسيحرمونك من حقِّك في أن تنظر المحكمة في قضيَّتك، وقد حرموني من ذلك**".

تستكمل ليندا ور حكايتها قائلةً، "ما فعلوه بي كان صدمةً بكلِّ المقاييس. لقد وجدوا اثنين من الأطبَّاء النفسيِّين، من ذوي الميول الصهيونيَّة، قالا أنَّني متعصِّبة دينيًّا...قالا أنَّ الإيمان بالإله لا يمكن أن يكون طبيعيًّا إلَّا إذا كان المرء طفلًا"، وتقسم على أنَّ هذا ما قالوه، مضيفةً أنَّهم قالوا أنَّ إيمانها بالإله "إيمان بصديق وهمي". ظلَّت الأمور هادئة نسبيًّا، وإن كانت ليندا ور قد مرَّت بأزمة نفسيَّة سيِّئة؛ نتيجة الاتهام والنبذ والإصرار على إسكاتها، إلَّا أنَّ أمرين أعاداها إلى المحكمة الأول أنَّ كولن بأول، وزير الخارجيَّة الأمريكي الأسبق، بدأ يسوِّق حينها لفكرة مسؤوليَّة السي آي إيه عن عدم إخطار الحكومة عن عدم صحَّة المعلومات الرائجة حينها عن امتلاك العراق أسلحة دمار شامل. أمَّا الأمر الثاني، فهو إعلان الديموقراطيين تحديدهم جلسة استماع في مسألة إذا ما كانت إدارة بوش الابن ستعاقب ضبَّاط الاتصال، الذين كانوا مسؤولين عن منع الهجمات الإرهابيَّة. فوجئت ليندا ور بالقاضي يقول لها أنَّها ستذهب إلى السجن بدون محاكمة؛ لأنَّها ليست مؤهَّلة للمثول أمام القضاء، وقد اتُّخذ هذا القرار "على أساس تطرُّفها الديني". أودعت ضابطة الاتصال السابقة في سجن شديد الحراسة كانت تُطلق عليه "جوانتانامو النساء"، لا أحد يدخله إلَّا بتصريح خاصٍّ، أي لا يمكن للصحافيين دخوله لإجراء مقابلات مع الناشطات السياسيَّات. الأسوأ من ذلك، كما تروي ليندا ور، أنَّ المسؤولين عن سجنها "قرَّروا الحصول على تصريح باستخدام العقاقير المخدِّرة لإعطائها لي عنوةً؛ كانوا يريدون إخضاعي بالعقاقير المهلوسة...كان منطقهم يقول طالما أنَّك تقف ضدَّ حكومة بلدكَ؛ إذًا لديك خللٌ في دماغك.

حتَّى أنَّهم اخترعوا مصطلحًا طبيًّا بهذا الخصوص، وهو **اضطراب العصيان المعارض**". **يعني هذا المرض أنَّ المعارض للحكومة تكون لديه قناعة تشبه الجنون بأنَّ السلطة تنتهك حقوقه؛ ومن ثمَّ يخاف الشخص من حكومته خوفًا مرضيًّا؛ ونتيجةً لذلك يقف ضدَّها. تشير لينداور إلى استخدام السوفييت نفس الطريقة لإسكات المعارضين، ولكن كانوا يمنحون ذلك المرض اسمًا آخر، وهو الفصام الخامل، أو الشيزوفرانيا اللانمطيَّة؛ والطريف أنَّ الأطبَّاء النفسيِّين السوفييت أنَّ المصابين بذلك المرض لا تظهر عليهم أعراضٌ معيَّنة، إنَّما يبدون عقلاء بالكامل، بينما في الحقيقة** "**تسلَّط عليهم هوس تغيير النظام الاجتماعي**". رفضت لينداور تناوُل المخدِّرات، وأصرَّت على محاكمة علنيَّة.

تتطرَّق لينداور في نهاية الحوار إلى مسألة هامَّة أخرى، وهي من بين الأدلة على معرفة اليهود المسبقة بتعرُّض برجي مركز التجارة العالمي لعمل إرهابي في عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، وربَّما بيوم التنفيذ. كان من بين المشكلات التي أعاقت إظهار الحقيقة، أنَّ القاضي المكلَّف بالنظر في قضيَّتها، كان ينظر في الوقت ذاته في **دعوى أحقيَّة رجل الأعمال اليهودي لاري سيلفرستين، مالك برجي مركز التجارة العالمي، في تعويضات قدَّرها بـ ٧ مليارات دولار عن خسائره في أحداث سبتمبر**. المفارقة أنَّ **أثناء اقتياد لينداور إلى خارج المحكمة مكبَّلة اليدين والقدمين، كانت المحكمة تستعد لعقد جلسات الاستماع في قضيَّة سيلفرستين.** تشير الضابطة السابقة إلى أنَّ سيلفرستين استأجر المبنيين في يوليو من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، في الوقت الذي كان السي آي إيه قد بدأ تلقِّي تحذيرات من احتماليَّة وقوع هجمات إرهابيَّة، **بل وحرص سيلفرستين على تغيير بوليصة التأمين لدى شركات يابانيَّة، متجاهلًا الشركات الأمريكيَّة. تحمَّلت تلك الشركات اليابانيَّة قيمة التأمين؛ ولذلك استضافتها اليابان قبيل نشر كتابها، في خضمِّ ما كانت تتعرَّض له من افتراءات، بالإصابة بمرض عقلي وبالتعصُّب الديني.**

يشير تقرير أصدره مركز باكلاند برس، المعنيُّ بالملفَّات الأمنيَّة، أنَّ الصحافة الأمريكيَّة واجهت رجل الأعمال لاري سيلفرستين بتطابُق، ولذلك استأجر البرجين؛ فردَّ قائلًا "راودني شعور بضرورة امتلاك البرجين". وبحسب الشهود، فقد كان من عادة سيلفرستين تناوُل فطوره

في مطعم في البرج الشمالي كلَّ صباح، لكنَّه **تغيَّب في يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كما قرَّر نجلاه العاملان حينها في مركز التجارة العالمي، عدم الحضور إلى العمل ذلك اليوم. المفارقة أنَّ سيلفرستين حصل على عقد إيجار للبرجين لمدَّة ٩٩ عامًا، بقيمة ٣.٢ مليار دولار، قبل الهجمات بشهر ونصف فقط، وأقرَّت المحكمة بأحقيَّة رجل الأعمال في تعويض ٤.٦ مليار دولار من شركات التَّأمين اليابانيَّة، إلى جانب ٣.٤ مليار دولار أخرى من صندوق ليبرتي بوند، فكانت أرباح سيلفرستين بذلك قد قاربت ٥ مليارات دولار، إلى جانب استعادته قيمة التأجير الذي دفعه.** لعب مدوِّنو الإنترنت دورًا بارزًا في لفت الأنظار إلى قضيَّة لينداور، بأن نشروا ما حدث معها، مشيرين إلى رفض المحكمة الاستماع لها؛ لأنَّ إثبات صدقها سيفسد قضيَّة سيلفرستين، التي كانت تنظر فيها في ذات الوقت. وفي النهاية، أثبت شاهدا لينداور صدق ادعاءاتها، والتي كان من بينها أنَّها كانت ضابطة اتصال لدى السي آي إيه، وأنَّها حذَّرت من وقوع أحداث ١١ سبتمبر. وأُفرج عن لينداور، وسُمح لها بعد عام ونصف من الإفراج بالتحدُّث إلى الإعلام؛ فقرَّرت تأليف كتابها، الذي توضح النقطة التالية أهم ما تضمَّنه.

كتاب لينداور عن "التستُّر على أحداث ٩/١١ وحرب العراق"

نشرت سوزان لينداور عام ٢٠١٠، كتابًا بعنوان **Extreme Prejudice: The Terrifying Story of the Patriot Act and the Cover Ups of 9/11 and Iraq**، وقد أصدرت شركة العبيكان السَّعودية ترجمة عربيَّة له، بعنوان **عندما تُصبح الحقيقة خيانة** عام ٢٠١٦، ما يوافق عام ١٤٣٧ هجريًّا، نفس عام إصدار قانون JASTA، الذي يهدد بمعاقبة المملكة العربيَّة السَّعودية بتهمة رعاية الإرهاب؛ بأن كان غالبيَّة الضالعين في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ميلاديًّا من السَّعوديين.

تشير لينداور إلى حوارها مع المشرف على أعمالها، ريتشارد فيوز، رائد الأعمال، والطبيب، صاحب الصلة بالمجتمع العسكري والاستخباراتي في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة–وفق تعريف موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة له–عن تهديدات إحداث عمل إرهابي في أمريكا خلال صيف عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، وإصرار فيوز على أنَّ العراق لديها معلومات عن ذلك العمل (ص٤٩).

كان الدكتور فيوز يرى أنَّ تسييس قضية لوكيربي، وضعف الدليل الجنائي الذي قُدِّم إلى المحكمة، يُنذران بأخطار كبيرة، وفي الشهور التي سبقت هجمات الحادي عشر من سبتمبر، اشتكى الدكتور فيوز من إضرار الولايات المتحدة بمصداقيتها في أوساط التنظيمات الإرهابية بسبب قضية لوكيربي؛ ما جعل هذه التنظيمات تتساءل عما إذا كانت الولايات المتحدة، بالرغم من مصادرها الاستخباراتية الضخمة كلها، غبيةً جدًّا بحيث لم تستطع إلقاء القبض على الفاعل الحقيقي، أو أنَّها كانت خائفةً لأنَّ الإرهابيين الحقيقيين أقوياء جدًّا ومدعومون.

كان يقول إنَّ من شأن هذين الرأيين أن يُحرِّضا الجيل القادم من الجهاديين بصورة لا تقاوم؛ فقد تُلهم محاكمة لوكيربي الإرهابيين الشباب الذين يشاهدونها على شن نوع من (هجمات الوفاء) للأبطال الذين سبقوهم، وكانوا أكبر من أن يُلقى القبض عليهم.

ووفقًا لهذه الرؤية، وضع فريقنا سيناريو لتهديد متطرف يفترض احتمال حدوث هجوم كبير، يشمل عمليات اختطاف طائرات أو تفجيرها.

تروي لينداور عن تكليفها بالتقصِّي عن معلومات عن العمل الإرهابي المحتمل (ص٥٠).

وقد كلفت لأكون المتلقي السري لهذه المعلومات بإشراف وكالة الاستخبارات الأمريكية، ووكالة استخبارات الدفاع.

لذلك، ذهبت لزيارة الدكتور فيوز فورًا، وقد نبَّهني على أن أطلب -بإلحاح- إلى ليبيا والعراق نقل أي معلومات تتعلق بالتخطيط لاختطاف الطائرات، أو تفجير المطارات، وأصرَّ على ضرورة تحذير الدبلوماسيين من أنَّ بغداد قد تتعرَّض لهجوم عسكري كبير -أسوأ من أي هجوم تعرَّض له العراق من قبلُ- في حال اكتشاف الولايات المتحدة أنَّ حكومة بغداد كانت لديها معلومات ولم تبلغها عن طريق القناة السرية.

كان فيوز يصرُّ على تهديد العراق، وترى لينداور أنَّه كان بذلك ينقل وجهة نظر التيَّار المحافظ في أمريكا، في إصراره على إشعال حرب في العراق، بتهمة مشاركتها في أعمال إرهابيَّة، بالتمويل أو التستُّر (ص٥١).

عندما عدت إلى واشنطن قابلت الدكتور فيوز الذي طلب معرفة مدى استجابة العراق لتهديده، وقد اعترفت له أنَّني لم أنقل رسالته حرفيًّا، لكنَّني أكدت له أنَّني طلبت إليهم أن يتعاونوا.

عندئذ، اعترت الدكتور فيوز حالة من الغضب الشديد، لقد كان ذلك أمرًا غريبًا؛ فطوال سنوات عملنا معًا، لا أذكر أنَّه فَقَدَ أعصابه، وصرخ فيَّ، لقد قام عن كرسيه، وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وبدأ يُطلق شتائم وعبارات بذيئة لا أستطيع أن أذكرها في هذا المقام.

ثم طلب إليَّ أن أعود إلى نيويورك فورًا، وأن لا أكون مؤدبةً أو لطيفةً، وأن أنقل إلى العراقيين ما قاله حرفيًّا: «ستَقصف الولايات المتحدة العراق، وتعيده إلى العصر الحجري، وسيكون القصف أسوأ مما تعرَّض له العراق من قبلُ، في حال اكتشف أي مخطط إرهابي لاختطاف الطائرات أو تفجيرها، ولم يُبلِّغنا بذلك؛ سيخسرون كل شيء، سندمرهم».

ما عدا ذلك، فقد كان ريتشارد أكثر صراحةً، وأرادني أن أنقل لهم أنَّ «هذه التهديدات جاءت من أعلى المستويات في الحكومة؛ أعلى من مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية ووزير الخارجية».

تذكر ليندار بعد ذلك أنَّ الدكتور فيوز صرَّح أمامها بأنَّ هدف العمل الإرهابي قد يكون برجا مركز التجارة العالمي في نيويورك، دون أن تعلم هي مصدر تلك المعلومة، أو مصدر التفاصيل الأخرى التي صرَّح لها بها (ص٥٢).

ازداد التوتر في صيف عام 2001م، وناقشنا عمليًا هجوم الحادي عشر من سبتمبر؛ فقد أصبح السيناريو هذه المرَّة أكثر تفصيلًا. وأخذنا في يونيو نركِّز على مركز التجارة العالمي.

كان الأمر يبدو غامضًا وموحشًا، لكنَّ فريقنا عرف ما سيحدث تحديدًا، وأدركنا أنَّ الهدف كان محددًا بدقة، وأنَّ الهجوم سيكمل الحلقة التي بدأها رمزي يوسف في الهجوم على مركز التجارة العالمي عام 1993م، وتوقعنا أنَّ الوسيلة المستخدمة ستكون طائرات يستولي عليها الخاطفون، ويستخدمونها مقذوفات لمهاجمة البرجين، وبحثنا أيضًا احتمال استخدام جهاز ذري حراري لتدمير البنايات، وقد كان هذا هو السبب الذي جعل الدكتور فيوز يطلب إليَّ الابتعاد عن نيويورك. لم يقلق أحد من احتمال إصابتي في حال انهار البرجان، لكنَّ المسؤولين عني كانوا قلقين من تعرُّضي للمؤثِّرات مكوِّنات عسكرية تَعلق في الغبار أو الهواء، بما في ذلك الإشعاع الذري.

أما كيف عرف الدكتور فيوز هذه المعلومات كلها، فأمر لا أستطيع التكهُّن به؛ ففي شهري يونيو ويوليو من عام 2001م، ظل فيوز يبحث ويسعى إلى الحصول على أي معلومات استخباراتية من العراق، ولم يأتِ على ذكر ليبيا بعد لقائنا الأول في شهر إبريل.

أصرَّ فيوز على معرفة العراق بتفاصيل الحدث المرتقب، وطلب إلى ليندار الاستمرار في الضغط عليهم للبوح بما عندهم (ص٥٤).

في اليوم الثاني من شهر أغسطس عُدْت لأَطمئن الدكتور فيوز مرَّةً أخرى، فقلت له: «أنا أعرف ما تريدون، لقد كنت أضغط على العراقيين طوال الصيف للحصول على معلومات عن هذا الهجوم، وهم يعرفون العواقب»، فقال: «قولي لهؤلاء الأوغاد مرَّةً أخرى أنَّهم سيتعرضون لقصف لم يعرفوه من قبلُ، هل تفهمين؟ إذا كانوا يعرفون شيئًا، فمن الأفضل لهم أن يقولوه لنا، وإلا فسندمرهم، كوني واضحةً في ذلك».

وعدته أن أفعل ذلك. وفي الرابع من شهر أغسطس، قمت برحلتي الأخيرة إلى السفارة العراقية والبعثة الليبية قبل ذلك اليوم المحتوم من شهر سبتمبر.

تكشف ليندار المزيد عن شخصيَّة فيوز ونشاطه في هذا التصريح (ص٥٦).

وإذا تعمقنا أكثر نجد أنّ الدكتور فيوز كان عميلًا كبيرًا لوكالة الاستخبارات الأمريكية بسوريا ولبنان في ثمانينيات القرن الماضي، وهو أمر كان يعترف به علانيةً. وقد وصف في جلسة خاصة كيف نسَّق فريقه في بيروت لإطلاق سراح الصحفي في وكالة أسوشيتد برس تيري أندرسون والمبشر الإنجيليكاني تيري ويت وآخرين من خاطفيهم في لبنان؛ فقد حدَّد هذا الفريق موقع السجن المتنقل في الأزقة الخلفية لمدينة بيروت، واستدعى قوة الدلتا لتنفيذ عملية تحرير جريئة، لكنَّ عملية الإنقاذ تأجَّلت أشهرًا عدَّةً لاستغلال الحدث الإخباري في التأثير في نتائج الانتخابات الرئاسية عام 1988م التي فاز فيها جورج بوش الأب. لم يغفر الدكتور فيوز قط لوكالة الاستخبارات الأمريكية استخدام الرهائن في لبنان ورقةً رابحةً لصالح السياسيين في واشنطن، ونتيجة سعيه الحثيث للعثور على موقع المخطوفين؛ فقد أصبح الدكتور فيوز الشاهد الرئيس على الأحداث التي قادت إلى تفجير طائرة (البان آم 103) [38].

يُذكَر أنَّ وكالة الاستخبارات الأمريكية قاتلت بضراوة لمنعه من الإدلاء بشهادته في محاكمة لوكيربي، وقد توصل الطرفان إلى حل وسط سُمح فيه للدكتور فيوز بإيداع شهادته لدى المحكمة الفيدرالية في مدينة الإسكندرية بولاية فرجينيا، ثم وضعها القاضي داخل ظرف مختوم [39].

وقد مُنع الدفاع من الكشف عن أي جزء من هذه الوديعة داخل الولايات المتحدة، مع السماح بقراءتها فقط خارج الولايات المتحدة [40].

تشير لينداور إلى أنَّ الإدارة الأمريكيَّة كانت على علمٍ بقوَّة احتمال وقوع العمل الإرهابي منذ يوليو من عام ٢٠٠١ (ص٥٩).

> لقد تَبيَّن أنَّ شهر يوليو كان حاسمًا في التحذير من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ففي العاشر من شهر يوليو عام 2001م، انتابت حالة من القلق رئيس وكالة الاستخبارات الأمريكية، جورج تينيت، بعد استماعه إلى إيجاز سري عن تهديد إرهابي من تنظيم القاعدة، حتى إنَّه ذهب مباشرةً إلى البيت الأبيض. في ذلك الإيجاز، افترض أحد كبار المحللين في وكالة الاستخبارات الأمريكية أنَّ هجومًا كبيرًا سيحدث في الأسابيع القليلة القادمة، لكنَّه لم يُحدِّد تاريخًا لذلك.
>
> لم يُضيِّع تينيت الوقت في نقل هذه المعلومات - كتابةً- إلى وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس، فأخذ معه أحد ضباط الوكالة المكلف بملاحقة أسامة بن لادن، وقدَّم للوزيرة ومسؤولين آخرين إيجازًا شفويًا [47]، وقد اعترف المستشار السابق في مكافحة الإرهاب ريتشارد كلارك بأهمية هذا التقرير، أما الضابط الذي قدَّم الإيجاز فقد قال إنَّ على الولايات المتحدة «أن تستعد للحرب الآن».
>
> واللافت أكثر أنَّ وزير خارجية طالبان وجَّه تحذيرًا مباشرًا لواشنطن يفيد بأنَّ أسامة بن لادن يُحضِّر لشن هجوم ضخم على الولايات المتحدة [48].

وتصرُّ ضابطة الاتصال السابقة أنَّ العراقيين أكَّدوا لها عدم معرفتهم بأيٍّ معلومة عن تفجيرات مرتقبة في نيويورك، برغم تهديدهم بعواقب قاسية في حال تبيَّن خلاف ذلك (ص٦٢).

> قبل الحادي عشر من سبتمبر كان مجتمع الاستخبارات يُمسك بزمام الأمور، أما فيما يتعلق بمصادري العراقيين فلم تكن لديهم معلومات استخباراتية ملموسة، وقد أُسقط في أيديهم عندما قابلتهم في رحلتي الأخيرة إلى نيويورك في الرابع من شهر أغسطس عام 2001م. لقد أُنذروا بتحمُّل العواقب إذا حدث شيء رهيب؛ فالرد سيكون سريعًا وقاسيًا. ولكن، كل هذا لم يُغيِّر الحقيقة القاسية، وهي أنَّهم لا يملكون شيئًا يعطونا إياه.
>
> في دفاعهم عن موقفهم احتج الدبلوماسيون العراقيون، قائلين: كيف تطلب الولايات المتحدة التعاون وهي لم تتخذ أي خطوة لإرسال فريق من مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى بغداد؟ لقد كشف هذا الفشل في التحرك خللًا في القيادة الجمهورية الجديدة في واشنطن، ولسوء الطالع أنَّ بقيتنا كانوا مضطرين إلى العمل ضمن هذه المحددات.
>
> أما من الناحية الإستراتيجية، فإنَّ هذا لم يكن -أُكرِّر لم يكن- غلطة وكالة الاستخبارات الأمريكية.

تسترجع لينداور معرفتها المؤكَّدة بأنَّ الإدارة الأمريكيَّة كانت على علم باحتماليَّة تدبير أسامة بن لادن عملًا تفجيريًّا في أمريكا، منذ صيف عام ٢٠٠١، لكنَّ الرئيس جورج دابليو بوش اعتبر ذلك هراءً (ص٦٣).

وتذكَّرت أيضًا بصورة خاصة وفي اليوم نفسه، وربما في الساعة نفسها، تسلَّم الرئيس بوش في مزرعة كراوفورد في تكساس، مذكِّرة من وكالة الاستخبارات الأمريكية تتحدث عن تهديد بوقوع هجوم إرهابي من شبكة أسامة بن لادن على الولايات المتحدة، وقد قيل لي إنَّ الرئيس بوش وضع المذكِّرة جانبًا، ثم قال: «حسنًا، والآن، وبعدما غطيتم عورتكم، دعونا نذهب لنلعب الغولف».

كنت قد علمت أنَّ اجتماع كراوفور قد صُوِّر لأغراض الدعاية، ولكنَّني لا أطيق مشاهدة هذا الفيلم بعد مرور عشر سنوات؛ لأنَّني ما زلت أشعر بالامتعاض حتى هذه الساعة من لا مبالاة الرئيس بوش ومسؤولي البيت الأبيض الآخرين، في الوقت الذي كانت فيه بقية دول العالم تتسابق لوقف هجوم الحادي عشر من سبتمبر،

وعن ذلك يقول سيدني بلومنتال، المستشار السابق للرئيس كلينتون: « لقد حاول ريتشارد كلارك لفت نظر إدارة بوش إلى تهديد القاعدة، كان يبدو أنَّهم لا يريدون الكشف عما حدث في السادس من أغسطس عام 2001م. في ذلك اليوم تلقى جورج بوش الإيجاز الأحدث والأخير عن الإرهاب، ثم إنَّ بوش أبلغ كلارك أنَّه لا يريد إيجازًا عن ذلك مرَّةً أخرى.

تستعرض لينداور في الفصل الخامس من الكتاب مساعي العراق لإنهاء حصرها وبدء مرحلة جديدة من التعاون مع أوروبا وأمريكا، وسط رفض الجمهوريين، الداعين إلى الحرب (ص١٢٩).

لم يكن تحسن العلاقات بين العراق وأوروبا وروسيا وآسيا هو (الخبر السيئ) الوحيد الذي تلقاه الجمهوريون الداعمون للحرب في الأشهر التي سبقت هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ولسوء طالع معسكر الحرب، فإنَّ بغداد أخذت تُطبِّق إستراتيجيةً ناجحةً من محورين لإضعاف ما تبقى من دعم دولي للعقوبات، وبحسب هذه الإستراتيجية، فقد وجهت الحكومة العراقية دعوات إلى الشركات الأجنبية لزيارة بغداد، ومنحت البعثات التجارية عقودًا مغريةً لمشروعات إعادة الإعمار بعد رفع العقوبات.

تواصل لينداور سرد أدلَّتها على حُسن نيَّة العراقيين (ص١٣١).

وللإنصاف، فإنَّ حكومة بغداد كانت تأمل، بدءًا بشهري نوفمبر وديسمبر من عام 2000م، أن تعيد صياغة الاتفاقية الجديدة بطريقة تمنع السلوك العدائي والمهين لفريق ريتشارد بتلر قبل انسحابه عام 1998م [117]. في بداية المباحثات طلب العراق إلى الأمم المتحدة إصدار بيان لحُسن النوايا، يُلزِم المفتشين الدوليين بالتصرف على نحو يحترم الدولة المضيفة، ومن دون أي إهانات للثقافة العربية، أو الاستخفاف بمعاناة الشعب العراقي، ولم يكن هذا القلق العراقي من دون أساس شرعي؛ فأنا شخصيًّا سمعت في مطعم الأمم المتحدة بنيويورك تعليقات مهينة عن الشعب العراقي، وقد استخف دبلوماسيون أمريكيون وبريطانيون في إحدى هذه الجلسات بوفاة الأطفال العراقيين، واختتموا الجلسة بنوبة من الضحك؛ لذلك فأنا أعرف أنَّ الإهانات العنصرية كانت أمرًا شائعًا، لذلك طلبت بغداد أن يتصرف موظفو الأمم المتحدة بمهنية.

تتحدَّث ضابطة الاتصال السابقة عن تعاونها مع الدكتور سعيد حسن، سفير العراق الأسبق لدى الأمم المتحدة، في سبيل حلِّ مشكلة أطفال العراق، من خلال الوصول إلى تسوية سياسيَّة تحمي مستقبلهم (ص١٣٤).

في شهر أكتوبر عام 2000م أعلن العراق استعداده للتفاوض على «تسوية شاملة للقضايا العالقة جميعًا»، وقد نقل الدكتور حسن هذا العرض - بوساطتي- إلى الدكتور فيوز وهوفين، اللذين أوصلاه إلى كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات الأمريكية، والأطراف المعنية الأخرى في مجتمع الاستخبارات.

اتفق الجميع بعد انتخابات الرئاسة في شهر نوفمبر عام 2000م على تكليفي ببحث قضية التفتيش عن الأسلحة مع الدكتور حسن، وتمثل دوري في إقناع العراق بقبول الشروط الصعبة الخاصة بالالتزام والشفافية التي طلبتها الولايات المتحدة، ولكنّني أُبلغت - تبعًا لشروط وكالة الاستخبارات الأمريكية - بأن لا دور لي في تحديد هذه المعايير الفنية، وأنَّ عليَّ فقط الضغط على العراق لقبول المطالب الأمريكية جميعها، وأن لا أنتقد هذه المطالب في العلن، أو في جلسات خاصة. وبعبارة أخرى، فإنَّ مهمتي كانت مقتصرةً على الطلب إلى العراق تلبية مطالب واشنطن قبل رفع العقوبات، والأخطر من ذلك أنَّ المطالب الأمريكية ستكون صفقةً متكاملةً لا تقبل المساومة، وأنَّه يتعيَّن على العراق أن يوافق على هذه المطالب كلها من دون شروط.

كانت العراق على استعداد بقبول مشروع التسوية المقترح من أمريكا، والذي كان ينصُّ على: عودة المفتِّشين عن الأسلحة غير المصرَّح باستخدامها إلى العراق، والتعاون مع أمريكا بشأن مكافحة الإرهاب، وضمان حصول شركات أمريكيَّة على نصيب في تعاقدات إعادة الإعمار. غير أنَّ وزير الخارجيَّة الجديد حينها، كولن بأول، أساء توصيل رسالة السفير العراقي عن استعداد العراق للتعاون مع أمريكا، على حدِّ وصف لينداور (ص١٣٦).

أكد الدكتور حسن أنّ «المباحثات ستكون مختصرة؛ لأنّ بغداد ملتزمة التزامًا كاملًا بالمطالب الأمريكية الحالية»، وقال في رسالته إلى نائب الرئيس الأمريكي ريتشارد تشيني في العشرين من شهر ديسمبر: «سنحتاج إلى أسابيع قليلة فقط للاتفاق على التفاصيل» [121].

وأعلن السفير أنَّه مخوَّل من حكومته بالموافقة على «أي محادثات سرية أو علنية مع أي مسؤول أمريكي في نيويورك، أو أي مكان آخر في العالم».

وبطريقة معيبة سرق وزير الخارجية المُعيَّن حديثًا كولين باول مفردات الوعد العراقي بالتوصل إلى اتفاقية سريعة تُلبي المطالب الأمريكية كلها، وأبلغ الكونغرس أنَّ المباحثات ستكون مختصرةً، مستخدمًا تعبيرات السفير العراقي، وفي خضم هذه الأحداث كلها كانت مفاجأة كبيرة بانتظارنا؛ هي أنَّ الرئيس الجديد جورج بوش عيَّن ابن عمي آندرو كارد في منصب كبير موظفي البيت الأبيض، كان هذا من غير المتوقع. ولكن، أود الإشارة هنا إلى أنَّ قرار الدخول في مباحثات سرية كان قد اتُّخذ قبل شهرين من تعيين كارد في هذا المنصب، وعقدت أول اجتماعين مع الدكتور حسن قبل أسابيع عدَّة من تعينيه، ولذلك أستطيع تأكيد أنَّ المحادثات السرية لم تعتمد قط على تعيين ابن عمي.

تشدِّد ليندوار على دافعها الإنساني في مساعيها للتوفيق بين الطرفين، في صراع بلادها مع العراق، لكنَّ مساعيها قوبلت بالتجهُّم، ووصل الأمر إلى حدِّ الاتهام بالتخابر لصالح دولة معادية (ص١٣٩).

بالنسبة إليَّ، كان دافعي إنسانيًا؛ لأنَّني لم أكن قادرةً على تحمُّل معاناة العائلات العراقية وأطفالها، وقد رأيت أنَّ وكالة الاستخبارات الأمريكية تُوفِّر لي فرصة فريدة للإسهام في الحل؛ لذا أعددت نفسي، ثم بدأت العمل.

استبعد القادة الجمهوريُّون الحلَّ الدبلوماسي في تعاملهم مع قضايا الشرق الأوسط، كما ترى لينداور (ص١٤٠).

كانت الدبلوماسية بعيدةً عن تفكير القادة الجمهوريين، حتى وإن كانت تعني إملاء النتاجات التي تتحكم فيها الولايات المتحدة، والتي تتفق مع المخططات الأمريكية، ولم يفهم القادة الجمهوريون في عصر العولمة أنَّ الإدارة التفاعلية قد توجد الأسس الإستراتيجية التي تقوي أمريكا، لم يفهموا لماذا تتطلب المشكلات حلًّا تفاعليًّا.

من جديد، تشير لينداور إلى استعداد العراقيين للتفاوض، على عكس رغبة إدارة بوش الابن (ص١٤١).

كان كل شيء يبعث على الأمل؛ فقد أكد العراق مرَّةً تلو الأخرى موافقته على الشروط الأمريكية، في تناقض واضح لما قالته إدارة بوش للشعب الأمريكي قبل الحرب، وقد حُلَّت المشكلات كلها عن طريق الحوار السري [125]، حيث أحرزت الدبلوماسية نجاحًا باهرًا، لكنَّ حماس العراق لاستئناف عمليات التفتيش في أسرع وقت ممكن قوبل بتردد لا مثيل له من الإدارة الأمريكية، وبدا جليًّا أنَّ إدارة بوش كانت تتلكأ؛ لعلمها أنَّه لم يعد لدى العراق ما يكشفه أو يدمره، ما جعلها تخاف من استمرار عملية التفتيش العبثية، إلا أنَّ العراق أصر على بدء المحادثات؛ لأنَّه رأى الزخم المتصاعد من المجتمع الدولي المطالب برفع العقوبات، وكان حريصًا على إثبات أنَّ مخزونه من أسلحة الدمار الشامل قد دُمِّر منذ أمد طويل.

تسرد الضابطة السابقة العروض التي قدَّمتها العراق قبل الحرب، والتي كان من شأنها إرضاء الإدارة الأمريكيَّة، لو أنَّها أرادت حلَّ مشكلتها مع العراق، وليس إيجاد ذريعة لشنِّ حرب على البلد (ص١٤٢-١٤٣).

1. موافقة العراق على استئناف عمليات التفتيش، بدءًا بشهر أكتوبر من عام 2000م. كان هذا قبل (18) شهرًا من إبلاغ المجتمع الدولي بالموافقة العراقية.
2. وعد العراق شمول شركات النفط الأمريكية في امتياز التنقيب عن النفط وتطوير آبار النفط مستقبلًا (بدءًا بشهر أكتوبر من عام 2000م)، ومع أنَّ سحب العقود من روسيا والدول الأوروبية كان أمرًا مستحيلًا من الناحية السياسية، فقد كانت لدى العراق وسائله الخاصة بدمج شركات النفط الأمريكية في العقود الحالية. وعد العراق أيضًا بتخصيص ميزانيات ضخمة لشراء معدات نفط أمريكية قال إنَّها الأفضل في العالم.
3. عرض العراق شراء مليون سيارة أمريكية الصنع سنويًّا مدَّة عشر سنوات؛ لتجديد سيارات مواطنيه القديمة التي يعود تاريخ صنع معظمها إلى ثمانينيات القرن العشرين، كانت عمليات الشراء هذه ستُوفِّر آلاف فرص العمل في مجال صناعة السيارات الأمريكية التي كانت تعاني متاعب مالية بسبب قلة الاستثمار.
4. وعد العراق إعطاء الولايات المتحدة الأمريكية أولويةً في عقود شراء المنتوجات والخدمات المتعلقة بالاتصالات اللاسلكية.

5. وعد العراق إعطاء الولايات المتحدة الأمريكية أولويةً في عقود شراء مستلزمات الرعاية الطبية، والمنتوجات الدوائية، ومعدات المستشفيات.

6. وعد العراق إعطاء المصانع الأمريكية أولويةً في عقود شراء المعدات الثقيلة، والسماح للشركات الأمريكية بالعودة إلى السوق العراقية كما كانت عليه الحال قبل حرب الخليج الأُولى، واستُثنيت من هذا الوعد المعدات العسكرية ذات الاستخدام المزدوج. وكان الدكتور فيوز قد أدلى بشهادته أمام لجنة الكونغرس المكلفة بالتحقيق في قضية

الشركات الأمريكية التي زودت العراق بأسلحة قبل حرب الخليج الأُولى، قائلًا: «أن لا خطر من عقود الاستخدام المزدوج، بل إنَّ ذلك سيُوفِّر فرصًا للشركات الأمريكية في مرحلة ما بعد رفع العقوبات».

7. موافقة العراق على أن يكون شريكًا رئيسًا في الجهود الأمريكية لمكافحة الإرهاب.

وقد أكد مرَّةً أخرى أنَّ كل ما تريده الولايات المتحدة ستحصل عليه، بصرف النظر عن كُنْه هذه المطالب.

تشير ليند‌اور إلى اعتراف الجنرال المتقاعد ويزلي كلارك في خطاب ألقاه في **مؤتمر الحزب الديموقراطي في ولاية تكساس** عام ٢٠٠٦، إلى تلقِّيه اتصالًا من محطَّة سي إن إن الإخباريَّة عقب أحداث ١١ سبتمبر من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، وطلب منه المتَّصل التصريح بأنَّ الهجوم كان بدفع من صدَّام حسين. ولمَّا أراد الجنرال التحرِّي عن مصدر المعلومة، أنهى المتَّصل المكالمة. تأسَّف كلارك في خطابه آنف الذكر على تردِّي الأوضاع في بلاده، لدرجة خوض أمريكا الحرب في العراق في سبيل الستُّر على إهمال أفضى إلى تدمير برجي مركز التجارة العالمي (ص١٤٥).

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر مباشرةً، تحدث الجنرال المتقاعد ويزلي كلارك إلى تيم روزيرت من محطة إن بي سي الإخبارية عن مكالمة هاتفية تلقاها بعد التفجيرات، وفيها حث المتصل الجنرال كلارك على التصريح بأنَّ الهجوم جاء من العراق بتوجيهات من صدام حسين. والمعروف عن الجنرال كلارك أنَّه لا يتلقى أوامر من أشخاص مجهولين، لكنَّه هذه المرَّة شعر بحب الاستطلاع، فسأل المتصل أن يعطيه دليلًا على هذا الاتهام، لكنَّ المتصل أنهى المكالمة من دون إعطاء أي دليل. ومن الواضح أنَّ الجنرال كلارك فكَّر طوال سنوات عدَّة في دافع الحرب على العراق؛ إذ قال في خطاب ألقاه في تكساس عام 2006م: «والآن، قد تتساءلون: لماذا أعود إلى التاريخ القديم؟ والجواب هو أنَّه ليس تاريخًا قديمًا؛ لأنَّنا ذهبنا إلى الحرب في العراق للتستر على إهمال القيادة الذي أفضى إلى هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وهي حرب لم يكن لزامًا علينا أن نخوضها، هذه هي الحقيقة. لقد خضت حروبًا عدَّة، وأنا لا أُصدِّق أسباب هذه الحرب؛ لأنَّه لا يتعيَّن عليك أن تخوض حربًا ما لم يوجد أي بديل ألبتة» [127].

تسوق ليند‌اور أدلَّتها على أنَّ الإهمال في اتخاذ التدابير الوقائيَّة اللازمة كان من أسباب وقوع العمل الإرهابي، كما جاء في تقرير لجنة برلمانيَّة مشتركة من نوَّاب الكونجرس ومجلس الشيوخ، الذي عُرِف باسم Joint Inquiry into Intelligence Community Activities

before and after the Terrorist Attacks of September 11, 2001

(ص١٥٠-١٥٢).

تقول لجنة تحقيق مشتركة من مجلسي الشيوخ والنواب [137] إنَّ مصدرًا استخباراتيًّا أفاد في شهر مارس عام 2001م أنَّ مجموعةً من ناشطي تنظيم القاعدة كانت تُخطط لتنفيذ هجوم لم يُحدَّد على الأرض الأمريكية، وأنَّ أحد هؤلاء الناشطين يعيش في الولايات المتحدة.

وفي شهر إبريل من عام 2001م علمت الاستخبارات الأمريكية أنَّ ناشطين إرهابيين في ولايتي كاليفورنيا ونيويورك كانوا يُخططون لهجمات في هاتين الولايتين. وفي المدَّة الواقعة بين شهري مايو ويوليو من عام 2001م ذكرت وكالة الأمن القومي أنَّها رصدت (33) محادثةً -على الأقل- تشير إلى هجوم إرهابي وشيك، ولكن لم يظهر أنَّ هذه الوكالة تمتلك معلومات مؤكدة يمكن أن تُحدِّد المهاجمين، أو عددهم، أو مكان الهجوم وزمانه [138]. وفي شهر مايو من عام 2001م علمت الاستخبارات أنَّ أتباع أسامة بن لادن يُخططون للتسلل إلى الولايات المتحدة عن طريق كندا؛ لتنفيذ عملية إرهابية باستخدام مواد شديدة الانفجار، وقالت وزارة الدفاع إنَّ سبعة أفراد مرتبطين بتنظيم القاعدة قد غادروا مواقع مختلفة متوجهين إلى كندا وبريطانيا والولايات المتحدة [139].

في مطلع شهر مايو كانت الاستخبارات الأمريكية قد جمعت أدلةً كافيةً تُثبِت أنَّ مجموعةً إرهابيةً شرقَ أوسطية تُخطط لتنفيذ هجمات على معالم أمريكية رئيسة، من ضمنها مركز التجارة العالمي، وهذا يتزامن تحديدًا مع تحذير من الدكتور فيوز بوجوب مواجهتي للدبلوماسيين العراقيين، والضغط عليهم للحصول منهم على أي معلومات تتعلق باختطاف طائرات.

وفي شهر يونيو من عام 2001م حصل مدير الاستخبارات المركزية على معلومات مفادها أنَّ ناشطين رئيسيين في تنظيم أسامة بن لادن قد اختفوا، وأنَّ آخرين يستعدون لعمليات استشهادية [140].

وفي يوليو من العام نفسه قال مدير الاستخبارات المركزية إنَّ شخصًا عاد من أفغانستان مؤخرًا أفاد بأنَّ الجميع يتحدثون فيها عن هجوم محتمل، ولاحظت الاستخبارات الأمريكية أنَّ ابن لادن قد صعَّد حملته الدعائية للترويج لفكر تنظيم القاعدة.

وفي شهر أغسطس رفع ريتشارد كلارك مذكِّرة إيجاز يومي إلى الرئيس بوش، أكد فيها خطورة تهديد تنظيم القاعدة. وفي اليوم السابع أو الثامن من شهر أغسطس اتصلت بمدير مكتب النائب العام جون آشكروفت ومكتب مكافحة الإرهاب في وزارة العدل، طالبةً إعلان استنفار عاجل في وكالات الاستخبارات كلها لجمع أي معلومات عن احتمال اختطاف طائرات، و (أو) تفجيرها، وقد وصفت هذا التهديد بأنَّه وشيك، ويُحتمل وقوع خسائر بشرية كبيرة،

وقلت إنَّ مركز التجارة العالمي قد يكون هو الهدف المتوقع. وفي اليوم السادس من شهر أغسطس اعتقلت سلطات البحرية الأمريكية زكريا موسوي في مدينة مينابوليس بولاية مينيسوتا.

في اليوم الرابع من شهر سبتمبر عام 2001م بعث مكتب التحقيقات الفيدرالي في مينابوليس ببرقيات عاجلة عن التحقيقات مع موسوي إلى كلٍّ من: الاستخبارات الأمريكية، وإدارة الطيران الفيدرالي، والشرطة السرية، ووكالات فيدرالية أخرى في واشنطن، وبالرغم من التحذيرات العاجلة من مكتب التحقيقات الفيدرالي في مينابوليس عن احتمال تورط الموسوي في مؤامرة إرهابية، فإنَّ النائب العام جون آشكروفت رفض طلبًا بالحصول على إذن تفتيش من محكمة الاستخبارات السرية في واشنطن [141] لاقتحام حاسوب موسوي الشخصي.

وأخيرًا، وفي اليوم العاشر من شهر سبتمبر عام 2001م اعترضت وكالة الأمن القومي مكالمتين بين أفراد في الخارج، تشيران إلى احتمال وقوع هجمات إرهابية، ولم تُترجَم هاتان المكالمتان إلى الإنجليزية، وتُعمَّمان على الجهات المعنية إلا في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر عام 2001م، ولم تُشِر هاتان المكالمتان إلى نوع الهجمات المحتملة، ولم يتضح إن كانت لهما علاقة بهجمات الحادي عشر من سبتمبر [142].

تخصِّص لينداور في الفصل السابع من كتابها للحديث عن الخداع الذي تعرَّض له الشعب الأمريكي والرأي العام العالمي، بإخفاء الملابسات الحقيقيَّة لأحداث ١١ سبتمبر، مشكِّكةً في صدق التفاصيل التي نقلها الإعلام، من أنَّ اصطدام الطائرتين المفخَّختين بالبرجين كان الأساس الوحيد في الانهيار (ص١٦١).

وما زاد من حالة الفوضى هو انقسام الأمريكيين إلى فريقين اثنين؛ أحدهما يرى أنَّ الطائرات هي التي دمرت مركز التجارة العالمي، والآخر يعتقد أنَّ التدمير كان بفعل متفجرات عسكرية مُتحكَّم فيها، أما أنا فأرى أنَّ اختطاف الطائرات والتدمير المُتحكَّم فيه قد وُقِّتا ليُكمل أحدهما الآخر.

كان هجوم الحادي عشر من سبتمبر مثل خدعة ساحر؛ إذ كانت العيون كلها مشدوهة وهي تتبع مسار الطائرات على يسار المشهد، في حين كانت حركة اليد البارعة تمارس السحر على يمين المشهد. وبعبارة أخرى، فقد وفر اختطاف الطائرات غطاءً لتدمير (البرجين) المُتحكَّم فيه، وهذا يُعرف في أوساط الاستخبارات بعملية (التغطية والخداع).

من المهم فهم أنَّ الاستخبارات ليست كيانًا أُحاديًا كبيرًا، وإنَّما تجمُّعًا من الأجهزة التي تنقسم إلى فرق أصغر، وحين دخلت التحذيرات بخصوص الهجوم على مركز التجارة العالمي المرحلة العملية، فقد بدا معقولًا ومنطقيًّا دخول فريق من جهاز منافس- يُسمى اليتيم- مركز التجارة العالمي في منتصف الليل، وزرعه متفجرات في أرجاء البنايات بهدف زيادة قوة التفجير، في اليوم الذي ستصطدم فيه الطائرات بالبرجين.

تحدَّث لينداور إلى الدكتور فيوز فور تفجير البرج الأوَّل، وقد أعرب الرجل لها عن اندهاشه من ثبات الكاميرا في يد مصوِّر الفيديو، الذي كان قد شاهده للحدث، ثم كشف لها عن مفاجأة! (ص١٦٢).

لقد حققوا معي مرارًا بخصوص مصادر الدكتور فيوز الأخرى، والأشخاص الذين زودوه بالمعلومات قبل الهجوم. وللحقيقة، فإنَّه لم يَكشف لي عنها قط.

ولكنَّني خمَّنت؛ فبعد انهيار البرج الأول مباشرةً، وقبل انهيار البرج الثاني، تمتم لي الدكتور فيوز شيئًا على الهاتف، كان ذلك يتعلق بشريط فيديو عن الطائرة المختطفة الأُولى وهي تُحلِّق فوق ميناء مانهاتن قبل ثوانٍ من ارتطامها بمركز التجارة العالمي، كانت آلة التصوير ممسوكةً بيد ثابتة في وضع مُتحكَّم فيه، ولم يكن المصور هاويًا أو مذعورًا من الأحداث المتسارعة، وقد سألني حينها الدكتور فيوز: هل تعتقدين أنَّ وجود رجل وامرأة ينتظران على الرصيف ومعهما آلة تصوير سينمائية جاهزة لتصوير الهجوم هو من قبيل المصادفة؟ لقد كان يشتعل غضبًا.

قال لي: «منذ متى نرى متفرجًا يقف حاملًا كاميرا لتصوير حادث مروري في الشارع؟ هذا لا يحدث أبدًا يا سوزان، هذا لا يحدث أبدًا».

ثم أضاف: «هؤلاء عملاء إسرائيليون، لم يكن وقوفهم في هذا المكان محض مصادفة، كانوا يعرفون أنَّ الهجوم سيقع، كانوا ينتظرون ذلك منذ الصباح».

استشاطت لينداور غضبًا مما حدث، وامتزج غضبها بالتأسُّف على عدم اتخاذ تدابير وقائيَّة؛ إمَّا لأنَّ إسرائيل كانت على علم بالحدث وموعده ولم تخبر، أو لأنَّها أبلغت ولم يمتثل المسؤولون الأمريكيُّون المعنيُّون لتحذيراتها (ص١٦٣).

وعلى كلٍّ، فما حدث يثير تساؤلات خطيرة: هل تعمَّد الإسرائيليون أن لا يخبرونا؟ هل قدَّموا لنا صورة عامة عن الهجوم، لكنَّهم أخفوا التفاصيل المهمة التي ربما كانت ستُمكن وكالة الاستخبارات الأمريكية من إفشاله؟

هل تجاهل مسؤولو البيت الأبيض التحذيرات الإسرائيلية مثلما تجاهلوا التحذيرات الأخرى؟ لم يلمح الدكتور فيوز إلى أي شيء من هذا، ومع ذلك، توجد بعض التفاصيل التي تستحق الذكر، لقد كان الدكتور فيوز يعرف هوية فريق الاستخبارات، ووجود شريط الفيديو قبل (24) ساعة من بدء بث محطات التلفزة صور الطائرات وهي ترتطم بالبرجين.

وتشير ليندأور إلى "دلالات خطيرة" لردِّ فعل بوش الابن وقت حديثه عن تفجير البرج الأوَّل، على اعتبار أنَّه شاهده مقطع للانهيار، وذلك قبل بثِّ المقطع في الإعلام (ص١٦٣-١٦٤).

تجدر الإشارة إلى أنَّ الدكتور فيوز كان متفوقًا في مصادره الاستخباراتية، ولكن لا بُدَّ أنَّ شريط الفيديو هذا قد سُلِّم إلى كبار مسؤولي الاستخبارات الأمريكية بسرعة مذهلة؛ ليكون جاهزًا للعرض قبل انهيار البرج الثاني، هذا يعني أنَّ الفيلم قد صوره جهاز استخبارات صديق مثل الموساد، وأنَّه لا يمكن لأي إنسان بث الشريط بهذه السرعة إلا إذا كان أحد كبار ضباط وكالة الاستخبارات الأمريكية.

وهذا أيضًا يُفسِّر التعليقات غير العادية للرئيس بوش. كيف شاهد صور الطائرة الأُولى وهي ترتطم بالبرجين قبل دخوله غرفة الصف في فلوريدا، وكيف قهقه قائلًا إنَّه يعتقد أنَّ هذا الطيار كان مخبولًا؛ وكانت الطائرة الثانية قد ارتطمت بمركز التجارة العالمي في أثناء انشغال الرئيس بوش في القراءة للأطفال، فهمس ابن عمي في أذنه قائلًا إنَّ الاصطدام الثاني قد وقع، هل لهذا أي دلالات؟ ربما أكون مخطئةً، ولكنَّها دلالات خطيرة.

من الواضح أنَّ الرئيس بوش قد شاهد شريط الفيديو الخاص بالطائرة الأُولى وهي ترتطم بالبرجين، وكذلك فعل الدكتور فيوز، لقد صوره عملاء الموساد، وهذا ما أغضبنا، أنا مقتنعة

أنَّ البيت الأبيض وقَّت بث شريط الفيديو لمعرفته أنَّ ردَّ فعلنا سيكون عارمًا؛ ففي لمح البصر سيعرف الأمريكيون أنَّ حليفتنا إسرائيل كانت على معرفة سابقة بالهجمات، وربما أسوأ من ذلك.

تشير ليندأور في الفصلين الثامن والتاسع من كتابها إلى تأكُّدها من محاولة الحكومة العراقيَّة الإدلاء بمعلومات هامَّة عن تنظيم القاعدة ومصادر تمويلها، كما تشير إلى حرص دعاة الحرب على العراق في بلادها إحباط أيِّ محاولة عراقيَّة تستهدف إنهاء الصراع مع أمريكا بالحلول السلميَّة. ومن بين ما بثَّه الإعلام عن ملابسات أحداث ١١ سبتمبر تعاوُن المخابرات العراقيَّة مع محمَّد عطا-منفِّذ العمليَّة، وإجرائها جلسة معه في مدينة براغ، وفق ما جاء على لسان السيناتور الجمهوري جون ماكين-المرشَّح الرئاسي الأسبق-في حديثٍ إلى

برنامج Nightline، المذاع على قناة ABC الأمريكيَّة في ٢٨ نوفمبر من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا. من جانبها، ترى لينداور أنَّ ما قيل في هذا الصدد "كذب"، لديها من الأدلَّة ما ينفيه (ص١٦٧).

وقد سارع الجمهوريون في الكونغرس إلى الانضمام إلى فريق الكذب، أما أنا فلم تكن لديَّ أي شكوك في أنَّ قادة الكونغرس لا يفهمون شيئًا عن فلسفة صدام حسين للبقاء في السُّلْطة، أو كرهه الشديد للإسلاميين المتشددين؛ سواء أكانوا إرهابيين أو لم يكونوا، فقد لاحق هؤلاء الأفراد بقسوة، والأكثر من هذا أنَّني كنت واثقةً تمامًا أنَّ بغداد كانت ستُزودني بأي معلومات استخباراتية تتعلق بهجمات الحادي عشر من سبتمبر لو كانت لديها؛ لأنَّني كنت أُطالب بذلك منذ أشهر عدَّة.

كان الإدلاء بمثل هذه المعلومات سيُقرِّب بغداد أكثر من أوروبا وواشنطن، وكانت المساعدة على إحباط المخطط ستُؤكِّد التزام العراق بالعلمانية والحداثة، وكان العراقيون يعرفون ذلك، ولكن لم يكن لديهم ما يُقدِّمونه لنا.

وتؤكِّد ضابطة الاتصال السابقة على يقينها ببراءة العراق من تُهمة المشاركة في التخطيط من أجل تفجير البرجين (ص١٦٨)

الحقيقة أنَّ المسؤولين العراقيين عملوا جاهدين في صيف عام 2001م لإنهاء العقوبات الدولية، ودعوا البعثات التجارية من أوروبا وآسيا ودول الخليج إلى إعادة بناء العلاقات، والتخلص من جدار العزلة، وقد تركزت اتصالاتي السرية على أهمية استئناف عمليات التفتيش عن الأسلحة المُحرَّمة؛ للتحقق من خلو العراق منها، ولكنَّ العراقيين وعدوا في المحادثات الجانبية بإعطاء الولايات المتحدة حصة كبيرة من عقود إعادة الإعمار في القطاعات الاقتصادية المختلفة [153]. وفي محاولة منها لإقناع واشنطن، فقد أغرتها الحكومة العراقية بإعطائها الأولوية في العقود الخاصة بالاتصالات اللاسلكية والمواصلات ومعدات المستشفيات

والأدوية، بالإضافة إلى قطاع النفط. كانت الولايات المتحدة ستحصل على كل شيء طلبته وكالة الاستخبارات الأمريكية، وأقسم لي الدبلوماسيون آلاف المرَّات أنَّهم سيعطونني الموافقة على ذلك [154].

بعد أحد عشر عامًا من جحيم المعاناة كانت نهاية العقوبات تلوح في الأفق يومًا بعد يوم؛ لذا لم يكن المسؤولون العراقيون ليُقدِموا على أي عمل يقضي على التقدم الحاصل، لقد كان رفع العقوبات هو أملهم الكبير في المستقبل.

وبعبارة أخرى، فقد كان مستحيلًا وجود أي دافع لدى العراق للتورط في مؤامرة الحادي عشر من سبتمبر، أو إخفاء أي معلومات بشأنها؛ لأنَّه كان سيخسر كل شيء في اللحظة التي يستعد فيها للاحتفال بالنصر، لقد كانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر مأساة العراق أيضًا.

وعن دور الحزب الجمهوري، الذي انتمى إليه الرئيس بوش الابن، في نشر دعاية سلبيَّة عن تورُّط العراق في دعم الإرهاب، تقول لينداور (ص١٦٨-١٦٩).

وأنـا شـخصيًّا لم أُخدع قـط بخطابات الجمهوريين التي اتَّهمت العراق بعكس ذلك، فحتى الأشـخاص الذين أدركوا أن لا علاقة للعراق بالهجَمات كانوا متحمسـين لضمان تعاون العراق مـع الحـرب على الإرهـاب [155]. لقد كانـت أجهـزة الاسـتخبارات العراقية من أفضـل الأجهزة في العـالم معرفـةً بعمل الشـبكات الإرهابيـة في أي مكان، وكان صدام حسـين يكره المتشـددين الإسـلاميين ويلعنهم، ويفترض أنَّهم سـوف يصبحون أعداءً للدولة عاجلًا أم آجلًا؛ لهذا كانت الاسـتخبارات العراقية تراقبهم باسـتمرار، وتلاحقهم في عموم منطقة الشرق الأوسط، وربما كانوا أحيانًا يطلبون اللجوء إلى العراق متوقعين السماح لهم بذلك؛ نظرًا إلى كراهيته للولايات المتحدة، وإذا حدث وطلبوا ذلك فإنَّهم لم يكونوا يعلمون أنَّ صدام حسين يأمل -باستماتة- في المصالحـة مـع أمريـكا، لو اسـتطعنا الوصول إلى هذا الكنـز من المعلومات الاسـتخباراتية لأثَّر ذلك كثيرًا في الأهداف الأمريكية، وكان صدام حسين يدرك ذلك.

كان مـن الصعـب علـى الولايات المتحدة تحقيق أي نتائج مـن دون هذه المعلومات، ويمكنك -في الوقت نفسه- أن ترى المشكلة التي وقع فيها القادة الجمهوريون.

مسـتغلًّا حالة الفوضى العالمية التي تلت هجمات الحادي عشـر من سـبتمبر، سـارع البيت الأبيض إلـى شـحن آلتـه الدعائيـة، وكان نائب الرئيـس تشـيني والسـيناتور ماكـين المتحدثين باسـمه، وفي حملـة مخطـط لها بعنايـة لربط العـراق بتنظيم القاعدة، مارس البيـت الأبيض واحدة من أكثر الخدع المكشوفة والوقحة في تاريخ الحرب على الإرهاب.

لم تكـن هـذه هـي المرَّة الأُولـى التـي مثلـت فيهـا شـخصيتي ومصداقيتـي مشـكلة خطيرة للمحافظـين الجُـدد في البيـت الأبيض؛ فقد راقـب فريقنا توقـف العراق عن دعـم التنظيمات الجهادية المختلفة منذ عام 1996م، بما في ذلك رفض العراق عروضًا من أسامة بن لادن عام 1998م، مباشرةً بعد الفتوى السيئة التي أصدرها حيال الغرب [156].

وتنقل لينداور ردَّ فعل الدبلوماسيين العراقيين على الأحداث، مشيرةً إلى افتراضهم سعي أمريكا إلى نشر دعاية كاذبة عن بلادهم تؤدي إلى الحرب، بالتغاضي عن اتخاذ تدابير وقائيَّة كافية لمنعه (ص١٧٥).

بعد هجمات الحادي عشـر من سـبتمبر مباشـرةً شعر العراقيون باسـتياء كبير، ويتردد في الإسـهام في التحقيقـات؛ ذلـك أنَّ الدبلوماسـيين العراقيـين في نيويـورك وبغـداد كانوا من بين الأشـخاص القليلين في العالم الذين لديهم معلومات مباشـرة تفيد بأنَّ القيادة الأمريكية العليا كانت تتوقع حدوث هجمات الحادي عشر من سبتمبر بالطريقة التي نُفِّذت بها.

كيف عرفوا ذلك؟ لأنَّني قلت لهم ذلك.

كان العراقيـون يـرون أنَّ هـذا يُلقـي شـكوكًا علـى مصداقيتنـا، وهـذا مـا عـبَّروا عنـه في مراسلاتهم من بغداد؛ إذ تحدوني قائلين:

من الواضح أنَّكم كنتم تعرفون أنَّ الهجوم سـيقع؛ لأنَّك كنت تقولين ذلك لنا طوال الوقت، كان عليكم إفشاله قبل وقوعه بدلًا من إلقاء اللوم علينا اليوم.

— لماذا لم توقفوه؟

— سـنقول لـك لمـاذا، أنتم لم توقفوه لأنَّكـم كنتم تُخططون للحرب منذ مـدَّة طويلة، وكان الهجـوم هـو المُبرر لكـم، وهذا ما جعل الولايات المتحدة تسـمح بوقـوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

> — لقد سمحت حكومتك بوقوع هذه الكارثة لأنّكم لم توقفوها، والآن تأتون لإلقاء اللوم علينا!
>
> كان الدبلوماسيون العراقيون على حق؛ اعتقدوا، وربما كانوا على حق أيضًا، أنّ عدوهم القديم (الموساد الإسرائيلي) أعطى وكالة الاستخبارات الأمريكية معلومات عن الهجوم، وهو يحاول الآن إلقاء اللوم عليهم.

تبرهن لينداور على استعداد العراق للتعاون في مكافحة الإرهاب، على عكس ادعاء أمريكا (ص١٨٩).

> كان التناقض الآخر الكبير هو ما سُمي يومها (عدم التعاون) مع السياسة العالمية لمكافحة الإرهاب؛ ما يوحي أنّ العراق ملتزم بنوع من الفلسفة الإرهابية، كان العراق طوال تسعينيات القرن الماضي من أفضل مصادر واشنطن في مكافحة الإرهاب، وقد وُجدت القناة الخلفية أولًا وأخيرًا لتكون بوابة خلفية لتلقي المعلومات الاستخباراتية، وكان العراق مستعدًا دائمًا للتعاون بصرف النظر عن العقوبات.
>
> كان دعم العراق لمكافحة الإرهاب نابعًا من هويته العلمانية، وتصميمه على فرض سيطرة محكمة على الأصوليين المتطرفين داخل حدوده، وكان العراق يكره ما يتردد عن استعداده المزعوم لتوفير ملجأ للإرهابيين، وكان صدام حسين يود لو أنّه يستطيع اعتقال الجهاديين الشباب كافةً حتى يتعفّنوا داخل السجون. وفيما يخص هذا الشأن تحديدًا، فقد كانت توجد أشياء مشتركة بين صدام حسين ونائب الرئيس الأسبق ديك تشيني.

في فصل أطلقت عليه "سياسية واشنطن العميقة: التهرُّب من المسؤوليَّة"، تشير لينداور إلى ملابسات اعتقالها، بعد مطالبتها بالشهادة، واتصالها بالسيناتور ماكين للانضمام إلى قائمة الشهود، التي كانت تحت إشرافه (ص٢٣٢).

> **كان موظفو مكتب السيناتور لوت والسيناتور ماكين لطيفين أيضًا، لكنَّهم تسببوا في سجني بعد شهر من طلبي الإدلاء بشهادتي.**

تتحدَّث لينداور عن التحقيقات التي أجريت معها، والتي ركَّزت على مناهضتها حرب العراق، بدلًا من أعماله قيد البحث (ص٢٣٢).

> وما صدمني هو أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي فتح – كما توقعت– تحقيقًا عن أنشطتي المناهضة للحرب، بدلًا من التركيز على تمويل الإرهاب.
>
> كنت أعرف توقيت ذلك؛ لأنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي أُجبر – بعد اعتقالي– [211] على تسليم تسجيلات أكثر من ثمانية وعشرين ألف مكالمة هاتفية، وثمانية آلاف رسالة إلكترونية، ومئات من رسائل الفاكس، وقد بدأ المكتب يسجل المكالمات الهاتفية في شهر مارس عام 2002م، بعد خمسة أشهر من رحلتي إلى بغداد في مارس 2002، وبعد أسابيع قليلة من بدء جولاتي في مبنى الكونغرس.
>
> تُظهر صور المراقبة أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي (أو وكالة الأمن الوطني) هو الذي صور اجتماعاتي بالدبلوماسيين العراقيين في نيويورك في شهر فبراير عندما كنا نُخطط لرحلة بغداد، فلو كان مكتب التحقيقات الفيدرالي يعتقد أنَّني خالفت القانون لكان سجل مكالماتي الهاتفية ورسائلي الإلكترونية فورًا؛ لتكون جزءًا من التحقيق الجنائي، لكنّه لم يفعل ذلك إلا بعد خمسة أشهر؛ ما يعني أنّ رحلتي إلى بغداد لم تمثل مشكلةً.

تشير ليندداور إلى أدلَّة براءتها من الإهمال في توصيل معلومات حسَّاسة قبل حرب العراق (ص٢٣٣-٢٣٤).

وعلى أي حال، فقد اكتشفت وزارة العدل أنَّني قلت الكثير للكونغرس الذي كافأ البيت الأبيض بادعائه أنَّني لم أقل له شيئًا.

لكنَّ تسجيلات المكالمات الهاتفية لا تكذب؛ فمكالماتي الكثيرة مع مكاتب عدد من أعضاء الكونغرس، تُثبت أنَّني تحدثت إليهم بوصفي واحدًا من الوسطاء السريين القليلين المكلفين بملف العراق [213]، وقد وصفت في بعض مكالماتي مشروع السلام، وأكدت لموظفي الكونغرس أنَّ الدبلوماسية يمكن أن تُحقِّق النتائج الكاملة التي يسعى إليها صناع القرار السياسي.

نبَّهت بعض المكالمات على أنَّ أئمة المساجد في بغداد هددوا بتمزيق الجنود الأمريكيين إربًا إربًا إذا غزت الولايات المتحدة العراق، وفي زيارتي إلى بغداد في شهر مارس من عام 2002م (قبل عام من الغزو)، هدد أئمة المساجد باللجوء إلى العمليات الانتحارية، وأقسموا أنَّ النساء العراقيات سيشاركن في مقاومة الغزو الأمريكي، وقالوا إنَّ على الأمريكيين ألا يراهنوا على كره العراقيين لصدام حسين؛ لأنَّهم يكرهون الولايات المتحدة أكثر منه بسبب قسوة العقوبات التي دمرت مجتمعهم واقتصادهم، وهددوا بأنَّ الجحيم سيكون في انتظار الولايات المتحدة إذا حاولت احتلال بغداد.

ركَّز جزء كبير من محادثاتي مع أعضاء الكونغرس على ضرورة مواءمة الكونغرس بين وكالة الاستخبارات الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالي؛ بغية تشكيل فريق عمل لمكافحة الإرهاب داخل العراق، لقد كان معظم موظفي الكونغرس يلقون خطابات نارية دعمًا لسياسة مكافحة الإرهاب، لكنَّهم لم يطرحوا إستراتيجيات كفيلة بتحقيق نتائج على الأرض، وقد فوجئوا عندما طالبت بتعاون مكتب التحقيقات الفيدرالي مع وكالة الاستخبارات الأمريكية؛ من أجل ضمان الحصول على تلك السجلات المالية من العراق.

أوضحت أيضًا أهمية تحديد مصادر تدفق النقد للمنظمات الإرهابية، ووجوب سعي الجمهوريين والديمقراطيين إلى تجفيف منابع تمويل الأنشطة الإرهابية، وجعل ذلك على سلَّم أولوياتهم، علينا أن نتذكَّر أنَّ هذه الأموال تأتي من تهريب الهيروين بوساطة شبكة تبدأ بأفغانستان، وتمر بوادي البقاع في لبنان، وتنتهي في كولومبيا.

وقد توقعت من أعضاء الكونغرس أن يغتنموا هذه الفرصة، وأن يكونوا على قدر التحدي، إلا أنَّ ذلك لم يحصل، ويظل سبب ترددهم في هذا الشأن مدعاةً للحيرة.

تشير ليندداور كذلك إلى تدابيرها لمنع حرب العراق بحجَّة ضلوعها في أعمال إرهابيَّة (ص٢٤٥-٢٤٦).

لقد أظهر موقف الكونغرس وجود فشل ذريع في التواصل، وخطر لي أنَّ الحل بسيط جدًّا؛ وهو يتمثل في الاتصال بالقيادات العليا، وتنظيم نقاش مع كلٍّ منها، وهذا يعني زيادة عدد الجمهور وحجم المعرفة إلى الحد الأقصى، والتقليل من عملية (الإنكار)، بحيث لا يقولون أن لا علم لهم بالحقائق، وأن لا أحد قد بيَّن لهم أخطاء افتراضاتهم، وفي حال أُجبروا على مواجهة الحقيقة عند كل منعطف، فمن المحتمل جدًّا أنَّهم سيعترفون بها.

قلت لنفسي إنَّها إستراتيجية ممتازة؛ لذلك، أطلقت في الحادي عشر من شهر سبتمبر عام 2002م (الذكرى السنوية الأُولى للهجوم الإرهابي الذي عملت جاهدة لوقفه) نظام رسائل سميته (مواطنون من أجل النزاهة العامة)، ويحمل الاسم إدانةً وانتقادًا لاذعًا لاستغلال الهجوم الإرهابي سياسيًّا من أجل حشد التأييد الشعبي للحرب.

ولكي أتمكن من إيصال الرسالة؛ فقد أنشأت قاعدة بيانات إلكترونية تضم أسماء (435) عضوًا في مجلس النواب، و (100) عضو في مجلس الشيوخ، وكانت الرسائل تصل إلى الأعضاء الجمهوريين والديمقراطيين، من دون تفضيل حزب على آخر؛ لضمان وصول الرسائل إليهم جميعًا [224].

باختصار، فقد شملت قاعدة البيانات كبار موظفي الكونغرس من الحزبين جميعًا، لقد كان مشروعًا ضخمًا، وكان عليَّ أن اتصل بكل مكتب للحصول على الأسماء، وتُثبت تسجيلات مكالماتي الهاتفية من أصدقائي الطيبين في مكتب التحقيقات الفيدرالي أنني فعلت ذلك.

أنشأت أيضًا قاعدة بيانات تتضمَّن أرقام الفاكس الخاصة بأعضاء مجلسي الشيوخ والنواب، و (185) سفيرًا من السفراء المعتمدين لدى الأمم المتحدة [226].

بعد انشاء نظام (مواطنون من أجل النزاهة العامة)، استعملت بيانات الفاكس والبريد الإلكتروني لإطلاق حملة تهدف إلى كشف أخطار الحرب والاحتلال، وأعددت (20) دراسة مختصرة عن آثار الاحتلال المدمرة في الشعب العراقي، والشرق الأوسط، والمستقبل المالي للطبقة المتوسطة في الولايات المتحدة، وكنت قد وزَّعت أيضًا مقالات مهمة كتبها خبراء في السياسة الخارجية.

لقد صرخت بأعلى صوتي لإسكات هؤلاء الذين ادعوا أنَّ الوسطاء السريين لم يفعلوا شيئًا لوقف الهجوم الإرهابي، وقد أصبت الهدف إصابةً دقيقةً.

على سبيل المثال، أجريت بحثًا عن تاريخ مقاومة الشعب العراقي للاحتلال البريطاني في عشرينيات القرن الماضي، والخسائر الفادحة التي تكبَّدها الجيش البريطاني.

وحذَّرت من هزيمة شبيهة بهزيمة بريطانيا، ومن النتائج الشبيهة بنتائج الثورات على الحكام العملاء في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وما نجم عن ذلك من موجة عداء للغرب، واندلاع ثورة عام 1958م الموالية للمعسكر الشيوعي [227].

نشرنا أيضًا دراسة عن تكاليف الحرب والاحتلال مدَّة عشر سنوات، وقد قُدِّرت بنحو (1,6) تريليون دولار، مقارنةً بـ (100) بليون دولار قدَّرها الجمهوريون الداعمون للحرب [228]. والحقيقة أنَّ الحرب في أفغانستان والعراق كلفت الولايات المتحدة ما بين (4-5) تريليونات دولار؛ أي نحو ثلث مجموع الدَّيْن الفيدرالي البالغ (15) تريليون دولار.

وكنا قد حذَّرنا الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة من أنَّ تكلفة الحرب سوف تتسبب في عجز الحكومة عن توفير الخدمات؛ لأنَّ التكلفة الأولية لأخطار الحرب (100 بليون دولار)

ستؤدي إلى زيادة الضرائب المفروضة على الدخل الشخصي والأرباح الهزيلة للشركات، في الوقت الذي كان فيه الأمريكيون يواجهون احتمال عودة حالة الركود والكساد، وازدياد عدد الشركات التي تعلن إفلاسها [229].

لذلك، فقد حذَّرت من أنَّ الحرب على العراق ستدفع مؤسساتها المالية إلى حافة الانهيار، وقلت إنَّ معارضة إرادة الشعوب ستكون لها عواقب وخيمة؛ فمن غير المعقول أن يلجأ الكونغرس بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى هذه التصرفات الطائشة، التي من شأنها زيادة العمليات الإرهابية الانتقامية على بلدنا، ومن الواضح أنَّ أصحاب المناصب يعتقدون أنَّهم يستطيعون إلهاء الشعب الأمريكي عن التفكير في أوضاع سوق الأسهم، وأخطار الوقوع في موجة كساد مزدوج بالحديث عن العراق [230].

أردت أيضًا تحذير الكونغرس من أنَّنا سنلاحق الأعضاء الذين تثير تصرفاتهم ردات فعل إرهابية، مثلما لاحقنا تنظيم القاعدة، لكنَّ الفارق هنا هو أنَّ هؤلاء الأعضاء لن يستطيعوا الاختباء مثل أسامة بن لادن.

تتهم ليندا اور الإدارة الأمريكيَّة باتِّهام الاستخبارات بالتسبب في حرب العراق؛ للتنصُّل من إهمالها (ص٢٤٨).

لقد حوَّلت الإدارة الأمريكية الاستخبارات إلى كبش فداء؛ لأنَّ قادة الكونغرس كانت تعوزهم النزاهة والشجاعة لتحمُّل مسؤولية قراراتهم، فَهُم في نهاية المطاف مَنْ ساعد على شن الحرب على العراق، وقد حاول عدد كبير منا ثنيهم عن ذلك.

تعاود الضابطة السابقة إبراز تعاوُن العراق مع المحقِّقين الدوليين قبيل الحرب (ص٢٥٣-٢٥٥).

ازداد النشاط الدبلوماسي داخل السفارة العراقية بصورة مذهلة مع استئناف عملية التفتيش عن الأسلحة، وكان الدبلوماسيون الذين يتمتعون بالكياسة والكفاية العالية يسارعون إلى حضور الاجتماعات، مستغلين كل مناسبة لطمأنة المراقبين القلقين حيال التزام العراق بمعايير التحقُّق من نزع السلاح، وهي أكثر المعايير قساوةً في تاريخ العالم، التي قد تعجز معظم الدول الأعضاء في الأمم المتحدة عن تطبيقها.

لكنَّ المثير في الأمر هو أنَّ امتثال العراق فاقَ المتوقع، حتى إنَّ الولايات المتحدة وبريطانيا اضطرتا إلى رفع سقف المعايير أكثر. وفي الأحوال كلها، فقد تغلب العراق على الولايات المتحدة؛ لأنَّ الدبلوماسيين العراقيين أرادوا وضع نهاية للبؤس الذي تُسبِّبه العقوبات لشعبهم، كانوا يرون النهاية قريبةً، وصمَّموا على وقف العقوبات بالاستجابة السريعة لأي سؤال من الأمم المتحدة عن البيانات أو مراجعة الأداء، ولم يشعروا بالكلل أو الملل في سعيهم لتحقيق هذا الهدف.

كان نظام الحكم في العراق علمانيًّا قبل فرض العقوبات؛ ما يعني أنَّ الدبلوماسيين كانوا متأقلمين مع الغرب، خلافًا لإيران وبعض دول الخليج التي تكره الحداثة الاجتماعية، وطوال هذه السنوات كان الدبلوماسيون العراقيون يعربون عن رغبتهم في تجديد الصداقة القديمة مع الغرب، وقد سنحت لهم الفرصة لإثبات هذه الصداقة، وكانوا حريصين على عدم تفويتها.

لم تعطِ دول مثل فرنسا، وروسيا، وسوريا، أو أعضاء مجلس الأمن الآخرين، كانت تدعم الحل السلمي، الدبلوماسيين العراقيين فرصةً للتراجع، حتى إنَّها - لإثبات جدوى الحل السلمي- طلبت إلى العراق القفز خلال حلقات النار.

لم يُفلِح عدم اكتشاف أسلحة سرية في تخفيف التخمينات البائسة عن الأسلحة التي كان يقال إنَّ العراق لا يزال يخفيها، وقد تابعت الصحافة التقدم الحاصل في عمليات التفتيش وسط تسريبات محمومة وكاذبة من مسؤولي البيت الأبيض عن وجود مخابئ أسلحة سرية، وزاد خبراء الإعلام من حملة التحريض بتوقع الأمكنة التي يُعتقد أنَّ العراق قد خبَّأ فيها هذه الأسلحة المزعجة، كان هذا يحدث، والناس العقلاء حول العالم يصلون من أجل نجاح عمليات التفتيش، وحبس العالم أنفاسه بحثًا عن علامات قد تدل على أنَّ العراق سينهار تحت الإكراه.

لكنَّ الحال كان مختلفًا داخل السفارة؛ فقد كان الدبلوماسيون يبتسمون بأمل، والهدوء بادٍ على وجوههم، لقد أصبحوا - بعد ثلاث عشرة سنةً من العقوبات- يرون بارقة أمل لمستقبل أفضل لسعادة شعبهم ورخائه.

أصرَّت لينداور على إبلاغ كولن باول، وزير الخارجيَّة الأمريكيِّ، بمعلوماتها عن إمكانيَّة حلِّ المشكلة سلميًّا (ص٢٥٩-٢٦٠).

أبلغت الوزير باول أنَّ مشروع السلام لا يزال قابلًا للتطبيق. وفي السابع والعشرين من شهر يناير عام 2003م، عدت مرَّةً أخرى، قبل أيام قليلة فقط من خطاب باول السيّئ أمام الأمم المتحدة في الخامس من شهر فبراير عام 2003م. في هذه المرَّة، شرحت له بتفصيل أكثر كيف أنَّ العراق كان متحمسًا لاستئناف عمليات التفتيش في أثناء المباحثات الأولية من نوفمبر 2000م إلى مارس 2002م؛ ما يشير إلى أنَّ من غير المحتمل أنَّ العراق يخفي أسلحة دمار شامل [253]. كانت هذه الرسالة واضحةً، ولا لبس فيها.

في السابع والعشرين من شهر يناير عام 2003م قلت للوزير باول ما يأتي: «إذا كنتم تعنون ما تقولون فعلًا فإنَّ أمامكم مشروع السلام هذا الذي يسمح للرئيس بوش بإعلان نصر أخلاقي لقيادته، وعن طريق الموقف القوي والجيش المستعد في منطقة الخليج، يستطيع البيت الأبيض تحقيق النصر من دون الذهاب إلى الحرب.

وما سأقوله لاحقًا سيكون أكثر خطورةً، ولكنَّني ملزمة لأقوله لكم: نظرًا إلى أنَّ العراق حاول لسنتين عقد مباحثات سرية مع الولايات المتحدة، ووعد باستئناف عمليات التفتيش فورًا؛ فيوجد احتمال كبير بعدم امتلاك العراق أسلحة دمار شامل؛ لذلك لا تستمعوا إلى ما يقوله المعارضون العراقيون لكم؛ إنَّهم كاذبون معروفون، وهم تواقون جدًّا لتوريط الولايات المتحدة من أجل حمايتهم، لا يمكنكم أن تعودوا إلى الوطن للاحتفال بعد حملة القصف الشريرة.

«لقد أكد العراق منذ أكثر من سنة - قبل دخول كوفي أنان على الخط- أنَّه سيغتنم أي فرصة ليُثبت للعالم أنَّه لا يملك أي أسلحة من تلك التي نبحث عنها، لقد كان العراق جاهزًا في أي لحظة لاستئناف عملية التفتيش، وهذا يجعلني أُؤمن بأن ليس لديهم أي شيء ليخفوه، وقد أصروا بكل بساطة على القول إنَّ الخطة لن تكون ذات معنى أو جدوى في حل التوترات في غياب الدعم الأمريكي لها، وقد أثبتت الأحداث الحالية أنَّهم محقون في ذلك.

لا تخدع نفسك أيها الوزير بالقول إنَّ الحرب ستكون غير مكلفة، وإذا كنت تعتقد ذلك حقًّا فهذه غلطة قاتلة؛ لأنَّ خوض معارك شوارع بحثًا عن صدام حسين يحمل أخطارًا عدَّةً للجنود الأمريكيين. ومهما كان رأي العراقيين في صدام حسين فإنَّ الناس العاديين يكرهون الولايات المتحدة بسبب العقوبات والقصف، وسوف يَعُدون مَن يساعدكم خائنًا، وفي مثل هذه الظروف فإنَّ الوحشية المطلوبة لكسب هذه الحرب ستستفز العالم العربي بأسره، ستؤدي الحرب إلى مرحلة احتلال كارثية؛ فالعراقيون حاربوا كل احتلال من قبلُ، وسيهاجمون قواتنا ما أمكنهم ذلك.

أما خارج العراق فسوف يهاجم الإسلاميون قياداتهم الموالية للغرب؛ لفشلها في حماية الشعب العراقي، وسوف يستثمرون هذا الفشل للحصول على تنازلات من حكوماتهم. إنَّ ايران وأسامة، وليس الولايات المتحدة، سيكونان أكبر المنتصرين في هذه الحرب، وسوف يقف الشارع العربي إلى جانبهما.

أرجوك أن تمنحني فرصةً لمساعدتك، لا يزال بإمكانكم، معالي الوزير، أن تُحقِّقوا نصرًا عظيمًا، والحفاظ على قوة أمريكا الأخلاقية أمام العالم، يمكنكم تحقيق أهداف إدارة بوش من دون إشعال حرب الثارات الإرهابية، والمقاطعة العالمية، أو المخاطرة بتفكك التحالفات السياسية في الحرب على الإرهاب، أو التسبب في عجز مالي كبير من شأنه أن يطيل مرحلة الكساد، ويثير الرعب في أسواق المال، وبين أوساط الطبقة الوسطى، أو إثارة حرب دينية، وهذا ما سيحدث».

تشير لينداور إلى مدى المصداقيَّة التي نقلت بها تحذيراتُها الحقيقةَ (ص٢٦١).

يشـار إلى أنّ لجنة الاسـتخبارات في مجلس الشـيوخ كانت قد أشادت عام 2007م بالجودة المتميزة للتقارير الاسـتخباراتية في شـهر يناير عام 2003م، ووصفتها بالنقاط القليلة المضيئة في جمع المعلومات في مرحلة ما قبل الحرب [254]، وأشارت اللجنة إلى التحذيرات المحددة الواردة في رسائلي إلى آندرو كارد وكولين باول، وقال السيناتور جون وارنر إنّها مخيفة، واستشرافية.

أما فيما يتعلق بقدرة الوزير باول على تحديد هويتي فقد كان ضابط الاستخبارات المسؤول عني الدكتور فيوز يسـكن بجوار الوزير باول، وهو شـخصية معروفة في أوسـاط الاسـتخبارات، وكان يمكـن معرفـة علاقتـي بالدكتور فيوز بسـهولة بوسـاطة عملية بحث علـى (غوغل)، حيث ستَظهر علاقتنا في قضية لوكيربي، وقد عرفت عنوان بيت الوزير باول من زياراتي لبيت جاره الدكتور فيوز، وهذا ليس علم صواريخ.

إنَّ ذلـك كلـه جعلنـي لا أفهم لماذا سـلَّم الوزير باول مكتب التحقيقات الفيدرالي نسـخًا من رسـائلي المُوجَّهة إلى آندرو كارد، وهو الشـيء الذي نسـي أن يذكره في مقابلته مع باربرا وولترز عام 2005م [255].

تتحدَّث ليندوار عن تأثير نتائج حرب العراق على الشعب الأمريكي، بعد خوض حرب أصرَّت هي-ضمن كثيرين-على عدم جدواها، وعلى نتائجها الكارثيَّة (ص٣٠٠-٣٠١).

لقد انهارت مسرحية النصر في أشهر قليلة، وسقط قانون التحرير بين الركام وتشوه بحيث لا يمكـن تعرفـه، إلـى جانـب ادعاءات النصر المتفحمة، لقد حدث كل شـيء سـريعًا، اسـتيقظ الأمريكيون في صباح أحد الأيام ليكتشفوا أنَّهم أصبحوا جيشًا مهزومًا.

كانت كلمة (فيتنام) على كل لسـان، وأخذت إدارة جيش الاحتلال تعيد الجنود الذين كان يُفترَض أن يخدموا طويلًا في العراق بسبب توتر ما بعد الصدمة الذي أخذوا يعانونه.

عندها أخذ الشعب الأمريكي يطالب بمعرفة السبب، وبيان لماذا أصبح الأمريكيون يوصفون بالأشرار في أي صراع.

في واشنطن، شعر قادة الكونغرس بالذعر بعدما تجاهلوا صيحات مئات الآلاف من ناخبيهم بصورة رسـائل ومكالمات هاتفية ومظاهرات، تطالب بعدم التورط في العراق، والسماح لمفتشي الأمـم المتحدة بإنهاء مهمتهم. لم يكن الشـعب الأمريكـي يريد أن يضحي من أجل هذه الحرب أبدًا، وأصبح مستقبلهم الآن مرهونًا بفشلها.

أخـذ الكونغرس يواجـه اتهامـات قاسـية، ومعـارك انتخابـات شرسـة، ترافقت مـع تزايد المشاعر المعادية لشاغلي الوظائف العامة، كان العراق وهجمات الحادي عشر من سبتمبر هما موضوع النقاشات الرئيس، وأخذت أسئلة كثيرة تتردد، مثل: هل كان الجمهوريون قادرين حقًّا

علـى قيـادة الحرب على الإرهـاب؟ هل حققوا ما وعـدوا به؟ متى حصلت وكالة الاسـتخبارات الأمريكية على أول معلومة عن هجوم إرهابي وشيك؟

بدايـةً، كانت انتقـادات خافتة عن دورنا في إعطاء هذه المعلومات، ولكن كان علينا الانتظار وقتًا أطولَ حتى تتكشف الحقيقة.

تزايـدت أيضًـا المراهنـات الرئاسـية حتـى وصلـت إلـى مسـتويات مخيفـة، ولـو اسـتطاع الجمهوريـون هزيمـة آلـة الحـزب الجمهـوري لأخرجـوا مـن الكونغرس عـددًا كبـيرًا مـن الجمهوريين.

أخذ الكونغرس ينهار ويتآكل، فبدأوا يبحثون عن كبش فداء، عن أي شـيء يُجنِّبهم تحمُّل مسـؤولية أخطائهـم في الاندفـاع إلـى الحـرب التـي كلَّفـت أمريكا مكانتهـا الكاملـة في العالم، وكذلـك قدرتهـا علـى فرض سياسـاتها علـى حلفائها الموثوقـين، هذا حتـى لا نذكـر التكاليف الماليـة الباهظـة التـي كان يُفترَض أن تُصـرَف علـى المدارس، والمشـروعات العامـة، ودوائـر الشرطة.

لقد كانت هذه الخسائر فادحةً، تمامًا مثلما حذَّرت الاستخبارات من ذلك.

وتحكي لينداور عن ردِّ فعلها تجاه فشل الحرب في تحقيق هدفها (ص٣٠٠-٣٠٤).

> واصلت دوري الرقابي بعد غزو العراق، ووزعت الوثائق التي تبين انتهاكات حقوق الإنسان في العراق، وطالبت بوقفها، وقد دافعت عن حق المعتقلين في الحصول على الاستشارات القانونية، والاحتجاج على اعتقال الجنود الأمريكيين لهم في منتصف الليل، وأكدت وجوب حمايتهم من هجوم كلاب الحراسة عليهم، وعدم الإساءة إليهم جنسيًا[300]، وذلك بعد انتشار الشائعات عما كان يجري في سجن (أبو غريب)، وقبل انكشاف الفضيحة.
>
> وأخيرًا، فقد شملت حملة (مواطنون من أجل النزاهة العامة) الدفاع عن حق العراق في تشكيل الأحزاب السياسية، ورسم مستقبله السياسي من دون الاعتماد على العراقيين المنفيين الذين سحقوا المعارضة بعنف[301]. كان يتعيَّن بناء العراق الجديد من الداخل، لا أن يُفرَض من الخارج.

> أعلنت أيضًا -صراحةً- عن كرهي للجمهوريين بسبب أكاذيبهم وادعاءاتهم بمعرفتنا السابقة عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وزهوهم بأدائهم القيادي الرفيع في القضايا المتعلقة بالأمن القومي ومكافحة الإرهاب، فهذا زيف وخداع سياسي من وجهة نظري، كذلك رفضت الاتهامات القائلة إنَّ هجمات الحادي عشر من سبتمبر تُعزى إلى انعدام التعاون بين الوكالات على المستوى القيادي والمتوسط، وأعلنت أنَّ كبار المسؤولين الجمهوريين في وزارة العدل هم الذين رفضوا التخطيط والتنسيق لوقف الهجمات، وكان لا بُدَّ من صدور توجيهات من الوزارة للبدء بهذا التعاون. وفي الوقت الذي كان فيه موظفو المستوى الأدنى يدركون أهمية مثل هذا التعاون، لم تكن لدينا السُّلطة لنفرض هذا التعاون، ولكنَّنا حذَّرنا - بكل تأكيد- من خطورة انعدام مثل هذا التعاون، وهذا ما جعل المسؤول عني (الدكتور فيوز) يطلب إليَّ الاتصال بآندرو كارد في بيته في آرلينغتون بولاية فرجينيا، في منتصف شهر أغسطس عام 2001م. لقد أردنا يومها تخطي العوائق السياسية من وزارة العدل.

تؤكِّد لينداور أنَّها نقلت صورة واضحة عن واقع الأمر، لكنَّ أحدًا لم ينتبه لما قدَّمته (ص٣٠٤-٣٠٥).

> ووفقًا للتهديدات التي نقلتها إلى الدبلوماسيين العراقيين بنفسي في شهري إبريل ومايو من عام 2000م، وما تلا ذلك، فليس لديَّ أدنى شك في أنَّ كبار مسؤولي البيت الأبيض قد حلَّلوا سيناريو هجمات الحادي عشر من سبتمبر، واتخذوها ذريعة للحرب على العراق.
>
> وتأسيسًا على ذلك، فقد توقعت الاستخبارات هذا الهجوم بتفاصيله كلها، وحاول المسؤولون عني وقفه بشتى السبل، لكنَّ المخطط السري لشن الحرب على العراق كان في طور الإعداد، وبدلًا من الاستماع إلى تحذيراتنا الاستباقية العاجلة، اختار كبار المسؤولين في البيت الأبيض عدم اتخاذ حتى إجراءات مضادة بسيطة كانت ستمنع الإرهابيين من تحقيق مآربهم، مثل استنفار قيادة الدفاع الجوي لأمريكا الشمالية (نوراد)، أو تركيب مدفع مضاد للطائرات على سطح أحد برجي مركز التجارة العالمي؛ لذلك فإنَّ المسؤولين الحكوميين- بالرغم من معرفتهم بما كان سيحدث- تخلوا عن التزاماتهم بحماية سلامة أراضي الولايات المتحدة، وهذا عمل متعمَّد يدل على إهمال قيادي لا يغتفر.
>
> توجد أيضًا أسئلة تتعلق بأموال الميزانيات السوداء التي خُصِّصت للعمل الميداني بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وقد رصد الكونغرس نحو (75) مليون دولار لهذه الميزانيات السرية، لكنَّها بطريقة ما سُحبت من المشروعات الميدانية مثل مشروعي، وحُولت إلى الأعمال

الحكومية الإدارية، وشراء أجهزة تقانة متطورة. وتوجد مؤشرات قوية على أنَّ جزءًا كبيرًا من هذه الميزانيات قد ذهب إلى حسابات مصرفية شخصية، وإلى بيوت الخدمات الاستشارية.

أما الأفراد الذين لم يُصرَف لهم شيء من ميزانيات مكافحة الإرهاب فَهُم الوسطاء السريون مثلي، الذين يقومون بالعمل اليومي لمكافحة الإرهاب، أو العملاء في الشرق الأوسط مثل صديقي في المخابرات العراقية، وهذا هو جوهر عمل مكافحة الإرهاب، ولو صُرفت هذه الأموال في مكانها الصحيح لأمكن للولايات المتحدة تحديد الإرهابيين الذين دخلوا العراق، وأمكنة إقامتهم، ومَن قابلهم، والأنشطة التي مارسوها.

كان يمكن الاستفادة من حصتنا البالغة (13) مليون دولار في تعيين (20) عميلًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي في بغداد، إضافةً إلى فريق من محللي وكالة الاستخبارات الأمريكية في مقر الوكالة، يتولى مهمة الإشراف على فريق العملاء هؤلاء، لكنَّ الذي حدث حقيقةً هو صرف أموال دافعي الضرائب على إعداد التصحيحات والتعديلات الهندسية لبناء بيت فخم في فرجينيا.

تذكر لينداور المسؤول عمَّا حَدَث بمنتهى الوضوح (ص٣٠٦).

وبدلًا من التحقيق في هذا الأمر، فقد لجأ القادة الجمهوريون إلى إثارة المشاعر الوطنية التي رافقت هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ لإرضاء طموحاتهم الزائفة.

ومن هؤلاء السيناتور جون ماكين، ونائب الرئيس ديك تشيني؛ إذ مارس هذان الرَّجلان دورًا كبيرًا في إثارة المخاوف المجنونة من علاقات صدام حسين المزعومة بالإرهابيين، وظل كبار المسؤولين يستعرضون أنفسهم على شاشات محطة فوكس نيوز، ويوجهون مطالب وتحذيرات للعراق من أجل إثارة الهستيريا العامة، وحشد التأييد لحربهم القادمة.

وبينما كان الجمهوريون يقومون بذلك نقلت حملتي إلى الكونغرس، ورددت على الاتهامات بالحقائق التي تؤكد نجاحنا في ضمان تعاون العراق مع سياسة مكافحة الإرهاب.

ولو كان الجمهوريون يعتقدون حقًّا أنَّ الإرهابيين كانوا يستخدمون العراق ملجأً لهم، كما كانوا يزعمون على شاشات التلفزة، لكانوا أرسلوا فريقًا من مكتب التحقيقات الفيدرالي للعمل الميداني في بغداد؛ من أجل توفير قوة ردع لمواجهة هؤلاء الإرهابيين، والحقيقة أنَّه لو حدث ذلك لكان عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي يمارسون عملهم في العراق، بدءًا بشهر فبراير من عام 2001م؛ أي قبل تسعة أشهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وقد وافقت الحكومة العراقية على هذا الاقتراح بعد الهجوم على المدمرة كول في شهر أكتوبر عام 2000م.

الحرب العراق تتسبب في ضياع وثائق تمويل تنظيم القاعدة، التي كانت لدى النظام العراقي (ص٣٠٨-٣٠٩).

منذ بدايات التهديد بالحرب حذَّر الدبلوماسيون العراقيون من أنَّ خيبة الولايات المتحدة ستكون كبيرةً إذا فكَّرت في غزو بغداد، والاستيلاء على تلك الوثائق عن طريق الحرب والاحتلال.

وعرض الدبلوماسيون على واشنطن عملية مقايضة؛ فإذا قبلت الولايات المتحدة بالعراق شريكًا أُمميًّا للحرب على الإرهاب، يمكن لبغداد أن تُسلِّم هذه السجلات المالية، وسنُحقِّق أعظم أهدافنا معًا في الحرب على تنظيم القاعدة، لكنَّ العكس صحيح أيضًا؛ إذ ستخسر الولايات المتحدة في حربها على العراق كل شيء يمكن أن يُقدِّمه العراق للمساعدة في الحرب على الإرهاب، وستُتلف تلك الوثائق كلها، وتختفي المعلومات الاستخباراتية إلى الأبد.

لم يكن لدى الحكومة العراقية نيَّة بالسماح للولايات المتحدة أن تخرج بمكاسب من كلتا الحربين، وقد سبَّب هذا التهديد مشكلة خطيرة عندما حاول الجمهوريون جاهدين إعلان النصر في الحرب على الإرهاب. والحقيقة أنَّهم فشلوا؛ فالشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يُحقِّق النصر في الحرب على الإرهاب هو قطع الإمدادات المالية لتنظيم القاعدة، لكنَّ ذلك لم يعد موجودًا.

لقد أحرق صدام حسين تلك الوثائق مع سقوط أول قذيفة على بغداد، وكان الدبلوماسيون العراقيون قد أكدوا لي في شهر فبراير عام 2003م، أنَّ هذه الوثائق لا تزال موجودةً، لكنَّها لم تعد كذلك بعد الغزو. كانت هذه خسارة كبيرة للولايات المتحدة؛ لأنَّ هذه الوثائق جُمعت في عشر سنوات، واحتفظت بها الحكومة العراقية على أمل مقايضتها برفع العقوبات، وسيكون مستحيلًا محاولة استرجاعها مرَّةً أخرى.

أجل، لقد أحسن صدام حسين لعب تلك الورقة إستراتيجيًا، ووعد بأن لا تحصل الولايات المتحدة على هذه الوثائق خارج تسوية شاملة لملفات العراق جميعًا، وليس لديَّ شك في أنَّ صدام حسين أوفى بوعده.

وهكذا، أضاعت الإدارة الأمريكية تلك السجلات؛ إرضاءً لغرورها، وتصميمها على إسقاط نظام صدام حسين، وأي سياسي في واشنطن يقول عكس ذلك سيكون كاذبًا وخادعًا للشعب.

لهذه الأسباب أعتقد أنَّ على لجان الاستخبارات في مجلسي الشيوخ والنواب أن تتخلص من الأعضاء الجمهوريين والديمقراطيين معًا؛ بسبب فشل الكونغرس في ممارسة رقابة فاعلة على أنشطة البيت الأبيض. وقد ساعد هذا الفشل المخزي المسؤولين الجمهوريين على إطلاق مزاعم عن أدائهم، وهي مزاعم كاذبة لم تتحقق؛ ما ألحق أضرارًا عظيمةً بأمن الولايات المتحدة والأمن العالمي.

لعلَّ هذه التغريدة لأحد ناشطي تويتر تلخِّص ما قالته ليندأور في كتابها الضخم.



#مجلس_الشيوخ_الأمريكي

معلومة قد لا تهمك :

خلال 23 عاماً هؤلاء الأشخاص
الثلاثة غزوا 9 بلاد إسلامية قتلوا خلالها 11 مليون
مسلم ولم يتهمهم أحد بالإرهاب !

Translate Tweet



5:22 PM - 16 Dec 2018

3,875 Retweets 2,468 Likes

صورة ١٤-تغريدة ساخرة

١١.هدف "الحرب الصَّليبيَّة المقدَّسة" على العالم الإسلامي: دحْر الإرهاب أم التَّنصير؟

أطلق الرئيس الأمريكي الأسبق، جورج دابليو بوش، في خطابه اليوم الوطني لتأبين ضحايا هجمات ١١ سبتمبر، على الحرب على الإرهاب في العالم الإسلامي مسمى "الحرب الصليبيَّة". وكما سبقت الإشارة، أعلن بوش الابن الحرب على الإرهاب خلال اجتمع ديني عُقد في الكاتدرائيَّة الوطنيَّة، إحياءً لذكرى ضحايا ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، حضره لفيف من كبار الشخصيَّات السياسيَّة الأمريكيَّة، لتُشنَّ حرب أفغانستان في نفس عام وقوع هجمات ١١ سبتمبر، ممهِّدة الطريق أمام حرب العراق عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا. غير أنَّ زعم بوش الابن بأنَّ حربه على العالم الإسلامي بهدف مكافحة التطرُّف لم تقنع كثيرين، خاصَّة مع وجود أدلَّة على أنَّ الهدف الجوهري هو إخضاع المسلمين لسُلطان مملكة الصليب، ودفعهم إلى المسيحيَّة، ترهيبًا إن فشل الترغيب.

حرب صليبيَّة بكلِّ المقاييس (٢٠٠٣): حقيقة حرب بوش الابن على الإرهاب

تستهلُّ الدكتورة زينب عبد العزيز –أستاذ الحضارة الفرنسيَّة في جامعتي الأزهر والقاهرة، وأوَّل مصريَّة تُنجز ترجمة كاملة لمعاني القرآن الكريم–كتابها **حرب صليبيَّة بكلِّ المقاييس (٢٠٠٣)** بمقدِّمة غير تقليديَّة، تستعرض فيها معنى عبارة "حرب صليبيَّة". تعني العبارة، وفق معجم **كنوز اللغة الفرنسيَّة،** في مجلَّده السادس "هي حروب قام بها المسيحيُّون الأوروبيُّون في القرون الوسطى لتحرير الأرض المقدَّسة من أيادي المسلمين" (ص٥٢٤). أمَّا المؤرِّخ الفرنسي جروسيه، فقد ذكر في كتابه **ملحمة الحروب الصليبيَّة** (١٩٣٩) أنَّ تلك الحروب انطلقت بصيحة من الربِّ، الذي أرادها، وأعلنها على لسان البابا أوربان الثاني؛ فاحتشد جنود المسيح في ملحمة مقدَّسة. في حين علَّق **قاموس اللاهوت** (١٩٩٨)، الصادر عن المطابع الجامعيَّة الفرنسيَّة، تحت إشراف الفيلسوف الديني الفرنسي المعروف جان إيف لاكوست، على تلك الحروب بقوله "دعا البابا أوربان الثاني إلى تحرير الأرض المقدَّسة من عبوديَّة الكفر. وأيًّا كانت انحرافات هذه الحروب الصليبيَّة، فقد حاولوا وصفها بطابع الحج الجماعي".

تشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى أنَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة اجتهدت في القرن الثاني عشر للميلاد، في منح الحروب الصليبيَّة "قاعدة قانونيَّة لاهوتيَّة متينة"، وتضرب المثل في ذلك بما جاء في خطاب البابا أوجين الثالث، الذي ألقاه أوَّل ديسمبر من عام ١١٤٥ ميلاديًّا، وطالب فيه بسلطة مطلقة ينفرد بها البابا في إدارة تلك الحروب (ص٩). استغلَّ البابا تلك السلطة في منح الجنود الصليبيِّين امتيازات هائلة تشجِّعهم على المشاركة، من بينها حماية ممتلكاتهم خلال فترة غيابهم، وتأجيل دفع ديون المدينين منهم مع إلغاء الفوائد المفروضة على تلك الديون، وكذلك إلغاء العقوبات المفروضة على بعضهم نتيجة تجاوزات أخلاقيَّة، هذا إلى جانب الوعد بالخلاص يوم الدينونة. وتجد عبد العزيز أنَّ من المفارقات أنَّ البابا يوحنَّا بولس الثاني، البطريرك الأسبق لكاثوليكيَّة روما، ظلَّ يحاول توحيد كنائس العالم تحت لواء كنيسته، سعيًا إلى مقاومة انتشار الإسلام.

حرب العراق وشنُّ حملة تنصيريَّة في "مملكة بابل"

تُفرد الدكتورة زينب عبد العزيز مساحة كبيرة في كتابها (٢٠٠٣) لتناوُل الحملة الصليبيَّة، التي شنَّها الرئيس الأمريكي جورج دابليو بوش، عملًا بتعاليم الصهيونيَّة المسيحيَّة، على العراق، بتشجيع من اللوبي الصهيوني واليمين المسيحي في أمريكا، عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا، وتحديدًا يوم ٢١ مارس، تزامُنًا مع عيد الفوريم (سفر أستير: إصحاح ٣، آية ١؛ إصحاح ٩، آية ٣٢)، وهو عيد نجاة بني إسرائيل من بطش هامان، وزير ملك الفرس، بفضل تحايُل زوجة الملك الإسرائيليَّة، أستير. لعلَّ من أكثر ما لفت الانتباه أنَّ الإدارة الأمريكيَّة، وفق ما نشرته صحيفة لوس أنجلوس تايمز في ٤ أبريل ٢٠٠٣ ميلاديًّا، حرصت على إرفاق القوَّات المحارِبة في العراق بمبشِّرين يتبعون المنظَّمات التبشيريَّة التي يديرها فرانكلين جراهام، نجل بيلي جراهام، أشهر أعداء الإسلام في أمريكا ممَّن يطالبون بتنصير المسلمين جميعهم للتخلُّص من خطرهم. يُذكر أنَّ صحيفة لوموند الفرنسيَّة نشرت في اليوم ذاته مقالًا تحت عنوان "المبشِّرون المعمدانيُّون في شاحنات الجيش"، جاء فيه أنَّ الجمعيَّة المعمدانيَّة الجنوبيَّة (SBC) أرسلت مبشِّريها إلى العراق، بعد تزويدهم بالمعدَّات اللازمة، وقد عسكر هؤلاء على الحدود الأردنيَّة، تحيُّنًا لأيِّ فرصة لغرس العقيدة المسيحيَّة في نفوس المسلمين.

لم تسجِّل أيٌّ من المؤسَّسات التبشيريَّة الأمريكيَّة اعتراضًا على إعلان إدارة بوش الابن الحرب على العراق؛ بل حرص قساوسة الكنيسة البروتستانتيَّة على تشجيع الذهاب إلى العراق، الذي وجدوا فيه أرضًا خصبة لنشر عبادة المسيح. يُذكر في هذا السياق أنَّ فرانكلن جراهام قد أعلن أنَّ منظَّمته التبشيريَّة، شبكة الإنقاذ، على استعداد لتقديم المساعدة في إفساح الطريق أمام الجيش، من خلال تحريف المسلمين عن عقيدتهم. سبقت الإشارة في المقال السابق (وسائل الغزو الفكري للإعداد لألفيَّة المسيًّا) إلى أنَّ التبشير والاستشراق من أهم وسائل الإعداد الذهني للمسلمين للتدخُّل الغربي في بلادهم، بأن يعتبر المسلمون الغزاة المحتلِّين هداة ومصلحين جاءوا لإخراجهم من ضيق الشريعة إلى آفاق المدنيَّة والحداثة. ويُنسب إلى فرانكلين جراهام قوله بعد أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة "إنَّ إله المسلمين ليس هو نفس إلهنا. إنَّه ليس ابن الله...إنَّه إله مختلف، وأؤمن بأنَّ الإسلام عقيدة الشيطانيَّة وشريرة"، نقلًا عن الدكتورة زينب عبد العزيز (ص١٧). وذكر القُس دونالد وايلدمون، رئيس جمعيَّة العائلة الأمريكيَّة (AFA)، أنَّ جمعيَّته كانت على استعداد للذهاب إلى العراق لتقديم الدعم الواجب لإعادة إعمارها وتطبيب مصابي الحرب.

تحت عنوان "كيف أصبحت حربٌ حربًا صليبيَّة"، نشرت صحيفة نيويورك تايمز في ١١ مارس من عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا، أي قبل اجتياح العراق بأيَّام قليلة، مقالًا يعبِّر عن إيمان الرئيس الأمريكي الأسبق، جورج دابليو بوش، بعقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة، ناقلةً عن قوله "الأحداث لا تتحَّكم فيها الصدف أو التغيير الأعمى، بل يدُ الربِّ العادلة الأمينة". اعتقد بوش أنَّ انتخابه رئيسًا كان وفق مخطَّط إلهي، حتَّى أنَّه صرَّح لصديق له، كان حاكمًا لولاية تكساس، بأنَّه يعتقد أنَّ الربَّ أراده يترشَّح للرئاسة.

The New York Times

Opinion

How a War Became a Crusade

By Jackson Lears

March 11, 2003



President Bush's war plans are risky, but Mr. Bush is no gambler. In fact he denies the very existence of chance. ''Events aren't moved by blind change and chance'' he has said, but by ''the hand of a just and faithful God.'' From the outset he has been convinced that his presidency is part of a divine plan, even telling a friend while he was governor of Texas, ''I believe God wants me to run for president.''

أصبح إيمان بوش بأنَّه ينفِّذ إرادة الربِّ أكثر وضوحًا بعد أحداث ١١ سبتمبر المدوِّيَّة، وهذا ما كشفت عنه كلماته في الخطابات الجماهيريَّة، وكذلك في خطاب حالة الاتحاد أمام الكونجرس، التي قدَّم نفسه فيها بوصفه زعيمًا لحرب عالميَّة على الشرِّ. أمَّا عن حربه على العراق، فقد قال عنها بوش "لا نزعم أنَّنا نعرف كافَّة طُرُق العناية الإلهيَّة، ولكنَّنا نثق بها"، مشيرًا بذلك إلى أنَّ حربه تستهدف إنقاذ الشعب العراقي، ضمن حملة "تحرير الشرق الأوسط".

This conviction that he is doing God's will has surfaced more openly since 9/11. In his State of the Union addresses and other public forums, he has presented himself as the leader of a global war against evil. As for a war in Iraq, ''we do not claim to know all the ways of Providence, yet we can trust in them.'' God is at work in world affairs, he says, calling for the United States to lead a liberating crusade in the Middle East, and ''this call of history has come to the right country.''

وبتاريخ ٧ أكتوبر من عام ٢٠٠٥ ميلاديًّا، نشرت صحيفة الجارديان البريطانيَّة مقالًا عنوانه "جورج بوش: الربُّ قال لي اذهب واقضِ على الاستبداد في العراق"، ينقل عن نبيل شعث، وزير الخارجيَّة الفلسطيني الأسبق، قوله أنَّ الرئيس جورج دابليو بوش قد صرَّح أمام عدد من السياسيِّين في حضوره، بأنَّ مخوَّل من قِبل الربِّ بشنِّ حلمة في منطقة الشرق الأوسط لنشر

الديموقراطيَّة وإحلال السلام. نقلًا عن شعث، قال بوش "الربُّ قال لي: ‘يا جورج، اذهب وحارب هؤلاء الإرهابيِّين في أفغانستان’؛ ففعلتُ. وبعدها قال الربُّ لي: ‘يا جورج، اذهب واقضِ على الاستبداد في العراق’؛ ففعلتُ...والآن، من جديد، أشعر بكلمات الربِّ تخاطبني ‘اذهب إلى الفلسطينيِّين في دولتهم، ووفِّر للإسرائيليِّين الأمان، وأحلَّ السلام في الشرق الأوسط’، وبعون الربِّ، سأفعل".



Support The Guardian
Available for everyone, funded by readers
Contribute → Subscribe →
Search jobs | Sign in | Search | International edition
The Guardian
News | Opinion | Sport | Culture | Lifestyle | More
World ▸ Europe US Americas Asia Australia **Middle East** Africa Inequality Cities Global development

World news

George Bush: 'God told me to end the tyranny in Iraq'

President told Palestinians God also talked to him about Middle East peace

One of the delegates, Nabil Shaath, who was Palestinian foreign minister at the time, said: "President Bush said to all of us: 'I am driven with a mission from God'. God would tell me, 'George go and fight these terrorists in Afghanistan'. And I did. And then God would tell me 'George, go and end the tyranny in Iraq'. And I did."

Mr Bush went on: "And now, again, I feel God's words coming to me, 'Go get the Palestinians their state and get the Israelis their security, and get peace in the Middle East'. And, by God, I'm gonna do it."

أظهرت المقتطفات آنفة الذِّكر كيف أحاط جورج دابليو بوش حربه على العراق بهالة دينيَّة مقدَّسة، وهي مجرَّد نماذج عشوائيَّة من بين "٣٣٥ عنوانًا لمقالات تتناول فكرة الحرب الصليبيَّة التي تشنُّها الإدارة الأمريكيَّة على الإسلام والمسلمين"، حصرتها الدكتورة زينب عبد العزيز، وأشارت إلى بعضها في كتابها قيد التناول (٢٠٠٣). غير أنَّ الإدارة الأمريكيَّة، وبرغم كلِّ التسهيلات التي منحتها للمؤسَّسات التبشيريَّة المصاحبة للقوَّات الأمريكيَّة عند اجتياح العراق، شعرت بحرج في التصريح الرسمي بأنَّ حربها على العراق هدفها الأساسي هو التَّنصير، على الأقل وفق ما نشرته صحيفة نيويورك تايمز في مقال يحمل عنوان "أمَّة في حرب: إرساليَّات تبشيريَّة وجماعات تنتقد الإسلام تنتظر تقديم العون للعراق"، في ٤

أبريل من عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا، أي قبل بضعة أيَّام من سقوط بغداد في ٩ أبريل من العام ذاته.

The New York Times

A NATION AT WAR: MISSIONARIES; Groups Critical of Islam Are Now Waiting to Take Aid to Iraq

By Laurie Goodstein

April 4, 2003

Two evangelical Christian organizations whose leaders have outspokenly denounced the Islamic faith are among the aid groups waiting at Iraq's borders to take humanitarian relief -- and a Gospel message -- to a nation whose people are predominantly Muslim.

The situation presents a dilemma for the Bush administration, which does not want to alienate its strong Christian evangelical constituency but cannot afford to have the war in Iraq perceived as a crusade to Christianize a Muslim nation.

يشير المقال إلى أنَّ اثنتين من المنظَّمات التبشيريَّة الإنجيليَّة–الجمعيَّة المعمدانيَّة الجنوبيَّة وصندوق السامري–اشتهر قادتها بالإساءة إلى الإسلام انضمَّتا إلى فرق المساعدة، التي تنتظر على الحدود العراقيَّة لتقديم الإغاثة الإنسانيَّة، ومعها "رسالة إنجيليَّة"، إلى دولة غالبيَّة سكَّانها من المسلمين. غير أنَّ ذلك الموقف شكَّل معضلة أمام إدارة الرئيس بوش، التي لا تريد إقصاء الكيان التبشيري المصاحب للقوَّات المحاربة، ولكنَّها لا تتحمَّل تبعات اعتبار الحرب على العراق "حربًا صليبيَّة" لتنصير المسلمين.

Evangelicals believe that by sharing the Gospel with non-Christians, they are following Jesus' imperative to ''make disciples of all nations.'' In recent years, missionary groups have focused on what they call the ''10-40 window,'' the latitudes that include most of the Muslim world.

The Southern Baptists and Samaritan's Purse said they had advanced beyond the old stereotype of the Christian missionaries who used bread as bait to win converts.

يعتقد المبشِّرون أنَّ في مشاركة الإنجيل اتِّباعًا لأمر يسوع "تَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ" (إنجيل متَّى: إصحاح ٢٨، آية ١٩)، وقد تركَّزت جهود

الجماعات التبشيريَّة في العقود الأخيرة على ما أطلق عليه المبشِّر لويس بوش عام ١٩٩٠ ميلاديًّا "نافذة ١٠–٤٠"، وهي المناطق الواقعة في نصف الكرة الأرضيَّة الشرقي، بالإضافة إلى الجزء الأوروبي والإفريقي في نصف الكرة الأرضيَّة الغربي، والتي تقع ما بين خطوط ١٠ و٤٠ درجة شمال خط الاستواء، وفق تعريف موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة. أمَّا عن سبب ذلك التركيز، فهو أنَّ تلك "النافذة" هي أقل مناطق العالم التي وصلتها رسالة المسيحيَّة ومساعدات المنظَّمات التبشيريَّة، برغم معاناتها من ظروف اقتصاديَّة واجتماعيَّة قاسية. وقد ذكر ممثِّلو الجمعيَّة المعمدانيَّة الجنوبيَّة وصندوق السامري، أنَّهم تجاوزوا النمط القديم للإرساليَّات التبشيريَّة، التي استخدمت الخُبز لكسب متحوِّلين جدد. وقد قال القُس فرانكلين جراهام، رئيس منظَّمة صندوق السامري الخيريَّة والمبشِّر الإنجيلي الشهير بعدائه للإسلام، أنَّ المسيحيَّة سبقت الإسلام إلى العراق، وإن كانت نسبة المسلمين في التعداد السكَّاني للعراقيِّين زمن الغزو الأمريكي ٩٧ بالمائة. أضاف جراهام أنَّ تقديم الغذاء والدواء لا يكون باسم المنظَّمة، إنَّما "باسم ابن الربِّ"، نافيًا أن يكون في ذلك إجبارًا بقوله أنَّ المساعدة "ليست جزرة في آخر العصا". يُذكر أنَّ نشطاء يتبعون منظَّمة صندوق السامري كانوا ينتظرون في الكويت والأردن بمعدَّات لتنقية المياه.

About 97 percent of Iraqis are Muslim. But Mr. Graham pointed out in an interview that Christianity predated Islam in Iraq, and that his group had been invited into the country by local Christian churches to assist Christians, although it also plans to supply aid to Muslims.

''When we provide medicine or food, I'm not doing it in my name, but we do it in the name of God's son,'' he said. ''But we don't force it. It's not a carrot on the end of a stick.''

بداية الحرب على الإسلام في العصر الحديث

ترى الدكتورة زينب عبد العزيز أنَّ فهم أبعاد الحرب الصليبيَّة العاتية على الإسلام يستدعي تتبُّع أثر تلك الحرب، والعودة إلى جذورها التاريخيَّة، مكتفيةً بالوقوف عند عام ١٩٦٥ ميلاديًّا، الذي يمثِّل علامة فارقة في تاريخ معاداة الإسلام في العصر الحديث، وهو تاريخ المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، الملزم بقراراته لجميع أصحاب القرار من رؤساء

الكنائس والحُكَّام في العالم، والمعروف بالاسم المختصر "فاتيكان اثنين". تنقل عبد العزيز عن الكاتب جوزيف توما، في كتابه **فاتيكان اثنين** (١٩٨٩) أنَّ المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني يختلف عن كافَّة المجامع السابقة؛ فبينما استهدفت تلك المجامع المخاطر العقائديَّة التي تتعرَّض لها المسيحيَّة، وضع مجمع فاتيكان اثنين هدفًا جديدًا، هو نشر الكتاب المقدَّس وتعاليمه، بل وغرسها في نفوس أهل الأرض. جدير بالذِّكر أنَّ من بين توصيات ذاك المجمع الاعتراف بدور أم المسيح في الخلاص البشري.

لعلَّ أهم ما تمخَّض عنه المجمع المسكوني الثاني "خطَّة توحيد الكنائس وتنصير العالم من خلال الحوار ومشاريع أخرى"، نقلًا عن عبد العزيز، التي تضيف أنَّ تهمة الهرطقة أُسقطت في ذلك المجمع عن الكنائس المنشقَّة، كما لم يعد غير المسيحيِّين يوصمون بالكُفر، إنَّما أصبحوا "الذين لم يدخلوا بَعد في الإيمان المسيحي" (ص٢٩-٣٠). أمَّا عن أهم قرارات المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، فهي: تبرئة اليهود من دم المسيح؛ واقتلاع اليسار؛ واقتلاع الإسلام بعده قبل نهاية الألفيَّة الثانية؛ ونشر الكتاب المقدَّس بين سكَّان العالم؛ وتوحيد كنائس العالم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكيَّة؛ وفرض التَّنصير على الجميع من خلال أساليب جديدة، من بينها الحوار (ص٣٣-٣٤).

صور جديدة للتَّنصير

كما سبقت الإشارة، تضمَّنت قرارات المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني التوصية باتِّباع أساليب جديدة في التَّنصير، تخرج عن النمط المعهود، بالتشكيك المباشر في صحيح الإسلام أو استغلال الحاجة؛ وكان استخدام الحوار من بين الأساليب التي أوصي باستخدامها. تشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى مؤتمر عُقد في مصر، في مقر السفارة الأمريكيَّة بالقاهرة وتحت رعاية السفير الأمريكي في مصر ذاته، مطلع شهر يوليو من عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا، تحت عنوان "نحو خطاب ثقافي جديد: من تحدِّيات الحاضر إلى آفاق المستقبل"، دون سابق إعلان. يندرج هذا المؤتمر ضمن آليَّات التَّنصير من خلال الترغيب؛ برغم أنَّ هدفه المعلَن كان تطوير التعليم في مصر. أمَّا عن السبب في اعتبار عبد العزيز ذلك المؤتمر صورة من صور الحرب الثقافيَّة على الإسلام، هو أنَّ نقاشات المؤتمر ركَّزت

على نقد الخطاب الديني المعهود، مع التوصية بتجديده. لم تقتصر جلسات المؤتمرين على "محاولات التفكيك التي طالت كلَّ الثوابت الإسلاميَّة والتاريخيَّة"، ولكن امتدَّ إلى المطالبة بـ "حذف آيات وكلمات من القرآن الكريم، وعدم الاعتراف بالسلف الصالح، ونبذ التراث والمساس بالفقهاء القدامى، و ...عمل لاهوت إسلامي جديد، وانتقاد ثبات النصِّ القرآني" (ص١٢٦).

لعلَّ أكثر ما يثير الاهتمام في توصيات ذلك المؤتمر مقارنة العالم الإسلامي بالغرب العلماني، من حيث تطبيق قيم الحداثة والمدنيَّة والاستناد إلى فلسفة عصر التنوير، الذي شهد الطفرة العلميَّة الهائلة في الغرب، بدايةً من القرن الثامن عشر للميلاد. انطلاقًا من الاعتقاد بأنَّ القرآن الكريم لم يعد يصلح لعصر الحداثة، وأنَّ الفتح الإسلامي لمصر كان غزوًا، طالب بعض المؤتمرين بـ "إعادة النظر في الدين برمَّته، وبفصل الدين عن الدولة، وتحويل العالم الإسلامي إلى العلمانيَّة"، هذا بالإضافة المطالبة بـ "منع تدريس القرآن الكريم في المدارس، وإنتاج خطاب ديني متطوِّر يواكب العصر في انفلاته الأخلاقي"، مع تغيير المناهج العربيَّة "وفقًا لوقاحة السياسة الأمريكيَّة ومطالبها"، على حدِّ قول عبد العزيز، التي تجد في استجابة مفكِّرين محسوبين على الإسلام إلى مثل تلك المطالبات الغربيَّة على حساب ثوابت الدين تطبيق لمقولة المبشِّر والرحَّالة الأمريكي الشهير صامويل زويمر "لن يقتلع الإسلام إلَّا أيدٍ مسلمة، من داخل أمَّة الإسلام" (ص١٢٧).

تجديد الخطاب الدِّيني: ذريعة لهدم الإسلام من الداخل

تعتبر الدكتورة زينب عبد العزيز أنَّ مطالبة الغرب بتجديد الخطاب الديني بما يتناسب مع إيقاع العصر الحديث، ما هي إلَّا حيلة خبيثة لهدم ثوابت الإسلام، تحت مسمَّى فقه الأولويَّات التيسير والانفتاح على الآخر والتركيز على الجانب الحضاري للإسلام. على سبيل المثال، إذا كان في تحريم الإسلام للخمر ما يتعارض مع مساعي التقريب بين المسلمين والمجتمعات غير المسلمة، فلا مانع من طمس هذه الحقيقة تحت مسمَّى الاضطرار، تذرُّعًا بقوله تعالى "فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (سورة البقرة: الآية ١٧٣)، برغم أنَّ الإباحة في حالة الاضطرار التي تنصُّ عليها

الآية الكريمة لا تشمل شُرب الخمر. وتجد عبد العزيز في تلك المطالبة ما يتَّفق مع ما نقلته هيئة الإذاعة البريطانيَّة يوم ١٩ مارس ٢٠٠٣ ميلاديًّا، عن الرئيس جورج دابليو بوش، من قوله أنَّ اجتياح العراق جاء "لتتركتها أو لفرض العلمانيَّة عليها؛ لاقتلاع ذلك الدين الذي يتمخَّض عنه الإرهاب في الشرق الأوسط، وفي العالم بأسره"؛ والمقصود بالتتركة هو نشر العلمانيَّة ونبذ الإسلام وإخراجه من كافَّة المظاهر السياسيَّة والاجتماعيَّة، أسوةً بما فعله كمال أتاتورك في آسيا الصغرى، بعد إسقاط الخلافة العثمانيَّة عام ١٩٢٤ ميلاديًّا، الذي سبقه بعام إعلان الجمهوريَّة التركيَّة. وتعلِّق عبد العزيز على آليَّات تجديد الخطاب الديني بقولها (ص١٤٠):

أن فقه الأولويات سيتحول إلى الفقه الذى يقوم بتسهيل المآرب من تبشير وتنصير، بما أن تنصير العالم هو المطلب الأساسى فى هذا العقد ويأخذ مكان الصدارة فى أولويات البرنامج الأمريكى.. والتيسير سيصبح معناه تيسير عمليات المبشرين وتسهيلها.. كما سبق وتم ترتيب لقاءات بين الأئمة والقساوسة فى أحد الفنادق الكبرى لتدارس كيفية تقبل المسلمين لبدعة الثالوث.. والانفتاح على الآخر لن يكون معناه إلا تقديم المزيد من التنازلات ووضع خاتم «حلال» على بضاعة المبشرين ـ بدلاً من تحريمها أو التصدى لها..

وتضع الدكتورة زينب عبد العزيز يدها على مفارقة جديرة بالاهتمام، وهي أنَّ في الوقت الذي يطالب فيه الغرب بتقليص دور الإسلام في الحياة اليوميَّة لمعتنقيه، وبطمس الهويَّة الإسلاميَّة بهدف الانفتاح على الآخرين، وبمنع تدريس القرآن الكريم في المدارس، يزداد تمسُّك الكنيسة الغربيَّة، كاثوليكيَّة كانت أم بروتستانتيَّة، بتعاليم المسيحيَّة. تضرب عبد العزيز المثل في ذلك بفرض البابا يوحنَّا بولس الثاني تدريس الدين المسيحي في مدارس الكتلة الشرقيَّة، بعد تخلُّصها من الشيوعيَّة، هذا إلى جانب مساعيه من أجل منح الدستور الأوروبي صبغة مسيحيَّة.

حرب وراءها كذبة: افتضاح حقيقة "أسلحة الدَّمار الشامل"

بعبارات صارخة تعبِّر عن غضب ممتزج بالحسرة، تُفرد الدكتورة زينب عبد العزيز قسمًا من آخر فصول كتابها (٢٠٠٣) لاستعراض زيف ادِّعاء الرئيس الأمريكي الأسبق، جورج دابليو بوش، وشريكه في شنِّ الحرب على العراق، رئيس الوزراء البريطاني الأسبق، توني بلير،

بخصوص أسباب الحرب. بعد حملة إعلاميَّة شرسة، قادتها إدارة بوش، وشارك فيها وزراؤه، تبيَّن أنَّ ما أُثير عن امتلاك العراق أسلحة نوويَّة وبيولوجيَّة كذبة لا أساس لها من الصحَّة.

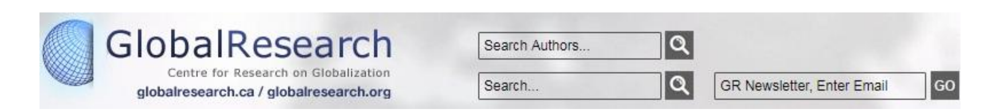




صورة ١٥–غلاف مجلَّة التايم ٣٠ يونيو من ٢٠٠٣

تستعرض عبد العزيز أهم ما ورد في مجلَّة التايم الأمريكيَّة الشهيرة، في عددها الصادر في ٣٠ يونيو من عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا، وعنوانه "الوجوه الجديدة للعراق"، حيث تضمَّن أحد مقالاته "الإسلام هو الإرهابي والمسلمون ضحاياه"، وكذلك "المبشِّرون يصلُّون من أجل أن يفتك الربُّ بسلاح الدمار الشامل، وهو الإسلام"، ولعلَّ أخطر ما جاء في أحد المقالات "هناك من المبشِّرين من يقومون بالتمويه على هويَّتهم باتِّخاذ مذهب المتصوِّفة شكلًا للتقرُّب إلى المسلمين لتنصيرهم"، وقد سبقت الإشارة بالتفاصيل في أكثر من دراسة سابقة إلى أنَّ القبَّالة اليهوديَّة هي الأساس الذي قامت عليه المسيحيَّة البولسيَّة، وكذلك الصوفيَّة المغالية المحسوبة على الإسلام زورًا. ويقول التذييل المصاحب لغلاف المجلَّة "**هل ينبغي على المسيحيِّين تنصير المسلمين؟**"، مضيفًا أنَّ مجموعة كبيرة من المبشِّرين أطلقوا حملة تبشيريَّة لحمل الإنجيل إلى البلدان المسلمة، ليتساءل من جديد "هل ستثير تلك الخطوة ردَّة فعل سلبيَّة أكثر من الاعتقاد؟".

تحت عنوان "الاجتياح الأمريكي للعراق (٢٠٠٣) وأسلحة الدمار الشامل: كَذَب آري فلايشر، وسَقَط ضحايا"، نشر موقع مركز أبحاث العولمة في ٢٥ مارس من عام ٢٠١٩ ميلاديًّا، مقالًا يتناول تصريح لآري فلايشر، السكرتير الصحافي للبيت الأبيض زمن اجتياح أمريكا للعراق، تزامنًا مع مرور ١٦ عامًا على الحرب. لم يجد فلايشر مفرًّا من الاعتراف بكذب المعلومات التي على أساسها تقرَّر شنُّ الحرب، والتي تتعلَّق بامتلاك العراق أسلحة دمار شامل، لكنَّه حرص على تبرئة ذمَّة جورج دابليو بوش، مدَّعيًا أنَّه لم يكذب، وملقيًا باللوم على خطأ البيانات الاستخباراتيَّة التي اعتمد عليها الرئيس الأسبق وقت اتِّخاذ قرار الحرب. وجاء في نصِّ دفاع فلايشر عن الرئيس الأمريكي الأسبق "وكالة المخابرات المركزيَّة (CIA) والأجهزة الاستخباراتيَّة في مصر وفرنسا وإسرائيل وغيرها استنتجت أنَّ صدَّام كان يمتلك أسلحة دمار شامل. تبيَّن أنَّنا جميعًا كنَّا على خطأ، وهذا يختلف عن الكذب".





***Ari Fleischer**, the former White House Press Secretary under President George W. Bush, ignited a firestorm of controversy Wednesday when, while commenting on the 16th anniversary of the U.S invasion of Iraq, he sought to defend the reputation of his boss when it came to the veracity of the claims about Iraqi Weapons of Mass Destruction (WMD) that underpinned President Bush's case for war.*

> "The Iraq war began sixteen years ago tomorrow," Fleischer tweeted on March 19. "There is a myth about the war that I have been meaning to set straight for years. After no WMDs were found, the left claimed 'Bush lied. People died.' This accusation itself is a lie. It's time to put it to rest."

Fleischer goes on to declare that "The fact is that President Bush (and I as press secretary) faithfully and accurately reported to the public what the intelligence community concluded," before noting that

> "The CIA, along with the intelligence services of Egypt, France, Israel and others concluded that Saddam had WMD. We all turned out to be wrong. That is very different from lying."

ويوضح سكوت ريتر، كاتب المقال، أنَّه على علم بالمعلومات التي استندت إليها الإدارة الأمريكيَّة وقت اتِّخاذ قرار الحرب، بفضل عضويَّته في لجنة الأمم المتحدة الخاصة بنزع أسلحة الدمار الشامل في العراق (UNSCOM)، بوصفه كبير مفتِّشي أسلحة، في الفترة ما بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٨ ميلاديًّا، مضيفًا أنَّه كشف زيف تلك المعلومات في تقرير نُشر في يونيو من عام ٢٠٠٢ ميلاديًّا، على موقع Arms Control Today التابع لرابطة الحد

من الأسلحة. ويصف ريتر مزاعم آري فلايشر بأنَّها "مجرَّد استكمال للأكاذيب التي ردَّدها منذ البداية عن حالة الحرب الأمريكيَّة على العراق"، مشيرًا إلى أنَّ الهدف الوحيد لإدارة بوش الابن كان "التخلُّص من صدَّام"، وكانت المعلومات الاستخباراتيَّة موضع الحديث الذريعة التي احتاجت إليها الإدارة الأمريكيَّة لتبرير الحرب.

As a Chief Weapons Inspector with the United Nations Special Commission (UNSCOM) in Iraq from 1991 through 1998, I was intimately familiar with the intelligence used by the U.S. Intelligence Community to underpin the case for war (which I debunked in June 2002 in an article published in Arms Control Today). Armed with the unique insights that came from this experience, I can state clearly and without any reservation that Ari Fleischer, once again, has misrepresented the facts when it comes to the Bush administration's decision to invade Iraq in March 2003.

The fact is, the Iraq War was never about WMD. Rather, it was waged for one purpose and one purpose only—regime change. Getting rid of Saddam Hussein was the sole focus of this effort, and the so-called "intelligence" used to justify this act was merely an excuse for action. Ari Fleischer knows this, and to contend otherwise—as he does via twitter—is simply a continuation of the lies he told from the very beginning about the U.S. case for war with Iraq.

١٢. الجهاد الأخير (٢٠٠٢): مستقبل العالم الإسلامي من منظور صهيوني

تدخل رواية **The Last Jihad–الجهاد الأخير** (٢٠٠٢) ضمن مجموعة من المؤلَّفات المعبِّرة عن فِكر مؤلِّفها، جويل رزونبرغ، المؤمن بنبوءات العهد القديم عن نهاية الزمان، والمشبَّع بمعتقدات الصهيونيَّة المسيحيَّة، والمروِّج لأفكار الاستشراق اليهودي المعاصر. من الصعب حصر تاريخ روزنبرغ، الأمريكي–الإسرائيلي، ونشاطاته في بضعة سطور، ولكن قد يعطي هذا التقديم صورة عن كينونة هذا المستشرق ونظرته إلى العالم الإسلامي. وُلد جويل روزنبرغ لأب يهودي وأم مسيحيَّة ميثوديَّة، وأقدم أبواه على اعتناق عقيدة الميلاد الجديد (New Birth)، التي تؤمن بها الكنيسة الإنجيليَّة البروتستانتيَّة، وتعني إعادة إحياء الروح من خلال تجربة الاتصال بالرُّوح القُدُس. مرَّ روزنبرغ بتجربة الميلاد الجديد، ويعرِّف نفسه بأنَّه "يهودي يؤمن بيسوع"، وفق ما صرَّح به في مقال عنوانه "Spiritual Journey–رحلة روحانيَّة"، نُشر عبر موقعه الإلكتروني.

استفاد روزنبرغ من شهرته في نشر أفكاره عن استشراف المستقبل في ضوء نبوءات الكتاب المقدَّس في شتَّى المؤسسات، الدينيَّة والسياسيَّة والإعلاميَّة. أمَّا عن موقفه من الإسلام، فهو رأي أتباع الصهيونيَّة المسيحيَّة، بأنَّه ليس بدين، إنَّما أيديولوجيَّة سياسيَّة، ناصحًا المسلمين بترك دينهم، ومعتبرًا أنَّ المعتدلين في الشرق الأوسط ممَّن يستحقُّون الدعم هم المرتدُّون عن

الإسلام. جدير بالإشارة أنَّ روزنبرغ نهى في مقال له بعنوان " We Must Say “No” to Burning Religious Books: Jesus taught us another way–يجب أن نقول “لا” لحرق القرآن: يسوع علَّمنا خلاف ذلك"، نُشر في ٨ سبتمبر ٢٠١٠ ميلاديًّا، القس تيري جونز عن حرق نسخ من القرآن الكريم، لكنَّه في الوقت ذاته دعا إلى ترك الإسلام والإيمان بيسوع مخلِّصًا، مشجِّعًا على بناء جسور لنشر المسيحيَّة، من خلال حملات التَّنصير الحديثة. عمل روزنبرغ مستشارًا إعلاميًّا لعدد من كبار الشخصيَّات في أمريكا وإسرائيل، وكانت له تجربة في المشاركة في الحملة الانتخابيَّة لبنيامين نتنياهو عام ١٩٩٩ ميلاديًّا، ولكن مُني الاثنان بهزيمة أجبرت روزنبرغ على التوقُّف عن منح الاستشارات الإعلاميَّة، وفق ما جاء في مقال عنوانه "جويل روزنبرغ: مستشرق يهودي يصف الإنجيليين للحرب الأخيرة"، نشرته شبكة الألوكة الشرعيَّة بتاريخ ٢٨ ديسمبر من عام ٢٠١٠ ميلاديًّا.

الكتابة عن المستقبل في ضوء نبوءات الكتاب المقدَّس

اتَّخذ جويل روزنبرغ لنفسه مسارًا مهنيًّا جديدًا بعد فشل حملة ترشُّح نتنياهو في انتخابات عام ١٩٩٩، حيث شرُع في كتابة سلسلة من الكُتب تتناول المستقبل، وترسِّخ مفهوم انتصار الأمَّة المؤمنة بالمسيح على كافَّة الأمم في النهاية، وتستعرض صراع الغرب مع الإسلام. ورواية **الجهاد الأخير** (٢٠٠٢) هي الأولى في سلسلة من ٥ روايات تتناول الإرهاب، وتعرض معارك ملحميَّة يقودها الغرب لاستئصال شأفة "الإرهاب الإسلامي"، الذي يصل إلى قلب أوروبا وأمريكا. حقَّقت الرواية، التي نُشرت ٩ أشهر عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ميلاديًّا، مبيعات قياسيَّة، وظلَّت الأعلى مبيعًا ١١ أسبوعًا، وفق إحصاءات صحيفة نيويورك تايمز. تجدر الإشارة إلى أنَّ روزنبرغ أسَّس صندوقًا خيريًّا لصالح إسرائيل، أطلق عليه " The Joshua Fund–صندوق يشوع"، بهدف "مباركة إسرائيل وجاراتها باسم يسوع، عملًا بما جاء في سفر التكوين (إصحاح ١٢: آيات ١–٣).

تحليل موجز لأهم ما تتضمَّنه رواية الجهاد الأخير (٢٠٠٢)

تبدأ أحداث الرواية بوصف الموكب الرسمي لرئيس الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وهو أول رئيس يخلف جورج دابليو بوش، كما تروي الأحداث الخياليَّة. يقدُم الرئيس الأمريكي لقضاء عُطلة عيد الشُّكر في مدينة دنفر، في ولاية كولورادو، التي عمل محافظًا لها، قبل أن يتولَّى الرئاسة. كانت دنفر المدينة الأخيرة ضمن جولة الرئيس للاحتفال بفوزه بالانتخابات النصفيَّة، ووقف مؤيِّدوه لاستقباله بالأعلام الأمريكيَّة، وقد رسموا على أيدهم شعارات مناصرة له. يتحدَّث روزنبرغ عن الأوضاع الداخليَّة في أمريكا برسم صورة إيجابيَّة، ربَّما تخالف الحقيقة؛ فالاقتصاد الأمريكي صار في أقوى حالاته، والبطالة تنخفض مستوياتها بوتيرة سريعة، والبورصة تنتعش، والأمن الداخلي استتبَّ، والأهم من ذلك كلِّه، حقَّقت الحرب على الإرهاب نجاحًا لا يُضاهى، بعد القضاء على تنظيمي طالبان والقاعدة، والعثور على أسامة بن لادن مقتولًا. بتدخُّل من قوة دلتا الأمريكيَّة والقوَّة الجويَّة الخاصَّة البريطانيَّة، دُمِّر ٤٣ معسكرًا لتدريب الإرهابيِّين في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

أمَّا عن الأوضاع خارج أمريكا، فكانت على النقيض؛ فالاقتصاد العالمي يعاني من الركود، وتنتشر في مختلف أنحاء أوروبا وآسيا الاغتيالات والتفجيرات بواسطة سيَّارات مفخَّخة. يعزي الكاتب حالة الاضطراب تلك إلى سعي بعض الجماعات الإرهابيَّة الباقية إلى الهجوم على "الشيطان الأكبر"، مستخدمًا المسمَّى التحقيري الذي تستخدمه إيران في وصف أمريكا، مما يعني أنَّ دولة الملالي كانت لم تزل باقية، وتدير عمليَّات إرهابيَّة. يفتح الحديث عن الإرهاب واستمرار مواجهة أمريكا تهديدات لأمنها القومي، المجال أمام تقديم محاولة الاغتيال التي يتعرَّض لها الرئيس الأمريكي، برغم التشديدات الأمنيَّة المضاعَفة من بعد تفجير برجي التجارة في نيويورك، في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ميلاديًّا. يصف الكاتب مشهدًا مروِّعًا لعمليَّة تفجيريَّة تستهدف الرئيس خلال لقاء جماهيري في مدينته الأصليَّة، مع الإشارة إلى نجاته بفضل الاحتياطات الأمنيَّة، وسقوط ضحايا من المدنيِّين الأبرياء العُزَّل.

ينتقل روزنبرغ بالقارئ إلى مشهد آخر، تدور أحداثه في البلدة القديمة، في القُدس الشريف، أو أورشليم، كما يسمِّيها الكتاب المقدَّس. يتسلَّط الضوء على جون بينيت، مستشار الرئيس

المقرَّب، في رحلة عمل إلى إسرائيل؛ لإبرام صفقة لاستخراج الغاز من ساحل البحر المتوسِّط الذي يطلُّ عليه قطاع غزَّة وأجزاء من إسرائيل. يلقى الكاتب مزيدًا من الضوء على هويَّة الرئيس الأمريكي في الرواية، ويُدعى جيمس ماكفرسون، وهو رجل أعمال ومستثمر، كوَّن إمبراطوريَّة ماليَّة تُقدَّر بالمليارات، وأراد لمؤسَّسته الاستثماريَّة أن تصير المعادل لوكالة المخابرات المركزيَّة الأمريكيَّة، من حيث القدرة على توقُّع الاضطرابات الاقتصاديَّة والسياسيَّة في العالم؛ ومن ثمَّ استغلال ذلك لصالحها، وكانت مهمَّة بينيت هي جمع المعلومات، واستفاد ماكفرسون من ذلك كثيرًا في تكوين ثروته الطائلة.

يقترح روزنبرغ خطَّة للتفاهم الفلسطيني-الإسرائيلي من خلال التعاون في استخراج الثروة النفطيَّة المشتركة، مشيرًا إلى الاستفادة المتبادلة بين الطرفين من جرَّاء ذلك التعاون. يقوم المشروع الذي يفد مستشار الرئيس الأمريكي إلى إسرائيل لإبرامه، على أن تتولَّى شركات أجنبيَّة عاملة في مجال الطاقة التنقيب عن الغاز الطبيعي، ويسهم ذلك في تعزيز الاقتصاد الفلسطيني، كما يمنح إسرائيل أولى فرص الاستقلال في مجال الطاقة؛ والمشروع يحتاج إلى تكاتُف جهود الطرفين، الفلسطيني والإسرائيلي، لحُسن إدارته. يشير الكاتب إلى سعادة ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينيَّة الراحل، باكتشاف آبار الغاز، معتبرًا إيَّاها أساسًا صلبًا للدولة الفلسطينيَّة. يعود مستشار الرئيس بالزمن عقدًا إلى الوراء، مسترجعًا أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة، التي جمَّدت مساعي السلام بين فلسطين وإسرائيل، بعد أن أعلن جورج دابليو بوش "الحرب على الإرهاب"، وأصبح أسامة بن لادن حديث الأمَّة الإسلاميَّة، بل والعالم كلِّه. غير أنَّ الأمل في إعادة مساعي السلام تجدَّد، بعد القضاء على حركات المقاومة الإسلاميَّة، التي يصفها الكاتب بـ "الإرهابيَّة"، وهي حماس وحزب الله والجهاد الإسلامي، بفعل الحكومة الإسرائيليَّة، والموافقة الضمنيَّة للإدارة الأمريكيَّة؛ وبعد البطش بالإرهابيِّين في بلدان عربيَّة توصف بـ "المعتدلة"، مثل مصر، والأردن، والمغرب، في تقدُّم ملحوظ، وإن لم يكن مثاليًّا.

قبل أن يتعافى الرئيس الأمريكي بالكامل من جرَّاء الهجوم الإرهابي، يُعلن عن تعرُّض القصر الملكي البريطاني للقصف بقذائف هاون وآر بي جي، وتُجلى الملكة إلى إحدى

المستشفيات العسكريَّة في إجراء وقائي. لم تُعرف هويَّة منفِّذي الهجوم في بريطانيا، ولكن الاستنتاج الأقرب إلى الحقيقة وقتها كان أنَّ وراء الهجومين مخابيل، هدفهم تدمير الحضارة الغربيَّة، والاعتداء على حكومات صديقة لأمريكا، من أعضاء حلف الناتو. أظهرت التحريات أنَّ محاولة اغتيال الرئيس الأمريكي ضمن خطَّة "وقحة ووحشيَّة"، وضعها صدَّام حسين بنفسه؛ للتخلُّص من الأمريكيِّين والإسرائيليِّين. أوكل صدَّام حسين إلى أحد أقوى رجالات الاستخبارات لديه، ويُدعى خالد عزيز، مهمَّة اغتيال الرئيس الأمريكي. ويستعرض روزنبرغ تاريخ عزيز، موضحًا أنَّه كان رئيس حرس الجمهوريَّة العراقيَّة، الجهاز العسكري الأقوى لدى صدَّام؛ وكان عزيز صاحب فكرة تأسيس مخابئ تحت أرضيَّة شديدة التحصين ومضادَّة للقصف، يحتمي بها القادة في حالات الحرب والاضطرابات. غير أنَّ أخطر مهمَّة أجراها عزيز هي إفشال عمل لجنة الأمم المتحدة الخاصَّة لنزع أسلحة الدمار الشامل العراقيَّة (UNSCOM).

أمَّا عن الدافع الأساسي وراء خطَّة صدَّام حسين آنفة الذِّكر، فهو إفشال مشروع التنقيب عن الغاز الطبيعي، المفترض إبرامه لصالح فلسطين وإسرائيل معًا، بعد أن استشاط صدَّام غضبًا من إمكانيَّة تحقيق إسرائيل ثروة من خلال مبيعات النفط، وأراد الإخلال باستقرار منظَّمة الأوبك. اعتبرت الزعامات العربيَّة، المتطرِّفة في نظر الكاتب، أنَّ في تعاوُن قيادات فلسطينيَّة مع الاحتلال خيانةً، خاصَّة مع وجود دور لأمريكا، في تمويل المشروع ودفع القيادات الفلسطينيَّة إلى مباركته. من أجل تنفيذ تلك الخطَّة، وفَّرت إدارة صدَّام حسين أفضل الأسلحة والرجال؛ ومع فشل تلك الخطَّة، فالخطَّة البديلة كانت جاهزة.

يلقي الكاتب اللوم على العراق في إحداث الفوضى المنتشرة في العالم في تلك الآونة، مع الإشارة إلى الوصول إلى خليَّة من أربعة إرهابيِّين عراقيِّين يُشتبه في تورُّطهم في محاولة اغتيال الرئيس الأمريكي. يُشار في الوقت ذاته إلى تحرُّكات للحرس العراقي في اتجاه الكويت والسَّعودية، في خطوة استباقيَّة تستهدف السيطرة على آبار النفط هناك، وإعاقة تكوين تحالُف غربي لمواجهة اعتداءات صدَّام حسين. تستدعي الأوضاع الأمنيَّة وجود قوَّات أمريكيَّة داخل السَّعودية، التي تتعرَّض لتهديدات قويَّة من جيش صدَّام، وتبقى مشكلة التحفُّظ

السَّعودي على وجود قوَّات أجنبيَّة، خاصَّة من النساء والمسيحيِّين. غير أنَّ الحاجَّة الماسَّة إلى المساندة الأمريكيَّة من شأنها التخلِّي عن المحظورات، خاصَّة بعد نجاة الأسرة الحاكمة بأعجوبة من هجوم استهدف القصر الملكي. يشير الكاتب إلى حادثة أخرى صاحبت الهجوم على القصر الحاكم في السَّعودية، وهي تفجير في باريس أصيب خلاله رئيس الوزراء الكندي. ترتَّب على تكرار العمليَّات الإرهابيَّة تراجُع تداولات البورصة، وتقدُّم الرئيس الروسي بعرض لمساندة أمريكا في تعقُّب الإرهابيِّين، وسط مخاوف من إشعال العراق حربًا في المنطقة بهدف السيطرة على نفط الخليج.

بعد أن يستعيد عافيته، بعد الأزمة التي تعرَّض لها نتيجة إصابته خلال عمل الإرهابي الذي استهدف لقاءه الجماهيري في بلدته، دنفر، يتناقش الرئيس الأمريكي مع مستشاره، بينيت، المكاسب المتوقَّعة في حالة شنِّ حرب على العراق. يعتقد الرئيس أنَّ تلك الحرب يمكنها القضاء على أكبر تهديد في منطقة الشرق الأوسط، التي ينعتها بـ "محور الشرِّ"، وحينها يمكن تنفيذ مشروع التنقيب عن النفط في البحر المتوسِّط، المشروع الذي من شأنه أن يجعل من كلٍّ من فلسطين وإسرائيل من أغنى دول العالم، بالإضافة إلى إمكانيَّة إحلال السلام في المنطقة بفضل "صفقة السلام التاريخيَّة" تلك، الأمر المأمول منذ خمسة آلاف عام، على حدِّ قول الرئيس. تجدر الإشارة في هذا السياق إلى اعتراف الرئيس الأمريكي بالسيادة الفلسطينيَّة على دولة باسم "فلسطين"، على عكس ما تتضمَّنه صفقة القرن المرتقبة، من إلغاء لمقترَح حلِّ الدولتين، وعدم الاعتراف بدولة للشعب الفلسطيني.

يعود بنا روزنبرغ إلى الصراع الدائر مع العراق، بوصفه انتهاكات الحرس العراقي، ومنها إسقاط طائرات مراقبة أمريكيَّة، وإرسال وحدات عسكريَّة إلى الحدود مع السَّعودية والكويت، وإعداد المفجِّرين إلى لحظة بدء القتال. توصف بغداد، عاصمة العراق، بأنَّها صارت "مدينة أشباح"، ويُلقى الضوء على خطاب صدَّام حسين العدائي تجاه إسرائيل، حيث يدعو في أحدث خطاب جماهيري له إلى استعادة مجد فلسطين من النهر إلى البحر، وانتزاع القُدس من أيدي الصهاينة، الواجب محوهم من الوجود.

ويُنسب إلى صدَّام في الرواية قوله "سنجعل دم المعتدين المحتلِّين من الصهاينة المجرمين يتجمَّد، ثمَّ يتوقَّف نهائيًّا. لا نيَّةَ لي إلَّا أن أفعل ما يرضي الله، ويعود بالمجد على الأمَّة العربيَّة. لن يخذل الله الأمَّة العربيَّة، وسننتصر. الله أكبر...الله أكبر...الله أكبر...الله أكبر، وليُخزى أعداء الأمَّة من أتباع الإمبرياليَّة والصهيونيَّة...ولعنة الله على اليهود." يكمن خطر العراق على إسرائيل في نيَّة نظام صدَّام حسين استخدام أسلحة دمار شامل، من بينها أسلحة نوويَّة، لتدمير إسرائيل، وفي ذلك ما يبرِّر مساعي شنِّ الحرب على العراق، داخل الإدارة الأمريكيَّة. يتطرَّق روزنبرغ إلى تمويل إيران للإرهاب ضدَّ روسيا، بتأسيس خليَّة تحت اسم "النكبة" لإشعال حرب في روسيا. أمَّا عن قائد تلك الخليَّة، فكان إرهابيًّا يعيش في روسيا، اسمه محمَّد جبريل، قُدِّم باعتباره كان يسعى ليكون في موقع بن لادن، من حيث تزعُّم الجماعات المسلَّحة، الضالعة بأعمال إرهابيَّة تستهدف الغرب.

من الأمور الواجب الإشارة إليها تعمُّد روزنبرغ إثارة العداء القديم بين بني إسرائيل ومملكة بابل القديمة، إلى حيث نُفي فئة من صفوة بني إسرائيل لفترة تراوحت ما بين ٤٠ و٦٠ عامًا في عهد الملك نبوخذ نصَّر. يُقدَّم صدَّام حسين باعتباره "من سلالة الملك العظيم نبوخذ نصَّر، الذي حَكَم البلاد بأيدٍ من حديد". على هذا النحو، يجعل روزنبرغ من غزو العراق محاولة للثأر لبني إسرائيل من البابليِّين؛ برغم مرور عشرات القرون على السبي البابلي، وعدم مشاركة الأجيال الحالية من العراقيِّين في السبي؛ ومن ثمَّ لا ذنب لهم ليكونوا فريسة للانتقام الأمريكي-الإسرائيلي. يصف خالد عزيز، القائد العسكري المقرَّب إلى صدَّام، اليهود بـ "الصهاينة الأنذال، الكافرين الذين يدنِّسون الأرض ويلوِّثونها ويسمِّمونها".

يقصد روزنبرغ من كلِّ تلك المزاعم أنَّ نظام صدَّام شنَّ حربًا على اليهود، المسالمين وفق وصفه، منحها صبغة دينيَّة، بأن اعتبر اليهود كافرين تجدر محاربتهم، في إشارة ضمنيَّة إلى الأمر الوارد في القرآن بقتال الكافرين حيث ثُقفوا. لإظهار صدَّام حسين بمزيد من الوحشيَّة والضراوة في قتال خصومه، يُشار إلى استخدامه السلاح الكيماوي في قتل ما يقرب من ١٠٠ ألف من خصومه خلال عقدي الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، مما يضاعف من ضرورة اتِّخاذ الجانب الإسرائيلي كافَّة التدابير الأمنيَّة لصدِّ عدوان صدَّام

باستخدام السلاح النووي. يضع الكاتب القارئ الآن أمام مأساة يعيشها اليهود في إسرائيل، الذين يواجهون خطر "محرقة نوويَّة" تهدِّد بالفتك بـ ٦ ملايين منهم، كما فُتك بنفس العدد خلال سنوات الحرب العالميَّة الثانية، في معسكرات الجيش النازي. وللتصدِّي لذلك التهديد، يطالب الإسرائيليُّون الإدارة الأمريكيَّة بشنِّ ضربة نوويَّة استباقيَّة ضدَّ نظام صدَّام، خاصَّة بعد أن وجدت لجنة الأمم المتحدة الخاصَّة لنزع أسلحة الدمار الشامل العراقيَّة (UNSCOM) أنَّ النظام كان لديه برنامج لتطوير أسلحة دمار شامل، بيولوجيَّة وكيميائيَّة ونوويَّة.

يكشف رونزبرغ عن رؤيته للمنطقة العربيَّة مستقبلًا، بعد القضاء على سرطان "الإرهاب الإسلامي"، وتنفيذ مشروعات تنمويَّة يمكنها نقل المنطقة إلى مستوً رائق، يضعها في مصافِّ الدول الرائدة. فغزَّة وسيناء والضفَّة الغربيَّة ستكون السَّعودية الجديدة، بالانشغال بالتنقيب عن النفط وتصنيع منتجاته؛ وإسرائيل ستصبح بمثابة وادي السليكون الجديد، بتركيزها على المنتجات الحديثة، والأعمال المصرفيَّة، والخدمات الماليَّة والطبيَّة. أمَّا الأردن، فيمكنها أن تكون بمثابة منتجع سياحي عالمي يضاهي أشهر المنتجعات الجبليَّة في العالم. يعِد مشروع التنقيب عن النفط، آنف الذِّكر، بمنح كلِّ مواطن فلسطيني وإسرائيلي ما تتراوح قيمته بين نصف مليون ومليون دولار من الأسهم في شركة التنقيب المزمع تأسيسها، في الوقت الذي لا يتجاوز دخل الأسرة الفلسطينيَّة ١٥٠٠ دولار في العام، على حدِّ وصفه، ممَّا يعني أنَّ غالبيَّة الفلسطينيِّين سيصبحون "من أصحاب الملايين بين عشيَّة وضحاها".

يتطرَّق الرئيس الأمريكي في حديث له مع مستشاره، بينيت، إلى أهميَّة التوصُّل إلى اتفاقيَّة سلام بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي؛ لما لتلك الاتفاقيَّة من منافع حقيقيَّة وملموسة للطرفين. ولتحقيق تلك الغاية، "لا يمكن النظر إلى ذلك (الاتفاقيَّة) باعتبارها سلسلة من التنازلات، إنَّما باعتبارها استثمارًا عظيم الربح؛ ليس ربحًا من المساعدات بالمليارات التي تقدِّمها أمريكا وأوروبا، إنمَّا الثروة الحقيقيَّة التي يجنيها الإسرائيليُّون والفلسطينيُّون من تعاونهم في مشروع التنقيب عن النفط والغاز". يضيف الرئيس أنَّ إخراج إسرائيل من دائرة الصراع المباشر مع العراق كان من الأولويَّات، خاصَّة في سبيل تفادي استخدام السلاح النووي.

نأتي إلى دور إسرائيل في التصدِّي للعدوان العراقي، وينتقل بنا روزنبرغ إلى أورشليم، إلى منزل الدكتور أليعازر موردخاي، الرئيس الأسبق للموساد الإسرائيلي، الذي يعرف صدَّام حسين أفضل من سواه على وجه الأرض، والذي شكَّل قناة سريَّة للتواصل بين الرئيس الأمريكي وياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينيَّة السابق. وُلد موردخاي في الصرب عام ١٩٣٥ ميلاديًّا، ابنًا وحيدًا لأب أستاذ في الدراسات الروسيَّة وأم تعمل ممرِّضة. استقرَّت الأشرة في فلسطين في خريف عام ١٩٤٥ ميلاديًّا، ليشارك الأب في "حرب الاستقلال الإسرائيليَّة" (Israeli War of Independence)، أو حرب عام ١٩٤٨ ميلاديًّا، المحسومة لصالح اليهود، والتي على إثرها أُعلنت دولة إسرائيل منتصف مايو من العام ذاته. لقي والدا موردخاي مصرعهما في تفجير إرهابي في أورشليم عام ١٩٥٣ ميلاديًّا، بينما كان هو في معسكر تدريبي للجيش الإسرائيلي. أصبح موردخاي ضابط استخبارات، أوَّلًا لدى منظَّمة الاستخبارات العسكريَّة، ثمَّ لدى الموساد. أمَّا عن دراسته الجامعيَّة، فقد جمعت بين الدراسات السوفييتيَّة ودراسات الشرق الأدنى. يتقن موردخاي الروسيَّة والفارسيَّة والعربيَّة والإنجليزيَّة، وقد تركَّز عمله في الموساد على الشؤون العربيَّة والملف النووي، وكانت له جهود ملموسة تستهدف مكافحة الإرهاب.

يشارك في لقاء مستشار الرئيس الأمريكي، بينيت، بالرئيس الأسبق للموساد، موردخاي، فلسطيني يُدعى إبراهيم سعيد، يتعاون مع اليهود، زاعمًا أنَّ هدفه إنهاء الصراع وإحلال السلام. يلقي روزنبرغ الضوء على عقليَّة سعيد، الذي يتبيَّن عدم وعيه بحقيقة الصراع على أرض فلسطين. يقول الرجل نصًّا "نشأت غريبًا على أرض غريبة–أرضي–التي تعاقب عليها الاحتلال، البابلي والفارسي، المصري والعثماني، البريطاني والأردني، والآن الإسرائيلي...حتَّى سنوات قليلة مضت، كنت أتعجَّب دائمًا لماذا هذا الهرج والمرج هنا؟ لماذا يتصارعون على أرض متواضعة القيمة الجوهريَّة؟ إذا كان يريدون الصراع، فليتصارعوا على الخليج، حيث يوجد الغاز؛ حيث يوجد النفط؛ حيث توجد الثروة. بالنسبة لي، هذا ما يجدي. غير أنَّ الحرب هنا كانت الأشد حموًّا في هذا المكان...حتَّى قبل اكتشاف النفط والغاز. لماذا؟ لم أستطع أبدًا تفسير ذلك". يضيف سعيد أنَّه قد نما إلى قناعته أنَّ قوى كونيَّة خارقة

للطبيعة تتصارع في الخفاء من أجل السيطرة على الأرض المقدَّسة. سينتصر الخير على الشر، في رأي سعيد، عند إبرام صفقة التنقيب عن الثورة النفطيَّة التي ستنتشل الجميع من الفقر، وتضعهم في مصافِّ الأمم المتقدِّمة.

يكشف الدكتور موردخاي عن إيمانه بعقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة من خلال حديثه عن حسم الصراع لصالح اليهود. يقول موردخاي أنَّ الربَّ يعدُّ "خططًا" لليهود، وكذلك للعراقيِّين، في إشارة إلى الاعتقاد بأنَّ للبشر أدوارًا يُسندها الربُّ إلى كلِّ فرد بحسب درجة إيمانه. من هنا، ينطلق روزنبرغ في تبريره الحرب على العراق، التي صار ٩١ بالمائة من الأمريكيِّين يؤيِّدونها؛ و٩٠ بالمائة منهم يعتقدون أنَّ صدَّام حسين كان ينوي استخدام سلاح نووي ضدَّ إسرائيل؛ و٨٥ بالمائة منهم يعتقدون أنَّ صدَّام سيعاود محاولة استخدام سلاح دمار شامل؛ و٨١ بالمائة من هم أصبحوا يؤيِّدون استخدام الرئيس الأمريكي سلاحًا نوويًّا "لحماية الأمن القومي الأمريكي، إذا لزم الأمر". بالفعل، تتصاعد الأحداث داخل أمريكا بما يستوجب ردًّا حاسمًا من الرئيس الأمريكي، بعد محاولة جديدة لاغتياله أثناء وجوده في الكاتدرائيَّة الوطنيَّة، التابعة للكنيسة الأسقفيَّة البروتستانتيَّة، شارك فيها بعض رجال الخدمة الخاصَّة المعنيَّة بحمايته. يتزامن ذلك مع محاولة لتفجير منزل الرئيس الأسبق للموساد، في وجود مستشار الرئيس الأمريكي، أثناء تدريبه مع آخرين، من بينهم الفلسطيني إبراهيم سعيد.

بعد أن يتبيَّن لأمريكا وإسرائيل أنَّ قوَّات تابعة لصدَّام حسين وراء المحاولة الأخيرة لاغتيال الرئيس الأمريكي، يجتمع رئيس الوزراء الإسرائيلي، ديفيد دورون، برجاله، ليتناقش معهم بشأن خطوة الردِّ. يتساءل دورون "ماذا نفعل الآن؟ هل نجلس وننتظر؟ هل ننتظر حتَّى نُذبح؟ أم نبادر بضربة استباقيَّة؟"، مضيفًا أنَّ اتِّخاذ القرار كان حاسمًا بالنسبة لتاريخ إسرائيل. في الوقت ذاته، يُسلِّط روزنبرغ الضوء على موقف خالد عزيز، القائد العسكري المقرَّب لصدَّام، الأرمل غير المعقَّب، الذي انصبَّ همُّه على الانتقام من أمريكا وإسرائيل. بعد تشاوُر مع صدَّام، يتَّخذ الرجلان قرارًا بإطلاق حملة "الجهاد الأخير". غير أنَّ القوَّات الخاصَّة الأمريكيَّة كانت أسبق من عزيز في شنِّ هجمة مدوِّيَّة على العراق باستخدام قذائف نوويَّة قذفتها طائرات مسيَّرة على مدن العراق العتيقة. يصف روزنبرغ ارتفاع "سحابة الفطر"

الناجمة عن التفجير النووي، ميلًا تلو ميل إلى السماء، ودويّ الرياح المحمَّلة بالموادِّ المشعَّة، مشيرًا إلى تأمُّل الرئيس الأمريكي الموقف، حيث يقول في نفسه "**في غمضة عين...بضغطة زرٍّ...انتهى كلُّ شيء...غير أنَّ الرئيس، في قرارة نفسه، كان يعرف أنَّ فعليًّا الأمر قد بدأ**".

> The flashes of brilliant white light. The two massive fireballs. The howling radioactive winds, surging to one hundred and sixty miles per hour. The instant obliteration of large sections of two ancient cities. The twin signature mushroom clouds, rising mile after mile into the heavens.
> In the blink of an eye-in the push of a button-it was all over.
> And yet, in his heart, MacPherson knew it had really just begun.

١٣.استنتاجات وتساؤلات

١.أوضحت الدراسة أنَّ الفكر الصهيوني الذي حمله المهاجرون البروتستانت، من بريطانيا إلى أمريكا، هو المحرِّك الأساسي لاحتلال الأرض المقدَّسة، اعتقادًا بأنَّ في ذلك تهيئة للعالم للمجيء الثاني للمخلِّص، وهو يسوع المسيح وفق ذلك المعتقَد. رأى المهاجرون الأوائل إلى العالم الجديد أنَّ هجرتهم هي بداية استعادة الأرض المقدَّسة من أيدي المسلمين، وراحوا ينشرون من المبرِّرات لانتزاع "مهد المسيح" و "جبل الهيكل" منهم ما لا يقبله المنطق ويعارضه العلم، وكان الطعن في الإسلام وإثارة المشاعر السلبيَّة ضدَّه ومعتنقيه من أهم استراتيجيَّات أتباع الصهيونيَّة المسيحيَّة، لينشأ بذلك ما بات معروفًا باسم الإسلاموفوبيا. ولعلَّ من أشهر الأمثلة لذلك، ما نشره جورج بوش، المبشِّر وأستاذ الآداب الشرقيَّة المتخصِّص في دراسات الكتاب المقدَّس، وهو كذلك بمثابة الجد الأكبر للرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش، في حق النبيِّ مُحمَّد (ﷺ) في كتابه **The Life of Mohammed: Founder of the Religion of Islam, and of the Empire of the Saracens**–**حياة مُحمَّد: مؤسِّس دين الإسلام وإمبراطوريَّة السارقين** (١٨٣١)، الذي وصف فيه النبيَّ (ﷺ) بالأفَّاق (impostor) الذي اختلق ديانة استمدَّها من دراسته لليهوديَّة والمسيحيَّة، السابقتين على الإسلام في شبه الجزيرة العربيَّة، واصفًا أتباعه بـ "السارقين" (**Saracens**)، ومستعيضًا بها عن المسمَّى الصحيح، المسلمين. كان جورج بوش الجد من أعلى الأصوات المطالبة بعودة بني إسرائيل إلى الأرض المقدَّسة، وقد عبَّر عن ذلك بوضوح

في كتابه **Valley of Vision; or, The Dry Bones of Israel Revived**– **وادي الرؤيا: في تفسير رؤيا حزقيال وإحياء رميم إسرائيل** (١٨٤٤). والسؤال: مَن هو المستفيد من إثارة العداء تجاه الإسلام وأهله أكثر من جهات تبذل في سبيل ذلك مليارات الدولارات؟ ألا ينطبق على هؤلاء قوله تعالى في الآية ٣٦ من سورة الأنفال "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ"؟ أليس في وعده تعالى في الآية ذاتها "**فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**"، ووعده حقٌّ، بخيبة مساعيهم ما يثنيهم وأتباعهم عن مواصلة تلك الجهود؟ أم أنَّ هؤلاء لا يأبهون بالنُّذُر، مصداقًا لقوله تعالى في سورة البقرة "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)".

٢.تبيَّن من خلال تتبُّع أصل الفكر المحرِّك للسياسة الأمريكيَّة، أنَّ الفكر الصهيوني (المسيحي)، وبخاصَّة عقيدة التدبيريَّة الإلهيَّة، من أهم المؤثِّرات. كان الاتِّجاه العلماني من أسباب عدم إعادة انتخاب الرئيس جيمي كارتر، بينما كان التودُّد إلى اليمين المسيحي سرُّ نجاح منافسه، رونالد ريجان، في السباق الرئاسي، واحتفاظه بالرئاسة لفترة ثانية. تفرَّغ كارتر لمهام التبشير بعد ترك الرئاسة، وكأنَّما أراد تكليل جهوده السياسيَّة، التي سارت في اتِّجاه تأسيس مملكة الربِّ على الأرض المقدَّسة، بجهود دينيَّة تستهدف نشر المسيحيَّة، استعدادًا لاستقبال المخلِّص. لم يخفِ الرئيس الأمريكي الأسبق جورج دابليو بوش، في إعلانه "الحرب على الإرهاب" في مقرِّ الكاتدرائيَّة الوطنيَّة، أنَّ حربه بمثابة "حرب صليبيَّة"، داعمًا خطابه بعبارات مستمدَّة من الكتاب المقدَّس لتقوية حُجَّته. والسؤال: إذا كان من إعلاميي ومفكِّري الغرب مَن كذَّب رواية الإدارة الأمريكيَّة بشأن تورُّط مسلمين في أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة، بل وساق من الأدلَّة ما يبرهن على خلاف ذلك، فمَن الفاعل الحقيقي والمنتفع الأكبر؟ وإذا كانت الحرب الأمريكيَّة-البريطانيَّة على العراق عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا، التي برَّرتها "معلومات استخباراتيَّة خاطئة"، بهدف القضاء على أسلحة دمار أشيع ابتكار نظام صدَّام حسين لها، فلماذا صَاحَب القوَّات المسلَّحة وقتها مبشِّرون زُوِّدها بشتَّى وسائل الإغاثة؟ إذا

كان الإسلام يُنعت بدين الإرهاب بسبب آيات في القرآن الكريم تحرِّض على القتال، منها الآية ٦٠ في سورة الأنفال "وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ **تُرْهِبُونَ** بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ"، التي تقصر الإرهاب على ردع الأعداء، فماذا يُقال في اليهوديَّة والمسيحيَّة، وقد ورد في الكتاب المقدَّس "فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ **وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا**" (سفر صموئيل ١: إصحاح ١٥، آية ٣)؟

٣.يؤمن اليمين المسيحي بما يُعرف بـ "العهد المزدوج"، الذي يزعم وجود علاقة خاصَّة بين الربِّ واليهود، عملًا بما ورد في سفر التكوين عن عهد من الربِّ لأبرام وذريَّته بمُلك أبدي على الأرض المقدَّسة "وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ»" (سفر التكوين: إصحاح ١٢، آيات ١-٣). يقرن اليمين المسيحي بركة الربِّ بمباركة الأمم لبني إسرائيل، والسؤال: كيف يستوي هذا الاعتقاد مع اعتراف النبيِّ دانيال بحلول "اللعنة" من الربِّ على بني إسرائيل بسبب تعدِّيهم على شريعته "وَكُلُّ إِسْرَائِيلَ قَدْ تَعَدَّى عَلَى شَرِيعَتِكَ، وَحَادُوا لِئَلاَّ يَسْمَعُوا صَوْتَكَ، **فَسَكَبْتَ عَلَيْنَا اللَّعْنَةَ وَالْحَلْفَ الْمَكْتُوبَ فِي شَرِيعَةِ مُوسَى عَبْدِ اللهِ، لأَنَّنَا أَخْطَأْنَا إِلَيْهِ**" (سفر دانيال: إصحاح ٩، آية ١١)؟ أليس في قول النبيِّ دانيال ما يتوافق مع قوله تعالى "**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن **سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)" (سورة المائدة: آيات ٧٨-٨٠)؟ تجدر الإشارة إلى أنَّ ميراث أبِّ الأنبياء إبراهيم لذريَّته لم يكن أرضًا، إنَّما النبوَّة والهدى والإمامة، مصداقًا لقوله تعالى عن ذريَّته "**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ** فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)" (سورة الأنعام: آيتان ٨٩-٩٠). ولا ينفي الانتماء إلى ذريَّة إبراهيم

الصلاح والعصمة، مصداقًا لقوله تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ **وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**" (سورة الحديد: آية ٢٦). لا يشمل هذا العهد سوى المصلحين من ذريَّة إبراهيم، كما يخبرنا تعالى "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" (سورة البقرة: آية ١٢٤).

٤.قدَّم المفكِّر والروائي الأمريكي الصهيوني، جويل روزنبرغ، في روايته **الجهاد الأخير** (٢٠٠٢)، رؤية لمستقبل العالم الإسلام، في مواجهة الهيمنة الأمريكيَّة. صدرت الرواية قبل عام من شنِّ أمريكا وحليفتها بريطانيا حربًا على العراق، لأسباب ثبُت كذبها، بهدف تبرير الحرب. تبلور الرواية دور الموساد الإسرائيلي في حماية العالم من خطر الإرهاب، الذي يمثِّله صدَّام حسين ونظامه، وتعظِّم من قدراته على الحفاظ على حياة الأمريكي ذاته، الذي يتعرَّض لعدَّة محاولات اغتيال ويسقط في إحداها مصابًا، مما يعكس هشاشة موقفه، مقارنةً بقوَّة جهاز الاستخبارات الإسرائيلي، القادر على رصد كافَّة إرهابيِّي العالم أينما ثُقفوا، بينما يعاني نظيره الأمريكي من اختراقات. يستخدم روزنبرغ الإغراء بأموال النفط في تشجيع الفلسطينيِّين على إنهاء الصراع مع إسرائيل، ويتحدَّث عن "صفقة" تكفل السلام للطرفين من خلال وجود هدف مشترك. ما يريد روزنبرغ قوله هو أنَّ فئة من المسلمين، يملأ الحقد قلوبهم تجاه اليهود، هم مَن يُشعل الصراع العربي–الإسرائيلي، وأنَّ جيلًا من عرب إسرائيل يريد التعايش السلمي، جهلًا منه بأسباب الصراع، ورغبةً في الخروج من دائرة العوز والملاحقات الأمنيَّة، وهذا تعكسه شخصيَّة إبراهيم سعيد. أمَّا أليعازر موردخاي، الرئيس الأسبق للموساد الإسرائيلي، فهو ليس بموتور حاقد على الفلسطينيِّين بسبب مقتل والديه في تفجير إرهابي، إنَّما هو مدافع عن بلاده، نواة مملكة الربِّ العالميَّة، في مواجهة الهجمة الإرهابيَّة الشرسة التي تؤججها عقائد المسلمين القتاليَّة. والسؤال: إذا كان الحلُّ الذي قدَّمه روزنبرغ للقضاء على تهديد أسلحة الدمار الشامل العراقيَّة، التي ثبُت بعد غزو العراق عدم وجودها من الأصل، هو تفجير نووي هو الأوَّل من نوعه، كما أُخبر عن اعتقاد الرئيس الأمريكي في

الرواية، فما هو الهدف الفعلي لذلك التفجير؟ أليس في ذلك تهديدٌ صريح لمستقبل العالم الإسلامي في ظلِّ سيطرة أمريكا على مفاصله بتدخُّلها المفرط في شؤونه الداخليَّة؟

٥.كما أوضحت الدِّراسة السَّابقة عن التبشير، تأسَّف المبشِّر الرَّائد، صمويل زويمر، في كتابه **Islam: A Challenge to Faith**–**الإسلام: تحدٍّ للإيمان** (١٩٠٧)، على ترديد اسم النبيِّ مُحمَّد (ﷺ) في الأذان في مهد المسيح في الأرض المقدَّسة، بينما لا يجرؤ مبشِّر على الجهر بدعوته التَّنصيريَّة في موطن النبيِّ (ﷺ) في جزيرة العرب، وذلك قبل سنوات من فرض الانتداب البريطاني على فلسطين. حذَّر زويمر كذلك من خطورة السعي إلى تنصير المسلمين في جزيرة العرب، خشية التعرُّض للقتل، بتبرير من النصوص الشرعيَّة التي تحظر التشجيع على الرِّدَّة عن الإسلام. غير أنَّ الأمور تبدَّلت مؤخَّرًا، بعد الزيارة التاريخيَّة لوفد من الكنيسة الإنجيليَّة التبشيريَّة الأمريكيَّة، إلى المملكة العربيَّة السَّعودية–جزيرة العرب–مطلع نوفمبر من عام ٢٠١٨ ميلاديًّا، برئاسة المبشِّر والخبير الاستراتيجي الشهير، جويل روزنبرغ، صاحب رواية **الجهاد الأخير** (٢٠٠٢)، الذي يعيش في إسرائيل، ويجمع بين الجنسيتين الأمريكيَّة والإسرائيليَّة.

NEWS

Saudi Arabia's crown princes hosts Christian evangelical leaders



صورة ١٦–لقاء ولي العهد السَّعودي مع جويل روزنبرغ في نوفمبر ٢٠١٨

نشرت شبكة إن بي سي نيوز الإعلاميَّة الأمريكيَّة، في ٢ نوفمبر ٢٠١٨، أنَّ وليَّ العهد السَّعودي، استقبل وفدًا رفيع المستوى يتبع الكنيسة الإنجيليَّة، في خطوة من السَّعودية تستهدف "الانفتاح أكثر على العالم، وتصحيح صورة عدم التسامح الديني".

> RIYADH – Saudi Arabia's Crown Prince Mohammed bin Salman held a rare meeting with American evangelical Christians on Thursday, as the ultra-conservative Muslim kingdom seeks to open up more to the world and repair an image of religious intolerance.

وحرص خبر شبكة إن بي سي نيوز على الإشارة إلى عدم سماح السَّعودية بممارسة شعائر دينيَّة غير الإسلاميَّة، عملًا بالحديث الصحيح "لَا يَجْتَمِعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ". غير أنَّ تلك الخطوة من السلطة الحاكمة في جزيرة العرب توحي بشيء من الاستعداد للتغيير. ويضيف الخبر ذاته أنَّ نفس الوفد قد قابل ولي عهد أبو ظبي، في الوقت الذي سمحت فيه دولة الإمارات العربيَّة المتَّحدة ببناء كنائس. هذا، وقد كرَّر روزنبرغ زيارة السَّعودية، بعد مرور أقل من عام على الزيارة الأولى، ليقابل وليَّ العهد السَّعودي من جديد، مع وفد من الكنيسة الإنجيليَّة، عشيَّة الذكرى الـ ١٨ لأحداث ١١ سبتمبر الشهيرة.



US Christian evangelical delegation meets Saudi crown prince



صورة ١٧–لقاء ولي العهد السَّعودي مع جويل روزنبرغ عشيَّة ذكرى ١١ سبتمبر في عام ٢٠١٩

أعرب الوفد الذي يترأَّسه روزنبرغ، في تصريح رسمي، عن امتنانه لتعميق العلاقات الأمريكيَّة–السَّعودية، وعن سعادته بفتح آفاق لمناقشة "ما يجب تغييره في المملكة"، وإن كانت التغييرات التي طرأت على السَّعودية مؤخَّرًا تستدعي الاحتفال، كما نشر موقع جولف نيوز بتاريخ ١١ سبتمبر ٢٠١٩ ميلاديًّا.

> The delegation, led by Rosenberg, said in a statement its members were grateful to have deepening relationships in Saudi Arabia "to talk openly, if sometimes privately, about what we believe must change in the kingdom even as we celebrate the kingdom's progress in so many other areas."

جدير بالذكر أن روزنبرغ قد صرَّح خلال استضافته على قناة i24 الإسرائيليَّة، في ٢٥ نوفمبر ٢٠١٨ ميلاديًّا، بأنَّ وليَّ العهد السَّعودي لم يمانع فكرة تأسيس كنائس في جزيرة العرب، إلَّا لخوفه من استهدافها من قِبل تنظيم القاعدة. غير أنَّ الفكرة قائمة، وقد وعد وليُّ العهد السَّعودي بأن يطلب من علماء الإسلام في المملكة، التصريح بأنَّ المقصود بـ "جَزِيرَةِ الْعَرَبِ" في الحديث الصحيح لا ينطبق إلَّا مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة. والسؤال: هل يصحُّ تأويل المقصود في الحديث الصحيح آنف الذِّكر بما يتَّفق مع حملة التَّنصير العالميَّة، التي لا هدف لها سوى اقتلاع الإسلام من جذوره، ونشر "دين الربِّ" بدلًا منه؟

في معركة الحداثة الغربيَّة مع "رجعيَّة" المسلمين: لأيٍّ منهما الغَلَبَة؟

بسم الله الرحمن الرَّحيم

سورة البقرة: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)".

سورة آل عمران "زُيِّنَ لِلنَّاسِ **حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ **لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ** وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)".

"لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ **يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (١٨٨)".

سورة النِّساء: " وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا** (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)".

سورة المائدة: "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)".

سورة الأنعام: "أَلَمْ يَرَوْا **كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ** وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)".

"**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)".

"وَكَذَلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا **وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** (١٢٣)".

سورة الأعراف: "**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** (١٠)".

"**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلك نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)".

سورة الأنفال: "وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)".

سورة التوبة: " وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) **كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أولئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وأولئك هُمُ الْخَاسِرُونَ** (٦٩)".

سورة يونس: "إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أولئك مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)".

"إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ **حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا**

أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كذلك نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)".

سورة هود: "مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أولئك الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)".

" وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣)".

سورة يوسف: "وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)".

سورة الرَّعد: "وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِك الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وأُولَئِك الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وأُولَئِك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)".

سورة إبراهيم: "الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِك فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)".

سورة الحِجر: "رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)".

سورة النَّحل: "قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦)".

"مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)".

سورة الإسراء: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا **فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** (١٦) **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ** وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَّن كَانَ يُرِيدُ **الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا** (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)".

سورة الكهف: "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم **بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا** (١٠٣) **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)".

سورة مريم: "وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ **هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا** (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ **فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا** (٧٥)".

سورة طه: "أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ **أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨)".

سورة الأنبياء: "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)".

"وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١)".

سورة الحَج: "فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ **أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ** (٤٥)".

سورة المؤمنون: "فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) **نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ** (٥٦)".

سورة النُّور: "لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)".

سورة الفرقان: "يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** (٢٣)".

سورة الشُّعراء: "فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)".

سورة النَّمل: "وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ** (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ **خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (٥٢)".

سورة القصص: "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ **بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا** وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)".

سورة العنكبوت: "**وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (٢٢)".

سورة لقمان: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ **اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** (٣٣)".

سورة سبأ: "أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن **نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ** إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)".

سورة فاطر: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ **أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** (١٥) **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)".

سورة فُصِّلت: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤)".

سورة الزُّخرف: "**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** (٣٣)" **وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ** (٣٤) **وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** (٣٥)".

سورة الدُّخان: "أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)".

سورة الجاثية: "**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً** فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** (٢٤)".

سورة الأحقاف: "وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ** بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)".

سورة مُحمَّد: "**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا** فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)".

سورة ق: "**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ** (٣٦) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** (٣٧)".

سورة الذَّاريات: "فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)".

سورة الطُّور: "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)".

سورة النَّجم: "**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى** (٥٠) **وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** (٥١) **وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى** (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥)".

سورة القمر: "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣)".

سورة الجُمعة: "وَإِذَا رَأَوْا **تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)**".

سورة المُلك: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)**".

سورة القيامة: "**بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ** (٥) **يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ** (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) **يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠)**".

سورة النَّازعات: "**فَأَمَّا مَن طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)**".

سورة الفجر: "**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)**"

سورة التكاثر: "**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** (١) **حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)".

"**وَالْبَارُّ بِإِيمَانِهِ يَحْيَا**" (سفر حبقوق: إصحاح ٢، آية ٤).

"وَلَكُمْ أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ اسْمِي تُشْرِقُ شَمْسُ الْبِرِّ وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا، **فَتَخْرُجُونَ وَتَنْشَئُونَ كَعُجُولِ الصِّيرَةِ. وَتَدُوسُونَ الأَشْرَارَ لأَنَّهُمْ يَكُونُونَ رَمَادًا تَحْتَ بُطُونِ أَقْدَامِكُمْ يَوْمَ أَفْعَلُ هذَا**، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ" (سفر ملاخي: إصحاح ٤، آيتان ٢-٣).

"لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، **بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ. اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ. وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ**" (إنجيل يوحنَّا: إصحاح ٣، آيات ١٧-١٩).

"**لَيْسَ أَحَدٌ يَتَبَرَّرُ بِالنَّامُوسِ عِنْدَ اللهِ فَظَاهِرٌ، لأَنَّ «الْبَارَّ بِالإِيمَانِ يَحْيَا»**" (رسالة بولس الرَّسول إلى أهل غلاطية: إصحاح ٣، آية ١١).

مقدِّمة

أرسل الله تعالى رسوله مُحمَّدًا (ﷺ)، بالهدى ودين الحقِّ؛ ليظهره على الدِّين كلِّه، ولو كره الكافرون...ولو كره المشركون؛ ونزَّل عليه الكتاب تبيانًا لكلِّ شيء، وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين...هكذا أخبرنا بيان الحقِّ في مُحكم آيات القرآن الكريم، آخر كتاب سماوي لآخر الأمم. جعل الله في آيات القرآن هدىً للضالِّين عن سبيل الحقِّ، والحائرين في مساعيهم الحياتيَّة؛ وجعله رحمةً للعصاة والمذنبين بأن أرشدهم إلى مغفرة ربِّهم، ورحمته التي وسعت كلَّ شيء؛ كما جعله بشرى للمظلومين بانتصارهم على عدوٍّ، ولو بعد حين، وللمعدومين بأنَّ الرزق سيأتيهم من فضل ربِّهم بالصبر واتِّباع سبيل الحقِّ، وللصابرين بأنَّ جزاءهم النعيم الأبدي، جاعلًا التقوى والعمل الصالح والتضحية بالنفس والمال، لتقل التخلِي عن ملذَّات الدنيا التي حرَّمها عليهم-فما بالك بالتي أحلَّها لهم- مقابل الهناء والرغد وحُسن القرار في دار الآخرة. غير أنَّ ما وعد به رسول الله للناس كافَّة لم يعد يروق لدعاة التحرُّر من ربقة الدِّين تحت مُسمَّى تطبيق النهج العلماني الغربي، أملًا في تحقيق ولو جزءٍ ممَّا حققه الغرب من مُنجزات ماديَّة منذ عصري النهضة والتنوير، في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد. تتعالى المطالبات بتطبيق مفاهيم العلمانيَّة الغربيَّة، استنادًا إلى عقائد محسوبة على الإسلام، تقزِّم العبادات والفرائض والشرائع المنصوص عليها في القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة المُطهَّرة إلى مجرَّد طقوس روحانيَّة؛ على اعتبار أنَّ الدِّين علاقة بين الخالق والمخلوق تعتمد على الإيمان القلبي، وأنَّ البارَّ بالإيمان يحيا. لا تقتصر دعوة التحرُّر ونشر العلمانيَّة في عصرنا هذا على خريجي الجامعات الغربيَّة، من دارسي الفلسفات الحديثة، أو لتقل الفلسفات الوثنيَّة

القديمة المحدَّثة، والعلوم الحديثة، بل إنَّ الأمر يمتدُّ إلى حفظة القرآن الكريم وخريجي المعاهد الدينيَّة الإسلاميَّة، ممن رأوا في إحياء فِكر المعتزلة والتركيز على الجانب الروحاني في العقيدة الحلَّ الموفِّق بين الحفاظ على مظهر الدِّين واتِّباع النهج الغربي. والسؤال: هل الهدف من الدعوة إلى التحديث والتمدين حقًّا هو الارتقاء بحال المسلمين والقضاء على أسباب تخلُّفهم، أمَّ أنَّ الهدف الحقيقي هو تخلِّيهم عن الإسلام لاعتناق غيره، كما أوضحت الدراسة السابقة عن وسائل الإعداد لألفيَّة المسيَّا؟ وهل ينطبق على دعوة المخالفين لصحيح الرسالة السماويَّة ومعتنقي عقائد تمدُّ بجذورها في الديانات الوثنيَّة القديمة للمسلمين بالخروج عن صحيح دينهم، واتِّباع سُنن الغرب، قوله تعالى "وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً"، فيكون الحلُّ "فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ"، كما تُكمل الآية الكريمة (سورة النِّساء: آية ٨٩)؟ وهل الحلُّ هو التصوُّف والإرجاء ونشر الفكر الشيعي وعلوم المعتزلة؟ هذا ما توضحه الدراسة من جوانب شتَّى.

تلقي هذه الدراسة المفصَّلة الضوء على أهم الآراء التي تناولت صراع الحداثة الغربيَّة مع معتنقي الإسلام، من منظور مفكِّرين مسلمين وغير مسلمين، وعرب وغربيِّين؛ لتقديم صورة شاملة لرؤية هؤلاء لطبيعة هذا الصراع، وسبيل إنهائه، ولصالح أيِّ طرف. وتنتقل الدراسة بعد ذلك إلى دور الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وحليفتها إسرائيل، في ريادة عالم الحداثة، وفي الدفع إلى تطبيق قيمها، على حساب الشريعة السماويَّة، مع الإشارة إلى دور اليهود في تشكيل السياسة الأمريكيَّة في العالم الإسلامي بعد أحداث ١١ سبتمبر، بحجَّة ردع الإرهاب النابع من المعتقدات الدينيَّة الإسلاميَّة. وأخيرًا، يأتي تحليل لعملين فنيين يستهدفان المتلقِّي العربي المسلم، ويروِّجان لأهميَّة نشر الفكر الحداثي، والتخلِّي عن العقائد الإسلاميَّة التقليدية، الداعية إلى تكفير غير المُسلم المتَّبع لصحيح الرسالة السماويَّة وغير المنفتحة على المنتمين إلى الديانات الأخرى.

١.تعريف الحداثة، ونشأتها، وسندها الفكري

وفق ما تنشره موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة عن نشأة الحداثة، Modernity، فقد بدأت تلك الحركة الفكريَّة في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، استجابة للتغيُّرات الفكريَّة

والاتجاهات الثقافيَّة المتأثِّرة بالتطوُّر العلمي الذي شهده العالم الغربي، وبخاصَّة في مجال التقنيات الحديثة. تطوَّرت الحركة الحداثيَّة في القرنين التاسع عشر والعشرين، وتوالت المنجزات الفكريَّة التي أكسبتها الشرعيَّة، ومنحتها الأولويَّة في الاتِّباع، في ظلِّ الوفرة الماديَّة الهائلة التي جناها الغرب من التشجيع على تطوير العلوم الحديثة، والخروج بمخترعات غيَّرت طبيعة ممارسة البشر مهام حياتهم اليوميَّة؛ ولذلك يرى البعض أنَّ بداية الحداثة يؤرَّخ باختراع الألماني يوهان غوتنبرغ آلة الطباعة عام ١٤٣٦ ميلاديًّا، بينما يرى البعض أنَّ البداية الحقيقيَّة للحداثة كانت مع ثورة القس الألماني مارتن لوثر على الكنيسة الكاثوليكيَّة، وتأسيس المذهب البروتستانتي، أي بداية من عام ١٥٢٠ ميلاديًّا. غير أنَّه من المسلَّم به أنَّ أكثر ما تأثَّر به الفكر الحداثي وشكَّل مفاهيمه الثورة العقلانيَّة والاتِّجاه إلى تطبيق المفاهيم الاستعرافيَّة في البحث العلمي، في العلوم التطبيقيَّة والنظريَّة معًا، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، فيما عُرف بعصر النهضة الإيطاليَّة، وعصر التنوير الأوروبي.

في مقال بعنوان **ما الحداثة؟**، يشير الدكتور أحمد محمَّد زايد، أستاذ أصول الدِّين في جامعة الأزهر في مصر، إلى أنَّه وفق المفهوم الغربي، ترتبط الحداثة بنظام اجتماعي متكامل، يعتمد على العقلانيَّة والتحرُّر من القوالب القديمة، استنادًا إلى رأي إيمانويل كانت، وهو فيلسوف ألماني صاحب النظريَّات الأشد تأثيرًا في الثقافة الغربيَّة، وتعتبر نظريَّاته آخر ما أنجزه عصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر الميلادي، لينطلق بعد ذلك، ووفق هذه الإسهامات الفكريَّة، الفكر الحداثي بزعامة الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة في القرن التاسع عشر. أوصى إيمانويل كانت باستخدام العقل دون توجيه خارجي؛ لاستقبال "الأنوار" التي تتنزَّل على الإنسان في فترات التأمُّل. وكان رأي كانت صريحًا في رأي الدِّين في منتج العقل، بتأكيده على ضرورة التحرُّر من "المُقدَّس"، لو تعارَض مع المنتج العقلي. ويعلِّق زايد في مقاله آنف الذِّكر على الدعوة إلى تغليب العقل على كلِّ الموروثات، بما فيها النصوص الدينيَّة المنزَّلة من السماء، قائلًا أنَّ دعاة الحداثة بذلك يقدِّمون "تصورًا هدامًا لحياة الناس يشمل مختلف نواحيها". من هنا، يستنتج

زايد أنَّ الحداثة "فكرة ضد الله والغيب"؛ لأنَّها تقوم على أساس اتِّباع إملاءات العقل وحدها، وازدراء أيِّ رأي مخالف، ولو كان رأي الدِّين، مما يستوجب فصْل الدِّين عن الأنشطة الحياتيَّة، أي تطبيق العلمانيَّة، سرِّ النهضة الغربيَّة.

يستعرض زايد آراء بعض دعاة الحداثة العرب عن مفهومها، ومن بينهم الدكتور جابر عصفور، أستاذ اللغة العربيَّة في جامعة القاهرة المصريَّة ووزير الثقافة المصري الأسبق، الذي يرى أنَّ الحداثة تقوم على استكشاف أسرار الكون، من خلال تعميق البحث عن الحقيقة، ورفض المُسلَّمات، ما يتطلَّب التجديد المتواصل للمبادئ، واتِّباع العقل في الوصول إلى ما يتناسب مع كلِّ عصر، في إطار من التحرُّر من القيود التقليديَّة. أمَّا الشاعر والمفكِّر اللبناني أدونيس، فقد رأى في كتابه **الثابت والمتحوِّل** (١٩٧٣) الحداثةَ صراعًا بين "السلفيَّة" والاتجاه إلى الخروج عن سيطرتها من خلال استحداث نهج جديد في تصريف الأمور الحياتيَّة. ويتَّفق مواطنه ناصيف اليازجي، أحد أشهر دعاة العلمانيَّة في العالم العربي، مع هذا الأمر بأن رأى الحداثة تمرُّدًا على التقاليد والأعراف. وأهم ما أشار إليه الدكتور أحمد محمَّد زايد من آراء الحداثيين المعاصرين اعتبارهم أنَّ الحداثة عبارة عن دعوة إلى إعادة صياغة الفكر العالمي وفق ما يمليه العقل، وعلى أساس المذهب العقلاني في الفِكر، وإعادة تصميم هيكل المجتمع العالمي، على أساس حضاري ومعرفي جديد يتوافق مع إيقاع الزمن، الذي تحدده المنجزات العلميَّة الجديدة، التي طوَّرها الغرب باتِّباع المذهب العقلاني. تتعامل الحداثة مع الوعي الإنساني بوصفه خاضعًا للتغيُّر، بحسب المعطيات المتاحة، مما يستوجب التكيُّف مع المعطيات الجديدة، ولو تعارضت مع أي أفكار قديمة، بما فيها الدِّين. كأنَّما تفترض الحداثة أنَّ سُنَّة الله في خَلْقه تتبدَّل وتتحوَّل من جيل إلى آخر، ولم تعرف القرون الأولى التحديث والتمدُّن، ولم يُتح لها من العلم ما أحرزته الهمَّة الغربيَّة، التي تحرَّرت من قيود الدِّين، ولم تعد تضيع وقتها في عبادات تستهلك وقت العمل والإبداع. يشير زايد إلى أنَّ أصل الحداثة هو "**الفلسفة والتصورات الغربيَّة التي نشأت في أجواء مخالفة تماما لأجوائنا الإسلاميَّة، وفي ظروف ولأسباب تخالف ظروفنا وأحوالنا كأمة مسلمة تملك تصورات ربانيَّة عن**

الكون والحياة". من ثمَّ، يعتبر أستاذ أصول الدِّين أنَّ الحداثة منتج غربي لا يناسب أمَّة دستورها كتاب الله وسُنَّة نبيِّه (ﷺ).

يعتبر الدكتور عوض القرني، أستاذ أصول الفقه والشريعة الإسلاميَّة في جامعة الملك خالد السعوديَّة، من أشهر خصوم الحداثة والعلمانيَّة في العالم الإسلامي، ويعد كتابه **الحداثة في ميزان الإسلام** (١٩٨٨) مرجعيًا قيِّمًا للباحثين عن رأي الشرع في اتِّهام الالتزام بصحيح الدِّين بالرجعيَّة، وقد حظي هذا الكتاب باهتمام خاص بفضل حرص الشيخ عبد العزيز بن باز، رئيس هيئة كبار العلماء السعوديَّة، وإدارة البحوث العلمية والإفتاء الأسبق، على تقديمه. يشير القرني في مقدِّمة كتابه إلى أنَّ الهدف من تأليفه تقديم "موعظة لمَن خُدع بالحداثة" من المسلمين، لعلَّه يقتنع بعدم توافُق هذه الحركة الفكريَّة، النابعة من فلسفات غربيَّة مُستمدَّة من الفكر الوثني القديم، مع صحيح الإسلام؛ "فينيبَ إلى ربِّه، ويعودَ إلى أصالته، ويستغفرَ من ذنبه، والله غفور رحيم" (ص١٤). يبيِّن أستاذ أصول الفقه أنَّ الحداثة "مذهب فكري غربي، وُلد ونشأ في الغرب، ثمَّ انتقل منه إلى بلاد المسلمين" (ص١٧).

ويبدأ القرني جداله بالإقرار بعدم وجود أيِّ أصل في التاريخ الإسلامي للحداثة يستند إليه دعاتها العصريون، ما عدا ما تتضمَّنه أعمال الملاحدة والفسَّاق والماجنين، على شاكلة الحلَّاج، وابن عربي، والمعرِّي، والقرامطة، مشيرًا إلى أنَّ ما يتَّفق مع الفكر الحداثي الغربي، الذي يدعو إليه المتشدِّقون بأهميَّة الانسلاخ من عباءة التراث الإسلامي، لا يوجد إلَّا في أعمال "**الزنادقة والفسَّاق، وغلاة الصوفيَّة من دُعاة وَحدة الوجود، وشعراء الإلحاد، ودعاة الفلسفة اليونانيَّة**" (ص٢٦). ويصف القرني دعاة الحداثة العرب بـ "المنهزمين فكريًّا"، الباحثين عبثًا عن "ثوب عربي يلبسونه الفكرة الغربيَّة"؛ فلم يجدوا من أصحاب الفِكر القدامى مَن يتوافق أثره الفكري مع أفكارهم سوى "كلِّ شاذٍّ، ومنحرف من الشعراء والأدباء والمفكِّرين"؛ لأنَّ ديدن هؤلاء كان "المروق على الإسلام، والتشكيك في العقائد، والسخرية منها، والدعوة إلى الانحلال الجنسي" (ص٢٧-٢٨). ويرى القرني أنَّ دعاة الحداثة هم نتاج التشكيل الذهني للمسلمين، الذي حرص عليه أساطين الاستعمار

الغربي في سنواته كثومه على صدر الأمَّة المسلمة، إلى أن رحلوا، فتركوا وراءهم أبناء "يخدمون فكرهم ويحققون أهدافهم، فهم لهم منابر دعاية وأبواق تضليل"، مختصًّا بالذِّكر طه حسين وعلى عبد الرَّازق، وآخرين (ص٣٠).

يفترض القرني أنَّ دعاة الحداثة أحسنوا التخطيط لنشر أفكارهم، وجاهدوا كثيرًا، حتَّى وصلت الأمَّة إلى ما هي عليه الآن؛ فما حقَّقه هؤلاء "لم يأتِ مصادفةً أو اتفاقًا، بل كان نتيجة خُطط مُعدَّة، وأساليب متَّبعة، ودراسات مستفيضة" (ص١١٥). واعتمدت أساليب هؤلاء في نشر فِكرهم على السيطرة في البداية على وسائل تشكيل الوعي، من وسائل إعلام متنوِّعة، فعمدوا إلى كتم أي صوت منادٍ بالعودة إلى التراث الإسلامي، أو تشويه صورته، وأعطوا الفرصة لأصحاب الميول الحداثيَّة من الشباب إلى البروز إلى السطح ولفت الأنظار. أُفسح المجال أمام الرموز الفكريَّة المُلحدة، واستُقدم بعضهم من الخارج للمشاركة في الندوات، والهدف الأساسي هو تشجيع النَّاس على نبذ تراثهم الديني العريق. هكذا، أصبحت أعمال دعاة الحداثة الخارجة عن أصول الدين، مثالًا للارتقاء الفكري، الموائم لعصر التقنيات الحديثة، وأصبح المخالفون لفِكر هؤلاء على الهامش، ولنا في حالة الدكتور عوض القرني خير مثال، فهو مُعتقل حاليًا منذ سبتمبر من عام ٢٠١٧ ميلاديًّا، ومُطالب بإعدامه من قِبل النيابة السعوديَّة.

٢.مواقف المفكرين الإسلاميِّين المعاصرين من الحضارة الغربيَّة وحداثتها

بعد تحديد أهم ملامح الحداثة، وأصلها، والعقيدة التي تنبني عليها، يستعرض هذا القسم آراء أربعة من المفكِّرين المعاصرين عن الحداثة، نوعيَّة التحدِّي الذي تشكِّله في مواجهة الإسلام، وهم الدكتور عبد المجيد الشرفي، أستاذ الفكر والحضارة الإسلاميَّة في جامعة تونس، والشيخ سفر الحوالي، أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة أم القرى سابقًا، والدكتور فضل الرحمن، أستاذ الفلسفة الإسلاميَّة في جامعة شيكاغو الأمريكيَّة، ورجب شانتورك، أستاذ علم الاجتماع الديني، ورئيس جامعة ابن خلدون التركيَّة.

موقف عبد المجيد الشرفي من الحداثة الغربيَّة في كتاب الإسلام والحداثة (١٩٩١)

يبدأ الشرفي في مقدِّمته كتابه بطرح سؤال محوري: ما هو الإسلام؟ والردُّ هو أن تشهد بألَّا إلهَ إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، ويتبع ذلك الإيمان بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح. والإسلام ينتمي إلى ما يُعرف بـ "ديانات الوحي النبوي"، في مقابل "الديانات الصوفيَّة". ويُلاحظ أنَّ نسبة كبيرة من المسلمين تعيش خارج محيط مهبط الوحي في جزيرة العرب، أو في البلدان المحيطة جغرافيًّا، فيما يُعرف بالمشرق الإسلامي. فالنسبة الأكبر للمسلمين في شرق آسيا.

ومفهوم الإسلام له ثلاثة مستويات لا ينبغي الخلط بينها: المستوى الأوَّل يتعلَّق بالقيم التي وردت في القرآن الكريم، من صدق وإخلاق وكفِّ الأذى عن الناس ونُصرة الضعيف، وغير ذلك من القيم الإيجابيَّة. ولم يذكر القرآن الكريم تلك القيم بصورة مجرَّدة، إنَّما تضمَّنتها قصصٌ تُكتسب منها العبرات. أمَّا المستوى الثاني، فهو الممارسة التاريخيَّة، ويُقصد بذلك الوضع التأويلي الذي يعيشه المسلمون منذ انقطاع الوحي الإلهي، حيث اعتمدوا على آيات القرآن في استنباط الأحكام المُثل لتكوين مؤسسات لتطبيق الدين في المسائل الحياتيَّة. وأمَّا المستوى الثالث، فهو البُعد الفردي في التعامل مع صحيح الدين؛ فعمليَّة "الاستبطان للقيم والمبادئ الإسلاميَّة تتأثَّر بالشخصيَّة الأساسيَّة والشخصيَّة الفرديَّة معًا"، مما يستوجب خضوع مظاهر التديُّن الفرديَّة إلى الدراسة لتبيان كيف تعامَل معتنقو الإسلام مع النصوص الدينيَّة (ص١٩-٢٠).

بسبب عدَّة عوامل تتعلَّق بالممارسة التاريخيَّة للدين الإسلامي، يرى الكاتب أنَّ نقد تلك الممارسة للإسلام، وليس الدين ذاته، ليس مُحرَّمًا. ومن أهم تلك العوامل العقائد التي أُدخلت على صحيح رسالة النبي مُحمَّدٍ (ﷺ)، عليه بفعل دخول الإسلام في بلدان خارج جزيرة العرب، وإضافة المسلمين الجدد مفاهيم استمدُّوها من عقائدهم الوثنيَّة. ومن تلك العوامل كذلك استغلال السلطة الدِّين في إكساب حُكمهم الشرعيَّة، بإيعازهم إلى المشايخ بتحليل ما يتَّفق مع سياساتهم وتحريم ما يتعارض معها، مما أسفر عن إحاطة الإسلام بهالة من المفاهيم المغلوطة هزَّت صورته في أعين المسلمين. غير أنَّ العامل الأشدَّ

تأثيرًا هو أنَّ السُّنَّة الإسلاميَّة الثقافيَّة لم تتغيَّر على مرِّ العصور إلَّا بعد ظهور الثورة الصناعيَّة الأوروبيَّة، وما ارتبط بها تقدُّم تقني مذهل أعاد تشكيل الوعي المعرفي بعد إثارة الشكوك بشأن النمط المعهود. المقصود بذلك هو ظهور تساؤل مفاده: كيف تدَّعي أمَّة الإسلام أنَّها "خير أمَّة أُخرجت للناس"، التي أوَّل آياتها كتابها السماوي "اقرأ"، وتبقى في ذيل الأمم من حيث التطوُّر التقني، بل وتعاني من تدهوُر اقتصادي يدفعها إلى الاقتراض من الدول العظمى–من الناحية الماديَّة–ويجعلها تحت رحمة أمم "كافرة"، وفق الوصف القرآني لها؟

نأتي إلى مصطلح الحداثة، والذي يشير إلى مُنجزات البلدان المتقدِّمة تقنيًّا والمُحرِزة لنتاجات ماديَّة راقية، غيَّرت من حياة البشر، وأجبرتهم على تطويع سلوكيَّاتهم الحياتيَّة باستحداث طرق سهَّلت التعامل مع مختلف الشؤون الحياتيَّة، وإن كان–بلا أدنى شكٍّ– لتلك النتاجات الماديَّة تأثيرات سلبيَّة، ربَّما لا تقلُّ شدَّةً عن تأثيراتها الإيجابيَّة، بل وقد تتجاوز شرورُها خيراتَها بكثير في حالة إساءة استغلالها.

أهم ما يميِّز المجتمعات الحديثة عن غيرها قدرتها على الابتكار والتغيير، وإتاحة سُبُل الإبداع، بل وتشجيع المواهب الناشئة في المجال المجزية ماديًّا، مما يجعلها تتَّسم بالانفتاح والحريَّة وتعدُّد إمكانات تحقيق الثروات. غير أنَّ في سبيل تحقيق تلك الميزات، كان على المجتمعات الحديثة، كي توفِّر الحريَّة لمواطنيها، أن تتحرَّر هي من ربقة السُلطة الدينيَّة، ما استتبع تخلِّيها عن العديد من القيم المرتبطة بالدين، وتطبيقها مفاهيم تُعرف بها الأمم الملحدة. لو تأمَّلنا مفاهيم الحداثة في المجتمع الغربي، لوجدناها أصبحت بديلًا عن قيم الدين، برغم أنَّ الغرب يطبِّق العلمانيَّة، ولم ينبذ الدين على الإطلاق، إنَّما اكتفى بحصره في دور العبادة. أمَّا عن الثقافة السائدة في تلك المجتمعات، فهي متعدِّدة الأوجه؛ بسبب اجتماع أشخاص من مختلف الجنسيَّات، يجمع هدف تحقيق المكسب المادي والتقدُّم الحداثي. ومن الملفت أنَّ تلك المجتمعات تعتبر في التعدديّة الثقافيَّة ثراءً، وليس سببًا في التفكُّك.

ويرى الكاتب أنَّ الحداثة في الغرب "تفرز...حداثةً مضادةً، أي نمطًا من الاعتراض غير الثوري على الحضارة الصناعيَّة؛ **لما تجرُّه من ضياع ومن عنف ومن أنانية مفرطة، بل ومن عبوديَّة مقنَّعة، و، بصفة عامَّة، من أضرار جسيمة تشمل الثقافة والطبيعة في آن واحد**" (ص٢٨). أمَّا السمة الأساسيَّة للحداثة الغربيَّة، فهي تشكيلها نمطًا حضاريًّا يختلف عمَّا عُرف في السابق، **وقوامه العقلانيَّة**. لجأ الغرب إلى "**عقلنة**" سائر ميادين المعرفة، اعتمادًا على فلسفات حركة التنوير الأوروبيَّة، محقِّقةً بذلك الطفرة التقنيَّة التي صنعت ثروتها الماديَّة، وأوصلتها إلى السيطرة على سائر الأمم (ص٢٩).

لم ينفر علماء الإسلام من التحديث والإصلاح، **بل إنَّ الوهابيَّة-أحدث حركات الإصلاح الديني في العصر الحديث والمعاصرة لحرة التنوير الأوروبيَّة-ما هي إلَّا امتداد لحركة التحديث التي بدأها شيخ الإسلام ابن تيمية في القرن الرابع عشر الميلادي. لم تُعنى الوهَّابيَّة بالفلسفة العقلانيَّة التي دعت إليها أوروبا**؛ لما يرتبط بها من شكٍّ في كافَّة ثوابت الدين، وعلى رأسها مفهوم الألوهيَّة ذاته، وفتحها المجال أمام الإيمان بعظمة الإنسان وبقدرته على تحقيق منجزات يغيِّر بها وجه التاريخ، مما يستتبع استغناءه عن القدرات الخارجيَّة، بما فيها القدرات الإلهيَّة. أرادت الوهَّابيَّة استنساخ عصر النبوَّة والخلافة الراشدة، واتِّباع القيم المُطبَّقة في ذلك الزمن، بينما دعت العقلانيَّة إلى التحرُّر من قيود الدين، وإطلاق العنان للروح الإبداعيَّة، لكي تحقِّق ما أرادت، ولا يردعها عن ذلك قيم ولا مبادئ؛ ولعلَّ في هذا السلوك ما يفسِّر وصف الكاتب استتباع الحداثة نمطًا من الحداثة المضادَّة؛ "**لما تجرُّه من ضياع ومن عنف ومن أنانية مفرطة، بل ومن عبوديَّة مقنَّعة**" (ص٢٨).

يعتبر المؤرِّخون أنَّ بداية معرفة المسلمين العرب للحداثة كان مع قدوم الحملة الفرنسيَّة إلى مصر والشام عام ١٧٩٩ ميلاديًّا؛ إذ جاءت الحملة بأنماط جديدة للحضارة، من حيث المعدَّات الحربيَّة والعلوم والنظم الاقتصاديَّة. لم يكن هناك حجر عثرة في سبيل تحقيق الحملة أهدافها الحقيقيَّة، وهي نشر الفكر التنويري وإشراك العالم الإسلامي في عمليَّة الحداثة، على اعتبار أنَّ أيَّ تقاعُس عن ذلك تأخُّر ورجعيَّة، سوى الإسلام.

فالحملة الفرنسيَّة لم تجد مقاومةً شعبية همجيَّة، بل وجدت مقاومة أساسها خطاب ديني مستنير حرَّم الخضوع إلى المحتل وتبنِّي أيِّ قيم تتعارض مع صحيح الإسلام. وفي هذا يقول الكاتب "لقد مثَّل الإسلام عنصر مقاومة للحداثة؛ لأنَّ كلَّ تغيير يطرأ على بنية المجتمع يبدو وكأنَّه تنكُّر للإسلام؛ إذ أنَّ الدين كان يطبع على كلِّ مجالات الحياة وجميع المؤسسات...ومن الطبيعي أن يقاوم عمليَّة التهميش الذي تستهدفه...ولأنَّ الدين كان متغلغلًا في المجتمع، فإنَّ أيَّ محاولة لإنقاذ هذا المجتمع بدت مستعصية، ما لم تستغل الدين لهذا الغرض" (ص٣١).

كيف يطرح الشيخ سفر الحوالي أزمة العالم الإسلامي مع الغرب؟

يقدِّم الشيخ سفر الحوالي كتابه الموسوعي **المسلمون والحضارة الغربيَّة (٢٠١٨)** بوصفه "رؤية جديدة للعالم أو نظارة جديدة، ننظر بها إلى أنفسنا، وإلى الحضارة الند"، قاصدًا الحضارة الغربيَّة (ص٥). أعدَّ الحوالي هذا الكتاب في ضوء دراسة عميقة وطويلة للحضارات الإنسانيَّة، في ضوء القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة، وبعد الاطِّلاع على الفكر الديني غير الإسلامي، وكذلك على العقائد المكوِّنة للفكر الغربي. يحكي الشيخ سفر الحوالي–الداعية الإسلامي المُقال من منصب رئيس قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة أم القرى السعوديَّة–عن العقبات التي واجهت نشر الكتاب، ومنها إجباره على النشر بغير اسمه لإجازة نشره، وتعذُّر إيجاد التكلفة المطلوبة للنشر؛ بسبب منع معاش تقاعُده، الذي كان في الأصل أقل مما يستحق، على حدِّ وصفه. أضف إلى ذلك أنَّ الشيخ يعاني من مشكلات صحيَّة مزمنة، منها إصابته بنزيف دماغي، وكسر في الحوض.

يعرِّف الحوالي نفسه وهدفه في مقدِّمة الكتاب، قائلًا "**وأنا لست عدوًا إلا للباطل أينما كان، وصديقًا إلَّا للحق أينما كان**، وهذه الأمة المحمدية المباركة هي أمة العدل والحق لا نظلم من ظلمنا ولا نفتري على من افترى علينا، ولا نغدر بمن غدر بنا، ولا نجحد فضائل من جحد فضائلنا، وليس ذلك سياسة براجماتيَّة منا ولا جلبا للمصلحة ودرأ للمفسدة، بل هذا أمرنا ديننا ونص عليه ربنا" (ص٨). أمَّا عن دوافع تأليف الكتاب، فهي

شعور الشيخ بضرورة الكشف عن عداوة الغرب للإسلام، المتأصِّلة في عقائده الدينيَّة، والتي تتجلَّى في: انحيازه الدائم للكيان الصهيوني، وسعيه إلى محاربة كلِّ نموذج للنمو الاقتصادي يخرج عن دائرته (يضرب المثل في ذلك بتدبير انقلاب عسكري في تركيا عام ٢٠١٦)، وخلقه عدوًّا من صُنعه أسماه "التطرُّف الإسلامي"، لا يهدف إلَّا لتشويه صورة المسلمين، وإشغالهم به عن عوامل النهضة. ومن تجلِّيات محاربة التطرُّف الديني الذي يُرمى به الإسلام، الهجوم على الصحوة الدينيَّة في "بلاد الحرمين"، ويرى الحوالي في ذلك انتقال من العلمانيَّة اللادينيَّة–فصل الدين عن تدبير شؤون الدولة–إلى العلمانيَّة المحاربة للإسلام (ص٩). ولا يجد الشيخ سبيلًا لمواجهة ذلك إلَّا من خلال "الصدع بالحقِّ، والنُّصح للخلق، والصبر على الأذى، وبيع النفس لله، واتِّباع الرسول، ولزوم العدل" (ص١١-١٢).

ينتقد الحوالي مطالبة البعض من دعاة التمدُّن والتحديث باعتناق الثقافة الغربيَّة واتِّباع سُبل نهضته، بما فيها من مفاهيم تعارِض صحيح الإسلام، مشيرًا إلى أنَّ "الغرب آخذ في الانحدار"، ولا عزاء حينها لهؤلاء الدعاة، ممن يهاجمون ثوابت الدين ويرونها سببًا في التخلُّف (ص١٢). في حين لا يرى دعاة التحديث هؤلاء عيبًا في استعباد الآلة للإنسان، وخضوعه لسلطان الذكاء الاصطناعي. ويشير أستاذ العقيدة إلى معاناة شيوخ الإسلام منذ أمدٍ بعيد في سبيل إحقاق الحقِّ، وعدم تلويث صحيح الرسالة السماويَّة بعقائد وضعيَّة، مستمدَّة من الفكر الوثني المعادي للإسلام، ضاربًا المثل بالأئمة أحمد بن حنبل، وابن تيمية، والشيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب–مؤسس ما يُعرف بالفكر الوهَّابي. وتلخِّص هاتين الآيتين في سورة النساء الصراع الأزلي بين اتِّباع هوى النفس والالتزام بأوامر الله، الذي لم يرسل الأنبياء إلَّا لهداية الناس وتنظيم حياتهم وفق ما يتناسب مع طبيعتهم البشريَّة "وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)". أليس خالق الإنسان بأعلم بما ينفعه وما يضرُّه؟ هل الحضارة الوضعيَّة أنفع من الشريعة الإلهيَّة، المنظِّمة لحياة البشر وفق فطرتهم؟

يعرِّف الشيخ سفر الحوالي الحضارة وفق المنظور الإسلامي بأنَّها " وفي ظل الإسلام تقوم الحضارة المستقيمة التي كتابها هو القرآن، وليس "سفر التكوين" و"أصل الأنواع"، ورسولها مُحمَّد (ﷺ)، ليس "هيجل" و "نيتشه"، ومرجعها هو ما صح من الحديث وليس "مقال في المنهج". وهي الحضارة التي تنشئ الإنسان الحر وليست الحضارة التي تجعل الإنسان عبدا آليًّا، أو رقيقًا للمادة الصماء، أو إنسانًا عدميًّا لا هم له إلا الاستهلاك، واقتناص اللذة والانهماك في الشهوات. وهي الحضارة التي تجعل العلم محكوما بالعدل والأمانة، وليس منفلتًا يتفنن في إنتاج وسائل الدمار، وإبادة المستضعفين. وهي حضارة تعتقد أن المال مال الله، وإنَّما نحن البشر مستخلفون فيه؛ بل إنَّ الوجود الإنساني كله على هذه الأرض إنما هو استخلاف وابتلاء لنا معشر البشر؛ فإمَّا أن نقوم بحق الاستخلاف كما أمر الله، وإمَّا أن نفسد في الأرض ونهلك الحرث والنسل كما يريد منا الشيطان" (ص٣٥).

يعي الحوالي أنَّ الغرب غيَّر خطَّة الهجوم المباشر على الإسلام، معتمدًا خطَّة جديدة تقوم على الطعن في ثوابت الدين، بحجَّة عدم توافقها مع مفردات الحضارة والمدنيَّة الحديثة؛ فتغاضى الغرب بذلك عن وجود مرجعيَّة دينيَّة، ولكن مع اشتراط عدم قيام دولة إسلاميَّة تحتكم إلى الشريعة. يتبنَّى الغرب سياسة طويلة الأمد، تنتظر هلاك الجيل المتديِّن من المسلمين، وتعدُّ جيلًا من المغيَّبين عن صحيح دينهم، اعتقادًا أنَّها بذلك ستقضي على الإسلام بالكليَّة، ويستشهد الحوالي في ذلك بقول الله تعالى عن مشركي قريش، في الآية ٣٠ من سورة الطور، "شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ" لمَّا اقترحوا ترك النبي ماضيًا في دعوته حتَّى يُقضى عليه الموت؛ فتنتهي دعوته معه.

انتقل الغرب، وفق تعبير الحوالي، من "**الاستنارة المضيئة إلى الاستنارة المظلمة**"، معيدًا النظر في الآراء الفكريَّة لأساطين التنوير، روسو، وديكارت، ومونتسكيو، وفولتير، خاصَّة بعد فشل الماركسيَّة في تحقيق هدفها الأساسي، وهو نشر العدالة بين البشر. اعتنق الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة منذ نشأتها الرأسماليَّة، التي لم تكن سوى شكل جديد من الإقطاع، **لكنَّها رأته سبيل تحقيق الثروة من خلال إتاحة المجال لكلِّ صاحب عمل**

لكي ينتج ويفيد المجتمع، وفق سياسة عدم التدخُّل المعروفة بـ Laissez–faire، أو دعه يعمل، بما يضمن الازدهار الاقتصادي، على حساب أيِّ اعتبارات. ورثت أمريكا زعامة الرأسماليَّة العالميَّة، وأصبح الاقتصاد الأقوى في العالم، منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، مستندةً إلى الداروينيَّة الاجتماعيَّة، ومفهوم البقاء للأقوى، في تأسيس حضارتها.

تُعرَّف الحضارة بأنَّها مضادُّ البداوة، وإن كان المفهوم الذي تشير إليه هو المدنيَّة، أي كلُّ جهد يُبذل في سبيل تحسين الأوضاع الإنسانيَّة، في الدنيا والآخرة، أو في أحداهما. عرف الإنسان الحضارة منذ خُلق آدم–عليه وعلى سائر أنبياء الله ورُسُله أزكى الصلوات وأتم التسليم–في رأي الحوالي؛ إذ علَّمه الله تعالى "الأسماء كلَّها"، وهذه "بلا شكٍّ حضارة فكريَّة" (ص٧٦). سُخِّر الكون لخدمة آدم، وقد أخبرتنا السُّنَّة النبويَّة أنِّ أبَّ البشر قد بنى بيتًا الله الحرام، أي الكعبة، وبعده المسجد الأقصى، مما يعني أنَّه عرف التمدُّن والتحضُّر منذ أُهبط من الجنَّة إلى الأرض. وأخبرنا القرآن الكريم أنَّ نوحًا قد صَنع الفُلْكَ، بوحي من الله وعون من الملائكة؛ فالآية ٣٧ من سورة هود تقول "وَاصنَعِ الفُلْكَ بِأَعيُنِنا وَوَحيِنا وَلا تُخاطِبني فِي الَّذينَ ظَلَموا إِنَّهُم مُغرَقونَ"، وكانت تلك السفينة من خشب ومسامير؛ إذ تقول الآية ١٣ من سورة القمر "وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ"، مما يعني أنَّ في زمن نوحٍ توافرت معدَّات بناء السفينة، بمفهوم اليوم.

ميزات الحضارة الإسلاميَّة في رأي الحوالي

يستعرض الحوالي أهم ميزات الحضارة الإسلاميَّة، ويبدأها بأنَّها حضارة قوامها "البرهان واليقين"، وعمادها الحجَّة الداحضة لأيِّ تشكيك مبني على جهل بصحيح الرسالة السماويَّة (ص١٤٤). هرب الغربيُّون من "خرافات الكنيسة وضلالاتها"، وأصبح منهم "الشيوعي والوجودي والعبثي والسريالي والفوضوي"، واستندوا إلى مفاهيم "الحريَّة والديمقراطيَّة والعقلانيَّة، وغير ذلك من المبادئ والنظريات؛ **ليحتموا بها من العقائد الكنسية**، لا لأنَّها نتيجة تفكير هادئ متزن" (ص١٤٤). يضيف أستاذ العقيدة أنَّ حفظ الله تعالى للقرآن الكريم لم يدع مجالًا لتحريف الرسالة التي جاء بها خاتم النبيِّين، "**فليس**

في الإسلام –والله الحمد–توراة أو أناجيل مجهولة المترجم، ليحكم في ثبوتها الكهنوت، فضلا عن كون أناجيلهم الرسمية متناقضة ونسخ التوراة مختلفة" (ص١٤٥). وقد تعرّض الله تعالى في قرآنه إلى اعتياد فريق من أهل الكتاب تزييف الحق وكتمان الوحي وتأويل كلام الله، بحسب ما يحقق مصالحهم الدنيويَّة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى "فَوَيْلٌ **لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ " (سورة البقرة: آية ٧٩). أسَّس اليهود، في رأي الحوالي، ما يُعرف بالتأويل الباطني، الذي "تبعه عليهم المعتزلة والأشعريَّة، ثم بالغ فيه الباطنيَّة كثيرًا"، إلى أن ظهر في العصر الحديث ما يُعرف بالهرمنيوطيقا–Hermeneutics (ص١٤٦). وقد ردَّ الله تعالى على بدعة التأويل ببيان الحقِّ في الآية ٧ من سورة آل عمران "فَأَمَّا **الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ **تَأْوِيلِهِ** وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ".

ثاني ميزة للحضارة الإسلاميَّة يذكرها الشيخ سفر الحوالي هي أنَّها "حضارة توحيديَّة"، مشيرًا إلى أنَّ العقائد الوثنيَّة كافَّة تقوم على ظاهرة التثليث، وهو ما سبقت الإشارة إليه بالتفصيل في دراسات سابقة، عن عقيدة المسيَّا المخلِّص، وعن القبَّالة وعقيدة بابل السريَّة. أمَّا الميزة الثالثة، فهي "ربَّانيَّة التشريع"، ويقصد بذلك الآراء الفقهيَّة التي تتضمَّنها المصادر الإلهيَّة للإسلام، أي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، والتي تفصل في الأمور الحياتيَّة، "**مع إتاحة الفرصة الكاملة للاختلاف والاجتهادات ووجهات النظر، في حدود القواعد الشرعيَّة والأصول الكليَّة، ومع المرونة الكاملة في التطبيق ومراعاة المصالح والمفاسد وتغييرها بحسب أحوال الأمة**" (ص١٥٣). وقد سبقت الإشارة بالتفصيل إلى تشابُه العقيدة المسيحيَّة في أُسسها مع العقائد الإغريقيَّة الوثنيَّة في الدراسة السابقة عن وسائل التبشير والاستشراق. وينتقل الحوالي إلى الميزة الرابعة للحضارة الإسلاميَّة، وهي اتخَّاذها معيارًا للقوَّة يختلف بالكليَّة عن معايير القوَّة للحضارات الأخرى، وهو اعتبار أنَّ القوَّة الحقيقيَّة للمسلم في التقوى، وأنَّ البقاء للأتقى، وليس للأقوى،

مصداقًا لقوله تعالى "تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**" (سورة القصص: آية ٨٣). وصدق رسولنا الكريم، فيما رواه عنه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّه–(ﷺ)–قَالَ "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ". نفهم من ذلك أنَّ معيار القوَّة ليس الشدَّة والقسوة والغلبة في صراع الأيدي، إنَّما في صراع النفس مع إغواء الشيطان؛ ولو طبَّقنا هذا على صراع المسلمين مع الغرب، لوجدنا أنَّ وعد الله تعالى بالنصر والغلبة لا يتحقَّق إلَّا بعد أن يُنفَّذ شرط وضعه الله تعالى قبل نصر المؤمنين، وهو **التقوى**؛ وصدق تعالى إذ قال في الآية ١٢٨ من سورة الأعراف "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**". ويقول الحوالي "ليست ريادة العالم هي التفوق الصناعي وإنتاج الأسلحة المسماة (ذكيَّة) أو بيولوجيَّة، ولا بالتقدم المادي والرقي العمراني، **وإنَّما الريادة والإمامة بالصبر واليقين**" (ص١٦١).

تتمثَّل الميزة الخامسة للحضارة الإسلاميَّة أنَّها غير عرقيَّة، وليست لأمَّة دون سواها، ولا تدَّعي لأصحابها التميُّز، إلَّا بمعيار واحد، وهو التقوى، كما سبقت الإشارة. وقد رُوي عن رسولنا الكريم (ﷺ)، أنَّه قال في خطبة الوداع "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**". ويأتي قول الرسول هذا مصدِّقًا لما قاله ربُّه في الآية ١٣ من سورة الحجرات "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**".

مُحمَّد (ﷺ) هو رسول للبشر أجمعين، كما أخبرنا الله تعالى في الآية ٢٨ من سورة سبأ "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"، ولم يأتِ لإصلاح الاعوجاج الديني والفساد العقائدي لأمَّة بعينها، كما أُرسل نبي الله عيسى بن مريم إلى بني إسرائيل، حينما انحرفوا عن جادَّة الحق، واتَّبعوا أهواءهم، كما قال تعالى في الآيتين(٤٩–٥٠) من سورة آل عمران "**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ** أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ

الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**". لا شكَّ في أنَّ من موجبات تقوى الله إقامة العدل بين الناس، وهذه هي الميزة السادسة التي يحدِّدها الشيخ للحضارة الإسلاميَّة، "وأعظم العدل إنَّما يكون بالحكم بين الناس وفق كتاب الله قال تعالى" (ص١٧٠). لا عدل في ظلِّ اتباع سياسة مزدوجة المعايير في التعامل مع البشر، "وأكبر المطففين في عالمنا المعاصر هم **الأمريكان، الذين يكيلون للفلسطينيين بمكيال ولليهود بمكيال آخر، ويشترون برميل النفط برخص ويصنعون منه أنواعا لا حصر لها يبيعونها على الدول النفطية نفسها بأضعاف مضاعفة**" (ص١٧١).

يعدِّد الحوالي الميزات الأخرى للحضارة الإسلاميَّة، ومن بينها التنوُّع في مظاهر التحضُّر وطلب العلم، والتسامح الديني مع الأمم غير المؤمنة وإتاحة التعدُّديَّة الدينيَّة من مبدأ "لا إكراه في الدين"، والعفو الإحسان؛ والمساواة بين العباد بلا تفرقة عنصريَّة؛ واحترام حقوق الأمم الأخرى في السلم والحرب والوفاء بالالتزامات تجاهها؛ والأسبقيَّة إلى العلوم والمعارف التي استفادت منها الحضارة الغربيَّة في تأسيس دعائم نهضتها؛ وإحلال الطيِّبات وتحريم الخبائث، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتعاليم الإسلام تنهى عن الترف والبطر وكُفر النعمة وإباحة الإفساد في الأرض بهدف تحقيق أهداف خاصَّة، وكذلك تجرِّم الحريَّة الشخصيَّة بما يتعدَّى على حدود الله، والممارسات الاقتصاديَّة المضرَّة بالآخرين، علاوة على موالاة الكفَّار ومحاباتهم على حساب المسلمين.

يضيف الحوالي إلى ميزات الحضارة الإسلاميَّة التيسير، مصداقًا لقوله تعالى في الآية ٢٨٦ من سورة البقرة "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ"، وفي الآية ١٥٧ من سورة الأعراف "وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"، والآية ٧٨ من سورة الحجِّ "مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ". ويضرب الشيخ المثل بحرمان اليهود أنفسهم مما أحلَّه الله تعالى لهم، إذا ما اعتنقوا الإسلام، في استمرارهم في " ترك مباشرة المرأة الحائض، فلا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يساكنونها، وأن يوم السبت

لا يعملون فيه شيئًا حتى ركوب السيارة أو الطائرة، وهذا يشمل رؤساء الجمهورية ووزراء الدفاع، وأنَّ السنة السابعة لا يزرعون فيها ويسمونها سنة التبوير، وأنَّ البول إذا وقع على ملابس أحدهم قصصها" (ص٢٣٧).

يشدِّد الحوالي على أهميَّة اتِّباع الشريعة الإسلاميَّة، المنزَّلة من الله تعالى لعباده لهدايتهم، وليس للتضييق عليهم، وفي ذلك يقول "**وكل من خالف هذه الشريعة لا بدأن يقع في الجهل والنقص والشرك**؛ ولذلك ينبغي للناس أن يتسع لديهم مفهوم الدين، ومفهوم العقيدة، ومفهوم الإيمان، ومفهوم الربوبية، ومفهوم الطاغوت، ومفهوم الجاهلية، ومفهوم العبادة، ومفهوم الطاعة، ومفهوم الشرك، ومفهوم التوحيد، ومفهوم السنة، ومفهوم البدعة، ومفهوم المعروف، ومفهوم المنكر، ومفهوم النظافة، ومفهوم السلامة، وأمثال ذلك مما اعتراه الغبش أو العدم، وتغير معناه خلال القرون" (ص٢٤٢). وعلى النقيض من ذلك، نجد أنَّ الحضارة الغربية "**تتخذ الهوى البشري إلهًا تعبده باسم الحريَّة، أو الحقوق الإنسانيَّة، أو الحقوق الطبيعيَّة**" (ص٢٤٣). وقد روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير من طرق، عن عدي بن حاتم-رضي الله عنه-الذي كان قد تنصَّر في الجاهليَّة، أنَّه لمَّا سمع بقول الله تعالى في الآية ٣١ من سورة التوبة "**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**"، أتي إلى المدينة المنوَّرة لمقابلة النبي، وأبدى اعتراضه على ما تقول الآية الكريمة؛ فعارضه النبي، قائلًا "إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، **فذلك عبادتهم إياهم**". يشير قول النبي إلى أنَّ اتباع أهل الفسق، الحائدين عن شرع الله، يهدي إلى الشرك بالله تعالى، وفي هذا يقول الحوالي "فلا يكون العبد مائلا عن الشرك وشاهدا ألا إله إلا الله حقا إلا بخلع كل الأنداد والطواغيت والمعبودات من دون الله قديمها وحديثها، وفي أي صورة أو مظهر، **وإن لم يفعل ذلك فهو عابد للشيطان**" (ص٢٤٦).

وعن التعاملات البنكيَّة وفق معايير الحداثة، يقول الحوالي (ص٢٥٣-٢٥٤)

وعبّاد الشيطان اليوم يستحلون الربا باسم الفائدة البنكية، ويجعلون البنوك الربوية في كل شارع، وإذا قلت لهم هذا حرام وحرب لله ورسوله قالوا: (الدولة رخصت به والإثم على مؤسسة النقد، وعلى العلماء الذين يرون البنوك الربوية ويسكتون، ولو كانت حراما لما سكتوا عنها وعمن أقرها، والقروض الربوية أصبحت ضرورة اقتصادية)، أو قالوا كما قال الأولون: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]، أو كلا الطرفين راضٍ، وكأنه لا زنا إلا في الغصب.

ولما قبض الناس أيديهم عن الإحسان والصدقة أوقعوا المستهلك المسكين بين نارين، فإما أن يقترض بالربا، وإما أن يشتري بالتقسيط، فيدفع أضعاف الربا، والحكومات ساكتة أو راضية أو مؤيدة.

وصندوق النقد الدولي لا يرى في ذلك حرجا، بل يراه تحضرا وتطورا ودليلا على التقدم الاقتصادي!!

وهكذا انغمس الناس في الربا، ولكن الله يمحقه كما قال، فيعيش الناس كما نرى اليوم في أزمات وانهيارات وانخفاضات في قيمة العملة، وتقلبات في الأسعار، ويتلاعب كبار المحتكرين والشركات التطفيفية بالأسهم والبورصات والفائدة وأسعار النفط، ويدور الخبراء الاقتصاديون في حلقة

مفرغة لا نهاية لها، وكما عبد الناس الدرهم والدينار قديما عبدوا الدولار حديثا، وقد قال ﷺ: (تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار...) الحديث.

أما من ينهى عن الربا فهو عندهم متطرف أو إرهابي، يريد إرجاع المتقدمين إلى الوراء كما يزعمون.

فهم يقولون كما قالت عاد عن دعوة هود عليه السلام: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٣٧]، أو كما قال مشركو قريش: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان:٥].

ويعتبر الشيخ سفر الحوالي أنَّ من ميزات الحضارة الإسلاميَّة كذلك أنَّ "العبادات فيها تقوم مقام المحسوسات"، أي تؤدِّي أيَّ غرض من الممكن أن يؤدِّيه الإنسان بجهد شخصي. ويضرب الحوالي في ذلك المثل بنُصح النبيِّ فاطمةَ الزهراء وعليًّا، لمَّا طلبت فاطمة خادمًا، بتكرار قول سبحان الله والحمد لله والله أكبر (ص٢٥٦).

صحيح العقيدة الإسلاميَّة ونشأة فِكر المعتزلة

يستعرض الحوالي العقيدة الإسلاميَّة، التي تكوَّنت مع تنزُّل الوحي الإلهي على خاتم المرسلين، الذي بعثه الله تعالى في زمن "جاهليَّة جهلاء وظلام مطبق"، اعتاد فيه الناس على عبادة الأوثان، دون أن يخرج من بينهم من ينهاهم عن فعلهم، أو حتَّى يستنكره عليهم، برغم وجود الفلاسفة والشعراء وأصحاب الرأي السديد؛ وقامت عقيدتهم في الحياة الدنيا على الحكمة القائلة "أرحام تدفع وأرض تبلع"، وهذا ما ينفيه الله تعالى في الآية ٢٤ من سورة الجاثية "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ **وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**" (ص٣٠٤). ومع كلِّ ذلك، اختلف رسولنا وحبيبنا

مُحمَّد (ﷺ) عن قومه في الفكر الديني، الذي كان حنيفًا، على ملَّة أبيه إبراهيم، ولم يشارك قومه في عبادة الأصنام منذ صباه، وتشهد بذلك قصَّته مع الراهب بحيرى، حينما قال له النبي أنَّ أصنام قريش أبعض شيء لديه، لمَّا سأله الراهب عنها. ومن المثير للاهتمام أنَّ من قريش من لم يعبد أصنامها قبل البعثة النبويَّة، مثل نبيِّنا مُحمَّد (ﷺ)، مثل زيد بن عمرو بن نفيل، الذي قُتل خلال رحلة بحثه عن صحيح رسالة السماء، ولم يكن يعرف أنَّ مُحمَّدًا بن عبد اللاه، القرشي الصالح، هو نبي آخر الزمان، الذي كان يُترقَّب ظهوره في مكَّة حينها.

سادت في العرب في الجاهليَّة محاسن الأخلاق، من شهامة، وكرم، وحفظ للمحارم؛ ولكن سادت فيهم كذلك العديد من الموبقات، من زنا، وشُرب للخمر، واستعباد للناس، وشرك لله تعالى. غير أنَّهم، على شركهم، لم يؤمنوا بالفلسفات الإغريقيَّة، المروِّجة لمفهوم للألوهيَّة شديد الاختلاف عن صحيح الرسالة السماويَّة، بل كانت حُجَّتهم في عبادة الأصنام "لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفى"، معترفين بوجود الله (سورة الزمر: آية ٣). جاء بيُّنا الكريم بالهدى ودين الحقِّ؛ فأظهره الله على الدين كلِّه، وصار إمام الموحِّدين، عابدي الله حقَّ العبادة إلى يومنا، وإلى قيام الساعة، وكان (ﷺ) "شديد الإنكار على البدعة وأهلها، ويحذر المسلمين منها" (ص٣٠٥). علَّم النبي الكريم صحابته صحيح الدين، وأمرهم بنشر رسالته؛ باعتباره خاتم المرسلين، ورسولًا للناس كافَّة، وأدَّى الصحابة الأمانة، وكان خير من أؤتمن. كان الصحابة، كما يصفهم الحوالي، "أئمة مجتهدين، يقولون ما يعتقدون أنه الحق، ويصدعون به، ولا يخافون في الله لومة لائم، ولا يمنعون أحدًا عن إبداء رأيه، ويتفقون على متابعة الكتاب والسنة قلّت رواية أحدهم أو كثرت، ولم يكن فيهم من يكذب على الله ورسوله مطلقًا، بل لا يعرفون الكذب على أحد من البشر مسلمًا أو كافرًا، والحكمة ضالتهم جميعا، وكانوا هداة مهتدين قليلي التكلف، وفي كلامهم القليل علوم نافعة كثيرة، وكان أحدهم جامعة متحركة" (ص٣٠٦).

استمر صحابة خاتم المرسلين على هذا النهج، لكنَّ الفتنة التي وأدها الرسول ما لبثت أن ظهرت، وإن تدثَّرت بثوب مخالفة الرأي، ومعارضة العقيدة، التي تركها الرسول. وفي

عهد الخليفة الرابع، عليٍّ بن أبي طالب، ظهرت فرقتان ضالَّتان، هما فرقة الزنادقة، متكوِّنة من غلاة الروافض، بزعامة عبد الله بن سبأ، وفرقة الخوارج، وهي فرقة من الغلاة المتطرِّفين، من أصحاب البدع في الدين، والرافضين لصحيح العقيدة، التي اتَّفق على مضمونها عامَّة الصحابة، وأُطلق عليهم "خوارج" لخروجهم عن صحيح العقيدة، وعن طاعة وليِّ أمرهم الإمام عليٍّ. ظهرت بعد ذلك فرقٌ ضالَّة أخرى، محسوبة على الإسلام، ولكن تخالفه في أُسسه العقائديَّة، ومن بينها القدريَّة والمعتزلة. يُعتبر واصل بن عطاء الغزَّال مؤسس فرقة المعتزلة، لمَّا اعتزل مجلس إمام أهل السُّنّة الحسن البصري بسبب خلاف على حُكم مرتكب الكبائر. واشتهرت هذه الفرقة بدعوتها إلى تقديم العقل على النقل، ورفضها الأحاديث النبويَّة التي تتعارض مع العقل. وهناك اعتقاد سائد بأنَّ فكر المعتزلة ظهر مع نهاية القرن الأول على بعثة النبي، واختلاط المسلمين–ممن لم يعاصروه–بأمم جديدة، وتأثُّرهم بفلسفاتها؛ فنشأت عقيدة المعتزلة تأثُّرًا بالمذهب العقلاني السائد في الثقافات غير الإسلاميَّة. ويصف أئمَّة أهل السُّنَّة هذا المذهب بالمنحرف عن صحيح العقيدة، الذي يزعزع ثوابت الدين، ويشكِّك في أصول العقيدة، وفق ما رآه الدكتور سهل بن رفَّاع العتيبي–أستاذ العقيدة الإسلاميَّة في جامعة الملك سعود–الذي يصف دعاة إحياء مذهب المعتزلة في الآونة الأخيرة بـ "من قلَّت بضاعتهم وثقافتهم من علم الكتاب والسُّنَّة، فوقعوا فريسة لهذا المنهج الخاطئ" المتسبب في تأخُّر الأمَّة الإسلاميَّة، وفق ما جاء في بحث المعنون **التيار العقلي لدى المعتزلة وأثره في حياة المسلمين المعاصرة (٢٠٠٦).** انشغل المعتزلة بالتجربة العمليَّة، وأفرزت اجتهاداتهم ما يُعرف بعلم الكلام، الذي " اشتمل هذا العلم على ضلالات كثيرة، منها قياس عالم الغيب على عالم الشهادة"، كما يرى الحوالي (ص٣٠٧).

اعتبر المعتزلة علماء السُّنَّة حجر عثرة في طريق نشرهم عقيدتهم الخارجة على صحيح عقيدة الإسلام، ويشير الشيخ سفر الحوالي إلى قول نُسب إلى المأمون–الخليفة العباسي، وثاني الخلفاء من أبناء هارون الرشيد، من زوجته الفارسيَّة مراجل، وتلميذ المعتزلي أبي الهزيل العلَّاف–بأنَّه لولا يزيد بن هارون، لأعلن "خلق القرآن". ويزيد بن هارون هو أحد

شيوخ الإمام أحمد بن حنبل، الذي تحمَّل الأذى الأكبر في محنة "خلق القرآن"، التي حدثت بسبب معارضة بن حنبل ادِّعاء المعتزلة أنَّ القرآن الكريم مخلوق من عند الله، وليس كلامه المنزَّل على النبي(ﷺ) وحيًا. إذا اعتبرنا صحَّة خلق القرآن، فهذا يعني أنَّه ليس أبديًّا، إنَّما هو خاضع للتطبيق العملي؛ بسبب الاستناد إلى العقل في تفسير نصوصه، مما يعني أنَّ المتعارض منها لا يستقيم الجمع بينه. كفَّر الإمام أحمد بن حنبل القائلين بخلق القرآن، ولم تنتهِ المحنة إلَّا في عهد الخليفة المتوكِّل بن المعتصم بن هارون الرشيد. وبرغم وأد تلك الفتنة في ذلك الحين، فإنَّ ذلك لم يمنع ظهور فتن أخرى، منبعها فلسفات الأمم الوثنيَّة، ومن أشهر الفرق الخارجة على صحيح العقيدة فرقتا بني بويه وبني عبيد، ويُعتبر الفارابي من أشهر فلاسفة تلك الفئة، وتخرَّج من مدرسته ابن سينا، العالم والفيلسوف والطبيب، الذي نشأ "عبيديًّا إسماعيليًّا، كما اعترف هو بذلك" (ص٣٠٩).

عاد بعض المعتزلة إلى السُّنَّة النبويَّة، ومن بينهم أبو الحسن الأشعري، والذي يُعتبر من أعلام أهل السُّنَّة، ويُنسب إليه المذهب الأشعري، لكنَّ هذا لم يمنع استمرار المعتزلة في الخروج ببدعهم، ومن بينها بدعة الرفض، وبدعة الباطنيَّة، وبدعة المتكلِّمين، وتطوَّر الأمر إلى حدِّ ظهور العمل بالتنجيم، إلى جانب الفلسفة. ويقول الحوالي عن حرص أصحاب المذهب الباطني على إخفاء انتمائهم العقدي "**وكلُّ من ألَّف في الفلسفة لا بد أن يؤلف في نصرة الشريعة لكي يسكت عنه عامة الناس، أو يدعي الجمع بينهما، أو يدعي أن تلك كفريات منسوبة إليه ولم يقلها، وهكذا أهل البدع والعلمنة مخذولون مرذولون قليلو الأتباع**، وصدق الإمام أحمد حين قال'' بيننا وبين أهل البدع يوم الجنائز''. وامتزج الرفض بالاعتزال، والباطنية بالفلسفة والتصوف، وكثرت الفتن، وضعف أهل الحديث، واشتغل كثير منهم بغرائب الإسناد وعواليه عن الدعوة إلى حقيقة الوحي "(ص٣٠٩). ويرى الشيخ أنَّ انتشار البدع في أرجاء العالم الإسلامي لم يُثنِ أتباع العقيدة الحقَّة عن مواصلة التزامهم بشرع الله تعالى الأصيل؛ **فالرفض والإرجاء والتصوُّف**، وغير ذلك من المحدثات، لم تؤثِّر في صحَّة إيمان المؤمن الحقِّ. وثبتت

طائفة من أهل الإسلام في زمن الغزوين الصليبي والمغولي، وظلَّت "تجاهد على أمر الله لا يضرها من خذلها أو خالفها، وهكذا أحيت الأمة فريضة الجهاد"، ولم تقبل تحريف صحيح الرسالة بالمحدثات النابعة من فلسفات الأمم الكافرة الهالكة بإثم كفرها (ص٣١١). ويضرب الحوالي المثل في الالتزام بشرع الله تعالى والثبات على طاعته بنور الدين محمود وصلاح الدين الأيُّوبي.

انتكاسات أصابت الأمَّة والفتن المسببة لها

ظلَّت الأمَّة الإسلاميَّة تعاني من النكبات والانتكاسات، ولعلَّ حال الأمَّة في عهد الدولة العبيديَّة، التي أطلقت على نفسها "الفاطميَّة"، من مراحل الانتكاس التي أسفرت عن انبثاق العديد من الفتن، وبعضها تفشَّى ولم يزل يعاني المسلمون من أذاه إلى يومنا هذا. والدولة العبيديَّة ضمَّت فئة من الرافضة المجوس، وفق رأي الحوالي، أسَّست دولتها في المغرب، ثمَّ توسَّعت وصلت إلى مصر، وأسَّست جامعها الشهير، الجامع الأزهر، الذي يُعتبر أقدم جامعة للعلوم الإسلاميَّة في التاريخ، كما سبقت الإشارة. **لم تتوقَّف تجاوزات العبيديَّة انتهاك السُّنَّة النبويَّة ونشر المذهب الرافضي، بل وصلت إلى حدٍّ إذلال أهل الإسلام، وتولية اليهود والمسيحيين أمورهم، لدرجة أصدق ما يعبِّر عنها قول امرأة لأحد حُكَّام الدولة العبيديَّة خلَّده التاريخ "بالذي أعزَّ بك اليهود والنصارى، وأذلَّ بك المسلمين لمَّا قضيت حاجتي"، ويقول شاعر عن عداوة تلك الفئة من الرافضة للمسلمين " يهود هذا الزمان قد ملكوا*ومنهم المستشار والملك/ يا أهل مصر نصيحتي لكم*تهوَّدوا قد تهوَّد الفلك". تجدر الإشارة إلى أنَّ الملك العبيدي الحاكم بأمر الله ادَّعى الألوهيَّة، بعد حلول الرُّوح القُدُس في جسده، كما أشاع؛ فأطلق على نفسه "الحاكم بأمره"، ومن هنا خرجت الفئة الشيعيَّة المعروفة إلى اليوم بالدروز.** وفي أوج التضليل الذي نشرته الدولة العبيديَّة الموالية للغرب المسيحي، غزت الهجمات الصليبيَّة العالم الإسلامي، وسيطرت على بيت المقدس لفترة قاربت التسعين عامًا، كما سبقت الإشارة. رأى صلاح الدين الأيُّوبي أن تحرير بيت المقدس لن يبدأ إلَّا من خلال تطهير دار الإسلام من البدع والمحدثات؛ فحارب الدولة الرافضيَّة، وظهَّر مصر من أتباعها.

يشير الشيخ سفر الحوالي إلى ما سبق تقديمه في الدراسة السابقة، عن نشأة جهود الاستشراق للتشكيك في ثوابت الدين، تسهيلًا لغزو دار الإسلام بعد تفريغ الدين من مضمونه وإفساد عقيده أهله. وفي هذا يقول الشيخ "وبعد الفشل الذريع للحملات الصليبيَّة المتتابعة رأى الغربيُّون أن الحرب النفسيَّة هي الحل، وأنَّ إخراج المسلمين من الإسلام هو الطريق لغزوهم وهزيمتهم، فابتدأ الاستشراق بتعلم اللغة العربيَّة والافتراء على الإسلام، ثم تبع ذلك الاستشراق الحديث، ثم أنشأ الغربيُّون مراكز البحوث في أمريكا وأوروبا" (ص٣١٨). ويشير الحوالي كذلك إلى الفكر القومي، باعتباره من بين الأفكار التي نشرتها مراكز التبشير والاستشراق في العالم الإسلامي، ومن بينها الجامعات الأمريكيَّة في بيروت والقاهرة. أسهم نشر الفكر القومي في تركيا في سقوط الخلافة الإسلاميَّة، بعد إسقاط الدولة العثمانيَّة؛ فتمزَّقت الأمَّة، وتفرَّق أبناؤها في "الحظائر التي رسمها "سايكس–بيكو" اعتباطيًّا وسموها أوطانًا" (ص٣٢٩). ويعتقد الحوالي أنَّ أزمة الأمَّة الإسلاميَّة بدأت منذ ظهور الزنادقة وأهل البدع، "منذ قتل المجرمون الخليفة الراشد عثمان بن عفان، ثم قتل الخوارج أخاه علي بن أبي طالب، ثم توالت الانحرافات"، وكانت تلك الانحرافات عن صحيح العقيدة السبب في التخلُّف والتأخُّر، وليس في النهضة والرفعة، كما يدَّعي البعض (ص٣٢٩). ويضيف الحوالي عن نشر الغرب الفكر القومي لتقويض العالم الإسلامي، كما يلي ذكره (ص٣٣٠):

المسلمون والحضارة الغربية: (ثالثا: موجز للتاريخ العقدي) ٣٣٠

انطلقت الرصاصة القومية الأولى من مكة المشرفة، وكان وراء انطلاقها المستعمرون الانجليز ومن رجال الانجليز المشهورين في التاريخ العربي "جلبرت كلايتون" و"كتشز" "ومكماهون" و"برسي كوكس" و"لورانس" والجاسوسة "جروتردبل" وأنشأ "أنطوني أيدن" ما يسمى "جامعة الدول العربية" ليفصل بين الأتراك والعرب، ثم نصبوا عبد الله بن الحسين ملكا على ما أسموه "شرق الأردن" وحاربوا فيصل بن الحسين في ميسلون، لما أراد أن تستقل بلاد الشام عن الاستعمار الفرنسي، وأخلفوا كل وعودهم للشريف حسين.

يُسهب الحوالي في تذكيره بنشر القوميَّة الطورانيَّة في الدولة العثمانيَّة، وتأثير ذلك في تضعضُع مفاصل الدولة، مشيرًا إلى دور جمعيَّتي "تركيا الفتاة" و"الاتحاد والترقِّي" في نشر المطالبة بالحريَّة والديموقراطيَّة، وكذلك الترويج لما عُرف حينها بالاستبداد

العثماني، وما اعتُبر احتلالًا تركيًّا للعالم العربي. وما أن سقطت الخلافة، وتبدَّد سعي السلطان عبد الحميد الثاني، "آخر العثمانيين"، على حدِّ وصف الشيخ، إلى تكوين جامعة للدول الإسلاميَّة، حتَّى ظهرت الدعوة إلى ما يُعرف بـ "القوميَّة العربيَّة"، باعتبارها الجامعة الجديدة لأبناء العالم العربي من المسلمين. وانتشر الفكر القومي في مصر وبلاد الشام والعراق، بعد سقوط الأنظمة الملكيَّة الحاكمة فيها، وكان الرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر أشهر دعاة الفكر العروبي، وأكثر زعيم قومي جذب إليه إعجاب العرب. غير أنَّ رأي الحوالي في عبد الناصر هو أنَّه "حارب...الإسلام بكل عنف، وأقام مؤتمرات وتحالفات مع الكفرة مثل "نهرو" و "تيتو"، و "نيريري"، وسجن أو قتل الدعاة وسمى الاسلام رجعيَّة، وتأثر به كثيرون خارج مصر، وألغى المحاكم الشرعية والأوقاف وكل شيء إسلامي، وأفسد الأزهر وجعله تابعا للدولة، ووالى الاتحاد السوفيتي" (ص٣٣٨-٣٣٩). ووصل الفكر القومي بأحد الشعراء أن قال "**آمنت بالبعث ربًّا لا شريك له * وبالعروبة دينًا ماله ثاني**".

بِدع أُحدثت في الإسلام أخلَّت بصحيح رسالته: الصُّوفيَّة والإرجاء والرَّافضة

يتطرَّق الحوالي بعد ذلك إلى العقائد الدينيَّة المحسوبة على الإسلام، بادئًا **بالصوفيَّة**، الأشدُّ فتكًا في نظره، ومشيرًا إلى مدح أمريكا لها، واعتبارها إيَّاها "معتدلة، وتحثُّ بقيَّة المسلمين على الاعتدال" (ص٣٤٥). يعدِّد أستاذ العقيدة فرق الصوفيَّة، وأوَّلها الزنادقة، وهي فرقة من المتفلسفين، والمرتبطين في طقوسهم بطقوس ممارسة السِّحر، المؤمنين بوَحدة الأديان، وَحدة الوجود وحلول الإله في جسد البشر، وعي نفس العقيدة "التي دان بها كثير من الفلاسفة الغربيين والمفكرين الأوروبيين، لاسيما في عصر التنوير كما يسمى، ولا عجب في أن يؤمن فلاسفة عصر التنوير -كما يسمونه- بهذه العقيدة الفاسدة" (ص٣٤٥). ويعتبر محيي الدين بن عربي (١١٦٥-١٢٤٠ ميلاديًّا) أشهر المنتمين إلى تلك الفرقة، وقد أحسن التعبير عن معتقداتها في كتبه، وأهمُّها **الفتوحات المكيَّة**، وكذلك **خاتم الأولياء**، الذي أسقط فيه صفات المهدي المبشَّر به في السُّنَّة النبويَّة على خاتم أولياء الصوفيَّة؛ "**وللصلة بين الطائفتين سهل على إسماعيل الصفوي (١٤٨٧-**

١٥٢٤ ميلاديًّا) نقل إيران من الصوفيَّة إلى الرفض" (ص٣٤٦). يستشهد الشيخ سفر الحوالي برأي شيخ الإسلام ابن تيمية في ابن عربي، وقال في ذلك "قال شيخ الإسلام ابن تيمية "أوتي ذكاء ولم يؤتَ زكاء"، وقال "إنه قدم لحم الخنزير على طبق من ذهب"، أي أنه جعل البيان العربي وجمال الأسلوب العربي، وسيلة لتحريف معاني القرآن ونشر زندقته"، التي وصلت به إلى حدِّ الزعم بأنَّ من عَبَدَ أي حيوان أو جماد فكأنَّما عَبَدَ الله–تعالى عن ذلك–لأنَّ الله حلَّ فيه (ص٣٤٦). يتأسَّف الحوالي على أنَّ عقيدة "دين الحب" التي ابتدعها ابن عربي هي التي يريد الغرب فرضها اليوم على المسلمين، ويعتقد أنَّ "**ابن عربي لو كان حيًّا اليوم لكان ممثلًا للأمين العام للأمم المتحدة أو عضواً في معهد (جارودي) للأديان، أو موظفًا في وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة، وهو على كل حال يصلح ماسونيًّا عريقًا**" (ص٣٤٧).

يتناول أستاذ العقيدة–فكَّ اللهُ أسرَه–الفرقة الثانية من الصوفيَّة، وهي فرقة الضالِّين المبتدعين، "أكثر الطرق المنتشرة اليوم"، التي يعتمد المنتمون إليها إلى تلقِّي ما يُعرف بـ "العلم اللدنِّي"، ويضرب الشيخ المثل في ادعاء هؤلاء الرواية المباشرة عن ربِّ العزَّة وتلقِّي العلم عنه مباشرةً في القول السائد "ألا ترحل إلى عبد الرزاق فتأخذ عنه الحديث؟ فقال: من كان يروي عن الرزاق لماذا يذهب إلى عبد الرزاق؟"، والمقصود بذلك رحيل الإمام أحمد بن حنبل إلى الشيخ عبد الرزاق الصنعاني، أحد أشهر أهل الثقة من رواة الحديث الشريف من أهل صنعاء (ص٣٥٠–٣٥١). يشتهر أتباع تلك الفرقة من الصوفيَّة باتِّخاذ الرقص والغناء والتمايُل، ما أنكره عليهم الإمام الشافعي. ومن أشهر بدع هذه الفرقة من المتصوِّفين نظم بعض الأدعية والتسابيح والأوراد، ونسبها إلى السُّنَّة النبويَّة، وقد سبقت الإشارة في الدراسة عن دور الصوفيَّة المغالية في إسقاط الدولة العثمانيَّة، إلى احتواء تلك الأذكار والأدعية على كلمات أعجميَّة، هي في الأصل أسماء لشياطين. ويذكر الحوالي قصَّته مع أحد مشايخ الطريقة النقشبنديَّة، المنتشرة في تركيا، وينتمي إليها الرئيس التركي ذاته، في الحرم المكِّي، وفي هذا يقول " كان مما قلته له: أين مصدركم في الأذكار (البدعيَّة)، ومنها كثرة التسبيح، والنبي(ﷺ) يسبح٣٣مرة فكيف

تسبحون أنتم ثلاثة آلاف مرة؟ فقال: إنَّ هذه الثلاثة آلاف مذكورة في "المسند" وأصرَّ على أنَّها فيه، فعلمت أنه لا فائدة من نقاشه، علمًا بأنَّ النقشبنديَّة من أخف الطرق كما قرأت" (ص٣٥٣). وشار الشيخ كذلك إلى ابتداع ما يُعرف بـ "الدوسة" في مصر، وهي احتفالات نُسبت إلى الإسلام زُورًا، أقيمت للاحتفال مولد النبي، وأقامها نابليون بونابرت في مصر، خلال حملته (١٧٩٨-١٨٠١ ميلاديًّا).

وهناك بالطبع فرقة محمودة من الصوفيَّة، وهي الفرقة المعنيَّة بعمل الآخرة، ومنصرفة عن متاع الدنيا، والمعروفة بالزهد والتقى والورع، والمنغمسة في الذكر، وهذا لا يعيب المرء، طالما لم يتَّبع المحدَثات، ولم يخرج عن الشريعة.

ينتقل الحوالي إلى بدعة أخرى أُحدثت في العقيدة الإسلاميَّة، وهي **الإرجاء**، أو العزوف عن عقيدة السُّنَّة النبويَّة، والتي تقوم على عدم تجريم الإثم، وعدم تحذير الناس من العقوبة في الآخرة، ويستندون إلى الآية ١٠٦ في سورة التوبة "وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"، في افتراض أنَّ الله تعالى وحده له الفصل يوم القيامة في مسألة دخول الجنَّة والنَّار، وأنَّ الإيمان بالوحدانيَّة يكفي لضمان نجاة العبد في الآخرة. ظهرت بدعة الإرجاء، بعد فتنة ابن الأشعث، سنة ٨٣ هجريًّا، بادِّعاء ضرورة إرجاء العمل عن الإيمان (البرُّ بالإيمان!) وأوَّل من أدخل هذه المحدثة كان أبو ذرٍّ بن عبد الله الهمداني. بعد ذلك، زعم حمَّاد بن سليمان أنَّ الإيمان قول فقط، وليس قول وعمل، كما هو رأي أهل السُّنَّة؛ والمفارقة أنَّ بن سليمان، المتوفَّى عام ١٢٠ هجريًّا، هو شيخ الإمام أبي حنيفة النعمان. يقوم الإرجاء، أو إرجاء الفقهاء، على ثلاثة أسس، تخالف جميعها صحيح الإسلام، أوَّلها، الزعم بأنَّ العمل لا يدخل في إطار الإيمان؛ لأنَّ الإيمان يعني التصديق بوجود الله تعالى. وثاني أساس هو الزعم بأنَّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ أي إذا ما فعل المؤمن أيَّ معصية، فهذا لا يُنقص من إيمانه، مهما فعل. أمَّا ثالث أساس، فهو أنَّ الاستثناء لا يجوز في الإيمان؛ أي أنَّ كلَّ من عرف بوجود الله وشهد بذلك، فلا يجوز تكفيره، ولا يمكن الجزم بأنَّه يُعذَّب يوم القيامة. ويقول الحوالي في المرجئة "المرجئة ومن تأثَّر بهم يتبعون المتشابه ويتركون

المحكم، فإذا حدثتهم مثلًا عن تارك الصلاة جاءوا بحديث في الشفاعة، وإذا حدثتهم عن الحجاب جاءوا بحديث في الحج، وهم يعدون من لا يصلي من أهل القبلة" (ص٣٧٩).

ويعدِّد الحوالي البدع التي خرج بها المرجئة، ومنها اعتبار ترك الحُكَّام العمل بالكتاب والسُّنة أو أي معصية تناقض صحيح الدين مجرَّد معصية؛ ومنها الزعم بأنَّ الله يقيِّد لكل ولي ملكًا يكتب حسناته ولا يكتب سيِّئاته؛ ومنها كذلك استحلال دم المعارض لرأيهم وعرضه، بل واستعداء الحُكَّام عليه، إذا لزم الأمر؛ ومنها بدعة تقديم رأي الحاكم على قول الله تعالى؛ ولعلَّ أشهر بدعهم القدريَّة والتسليم بأنَّ كلَّ ما يصدر من العبد من قول أو فعل مدبَّر من الخالق، مما يعني أنَّ المعصية والفحش، مثل الطاعات والإحسان إلى الناس؛ ومن ثمَّ، لا مجالَ لحساب يوم القيامة.

نأتي إلى ثالث البدع التي أشار إليها الحوالي، هي **الرافضة**، أو مذهب عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي سلك مسلك شاؤول الطرسوسي في إحداث بدعٍ لم تعرفها الرسالة الحقَّة المنزَّلة من السماء؛ ومن ثمَّ إفساد العقيدة على المؤمنين. يشترك الروافض المحسوبين على الإسلام مع غير المسلمين في معاداة أهل السُّنَّة، والسعي لإلباس الحقِّ بالباطل، وتكذيب الصحابة والتابعين؛ بغية التشكيك في ثوابت الدين، ليس لمجرَّد إفساد العقيدة، وإنَّما لتسهيل اتباع الهوى والامتناع عن فعل ما أمر الله والانتهاء عمَّا نهى. يشير الحوالي إلى تآمر الرافضة على أهل السُّنَّة على مرِّ العصور، سواء في زمن الحروب الصليبيَّة، أو في زمن الغزو المغولي، أو حتَّى عند غزو العراق عام ٢٠٠٣، وفي هذا يقول "يشهد الواقع التاريخي على وقوفهم الدائم مع أعداء الله، فقد أشعلوا الفتنة التي قتل فيها عثمان، ثم وقفوا مع هولاكو، وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي، مع أنه من آل البيت، بل إنَّ بعض كتب الرافضة أنفسهم تقول إنَّ الذين قتلوا أبا عبد الله الحسين هم الرافضة...ثم وقفوا مع تيمورلنك وحاربوا الدولة العثمانية حربًا طويلة مريرة، وذريعتهم أنَّ العثمانيين أحناف نواصب... ولا غرابة أن تجد في ملاليهم الكبار من هو على غير دين الإسلام أصلا، فإنَّهم لما أرادوا تغسيل بعض آياتهم عند موته وجدوه غير مختون، وصرحوا أنَّه يهودي" (ص٣٨٧-٣٨٨).

رؤية غربيَّة الطابع لصراع الحداثة مع العالم الإسلامي: كيف اقترح فضل الرحمن "تحوُّل التقليد الفكري"؟

قدَّم المفكِّر الباكستاني فضل الرحمن، باكستاني المولد، وغربي التنشئة والتعليم، في كتابه الشهير **Islam and Modernity: Transformation of an Intellectual –الإسلام والحداثة: تحوُّل التقليد الفكري** (١٩٨٢)، رؤية مختلفة عن سابقيه، فيما يتعلَّق بصراع التيَّارين الحداثي والسلفي في العالم الإسلامي، بأن اقترح إحداث "تحوُّل التقليد الفكري" الإسلامي، كما يشير عنوان الكتاب، في سبيل الوصول إلى مستوى الفِكر الغربي، واللحاق بركب التطوُّر العلمي. وتعريفًا بفضل الرحمن، فقد وُلد عام ١٩١٩ ميلاديًّا في مدينة حزرة في باكستان، لأب كان من أشهر علماء الدين في الهند. وبعد حصوله على شهادة جامعيَّة في اللغة العربيَّة، سافر إلى بريطانيا ليلتحق بجامعة أوكسفورد، وهناك حصل على الدكتوراه في فلسفة ابن سينا. تخصَّص فضل الرحمن في الفلسفة الإسلاميَّة، وعمل على تطوير مناهج التدريس، وتوجيه المدرِّسين إلى أساليب تناسب المرحلة وتواكب أساليب الغرب المحدَّثة. غير أنَّ اتِّجاهه أثار غضب المحافظين في بلاده لمَّا عاد إليها بأمر من الرئيس الباكستاني للإشراف على معهد للبحوث الإسلاميَّة في العاصمة إسلام أباد. حينها، اضطرَّ فضل الرحمن إلى الهجرة إلى الولايات المتَّحدة، وعمل في جامعة متعددة هناك، منها جامعة لوس أنجلوس، وجامعة شيكاغو، حيث شارك في تأسيس برنامج في دراسات الشرق الأدنى، يُعدُّ من أفضل البرامج المتخصِّصة في هذا المجال إلى اليوم.

ويدخل هذا البحث ضمن مشروع أوسع نطاقًا أُجري في جامعة شيكاغو باسم الإسلام والتغيُّر الاجتماعي–Islam and Social Change، بتمويل من مؤسَّسة فورد في إطار برنامجها المتخصِّص في التعليم الإسلامي (Ford foundation in Islamic Education)، بمشاركة عدد كبير من الباحثين. وبينما اهتم الباحثون المبتدؤون بمختلف البلدان الإسلاميَّة في أبحاثهم، عني فضل الرحمن بالنظام التعليمي الإسلامي في القرون الوسطى، مسلِّطًا اهتمامه على سماته الأساسيَّة، ونواقصه، وجهود التحديث

المتَّبعة خلال القرن الماضي. ولا يعني الكاتب التعليم الإسلامي سوى طرق التثقيف واستقاء المعلومات وإعداد الباحثين في مجال الدراسات الإسلاميَّة، وليس وسائل التعليم. فنمو فِكر إسلامي حقيقي ومؤثِّر هو المعيار الأساسي في الحكم على نجاح النظام التعليمي الإسلامي وفشله.

نجح المسلمون الأوائل، كما رأى فضل الرحمن، في تطبيق ما جاء في القرآن الكريم، ففتحوا البلدان، وأوصلوا كلمة الله إلى شتَّى بقاع الأرض، كما عدَّلوا من أحوال أنفسهم وأصبحوا رعاة أمم. غير أنَّ المفسِّرين لمَّا أرادوا استنباط قانون من الآيات الواردة في القرآن في مجال قانون العقوبات، ما يُسمَّى الحدود، لم تكن النتائج مرضية. والسبب في ذلك هو غياب الوسيلة الفعَّالة في هذا السياق؛ حيث أنَّ القياس لا يفي بالغرض. ويرجع "خلل تلك الوسائل وعدم دقَّتها" إلى غياب وسيلة متكاملة لفهْم القرآن ذاته (ص٢). غير أنَّ النظام الديني السنِّي اصطدم في القرن الثاني عشر الميلادي مع الميتافيزيقا، وذلك **حينما درس المفكِّرون المسلمون الفلسفة الإغريقيَّة، ولكن دون محاولة منهم للتوفيق بين الفلسفة وما جاء في المصادر الإسلاميَّة.** ومن هنا، **تخلَّى الفكر الإسلامي عن الفلسفة، التي وجدت لنفسها حاضنةً أخرى في المحيط الفكري والروحاني الشيعي، لتتطوَّر لاحقًا وتصبح الصوفيَّة المحسوبة على الإسلام، كما نعرفها اليوم.** يرى الفلاسفة، وبخاصَّة الصوفيُّون، القرآن الكريم باعتباره وَحدة، ولكن تلك الوَحدة أُضفيت على القرآن، ليس من دراسته، وإنَّما من اتِّجاهات فكريَّة استُقيت من مصادر خارجيَّة، ليست بالضرورة معادية بالكامل للقرآن. والمقصود بالميتافيزيقا فرع من الفلسفة يدرس جوهر الأشياء، ويبحث فيما وراء الطبيعة، ومن أهم مباحثه أصل الكون والإنسان والوجود، اعتمادًا على البحث الشخصي والتجربة الحسيَّة، بلا أيِّ التفات إلى ما جاء في الكتب السماويَّة، التي أجابت عن تلك التساؤلات. وعني الفلاسفة بتطبيق نظريَّات الغرب الفلسفيَّة على القرآن الكريم، ولعلَّ أشهرهم ابن سينا وابن عربي، اللذين اعتُبرت إنجازاتهما الفكريَّة منافية لصحيح الإسلام لما فيها من تأثُّر شديد بالفلسفة الغربيَّة السائدة منذ فترة عبادة الأوثان.

المنهج المثالي لتفسير القرآن الكريم عند فضل الرحمن

من أكثر النقاط التي أثارت اهتمام فضل الرحمن الطريقة الصحيحة في تفسير القرآن الكريم، الذي يمثِّل أهم مصدر إسلامي؛ باعتباره يحمل رسالة الوحي الإلهي المنزَّلة من السماء، ما يمنح هذا المصدر ميزة لا يتمتَّع بها أيُّ مصدر آخر. ويذكر القرآن نفسه أنَّ مهيمن على ما سبقه من الكتب (سورة المائدة: آية ١١٤؛ سورة يونس: آية ٣٧؛ سورة يوسف: آية ١١١). نزل القرآن الكريم في الفترة ما بين عامي ٧١٠ و٧٣٢ ميلاديًّا، تشمل آياته الشرائع، والعبادات، والمسائل الشخصيَّة والعامَّة على المستويين القانوني والأخلاقي.

يرى الكاتب أنَّ تفسير القرآن الكريم اليوم يقتضي الانتقال عبر الزمن من يومنا هذا إلى زمن نزوله، ثمَّ العودة إلى زمننا هذا. يعرِّف الكاتب القرآن بأنَّه "الاستجابة الإلهيَّة من خلال عقل النبي إلى الحالة الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة السائدة في الجزيرة العربيَّة في زمنه، وبخاصَّة ما يتعلَّق بالجانب التجاري في مكَّة" (ص٥). وتوضح السور الأولى في القرآن مشكلات المجتمع الأهم حينها، وهي تعدُّد الآلهة، واستغلال الفقراء، والتفرقة العنصريَّة، والمعاملات السلبيَّة في التجارة. وبعد انتقال النبي وصحبه إلى يثرب، اتَّخذت التعاليم والشرائع القرآنيَّة أخلاقيَّة الطابع شكلًا سياسيًّا، تكشَّف في الجدال الذي "شنَّه النبي" ضدَّ اليهود، وإلى حدٍّ ما مع النصارى (ص٥). ويستنتج الكاتب من ذلك أنَّ نزول القرآن وتأويله ارتبطا بمواقف طرأت على حياة النبي وعلى مجتمعه في فترة بعثته، أي بالخلفيَّة الاجتماعيَّة والتاريخيَّة لتلك الفترة.

ويشير الكاتب كذلك إلى طريقتين لتفسير القرآن الكريم، **الأولى** تتعلَّق بفهم الآيات في إطار الخلفيَّة التاريخيَّة والاجتماعيَّة لنزولها، كما تتوقَّف على أسباب النزول، على اعتبار أنَّ القرآن الكريم نزل استجابةً إلى مواقف حدثت في فترة البعثة النبويَّة. أمَّا **الثانية**، فهي تعتمد على دراسة النصوص بمنأى عن المصادر التاريخيَّة، في محاولة للوقوف على معانيه، واستنباط المقصود منها؛ وحينها تُصبح الخلفيَّة التاريخيَّة لنزول

الآيات مجرَّد للحُكم على التفسير الجديد، وليس لدعمه، وإن لم يكن مستبعدًا أن يثمر المنتوج التاريخي التقليدي عن رؤى جديدة.

تقتضي الطريقة الأولى في التفسير دراسة البُعد التاريخي للموقف أو المشكلة، وكذلك الوضع الكلِّي للحياة في الجزيرة العربيَّة في الفترة السابقة على ظهور الإسلام، ويشمل ذلك المجتمع والدين والعادات والمؤسَّسات. أمَّا الثانية، فهي تقوم على تكوين رأي خاص وآني عن الآيات يتناسب مع الآونة الحاليَّة، ولا يضع في اعتباره أبعادًا لا تمتُّ للواقع الحالي بصلةٍ. تعتمد الطريقة الأولى على مؤرِّخ، بينما تعتمد الثانية على جهود علماء الاجتماع، وإن كان ما يسمِّيه الكاتب "الاتجاه الفعَّال" و"الهندسة الأخلاقيَّة" من إسهامات خبراء علم الأخلاقيَّات (ص٧).

ويقول فضل الرحمن "عند مراجعة أداء النبي باعتباره زعيمًا دينيًّا ودراسة معاني القرآن الكريم بتأنٍ باعتباره وثيقة نزول الوحي الإلهي عليه، يتحتَّم إدراك وجود وَحدة داخليَّة وشيء من التوجيه...بين أداء النبي والتوجيه القرآني" (ص١٣). **يضيف الكاتب أنَّ الآيات التي نزلت على النبي في مكَّة، وبخاصَّة في بداية دعوته، ركَّزت على الإيمان بالله الواحد الخالق الرازق، وضرورة وجود عدالة اجتماعيَّة اقتصاديَّة، والإيمان باليوم الآخر والعمل للفوز بالجنَّة والنجاة من النار. ظلَّت تلك الأفكار محور القرآن المنزَّل في مكَّة حتَّى نهاية تلك الفترة. أمَّا عند انتقال النبي إلى يثرب، فمحور تركيز الآيات تحوَّل مع سعي النبي والصحب إلى تأسيس نظام سياسي واجتماعي، دون تسليط التركيز على الحساب الإلهي وهلاك الأمم السابقة بسبب كفرها بما جاء به الرُّسُل.** يكشف هذا الرأي لدى فضل الرحمن عن قراءة سطحيَّة للقرآن الكريم، أو تجاهُل لحقيقة اشتمال غالبيَّة سور القرآن على آيات تُنذر الكافرين، أي كاتمي الحقيقة، كما سنوضح لاحقًا بالتفصيل، مغبَّة إنكار الألوهيَّة لله تعالى وحده وعدم الخضوع له بالعبوديَّة، وكذلك تتحدَّى أصحاب القوَّة والمنعة من مؤسسي الحضارات العظيمة في أن يأتوا بآية كونيَّة كالتي خلقها الله سبحانه، أو ينظِّموا الكون وفق النظام الذي أعدَّه وضبطه، والذي قد

يُخرجه بقدرته عن سيطرة الكافرين عقابًا لهم على جُرمهم في حقِّه وحقِّ المؤمنين المسالمين.

ادعاء عجز المسلمين الأوائل عن توصيل رسالة الإسلام على النحو السليم

يرى فضل الرحمن أنَّ بعد وفاة النبي، اعتمد المسلمون على التلقين والحفظ في تعليم القرآن والأحاديث، وإن لم تُستبعَد الطريقة الثانية المعتمدة على العقلانيَّة والتفكير. تنامى وجود المسلمين في أقطار أخرى خارج جزيرة العرب، وواجهتهم مشكلات اقتصاديَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة لم تطرأ من قبل، واعتمدت حلولهم لها على نصوص القرآن والأحاديث بمعانيها العامَّة، وإن كانت تلك الحلول تتوافق مع العادات والممارسات المحليَّة لتلك الأقطار. غير أنَّ تلك الحلول لم تكن تفي بالمطلوب، إنَّما كانت تعبِّر عن فهْم الصحابة لما تعلَّموه عن النبي؛ وسبب ذلك عدم إعمال هؤلاء للعقل واعتمادهم الأكبر على النقل من تراثهم الذي ورثوه عن النبي. ويعتبر الكاتب تلك الفترة في غاية الأهميَّة؛ لأنَّها شهدت استناد المسلمين على الآيات القرآنيَّة والفتاوى النبويَّة في حل المشكلات. في حالة توافُر ردٍّ مباشر من القرآن أو السُّنَّة على التساؤل، اعتُبر الأمر محسومًا؛ أمَّا إن لم يكن هناك ردٌّ، كان الاعتماد على القياس واجبًا، من خلال مقارنة الحالة قيد البحث والحالات التي نزلت فيها آيات أو وردت بشأنها أحاديث، فيما يُعرف بـ "القياس".

كانت نتيجة اعتماد علماء الإسلام في المائة وخمسين عامًا الأولى للإسلام على القياس، أو التفكير التناظري، في استنباط الأحكام الشرعيَّة من القرآن الكريم والسُّنَّة، وفق رأي الكاتب، فوضويَّة؛ والسبب هو أنَّ في حال وجود أكثر من رأي مرتبط بنصٍّ واضح من الكتاب أو السُّنَّة، فكيف يمكن الخروج بحُكم شرعي صريح موحَّد؟! ويرى الكاتب في القياس طريقة غير دقيقة بالمرَّة في استنباط الأحكام الشرعيَّة لو استُبدلت في مهد الإسلام بالطريقة العقلانيَّة، لأثمرت نتائج أفضل في نشر رسالة الإسلام ومضمونه الصحيح.

أدَّى فرز الأحاديث النبويَّة وتحديد الصحيح والحسن والضعيف منها إلى توقُّف النمو المنتظم للفكر التشريعي على الأخص، والفكر الديني على الأعم. ويقصد الكاتب بذكرِهِ "النمو المنتظم" أنَّه لا يوجد مجتمع سليم يبقى جامدًا بلا تغيُّرات، حيث تطرأ تغيُّرات من حين إلى آخر. غير أنَّ تلك التغيُّرات في حالة العالم الإسلامي لم تدخل تلك سيطرة، أو توجُّه إلى نهاية ما. ويلقي العديد من المفكِّرين الإسلاميِّين الحداثيِّين اللوم في ذلك على انتهاء الخلافة العبَّاسيَّة في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، والتفكُّك السياسي للمجتمع المسلم الناجم عن ذلك. على خلاف ذلك، يرى الكاتب أنَّ حالة الجمود التي يعاني منها المجتمع الإسلامي ترجع إلى الأساسات التي قام عليها الفقه الإسلامي، وكان ذلك في الفترة ما بين القرنين العاشر والثاني عشر للميلاد، وتحديدًا مع ظهور المدرسة الأشعريَّة. نفت هذه المدرسة سببيَّة الإرادة البشريَّة وفعَّاليتها أمام الإرادة الإلهيَّة، كما نفت قدرة الإنسان على التمييز بين الحق والباطل من خلال العقل، معتبرة أنَّ ذلك لا يحدث إلَّا بالوحي، وقد أوصت تلك المدرسة باتِّباع ما أُمر به في القرآن الكريم وما نُهي عنه بلا تفكير لأنَّ في ذلك أمر إلهي لا يقبل الرد. ويعيب الكاتب على تلك المدرسة منهجها، ويعتبر أنَّ نشر ذلك المنهج ربَّما هو الذي أدَّى إلى سقوط الدولة العبَّاسيَّة.

يتأمَّل الكاتب في طبيعة التغيُّر المجتمعي، ويتساءل متى يمكن اعتبار المجتمع جامدًا ومتى يُعتبر متغيِّرًا؛ وإذا كان متغيِّرًا، هل التغيير إلى الأحسن أم إلى الأسوأ. أثبت البحث أنَّ المجتمعات البدائيَّة تتسم بالجمود، لدرجة أنَّ الأفراد يقعون بالكامل تحت سيطرة الدولة، حتَّى أنَّ أحلامهم يشكلِّها التيار السياسي السائد. قد يشهد مجتمع تغيُّرات سياسيَّة، ويبقى جامدًا على المستويين الاقتصادي والاجتماعي. وكذلك، قد يشهد مجتمع طفرة اقتصاديَّة وينعم باستقرار سياسي، ولكن يصاحب ذلك تراجُع أخلاقي واجتماعي متواصل، كما ينطبق على المجتمعات الغربيَّة (ص٢٨). عودةً إلى التغيُّر الذي شهده المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى، يرى الكاتب أنَّ الإسلام السُّنِّي واصل تبرير شرعيَّة الوضع الحالي في ظلِّ الخلافة العبَّاسيَّة. وبعد سقوط الخلافة، رأى شيخ الإسلام

ابن تيمية ألَّا ضرورة لحُكم عالمي شامل للمجتمع المسلم، مكتفيًا بوجود وَحدة بين الحكَّام المسلمين. وتنافى ذلك الرأي مع رأي الإمام الشيعي الحلِّي، القائل بأنَّ حُكم إمام معصوم في جوهر الدين الإسلامي. وكان من الصعب على أئمَّة الشيعة تبرير الحُكم نظريًّا في غياب إمام عصوم.

يشير الكاتب إلى أنَّ نظام الشريعة الإسلاميَّة، برغم ارتباطه غير الصارم بالقرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة، فه لم يتأسَّس وفق استنباط ذهني منتظم للقيم الاجتماعيَّة الاقتصاديَّة التي وردت في القرآن الكريم. ويضيف أنَّ في فترة الخلافة العباسيَّة وما بعدها، أثبتت بعض الاتجاهات في الشريعة ضررها الشديد بالشريعة الإسلاميَّة ذاتها. يقصد فضل الرحمن بذلك أنَّ بعض الفقهاء اضطرُّوا إلى إصدار قوانين تخدم مصالح السلطة الحاكمة، تحت مبرِّر "الضرورة الاجتماعيَّة" و"المنفعة العامَّة"؛ بالطبع لهذين المبدأين مبرِّر قوي في إصدار القوانين، ولكنَّ الحكَّام استغلُّوهما في إصدار قوانين تخدم مصالح خاصَّة، في ظلِّ غياب إعادة النظر في الشرائع الإسلاميَّة المعمول بها، وكانت النتيجة كارثيَّة بالنسبة إلى الشريعة الإسلاميَّة ذاتها.

بدأ التعليم الديني–في صورة تحفيظ القرآن الكريم ودراسة معانيه–منذ زمن النبي (ﷺ)، ولكن لم يبدأ تأسيس مراكز تعليم دينيَّة إلَّا في القرنين الأول والثاني للهجرة، وكان معلِّموها مشايخ "أصحاب فضيلة" يحفِّظون الأطفال القرآن الكريم، ويمنحونهم الإجازة لتعليم ما تعلَّموا، ويشمل ذلك القرآن الكريم ونقل الأحاديث النبويَّة واستنباط الفقه منهما. غير أنَّ تأسيس مدارس منظَّمة لها مناهج متخصِّصة في تلقين الطلاب كان على يد الشيعة. ولمَّا حلَّ السلاجقة والأيُّوبيُّون محلَّ الشيعة في إيران ومصر، وجِّهت تلك المدارس–وأهمُّها الأزهر–إلى تدريس المذهب السُّنِّي. وبعد تأسيس الدولة الصفويَّة في إيران في القرن السادس عشر الميلادي، أسَّس ملالي الشيعة الاثني عشريَّة حوزات علميَّة، أكثرها نشاطًا في هذه الآونة الجوزات في مدينة قُم.

كانت الشريعة الإسلاميَّة أوَّل ما تكوَّن من العلوم الإسلاميَّة، للوفاء بالحاجات الإداريَّة والقضائيَّة، وتلا ذلك تشكيل العقيدة. وكانت الشريعة والعقيدة محور الدراسة في المدارس

الإسلاميَّة السُّنِّيَّة، وكانت العقيدة متأثِّرة أكثر شيء بالمدرسة الأشعريَّة، وإن كانت قد التحمت بها عقائد فلسفيَّة، من بينها الجوهر والوجود، والسببيَّة، وطبيعة صفات الله، والنبوَّة، مع دحض عقائد تخرج عن صحيح العقيدة المستمدَّة من القرآن الكريم والسُّنَّة، مثل فلسفة ابن سينا. أمَّا بالنسبة إلى مدارس الشيعة، فقد طبَّقت عقيدة المعتزلة القائمة على حريَّة الإرادة البشريَّة وتأكيد عام على الاعتماد على العقل، مفترضةً وجود إمام معصوم باعتباره مصدرًا للعلم الأكيد. وقد طوَّر نصير الدين الطوسي، ومن بعده الحلِّي تلك العقيدة، استنادًا إلى الفلسفة، دون رفضها، مثل أهل السُّنَّة.

توجد تفرقة مسلَّم بها بين نوعيَّات معيَّنة من العلوم ونوعيَّات أخرى؛ فمثلًا توجد علوم نظريَّة وأخرى عمليَّة، كما توجد علوم كليَّة وأخرى جزئيَّة. غير أنَّ أكثر نوع من التفرقة بين العلوم أحدث شرخًا في مجال المعرفة العامَّة منذ تأسيس المدارس الإسلاميَّة هو التفرقة بين العلوم الدينيَّة والعلوم الدنيويَّة. والسبب في إحداث ذلك الشرخ اعتبار أنَّ العلوم غير الدينيَّة أدنى في الأهميَّة وأقل استحقاقًا للاحترام، على اعتبار أنَّ العلوم الدينيَّة تخدم الحياة الدنيا والآخرة معًا، على عكس غيرها من العلوم. وكانت العلوم العقلانيَّة، الهادفة إلى ترقية الجانب الروحاني، من بين العلوم الدنيويَّة، غير المشجَّع على تعلُّمها. أضف إلى ذلك اشتغال دارسي العلوم الدينيَّة في القضاء أو الإفتاء، بلا أي مجال لإعمال العقل والتأمُّل في القيم الفلسفيَّة، علاوة على وجود آراء معادية للفلسفة لكبار أئمة أهل السُّنَّة، وبخاصَّة المتعلِّقة برمزيَّة الوحي الإلهي إلى الأنبياء، ونفي البعث بعد الموت، والاعتقاد في ديمومة العالم. رأى أبو حامد الغزالي، على سبيل المثال، أنَّه كما أنَّ فلسفة التفكُّر الميتافيزيقي ضارَّة، فلابد وأنَّ العلوم التي يطوِّرها أصحاب هذا الفكر ضارَّة هي الأخرى.

كان التعليم الإسلامي السنِّي في المرحلة الابتدائيَّة مستقلًّا، ولم يكن مؤهِّلًا للتعليم العالي. لم يكن هناك اهتمام، على حدِّ وصف الكاتب، بالتعليم الجامعي، وإن كانت المؤسسة التعليميَّة التي أسَّسها محمَّد الفاتح ضمَّت قسمًا للدراسات العقلانيَّة (الطب والفلسفة والتاريخ الطبيعي)، إلى جانب الدراسات الدينيَّة (الفقه والعقيدة). أمَّا في إيران،

انتشر تدريس الفلك والرياضيَّات والفلسفة، إلى جانب العلوم الدينيَّة، واستمر تدريس الفلسفة بعد سقوط الخلافة في إيران وحدها. ولم يتعارض المذهب الشيعي بعد أن أصبح العقيدة الرسميَّة للدولة في إيران أبدًا مع الميل إلى دراسة الفلسفة، حيث لم يصطدم الفكر الشيعي ولا العقيدة المتَّبعة مع العقائد الفلسفيَّة أبدًا. أمَّا في العالم العربي، فقد استُبعدت الفلسفة والعلوم التطبيقيَّة بالكامل، على اعتبار أنَّها ليست من العلوم الدينيَّة. غير أنَّ علم البلاغة أصبح بدءً من القرن الرابع عشر الميلادي يُدرَّس في المعاهد التعليميَّة، باعتباره جزءً من دراسة اللغة. بدأت دراسة البلاغة مع ظهور اهتمام المعتزلة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ثم أصبح مجالًا مستقلًّا للبحث يستند إلى اللغة العربيَّة. وأصبح تفسير القرآن الكريم يعتمد في المرتبة الأولى على التحليل اللغوي، ما يستنكره الكاتب، معتبرًا أنَّ في القرآن أبعادًا لن يفي بها التحليل بمجرَّد استخدام نظريَّات النحو.

يرى الكاتب أن طريقة التعليم المعتمدة على التلقين لم تفرز سوى مؤلِّفين ومفسِّرين ضيِّقي الأفق لا يسعهم الإبداع، إنَّما يعتمدون على اكتساب المعلومات من مصادر خارجيَّة، ثمَّ يفرغونها بلا أي إضافة أو تعديل. ويأتي ذلك على عكس الفلاسفة واسعي الأفق، الذين يقطعون رحلة بحث عن المجهول، يكشفون خلالها الحقائق، ثم يصلون إلى مرادهم بعد التحليق في آفاق المعارف واستنباط الدلائل المؤيِّدة لمخرجاتهم، والتفكير، وما يتبع ذلك من جهد ذهني، هو السبيل الوحيد للوصول إلى المعرفة، بدلًا من التسليم بالافتراضات التي جاءت بها الدراسات السابقة؛ ومن هنا، انطلقت مدرسة التصوُّف الإسلامي.

دعوة إلى التركيز على الفلسفة والطُّقوس الرَّوحانيَّة

كما يرى فضل الرحمن، يمثل الله تعالى، انعكاسًا لما جاء في القرآن الكريم في رأيه، الكمال في الصفات والتنزُّه عن أي نقص؛ هو يمثِّل الخَلق، والقدرة، والرحمة، والعدالة، وهو واهب الحياة، وهو المسيطر على حياة البشر، الذين عليهم أن يسيروا وفق ما أمر به وينتهوا عمَّا نها عنه في سبيل النجاة في الدنيا والآخرة؛ وينبغي على كلِّ مجتمع أراد النهوض والرفعة أن يكافح في سبيل الوصول تحصيل الخير. يستقر الله في عقل

المؤمن، ويوجِّه تصرفاته، وكأنَّ العلاقة بين الله والعبد هي ضبط التصرفات بما يرضي الله ويضمن السلامة للعبد، وتقتصر العلاقة على ذلك. **ويأتي ذلك على عكس التجربة الفكريَّة التي خاضها علماء اللاهوت المسيحيِّين لاستكشاف طبيعة الإله (باعتباره الحب) وغوامض الثالوث، والتجربة الروحانيَّة للصوفيِّين وما لها من تأثير إيجابي في بناء الشخصيَّة. يدَّعي الكاتب بذلك أنَّ النشاطات الذهنيَّة المصقلة للعقل لا يوفِّرها القرآن الكريم.** غير أنَّ الحداثة اقتضت العلمنة والإلحاد، ولم تعد تعتقد في نشاطات ذهنيَّة يكفلها التأمُّل في طبيعة الإله.

يقتنع الكاتب بأنَّ تجربة النبي التأمُّليَّة في غار حراء الناتجة عن وعيه بوجود إله واحد للكون، على عكس اعتقاد قومه في تعدُّد الآلهة، كان وراء دعوته إلى الثورة على النظام السائد في مكَّة، والقائم على الاستعباد والاستغلال والانحلال الأخلاقي. أراد النبي تأسيس نظام اجتماعي يقوم على العدالة والمساواة، بتقوية شوكة الضعفاء وسلْب الامتيازات من الأقوياء.

ويلفت الكاتب إلى أمر في غاية الأهميَّة، وهو نمو ثمَّة توافُق بين الأشعريَّة وبعض المذاهب الصوفيَّة الصارمة في القرن الثالث عشر الميلادي، ومن نتائج ذلك ظهور فِكر صوفي كان له عظيم الأثر في الترقية الروحيَّة والسمو الذهني في مواجهة الجمود الفكري المصاحب لـ "الإسلام الرسمي"–شريعة وعقيدة–لدرجة أنَّ العقول المستنيرة في العالم الإسلامي انجذبت إلى الصوفيَّة (ص٢٧). **ويطرح الكاتب سؤالًا لا يقل أهميَّة: هل تلك الصوفيَّة، القائمة على عقيدة وَحدة الوجود، تمتُّ بصلة إلى العقيدة الإسلاميَّة النابعة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة؟**

طوَّرت مدرسة التصوُّف الإسلامي نظريَّتها المعرفيَّة من الاعتقاد بأنَّ المعرفة لا تأتي من الكتب أبدًا، إنَّما من تجربة ذهنيَّة تعتمد على التفكير والتأمُّل، يحصِّل المتأمِّل خلالها العلم من خلال الإلهام الربَّاني. واتَّسمت طريقة الصوفيَّة في تحصيل العلم بالمباشريَّة والثقة، مما أكسب العلم المتحصَّل المناعة ضدَّ الشك والتزييف. ولمَّا ضاقت الفجوة بين العلماء والمتصوِّفين، تصوَّف الكثيرون من العلماء.

ظهور العلمانيَّة نتيجة جمود الفِكر الإسلامي

كما يرصد فضل الرحمن، ظهر في الفترة السابقة للحداثة في العالم الإسلامي تيَّار علماني بسبب جمود التفكير الإسلامي بشكل عامٍّ، وعجز الشريعة الإسلاميَّة والمؤسَّسات الدينية عن التكيُّف مع التغيُّرات الاجتماعيَّة والحاجات الجديدة الطارئة على المجتمع، تزامنًا مع ظهور تلك التغيُّرات. وبالطبع، انعكس تلك التغيُّرات على الإسلام الحديث، فيما يتعلَّق بالتعليم. ومع ذلك، فتلك التغيُّرات لم تكن متطابقة في مختلف بلدان العالم الإسلامي، بل اعتمدت على بعض العوامل، من بينها احتفاظ الأمَّة بسيادتها في مواجهة الاحتلال الغربي من عدمه، وطبيعة تعامُل المؤسسة الدينيَّة مع الاحتلال وموقفها من تدخُّله في شؤون الدولة، ومن بينها الخطاب الديني، ومدى اهتمام الدولة بتطوير التعليم الديني في الفترة السابقة للاحتلال مباشرةً، وطبيعة القوى الاستعماريَّة والسياسة المتَّبعة في تدجين الشعوب المستعمرة.

نجد أن تركيا، على سبيل المثال، تمكَّنت من الحفاظ على التراث الديني، ولم تسمح للتأثير الغربي بتحريفه؛ كما نجد أنَّ الجزيرة العربيَّة لم يتأثَّر خطابها الديني بالفكر الغربي. بالنسبة إلى البلدان الواقعة تحت الاحتلال البريطاني، فقد استمر سير التعليم الديني فيها كما كان، وإن مورس عليه بعض التضييق، وينطبق ذلك على مصر وإيران. أمَّا شمال إفريقيا الواقع تحت الاحتلال الفرنسي، فقد شهد نوعًا من "الامتصاص" الثقافي أخذ شكل اندماج الثقافة في تلك البلدان بالثقافة الفرنسيَّة، كما شجَّع الاحتلال هناك نشر الذهب الصوفي، خوفًا من الإسلام السنِّي.

واختلفت درجة استجابة المؤسسات الدينيَّة في العالم الإسلامي تجاه التحديثات الطارئة على عالم التعليم بحسب نوعيَّة التعليم الديني المطبَّقة قبل الاستعمار الغربي وما أتى به من علوم حديثة. اتَّخذ علماء المسلمين موقفان أساسيَّان من تلك العلوم الحديثة: الأول رحَّب بالاستفادة من العلوم الحديثة في الجانب العملي فقط، ورأى ألَّا حاجة إلى إشغال العقل المسلم بالمنجزات الفكريَّة للغرب، وبخاصَّة لما لها من تأثيرات غير متوافقة مع صحيح الرسالة السماويَّة؛ أمَّا الموقف الثاني، فكان يرى ضرورة استخدام المسلمين كافَّة

منجزات الغرب، التقنيَّة والفكريَّة. ويرى الكاتب أنَّ الموقف الأول مفضٍ إلى ازدواجيَّة في التعامل مع الدين والمصالح الدنيويَّة، وهذا ما ينطبق على حالة تركيا. فقد رفض علماء الدين إدخال الفكر الغربي على التعليم الديني، مكتفين بالتحديث والتطوير في المجالات العمليَّة، واقتصر التحديث على المجالات العمليَّة، وإن ظهرت بعض الأصوات المطالبة بتعميم دراسة العلوم التطبيقيَّة؛ لما لها من تأثير إيجابي على حياة المرء الدنيويَّة.

رأي فضل الرحمن في دعاة الإصلاح الإسلامي

لم يكن كافَّة علماء الدين الإسلامي نافرين من نشر العلوم الحديثة، كما تزعَّموا موقفًا إيجابيًّا تجاه تلك العلوم، وعلى رأسهم السيِّد أحمد خان والسيِّد أمير علي في الهند، ونامق كمال في تركيا، وجمال الدين الأفغاني، والشيخ محمَّد عبده في مصر. ويعتبر السيِّد أحمد خان الأول بين المحدِّثين من علماء المسلمين، حيث أنجز إعادة صياغة العقيدة الإسلاميَّة قبل التمرُّد الهندي عام ١٨٥٧ ميلاديًّا، نزولًا على رغبة أصدقاء له بريطانيِّين، وبدأت مرحلة التحديث الذي نادى به أحمد خان في الستينات من القرن التاسع عشر، بعد فترة إقامة قصيرة في بريطانيا. ويأتي جمال الدين الأفغاني في الترتيب بعد أحمد خان من حيث بداية دعوة التحديث، حيث بدأت رحلة الأفغاني إلى أوروبا بعد رحلة أحمد خان بأكثر من عقد ونصف، وقد ألقى خطابه عن تشجيع العلوم وصقلها في إسطنبول في ديسمبر من عام ١٨٧٠ ميلاديًّا. وبرغم أن خطاب الأفغاني كان يخاطب الحاجات الملحَّة للمسلمين في ذلك الزمن، فقد أثار حفيظة الكثيرين بسبب استقائه المعلومات من فلسفة ابن سينا المثيرة للجدل، مما أدبره على ترك إسطنبول وقتها.

وبرغم عدم تواصُل دعاة التحديث من علماء المسلمين، فدعواتهم تتَّسم بالتقارب الشديد من حيث الأهداف؛ حتَّى أنَّ بعضهم اشترك في دعوته إلى أن يسبق تطبيق التقنيات العلميَّة الحديثة في العالم الإسلامي اتِّباع نهج الغرب في دراسة العلوم التطبيقيَّة وإدخاله مناخه العلمي إلى ديار المسلمين. ومع هذا الاتفاق، اختلف العلماء فيما يتعلَّق بتأثير نشر العلوم الحديثة وإدخال التقنيَّات التي أنجزها الغرب إلى العالم الإسلامي على الإيمان بالعقيدة الإسلاميَّة. فمع الاعتقاد في ثبات القانون الطبيعي وديمومته، هل هناك

مجال للإيمان بإله هو الخالق والرازق، وهو القادر على تدمير النظام الكوني يوم القيامة؟ ما الذي يمثِّله الوحي الإلهي للأنبياء في منظور العلوم الحديثة؟ هل يمكن أت يتكيَّف الإيمان مع المفاهيم العلميَّة الحديثة؟ أم يمكن أن يحدث تكيُّف متبادَل من الطرفين؟ أم لابدَّ وأن يطغى جانب منهما على الآخر؟

يُلاحظ أنَّ فكر هؤلاء **المحدِّثين من علماء المسلمين قد تأثَّر بفكر المعتزلة**، ومن نماذج هذا التأثُّر دعوة السيد أحمد خان إلى تكوين عقيدة دينيَّة جديدة من القرآن الكريم، على اعتبار أنَّ العقيدة السابقة لم تعد مناسبة للعصر الحديث والخبرات التي جاء بها، وكذلك أنَّ المسلمين أساؤوا فهم العالم القرآني ولم يُحسنوا تفسيره. ومن بين مجالات الاطِّلاع التي أوصي بها إعادة النظر في التاريخ الإسلامي والقومي، بما يتوافق مع الاهتمام الدارج حينها بتاريخ الغرب. وما لاحظه الكاتب حينها من خلال تجربته الشخصيَّة أنَّ العناصر الإسلاميَّة والقوميَّة تتماشى، مما يتناقض مع مفهوم الأمميَّة الإسلاميَّة.

من هنا، بدأت الدعوة إلى تطوير نظام للتعليم الديني حديث، ولكن يشتمل على قيم إسلاميَّة-قوميَّة في ذات الوقت، سواءً كان الفكر القومي يخدم الهدف الديني، أو العكس. ويعتبر عالم الاجتماع التركي ضياء كوك ألب هو من قدَّم مفهوم التعليم الموجَّه للثقافة السائدة في كل بلد، لافتًا إلى أنَّ إذا كان العلم والحضارة يقومان على أسس لا تتقيَّد بحدود، فالثقافة السائدة في كل مجتمع لا يمكن تعميمها. وجدير بالذكر أن كوك ألب هو مطوِّر الأيديولوجيَّة التركيَّة الحديثة، متأثِّرًا بأوروبا في عصر التطور التقني والعلمي، وبذل قصارى جهده في سبيل نشر ذلك الفكر في بلاده، وقد طبَّق كمال أتاتورك تلك الأيديولوجيَّة بعد وفاة كوك ألب بالفعل، حيث توفي عام ١٩٢٤ ميلاديًّا، نفس عام إعلان الجمهوريَّة التركيَّة.

التَّجربة التُّركيَّة في تجديد التَّعليم الدِّيني

يعتبر الكاتب أنَّ تركيا هي أوَّل دولة شعرت بالحاجة إلى اتِّباع نهج الغرب، والاستفادة من منجزاته في سبيل تحقيق التقدُّم ومسايرة الدول العظمى. غير أنَّ ذلك الطموح اصطدم بمسألة الاختلاف الثقافي بين مقر الخلافة الإسلاميَّة والغرب. هناك من المفكِّرين الأتراك من رأى ضرورة تطويع الثقافة المحليَّة بما يتَّفق مع تحقيق حُلم النهوض العلمي، مثل ضياء كوك ألب، وهناك من رأى ضرورة سحق أي عائق في سبيل تحقيق ذلك الحُلم، ولو كان الثقافة السائدة المستمدَّة من العقيدة الإسلاميَّة، وكان حقِّي بلطجي أوغلو زعيم ذلك التيَّار. واختار كمال أتاتورك الرأي الأول، وإن كان أضاف إليه إخراج التعليم الديني من المناهج المدرسيَّة بالكامل. وبرغم كلِّ ما فعله أتاتورك ورفاقه لمحو الهويَّة الإسلاميَّة لتركيا، فهم لم يتخلُّوا أبدًا عن الإسلام باعتباره من ركائز الدولة، إيمانًا منهم بأنَّ القوميَّة والإسلام لا يفترقان.

نما بين المسلمين في الدولة الواقعة تحت الاحتلال الغربي شعور بالانتقام ارتبط بالإسلام فيما بعد، حيث استمدَّ المسلمون من إرثهم العقدي الشعور بالعزة والفخر، في مواجهة المساعي المتواصلة لطمس هويَّتهم وإجبارهم على اتِّباع نهج الغرب بالقوَّة الاستعماريَّة. وكان من بين طرق مقاومة الاستعمار تأسيس مدارس دينيَّة بعيدًا عن المدارس الحكوميَّة الواقعة تحت سيطرة المحتل. وجرى استغلال مفهوم الجهاد في إثارة مشاعر النفور من المستعمر الغربي، إعمالًا بالآية ٥٩ في سورة النساء "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ"، على اعتبار أنَّ تلك الآية تنهي عن الخضوع تحت سُلطة حاكم غير مسلم. وتأجَّجت العداوة بين المسلمين والغرب بسبب النظام الإمبريالي والهيمنة الاقتصاديَّة للغرب، ما اعتبره المسلمون استنزافًا لخيرات بلادهم وسعيًا إلى وأد مساعي العالم الإسلامي للنهوض. وبرغم تلك العداوة المبرَّرة، وجد مبتعثون إلى الغرب في حضارته الماديَّة ما يسترعي التقليد، بل ودعوا إلى تحديث عقيدتهم الدينيَّة كي تساير ركب التطوير الغربي.

ويرى فضل الرحمن أنَّ الدولة العثمانيَّة نجحت في تأسيس أكاديميَّات للتعليم العالي، درَّست الطب والهندسة والعلوم الحديثة، لكنَّها عجزت عن إصلاح التعليم الابتدائي بما يتَّفق مع التحديث والتطوير. ربَّما سبق محمَّد علي باشا، والي مصر العثماني، في تأسيس مدارس حكوميَّة حديثة، إلَّا أنَّ معظم طلابِّها كانوا من غير المسلمين. واجه تعنُّت علماء الدين في تركيا في مواجهة التحديث المنافي لصحيح الدين، مسألة تحديث التعليم المدارس وفكرة الابتعاد عن الدين. أمَّا في مصر، فتأسيس المدارس الحديثة لم يستهدف سوى إعداد موظَّفين في الدولة، وليس خرِّيجين على وعي بالثقافة الدينيَّة أو القوميَّة. وقد انتقد محمَّد عبده هذا النوع من التعليم، على اعتبار أنَّه لا يشكِّل شخصيَّة المتعلِّم، ولا يُكسبه قيمًا تجعل منه جديرًا بالمسؤوليَّة.

وبعد عجز النظام التعليمي في أقطار الدولة العثمانيَّة، ومنها مصر، عن الجمع بين التربية الدينيَّة الصحيحة وتلقين العلوم التطبيقيَّة، أصبح الاهتمام بالتربية أولى من الدين. وصارت المدارس تركِّز على العلوم الدنيويَّة، ونادرًا ما تُعنى بالدين. وبعد سقوط الخلافة وإعلان الجمهوريَّة التركيَّة، أمر كمال أتاتورك بإغلاق كافَّة المدارس الدينيَّة، التابعة للدولة أو للأوقاف الخاصَّة؛ بل ووصل الأمر إلى حدِّ التخلِّي عن الإشارة إلى الدين، أو حتَّى لكلمة "الله"، في المحافل العامَّة، بعد أن اقتصر الدين في عهدي أتاتورك وخليفته عصمت إينونو على المساجد.

حصلت غالبيَّة دول العالم الإسلامي على استقلالها في وسط القرن العشرين، وصارت كافَّة الدول المسلمة ذات سيادة في الفترة ما بين عامي ١٩٤٧ و١٩٦٣ ميلاديًّا، بعد أن رزحت لعقود تحت وطأة الاستعمار. تعتبر تركيا الاستثناء الوحيد فيما يتعلَّق بالاستعمار، حيث أنَّ احتلال الغرب لها لم يدم طويلًا، وكانت الأسبق في إعلان الجمهوريَّة عام ١٩٢٤ ميلاديًّا. وصاحب التغيُّر السياسي في العالم الإسلامي تغيُّر اقتصادي، حين بدأت الدول إعداد خطط اقتصاديَّة تتناسب مع الوضع الجديد. وكانت السمة الأساسيَّة لاقتصادات الدول ذات السيادة الاتِّجاه إلى الاستثمار الحر، وتسلُّط تركيز الحكومات على التقدُّم من الناحية الاقتصاديَّة فقط، مما يعني تراجُع الاهتمام

بالجوانب الإنسانيَّة، وتزايد الاهتمام بالمنتجات الحديثة المستوردة من الخارج، والتي لم تكن مصمَّمة بما يتوافق مع بيئة الدول الإسلاميَّة في الشرق، وصاحب ذلك التوجيه بأنَّ التكالب على الماديَّات التي يصدِّرها الغرب ليس من شيم الإسلام المتجاهل للمنفعة الدنيويَّة. استمر نظام التعليم المطبَّق في زمن الاستعمار حتَّى بعد رحيله عن بلاد الإسلام، وأصبح الاهتمام بالعلوم التقنيَّة التيار السائد في المناخ العلمي في العالم الإسلامي، أملًا في تحقيق طفرة ماديَّة تحاكي من حقَّقه الغرب، وتبع ذلك تجاهُل للعلوم الدينيَّة وعدم حرص على تطويرها. **ويرى الكاتب أنَّ الانبهار بالتقنيات الحديثة صاحبه جهل بواح بحقيقة أنَّ الطفرة التقنيَّة لا يمكنها تطوير مجتمع لم تتغيَّر عقول أبنائه.**

يعتبر الكاتب أنَّ تركيا تمثِّل النموذج الأكبر إبهارًا في تطوير التعليم الديني في الزمن المعاصر، حيث نجحت بعد سنوات من الحظر في العودة إلى الساحة التعليميَّة بتأثير من الضغط الشعبي. وشهد عام ١٩٤٩ افتتاح كليَّة العقيدة في جامعة أنقرة، وسبق ذلك بعام فتح معهد لتدريب الأئمة والخطباء، ولكن لم يُشترط عمل المتخرجين منه في الخطابة. نوقش فيما بعد تأسيس معاهد عالية لتدريس العلوم الإسلاميَّة، كما خضعت مناهج كليَّة العقيدة في جامعة أنقرة إلى عدَّة تعديلات، ثمَّ افتُتحت كليَّة للعلوم الإسلاميَّة في جامعة أتاتورك، وتبع ذلك تأسيس معهد للدراسات الإسلاميَّة في جامعة إسطنبول.

وبسبب حظر تعليم العربيَّة بعد حملة التحديث التي أطلقها أتاتورك، كانت العثمانيَّة هي وسيلة دراسة العلوم الدينيَّة، وكان الاعتماد الأساسي في الدراسة على الترجمات والمخطوطات القديمة. غير أنَّ مسار الدراسة تغيَّر بظهور فئة من المدرِّسين ممن تلقُّوا تعليمهم في الخارج، ودرسوا العربيَّة، وتخصَّصوا في مجالات معيَّنة في الدراسات الإسلاميَّة، وهي العقيدة والفلسفة. ولاحقًا، أصبحت كليَّتا العلوم الإسلاميَّة في جامعتي أنقرة وأتاتورك تمنحان درجتي تخصُّص في الفلسفة والعقيدة أو تفسير القرآن الكريم وعلم الحديث. ويشير الكاتب أنَّ إحياء تدريس علوم الدين الإسلامي في تركيا لم يكن بهدف إحياء العلوم ذاتها ومحو الغموض عنها، وإنَّما بهدف تحسين الحياة الدنيويَّة من خلال منحها توجيهًا أخلاقيًّا جديدًا.

من جديد يشدِّد الكاتب على أهميَّة تدريس الفلسفة لطلَّاب الدراسات الإسلاميَّة، بما في ذلك العقيدة والفقه والشريعة، ملفتًا إلى أنَّ الفلسفة الحديثة يمكن أن توصل إلى تفسير جديد للإسلام. ويرى الكاتب أنَّ تضمين دراسة الفلسفة في المناهج الدراسيَّة في تركيا كان له الأثر الأكبر في خلق مناخ تعليمي سليم. وأثمرت جهود الباحثين الأتراك في مجالات العلوم الإنسانيَّة، وبخاصَّة علم الاجتماع وعلم النفس، تقديرًا دوليًّا. ونجحت المؤسسة الدينيَّة في تركيا، على حدِّ وصف الكاتب، في الاستقلال برأيها وعدم الخضوع لأي ضغوط خارجيَّة؛ على عكس الأزهر، الذي يضطر إلى تعديل آرائه لإرضاء جهات خارجيَّة مؤثِّرة (ص٩٨). وتنامى لدى علماء الدين الأتراك شعور بالانفتاح على الآخرين، وعدم رفض الأفكار الخارجيَّة، برغم سمة التحفُّظ التي لم تفارقهم. أمَّا قرنائهم الأزهريِّين، فهم لم يخضعوا لأيِّ تغيير منهجي أو فكري، واقتصر التحديث والتطوُّر على إدخال مجالات جديدة في الدراسة.

تجربة الأزهر الشَّريف مع دعاة الإصلاح والتَّحديث

بدأ تعليم الطب والكيمياء والرياضيَّات والفلك والطبيعة والفلسفة في الدولة العثمانيَّة في الأزهر الشريف، في القرن السادس عشر أو السابع عشر للميلاد، ولكن بحذر شديد ناتج عن تخوُّف علماء الدين الإسلامي من تسرُّب أفكار أو ممارسات تسمح بنفاذ القوى الاستعماريَّة المتربِّصة إلى ديار الإسلام. رأى هؤلاء العلماء أنَّ الحل في مواجهة الضغوط الغربيَّة هو التسلُّح بالعلوم الدينيَّة، كلَّما زادت التهديدات الاستعماريَّة. غير أنَّه في خضمِّ التنفير من اتِّباع نهج الغرب، ظهرت دعوات إلى تعلُّم مفردات الحضارة الغربيَّة، وتطبيقها في العالم الإسلامي، وكان الشيخ رفاعة الطهطاوي من أشهر أصحاب تلك الدعوات. ربَّما كان الطهطاوي، كما يرى الكاتب، أوَّل من حضَّ على إتقان العلوم الغربيَّة، بما أنَّ الغرب مدين للإسلام بالمعرفة العلميَّة التي طوَّر على أساسها علومه الحديثة. وربَّما يعتبر محمَّد عبده أدقُّ من عبَّر عن تعنُّت المؤسسة الدينيَّة في زمنه في مواجهة التحديث؛ فقد روى في كتابه **الآمال العظيمة** عن محاولته إقناع شيخ الأزهر بتدريس "مقدِّمة ابن خلدون" في علم الاجتماع، لكنَّه رفض باعتبار ذلك العمل الأدبي

في غير تخصُّص دراسة علوم الدين. انتقد محمَّد عبده كذلك جمود مناهج الأزهر، وطالب بفصل تدريس القانون عن تدريس الشريعة في الأزهر بتأسيس كليَّة خاصة لتخريج المحامين والقضاة، كما طالب بضمِّ الأزهر إلى النظام التعليمي العام، بدلًا من بقائه أثرًا من آثار القرون الوسطى. ولم يتوقَّف الأمر عند ذلك الحدِّ، فقد طالب محمَّد عبده كذلك بإحياء الكلاسيكيَّات الإسلاميَّة، بما فيها فكر المعتزلة، وبإدخال العلوم الغربيَّة الأزهر. ويعلِّق الكاتب على ذل ساخرًا بقوله "لابد وأن بدا عبده علمانيًّا سعى إلى تدمير الإسلام" (ص٦٦).

استُثنت الفلسفة من العلوم الجديدة التي أُدخلت على الأزهر، والتي من بينها البلاغة والنحو والفقه المقارن والمنطق، ولكن كان في الخروج عن نطاق تدريس القرآن الكريم والأحاديث خروج عن نهج السلَف الداعي إلى الالتزام بالكتاب والسُّنَّة. وبمرور الوقت، أُصدرت قوانين أوصت بتدريس العلوم الحديثة، من تاريخ وجغرافيا وفيزياء ورياضيَّات، إلى جانب العلوم الدينيَّة. **وبرغم كلِّ التعديلات المُدخلة على التعليم الأزهري، لم يُحسم أمر كيفية تطوير قدرة الفكر الديني لكي يتوافق مع التحديَّات التي فرضتها الحداثة.**

دعا جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده–رفيق رحلته في الغرب–وغيرهما هو اتِّباع نهج الغرب في المناخ العلمي، واستدلَّ هؤلاء في دعواهم بحضِّ القرآن الكريم على دراسة الآيات الكونيَّة والتدبُّر في معجزات الخلق، وهذا يحتاج إلى دراسة دقيقة تقوم على **التجربة العلميَّة، كما رأوا أنَّ غياب الاستكشاف في القرون السابقة على زمن الاستعمار أدَّى إلى الركود والتدهور. بما أنَّ الغرب قد بنى حضارته الحديثة على أساس العلوم التي صاغها العرب في السابق، فمن المتوقع أن ينتج عن اتِّباع النهج العلمي الغربي منجزات مبهرة تعيد إلى الأمَّة الإسلاميَّة مجدها السابق.**

ويعيب الكاتب على الأزهر احتفاظه بالنهج المتَّبع منذ القِدم في التعامل مع المعتقدات التقليديَّة، وعدم سماحه بأي تغييرات إلَّا بضغط خارجي كبير؛ حيث لا تنبع التغييرات من الداخل. ونتيجة لذلك، يبقى الأزهر على ما هو عليه، وإن تغيَّرت قياداته. وتنجح الضغوط الحكوميَّة أحيانًا في دفع عجلة التغيير، وليس التحديث؛ وحينها، تُجبر النواة

الداخليَّة للأزهر في إعادة تشكيل ذاتها، لكنَّ التغيير لا يكون بالضرورة إلى الأفضل (ص٩٩). عادةً ما يحدث إعادة ترتيب للعوامل الفكريَّة والروحانيَّة الداخليَّة، اعتمادًا على أفكار العقيدة الوهَّابيَّة، والإمام الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية. يشهد الكاتب بأنَّ جهود المحدِّثين من علماء المسلمين، أمثال محمَّد عبده، قد أثمرت عن تغيير لنظم التدريس ونظام الاختبار، علاوة على إدخال موادَّ جديدة. غير أنَّ التحديث لم يشمل العلوم الإسلاميَّة الأساسيَّة، الفلسفة والعقيدة. ومن جديد، يرى فضل الرحمن أنَّ امتناع قيادات الأزهر عن الاستجابة لدعوة محمَّد عبده إلى إحياء الفِكر العقلاني متمثِّلًا في آراء المعتزلة من أسباب تأخُّر الأزهر وعجزه عن نشر الإسلام على النحو الصحيح. ويشير الكاتب إلى رأي الأزهري المصري عبد المتعال الصعيدي في كتابه **تاريخ الإصلاح في الأزهر** (١٩٥١) القائل بأنَّ التعليم الأزهري عاجز عن تخريج مجتهدين؛ والمجتهد هو القادر على الانخراط في تفكير جديد في مختلف جوانب الإسلام. ويشير الكاتب كذلك إلى رأي خالد محمَّد خالد في كتابه المثير للجدل **من هُنا نبدأ** (١٩٥٠)، والذي انتقد فيه الكثير من ممارسات السلطة الدينيَّة في الدولة الإسلاميَّة، مما دفع الأزهر حينها إلى حظره.

ويطرح الكاتب سؤلًا هامًّا بعد استعراضه تطوُّر تدريس العلوم الإسلاميَّة في الأزهر: هل يقدِّم الأزهر دراسات إسلاميَّة أفضل على المستوى النوعي ممَّا تقدِّمه مؤسسات دينيَّة أصغر في العالم؟ هل يُخرِّج الأزهر دارسين للعلوم الإسلاميَّة يتمتَّعون برؤية ثاقبة ودرجة عالية من اتِّساع المدارك بما يوازي التزامهم بصحيح الدين؟ (ص١٠٢). ويصرُّ الكاتب على أنَّ هناك تعمُّد واضح من الأزهر تجنُّب الاهتمام بترقية الجانبين العقلي والروحاني بما يتيح للدارس قبول الأفكار الغريبة وتطوير العلوم بما يتناسب مع روح العصر؛ حيث يعتمد التدريس على تلقين الدارسين علومًا جامدة، بلا أي تدريب على الإبداع من خلال التدريب الذهني.

وبمقارنة الموادَّ المدرَّسة في الأزهر بالموادِّ المقرَّرة على دارسي العلوم الدينيَّة في كليَّات الدراسات الإسلاميَّة في تركيا، يجد الكاتب تقارُب عدد المواد، لكنَّ الجامعات التركيَّة

تمنح العلوم الإنسانيَّة-**علم الاجتماع وعلم النفس ومقارنة الأديان**-اهتمامًا لا يقل عمَّا تمنحه لدراسات القرآن الكريم والأحاديث. ولا يستبعد الكاتب أنَّ بمرور الزمن، ومع استخدام منهج نقدي تحليلي في التدريس، أن تظهر حركة للتفكير الإبداعي مصاحبة لاحتكار الأزهر للتعليم الديني في مصر.

يواصل فضل الرحمن **انتقاده للتعليم الأزهري، وبخاصة تدريس مادَّة باسم "الدفاع عن القرآن في مواجهة الاعتداءات الغربيَّة"**، ما لم يجد الكاتب له أيَّ مبرِّر. فلو الدفاع كان عن الحديث، لكان ذلك مقبولًا؛ فقد شكَّك الكثيرون من المستشرقين في صحَّة الكثير من الأحاديث النبويَّة. أمَّا عن القرآن، فالتشكيك اقتصر على رجوع بعض سوره إلى فترة ما قبل بعثة النبي، وقد اشترك بعض علماء الشيعة مع المستشرقين في ذلك الرأي، بل وسبقوهم إليه، أي هو ليس من صناعة الغرب. ويقترح الكاتب أن يجتهد علماء السُّنَّة، بدلًا من الدفاع عن القرآن، في دراسة الترابط الفكري بين السور واستخراج معانيه ومضامينه.

يعود الكاتب إلى اتِّهام الأزهر بالتواطؤ مع السلطة الحاكمة في سبيل تمرير أفكار تخدم المصلحة الفرديَّة للحكَّام، وبخاصَّة فيما يتعلَّق بقمع أي معارضة تهدد سيطرة الحكَّام على السلطة المطلقة. أضف إلى ذلك، فسنُّ الأزهر للقوانين الشرعيَّة يضمن لها إذعان العامَّة ويحجِّم من إمكانيَّة إدانتها (ص١٠٤). ويرى الكاتب أنَّ في ممارسات مثل تلك ما يجعل في مباشرة السلطة الدينيَّة مهمَّتها الأساسيَّة بمراقبة السلوك والأخلاق مصاعب لا يمكن تجاوزها.

تجديد التَّعليم الدِّيني في إيران

بعد استعراض طبيعة تدريس العلوم الدينيَّة في مصر وتركيا، ونوعيَّة الموادِّ المقرَّرة في كلٍّ؛ وبعد التشديد على استقلاليَّة المؤسسة التعليميَّة الدينيَّة في تركيا عن الحكومة، وإن كانت تتلقى منها الدعم، واعتمادها على الدعم الشعبي؛ وبعد الإشارة إلى تبعيَّة المؤسسة ذاتها في مصر للسلطة، باعتبارها الممول والمتحكِّم في تعيين العاملين، بما فيهم شيخ

الأزهر ذاته، يتناول الكاتب طبيعة التعليم الديني هيئة المرجعيَّات في إيران، التي يصفها بـ "الحرَّة"، ويقصد عدم تقيُّدها بسلطة الحكَّام أو بتمويل الحكومة. تتلقى هيئة المرجعيَّات الدعم المالي من التجَّار والعامَّة، وقد عجزت الحكومة عن فرض سيطرتها بالكامل على التعليم الديني في إيران، برغم إصدار قوانين في النصف الأول من القرن العشرين منحتها بعض صلاحيَّات الإشراف، إيمانًا من الحكومة بضرورة فرض الرقابة على التعليم الديني لمنع أي تجاوُز غير مدروس يهدِّد الأمن الداخلي.

ظلَّ الصراع بين الدولة والمؤسسة الدينيَّة قائمًا في إيران، منذ القرن التاسع عشر، وحتَّى الثورة الخمينيَّة عام ١٩٧٩ ميلاديًّا. ويرجع السبب في ذلك إلى اعتقاد المذهب الشيعي بعدم شرعيَّة الدولة، أو محدوديَّة شرعيَّتها، في غياب الإمام. وازداد الاحتقان بين السلطة وملالي الشيعة بسبب التدخل الغربي في الشؤون الداخليَّة في إيران، وإدخال مفاهيم منافية لطبيعة العقيدة الشيعيَّة. وقد لعب ملالي الشيعة دورًا في الحياة السياسيَّة والعامَّة أكبر من دور مشايخ السُّنَّة في نفس النواحي. والسبب في ذلك لا يرجع إلى الاعتقاد بعدم شرعيَّة الدولة في غياب الإمام، مما يستوجب استشارة المرجعيات الدينيَّة في شتَّى الأمور، فحسب؛ إنَّما يرجع كذلك إلى أنَّ قدرة الملالي على تسيير الجماهير أكبر بكثير من قدرة مشايخ السُّنَّة. يستغل الملالي مشاعر العامَّة في المناسبات الدينيَّة من خلال اللعب على وتر محبَّة آل بيت النبي، وبخاصَّة حفيده الحسين بن عليٍّ وفاطمة. جعلت مرجعيَّات الشيعة من استشهاد الحسين ركنًا أساسيًّا في العقيدة الشيعيَّة؛ حيث اعتُبر نموذجًا للفداء في سبيل القضاء على الظلم. **وبرغم استعصاء عمليَّة تحديث التعليم الديني في إيران، فمناهج التعليم شملت منذ أمدٍ بعيد مجالات غير العلوم الدينيَّة. أضف إلى ذلك حرص الحوزات الدينيَّة على التركيز على الفلسفة، مما منح الملَّا الشيعي ميزة الإلمام بالعلوم الدينيَّة التقليديَّة والعقلانيَّة.**

يتمتَّع المرجعيَّات الشيعيَّة في إيران بسلطة واسعة النطاق؛ والسبب الأساسي في ذلك اعتقاد علماء المذهب الشيعي بأنَّ الحكومات فاسدة في غياب الإمام المعصوم. يمتلك ملالي الشيعة القدرة على تحريك الجماهير ضدَّ الحاكم، ليس لعدم شرعيَّة الحكم، إنَّما

بسبب قمع الحريَّات أو الخنوع في مواجهة التدخُّل الأجنبي-ينطبق هذا على ما حدث عام ١٩٧٩ ميلاديًّا، وقت خلْع الشاه رضا بهلوي، المتَّهم بالتفريط في النفط الإيراني لصالح الولايات المتَّحدة.

لم تتخلَّ المرجعيَّات الشيعيَّة على مدار تاريخها عن الفلسفة الداعمة للتفكير التأمُّلي، بل وصل التفكير الحر إلى مجال أصول الفقه. ومع ذلك، لم يكن التعليم الديني في إيران مُحدَّثًا بما يرضي المجدِّدين، ممن لم تجد دعواتهم الإصلاحيَّة الترحيب الكامل من المرجعيَّات المتحفِّظين؛ حيث وجدوها جذريَّة. أضف إلى ذلك، لم تكن الحكومة لترضى بتنفيذ تحديثات تهدِّد سلطتها. غير أنَّ المحدِّثين ودعاة الإصلاح الديني كانوا مخلصين في دعواهم، بلا أي رغبة في إضرار الدولة؛ فقد أرادوا إكساب السلطة الشرعيَّة من خلال تنفيذ مفهوم "تفويض" السلطات من الله والنبي والأئمة إلى الحاكم. **وانتهت دعوات الإصلاح أوائل الستينات من القرن الماضي بحالة من الاضطراب الداخلي أدَّت إلى قمع الحكومة تلك الدعوات، ونُفي الخميني عام ١٩٦٣ ميلاديًّا، تزامنًا مع حالة الاضطراب تلك.**

ظهرت دعوات إصلاحيَّة جديدة في إيران، ولكن مختلفة في مسألة التفويض والولاية؛ حيث اعتبرت أنَّ في انتظار الإمام الغائب سلبيَّةً لم تخدم العقيدة. وكان عليّ شريعتي، المفكِّر الشيعي ومُلهم الثورة الإيرانيَّة، زعيم ذلك التيار الإصلاحي الجديد، الذي عُرف بـ "حسينيَّة الإرشاد". درس شريعتي علم الاجتماع ومقارنة الأديان في جامعة السوربون الفرنسيَّة، وحصل على شهادتي دكتوراه في المجالين؛ فاستغلَّ منجزات العلوم الإنسانيَّة في تكوين عقيدة دينيَّة متطوِّرة، تضع روح العقيدة الشيعيَّة في جسد فعَّال يساير حركة التحديث الغربيَّة. أوَّل ما نادى به شريعتي كان الخروج من بوتقة الطوباويَّة الدينيَّة والنزول إلى أرض الواقع. وقد سبق شريعتي إلى تلك الدعوة، وانضمَّ إليها لاحقًا، مهدي بازركان، دارس الديناميكا الحراريَّة والهندسة في المدرسة المركزيَّة للفنون والصِّناعات في باريس، وأوَّل رئيس للحكومة في إيران بعد إسقاط الحكم الإمبراطوري. بعد سبع سنوات من التجريب الناجح لذلك المذهب التحديثي من خلال الكتب والمحاضرات، أُغلقت

"حسينيَّة الإرشاد"، وسُجن شريعتي، ثمَّ نُفي إلى لندن، حيث مات عام ١٩٧٧، عامان فقط قبل اندلاع الثورة الإيرانيَّة.

أهم ما تضمَّنه مذهب شريعتي اشتقاق المبادئ الاجتماعيَّة والتاريخيَّة من القرآن الكريم، واستخدام نفس المبادئ تلك في تفسيره. وأراد شريعتي تأسيس برنامج للتعليم الديني يقوم على منهجه في تفسير القرآن، إلَّا أنَّ تلك الجهود قوبلت بالانتقادات؛ ولعلَّ أشهر اتِّهام وُجِّه إليه أنَّه أراد أن "يجعل القرآن يقف على رأسه". ومع ذلك، نجح منهج شريعتي في دراسة الدين الإسلامي في استقطاب بعض شباب الدارسين، وتوقَّع الكاتب أنَّ يُعاد النظر في ذلك المنهج، برغم سيطرة سلطة الخميني الدينيَّة على المشهد.

سبيل إحياء الحضارة الإسلاميَّة من منظور رجب شانتورك: التَّصوُّف هو الحل

يستعرض هذا القسم أهمَّ ما جاء في مقال بعنوان "Unity in complexity: Islam as an open civilization–الوحدة في التعدُّد: الإسلام بوصفه حضارة منفتحة"، نشرته مجلَّة الدراسات متعدِّدة التخصَّصات للديانات التوحيديَّة (JISMOR)، في عددها السابع، المنشور عام ٢٠١١. يرى الكاتب، الذي تلقَّى تعليمه ما بين جامعات تركيا والولايات المتَّحدة، أنَّ الحضارة الإسلاميَّة كانت حضارة منفتحة، امتدَّت من الأندلس إلى الهند، وتعايش الجميع في ظلِّها بسلام، ولم يُجبر أحدٌ على ترك دينه لاعتناق الإسلام. يقول شانتورك في مستخلص مقاله "يشهد التاريخ أنَّ المسلمين ناجحون في إدارة التنوُّع؛ فالنظام السياسي الإسلامي لم يؤسِّس أبدًا مجتمعًا للمسلمين وحدهم"، وقد اعتمد تقسيم المناصب على الأقدميَّة، وفق الشريعة الإسلاميَّة، دون تفرقة عنصريَّة بسبب الدين (ص٤٩). ويرى شانتورك أنَّ الاتِّجاه الحالي في العالم الإسلامي إلى إحلال الديموقراطيَّة ونبذ الدكتاتوريَّة خطوة متأخِّرة نشأت عن أفكار التحرُّر من الظلم ونشر العدالة، النابعة في الأصل من الإسلام.

يبدأ الكاتب بطرح سؤال شائك وهو: هل سيكون هناك حضارة واحدة في المستقبل، أم حضارات متعدِّدة؟ ويطرح السؤال بعبارة أخرى: هل ستنصهر حضارات العالم بأسره في

الحضارة الغربيَّة؟ ويجيب شانتورك بالإشارة إلى حقيقة ثابتة، وهي أنَّه لم يحدث أبدًا من قبل أن سيطرت إحدى الحضارات على سائر حضارات العالم. على العكس من ذلك، فالتاريخ يزخر بأمثلة تثبت فشل العديد من الحضارات المهيمنة من قبل في جمع حضارات العالم تحت لوائها. يعلّق الكاتب على مدى نجاح الحملة الغربيَّة لفرض الثقافة الغربية، لتقل تغريب، العالم على مدار القرون الثلاثة الأخيرة، قائلًا "حقَّقت مهمَّة تمدين العالم، والتي شُكِّلت بوضوح لتغريبه، نجاحًا محدودًا، برغم العمل التبشيري الديني والعلماني المكثَّف لنشر الثقافة الدينيَّة والعلمانيَّة الغربيَّة. حاول المبشِّرون الدينيُّون نشر الدين الغربي، بينما سعى المبشِّرون العلمانيُّون إلى نشر الأيديولوجيَّات والعلوم الغربيَّة" (ص٥٠).

ويرى شانتورك أنَّ التسليم بأنَّ العالم يضمُّ حضارات متعدِّدة اليوم، وسيبقى هكذا على مرِّ العصور، يتوجَّب على المسلمين إيجاد وسيلة للترابط فيما بينهم، بما يشمل غيرهم من الأمم، ويضمن التواصل الإنساني، مع الحفاظ على الهويَّة الدينيَّة للمنتمين إلى كلِّ حضارة. **تقبل النظرة التعدُّديَّة للعالم أنَّ للوجود والمعرفة والقيم والحقِّ مستويات متعدِّدة، ولا يمكن اختزالها إلى مستوً واحد. يمكن أن تحدث وحدةٌ بين المسلمين والأمم الأخرى إذا قبِل المسلمون التعدُّديَّة، وابتعدوا عن النسبيَّة. المقصود هو أنَّ السعي إلى توحيد الحضارة/الثقافة العالميَّة يخلق الأزمات؛ لأنَّه ينطوي على طمس الهويَّة الدينيَّة والقوميَّة للأمم الأخرى. وتزداد المشكلة تعقيدًا عن اتِّباع النسبيَّة في الحُكم على الآخرين، باعتبار كلِّ مخالف للثقافة المهيمنة من الممكن تحاشيه ومحوه؛ كونه العنصر الضعيف في المعادلة.**

يقسِّم الكاتب الحضارات إلى نوعين: **الحضارات المنفتحة والحضارات المنغلقة.** أمَّا الحضارات المنفتحة، فهي التي تعترف بالحضارات الأخرى، وبحقِّها في الاستمراريَّة؛ وأمَّا عن المنغلقة، فهي التي ترى نفسها الحضارة الوحيدة في العالم، بل وتعمل على إصهار الحضارات الأخرى، لتُصبح جزءًا من حضارتها. **ويرى الكاتب في المجتمع العثماني نموذجًا للحضارة المنفتحة؛ فاستنادًا إلى الشريعة الإسلاميَّة، استطاعت**

الدولة تكوين إطار قانوني تعدُّدي، لممارسة النظم القانونيَّة المتشعِّبة النابعة من الحضارات المختلفة. يعتقد شانتورك أنَّ تكوين حضارة منفتحة اليوم ليس مستحيلًا، بشرط تطبيق نظام قانوني منفتح. ويعني الكاتب بالقانون المنفتح، إتاحة الفرصة لأيِّ آراء تنتمي إلى وجهات نظر أخرى، دينيَّة كانت أم علمانيَّة. ويمكن تحقيق ذلك من خلال مشروع بحثي تشريعي مقارن، يدرس كافَّة التشريعات المعمول بها في العالم، وهذا ما ليس ضمن مشروعات الولايات المتَّحدة، ولا غيرها من البلدان الغربيَّة، ما ينبع من الشعور بالسمو الثقافي والرغبة في الهيمنة على كافَّة الثقافات العالميَّة من خلال مشروع العولمة. في رأي شانتورك، لن تنتهي العولمة بنا إلَّا إلى صدام بين مختلف المجتمعات والخطابات، أو إلى بانفتاح الأمم على بعضها، متجاهلين الخصائص الاستثنائيَّة لكلِّ أمَّة. تحتاج القوى العالميَّة إلى نظرة منفتحة إلى القانون؛ لتحقيق وحدة المعرفة في مجال التشريع، وإلَّا حدث صدام بين المجتمعات حول معايير الحكم.

ما فعلته تقنيات الاتصال الحديثة هو أنَّها جعلت من العالم قرية صغيرة، لكنَّها هدمت بذلك العديد من الخواص الاجتماعية لكلِّ مجتمع، والمستمدَّة من الدين في بعض حالات، منها المجتمعات المسلمة. ما توفِّره الشريعة الإسلاميَّة هو أنَّها تتيح تعدُّديَّة الآراء، وفق المذهب الديني المتَّبع في كلِّ إقليم أو دولة. فهناك أربعة مذاهب تشريعيَّة اتَّفقت في أصول العقيدة، ولكن اختلفت تشريعاتها فيما يتعلَّق بأمور فرعيَّة، لم يصدر بها نصٌّ قرآني صحيح، أو يتناولها النبي بحُكم نافذ. ولعلَّ إتاحة الدولة العثمانيَّة هذا الانفتاح الديني ما منحها القدرة على تسيير أمور مختلف شعوب الأرض تحت إمرتها على مدار قرون. تطلق الكاتبة مارسيا كوليش في كتابها **Medieval Foundations of the Western Intellectual Tradition 400-1400-أسس القرون الوسطى للتقليد الفكري الغربي ٤٠٠-١٤٠٠** (١٩٩٧)، على الإسلام والمسيحيَّة واليهوديَّة "حضارات شقيقة"، وهو رأي يلقى تأييد بعض المفكِّرين. ويُعتبر الإسلام-وفق التصنيف غير الإسلامي-إحدى الديانات التوحيديَّة، المعروفة بالديانات الإبراهيميَّة، والتي تشترك في العديد من الأسس. وتقول موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة الأمريكيَّة أنَّ

اعتناق الدولة الرومانيَّة المسيحيَّة في القرن الرابع الميلادي يشكِّل أول اعتناق موسَّع للديانات الإبراهيميَّة في التاريخ، ويأتي اعتناق الإسلام في المرتبة الثانية. تجدر الإشارة إلى أنَّ تصنيف الديانات بدأ بتأسيس علم مقارنة الأديان في القرن التاسع عشر، على يد مستشرقين ولغويِّين غربيِّين، في محاولة لفهم الاعتبارات الفلسفيَّة الأساسيَّة لكل ديانة، وتفسير الطقوس والعقائد المرتبطة بها. يتساءل الكاتب، إذا كان الإسلام معترفًا به باعتباره ديانة إبراهيميَّة، فلماذا لا يدخل ضمن التقليد التشريعي الغربي؟

يجد شانتورك أفضل وسيلة لفهم الإسلام في تركيا اليوم في تناوُله من خلال الجدال الدائر بين الشموليَّة والطائفيَّة. تعني الشموليَّة الإيمان بأنَّ البشر جميعهم لا يمكن التعدِّي عليهم، فقط باعتبارهم بشرًا يتشاركون نفس المصير، أي اعتبار الذات جزءً من الجماعة. أمَّا الطائفيَّة، فهي تميِّز الناس، وتقسِّمهم إلى الذات والآخر، وأهم أسباب التمييز بين الناس هي الدين، والعِرق، والانتماء الوطني، واللون، واللغة. طالما كان الصراع بين الشموليَّة والطائفيَّة موجودًا، لكنَّ العولمة هي ما أبرزته، حتَّى صار الانقسام الأهم في العالم اليوم، ويمكن ملاحظته في مختلف البلدان. ويعلِّق الكاتب على حالة تركيا، مشيرًا إلى نظرتها الشموليَّة للعالم، وعدم ممانعة شعب إقامة علاقات موسَّعة مع الشرق والغرب، وإن وُجت فئة تمانع الانفتاح على الغرب؛ حيث تجد فيه منفذًا للتآمر، وهذه هي نظرة السياسيِّين والمفكِّرين الإسلاميِّين. **وهنا يتساءل الكاتب: هل الشموليَّة الإسلاميَّة انحراف عن الإسلام؟**

يعتقد شانتورك أنَّ جذور الفكر الشمولي، المقدِّر للآخر ولحقوقه، لدى الأتراك تدبُّ بجذورها في تطبيقهم المذهب الحنفي، وإيمانهم بمقولة الإمام أبي حنيفة النعمان "العصمة بالآدميَّة". تشير هذه المقولة إلى أنَّ حقوق الإنسان تولد معه، ولا تُكتَسب بفضل أو منَّة، حينما يُرضي الإنسان مغتصب الحقوق ويطبِّق نموذج الحياة الذي يرسمه له. يرى فقهاء المذهب الحنفي أنَّ كلَّ إنسان يُخلق بدرجة من الذكاء الفطري تؤهِّله لتحمُّل المسؤوليَّة والحقوق، ويُطلق على هذه الموهبة الفطريَّة الذِّمَّة. بما أنَّ هذه الذِّمَّة من أهم مقوِّمات الإنسان الطبيعيَّة، يعتقد الفكر الشمولي أنَّ المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات

مسألة بديهيَّة لا تقبل النقاش. ولعلَّ في إطلاق مسمَّى "أهل الذِّمَّة" على غير المسلمين اعتراف بحقوقهم الكاملة في المساواة بالمسلمين في التعاملات الإنسانيَّة. وعلى النقيض من الموقف الحنفي من العصمة، يرى معتنقو المذهب الشافعي أنَّ "العصمة بالإيمان أو بالأمان"، مما يضع بعض الشروط في منح الذِّمَّة، أهمها وجود معاهدة تنصُّ على منح الحقوق للمواطنين غير المسلمين في ظلِّ الدولة الإسلاميَّة. ويعتبر شانتورك هذا الفكر طائفيًّا، ويختصُّ بتنظيم العلاقات داخل أحد الأقطار الإسلاميَّة، أي لا ينطبق على الوحدة العالميَّة للبشر في ظلِّ الشريعة الإسلاميَّة.

توفِّر الشريعة الإسلاميَّة القاعدة التشريعيَّة اللازمة لإدارة التشعُّبات، وتحقيق الوحدة في المجتمعات في ظلِّ الحُكم الإسلامي؛ فالشريعة تتيح إطارًا للوحدة في الاختلاف. ويحرص الكاتب على التمييز بين طريقتي الإسلام والغرب في التعامل مع التباينات المجتمعيَّة والاختلافات الخاصَّة بكلِّ فريق ديني أو مذهبي في مرحلة ما بعد الحداثة التي نعيش فيها. يستخدم الغرب القانون في الفصل في التعاملات الإنسانيَّة، والقوانين تختلف من بيئة إلى أخرى. في حين تتضمن العقيدة الإسلاميَّة مذهبًا فلسفيًّا يتفوَّق على القانون في قدرته على تحقيق العدالة وإنهاء المخاصمات، وهي التصوُّف. فعوضًا عن العدل والقصاص، يقدِّم التصوُّف المسامحة والعطاء، وكأنَّما التصوُّف يتجاوز القانون، ويرتقي إلى مراتب أعلى في فهْم العلاقات الإنسانيَّة؛ فالعفو والعطاء يتفوَّقان على العلاقة التبادليَّة التي يكفلها القانون، ويخلقان مجالًا للتفاهم الإنساني المبني على الأخوَّة. يقول شانتورك في هذا نصًّا "القوانين تدعو إلى التبادليَّة، بينما التصوُّف يدعو إلى العدل والإحسان" (ص٥٧).

الإرث العثماني والتَّحدِّيات الحديثة

نشرت مجلَّة الكلام، المتخصِّصة في أبحاث العقيدة والفلسفة والدراسات الإسلاميَّة، وتستهدف تطوير الفكر الإسلامي من خلال الحوار والاهتمام بالمجالات والرؤى المرتبطة، حوارًا مع الدكتور رجب شانتورك ضمن أول أعدادها في سبتمبر من عام ٢٠١٨ ميلاديًّا؛ لسؤاله عن طبيعة الدراسات الإسلاميَّة في زمن الحداثة وما بعدها، وعن

طبيعة تصوُّره لكيفيَّة إحياء التراث الإسلامي ودمجه في العلوم الاجتماعيَّة الحديثة، التي ظهرت نتيجة انتشار الفكر الحداثي. تبدأ المجلة في منشورها للحوار بالتعريف برجب شانتورك، باعتباره حاصلًا على الدكتوراه في العلوم الاجتماعيَّة من جامعة كولومبيا الأمريكيَّة، ومديرًا لمؤسسة إسطنبول للتعليم والبحوث (ISAR)، وهي مؤسسة وقفيَّة تسعى إلى إعادة تدريس العلوم الدينيَّة للمدرسة العثمانيَّة، مع وضعها في إطارها التقليدي في "الصوفيَّة".

أجرى الحوار حمزة كراملي، وهو دارس للتقنيات الحديثة في جامعة تورونتو الكنديَّة اتَّجه لاحقًا إلى الدراسات الإسلاميَّة، بادئًا الحوار بسؤاله عن الفرق بين الدراسات الإسلاميَّة والعلوم الحديثة. جاء ردُّ شانتورك بالإشارة إلى أهميَّة السؤال، الذي يُشغل الكثيرين من الباحثين المسلمين منذ قرنين من الزمن، ممن عاش أسلافهم في ظلِّ الحضارة الإسلاميَّة، وقلَّ تعاملهم مع العالم الخارجي. عاش المسلمون في حضارة منفتحة؛ فدرسوا الحضارات السابقة–الإغريقيَّة والمصريَّة والهنديَّة والفارسيَّة–وترجموا أهم منجزاتها، دون خلط أفكار تلك الأمم بالرؤية الإسلاميَّة، التي تشكِّل أساسيَّات العلوم والتخصُّصات الإسلاميَّة. تنبني هذه الرؤية على علم الوجود الإسلامي، ونظريَّة معرفيَّة، ومنهجيَّة"، مضيفًا أنَّ علم الوجود الإسلامي متعدِّد الجوانب، أي يشتمل على "المُلك والملكوت واللاهوت" (ص٦٨).

يميِّز شانتورك بين المقصود بـ "المُلك والملكوت واللاهوت"؛ فالمُلك هو العالم المادِّي الملموس، والملكوت هو العالم الغيبي، غير المرئي، أمَّا اللاهوت فهو العالم الإلهي، لنقل المقام الذي يختصُّ به الله وينفرد به عن غيره، وهذا اعتقاد الصوفيِّين. يقول الأكاديمي التركي أنَّ المسلمين ترسَّخت في أذهانهم تلك العقيدة منذ القِدم، ولم يأخذونها عن الإغريق. ويختلف منظور العلوم الإسلاميَّة إلى العالم عن منظور العلوم الغربيَّة إليه؛ فالإسلام يرى العالم من منظور مثالي معنوي، بينما يراه الغرب من منظور مادِّي بحت. والصراع بين الماديَّة والمثاليَّة أثاره أفلاطون وأرسطو منذ قرون، ولم يزل قائمًا إلى اليوم، وتمتاز العلوم الإسلاميَّة بقبول الوجود الإلهي في عالم غيبي، أي لا يُرى ولا

يتجسَّد. وكما يتكوَّن عام الوجود من عدَّة مستويات، هكذا تتكوَّن نظريَّة المعرفة؛ لأنَّ لكل مستوً من مستويات علم الوجود، نحتاج إلى نوعٍ من المعرفة. ولهذا السبب، يوجد في علم الوجود نظريَّة معرفيَّة متعدِّدة المستويات، يُطلق عليها "مراتب العلوم"، كلُّها مقبولة، وهي المعرفة العقلانيَّة، والمعرفة التجريبيَّة القائمة على التجربة العلميَّة، والمعرفة المباحة، والمعرفة التجريبيَّة النابعة من الخبرة الشخصيَّة، مثل الكشف، والإلهام، والرؤى، والحدس.

يرى شانتورك عدم وجود تعارُض بين مصادر المعرفة الموضوعيَّة–القائمة على التجربة العلميَّة غير القابلة للخطأ–ومصادر المعرفة الذاتيَّة، النابعة من تجارب شخصيَّة تعتمد على التركيز والتأمُّل. أمَّا العلوم الغربيَّة، فهي قائمة على منهجيَّة واحدة، وهي التجربة العلميَّة وحدها، أو التجربة العقلانيَّة دون غيرها. أمَّا نظريَّة المعرفة في الإسلام، فه تتَّسع لتشمل كافَّة المناهج العلميَّة؛ وينطبق الأمر ذاته على التفسير القرآني. فالتفسير القرآني يقبل مفهوم مراتب المعاني، بالتأمُّل في المعنى الظاهر والمعنى الباطن، وللتفسير مراتب، هي التفسير بالدراية، والتفسير بالرواية، والتفسير بالإشارة؛ وهناك المعني الحقيقي، والمعنى المجازي، والمعنى العرفي. ولهذا السبب، يعتبر شانتورك نظريَّة المعرفة في الإسلام منفتحة، وتتيح عدَّة مجالات للوصول إلى العلوم، وتتوافق مع أيِّ منهجيَّة علميَّة متَّبعة في أي وسط علمي. ويأتي ذلك على عكس تبنِّي نظريَّة أحاديَّة المستويات للوجود، وقائمة على الاختزال، والتي يراها الباحث هدَّامة، وآيلة للزوال، ضاربًا المثل في ذلك بما حدث في الاتِّحاد السوفييتي، نتيجة الاستعانة بدائرة علميَّة مغلقة أدَّت إلى التسلُّط. وحدث ما يشبه ذلك في الصين؛ فقُتل ٤٠ مليونًا لمَّا رفضوا الدائرة العلميَّة المغلقة، "وهنا تكمن خطورة العلوم الحديثة؛ لأنَّها لا تفسح المجال أمام أصحاب الرأي المخالف، وتدَّعي أنَّها تقدِّم الحقيقة، بينما انغمس معارضوها في الخرافات" (ص٧١).

يوضح شانتورك أنَّ علاقة الفقه الإسلامي بعلم الاجتماع الغربي تكمن في دراسة كليهما عمَل الإنسان، وإن كان كلٌّ منهما يقوم على نظريَّة مختلفة للوجود. فبينما يقوم الفقه

على أساس نظريَّة منفتحة تقبل التجربة العلميَّة الموضوعيَّة والتجربة الذاتيَّة غير الخاضعة للإثبات العلمي، يعتمد على الاجتماع حصريًّا على أحد هذين المنهجين. وقد سعى بعض المفكِّرين المعاصرين إلى دمج الفقه الإسلامي بعلم الاجتماع الغربي، وكان ضياء كوج ألب في تركيا رائد هذا التيَّار، الذي عورض باعتباره لا طائلَ منه، طالما أنَّ الفقه الإسلامي موجود. غير أنَّ المناهج البحثيَّة القديمة اعتُبرت رجعيَّة، ولم تعد تتناسب مع إيقاع العصر الحديث. ويرى شانتورك أنَّ في هذا إجحاف لما يتضمَّنه الفقه الإسلامي من معرفة جديرة بالتطبيق، وإن كان يعجز أحيانًا عن الرد على بعض التساؤلات. ويرى شانتورك أنَّ إحياء علوم الفقه يتوقَّف عليه إحياء الحضارة الإسلاميَّة.

ويعنى علم الاجتماع الديني منذ نشأته، أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بالأصول البشريَّة للدين، وبخاصَّة لمَّا وصل المتخصِّصون في هذا المجال، في أعقاب الحرب العالميَّة الثانية، إلى قناعة بعدم وجود تفسير علمي سليم مبني على التجربة العلميَّة عن أصل الدين. ونشأ اهتمام لدى هؤلاء بكيفيَّة تأثير الدين على تصرُّفات الأشخاص على المستوى الاجتماعي، بما في ذلك التصرُّف الاقتصادي، والميول والانتماءات السياسيَّة؛ بمعنى آخر، درس هؤلاء دور المعتقدات الدينيَّة في تشكيل الوعي الاجتماعي والتأثير على القرارات الإنسانيَّة للفرد والجماعة. ويعاني علم الاجتماع الوضعي من مشكلة عدم الاعتراف بالتصرُّف الديني باعتباره نوعًا من التصرُّفات الاجتماعيَّة، معتبرين أيَّ تصرُّف يرتبط بالفرائض أو العقيدة الإسلاميَّة له تفسير سياسي أو اقتصادي أو نفسي. وما ضاعف من المشكلة أنَّ علماء الاجتماع ومفكِّرين اجتماعيين آخرين ارتكبوا خطأً عندما اعتبروا أنَّ الدين يخضع للتطوُّر الاجتماعي، الذي تخضع له المجتمعات والعلوم؛ وما يحدث الآن يثبت عكس ذلك، مع ارتفاع نسبة المؤمنين بوجود إله في الولايات المتَّحدة ذاتها، أكثر مجتمعات العالم على الإطلاق من حيث التطوُّر. يستنتج شانتورك بذلك أنَّ الدين وعلم الاجتماع ليسا متنافرين، بل يخدمان مجالًا واحدًا، بل ويعجز علم الاجتماع عن إجابة أسئلة يمكن للإسلام الإجابة عليها، ومنها سؤال مُلحٌّ: **ما معنى الحياة؟**

يعتبر شانتورك أنَّ علم الاجتماع الإسلامي هو الفقه، الذي يدرس التصرُّف الإنساني، وفق اجتهادات كبار الفقهاء الإسلاميِّين، أمثال أبو حنيفة والإمام مالك، والشافعي، وابن حنبل، والتي تتضمن ردودًا على أهم الأسئلة المحيِّرة عن الوجود، ونظريَّة المعرفة، والعديد من المجالات الهامَّة. يُطلق على تلك الاجتهادات لكبار أئمة الفقه المسلمين "الفقه الأكبر"، ويعتبر هذا الفقه أهم مدرسة في هذا المجال زمن الدولة العثمانيَّة.

توصيات المفكِّرين الأربعة لمواجهة التَّحدِّي الغربي

يطرح الدكتور عبد المجيد الشرفي (١٩٩١) تساؤلًا في غاية الأهميَّة **بشأن كيفيَّة تجاوُز مسألة صراع الحداثة الغربيَّة مع الإسلام، وهو أيُّهما الأصح: أسلمة الحداثة أم تحديث الإسلام؟ يعرِّف الكاتب أسلمة الحداثة بأنَّها منح الصبغة الإسلاميَّة لأمور استجدَّت على العالم الإسلامي، في محاولة للتوفيق بين المفاهيم الغربيَّة المتعلِّقة بالحداثة والمفاهيم الإسلاميَّة التي حفَّزت حركة النهضة العلميَّة والثقافيَّة في زمن النبوَّة والخلافة الراشدة والملك العاضِّ في تاريخ الإسلام.** قد يتطلَّب الأمر اختيار الأصلح والأنسب للفكر الإسلامي من المفاهيم التي استُغلَّت في تحقيق النهضة المادِّيَّة الغربيَّة، دون الاستعانة بالفلسفة الغربيَّة المحفِّزة لتلك النهضة. أمَّا تحديث الإسلام، فهو تطويعه للتغيير الذي يمليه الغرب لكي يصبح صورة من العقيدة التي يدين بها، **وأهم تغيير من الواجب إخضاع الإسلام له هو التركيز على الجانب العقلاني والدعوة إلى التفكير والسمو الروحي، بدلًا من العبادات الحركيَّة التي تستهلك الوقت وتعطِّل سير العمل.**

أمَّا فضل الرَّحمن (١٩٨٢)، فقد ذكر أنَّ هناك منهجين أساسيَّين طُبِّقا ضمن مساعي إصلاح التعليم الديني؛ أمَّا الأول، فكان يقوم على قبول النهج التعليمي العلماني الغربي كما طُوِّر في الغرب، ولكن مع محاولة تعديله بما يتَّفق مع قيم الإسلام. وتكمن المشكلة في هذا المنهج في أنَّ في حالة العجز عن تشرُّب الدارس القيم الإسلاميَّة الصحيحة في مرحلة مبكِّرة، زادت فرص علمنة التعليم وفقدانه الصبغة الإسلاميَّة. يرى فضل الرَّحمن أنَّ السبيل الوحيد لتفادي تلك المشكلة هي دراسة منهج يعبِّر عن الفلسفة الإسلاميَّة مستمدٍّ من القرآن الكريم. لا ينكر الكاتب تطوُّر فكر فلسفي إسلامي، على الأقل في

مرحلة القرون الوسطى، ولكنَّ هذا الفكر استُمِدَّ في المقام الأول من الفلسفة الإغريقيَّة القديمة، وكانت قيمه متنافرة مع صحيح الإسلام. ويعتبر كتاب فضل الرَّحمن **تجديد الفكر الديني في الإسلام** (١٩٣٠) للباكستاني محمَّد إقبال من أولى تجارب المفكِّرين المسلمين التعبير عن **فلسفة إسلاميَّة تشجِّع على التفكير، الذي أطلق عليه "الرياضة النفسيَّة"، بما لا يتعارض مع صحيح الإسلام، بل يرقِّيه من خلال دعمه بالفكر الحديث.**

ويستنتج الدكتور رجب شانتورك من بحثه (٢٠١١) أنَّ المجتمع المؤمن بالعقيدة الإسلاميَّة القائمة على الشموليَّة منفتح على المجتمعات الدوليَّة، ولا يمانع أبدًا إقامة علاقات مع الغرب غير المسلم، الذي يعتقد في أنَّه يشاركه نفس المصير الإنساني. أمَّا عن وسيلة إزالة الاختلافات البينيَّة، فلا شكَّ في أنَّ التصوُّف ومفاهيمه القائمة على العفو والإحسان إلى الغير، كما ينصح شانتورك، أنسب وسيلة لتحقيق ما تعجز عنه القوانين. **ونتيجة اعتناق التصوُّف، النابع من المذهب الإسلامي الشمولي، يعتبر الكاتب أنَّ "تركيا هي الدولة الوحيدة التي تتمتَّع بأغلبيَّة مسلمة وتجد لنفسها مصيرًا مشتركًا مع أوروبا غير المسلمة"** (ص٥٨).

وأخيرًا يأتي رأي الشيخ سفر الحوالي (٢٠١٨)، المختلف عن آراء سابقيه، في دعوته إلى التركيز على دراسة القرآن الكريم والشريعة الإسلاميَّة، وتنقية الفِكر الإسلامي ممَّا أُدخل عليه من فلسفات كانت سببًا في نشر أفكار أفضت إلى تأخُّر الأمَّة المسلمة، وليس إلى تقدُّمها. وننقل أهم التوصيات التي تتضمنها خاتمة الكتاب (ص٣٠٥٠-٣٠٥٦):

-ضرورة حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية وقراءة سير السلف والاطلاع على أحوال فقهاء الإسلام، وفهم ذلك فهمًا واسعًا.

-ضرورة تعليم اللغة العربية والتخاطب بها، ونبذ اللغات الأخرى ونبذ العاميَّة.

– الذنوب سبب كل مصيبة ويجب اجتنابها بقدر الإمكان والإكثار من الاستغفار وذكر الله، والتوبة إليه والضراعة إليه.

– تربية الأمة على الجهاد في سبيل الله **والزهد في الدنيا**، ومعرفة حقيقة الجهاد الشرعيَّة، فلا هو ما يسمى الإرهاب ولا هو ما يسمى التسامح.

– الدراسة العميقة للتاريخ وأخذ العبرة من أحداثه فهو كما يقولون يعيد نفسه، وتلك سنَّة الله الدائمة.

– معرفة واقع العدو وحقيقته والتمييز بين فئاته ودراسة الجاهليَّة الغربيَّة دراسة متعمقة.

– الحضارة نعمة إلهيَّة ولا تقتصر على الجوانب الماديَّة، بل هي مثُل وأخلاق وترفع وسمو، وليست الحضارة الغربيَّة كلها شر.

– الحضارة الإنسانيَّة جهد إبداعي تراكمي اشتركت فيه كل الأعراق والشعوب.

– أساس كل حضارة وتقدم هو توحيد الله والعمل وفق شرعه، وما عدا ذلك انحطاط وتأخُّر وانتكاسة.

–الحضارة الإسلاميَّة أسبق من كل الحضارات إلى كل خير ولها خصائص ليست لغيرها، وعلى العلم الإسلامي قامت العلوم الغربيَّة.

–الحضارة الغربيَّة تسعى لاحتكار المعرفة واستعباد الشعوب الأخرى لا سيما الإسلام، ولا تلتزم بالأخلاق والعدل، والعلاقات الدوليَّة المعاصرة تقوم على المصالح الماديَّة للدولة وليس على الحق والمبدأ.

– العلم في الإسلام لا يتعارض مطلقًا مع الدين.

–القوة أحد أركان الحضارة ولكنها ليست المعيار الوحيد كما يظن الغرب.

– كلما حافظ المسلمون على استعلائهم وخصائصهم ارتقوا في السلم الحضاري، وكلما ذابوا في غيرهم واتبعوا هديه واستخدموا تقويمه، كان ذلك انحطاطًا لهم ولحضارتهم.

- النور المبين هو هدى الله وعبادته وحده لا شريك له، وما عدا ذلك تخبُّط في الظلمات وحيرة بين دعوات شياطين الإنس والجن.

- خُلق الإسلام هو الحياء، وأعظمه الحياء من الله.

-الإسلام يجمع بين الفطرة والتجربة، وبين العقل والنقل، وبين المنطق والعاطفة، وبين الدنيا والآخرة، وليس في الإسلام ما هو سياسي وما هو طقوسي، وليس صلة روحيَّة فقط بل هو دين شامل كامل للدنيا والآخرة وأحكامهما.

- ضرورة التجديد والإبداع مهما رأى الناس ذلك خروجًا عن المألوف، وهكذا عالج كل رسول الأدواء الاجتماعيَّة لقومه مع اشتراكهم كلهم في الأساس وهو توحيد الله وعبادته بلا شريك.

-الحكم الإسلامي إنما هو بالشورى وليس بالديمقراطيَّة، ويجب على المسلمين أن ينتهزوا فرصة الدعوة عالميا لإشراك الشعوب في الحكم، وفي تصحيح الحكم الإسلامي وقيامه على الشورى لا على الوراثة.

- ضرورة التجديد وأن يراعي المجدد واقع عصره، والرُّسل الكرام صلوات عليهم أجمعين كلٌّ عالج الأدواء الاجتماعيَّة لقومه مع اتفاقهم جميعا في الدين.

٣.صراع الحداثة مع الإسلام من منظور توفيقي بين الإسلام والحضارة الغربيَّة

بعد استعراض آراء مجموعة متنوِّعة الانتماءات القوميَّة من المفكِّرين الإسلاميين حول صراع الحداثة الغربيَّة مع العالم الإسلامي، يتناول هذا القسم آراء مجموعة أخرى للصراع ذاته، ولكن من زاوية تعمل على التوفيق بين مفاهيم الإسلام وعوامل الحداثة الغربيَّة، بالإشارة إلى عمل كاتبين معاصرين، هما المصري خالد محمَّد خالد، وهو مفكِّر إسلامي اشتراكي الميل وعلماني الفِكر، وعادل عبد المهدي، الباحث الأكاديمي العراقي

في مجال العلوم السياسيَّة، ونائب رئيس العراق الأسبق، ورئيس الوزراء العراقي الحالي منذ أكتوبر ٢٠١٨ ميلاديًّا، وصاحب العديد من المؤلَّفات في مجال السياسة والاقتصاد.

انطلاقة نهضة العالم الإسلامي كما يراها خالد محمَّد خالد

صدر بحقِّ كتاب **من هُنا نبدأ** في مايو من عام ١٩٥٠ ميلاديًّا أمر بالضبط، بناءً على رأي رئيس لجنة الفتوى في الجامع الأزهر، بتهمة التعدِّي على الإسلام علنًا، والترويج لمذهب يرمي إلى تغيير النظم الأساسيَّة للمجتمع، والتحريض على ازدراء فئة مجتمعيَّة، هي فئة الرأسماليِّين. اتَّهمت لجنة الفتوى في الأزهر الكاتب بتشويه صورة السلطة الدينيَّة–التي يصفها بالكهانة–والتي تمارس مهمَّة التصدِّي لأي تحريف لمنهج الله القويم، في ضوء القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة المطهَّرة، من خلال بثِّ أفكار عن تلك السلطة تتهمها بالرجعيَّة من ناحية، وبالحُكم وفق هوى السلطة الحاكمة من ناحية أخرى. كما اتَّهمت لجنة الفتوى الكاتب كذلك بتقليص مهمَّة الدين إلى اعتباره مجرَّد وسيلة للنصح والإرشاد، بلا أيِّ علاقة بينه وبين السلطة؛ **على اعتبار أنَّ نبيِّنا مُحمَّد (ﷺ) لم يمارس السلطة في حالات ضروريَّة. وتضم لائحة الاتهام كذلك مطالبة الكاتب بإيقاف إقامة الحدود؛ لما لتطبيقها من تأثير منفِّر من الدين، مثل إقامة حدِّ السرقة بقطع اليد. ومن بين الاتهامات كذلك التنفير من فرض الزكاة، التي يرى في إعطائها الفقراء إذلالًا، مناديًا بتطبيق الاشتراكيَّة، التي تكفل للشعب كلِّه حياة كريمة.**

أُخذ على الكاتب كذلك **اتهامه السلطة الدينيَّة في الدولة بالحُكم تبعًا لهواها، وليس الكتاب والسُّنَّة، وبتفسير الآيات وفق هوى النفس، وليس الأمر الإلهي. وكذلك أُخذ عليه رفضه الحكومة الدينيَّة للدولة؛ على اعتبار أنَّ استغلال الدين في حُكم الشعوب يُحدث صدعًا في العلاقة بين الدين والبشر؛ بأن يصير الدين سيفًا يقطع الرقاب وفق مصلحة الحاكم، بينما هو موجود لتحسين أحوال الناس.** ويضيف الكاتب إلى أسباب رفضه للدولة الدينيَّة أنَّ دعوة الدين في جوهرها تستهدف التوحيد، والعدالة، والمساواة، والإخاء بين البشر، فما الحاجة إلى تأسيس دولة دينيَّة إن كانت تلك فحسب هي أهداف الدين؟

ويفرِّق الكاتب كذلك بين الدين والدعاة إليه؛ فالدين منزَّل من عند الله، ولكن الدعاة بشر يصيبون ويخطؤون، ويحكمون بحسب الهوى–إن استدعى الأمر. **وفي نفس هذا السياق، يشير الكاتب إلى استغلال المعاني المختلفة التي تعكسها الآيات القرآنيَّة والأحاديث الشريفة، مستشهدًا بذلك بقول الإمام علي "القرآن حمَّال أوجه"، وقول الصحابي عبد الله بن عبَّاس "القرآن ذلول ذو وجوه؛ فاحملوه على أحسن وجوهه"، إلى أقوال مشابهة لمفسِّري القرآن الكريم.** وكان ردُّ الكاتب على المطالبين بحكومة دينيَّة تقيم العدل وتمحي الرذائل، بأنَّ التطهر من الآثام لا بدَّ وأن يكون من الداخل، وليس بفعل سلطة خارجيَّة تنفيذيَّة؛ لأنَّ الرغبة في البعد عن الآثام إن لم تنبع من الداخل، سيجد الناس وسائل أخرى عديدة لممارسة الرذائل، وحينها سيشتد العداء بين الدين، الذي سيصف سفًا فوق الرقاب، والبشر، الذين سيرون الدين وسيلة تهديد وإرهاب.

يدعو الكاتب إلى العدالة في توزيع الفرص والثروات بين الناس؛ للحد من الفوارق الاجتماعيَّة ورأب الفجوة الكبيرة بين الفقراء والأغنياء. والسبيل إلى ذلك هو تطبيق قيم اشتراكيَّة تضمن العدالة الاجتماعيَّة، وتحدُّ من سطوة طاغوت الرأسماليَّة، دون محوها بالكامل. فما هو السبيل للخروج من أزمة انتشار الفقر، وانخفاض أجور العمَّال، وتفشِّي الأمراض والأميَّة؟ ولم تجد رئاسة محكمة القاهرة الابتدائيَّة فيما قاله الكاتب ما يتعرَّض لصحيح الدين بالافتراء أو الطعن؛ ومن ثمَّ، أمر رئيس المحكمة بإلغاء قرار ضبط الكتاب، استنادًا إلى أنَّ "حريَّة الرأي مكفولة في حدود القانون" وأنَّ "الكتاب لا ينطوي على جريمة ما".

يبدأ خالد محمَّد خالد كتابه بالإشارة إلى حكمة يؤمن بها، هي "الاستبداد هو الأب الشرعي للمقاومة"، لافتًا إلى أنَّ الطريق إلى تكوين "حضارة خصيبة" مثمرة تقضي على التخلُّف والعبوديَّة هو "فتح منافذ الملاحة الفكريَّة، والقضاء على كلِّ بواعث التهيُّب في الشعب"؛ ويضيف الكاتب حكمة أخرى، هي "إذا أساء الشعب ممارسة حريَّته، ومارس حقَّه فيها ممارسة طاغية، فقد وقَّع وثيقة عبوديَّته، وأتاح للحكومة فرصة وضعه تحت الوصاية من جديد" (ص٤٣). أمَّا عن السبب من الإشارة إلى ذلك، فهو رغبة الكاتب

في تنقية الأذهان والقضاء على أسباب التخلُّف في سبيل اللحاق بركب التقدُّم. أراد الكاتب بثَّ الوعي، في مرحلة اختلطت فيها الآراء، وصعُب على الناس التمييز بين السُبُل لاختيار الأجدر بالاتِّخاذ. ويتولَّى الكاتب مهمَّة التمييز بين الحقِّ والباطل، وفق الفكر الذي اتَّبعه ورآه الأصح؛ لأنَّ ذلك "هو السبيل، كلُّ السبيل، إلى خلْق المجتمع الحرِّ الباسل الذي نريد أن نكونه" (ص٤٤). يدعو الكاتب إلى "**تحوُّل اجتماعي وديع يفضي بنا إلى قوميَّة شاملة لا تنافُر فيها، وإلى اشتراكيَّة عادلة ولا استغلال ولا ظلم فيها، وإلى وعي ناضج سليم لا سلطان للرجعيَّة ولا للكهانة عليه، وإلى سلام غامر يبدِّل حقد المجتمع حبًّا، وتربُّصه ولاءً وأمنًا، وقلقه استقرارًا وغبطة**" (ص٤٦).

عندما يكون الدين عقبة في طريق التحرُّر والتقدُّم، ومانعًا دون الحقوق، تصبح علاقة الشعوب به علاقة تنافُر، وليس تجاذُب. ويرى الكاتب أنَّ استمرار الولاء للدين–وبالتالي الخضوع له–يعتمد على أمرين أساسيِّين: الأوَّل قدرته على التفاعل مع حاجات البشريَّة، دون إظهار أيِّ عجز في أي حين من الزمن؛ "حتى تستطيع البشريَّة أن تجد منه عونًا دائمًا يمكِّنها من مواجهة مشاكلها المستحدثة، وضروراتها الطارئة، ويبارك محاولاتها المستمرة للتقدم والوثوب" (ص٤٩). أمَّا الثاني، فهو عدم حياده عن الهدف الذي وُجد لأجله، وهو إسعاد البشريَّة وتحقيق العدالة والمساواة، وليس تنظيم حياتهم.

بدأ الكاتب يحذِّر مما أطلق عليه "الكهانة"، قاصدًا السلطة الدينيَّة، التي سعت منذ قرون إلى السيطرة على حياة البشر، من خلال استغلال تقيُّدهم بالدين، "مباركةً الرجعيَّة الاقتصاديَّة والرجعيَّة الاجتماعيَّة، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض" (ص٥٠). ولا يجد الكاتب حرجًا في دعوة الحكومات والمجتمعات إلى التخلُّص من كلِّ صور الكهانة، التي شوَّهت علاقة البشر بدينهم، وأدخلت على الدين ما ليس فيه، داعيًا إلى العودة إلى صحيح الدين، وبثِّ تعاليمه الصحيحة. ما يقصده الكاتب هو أنَّ رسالة الله الحقيقيَّة هناك من أساء نقلها للناس، فاستغلَّها لتحقيق مصالحه الفرديَّة. ولأنَّ في نشر العلم والوعي الصحيحين ما يعطِّل مساعي هؤلاء للسيطرة على السلطة باسم الدين، يعارض "الكهنة" أيَّ فِكر تنويري، وإن كان في نشر الفكر التنويري تحقيق للتقدم والمدنيَّة. يعني

ذلك أنَّ الحداثة هي عدو تجَّار الدين؛ لأنَّ في تطبيقها إنهاء لممارساتهم الباطلة باسم الدين.

يستنكر الكاتب موقف رجال الدين من الحداثة بعد الحرب العالميَّة الثانية، حينما بدأت الدول الأوروبيَّة إعادة بناء نفسها، وتبنِّي أفكار تقدميَّة للقضاء على التخلُّف والرجعيَّة، بينما انخرط رجال الدين في الوعظ بأهميَّة القيم الدينيَّة، والثبات على المبدأ، والصبر في البأساء والضرَّاء، بل والترويج لأنَّ الرسول ذاته اعتبر أنَّ الفقر من سمات الملتزمين بصحيح الدين؛ فقد روى الترمذي، في حديث حسن صحيح، أنَّ رجلًا جاء النبي، فقال "وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " انْظُرْ مَا تَقُولُ " ، قَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، قَالَ : "إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدَّ لِلْفَقْرِ تِجْفَافًا ، فَإِنَّ الْفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَى مُنْتَهَاهُ". **ويرفض الكاتب التسليم بذلك، معتبرًا أنَّ الحضّ على الرضا بالفقر تخاذُل.** علاوة على ذلك، يسخر الكاتب من استنكار أحد الأزهريِّين مطالبة أقرانه بتحسين أوضاعهم الماديَّة بأن قال (الأزهري) "إنَّه ليحزننا اهتمام الأزهريِّين بالأرزاق والدرجات، إنَّ العلم والدنيا لا يجتمعان في قلب واحد، فليختر الأزهريُّون لأنفسهم إمَّا العلم وإمَّا الدنيا". الأكثر من ذلك أنَّ الكاتب يعتبر أنَّ دعوة علماء الأزهر الجماهير إلى الصبر على الأوضاع الاقتصاديَّة مؤامرة اشتركوا فيها مع النظام الحاكم لصرف أصحاب الحقوق عن المطالبة بحقوقهم.

يُطلق الكاتب على نظام الزكاة الذي وضعه الإسلام "اشتراكيَّة الصدقات"، ويراها امتدادًا لفكرة وثنيَّة عمل الكهنة من خلالها على إجبار البسطاء من المزارعين على إعطاء جزء من محاصيلهم للمعابد، على اعتبار أنَّ الأرض التي يزرعونها هي في الأساس للربِّ. يقول الكاتب "فالصدقة في نظر الكهانة نظام اقتصادي وافٍ! ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر وإسعاد الشعب ومطاردة متاعبه وشقائه، وإنَّك لتسمع وترى الدعوة إلى الصدقة في كلِّ مناسبة حتى لتكاد تشكُّ: هل أنتَ في مجتمع أم في ملجأ!" (ص٥٧). ويضيف خالد أنَّ الله تعالى لم يعتبر الصدقة نظامًا للعدالة والتكافل الاجتماعي في حدِّ ذاته، ولا وسيلة للنهضة والارتقاء، مشبِّهًا إيَّاها بـ "أكل الميتة" (ص٥٨). ويستشهد الكاتب في ذلك

بحديث رواه الإمام مُسلم، عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال: قال رسول الله (ﷺ) "**إنَّ الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس**". وردًّا على هذا الزعم، يوضح الدكتور خالد المُصلح، أستاذ الفقه الإسلامي في جامعة القصيم، في مقطع نشره على صفحته على يوتيوب، **أنَّ المقصود بالحديث أنَّ الصدقة تطهِّر أعمال مخرجيها من الآثام، أو لتقل الأعمال الدنسة،** والتي يُشار إليها بـ "أوساخ الناس". أمَّا المال نفسه فهو حلال تزكِّيه الصدقة من السوء، استنادًا إلى قوله تعالى في الآية ١٠٣ من سورة التوبة "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا".

يستمر الكاتب في انتقاده اللاذع للمؤسَّسة الدينيَّة، متهمًا إيَّاه بتشريع البقاء على العوز والنفور من سُبُل النهوض، من خلال نشر "فلسفة كهنوتيَّة كئيبة" تدعو العالم الإسلامي وحده إلى "نبذ المادَّة المضللة، والاعتصام **بالروحانيَّة**" (ص٦١). وبرغم إطلاقه على علماء الدين مُسمَّى "الغافلون النافعون"، فهو يعترف بإخلاصهم لثوابت الدين، وصدق دعواهم؛ إلَّا أنَّه لا يطمئن لطبيعة تفكيرهم، المفتقر إلى الرؤية العميقة، والمستغرق في الرجعيَّة. ويقول بالنصِّ في ذلك "الرجعي الذي يعمل على تعويق التطوُّر والحضارة، ويعمل على أن تبقى النظم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والثقافيَّة في الشعب كالمومياء المحنَّطة لا تدب الحياة فيها، ولا يجري في عروقها دمٌ جديدٌ، مغفَّل نافع للاستعمار والجهل" (ص٦٢).

يتناول الكاتب مسألة **الروحانيَّة من منظور رجال السلطة الدينيَّة**، ويعتبرها مخدِّر استُخدم لتخدير الشعوب وإلهائها عن المطالبة بحقوقها. ولعدم الخالط، لا يقصد خالد بالروحانيَّة التنقية الروحيَّة من خلال جلسات التأمُّل والتدبُّر والذِّكر للحصول على الإلهام، أو "إطلاق البخور، وتلاوة الرقى، ومخاطبة الجان، واستحضار الأرواح"، إنَّما يشير إلى مفهومين لها: الأوَّل هو نبذ المُتع الدنيويَّة والابتعاد عن مباهج الحياة؛ أمَّا الثاني، فهو التركيز على الفضائل المعنويَّة والنفسيَّة التي ترقِّي في المرء العوامل الإيجابيَّة، من تسامُح ومحبَّة وإيثار (ص٦٥). ويعترض الكاتب على هذا السلوك المحرِّض على السكوت عن الحقِّ، معتبرًا أن عصر الزُّهد قد ولَّى، ومضيفًا أنَّ توصية

الرسول بعدم الافتتان بمُتع الدنيا "((توجيهات استثنائيَّة)) لظروف استثنائيَّة" (ص٦٦). ويتساءل الكاتب "أليست الروحانيَّة تعني السلام والإخاء والمحبَّة؟ وكيف السبيل إليها في جماعة يؤجِّج الحرمان في أنفسهم نار البغضاء والحقد والتشاؤم من الحياة وأهلها!" (ص٦٩).

ويستعرض خالد محمَّد خالد مفهومه عن الروحانيَّة، مستشهدًا بقول المستشرقة "الفاضلة" كاترين هنري، الذي يقول أنَّ الإنسان "مفتقر دائمًا إلى الوحي والإلهام في حياته الفرديَّة والاجتماعيَّة. والروحانيَّة هي التي تكمل النقص من هذه الناحية، وتُطلق القوى الكامنة في طبيعة الإنسان من عقالها، وتوجهها إلى متجهات في الحياة نحو الله، ونحو محبَّة الإنسان وخدمته" (ص٧١). الروحانيَّة من منظور الكاتب تفتح الأفق والمدارك، وتمدُّ الإنسان بمعرفة بالمجهول، وتكشف له عن الغوامض؛ وتلك الروحانيَّة هي سرُّ العبقريَّة وبداية الابتكار من خلال "تلك الإلهامات التي تومضها فينا أحيانًا، والتي أومضتها في نفوس العباقرة والمخترعين، فكانت تلك الحضارة العتيدة" (ص٧١). ويستتبع الرخاء الاقتصادي، وسدُّ الحاجات، وتوفير الرعاية الاجتماعيَّة السليمة هذا "الإشراق الروحي"، وبعد ذلك تحدث النهضة الحضاريَّة المرجوَّة، ولا سبيل لتلك النهضة سوى ذلك.

تجدر الإشارة إلى أنَّ استخدام مُصطلح "الكهنة" في وصف رجال الدين يستمدُّه الكاتب من وصف المفكِّر والمؤلِّف البريطاني إتش جي ويلز لهم في كتاباته. ويتأثَّر خالد محمَّد خالد كثيرًا بأفكار ويلز، المعروف بكتاباته المبكِّرة عن الحداثة وطبيعة تفاعُل الأمم معها في المستقبل، حيث كَتَب عن ذلك منذ مطلع القرن العشرين. يتميَّز ويلز بكتابته في مجال الخيال العلمي، وبتناوله المستقبليَّات؛ ومن بين الأفكار التي تعرَّض لها ضرورة تحرير العقل من القيود البالية، التي لا تناسُب زمن الحداثة، و"ارتشاف العرفان...على أيدي الكهنة"، الذين يعتبر ويلز كثيرًا منهم "أغبياء، متمسِّكين بالمبادئ النظريَّة، وقد أعمى تمسَّكهم الجامد بالتقاليد بصائرهم" (ص٧٣). من جديد، يؤكِّد خالد أنَّ عقليَّة رجال الدين المتحجِّرة هي التي تعمل على الإبقاء على الرجعيَّة؛ لأنَّ في نشر التنوير الذهني

تهديد لمصالحهم الشخصيَّة. تحتكر أفكار السلطة الدينيَّة العقل، وتجد العقل الحرَّ تهديدًا لمستقبلها؛ على عكس الدين، الذي "**يدعو لإضاءة الأنوار، ويعلن سُلطان العقل أيَّما إعلان، ويدعوه إلى اقتحام كلِّ مناطق الفكر دون أن يخاف أو يخشى**" (ص٧٤).

يتطرَّق خالد محمَّد خالد إلى مسألة تحرُّر الغرب من قيود الكنيسة، بعد أن أراقوا دماء علماء ومفكِّرين بسبب أفكارهم المعادية لتعاليم الكنيسة. فقد اتَّهمت الكنيسة جاليليو بالإلحاد، وقبله سجنت كوبرنيكوس؛ لكنَّ التقييد العقلي انتهى اليوم، وبقيت إسهامات هؤلاء العلماء. ويدعو الكاتب أقطاب السلطة الدينيَّة إلى اليأس من محاولاتهم لتغييب العقول؛ لأنَّها محكوم عليها بالفشل، معتبرًا أنَّ "الكهانة تتوسَّل بالمسجد والمنبر لتقويض المجتمع"، وأنَّها "تحارب العقل لأنَّه يُري الناس عوراتهم، ويبدي لهم سوءاتها، ويعمل جادًّا لفضِّ سوقها...هي تخشاه لأنَّها لا تصبر على بحث، ولا تصمد أمام نقدٍ. أمَّا الدين الصحيح، فيعلم أنَّ العقل صديقه الوحيد، الذي يهيئ له النفوس، ويمكِّن له في القلوب" (ص٧٧). ويستشهد الكاتب في ذلك بحديث الرسول (ﷺ) إلى الصحابي حذيفة بن اليمان "يَكُونُ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: " هُمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا". أي أنَّ "الدُّعَاةُ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ" الذين يقصدهم خالد محمَّد خالد هم الذين يحاربون الجانب الروحاني في العبادة، ويستغنون عن تطبيق الفلسفات الغربيَّة المُستمدَّة من العقائد الوثنيَّة، ويلتزمون بصحيح الكتاب والسُّنَّة؛ هؤلاء من منكري البدع والمُحدثات هم يهدون النَّاس إلى جَهَنَّمَ، ومن استجاب لهم وطبَّق أفكارهم المعادية للفكر الحداثي "قَذَفُوهُ فِيهَا".

يستعرض الكاتب لاحقًا الفرق بين الدين وبين الكهانة، معتبرًا أنَّ أهم الفروق هو إنسانيَّة الدين وأنانيَّة الكهانة. سخَّر الله الكون لخدمة الإنسان، وأمره بالسعي في مناكب الأرض وطلب الرزق، لكنَّ الكهانة جاءت لتوقع الإنسان تحت سطوة قيود تحرمه من حقوقه في العيش، فقط من أجل تحقيق مصالح فئة محدودة منتفعة من خلال أفكار مغلوطة ليست من عند الله، إنَّما من الشيطان؛ فالكهنة "أسهموا في خلق طبقة ((رقيق الأرض))، واسترقُّوا الجماهير الكادحة لحسابهم، وحساب الإقطاعيِّين"، حتَّى جاء الدين وخلَّص

البشر من تلك القيود (ص٨٣). ويستشهد الكاتب في ذلك بقصَّة نبي الله موسى مع فرعون، كما وردت في سورة الدخان "وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) **أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** (١٨)".

وتشكَّل الديموقراطيَّة الفرق الثاني بين الدين والكهانة؛ فالدين أزال الفوارق بين البشر، ولم يفرِّق بين عربي وأعجمي إلَّا بالتقوى، كما أمر بعد استعباد الناس، الذين ولدتهم أمَّهاتهم أحرارًا. أمَّا الكهانة، فهي تشدِّد على أهميَّة الفوارق الاجتماعيَّة، وتُبقي فئة معيَّنة، تضيِّق عليها في المعيشة، في أدنى مراتب المجتمع؛ لتضمن لنفسها الصدارة ولترسِّخ لبقائها في الواجهة؛ فقد اعتاد الكهنة على "أن ينحني لهم الناس، ويخرُّوا على أيديهم سُجَّدًا ثمَّ يشبعوها لثمًا وتقبيلًا...وكذلك تعوَّدوا أن يأمروا فيُطاعوا لأنَّهم أبناء السماء، أو أبناء الهيكل...والويل لمن يقول لشيخه أو كاهنه: لمَ؟" (ص٨٤). يعتبر الله تعالى البشر سواسية، بينما تطالب الكهانة بـ "خلافة دينيَّة وحكومة دينيَّة"، تضع على رأس الناس من يستعبدهم، ويسيطر عليهم (ص٨٥).

أمَّا الفرق الثالث، فهو اعتماد الإيمان الديني على العقل، بينما تُخرجه الكهانة من حساباتها بالمرَّة. يستشهد الكاتب في ذلك برأي أئمة أهل السُّنَّة عن ضرورة إعمال العقل، واستنادهم إليه في استصدار الفتاوى والأحكام؛ أمَّا الكهانة، فهي تبثُّ المخاوف في النفوس من محاولة فهْم الحقيقة، وتُرهب كلَّ من يحاول الانتصار للحقِّ، واتِّخاذ المنهج الديني القويم. يثري الدين الحياة ويعد بالفوز بالنعيم في الآخرة؛ أمَّا الكهانة، فهي لا تُذكِّر الإنسان إلَّا بالموت، وبالتراب الذي خُلق الإنسان منه، وسيعود إليه. ومن هنا، ينتقل الكاتب إلى الفرق الرابع بين الدين والكهانة، وهو النظرة الدينيَّة المتفائلة للحياة، وتشجيعه على العمل لتحقيق الذات، والارتقاء بالأمم، وهذا ما لا تريده الكهانة. يتطوَّر الدين في خطوات منتظمة، بينما تبقى الكهانة على حالها.

ولإيقاف نشر الوعي الديني الزائف، ينصح الكاتب بإعداد جيل من الخطباء والوعَّاظ الجدد، يمتلك القدرة على الإقناع وفق مناهج سليمة نابعة من "الوعي الجديد"؛ كما ينصح الدولة بتأسيس جامعة، أو حتَّى كليَّة، لتدريس العلوم الإسلاميَّة الحقَّة، والمبادئ

الدينيَّة الصحيحة؛ فيتخرَّج فيها "وعَّاظ من طراز جديد...كوعَّاظ الكنيسة في أوروبا" (ص٩١). ويقترح الكاتب كذلك قصر صلاة الجمعة على المساجد الكبيرة في كلِّ حيٍّ، مع انتقاء الثقافة الموجَّهة إلى المصلِّين على أفضل وجه بما يحقِّق النفع، ويضمن الارتقاء بالأمَّة؛ "فتنسخ بذلك آيات الكهانة، وتحكم آيات الله وآيات الحضارة" (ص٩٤). ولم ينسَ الكاتب النصح بإصلاح الكنيسة، قائلًا "لا بدَّ من أن تنتظم الكنيسة أيضًا- فيؤلِّف من بين رجالها الراشدين من يشرفون على توجيه رسالتها توجيهًا يخلق الشعب الذي يحيا بالدين، ولا يموت" (ص٩٤).

يتطرَّق الكاتب إلى نقطة في غاية الحساسيَّة، وهي نجاح الغرب في تجاوُز محنة الحرب العالميَّة الثانية، التي عاصرها، وتحقيقه إنجازات هامَّة غيَّرت مجرى حياته، وضاعفت من سطوته. على سبيل المثال، نجحت حكومة حزب العمَّال في بريطانيا، والتي أمسكت بزمام الأمور في أعقاب الحرب مباشرةً، في حلِّ مشكلات البطالة والفوضى؛ بفضل تطبيق مبادئ الاشتراكيَّة على أتمِّ وجه. نجحت تلك الحكومة في تحقيق أهمِّ شرط للاستقرار، سدِّ جوع الشعب وإيواء المشرَّدين منه. لم يلفت الكاتب إلى أنَّ حكومة حزب العمَّال لم تنجح في إكمال مسيرتها، وأنَّها لم تُفلح في التغلُّب على مشكلات واجهتها لاحقًا. ويشير الكاتب كذلك إلى حرص الولايات المتَّحدة على إعانة البلدان الفقيرة، ولكن مع انتقاء المستحق من تلك البلدان، فالتي تقع منها تحت حُكم استبدادي إقطاعي لا يستحقُّ شعبها أيَّة موارد للإعانة.

يعتقد الكاتب أنَّ السبيل الوحيد لإحلال السلام في العالم الإسلامي هو سدُّ احتياجات بنيه، ولا يمكن ذلك إلَّا من خلال إصلاح داخلي، إعمالًا بقوله تعالى "إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ" (سورة الرعد: الآية ١١). ويستشهد الكاتب على رأيه بأنَّ الجوع هو شرارة أيِّ ثورة أو اضطراب داخلي يعيق التنمية بقول العالم الزراعي البريطاني سيرجون لويدأور خلال مؤتمر الشعوب المتَّحدة للغذاء والزراعة عام ١٩٤٨ "إنَّ الجوع وارتفاع الأسعار يقودان دائمًا إلى الثورات الاجتماعيَّة، ونحن نذكر أنَّ عجز المحاصيل في فرنسا عام ١٨٤٠...كانت نتيجة ارتفاع أسعار الغذاء وندرة الحصول عليه...وكان

الشعب في شمالي إنجلترا يهزج ويصيح: استلُّوا خناجركم، وأعدُّوا مدافعكم، فإمَّا الرغيف وإمَّا الدماء، وإمَّا الحياة وإمَّا الفناء" (ص١٠٣). يستتبع انتشار الفقر، مع وجود ثراء فاحش يستأثر به فئة محدودة من الشعب على حساب الفقراء، حالة من "التذمُّر النامي المتراكم" يعدُّ "من أخطر الأشياء على حياة الأمَّة، ولا يمكن أن يستهين بعاقبته، أو يسكت عن علاجه، حاكمٌ له بصر بالأمور" (ص١٠٤). ويحذِّر الكاتب من انتشار الجريمة في المجتمعات المسلمة بسبب الفقر وتفشِّي الحقد الطبقي، بل ويستشهد في ذلك بقول الصحابي أبي ذر الغفاري "عجبتُ لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه" (ص١١٠).

يتناول خالد بعد ذلك مسألة المفاضلة بين الحكومتين القوميَّة والدينيَّة، رافضًا الثانية بالكليَّة، ومعتبرًا عودتها خطوة إلى الخلف؛ بسبب فشلها السابق، وعجزها عن توفير الحريَّة الرأي. يجد الكاتب في الحكومة الدينيَّة "تجربة فاشلة"، ويرى عودتها "انتكاسًا إلى الأوتوقراطيَّة المرهقة، التي تخلَّصت منها الإنسانيَّة بمشقَّة وكَبَدٍ"، والأكثر من ذلك أنَّه يجدها خطرًا على الدين ذاته؛ فهي "مجازفة بالدين ذاته مجازفة تعرِّض نقاوته للكدر، وسلامته للخطر" (ص١٦٩). ويتساءل الكاتب "أنمضي قُدُمًا، أم ننتكس إلى الوراء؟ أننحرف عن قوميَّة الحُكم إلى عنصريَّته وطائفيَّته، أم نضاعف هذه القوميَّة وننميها؟ أنفرُّ من عصر حريَّة الفكر وحريَّة القول وحريَّة النقد–مهما كان ضئيلًا–إلى عهد من إذا قال للأمير لمَ؟ فقد حلَّ دمه وبرئت منه ذمَّة الله؟" (ص١٧٠). يضرب الكاتب المثل في ذلك بثورة المسيحيِّين على المسيحيَّة، عندما "حوَّلتها الكنيسة إلى دولة وسلطان، واقترفت باسمها أشدَّ أصناف البغي والقسوة" (ص١٧١).

يجتهد الكاتب في تحليل سيكولوجيَّة الحكومة الدينيَّة، في محاولة للوقوف على العوامل المؤثِّرة في اتِّخاذها القرارات والمسارات، ويسبق تحليلَه رأيُه بأنَّ الحكومة الدينيَّة "في تسع وتسعين في المائة من حالاتها جحيم وفوضى" و"إحدى المؤسسات التاريخيَّة التي استنفدت أغراضها، ولم يعد لها في التاريخ دور تؤدِّيه" (ص١٧٤). يرى خالد في الحكومة الدينيَّة عودة إلى الجاهليَّة، حينما كانت هناك فئة ضئيلة صاحبة سيادة وقوَّة

يخضع لها باقي العباد؛ وفي هذا ما يتعارض مع صحيح الإسلام–وفق رأيه–الذي يحضُّ على المساواة والعدالة في تقسيم الفرص. يستند الكاتب في ذلك إلى الحديث المروي عن رسولنا الكريم (ﷺ)، حينما دخل عليه دخل عمر، وقد رأى الحصير قد أثَّر على جنبه فبكى، وقال "يا رسول الله كسرى، وهما يعصيان الله، ينامان في الديباج والحرير وأنت تنام على حصير يؤثر في جنبك" فردَّ الرسول الكريم: "أفي شك أنت يا بن الخطاب؟ قال لا يا رسول الله. فقال رسول الله (ﷺ): " إنَّها نبوة لا ملك وشقاء أمتي يوم يكون فيها كسرى ويوم يكون فيها قيصر". يعمل الكاتب بعد ذلك على نفي أي زعامة سياسيَّة للرسول خارج إطار المعاهدات وإدارة الأمور الملحَّة، مشيرًا إلى أنَّ–وفق قراءته لسيرة الرسول–لم يجد ما يوحي بأنَّه كان أميرًا أو حاكمًا بالمعنى المعروف.

وبناءً على ما توصَّل إليه الكاتب من استنتاج بشأن طبيعة مركز الرسول في الأمَّة، وتكوينه رأيًا يجد أنَّ زعامة الرسول الدينيَّة كانت الطاغية على ممارسته السياسة أو الحكم أو القيادة العسكريَّة، يتساءل الكاتب "ما حاجة الدين إذن إلى أن يكون دولة؟ ...وكيف يمكن أن يكونها، وهو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغيَّر، بينما الدولة نظمٌ تخضع لعوامل التطوُّر، والترقِّي المستمر، والتبدُّل الدائم؟ وهل الدين أدنى مرتبة من الدولة حتَّى يتحوَّل إليها، ويندمج بها؟ ثمَّ إنَّ الدولة بنظمها الدائبة التغيير عرضة للنقد والتجريح، وعرضةً للسقوط والهزائم والاستعمار، فكيف نعرِّض الدين لهذه المهاب أو بعضها؟" (ص١٨٠).

يعتبر الكاتب ألَّا دخلَ لسلطة الدولة في ترويض السلوكيَّات الطائشة؛ لأنَّ هذه هي وظيفة الدين في الإرشاد إلى الطريق القويم، ولكن هل يُفلح الإرشاد إذا كان الإنسان لم يعمل على تطهير ذاته، أو ينبع الميل إلى الصلاح من داخله؟ يضيف الكاتب أنَّ حدَّ السرقة لا يمكن العمل به، طالما ينتشر الفقر في العالم الإسلامي: "الشرق الإسلامي كلُّه مجاعات، مادام الناس لم يستوفوا فيه ضرورات الحياة...**إذن فحدُّ السرقة موقوف حتَّى ينزل الرخاء مكان الجدب...ويوم يوجد الرخاء، فلن تجد السارقين...وإن وجدتهم، فاقطع منهم كلَّ معصم وساق**" (ص١٨٢).

إذا كان الدين يسرٌ، وكان التسامح سمة أساسيَّة فيه، فليس من الممكن اعتبار سلوكيَّات "الدولة الدينيَّة" من الإسلام في شيء. فالحكومة الدينيَّة "لا تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سُنَّة رسوله، بل من نفسيَّة الحاكمين وأطماعهم ومنافعهم الذاتيَّة، ومن تلك الغرائز التي تصدر عنها" (ص١٨٦). ويعتبر الكاتب الغموض المطلق أبرز سمات الدولة الدينيَّة، حيث تقوم تلك الدولة على سطلة عمياء، تستلزم "الطاعة العمياء والتفويض المطلق"؛ لأنَّها تعتقد أنَّها "ظلٌّ الله على الأرض" (ص١٨٦). وكلَّما طُلب من تلك السلطة تفسير الغموض المحيط بسياساتها، فهي تستغلُّ الدين لصالحها، من خلال استخدام الآيات والأحاديث لتعكس المعنى الذي يخدم المصلحة. ويضرب الكاتب في ذلك المثل بقصَّة يزيد بن معاوية–الفاسق، مدمن الخمر–حينما خطب في الناس لتحريضهم ضدَّ الحسين، مستشهدًا بالآية ١١٥ في سورة النساء "وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا"، وبالحديث الصحيح القائل "فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع؛ فاضربوه بالسيف، كائنًا من كان". وكان في عبارة "كائنًا من كان" رخصة للجماهير بأن تقاتل الحسينَ، برغم أنَّ جدَّه هو الآمر بذلك.

بعد الإيضاح المفصَّل للسمة الأبرز لسلوك الدولة الدينيَّة، ينتقل الكاتب إلى السمات الأخرى في إيجاز؛ ومنها، عدم إبداء احترام للقدرات الذهنيَّة للبشر؛ ليستمر الجمود الفكري وتُحبط محاولات الإبداع والابتكار؛ ومنها كذلك، تنفير السُّذَّج من الجماهير من دعاة الإصلاح والتنوير، على اعتبار أنَّهم "ليسوا سوى أعداء الله ورسوله" يعيبون في السلطة الدينيَّة لنشر مبادئ هدَّامة (ص١٨٩). أضف إلى تلك السمات، عدم قبول النقد أو المعارضة، علاوة على أحاديَّة الرأي وعدم السماح بتعدُّد الأحزاب. تستخدم الحكومة الدينيَّة القمع لإسكات أيِّ صوت يعارض سياساتها أو يفضح أكاذيبها، وبخاصة إذا تعلَّق الأمر بالمطالبة بتحسين الأحوال المعيشيَّة والسعي إلى النهوض باتِّباع العلوم الحديثة. ويضرب الكاتب المثل في ذلك بالحجَّاج بن يوسف، سفَّاح بني ثقيف، الذي قتَّل

من بقي من الصحابة والتابعين في زمنه، وحارب كلَّ معارض لسياسة الدولة الأمويَّة، بل ووصل الأمر إلى حصار الحرم المكِّي، وإهدار الدم فيه.

باختصار، يستعرض الكاتب سمات الدولة الدينيَّة محل الانتقاد، موضحًا أنَّها "تلك التي تعتمد على سُلطة مبهمة غامضة، ولا تقوم على أسس دستوريَّة واضحة تحدِّد تبعاتها والتزاماتها حيال الشعب، كما هو شأن الحكومات القوميَّة، والتي تمنح نفسها قداسة زائفة، وعصمة مدَّعاة" (ص١٩٦). ويخرج الكاتب، بعد استعراضه سلبيَّات الدولة الدينيَّة التي تفوق أي إيجابيات ممكنة لها، باستنتاج باستحالة إقامة دولة دينيَّة ناجحة. ويوضح الكاتب كذلك الفرق بين مهمَّة كلٍّ من رجل الدين ورجل الدولة؛ فبينما يرعى الأول الفضيلة ويحرث على تحقيق السلام الداخلي، يراقب الثاني تنفيذ القوانين، ويتولَّى إحلال السلام الخارجي. وبما أنَّ وظيفة رجل الدين هي "الوعظ والإرشاد والإقناع"، فمن المستحيل أن يصبح رجل دولة "من حقِّه الإكراه وإنزال العقاب" (ص٢٠٤). أمَّا عن الحجَّة التي استند الكاتب إليها، فهي قوله تعالى في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ"؛ أي لا يمكن للواعظ أن يحمل السوط أو السيف ويرغم الناس على دخول الدين.

المعادلة الصَّعبة في تطويع مفاهيم الإسلام للحداثة: هل تحققها "ولاية الفقيه"؟

يتحدَّث عادل عبد المهدي في بداية كتابه **إشكاليَّة الإسلام والحداثة** (٢٠٠١) عن ارتباط مفهوم الحداثة منذ انتشاره بالتمرُّد على القوالب الجامدة، والخروج عن الأُطُر المفروضة من قِبل السلطات السياسيَّة أو الدينيَّة. ويتَّفق الكاتب مع الرأي القائل بأنَّ الحداثة بدأت مع ظهور حركة مارتن لوثر الإصلاحيَّة مطلع القرن السادس عشر، والتي يراها المحفِّز الأساسي لحركة التنوير في القرن السادس عشر، وللثورة الفرنسيَّة في القرن التالي. وفي نور حركة الإصلاح تلك، بدأ عصر الحداثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ليعيد النظر في كافَّة المسلَّمات، غير الخاضعة للتحليل والتدقيق. ويُشار في هذا الشأن إلى رأي الكاتب صالح هاشم في مقاله **مقالة في الحداثة** (١٩٨٨)، حيث قال عن الحداثة "لا شيء ينجو من دراسة العلم وتحليل العلم والفن والتقنية. إنَّها تريد أن

تخترق سرَّ الطبيعة، وسرَّ الكواكب البعيدة، وتفجِّر الذرَّة، وتصعد إلى القمر، وتخلق الكائنات الحيَّة لأوَّل مرَّة في المختبر. كلُّ الحاضرات البشريَّة السابقة كانت لها محرَّماتها (التابو) ما عدا حداثة الغرب. إنَّها لا تعترف بأيِّ محرَّمات" (ص٢٩٢).

مرَّت الحداثة بعدَّة مراحل إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن؛ غير أنَّ شكلها الحالي تزامن مع الثورة الصناعيَّة الثالثة، المرتبطة بالتطوُّر التقني الهائل في شتَّى المجالات. ودَفَعَ التفوُّق المادي الهائل للغرب، بفضل تلك الثورة التقنيَّة، الكثيرين من أبناء العالم الإسلامي إلى المطالبة باتِّباع نهج الغرب بالكامل، والانسلاخ من الماضي؛ للتخلُّص من عوامل التخلُّف والرجعيَّة. والنتيجة، وفق رأي محرر المقدِّمة، وقوع العالم الإسلامي تحت سطوة الغرب في تبعيَّة مذلِّة؛ "فكانت أيُّ خطوة للأمام تسبقها وتواكبها وتليها بضع خطوات للوراء، حتَّى أغرقنا نمط التحديث الغربي–الذي أصرَّت عليه النخبة وحكومات الاستبداد–فيما نحن فيه اليوم، من قمع وإرهاب ومعتقلات، ومنافي، وفرار من الأوطان، وهدر للثروات، وتجهيل للمواطن، واستخفاف بحقوقه، وتنمية صوريَّة تهمَّشت فيها المقوِّمات الذاتيَّة" (ص٧).

يقدِّم الكاتب في مؤلَّفه دراسة وافية للحداثة الغربيَّة، مبنيَّة على خبرة شخصيَّة امتدَّت لعقود في الغرب، حرصًا على كشف الوجه الآخر للحداثة، وتبيانًا لزيفها وخداع قيمها، التي انساق وراءها–مع أشدِّ الأسف–الملايين من أبناء المسلمين. ليس عادل عبد المهدي هو أوَّل من تناول سُبُل نهضة الأمَّة الإسلاميَّة، في ظلِّ الركود والرجعيَّة والجهل الذي تمرُّ بها، بينما تتسابق الأمم الغربيَّة في تحقيق منجزات علميَّة تحقِّق الثراء العلمي قبل المادِّي. واتَّفق المفكِّرون المسلمون على أنَّ ترقية الفكر الإنساني وتحريره من المفاهيم الخاطئة هو السبيل إلى النهضة والحضارة؛ وقد نجح المسلمون في الماضي أكثر من مرَّة، وفي ظروف وبيئات مختلفة، في تحقيق إنجازات فكريَّة أسست حضارات استمرَّت لقرون، "حضارات هي ليست الإسلام، لكن دفقها الأول ومصدر طاقتها الرئيس هو الإسلام" (ص١٢).

وطالما أنَّ هذا هو شأن الإسلام عند الاهتداء به، يتساءل الكاتب: "لماذا تعطَّل هذا الدور؟ والأهم: كيف يمكن إعادة الفعل والحيويَّة لهذا الدور؟" (ص١٣). يوضح الكاتب أنَّ الحضارة الغربيَّة سبقت الحضارات الأخرى إلى الواجهة، بل وسحقت غيرها، بفعل تطبيق الرأسماليَّة والتوسُّع الاستعماري؛ فأصبحت هي المرجعيَّة والنموذج الواجب الاقتداء به، وصارت المفرز للقيم والمفاهيم الواجب تطبيقها في سبيل تحقيق النجاح، بل ولم يعد من الممكن للأفكار الوافدة من الثقافات غير الغربيَّة الرواج والفعَّاليَّة، إلَّا إذا لاقت استحسان الغرب؛ وإلَّا كان مصيرها الإهمال، ومصير صاحبها الدحض والتنكيل، وبخاصَّة لو تناولت ما يتعارض مع قيم الغرب وهدَّدت سيطرته على العالم. أصبح المتعلِّم في غير المؤسسات العلميَّة الغربيَّة جاهلًا، واعتُبرت منجزات بلاده الثقافيَّة عديمة القيمة؛ والسبب بسيط، وهو أنَّ مفهوم النهضة لدى الغربيِّين أصبح "**اللحاق بركبهم، والأخذ بأسباب حضارتهم وهياكلها وقيمتها**" (ص١٤).

يضيف الكاتب رأيًا بالغ الأهميَّة في هذا الشأن، **وهو أنَّ الغرب فرض علينا استبدال المفاهيم الإسلاميَّة، المستمدَّة من كتاب الله وسُنَّة نبيِّه الكريم، بمفاهيم "تعطِّل النظر، وتشوِّش الرؤية، وتعرقل الفكر الإسلامي، دون أن تضعنا فعلًا-حتَّى لو أردنا-على عتبة عمل الأفكار الغربيَّة**" (ص١٥). الأدهى من فرض مفاهيم الغرب على المسلمين، كما يرى الكاتب، أنَّ الغرب لن يسمح للمسلم بتطبيق مفاهيمه في بلاده والاستفادة منها في تحسين أحواله، وإلَّا لما وصل الحال في العالم الإسلامي لما هو عليه الآن. أمَّا عن تفسير ذلك، فهو لأنَّ "أيَّ طرح لموضوع النهضة، دون وضع الظروف والشروط والهيكليَّات التي رتَّبتها الهيمنة الإمبرياليَّة والصهيونيَّة من احتلال الأرض، وغزو النفوس، وتمزيق وَحدة الأمَّة، وبناء هياكل الدول العلمانيَّة القوميَّة، بمؤسساتها التعليميَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، وسيادة نظام القيم والمعايير، بما يقود إلى دفعها نحو الدونيَّة والانحطاط، وبما يخدم منظومتهم الحضاريَّة؛ لتبقى يدهم هي العليا ويدنا هي السفلى" (ص١٥).

يتحدَّث الغرب دائمًا عن ضرورة تحرير العقل والروح من القيود التي تفرضها عقيدة الإسلام الصحيحة–وفق الكتاب والسُّنَّة، **والتي اعتبرها الكاتب خالد محمَّد خالد "كهانة" في بعض صورها المستغلِّة للدين في تحقيق مطامع شخصيَّة**–بينما يرى عادل عبد المهدي أنَّ **التحرير لا ينبغي أن يكون للعقل ولا للروح، إنَّما للأرض وللبشر من سيطرة قوى الاستعمار في شكليها، القديم القائم على الاحتلال بالترهيب تحت تهديد السلاح، والجديد المعتمد على الغزو الفكري بالترغيب تحت إغراء المنافع الماديَّة.** ويعتبر الكاتب أنَّ أيَّ طرح لمسألة النهضة بدون "تحرير النفوس والأرض" عبارة عن "حرث في بحر" (ص١٥). ويُعزي الكاتب فشل كافَّة محاولات العالم الثالث للنهوض، ليس إلى الشحُّ في الإنفاق، أو إلى الامتناع عن بذل التضحيات، أو إلى تقاعُس الناس عن اعتناق المنهج العلمي السليم، أو إلى هيمنة الحكَّام على السلطة من خلال المؤامرات والانقلابات، إنَّما يُرجعها الكاتب في المقام الأوَّل إلى قيامها على أساس "قاعدة فكريَّة ووعي مزيَّف خلاصتهما اللحاق بركب الدول المتقدِّمة، أو طلب مساعدتها، أو اقتباس تجربتها" (ص١٧).

لا يستبعد الكاتب إطلاقًا إمكانيَّة التحرُّر من قيود الغرب الماديَّة والمعنويَّة، ولكن يجد في ذلك صعوبةً، ويرى أنَّ المسألة مسألة "نضج ووعي" لم يبدأ العمل على تزكيتهما؛ على ذلك، فالإصلاح لا بدَّ وأن يبدأ من داخل نفوس الشعوب الواقعة تحت وطأة الاستعمار بكلِّ أشكاله وصوره، أضف إلى ذلك "كل العوامل الإيجابيَّة الداخليَّة والخارجيَّة المساعدة، بما في ذلك استثمار الثغرات المساعدة لنا في الهيكليَّة العامَّة للحاضرة الغربيَّة"، اهتداءً بوقله تعالى في الآية ١٤٠ من سورة آل عمران "إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" (ص١٨). وتستحيل تلك المهمَّة "مل لم يحشد لها الإسلام المسؤول الملتزم الموحِّد كلَّ ذخيرته في جهد دؤوب؛ لتعبئة طاقات الأمَّة، ومدِّها بالغذاء الروحي اللازم لخوض هذه المعركة الشرسة" (ص١٨). ويضيف عبد المهدي "والحضارة الغربيَّة المنتشية اليوم لا تُدرك أنَّها تسير إلى المصير ذاته (الانهيار، مثل

الاتحاد السوفييتي)، وتحفر قبرها بيدها، وتسمح بدولة الأيام عليها، كلَّما أوغلت في تدمير المقدَّس الحقيقي والوحيد، لتقدِّس الآلة والتطوُّر...مدمِّرة بذلك مجزات عظيمة يمكنها أنتكون إنجازًا بشريًّا رائعًا يخضع لملكوت الإنسان-خليفة الله على الأرض-بعد خضوعه لملكوت الله تعالى" (ص٢٠). أمَّا عن سُبُل الخروج من هذا الوضع، فيأتي على رأسها الحفاظ على ما بقي من تراث الأمَّة المسلمة لم تنل منه أيادي العبث، وإن كانت قد طالته، وفي مقدِّمة ذلك "قرآننا المحفوظ وسُنَّة نبيِّنا" (ص٢١). ويأتي بعد ذلك تحجيم الآثار التدميريَّة لخضوع مؤسسات رسميَّة لسُلطة كلِّ أعوان الاستعمار في بلاد المسلمين على ثوابت الدين والقيم الأصيلة المستمدَّة من صحيح الدين. تضافُر الجهود واجتماع الخبرات والاتفاق على هدف واحد، و، قبل ذلك كلِّه، نشر الوعي السليم، من أهم متطلِّبات "المعركة الشرسة"، الساعية إلى سحق موروثات الأمَّة المسلمة؛ لأنَّ انعدام الوعي وترفُّع البعض عن التعاون مع غيره بما لديه من طاقة سيفتح الثغرات أمام العدو للنيل منَّا (ص٢١).

لا ينكر عبد المهدي أنَّ الإسلام-بالطبع متمثِّلًا في معتنقيه، وليس في نصوصه أو عقيدته-تتقدَّم عليه الحضارة الغربيَّة، لكنَّه لا يتَّفق أبدًا مع الرأي الزاعم بأنَّ الإنسان المستنير الواعي الناجح-بالطبع وفق معايير الغرب-هو نتاج الحضارة الغربيَّة وصنيعتها. يسبق الإنسان التقنية الحديثة، وفق القرآن الكريم؛ لأنَّ الله تعالى خلَق الإنسان، وعلَّمه، وأرشده، لكنَّه اختار الانقياد وراء شهوة عابرة، فنسي عهد الله له بالخلافة على الأرض، فانحدر من الجنَّة-حيث كانت كافَّة احتياجاته متوفِّرة، استنادًا إلى قوله تعالى في سورة طه "إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩)"-إلى الأرض. غير أنَّ الإنسان لم يبقَ جامدًا، بل عمَّر وطوَّر وأنتج، ولم يقضِ على الأمم من البشر أو يستأصل شأفتهم سوى نسيان عهد الله إلى البشر، وهو الإيمان بالله وعدم الإشراك في عبادته أحدًا. أمَّا الفكر الغربي، فهو يرى الإنسان "نتاج التطوُّر الطبيعي (دارون)، أو الفكرة المطلقة (هيجل)، أو نظام العقد الاجتماعي (روسو)، أو المعاناة الفكريَّة (ديكارت)، أو نظام العمل (انجلز/ماركس)" (ص١٩).

يتناول الكاتب بالنقد أعمال المفكِّر السوري الفرنسي برهان غليون فيما يتعلَّق بموقف الإسلام من مفاهيم الحداثة والحريَّة والديموقراطيَّة، التي تراها الغرب لا تتوافق مع الإسلام، وتعتبر المشروع الإسلامي النهضوي محكومًا عليه بالفشل بسبب عجزه عن تطبيقها. يعبِّر غليون عن خشيته من وصول تيار الإسلام السياسي إلى سُدَّة الحُكم، بعد فشل التيار الديموقراطي، الذي ينتمي هو إليه، في تحقيق اللُحمة بين أفراد المجتمع، مع اختلاف انتماءاتهم السياسيَّة. يتأسَّف غليون في كتابه **الاسلام والسياسة: الحداثة المغدورة** (١٩٩٧) على فشل الحداثة على ثلاثة محاور أساسيَّة، هي: مأزق السياسة، ومأزق الهويَّة، ومأزق الاقتصاد. بذلك، يزعم غليون أنَّ السبب في الميل إلى تطبيق المنهج الإسلامي القويم هو فشل الحداثة، القائمة في الأساس على العلمانيَّة، في بناء نظام اجتماعي يضمُّ العالم بأسره تحت جناحه؛ والسبب في ذلك هو الاختلافات الفكريَّة والماديَّة بين الشرق والغرب، التي تشكِّل سياسات الغرب تجاه الشرق، بل وتُجبر النظم الحاكمة في العالم الإسلامي على تطبيق سياسات تزيد المشكلة تعقيدًا. ما أراده غليون هو نظام سياسي يجمع الإسلاميِّين والعلمانيِّين في منظومة موحَّدة، ويكون لكلِّ تيار قدرته على الإدلاء برأيه بدون قيود، وهذا هو شأن أيِّ نظام ديموقراطي. غير أنَّ هذا التكامل السياسي بين التيَّارات منافرة الأفكار لم يحدث، وهذا–في رأي غليون–ما سيفتح الباب أمام تيَّارات إسلاميَّة خالصة، لا تختلط أفكارها بالفكر العلماني.

يرى غليون في مقاله "إشكاليَّات الإسلام والسيَّاسة" (١٩٩٧) أنَّ الحداثة صارت أمرًا واقعًا لا مهرب منه؛ فالحداثة اليوم "تعيشها المجتمعات وتُفرض علينا مثل غيرنا...إنَّنا نفكِّر دائمًا أنَّ الغرب هكذا ونحن هكذا، ولكن في الحقيقة اختُرقنا وأصبحنا حديثين...أصبحنا عبيدًا لحداثة نرفضها أيديولوجيًّا، وهي تتحكَّم بنا عمليًّا" (ص٦١). ويتساءل عادل عبد المهدي هنا عن الحل، فلا سبيل للتسليم بسيطرة الحداثة على حياتنا، والاعتراف بأنَّها تنظِّم حياتنا، واعتناق كلِّ مفاهيم الحداثة، برغم عدم توافقها مع قيم ديننا. **من جديد، يشير عبد المهدي إلى أنَّ حتَّى هذا الاعتناق الكامل لمفاهيم الحداثة لن يضمن لنا تحقيق نهضتنا، ولو تخلِّينا عن قيم الدين؛ والسبب بسيط، وهو**

أنَّ هذا الخيار ليس لدينا الحريَّة للحصول عليه. ومن بين الأفكار الأخرى التي طرحها غليون في مقاله، وتكشف المزيد عن طبيعة مذهبه الفكري، مطالبته الإسلاميِّين برفع ما أطلق عليه "القداسة" عن حقيقتهم السياسيَّة الاجتماعيَّة، وهو غالبًا يقصد عدم التظاهر التقيُّد بالشريعة في شؤون الزواج والميراث والتعاملات، بينما هم في الحقيقة يطبِّقون مفاهيم الحداثة دون وعي منهم بذلك. ويضرب غليون المثل في ذلك بتبنِّي الكنيسة مفهوم "المسيح الإنسان"؛ فاكتسبت القدرة على مسايرة متطلَّبات الحداثة. هكذا، أصبحت الكنيسة "تضطلع بدور له طابع إنساني أكثر، وتتدخَّل لصالح المحرومين...لقد تبنَّت تمامًا قيم الديموقراطيَّة والإنسانيَّة، وأصبحت جزءًا من التنظيم الراهن الحديث، وبالتالي أصبحت مركزًا من مراكز الحداثة في الغرب" (غليون، ١٩٩٧: ص٥٨).

يتعرَّض عبد المهدي لمسألة اقتداء المؤسسة الدينيَّة الإسلاميَّة بالكنيسة من خلال الاعتراف بأنَّ المسيح هو تجسيد للإله على الأرض، بقوله "إنَّ الإسلام قد جعل الإنسان خليفة الله على الأرض، مانعًا عن الربوبيَّة التي تسمح ببناء مفهوم الصنميَّة والكهنوتيَّة على الأرض، مانحًا إيَّاه في ذات الوقت كلَّ القدرات والصفات والخصال التي تجعله سيِّد نفسه، متحرِّرًا من كلِّ عبوديَّة أرضيَّة إلَّا العبوديَّة لله" (ص٤٦). **ويردد غليون ما سبق وأن قاله خالد محمَّد خالد عن عدم إمكانيَّة الجمع بين السياسة والدين في حُكم الشعوب. الدين بالنسبة إلى غليون مجرَّد قيم أخلاقيَّة متوارثة من المفترض اللجوء إليها لتهذيب السلوك؛ أمَّا السياسة، فهي ألاعيب وحيل وقوانين وضعيَّة لا تخضع لقيود دينيَّة.**

تأثَّر العالم الإسلامي، شاء أم أبى، بالتحوُّلات الدوليَّة قبيل نهاية القرن العشرين، وبخاصَّة انهيار الاتحاد السوفييتي، واشتداد الصراع العالمي على النفط. أصبح للعالم نظام اقتصادي واحد، هو الرأسماليَّة، التي تعتمد على المحروقات في تشغيل مصادر تحقيق الدخل ودرِّ الأرباح. أصبح النظام المتحكِّم في اقتصاد العالم يعتمد على ما ينتجه فريق من سكَّان الأرض يشكِّلون الأغلبيَّة الساحقة، في تحقيق المنفعة لفئة محدودة من أصحاب المصالح تنعم بالقسط الأكبر من الربح، وتُخضع الباقي لسُلطانها بالترغيب

والترهيب. يعلّق الكاتب بأنَّ تسمية هذا النظام بـ "النظام الدولي" لا ترجع إلى أنَّه يشمل برعايته كافَّة دول العالم، إنَّما لأنَّ "قلَّة من الدول الاستكبارِيَّة تجد أنَّ مصالحها وكلمتها تمتدُّ إلى مساحات العالم والكون كلِّها، فتتحدَّث بتعسُّف واستغلال بمصائر العالم...لا تعني المنظَّمات الدوليَّة أنَّها وُضعت لصالح عموم الدول، بل هي تعمل-أوَّلًا وقبل كلِّ شيء-لضمان مصالح دول وأمم معينة في عموم الساحة الدوليَّة وفي العالم والكون" (ص٥٦).

يضع عبد المهدي يده على أهم أسباب الصراع بين العالمين، الشرقي المسلم والغربي غير المسلم، وهو رغبة العالم الغربي منذ القِدَم إخضاع العالم الشرقي المسلم تحت سيطرته، متَّخذًا في ذلك الشعار المناسب: تحرير المقدَّسات المسيحيَّة، زمن الحروب الصليبيَّة؛ وتطبيق سياسة Laissez-faire، أو عدم التدخُّل، والمعروفة بمعناها الحرفي "دعه يعمل، دعه يمر"، في القرن التاسع عشر الميلادي، في أعقاب الثورة الصناعيَّة والاكتشافات التقنيَّة. وهناك شعاراتٌ أخرى رفعها العرب لتبرير غزوه، منها "نشر الحضارة" و"محاربة الإرهاب" و"القضاء على بؤر التوتُّر" و"منع تهديد الأمن الدولي" (ص٥٧). وفق الادِّعاءات الرنَّانة من هذا النوع، منح الغرب غزوه العالم الإسلامي الشرعيَّة، وتلك الشرعيَّة هي التي بنى عليها النظام الدولي كيانه. ويعرِّف الكاتب النظام الدولي بأنَّه "مجموع الشركات، والصناعات، والبيوتات، التي تخدم بالنتيجة ما يُسمَّى الاقتصاد العالمي، أو نمط الحياة الحديثة" (ص٥٨). يدبُّ هذا النظام أصابعه في كافَّة مناحي الحياة، ويسيطر على جهازها العصبي، بتحكُّمه في التعليم، ووسائل الإعلام، والبنوك، مراكز البحوث، بل ومعايير الحُكم والقيم الأخلاقيَّة، وطرق العيش، لتقل "ما يُعرف بـ "الأنماط العصريَّة للحياة" (ص٥٨).

ويردُّ الكاتب على من يدَّعي عجز الإسلام عن مواكبة مسيرة التقدُّم الغربيَّة بقوله إنَّ هذا ليس بعجز، إنَّما هو "حفظ للأمَّة البقيَّة، التي استطاعت أن تقاوم وأن تمنع الحصار من أن يستكمل عمليَّة التطويق الكامل؛ ليقضي على الأمَّة والحضارة الإسلاميَّة، كما قضى على أمم وحضارات أخرى" (ص٦٧). ويرى الكاتب أنَّ محاولات

الاحتواء التي مارسها الغرب ضدَّ العالم الإسلامي ربَّما لم تعد تُفلح، بعد انكشاف طبيعتها، وافتضاح أسبابها الحقيقيَّة، وهي القضاء على الممانعة لدى المسلمين، وترويض سلوكيَّاتهم بما يفسح المجال أمام تنفيذ خطط الغرب في دار الإسلام. وما كان من الغرب إلَّا ضاعف من استخدام أسلوب القمع، وبخاصَّة عند التعامل مع المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلاميَّة.

تمتَّع العالم الإسلامي قبل النشاط الاستعماري الغربي بحالة من الازدهار الاقتصادي، حتَّى دبَّت الفرقة التمزُّق في أركانه؛ فقد صدارته، وصار يعاني من الركود، ويتسوَّل أحيانًا المساعدة الاقتصاديَّة من الغرب، بعد أن كان الغرب يتبعه. اكتمل تفكُّك الأمَّة بانهيار آخر وَحدة جمعت المسلمين، ولو بالاسم، مع سقوط الدولة العثمانيَّة؛ وربَّما يعبِّر حال تركيا إلى اليوم عن أزمة العالم الإسلامي في مطالبته باتِّباع قيم الغرب غير المسلم، وحنينه إلى تراثه الإسلامي، الذي يشكِّل هويَّته وفيه علاج مشكلاته. وتزامَن سقوط الخلافة في إسطنبول مع زرع إسرائيل في الأرض المقدَّسة، وتزايد الضائقة الاقتصاديَّة للشعوب المسلمة. وبرغم ذلك كلِّه، يجد الكاتب أنَّ نهضة شعوب العالم الإسلامي حتميَّة، وأنَّ وسائل الغرب للسيطرة على مقدَّرات الأمَّة المسلمة ذات حدَّين، وستنقلب عليه مستقبلًا. **فالانحلال الأخلاقي للغرب، انتشار المشكلات الاجتماعيَّة، وعلى رأسها التفكك الأسري، والابتعاد المتعمَّد عن ممارسة حياة دينيَّة سليمة، لن يفضي في النهاية إلا إلى "الدمار والتخلُّف والتفكُّك"** (ص١١٠).

ينتقل عبد المهدي إلى استعراض أهم الفروق بين الحكومة الدينيَّة الإسلاميَّة، والحكومة الوضعيَّة، موضحًا أنَّ الأولى تستمدُّ أصولها من دين سماوي منزَّل من عند الله، وتعمل وفق شريعة إلهيَّة منزَّهة عن الخطأ، بينما تستمد الثانية كيانها من قوانين وضعها البشر، وفق ما ارتأوا فيه المصلحة. تضع الحكومة الإسلاميَّة نُصب أعينها حقيقة مراقبة الله تعالى لصنيعها، وتعمل وفق آياته وسنَّة نبيِّه؛ أمَّا الوضعيَّة، فهي لا تؤمن إلَّا بما تراه حسيًّا، ولا يمكنها تصوُّر وجود إله لا يتجسَّد ولا يتَّخذ شكلًا مُدركًا بالحسِّ؛ ومن هنا،

تصنع لنفسها وثنًا تعبده، قد يكون "فردًا معبودًا، أو حيوانًا متطوِّرًا، أو آلة متقدِّمة" (ص١١٤).

يجد الكاتب من خلال التحليل المنصف، أنَّ الحكومة الوضعيَّة قامت على سلسلة من التناقضات، واختلال التوازنات، كما يوضح تاريخ تطوُّر النظريَّة التي قامت عليها تلك الدولة. بدأت الحكومة الوضعيَّة على أساس نظريَّة الحقِّ الإلهي، التي جعلت طاعة الحاكم من طاعة الربِّ، لكنَّها انهارت بعد انكشاف سوء استغلال الحكَّام للسلطة الدينيَّة في اتِّخاذ تدابير تخدم مصلحته هو. جاءت بعد ذلك نظريَّة العقد بين الحاكم والمحكوم، يدعو إلى أولويَّة طاعة الحاكم لتفادي الفوضى، ويعتبر المفكر الإنجليزي الماسوني توماس هوبز من أكبر مروِّجي تلك النظريَّة؛ وقد اتَّخذت هذه النظريَّة شكلًا آخر، يُعرف بـ "العقد الاجتماعي"، والذي يعبِّر عن علاقة تكامليَّة بين الحاكم والشعب، يدين الشعب بالطاعة للحاكم، باعتباره قائد الدولة، وليس بصفته الشخصيَّة. وتأتي بعد ذلك نظريَّة الدولة/الأمَّة، الناشئة عن تطوُّر المفهوم الفلسفي للحُكم، واتِّخاذ الدولة طابعًا حقوقيًّا ومؤسساتيًّا. باختصار، فالدولة الوضعيَّة تعتمد على قدرة أشخاص–سياسيِّين أو عسكريِّين–على الاستئثار بإمكانيَّة تطبيق الشرعيَّة.

أجبرت الاكتشافات العلميَّة المواكبة لعصر النهضة، فيما عُرف بالثورة الاستعرافيَّة الأولى، الغرب على إعادة النظر في العديد من المسلَّمات–كما سبقت الإشارة–وكان النظام الاجتماعي والسياسي السائد من بين الأمور التي احتاجت إلى إعادة تنظيم. وقد نشأت فلسفات جديدة من رحم التطوُّر العلمي، من بينها الفلسفة الوضعيَّة للمفكِّر أوغست كونت، والذي قسَّم تاريخ أوروبا إلى ثلاث مراحل؛ الأولى هي الثيولوجيَّة، والتي اعتقدت في وجود إله سامٍ فوق طبيعي، لا يُرى بالعين المجرَّدة؛ والثانية هي الميتافيزيقيَّة، والتي انتشرت بعد تراجُع الثيولوجيَّة في أعقاب الثورة الفرنسيَّة؛ والثالثة هي العلميَّة، أو الوضعيَّة، والتي كان الاعتماد الأساسي فيها على التدقيق العلمي، بما لا يدع مجالًا لافتراض الصدف.

يشير الكاتب إلى آراء ثلاثة من المفكِّرين الإسلاميِّين بشأن أشكال الحكومات في الدولة الإسلاميَّة، هم ابن المقفَّع، وابن خلدون، وابن الأزرق. وقد قسَّم هؤلاء الحكومات التي حكمت المسلمين إلى ثلاثة أنواع: **حكومة دينيَّة، وحكومة سياسيَّة، وحكومة الشهوة والاستبداد.** بدءًا **بالحكومة الدينيَّة**، فابن المقفَّع يصفها بـ "مُلك الدين"، وهي تقوم على تصريف أمور الناس وفق الشرع، فيُعطي الحقوق، ويقسِّم الواجبات، ويفرض العقوبات. أمَّا ابن خلدون، فهو يسمِّيها "خلافة"، ويراها تطبيق للشرع في الشؤون الدنيويَّة لتحقيق المصالح الأخرويَّة؛ فصلاح الدين من صلاح الدنيا، وصلاح الدنيا يضمن نعيم الآخرة، والعكس صحيح. في حين يصف ابن الأزرق الحكومة الدينيَّة بـ "المقام الأول" ويقصد بذلك "الخلافة بدون مُلك" (ص١٢٩). ما يعنيه هذا استغناء الحاكم عمَّا يصاحب المُلك من رغد في العيش، وترف وتنعُّم "بوازع من الدين" (ص١٢٩).

نأتي إلى **الحكومة السياسيَّة**، ويُطلق عليها ابن المقفَّع "مُلك الحزم"، ويوحي بالمسمَّى باستخدام الشدَّة في التعامُل مع الرعيَّة؛ ولذلك لا يخلو من التذمُّر أو السخط على الأحوال. أمَّا ابن خلدون، فهو يُطلق عليها "المُلك السياسي"، ويقصد بذلك تطبيق قوانين من وضع البشر في تسيير الأمور، وهذا ما يعيبها؛ والسبب بسيط، وهو –كما يقول ابن خلدون في **المقدِّمة**–**لأنَّ المشرِّع وفق قوانين وضعيَّة "نظر بغير نور الله**"، ويستشهد ابن خلدون بذلك بقوله تعالى في الآية ٤٠ من سورة النور "وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ"؛ ويستطرد ابن خلدون في نقده تلك الحكومة، مفضلًا الاحتكام إلى شريعة الله تعالى "**لأنَّ الشارع أعلم بمصالح الكافَّة فيما هو مغيَّب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلُّها عائدة عليهم في معادهم في مُلك أو غيره...وأحكام السياسة (القوانين الوضعيَّة) إنَّما تطَّلع على مصالح الدنيا فقط**"، ويستشهد ابن خلدون في ذلك بقول الحقِّ في الآية ٧ من سورة الرُّوم "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"؛ ويواصل ابن خلدون إيضاح سبب تفضيله التشريع وفق القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة، وهو لأنَّ "مقصود الشارع (المشرِّع وفق المصادر الإسلاميَّة) بالناس صلاح آخرتهم، فوجب مقتضى الشرائع حمْل الكافَّة على الأحكام الشرعيَّة في أحوال دنياهم

وآخرتهم، وكان هذا الحُكم لأهل الشريعة"؛ ويأتي ذلك على عكس هدف التشريع الوضعي الخادم للمُلك السياسي، الذي هو "حمل الكافَّة على مقتضى النظر العقلي، في جلب المصالح الدنيويَّة ودفع المضارِّ" (ص١٧٠-١٧١). في حين يصف ابن الأزرق الحكومة السياسيَّة بـ "المقام الثاني" وفيه يختلط مفهوما الحُكم وفق الشريعة والحُكم بحسب السياسة. امتزج في هذا النوع من الحكومات تطبيق الشرع واتِّباع سياسات تخدم النظام الحاكم-ولو كانت ضدَّ الشرع-وينطبق ذلك على الفترة الأولى في حُكم الدولتين الأمويَّة والعبَّاسيَّة.

وأخيرًا، نأتي إلى **حكومة الشهوة والاستبداد**، والتي يُطلق عليها ابن المقفَّع "مُلك الهوى"، الذي يغيب عنه الاحتكام إلى الشريعة، ويسيطر عليه اتِّباع الأهواء. قد يرجع ذلك إلى الاستعلاء على الشريعة، واعتبارها قديمة وبالية ولا تصلح إلا لزمنها، وفي هذا إباحة لاتِّباع الشهوات وارتكاب الآثام بتعطيل العمل بالشريعة. ويعرِّف ابن خُلدون في **المقدِّمة** هذه الحكومة بـ "المُلك الطبيعي"، الذي يحكم العامَّة بحسب "الغرض والشهوة" الفرديَّة (ص٤٨). ويعتبر ابن خلدون أحكام الحُكَّام من هذه النوعيَّة بالمُجحفة؛ لأنَّ مقتضاها "التغلُّب والقهر"، **ونتيجة ذلك "تعسر الطاعة، وتجيء العصبيَّة المفضية إلى الهرج والقتل"** (ص١٧٠). ولا يختلف ابن الأزرق في كتابه **بدائع السلك في طبائع المُلك** عن هذا الرأي، معتبرًا أنَّ تلك الحكومة يبرز فيها الحُكم بحسب الشهوات، والانفلات الأخلاقي النابع من تدمير معاني الشريعة الدينيَّة؛ من هنا يأتي تسميته إيَّاها "المقام الثالث". ويلخِّص ابن الأزرق رأيه في الحُكم بقوله "**الأمر بدأ بنبوَّة ورحمة وخلافة، ثم يكون مُلكًا عضوضًا، ثمَّ يكون عتوًّا وجبريَّة وفسادًا في الأرض**" (ص٩٦).

لا ينكر عبد المهدي أنَّ الدولة الإسلاميَّة اعتمدت على بعض الأحكام الوضعيَّة في تأسيسها، تمامًا مثل الدولة الغربيَّة، لكنَّ تلك الأحكام لم تمثِّل نهايةً في حدِّ ذاتها في الدولة الإسلاميَّة، كما ينطبق على الدولة الغربيَّة. كانت الأحكام الوضعيَّة نقطة انطلاق وبداية في حالة الدولة الإسلاميَّة، حيث استدعتها الحاجة؛ "الإسلام لا يُنكر الحقائق الوضعيَّة، لكنَّه ينكر أن يقف عندها، أو أن يجعلها نقطة البداية والنهاية...**الفارق بين**

الإسلام وما عداه هو أنَّ الفكر الآخر يقف في هذه الحدود، إمَّا في إطار الإنكار الكلِّي للدين، أو بتحريف الدين وجعله مسخَّرًا لمتطلبات النظرة الوضعيَّة، ولا شيء سواها" (ص١٣٢).

رأينا أنَّ **تنحية الدين بالكامل، وفق رأي ابن المقفَّع وابن خلدون وابن الأزرق، يسفر عن الفوضى، وينذر بزوال النظام السياسي الحاكم بأكمله**، مما يعني أنَّ **الدولة الوضعيَّة المجرَّدة كان الفشل مصيرها في النهاية**؛ ولا شكَّ أنَّ في تغليب المصالح الفرديَّة على المصالح العامَّة بدافع من سياسة أو قانون من أهم أسباب ذلك الفشل. حتَّى مع الجمع بين الدين والسياسة في دولة المُلك السياسي–وفق مصطلح ابن خلدون–لا بدَّ وأن يتغلَّب أحدهما على الآخر، والغلبة تكون في معظم الأحيان–لن نقول جميعها–للسياسة؛ ومن هنا يبدأ الضعف والاضمحلال، بتغليب الأهواء الشخصيَّة، استنادًا إلى الأحكام الوضعيَّة، دون سواها. ويُعزي الكاتب "**خطأ وقصور**" القوانين الوضعيَّة إلى "فقدان عنصر التوازن والتوحيد والعدليَّة والشموليَّة"؛ أمَّا الإسلام، فهو "دين التكامل والتوحيد"، الذي "وضع الأمور في نصابها الصحيح" (ص١٣٥). لم تترك الشريعة الإسلاميَّة أمرًا من أمور التعاملات الحياتيَّة إلَّا وأوضحته، بما يضمن خيري الدنيا والآخرة، وهذا ما ينقص الدولة بمفهومها الغربي. لا يوجد في الإسلام "مساحة تختصُّ بها العبادة، ومساحة أخرى تختصُّ بها السياسة"، ومشكلة الدولة الغربيَّة هي "أنَّ غياب التوحيد والشموليَّة والتوازن والعدل يمنعها من التعرُّف على عناصر الحياة متكاملة" (ص١٣٥).

وبعد استعراض كافَّة الجوانب الإيجابيَّة والسلبيَّة للدولتين الإسلاميَّة والسياسيَّة–لتقل المدنيَّة–وجد عبد المهدي أنَّ الحلَّ يكمن في تطبيق نموذج مستمدٍّ من الشريعة الإسلاميَّة يقوم على مفهوم "**الولاية للدولة الإسلاميَّة**" (ص١٣٦). ويُرجع الكاتب أسباب النفور من ذلك النموذج إلى انحرافات أُدخلت على صحيح الإسلام "أقامت دول الاستبداد والمُلك العضوض"، والذي–على حدِّ وصفه–"اتَّخذ إلهه هواه"، ضاربًا بعرض الحائط الموروث الديني الذي "ما ينطق عن الهوى"...هكذا، إذا ما تجاوزنا تلك

الانحرافات، وأسسنا دولة تقوم على الشرع، و"تعمل بالمعروف وتنهى عن المنكر" (ص١٣٦). وبما أنَّ النظم السياسيَّة الوضعيَّة أثبتت التجربة تحيُّزها لفئة الحكَّام، وعدم نزاهتها الكاملة في اتِّخاذ القرارات وتنفيذ المهام، وإن ادَّعت الديموقراطيَّة بمنح مجلس النوَّاب الحقَّ في التشريع ومراقبة الدولة، يقترح عبد المهدي وجود مفهوم يجمع بين الدولة الدين، فيما أطلق عليه "حُكم الولاية وحُكم الأمَّة"، من خلال وضع سُلطتين غالبتين، إحداهما للحُكم، والأخرى للإفتاء والمراقبة. وفي هذا يقول الكاتب "لا بدَّ في الإسلام من حاكمين، ومن موقعين، ومن رقيبين، كلٌّ في موقعه ومكانه، يضبط عمل الدولة، ويراقبها، ويوجِّهها، ويصحِّحها...وهو ما توفِّره **الولاية، أو الحاكم الشرعي، أو ولاية الفقيه**" (ص١٣٩). **ويبرهن انتصار ثورة الخميني، على حدِّ قول الكاتب، على نجاح مفهوم ولاية الفقيه.**

يعتقد عبد المهدي أنَّ المسيحيَّة واليهوديَّة مهَّدتا للفكر العلماني؛ بدفعهما إلى فصل الدين عن الدولة، وفصل الإيمان عن التشريع. لم يتخلَّ الغرب عن مفاهيم الكتاب المقدَّس، بعهديه القديم والجديد، وما حدث كان عمليَّة إعادة تشكيل لتلك المفاهيم بما يواكب التحوُّل الاجتماعي الجذري، الذي فرضه التطوُّر التقني. وافقت الكنيسة الكاثوليكيَّة، الحاضن لغالبيَّة مسيحيي العالم، والملَّة الساحقة عددًا في أوروبا في عصري النهضة والتنوير، بدءً من عهد البابا بيوس العاشر (١٩٠٣-١٩١٤)، على الخضوع لتعديلات هامَّة، من بينها، وفق موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة:

-اتِّخاذ منهج عقلاني في تناوُل الكتاب المقدَّس، تمثَّل في التعامل المادِّي مع المعجزات التي يتناولها، وإعادة النظر في إمكانيَّة اعتبار الكتاب مرجعًا تاريخيًّا، وبخاصَّة في سرد تاريخ يسوع المسيح. نادى هذا المنهج بتفسير نصوص الكتاب المقدَّس قبل الاطِّلاع على كيفيَّة تدريس مؤسسي الكنيسة مضامينه، ما عارضته الكنيسة الكاثوليكيَّة في البداية، على عكس موقف الكنيستين البروتستانتيَّة والأنغليكانيَّة.

-قبول العلمانيَّة، وغيرها من مفاهيم عصر التنوير. ويُمكن اختصار مفهوم العلمانيَّة بأنَّه يعتقد أنَّ أفضل مسار يُتَّخذ في السياسة والشؤون المدنيَّة الأخرى هو القائم على الفهم

المشترك للجماعات والديانات للصحِّ. على هذا الأساس، فُصل الدين عن الدولة، وأصبحت القوانين تُسن وفق القاسم المشترك بين مختلف الآراء الدينيَّة حيال الشؤون الحياتيَّة.

-تأثُّرًا بفكر الفيلسوفين إيمانويل كانت وهنري برجسون، أدخلت الكنيسة الكاثوليكيَّة أفكارًا مستمدَّة من فلسفات أرسطو وأفلاطون (الغائيَّة والغنوصيَّة، أو لتقل القبَّالة)، بعد دمج أفكار تلك الفلسفات بتعاليم الكنيسة. وقد أسفر ذلك عن تمرُّد على السياسات الرسميَّة للكنيسة. وأحدث شكلٍ اتَّخذته تعاليم الحداثة هو أنَّ تعاليم الكنيسة المتوارثة عبر الأجيال يمكنها التطوُّر بمرور الزمن، بدلًا من أن تبقى على حالها، وهذا ما يميِّز دور الحداثة مع الكنيسة، بدفعها إلى التغيُّر، بعد تاريخ من التعنُّت، واعتبار أي عقيدة مخالفة للتعاليم المتوارثة هرطقة. ما كان يحدث هو أن يدَّعي "مهرطق" أنَّه على صواب وباقي أعضاء الكنيسة على خطأ؛ إمَّا لأنَّه تلقَّى وحيًا جديدًا من الربِّ، أو لأنَّه أحسن فهم التعاليم الصحيحة للربِّ، التي كانت قد فُهمت من قبل، ولكن نُسيت بمرور الوقت. والنتيجة كانت إمَّا الانشقاق-بتأسيس طائفة دينيَّة جديدة-أو الحرمان الكنسي-بمعاقبة المهرطق، أملًا في تراجُعه.

-أهم تغيُّر طرأ على الكنيسة الكاثوليكيَّة هو اعترافها الحديث جدًّا نسبيًّا بعقيدة Sola Fide، أو الإيمان وحده، التي تعتبر من دعائم العقيدة البروتستانتيَّة. وبرغم أنَّ مؤسس البروتستانتيَّة، مارتن لوثر، قد جاء بهذه العقيدة منذ نشأته مذهبه مطلع القرن السادس عشر، لم تبدأ الكنيسة الكاثوليكيَّة في التصريح باعتراف بها إلَّا في تسعينات القرن الماضي. تقوم هذه العقيدة على مفهوم تضمَّنته أسفار الأنبياء في العهد القديم، ومن بينها ارميا وحبقوق، يقول أنَّ "التبرير بالإيمان"، أي الخلاص في الآخرة يحتاج الإيمان بربوبيَّة يسوع المسيح، والانصهار روحانيًّا معه. عبَّر البابا بندكت السادس عشر (٢٠٠٥-٢٠١٣) عن الاعتراف بهذه العقيدة في مقولة مختصرة "تصحُّ عبارة لوثر ((الإيمان وحده))، إن لم تتعارض مع الإيمان بالخير، وبالحب. فالإيمان هو النظر إلى المسيح، التسليم له، والتطابق معه ومع حياته...ويتحدَّث القديس بولس عن إيمان يعمل

من خلال الحبِّ (رسالة غلاطية: إصحاح ٥، آية ١٤). على ذلك، تتميَّز عقيدة "الإيمان وحده" في الكاثوليكيَّة، عنها في العقائد الأخرى، باشتراطها التعميد والحصول على البركة الكنسيَّة المقدَّسة، التي يُعتقد في أنَّها تسري في الروح خلال المعموديَّة، وتلك البركة هي الدافع للإحسان وعمل الخير؛ وبعد ذلك، يأتي التحوُّل الكامل، بالتسليم للمسيح؛ وأخيرًا، يأتي الإيمان، متضافرًا مع الإحسان، والأمل في الخلاص.

نشر مركز أورشليم للعلاقات العامَّة، المتخصِّص في إجراء بحوث تهتم بالشأن الإسرائيلي في مجالات الأمن والدبلوماسيَّة الإقليميَّة والقانون الدولي، مقالًا بعنوان How Modernity Changed Judaism–كيف غيَّرت الحداثة اليهوديَّة، نقل فيه آراء الربَّاني ديفيد إلينسون، الرئيس الثامن لكليَّة الاتحاد العبري–المعهد اليهودي للأديان في الولايات المتَّحدة، حول طبيعة تكيُّف المجتمع اليهودي مع مفاهيم الحداثة. وأهم ما كشف عنه المقال:

–خضوع الشعب اليهودي إلى تغيُّرات جذريَّة، على المستويين السياسي والقانوني، وبخاصَّة من منهم يعيشون في الخارج؛ حيث دُفعوا إلى الانفتاح على الغير، وعدم الالتزام بالعيش في تجمُّعات مغلقة.

–اتساع المدارك لدى اليهود، واعتمادهم على نظرة أوسع نطاقًا للعالم عند الحُكم على عقيدتهم، على عكس السابق.

–تغيُّر النظرة إلى مفاهيم متعدِّدة، منها الهويَّة اليهوديَّة، والزواج، والعلاقات النوعيَّة، والحوار بين الديانات، والشموليَّة، والخصوصيَّة.

تناولت صحيفة جيروزاليم بوست في مقال نشرته عبر موقعها الإلكتروني يحمل عنوان JUDAISM AND MODERNITY–اليهوديَّة والحداثة، موقف مختلف الطوائف اليهوديَّة من الحداثة، في محاولة لتوفيق الآراء حول المنهج الحياتي الجديد، الذي فرضته العلوم الحديثة. يشير المقال في جملته الافتتاحيَّة إلى انقسام الطوائف اليهوديَّة بشأن عقيدة حفظ السبت، برغم تغيُّر الأحوال، وهيمنة التقنيات الحديثة على حياتنا، كما

جاء في مقال نشره المخرج السينمائي اليهودي الكندي يوني جولدشتاين، الذي قال أنَّ الطائفة اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة هي الوحيدة من بين طوائف اليهود التي لم تزل تعارض نقض عقيدة السبت، بالامتناع عن استخدام التقنيات الحديثة يومها. ويأتي ذلك على عكس اليهوديَّة المحافظة واليهوديَّة الإصلاحيَّة، اللتين تشكِّلان معًا كتلة "غير أصوليَّة" من اليهود. ولتفادي الخلط، لا تمتُّ اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة للمسيحيَّة الأرثوذكسيَّة بصلة، إلَّا في اشتراكهما في التمسُّك بالأصول الدينيَّة، ورفض الانصياع لمحاولات التحديث. وتجدر الإشارة كذلك إلى أنَّ المذهب السُّنِّي في الإسلام يُطلق عليه Orthodox Islam، وترجمته الحرفيَّة الإسلام الأرثوذكسي، أي الإسلام الراشد القويم، المتمسِّك بالقوالب الأصليَّة للدين.

وتعتبر الطائفة الإصلاحيَّة أكثر الطوائف انفتاحًا على استخدام التقنيات الحديثة، وهي تعبِّر عن تيار يهودي نشأ في القرن الثامن عشر، تزامنًا مع التيار التنويري في الفكر، لينقسم الفكر اليهودي إلى قسمين: أحدهما يتعايش مع الآخرين، وينفتح على الثقافات الأخرى، وقسم آخر عدواني، يتمسَّك بحرفيَّة العهد القديم، ويدعو إلى الانعزال عن الأمم، في انتظار المخلِّص؛ بالطبع، تمثِّل اليهوديَّة الإصلاحيَّة التيار الأول، بينما تمثِّل الأرثوذكسيَّة الثاني. ويعيش غالبيَّة المنتمين إلى التيارين الإصلاحي والمحافظ في اليهوديَّة في الغرب، بينما يعيش التيار المتشدِّد في إسرائيل.

أمَّا عن أهم أسباب نشأة هذه الطائفة اليهوديَّة، المنبثة عن حركة التنوير الأوروبيَّة: الإيمان بأهميَّة مواكبة إيقاع عصر التطوُّر التقني والاستفادة من منجزاته بلا قيود دينيَّة– مثل حفظ السبت–، وارتفاع نسبة معتنقي العلمانيَّة والميل إلى فصل الدين عن الأمور الحياتيَّة، وصعوبة فهم عقيدة المتصوُّفين اليهود (الحسيديم)، الذين حوَّلوا الدين إلى دروشة وإيمان بالخرافات وبالغيبيَّات. جاءت هذه الطائفة التقدُّميَّة، تأثُّرًا بحركة الإصلاح المسيحيَّة، المعروفة بالبروتستانتيَّة، التي ألغت مفهوم البابويَّة، وأزالت الحاجز بين معتنق العقيدة وربِّه. وجد اليهود في العقيدة الإصلاحيَّة وسيلة جديدة لفهم دينهم، بعد

حالة الكراهية تجاه المشنا والتلمود، واحتكار فهمهما على حكماء اليهود، كما جاء على موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة.

وعن تأثير التحديثات الطارئة على اليهوديَّة والمسيحيَّة في تنفيذ مخططات القوى الغربيَّة في العالم الإسلامي، يقول عبد المهدي أنَّ الطوائف الجديدة في كلتا الديانتين نسجتا شباكًا مُحكمة، احتوت العديد من الحركات الدوليَّة المطالِبة بالحريَّات، والتواصل بين الثقافات الإنسانيَّة. ويوضح الكاتب أنَّ ذلك بُذل "لا من أجل المساواة والحريَّة والإخاء بين الحضارات والأمم، بل من أجل هيمنة أمَّة على أمم، ومن أجل إحلال حضارة محل حضارات" (ص١٥٤). ويقاوم الكاتب الادِّعاء القائل بأنَّ كنائس الغرب تُهدم وتباع؛ فالحقيقة-كما يرى-هي أنَّ العقائد القديمة لم تعد تناسب زمن الحداثة والتقدُّم، وأنَّ هناك دور عبادة جديدة "ليس بالمعنى المعماري أو الكهنوتي القديم، بل الأهم وقبل كلِّ شيء بالمعاني والمفاهيم الجديدة..تكتظُّ الملاعب بأشكال جديدة من ((الكنائس))، وتظهر رموز، أو صلبان، أو طاقيات رأس جديدة...ويظهر قدِّيسون من المشاهير لا يحملون بالضرورة رموزًا دينيَّة، بل يحملون الدعوات الجديدة والعلامات التجاريَّة...التي تقف خلفها شبكة معقَّدة من المصالح والصناعات..." (ص١٥٤).

٤.تحليل أسباب تأخُّر المسلمين عن مسيرة النَّهضة الغربيَّة من منظور علماني

أسباب التَّخلُّف الحضاري في مصر من منظور صمويل تادرس

أطلق الباحث المصري صمويل تادرس كتابه **Motherland Lost: The Egyptian and Coptic Quest for Modernity-الوطن المفقود: السعي المصري والقبطي للحداثة** عام ٢٠١٣ في مؤتمر نظَّمه معهد هدسون الأمريكي للأبحاث الاستراتيجيَّة في العاصمة الأمريكيَّة، واشنطن. ينضمُّ الكتاب إلى سلسلة كتب تتناول الأوضاع في الشرق الأوسط، إلى جانب مؤلَّفات لكبار المستشرقين، أمثال برنارد لويس وفؤاد عجمي. يعترف الباحث أنَّ الكتابة عن أوضاع الأقباط في مصر لم تكن من أولويَّاته؛ على اعتبار أنَّه اعتنق الفكر الليبرالي منذ أمدٍ، وانشغل بالتحليل السياسي. غير

أنَّ اقتناعه المبني على الدراسة بأنَّه لا يمكن للمرء أن يكون "مصريًّا" و "قبطيًّا" في ذات الوقت؛ والسبب وجود تعارض بين الجانبين. استفاد الباحث من تجربته كثيرًا في معرفة تفاصيل عن تاريخ الحركة الليبراليَّة في مصر ما كان ليعرفها لو لم يكتب مؤلَّفه.

يرى تادرس أنَّ هناك روايتين أساسيَّتين لتاريخ الأقباط في مصر؛ الأولى هي تعرُّضهم للاضطهاد، وهو أمر لا ينكره أحد، على حدِّ قوله. يروى الباحث أنَّ عدد الأقباط في تراجُع متواصل بسبب سحقهم على يدِّ الرومان، ثمَّ العرب، ثمَّ الأتراك، وفي هذا ما يتنافى مع الرواية الثانية عن تاريخهم، والتي تروِّج لتكوينهم وَحدة مع المواطنين الآخرين، فيما عُرف بـ "الوحدة الوطنيَّة"، التي حاول الأجانب تشتيتها على مرِّ العصور. ويبدو أنَّ تادرس يشكِّك في الروايتين؛ فهو يرى أنَّ الأقباط لم يكونوا أبدًا ضعفاء أو عاجزين، ضاربًا المثل بالبابا كيرلس الرابع، الذي بنى أوَّل مدارس للفتيات في مصر برغم ضعف موقف الأقباط في حينه، وبالعديد من الإصلاحيِّين في تاريخ الكنيسة، ممن بذلوا قصارى جهدهم من أجل تحسين أوضاع الأقباط برغم قلَّة الإمكانات.

يشير تادرس إلى انطلاق العديد من **دعوات التحديث في مصر على يد شباب مصري واعٍ أراد تحسين أوضاع بلاده من خلال تطبيق أفكار أوروبًا**. يستشهد الباحث بطه حسين في كتابه **مستقبل التعليم في مصر** (١٩٣٨)، الذي قال فيه أنَّ الثقافة المصريَّة لم تكن عربيَّة أو مسلمة، إنَّما هي من ثقافات البحر المتوسط، أي أقرب إلى الفكر الأوروبي. صحيح أنَّ محمَّد عليّ حاول الاستفادة من تقنيات أوروبا الحديثة، لكنَّه لم ينقل أفكارها إلى مصر، وكأنَّ التحديث في نظره هو الاستفادة من التقدُّم المادِّي، بلا أيِّ اعتناء بالعقل. استكمل إسماعيل، حفيد محمد عليّ، مسيرة التحديث من منظوره الخاص هو الآخر؛ فحَصَر التحديث في بناء القصور ودار الأوبرا، وعمارة المدن على النسق الأوروبي.

بعد الاحتلال البريطاني، نشأت علاقة تُوصف بعلاقة حبٍّ وكراهية تجاه الغرب؛ فهناك أمور تستدعي الإعجاب، ولكن من الصعب إظهار الحبِّ تجاه الغرب بسبب الاحتلال. ويطرح الباحث هنا سؤالًا: كيف يمكن التعامل مع المستعمر بودٍّ وتطبيق علومه وأفكاره

في ظلِّ احتلاله للبلاد؟ والسؤال الأهم في رأيه: أين تكمن مشكلة تأخُّر العالم الإسلامي–لتقل الشرق الأوسط–عن مسيرة التقدُّم، التي وصل من خلالها العالم الغربي والشرق الأقصى إلى السيطرة على اقتصاد العالم؟ بمعنى آخر، هل يتوافق الإسلام مع الحداثة أم لا؟ ردَّ محمَّد عبده على هذا السؤال بالإيجاب، معتبرًا أنَّ الإسلام شجَّع على العلم، وأنَّ الحلَّ في العودة إلى طريقة تعامُل السلف مع أمور الدنيا في مهد الرسالة المحمَّديَّة. بالطبع، أثار هذا الرأي حفيظة دعاة التحديث من المنبهرين بأوروبا وقيمها. أحمد لطفي السيِّد، على سبيل المثال، رأى ألَّا سبيل للعودة إلى حال السلف، ووجد الحلَّ في اتِّباع نهج أوروبا. **أمَّا بالنسبة إلى كيفيَّة التعامل مع الإسلام، فقد وجد لطفي السيد ورفاقه نصفه في دعوة اللورد كرومر إلى تنحية الدين جانبًا في السياسة لما له من تأثير معضل؛ أمَّا النصف الآخر، فقد وجدوه في رأي الداروينيَّة الاجتماعيَّة في الدين، وهو أنَّ العالم في تغيُّر متواصل، ومن المستبعد النظر إلى أمر مثل الدين مستقبلًا. الحلُّ الأمثل كان في تنحية الإسلام جانبًا ووضعه خارج المعادلة السياسيَّة، ويرى الباحث أنَّ شعار الإسلام هو الحلُّ، الذي رفعته جماعة الإخوان المسلمون، هو ردُّ الإسلاميِّين على دعوة الحداثيِّين إلى تنحية الإسلام وإخراجه من السياسة.**

وبرغم حرص الحداثيِّين على اللحاق بالغرب، فقد عجزوا عن تحقيق ذلك؛ فمحاولاتهم الفاشلة يتزامن معها تطوُّر جديد للغرب يزيد من تقدُّمه. وتحمل الدولة، كنظام حاكم، مسؤوليَّة فرض الحداثة والمدنيَّة.

كان للكنيسة القبطيَّة في الولايات المتَّحدة عندما تولَّى الأنبا شنودة البابويَّة عام ١٩٧٠ ميلاديًّا كنيستان فقط؛ أمَّا عندما رحل عام ٢٠١٢، فقد وصل عدد الكنائس هناك إلى ٢٠٢، كما وصل عدد الكنائس القبطيَّة في الخارج إلى ٥٢٥–تقريبًا نصف عدد الكنائس القبطيَّة جميعها، أي نفس عدد الكنائس في مصر. بدأ هجرة المسيحيِّين إلى الخارج منذ عهد عبد الناصر، الذي يتَّهمه الباحث بالتحيُّز ضد المسيحيِّين، برغم ادِّعائه تطبيق العلمانيَّة؛ وكانت المناهج الدراسيَّة تتخذ طابعًا إسلاميًّا، برغم عداء النظام للإخوان المسلمين. هرب المسيحيُّون من العالم الإسلامي بشكل عام بسبب الاضطهاد، بعد أن

كانوا همزة الوصل بين الشرق–حيث وُلدوا ونشأوا–والغرب–حيث يمارسون طقوسهم الدينيَّة بحريَّة ويجدون تماهيًا مع أهله، الذين يشاركونهم جوهر العقيدة الدينيَّة، وإن وُجدت اختلافات مذهبيَّة.

مواجهة تحديات الحداثة الغربيَّة عبر "طريق صلاح سالم"

في ندوة نظَّمتها حركة "علمانيُّون"، التي تعرِّف نفسها بأنَّها حركة دعويَّة فكريَّة تهدف إلى نشر الفكر العلماني وتكوين تيار علماني مصري شعبي، ناقش صلاح سالم، مساعد رئيس تحرير صحيفة الأهرام المصريَّة كتابه **جدل الدين والحداثة: من عصر التدوين العربي الي عصر التنوير الغربي (٢٠١٧)**، الذي يتناول فيه ما يسمِّيه "مآزق العالم العربي" في مواجهة التقدُّم الغربي المستمر في التحديث والنهضة الماديَّة. في محاضرة تدشين الكتاب، يذكر سالم أنَّ المرحلة الحالية في تاريخ العرب–حيث يمتنع عن قول "المسلمين"–هي مرحلة "انسداد تاريخي" لا يمكنه مسايرة الحداثة، باعتبارها "العقلانيَّة...باعتبارها العلمانيَّة...باعتبارها التنوير". يصف الباحث العالم التقليدي **المصاب بالجمود وعدم التطوُّر بالكهف،** الذي يعيش فيه البشر دون وعي بأيٍّ مما يحدث حولهم؛ ولكن بعد النهضة العلميَّة، بدءً من عصر الكشوف الجغرافيَّة والاكتشافات العلميَّة في القرن السابع عشر الميلادي، تغيَّر الأمر، وأصبح العالم أنشط، وسرُعت وتيرة الزمن، وصارت أممٌ في المقدِّمة لمَّا تماشت مع متطلِّبات ذلك العالم، بينما بقيت أممٌ أخرى في مكانها.

يجتهد سالم في تحديد المحفِّز الأساسي للحداثة، معتبرًا أنَّه "سيرورة متكاملة من العلمنة"، أي تطوُّر تسلسلي بدأ بعلمنة الطبيعة، وصولًا إلى **العقلانيَّة**؛ ثمَّ علمنة السلطة، وصولًا إلى **العلمانيَّة،** ويقصد بذلك الآليَّات المتَّبعة في دفع السلطة إلى اتِّباع العلمانيَّة والتخلُّص من قيود الدين، فيما يُعرف بـ "الفصل بين الدين والدولة"؛ ثمَّ علمنة الإرادة الإنسانيَّة، أي إخراج الإنسان من كهفه المظلم إلى أوسع الآفاق. بعد أن كان الإنسان بدائيًّا لا يعرف كيف يستر عورته، ظهرت آلات متطوِّرة ساعدته على تحسين أوضاعه، فلماذا يبقي نفسه الآن مكبَّلًا بقيود دينيَّة وسياسيَّة وبشريَّة ويُحجم عن الاستفادة منها؟

نمَّت الفلسفة الغربيَّة الحديثة في الإنسان الشعور بأنَّه ليس هامشيًّا أو عاجزًا، بل هو فاعل ومؤثِّر ولديه القدرة على الإبداع وتحسين واقعه بالكامل، بل و"تغيير مصره".

يشرح الباحث كيفيَّة تطوُّر حركة العقلنة، حيث يرى أنَّها مرَّت بثلاث مراحل أساسيَّة. المرحلة الأولى هي العقل الخرافي، أي الإدراك الخرافي للطبيعة؛ أمَّا الثانية، فهي الإدراك الديني النقلي للطبيعة؛ في حين تكون الثالثة مرحلة الإدراك العقلي العلمي التجريبي للطبيعة. ينظر البعض إلى الدين باعتباره وعيًا تقليديًّا متعارضًا مع العقلانيَّة، وكان العقل البشري في مرحلة الإدراك الخرافي جامدًا لا يمكنه تفسير الظواهر الطبيعيَّة من حوله، كما كان حسيًّا-"يدرك أبعد مما تدركه الحواس، ولا يستطيع التفسير أو التنبؤ...ومن ثمَّ إطلاق أفكار أو نظريَّات علميَّة عن العالم". اعتقد الإنسان في تلك المرحلة، على حدِّ وصف الباحث، في وجود قوَّة عليا تتحكَّم في الظواهر الطبيعيَّة المتحكِّمة في الكون؛ وهكذا، كوَّن الإنسان مفهوم التأليه؛ وهكذا أصبح لكلِّ ظاهرة إلهٌ يتحكَّم فيها: إله للرياح، وإله للخصب والنماء، وإله للمطر، وإله للعلاقات الإنسانيَّة. **غير أنَّ الإله المسيطر هو إله الشمس؛ "فالشمس ظاهرة كبرى، توصَّل العقل المصري إلى كونها أم الظواهر**". وجاءت بعد ذلك المرحلة الدينيَّة، أو النقليَّة، التي لا يجد فيها الباحث تعارضًا مع العقل، إلَّا بالتعامل مع الدين كونه نصًّا ثابتًا؛ ومن هنا، كانت تلك المرحلة "تقدميَّة" ومثمرة، على عكس الشائع في هذا السياق. ويكمن ذلك في أنَّ الديانات التوحيديَّة-يطلق عليها الباحث "محض شرائع تعكس لحظات متصاعدة" في الدين الإبراهيمي القائم على ثلاثة عناصر: الإله، المسيطر على المصائر، والبعث، والخلود-عكست نظامًا أخلاقيًّا نظَّم حياة البشر. **من خلال إيمان الدين التوحيدي بوجود إله مسيطر على الكون ومنظِّم لحركته ولظواهره في نظام ثابت لا يختلُّ أبدًا، نُقل العقل البشري إلى مرحلة جديدة من الوعي أعدَّته للمرحلة اللاحقة. فعلى سبيل المثال، لو لم يكن نيوتن يعرف أنَّ قوانين الطبيعة متَّسقة في كلِّ مكان، لما سعى إلى توحيدها في ثلاثة قوانين قامت عليها نهضة علميَّة كبيرة.**

ويرفض الباحث رأي بعض النقاد الفرنسيِّين والألمان القائل بأنَّ الحداثة بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر، ارتباطًا بحالة التمرُّد في الأدب، التي مورست بعد المرحلة الكلاسيكيَّة الجديدة والرومانسيَّة. ولأنَّ كثيرين يرون أنَّ فترة ما بعد الحداثة بدأت منذ منتصف القرن العشرين، يُعتقد بأنَّ الحداثة عاشت قرنًا واحدًا فقط. في حين يدعم سالم الرأي القائل بأنَّ الحداثة بدأت منذ القرن السادس عشر، بدايةً بعصر الكشوف الجغرافيَّة، والإصلاح الديني، ثم حركة النهضة والمذهب الإنساني والثورة العلميَّة. ويعتبر الكاتب أنَّ الفكر البشري تغيَّر بالكامل مع خروج الراهب وعالم الرياضيَّات البولندي، وأحد أشهر المؤثِّرين في عصر النهضة، نيكولاس كوبرنيكوس بنظريَّة مركزيَّة الشمس ودوران الأرض حولها، في كتابه **حول دوران الأجرام السماوية**، مما شكَّل تحديًا كبيرًا للرأي القائل بخلاف ذلك في الكتاب المقدَّس. طوَّر جاليليو نظريَّة كوبرنيكوس بعد اختراع التليسكوب، ثم جاء نيوتن لاحقًا ليصيغ قوانينه الشهيرة، التي لخَّصت حركة الكون كلِّه في ثلاث نظريَّات مفهومة البنية الرياضيَّة.

تغيَّرت نظرة الإنسان إلى الكون بفضل **النظريَّات المكوَّنة بفضل العقلانيَّة والتفكُّر والتأمُّل؛ فبدأ عصر التنوير، ورُفضت كافَّة المسلَّمات الدينيَّة السابقة، التي حلَّت محلَّها فلسفات عقلانيَّة حديثة مُستلهمة من النظرة الجديدة إلى الكون؛ ويصف سالم تلك الفلسفات بأنَّها "منضبطة بقوَّة ضبط المنطق الصارم لفيزياء نيوتن، والثورة العلميَّة التجريبيَّة". وأثمرت تلك الفلسفات، على حدِّ وصف الكاتب، "مسيحيَّة جديدة" جوهرها العقلانيَّة والتنوير.**

العقلانيَّة هي تحكيم العقل البشري عبر مناهج للمعرفة، وعلى رأسها المنهج التجريبي، لفهم العالم. أطاحت العلمنة، باعتبارها سيرورة للسلطة، بمفهوم الإله المقدَّس في التحكُّم في مصائر البشر، مما أثمر عن تحرير البشر من السُّلطة الدينيَّة لكهنة تحكَّموا في مصائرهم باسم الدين. صيغ بذلك مفهوم الدولة العلمانيَّة، أي الدولة الوطنيَّة القوميَّة المدنيَّة، التي تقوم على أساس استيعاب كلِّ مواطنيها وتحقيق المساواة بينهم.

يتطرَّق الباحث في ندوته إلى مسألة علاقة الثقافة العربيَّة بالحداثة، ملفتًا إلى مرور الثقافة العربيَّة بمرحلتين للنهضة. شكَّل ظهور الإسلام المرحلة الأولى لتلك النهضة، بما جاء به من مفاهيم تُعتبر "ثوريَّة" وتقدميَّة بمفهوم ذلك الزمن، برغم أنَّ العقل البشري لم يكن قد نضج بعد بالشكل الكافي، كما حدث بعد ظهور العلوم العقلانيَّة. وفق تلك النهضة الفكريَّة، خرج العرب من شبه الجزيرة العربيَّة، لـ "**يفتحوا، يحتلوا، يستعمروا–سمِّه ما شئتَ**" عواصم "عريقة"، حاملين معهم ثورتهم الروحانيَّة، ليبنوا حضارة عظيمة، وفق معاييرهم. ويعترف الباحث بأنَّ مفهوم انعدام الوسيط بين العبد وربِّه، التي نادى بها مارتن لوثر–مؤسس المذهب البروتستانتي–في القرن السادس عشر الميلادي، سبقه الإسلام إليها. وكان العرب المسلمون أصحاب الفلسفة العقلانيَّة الأعمق حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وكان ابن رُشد صاحب الفلسفة الأكثر إثارةً للجدل في حينه. غير أنَّ فلسفة ابن رُشد حُظرت في أوروبا والعالم العربي بسبب تشجيعه للمنطق وإعمال العقل، وسادت نظريَّات القديس توما الإكويني حينها على حسابها. **وبعد انتشار الفكر السُّنِّي الأشعري والشافعي، انطفأت جذوة النهضة الفكريَّة العربيَّة**، كما يرى صلاح سالم.

أمَّا النهضة الثقافيَّة العربيَّة الثانية، فبدأت–وفق رواية سالم–مع مجيء الحملة الفرنسيَّة إلى مصر والشام أواخر القرن الثامن عشر، وفشلها–في رأي الباحث–يكمن في أنَّها "جاءت ومعها مطبعة ومدفع". إثارة الإعجاب بنشر العلم بواسطة المطبعة، وإثارة الخوف بنشر الذعر باستخدام المدفع، أسفر عن انقسام في الشعور الشعبي تجاه الحملة ما بين الترحيب والنفور. جاءت بعد ذلك الدارسين المصريِّين في أوروبا بأفكار تنويريَّة، **ويُستشهد بذلك بمحمَّد عبده، الذي طالب بتغليب العقل على النقل، واستخدام العقل في تأويل النصِّ القرآني بحسب مقتضيات العربيَّة؛ لأنَّ العقل وحده يمكنه فهم العالم.** تفسير القرآن لا بد وأن يسبقه فهم لمقاصد الله العليا في الوجود وفي أنفسنا، من خلال النظرة إلى النص من منظور فلسفي، **لكنَّ دعوة عبده لم تلقَ أيَّ ترحيب؛ على العكس، فقد كان يلجأ إلى المعتمد السامي البريطاني في تمرير بعض التحديثات، التي يرفضها**

الحاكم العثماني في مصر. لم يكتمل مشروع محمَّد عبده بسبب عجزه عن إصلاح الأزهر، كما تحوَّل تلميذه محمَّد رشيد رضا–على حدِّ وصف الكاتب–من داعية تنويري إلى كاتب عن الإمامة واستعادة الخلافة. وازداد الأمر سوءًا بتحويل حسن البنَّا–تلميذ محمَّد رشيد رضا–تلك الفكرة إلى واقع عملي، بتأسيس جماعة الإخوان المسلمون.

انقسم الفكر العربي العقلاني بعد ذلك إلى تيَّارين، كلٌّ يدافع عن رأيه بشراسة ولا يقبل الاندماج في الآخر: الأول سلفي ينادي بمفهوم أسلمة الحداثة، والآخر علماني يرى ضرورة تحديث الإسلام. وعن صراع هذين التيَّارين، تكوَّن تيَّارٌ توفيقي على يد مفكِّرين درسوا العلوم الإسلاميَّة، ولكن وجدوا في الثقافة الغربيَّة ما يستحقُّ الاتِّباع. ويعتبر الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه **تجديد الفكر العربي** المؤسس الفعلي لهذا التيَّار، والمعلِن عنه. غير أنَّ ذلك التيَّار هُزم مع هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ميلاديًّا، وانهزام المشروع القومي، الرافض للاستعمار وللخلافة. **وهكذا، عاد المشروع السلفي القائم على فكرة عودة الخلافة الإسلاميَّة.**

وقد نظَّمت حركة "علمانيُّون" ندوة في نوفمبر من عام ٢٠١٨ استضافت فيها الكاتب صلاح سالم لمناقشة كتابه الجديد **تفكيك العقل الأصولي: النزعات الجهادية في الديانات الثلاث الإبراهيمية** (٢٠١٨)، الذي يتناول فيه عجز الأصوليَّة الدينيَّة عن التجاوُب مع الفكر الحداثي، واستنادها إلى عقائد هي المحرِّك الأساسي لتخطيطها المستقبلي، وعلى رأسها عقيدة الجهاد، التي تقضي بمحو أيِّ عنصر منافس للأصوليين. وكان لنجاح الثورة الإيرانيَّة عام ١٩٧٩ ميلاديًّا دوره في نشر الفكر الأصولي، الداعي إلى تأسيس دولة دينيَّة، وهو ما لا يقبله التيَّار الحداثي في أيِّ دولة مدنيَّة حديثة؛ لأنَّ الأصوليَّة الإسلاميَّة، من وجهة نظر الكاتب، تعكس نمطًا غريبًا من رفض الحداثة؛ بسبب عجزها عن إدراك عدم إمكانيَّة تجاوُز ثلاثة مفاهيم يعتبرها دعائم النهضة والديموقراطيَّة السياسيَّة في الغرب اليوم، وهي القوميَّة، والعلمانيَّة السياسيَّة، والنزعة الفرديَّة.

يبدأ الكاتب بشرح مكوِّنات العقل الأصولي، لافتًا إلى أنَّه عقل "مستقبلي"، وليس ماضويًّا، كما يُفترض عنه؛ حيث يستمد من الماضي أفكارًا يوظِّفها في خدمة مستقبله.

يستحضر العقل الأصولي الإسلامي الماضي في رسم صورة للمستقبل، بأن يستعيد ذكرى زمن الصحابة، ليس من باب الحنين، إنَّما من أجل تأسيس دولة دينيَّة على النمط السابق. وثاني سمة للعقل الأصولي يشير إليها الكاتب هي أنَّه "نفعي"؛ لأنَّه من أجل تنفيذ مراده، لا بدَّ له من استخدام أرقى ما أنتجه العقل الحداثي من وسائل أصبحت تشكِّل كيفيَّة تصريف أمور الحياة اليوميَّة، ويضرب المثل في ذلك بتنظيم داعش الإرهابي، الذي استعان بأحدث العلوم والأسلحة ووسائل الاتصال في عمليَّاته الجهاديَّة. أمَّا السمة الثالثة للعقل الأصولي فهي أنَّه "انتقائي"، أي يستحضر من الماضي ما يخدم أغراضه، وليس الماضي كلَّه، وتتم هذه الانتقائيَّة على عدة محاور، منها المحور المكاني، والمحور الزماني، والمحور الذهني. يتمثَّل المحور المكاني في اختزال العالم في المدينة المنوَّرة، من حيث انبثقت الدعوة إلى الإسلام. ويقوم المحور الزماني على اقتناص لحظة تأسيس العقيدة، دور الوقوف عند ما عرفه تاريخ البشريَّة لاحقًا من تطوُّرات وتغيُّرات، فالأصولي لا يرى سببًا في الرجعيَّة والتأخُّر إلَّا الابتعاد عن الدين، دون وعي بما أفرزته الحضارة الحديثة من منجزات تجاوزت غيَّرت وجه العالم، في رأي الكاتب. أمَّا المحور الذهني، فهو عجز العقل الأصول عن إدراك المفاهيم المختلفة عن فكره؛ فالفلسفات التي لا تتفق مع مصالحه ينبذها، مهما ثبتت منافعها، حتَّى فلسفة ديكارت، مؤسس الفلسفة الحديثة. يشير الكاتب إلى السمة الرابعة للعقل الأصولي، وهي أنَّه "تآمري"، يستشعر وجود مؤامرة ضدَّه باستمرار، ويشترك في ذلك كل المتدينين، الذين يشعرون دائمًا أنَّ العلمانيين مصدر خطر عليهم؛ كونهم "كائنات أرضيَّة" ترفض القداسة. وتتمثَّل السمة الخامسة للعقل الأصولي في أنَّه "عنيف، دموي"؛ إذ أنَّه لا يقبل إلَّا أن تسود حقيقته، ويُفرض فهمه على فهم الآخرين، من خلال العنف، إن لم ينفع اللين.

يعتبر الكاتب أنَّ الأصوليَّة الإسلاميَّة منحت الشرعيَّة لمفهوم حُركة الخروج على الحاكم، مهما كان استبداده، ضاربًا المثل في ذلك بقول ابن تيمية "ستون عامًا من سلطان جائر خيرٌ من ليلة بلا سلطان"، على اعتبار أنَّ الفوضى هي العدو الأول للشعوب. وانطلاقًا

من هذا المفهوم، "تحوَّل ١٤٠٠ سنة من تاريخ الإسلام إلى استبداد مستمر؛ لأنَّ الخروج على الحاكم إثم كبير، والفوضى هي الخطر الأكبر". وبرغم إسقاط أفكاره على الإسلام منذ بداية حديثه، يشير الكاتب إلى أنَّ الاستبداد سمة أساسيَّة للفكر الأصولي للديانات الإبراهيميَّة الثلاث، التي يطلق عليها "شرائع ثلاث في دين توحيدي واحد". يبدأ الكاتب بتتبُّع الفكر الأصولي اليهودي، القائم على فكرة عهد الربِّ لأبرام العبراني بمُلك على مملكة من النيل إلى النهر الكبير، نهر الفرات، وانتقال تلك الفكرة إلى الأجيال اللاحقة لبني إسرائيل، بدءً من إسرائيل نفسه، الذي حصل على اسمه هذا بعد غَلَب الربَّ وكسر ساقه، وفق ما ورد في سفر التكوين. صدق عهد الربِّ لأبرام تبلور مع حفيده يعقوب، لمَّا تغلَّب على سطوة الربِّ في "معركة متوهَّمة" أكسبت الأوَّل الشرعيَّة في استحقاق الوعد بأرض من النيل إلى الفرات.

سيطرت فكرة النبي الملِك على بني إسرائيل، الذين يستمدُّون من سيرة الأنبياء الملوك، يشوع وداود وسليمان، الفخر. جمع هؤلاء الملوك ما بين السلطتين الدينيَّة والدنيويَّة، وظلَّت فكرة الجمع بين السلطتين قائمة، حتَّى في ظلِّ حُكم القضاة، بعد زوال حُكم الملوك، على حدِّ وصف الكاتب. يشير الكاتب، في إطار تسلسُل تاريخي غير صحيح، إلى تطوُّر فكرة الجمع بين الحكمين الديني والدنيوي لدى بني إسرائيل على مر تاريخهم، وصولًا إلى فترة حُكم المكابيين، التي خضعت دولتهم للحكم الروماني، وهذا ليس بصحيح؛ لأنَّ خضوع دولة يهودا المكابي للرومان كان في النصف الثاني من القرن الأخير قبل الميلاد، وعلى يد الأدومي هيرودس أنتيباس، الذي أخضع دولة يهودا إلى سُلطانه عام ٣٧ قبل الميلاد، وعُيِّن حاكمًا من قِبل الرومان، مكتسبًا الشرعيَّة بزواجه من مريم المكابيَّة. لم تقم لليهود قائمة في دولة مستقلَّة إلَّا في الزمن الحديث، بعد تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ميلاديًّا، حينما اعتقد اليهود إمكانيَّة عودة ثنائي الدين والسلطة.

لم تعرف اليهوديَّة التبشير قط؛ انطلاقًا من التكوين العنصري للذهنيَّة اليهوديَّة، التي تعتقد أنَّ اليهود متميِّزون عن سائر الأمم بصفاء روحاني ونقاء جيني، ومن هنا آثر

اليهود العزلة عن الأقوام الأخرى على مرِّ العصور. حتَّى لمَّا أسسوا دولتهم، جعلوا من تلك الدولة أشبه بـ "قلعة" محصَّنة؛ لخوفهم من الغير، وشعورهم بالاضطهاد. يشير الكاتب كذلك إلى ازدواجيَّة البنية الأخلاقيَّة لليهود، التي تمنعهم عن الاعتداء على حقوق بعضهم، ولا تمنعهم عن ذلك مع الأغيار، مستشهدًا بدعوة الرب يهوه لهم بالاستيلاء على المال والحلي الثمين من المصريين قبل خروجهم من مصر. ظهرت في القرن الثامن عشر حركة تنويريَّة يهوديَّة، أطلقها المفكِّر اليهودي موسى مندلسون، تأثُّرًا بأستاذه المفكِّر الشهير إيمانويل كانت. استهدفت تلك الحركة مصالحة اليهود مع العالم، بإيمان اليهود بخلاص الآخرين، وخلْق مفهوم اليهودي العلماني، المؤمن بالأخلاق القوميَّة. غير أنَّ تلك الحركة لم تستمر طويلًا، وانسحقت تحت أقدام الحركة الصهيونيَّة.

يتميَّز الفكر الجهادي اليهودي بأنَّه "عنف بدأ بتأسيس دولة"، أي أنَّه مدعوم بشرعيَّة منحتها الدولة إيَّاه. يشير الكاتب إلى أنَّ جماعة اليهود الحريديم، التي سبقت الصهاينة إلى القدس بسنوات، واستوطنت أرض فلسطين منذ أمد بعيد، كانت أشدُّ كرهًا للصهيونيَّة من العرب أنفسهم عند تأسيس إسرائيل. كوَّن الحريديم حياة منفتحة على العرب، وعملوا في التجارة في حياة مستقرة، لدرجة جعلت الكاتب يدَّعي أنَّهم كانوا أشدَّ كرهًا للاجتياح اليهودي لفلسطين من العرب أنفسهم. وفي رأي الكاتب، يوجد في المجتمع اليهودي اليوم ثلاث جماعات: اليهود الأصوليين (الأرثوذكس)، واليهود العلمانيين، والصهاينة الدينيين، وهي أخطر جماعة على الإطلاق، على حدِّ قوله. نشأت الصهيونيَّة الدينيَّة باعتبارها الشكل الحديث للصهيونيَّة، بعد تحرُّرها من العلمانيَّة، أي لم تعد تقبل التعايش مع غير اليهود، وتدعو إلى تطهير أرض الميعاد من الأغيار؛ فنجحت في إسكات الأصوات اليهوديَّة في إسرائيل المطالبة بتأسيس دولة فلسطينيَّة، وتقبل التعايش مع الأغيار، وعلى رأسها حركة المؤرخين الجدد. ظهرت هذه الحركة في ثمانينات القرن الماضي، نتيجة اطلاع جيل جديد من الباحثين على الوثائق الموجودة في الأرشيف الوطني الإسرائيلي، طالبوا بإعادة النظر في الفِكر الصهيوني، وشكَّكوا في بعض افتراضات الصهيونيَّة. تُعرف حركة المؤرخين الجدد بأنَّها جزء في حركة أوسع يُطلق عليها ما بعد الصهيونيَّة،

ظهرت احتجاجًا على الممارسات الصهيونيَّة، لكنَّها لم تستطع الصمود في مواجهة سيطرة الفكر التوسُّعي العنصري.

ينتقل الكاتب إلى مسألة السلطة في المسيحيَّة، التي يراها تمثِّل النموذج المعياري لكلِّ ما يقال عن فكرة الحُكم الديني. تولَّدت المسيحيَّة بوصفها ردَّ فعلٍ لليهوديَّة، وتكوَّن لدى مؤسسها، يسوع الناصري، هاجسان، على حدِّ وصف الكاتب، وهما رفض العنصريَّة اليهوديَّة، **استنادًا إلى مبدأ الدين للجميع، والخلاص بالإيمان، والله ليس حكرًا على اليهود وحدهم، وتحدِّي النزعة الدنيويَّة لدى اليهود، وبخاصَّة الفريسيين.** يعبِّر الكاتب عن إعجابه الشديد بالسمو الأخلاقي الذي تعكسه موعظة الجبل (إنجيل متَّى، الإصحاح ٥)، التي يراها مثالًا رائعًا للتسامح الدَّيني سبق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ومواثيق الأمم المتَّحدة لنشر العدالة بين البشر. ويجد الكاتب في فِكر يسوع النَّاصري نموذجًا مبكِّرًا للدعوة إلى فصْل الدِّين عن الدَّولة، وعدم تأثير النصوص الدينيَّة على التوجُّه السياسي. ويدلل على ذلك بما جاء في قول يسوع "**أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ**" (إنجيل متَّى: إصحاح ٢٢، آية ٢١)، الوارد بصيغة أخرى وفي إنجيل مرقس "**أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ**" (إصحاح ١٢: آية ١٧). دخل يسوع في صراع ديني شديد مع الفريسيين، ممن أرادوا احتكار الإيمان بالربِّ يهوه لبني إسرائيل، وكوَّنوا كهنوتًا دينيًّا مارس سلطات واسعة تدَّخلت في شؤون الحُكم. كان يسوع النَّاصري، وهو "نبي عظيم" يحبُّه الكاتب ويحترم دعوته، حاسمًا في موقفه من التقيُّد بالنصوص المقدَّسة التي تتنافى مع العقلانيَّة، فقال "**السَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لأَجْلِ الإِنْسَانِ، لاَ الإِنْسَانُ لأَجْلِ السَّبْتِ**" (إنجيل مرقس: إصحاح ٢، آية ٢٧). يتَّفق سالم مع افتراض أنَّ يسوع النَّاصري كان يهودي المولد والنشأة، وأنَّ رسالته جاءت لتقويم اعوجاج العقيدة اليهوديَّة، التي أفسدها تسلُّط فئتي الفريسيين والصدوقيين واستغلالهما الدِّي في تحقيق منافع شخصيَّة؛ فجاء يسوع للقضاء على ماديَّة الفريسيين واستعلاء الصدوقيين. في رأي سالم، مهَّد التحرُّر الفكري لعقيدة يسوع النَّاصري لتطوير عقيدة البرِّ بالإيمان، التي صدح بها بولس الرَّسول في رسالته إل أهل روميَّة " لأَنِّي لَسْتُ أَسْتَحِي بِإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ، لأَنَّهُ قُوَّةُ اللهِ

لِلْخَلاَصِ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ: لِلْيَهُودِيِّ أَوَّلاً ثُمَّ لِلْيُونَانِيِّ. لأَنْ فِيهِ **مُعْلَنٌ بِرُّ اللهِ بِإِيمَانٍ، لإِيمَانٍ**، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «**أَمَّا الْبَارُّ فَبِالإِيمَانِ يَحْيَا**»" (رسالة أهل روميَّة: إصحاح ١، آيتان ١٦-١٧).

والسؤال الهام هُنا، إذا كان صلاح سالم يستشهد بما سبق من أقوال يسوع النَّاصري في تكوينه صورة عن تأييد يسوع الناصري لفكرة الفصل بين الدين والدولة، فلماذا لم يعلِّق على أمره بقتل معارضي وصوله إلى المُلك على بني إسرائيل في إنجيل لوقا "أَمَّا أَعْدَائِي، أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ، **فَأْتُوا بِهِمْ إِلَى هُنَا وَاذْبَحُوهُمْ قُدَّامِي**" (إنجيل لوقا: إصحاح ١٩، آية ٢٧)؟ ولماذا لا يعلِّق مدَّعو أنَّ المسيح جاء رسولًا للسلام على نفي المسيح هذا بقوله في إنجيل لوقا "**جِئْتُ لأُلْقِيَ نَارًا عَلَى الأَرْضِ**، فَمَاذَا أُرِيدُ لَوِ اضْطَرَمَتْ؟ وَلِي صِبْغَةٌ أَصْطَبِغُهَا، وَكَيْفَ أَنْحَصِرُ حَتَّى تُكْمَلَ؟ **أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئْتُ لأُعْطِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ؟ كَلاَّ، أَقُولُ لَكُمْ: بَلِ انْقِسَامًا**" (إنجيل لوقا: إصحاح ١٢، آيتان ٤٩-٥١)، الذي يؤكِّد قوله في إنجيل متَّى "**لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا**. فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. **وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ**" (إنجيل متَّى: إصحاح ١٠، آيات ٣٤-٣٦)؟ ولماذا لا يعلِّقون كذلك على إقران يسوع العداء بين الرجل وأهله بالانضمام إلى تلاميذه "**إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا، فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا**" (إنجيل لوقا: إصحاح ١٤، آية ٢٦).

يشير الكاتب بعد ذلك إلى تحوُّل الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة إلى المسيحيَّة في القرن الرابع الميلادي، دون إشارة إلى اعتماد الإمبراطوريَّة عقيدة التثليث باعتبارها عقيدتها الرسميَّة، ومع التشكيك في نيَّة الإمبراطور قسطنطين المحرِّكة لذلك التحوُّل، معتبرًا أنَّ التفكُّك الذي عانت منه الإمبراطوريَّة حينها ما دفعه إلى ذلك. نشأ في الدولة البيزنطيَّة لاحقًا كيانٌ دينيٌّ موازٍ لهيكل السلطة الحاكمة، وأسس كهنة الكنيسة الكاثوليكيَّة "معمارًا" موازيًا، احتكر السلطة، وفرض على الحاكم طاعته. استمرَّ احتكار الكهنة للمسيحيَّة، وبالذات

في إمكانيَّة قراءة الكتاب المقدَّس، المكتوب في الأصل باليونانيَّة ثم اللاتينيَّة، في ظلِّ اقتصار التعلُّم على رجال الكنيسة. وكان مارتن لوثر قائد ثورة الإصلاح الكنسي، لمَّا أدان الكاثوليكيَّة بخصوص ٩٥ مسألة انحرفت فيها الكنيسة عن صحيح الديانة؛ والنتيجة كانت نشوب عداء طويل بين البروتستانتيَّة، التي أسسها لوثر، والكاثوليكيَّة صاحبة التاريخ المديد. ولم يكن حلٌّ للخلاف التاريخي بين الكنيستين إلَّا من خلال الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، فيما عُرف بالعلمانيَّة. ويجد الكاتب أنَّ الحروب الصليبيَّة انتهت بنوع من "التكافؤ العسكري"؛ حيث انتهت بخروج المسيحيين من العالم الإسلامي، وخروج المسلمين من الأندلس، وكأنَّ الحروب الصليبيَّة كانت لثأر أوروبا من استعمار الأندلس، وهذا يتطابق مع رأي برنارد لويس في أكثر مؤلَّف، سواء **أوروبا والإسلام** (١٩٩٠)، أو **أزمة الإسلام** (٢٠٠٣). انتهت القرون الوسطى بنوع من تكافؤ القوى بين الشرق والغرب، في رأي الكاتب، الذي يتجاهل حقيقة التردِّي الشديد الذي عانت منه أوروبا في القرون الوسطى، التي عُرفت بالعصور المظلمة، وأنَّ هدف الحروب الصليبيَّة كان إيقاف التوسُّع الإسلامي في أوروبا على يد السلجوقيين، والاستفادة من الوفرة التي تنعَّم بها المشرق الإسلامي، وقبل كل ذلك تأسيس مملكة الربِّ في أورشليم، وهي أهداف نفعيَّة بحتة اكتسبت مظهرًا دينيًّا، ونموذجٌ مثاليٌّ للحملات الجهاديَّة الأصوليَّة.

انتقلت أوروبا في عهد الكشوف الجغرافيَّة إلى مرحلة جديدة في تاريخها، غلب عليها الفكر التوسُّعي، بفضل القوَّة الماديَّة والعلميَّة التي حقَّقتها. كان الاستعمار في هذه المرحلة مختلفًا، كما يشير الكاتب، الذي يرى أنَّ التبشير في هذه المرحلة كان بالتنوير الناتج عن الفكر التحرُّري العلماني، وليس بالمسيحيَّة، وهو ما أطلق عليه الكاتب "العلمانيَّة التبشيريَّة" في مقابل "المسيحيَّة التبشيريَّة". يتغزَّل الكاتب في العلمانيَّة التي صنعت مجد الغرب المادِّي، ولا ينتقد الحملة الفرنسيَّة على مصر والشام، التي يعترف بإخفائها أهدافها الاستعماريَّة خلف ستار التحديث والتمدين وإحياء القوميَّة المصريَّة الفرعونيَّة، ومع ذلك يمتدح هدفها التنويري. وتعتبر الولايات المتَّحدة من أكثر الدول الغربيَّة التي، مع اعتناقها العلمانيَّة، لم تزل الأصوليَّة الإنجيليَّة تسيطر على سياساتها.

ومن أهم تأثيرات الأصوليَّة الإنجيليَّة في أمريكا ظهور تيَّار المحافظين الجُدد، ويشكِّل هذا التيَّار الكتلة التصويتيَّة الأساسيَّة للحزب الجمهوري، الذي ينتمي إليه الرئيسان السابقان جورج بوش الأب والابن، والرئيس الأسبق رونالد ريجان، وكذلك الرئيس الحالي دونالد ترامب، والتي تعتبر عهود الثلاث الأوائل منهم أكثر عهود خاضت فيها أمريكا حروبًا طاحنة، الحرب الباردة في عهد ريجان، وحرب الخليج الأولى في عهد بوش الأب، وحربا أفغانستان والعراق في عهد بوش الابن.

ينتقل الكاتب إلى الأصوليَّة الإسلاميَّة، واصفًا إيَّاها بـ "الأكثر عنفًا"، وزاعمًا أنَّ العنف المرتبط بالحركات الجهاديَّة المحسوبة على الإسلام يتجاوز العنف الممارس من قِبل الحركات الأصوليَّة المطالبة بـ "مملكة المسيح"، وبذل الدماء في سبيل ذلك، كافرًا بالتقدُّم والحداثة. يذكر الكاتب أنَّ الأصوليَّة الإسلاميَّة هي "الأخطر" على الإطلاق، وهي تستمدُّ تصوُّرها للحكم من الحنين إلى زمن الخلفاء الراشدين، مشيرًا إلى مقتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين غيلةً. يرى الكاتب في الحجَّاج بن يوسف الثقفي النموذج القديم لهتلر النازي في الدمويَّة، ويذكِّر بتوظيف الأمويين للنص الديني في تحقيق مطامع دنيويَّة آنيَّة، وقد ساعد في ذلك نشر فِكر الجهميَّة، المؤمن بالقدريَّة، والمعتبر أنَّ الحاكم قَدَر المحكومين؛ فاستفاد الأمويُّون من ذلك في إكساب حُكمهم الشرعيَّة.

يسترجع الكاتب قصَّة إشهار معاوية بن أبي سفيان سيفه في خطبة تنصيب نفسه خليفةً للمسلمين، وتهديده الصريح بالقتل لمن يعارضه، كما يشير إلى استغلال العبَّاسيين الخطاب الديني في الدعوة إلى إسقاط الحُكم الأموي، **ثمَّ استخدامهم العنف والقسوة في دحر المعارضين بعد وصولهم إلى السلطة، ويصفهم بأنَّهم كانوا** "**أكثر قسوةً من نابليون بونابرت والاحتلال الأجنبي**". ويتعجَّب الكاتب بعد ذلك لوجود فِكر "رومانسي" في مخيِّلة بعض السلفيين يحنُّ إلى الخلافة الراشدة التي حَكَمت العالم الإسلامي، التي ربَّما لا يعرف عنها أكثر من ظاهرها، كما يرى الكاتب، الذي يعارض فكرة أن يخضع العالم الإسلامي مترامي الأطراف تحت حُكم رجل واحد، كما يعتقد الأصوليُّون.

شهد التاريخ الإسلامي صراعًا حول نظريَّة الحُكم بين السُّنَّة، أنصار **الخلافة**، والشيعة، أتباع **الإمامة**. وتقوم فكرة الإمامة على مفهوم التلقِّي النابع من الفلسفة الغنوصيَّة، بافتراض أنَّ بعض البشر يمتلكون رقيًّا روحانيًّا يؤهِّلهم لتلقِّي العلم من السماء. ومن هنا ادَّعى الشيعة أنَّ الإمام علي، المنتمي إلى بيت النبوَّة، والمنحدر من نسل أبِّ الأنبياء إبراهيم، كان يتلقَّى وحيًا وعلمًّا باطنيًّا، مما يعني أنَّ الرسالة المنزَّلة على نبيِّنا مُحمَّد لم تنتهِ بانتقاله إلى جوار ربِّه، والأمر ذاته ينطبق على الإمام عليٍّ والأولياء من نسله من زوجه نجلة النبي. لا يختصُّ هذا الوحي بالتشريع، إنَّما هو "وحي نوراني" للهداية إلى الحقِّ وتفريقه عن الباطل. يرى الكاتب أنَّ نموذج الخلافة كان دائمًا رمزًا لاستغلال الدين في كسب الشرعيَّة، وإن لم تكن الخلافة هي النظام الرسمي للدولة، ضاربًا المثل في ذلك بالسعوديَّة، التي تدَّعي الحداثة على حدِّ وصفه، بينما هي ترتبط بالوهَّابيَّة في تحديد مسارها. في حين سمة الإمامة على مرِّ الزمان هي المعارضة، والمثل الحيِّ لذلك إلى يومنا هذا هو إيران، **دولة الولي الفقيه**. يشير الكاتب إلى إعلان الخميني الرسمي لانتقال الولاية له من الإمام الغائب لحين ظهور الأخير، على أن يجسِّد الولي الفقيه الإمام بما يتلقَّاه عنه من علم. يمتدح الكاتب إيران، قائلًا عنها دولة "**عاقلة، منظَّمة؛ لديها مليشيات مسلَّحة، لكنَّها تديرها بتعقُّل**". ومع هذا المديح لإيران، ينتقد الكاتب تنظيم طالبان الجهادي، وتنظيم داعش المسلَّح، المنتميان إلى المذهب السُّنِّي، مندِّدًا باستخدامهما القوَّة الغاشمة في العالم.

وتعليقًا على ادِّعاء الكاتب استخدام إيران القوَّة بتعقُّل، ومديحه استناد وليِّها الفقيه إلى شرعيَّة تلقَّاها عن الإمام الغائب، وبقائها رمزًا للمعارضة المستنيرة بالعلم الباطني على مرِّ العصور، ننصح بمطالعة ما تناقلته وسائل الإعلام العربيَّة الغربيَّة عن انتهاكات النظام الإيراني حقوق الإنسان، لا سيَّما في دولة الولي الفقيه.



Iran committing crimes against humanity by concealing fate of thousands of slaughtered political dissidents

4 December 2018, 15:05 UTC

- *Thousands forcibly disappeared and extrajudicially executed in prison in 1988*
- *Ongoing campaign to deny, distort truth and abuse victims' families*
- *UN must establish independent investigation into crimes against humanity*
- *High-profile figures accused of involvement in 1988 prison massacres named*

By concealing the fate and whereabouts of thousands of political dissidents who were forcibly disappeared and secretly executed in prison 30 years ago, Iranian authorities are continuing to commit crimes against humanity, said Amnesty International in a damning report published today.

The report *Blood-soaked secrets: Why Iran's 1988 prison massacres are ongoing crimes against humanity* calls on the UN to set up an independent investigation into the mass enforced disappearances and extrajudicial killings which have gone unpunished for three decades.

"These blood-soaked secrets from Iran's past continue to haunt the country to the present day. This report unravels the web of denials and distortions that the Iranian authorities have perpetuated over 30 years, both at home and internationally, to hide the truth that they forcibly disappeared and systematically killed thousands of political dissidents within a matter of weeks between late July and early September 1988," said Philip Luther, Research and Advocacy Director for the Middle East and North Africa at Amnesty International.

"The fact that to this day the Iranian authorities refuse to acknowledge the mass killings, tell relatives when, how and why their loved ones were killed and identify and return their bodies, means that the enforced disappearances are continuing today. This has inflicted torturous suffering on victims' families. Until Iran's authorities come clean and publicly reveal the fate and whereabouts of the victims, these crimes against humanity are ongoing."

نكتفي بالإشارة إلى مقال محكمة العدل الدوليَّة التابعة للأمم المتَّحدة- Amnesty International، الصادر ٤ ديسمبر من عام ٢٠١٨، بعنوان **إيران ترتكب جريمة ضدَّ الإنسانيَّة بإخفاء مصير آلاف الطلَّاب المعارضين السياسيِّين**، يتناول التقرير الذي أعدَّته المحكمة في اليوم ذاته عن جرائم النظام الإيراني ضدَّ الطلَّاب المعارضين في السجون عام ١٩٨٨ ميلاديًّا، وإخفاء مصيرهم، ومنحته اسم **الأسرار المغموسة بالدماء: لماذا تُعدُّ مجازر إيران في السجن عام ١٩٨٨ جرائم مستمرَّة ضدَّ البشريَّة؟**

يقول التقرير أنَّ الآلاف تعرَّضوا للاختفاء القسري، ثمَّ للإعدام في السجن خارج نطاق القضاء عام ١٩٨٨ ميلاديًّا، مع استمرار النظام الحاكم في إخفاء الحقائق، والإساءة إلى عائلات الضحايا، مع إصراره على الإنكار. يشير التقرير إلى أنَّ "الأسرار المغموسة بالدماء" لم تزل تطارد الدولة إلى يومنا هذا؛ حيث يعني إصرار النظام الحاكم على إنكار إخفاء الضحايا قسريًّا، والكشف عن مصيرهم يعني "استمرار تلك الجرائم ضدَّ البشريَّة إلى اليوم".

يختتم الكاتب استعراضه محتويات كتابه بالإشارة إلى أجنحة الصراع الفِكري في العالم العربي هذه الآونة، محددًا ثلاثة تيَّارات، أوَّلها **التيَّار العلماني، أو العلماوي، أو الحداثي،** المفرط في تقرُّبه إلى الغرب، ورغبته في اتِّباع نهجه، وإيمانه بـ "الاستنارة والعلمنة إلى أبعد مدى"، وهو تيَّار "أكثر تسامحًا وانفتاحًا على الأديان" من غيره، كان سلامة موسى وفرح أنطون خير من مثَّله. أمَّا التيَّار الثاني، فهو **التيَّار التوفيقي،** الذي تزعَّمه عبَّاس محمود العقَّاد وطه حسين ومحمَّد عبده، من أصحاب الموقف النقدي المعتدل تجاه الغرب، ممن رأوا في الغرب حضارة عظيمة تستحق الإعجاب، برغم سلبيَّاته الكثيرة. كان الغرب في نظر هؤلاء مستنيرًا، لكنَّه مستعمِر مغتصِب في ذات الوقت، فلا بأس في الاستفادة من معرفته، برغم رفض احتلاله. بالطبع، تصادم التيَّارات آنفا الذِّكر بالتيَّار الثالث، وهو **التيَّار السلفي،** "شديد العنف" على نمط الحياة العلماوي، ولم يرَ في الغرب سوى **شيطان يتآمر على العقيدة الإسلاميَّة،** رافضًا الأخذ من منجزاته، مهما كانت. ونتج العنف الجهادي تجاه غير المسلمين عن هذا الموقف السلفي تجاه الغرب، الذي يؤثر اتِّخاذ موقف "أحادي منقطع عن الآخرين"، على أساس أنَّ الحضارة الإسلاميَّة هي الإسلام، ويبطل كلُّ ما عدا ذلك؛ ومن ثمَّ يرفض **التيَّار السلفي** "**عمل الفلاسفة**"، وكافَّة أشكال الحُكم القادمة مع الاستعمار–الحُكم المدني والبرلمان والحكومة التمثيليَّة–ولا يرى حلًّا إلَّا الخلافة، التي يراها الكاتب مرفوضة؛ لأنَّها "رجعيَّة" عن النهج الغربي، القائم على "العلمنة والاستنارة". يستخدم **التيَّار السلفي** القوَّة، إذا أتيحت له، في إعادة تشكيل المجتمعات على النهج الذي يراه صحيحة، ويُترجم ذلك في

صورة عُنف وتدمير وإرهاب ديني وسياسي. ويختتم الكاتب حديثه بالإشارة إلى إصرار **التيَّار السلفي**، على حدِّ قوله، على استبعاد دمج الفِكر الديني بالآراء الفلسفيَّة، وهذا ما يسفر عن "العنف الجهادي"، باسم "الفكرة الإسلاميَّة"، النابعة من خيال أتباع هذا التيَّار الديني، وارتباطهم بالعصر الذَّهبي للإسلام **ظنيًّا**.

٥.الحملة الفرنسيَّة على مصر والشَّام: تجربة فاشلة لنشر الحداثة أم لفرضها بالقوَّة؟

يتناول هذا القسم ثلاثة أراء متباينة عن الحملة الفرنسيَّة (١٧٩٨–١٨٠١ ميلاديًّا)، ما بين اعتبارها محاولة لإحياء الحضارة المصريَّة القديمة، المليئة بالإنجازات الفكريَّة والماديَّة، ودمجها في الحضارة الغربيَّة الحديثة، واعتبارها احتلالًا استهدف تأسيس نظام سياسي واجتماعي على النسق الفرنسي في مصر والشام، لكنَّه فشل بسبب تحالُف الإمبراطوريَّتين، العثمانيَّة والبريطانيَّة، واعتبارها معركة نضال بذل فيها الشعب المصري الروح والدم في سبيل الدفاع عن أرضه وعرضه.

لماذا امتنعت "مصر نابليون" عن إكمال حُلم التحديث والتمدُّن؟

برغم كثرة المؤلَّفات التي تناولت الحملة الفرنسيَّة على مصر، يعتبر الكاتب الأمريكي جوان كول أنَّ كتابه **Napoleon's Egypt: Invading the Middle East– مصر نابليون: غزو الشرق الأوسط** (٢٠٠٧) "أوَّل تناوُل بالإنجليزيَّة لمتخصِّص في دراسات الشرق الأوسط تُقرأ فيه المصادر الفرنسيَّة من خلال عدسة الحقائق المصريَّة" (صix). يتعرَّض الكتاب أكثر من غيره لمعاناة الفرنسيِّين في مصر، وكذلك السياق الثقافي والمؤسسي لمقاومة الاحتلال الفرنسي في الشرق الأوسط، بخلفيَّة اجتمع فيها التراث العثماني والمصري، وقبلهما الإسلامي. **لا يبني الكاتب فرضيَّته على أساس وجود صراع حضاري بين فرنسا والشرق الأوسط، إنَّما على اعتبار أنَّ لحوض البحر المتوسِّط حضارة واحدة منذ أمد.** يتناول الكتاب قصَّة غزو نابليون للشرق الأوسط حتَّى عشيَّة إبحاره إلى سوريا؛ لأنَّ سياق الحديث عن حملته هناك مختلف.

يشير الكاتب إلى وجود مفارقتين تاريخيَّتين في عنوان الكتاب، الأولى هي تعظيم نابليون، وكأنَّما كان في زمن الغزو إمبراطور فرنسا الذي يضمُّ مصر إلى أراضيه؛ ويرجع سبب هذا التقديم إلى طريقة تأريخ الحملة الفرنسيَّة بعد سنوات من الحملة، ووفق ما كتبه عنها نابليون بعد أن صار إمبراطورًا. أمَّا المفارقة الثانية، فهي إشارته إلى العالم الإسلامي العربي بـ "الشرق الأوسط"، وليس "المشرق"؛ والسبب هو أنَّ كلمة "المشرق" قد لا يألفها القارئ المعاصر. استند الكاتب في إعداد مؤلَّفه إلى مصادر تاريخيَّة متنوِّعة، من بينها كتابات الفرنسيِّين فرنسوا برنوي، وجوزيف-ماري مواريه، وتشارل أنطوان موراند؛ والمصريِّين عزَّت حسن الدارندلي، وعبد الله الشرقاوي، إلى جانب ترجمة تأريخ الجبرتي للحملة في ترجمتها إلى الإنجليزيَّة. وقد زار الكاتب كذلك المكتبة الوطنيَّة الفرنسيَّة في رحلة علميَّة موَّلتها جامعة متشجن للحصول على وثائق استلزمتها الدراسة.

يعتقد كول في هذه الدراسة أنَّ تصوُّر الفرنسيِّين للمصريِّين اعتمد في المرتبة الأولى على مفاهيم الثورة الفرنسيَّة وأيديولوجيَّة الجمهوريَّة الفرنسيَّة الناشئة حينها. يعتقد كول أنَّ بونابرت وأعضاء حملته رأوا مصر تمرُّ بمرحلة ما قبل الثورة؛ فالمماليك كانوا يمثِّلون النظام القديم، المفروض على الشعب بلا انتخاب. وبرغم فشل الحملة في تحقيق هدفها الأساسي في رأيه، دفع الشعب على المطالبة بحريَّته، فقد أرست قواعد الديموقراطيَّة، التي أشعلت الحماسة في نفوس دعاة التحديث من أبناء مصر لكي ينهضوا ببلادهم على النسق الأوروبي. كان كول منصفًا بما يكفي، بأن قال عام ١٩٩٧ ميلاديًّا، خلال مؤتمر في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، "على مدار قرنين، أطلق عليه حملة نابليون على مصر، وهذا يكفي. لقد كان غزوًا".

يبدأ الكاتب بالتعريف بنابليون، وهو مواطن من جزيرة كورسيكا، الواقعة على البحر المتوسِّط بالقرب من فرنسا، أُوفد إلى الأكاديميَّة العسكريَّة الملكيَّة الفرنسيَّة لتلقِّي تعليمًا عسكريًّا، فأثبت بتفوُّقه في الرياضيَّات ونشر المدفعيَّة، ثمَّ تجلَّت براعته العسكريَّة لاحقًا؛ فترقَّى في المناصب في مرحلة شائكة في تاريخ فرنسا الحديث، مرحلة الثورة الفرنسيَّة وما تلاها. أثيرت العديد من الزعامات الملكيَّة الأوروبيَّة ضدَّ فرنسا بعد ثورتها، التي

اندلعت عام ١٧٨٩ ميلاديًّا، وتطوَّرت الأحداث إلى أن أُعدم ملكا فرنسا، لويس السادس عشر وماري أنطوانيت. انتفضت بريطانيا ضدَّ فرنسا، وعملت على إعاقة سُبُل سيطرة الأخيرة على موانئ في بلدان استعمرتها في بقاع متفرِّقة من العالم. أرادت الجمهوريَّة الفرنسيَّة الانتقام من بريطانيا بعد مؤامراتها على الحريَّة، التي تمخَّضت عنها الثورة الفرنسيَّة، واختارت قطع سبل وصول بريطانيا إلى مستعمراتها في الهند.

تكوَّنت لجنة العلوم والآداب المصاحبة للحملة العسكريَّة من ١٥١ فردًا، ٨٤ منهم كانوا من أصحاب الخبرات في المجال التقني، و١٠ من الأطباء؛ وكان هذا العدد في مجموعه أكبر عدد من الخبراء صاحَب حملة عسكريَّة. تجدر الإشارة إلى أنَّ الحملة المنطلقة من ميناء تولون تكوَّنت من ٢٠ ألف جندي، معهم آلاف البحَّارة. غير أنَّ الحملة بعد وصولها إلى كورسيكا–مسقط رأس نابليون–في مايو من عام ١٧٩٨ ميلاديًّا، ثم انطلاقها من جديدة إلى المشرق، وصل عدد أعضائها إلى ٣٦ ألفًا: ٢٧٦ ضابطًا، و٢٨ ألف من المشاة، و٢٨٠٠ من الفرسان، و٢٠٠٠ من جنود المدفعيَّة، و١١٥٧ من مهندسًا عسكريًّا، و٩٠٠ من الأطباء والصيادلة والممرضين والعلماء والأدباء والكتَّاب.

كان نابليون على علم بولاء المماليك، حُكَّام مصر بتفويض من السلطنة العثمانيَّة، لبريطانيا، وبتعاونهم معهم لخدمة مصلحة بريطانيا التجاريَّة، على حساب مصلحة فرنسا. وبما أنَّ حملته كان من أهدافها إضعاف النفوذ البريطاني في المشرق، فقد شدَّد على تأثيرها على تلك المنطقة، حضاريًّا وتجاريًّا. **وحرص نابليون على تحذير أصحاب الفكر الديني الحرِّ، والملحدين، والربوبيِّين والكاثوليك من أعضاء حملته، من الإساءة إلى الإسلام، أسوةً بالمسلمين، الذين تعايشوا مع أصحاب الديانات الأخرى في أوروبا وفي بلادهم؛ وأسوةً بالرومان وقت استعمارهم المشرق الإسلامي.**

هناك اعتقاد بأنَّ نابليون بدأ يخطِّط لحملته على مصر والشام منذ صيف عام ١٧٩٧ ميلاديًّا، تأثُّرًا بخطاب للسياسي والدبلوماسي والقائد العسكري الفرنسي شارل موريس تاليران ألقاه في المعهد الوطني في فرنسا، **وذكر فيه أنَّ الجمهوريَّة الفرنسيَّة كانت تحتاج إلى مستعمرات كي تزدهر.** زرع تاليران هذا المطلب في الروح القوميَّة للشعب

الفرنسي بعد ثورته، اعتقادًا منه بأنَّ أيام الرقِّ صارت معدودة، وأنَّ الحل الوحيد لتعويض المستعمرات التي خسرتها فرنسا قبل عقود من الزمن هو تأسيس مستعمرات جديدة تحمل نفس الفكر وأسلوب الحياة الفرنسيِّين. **أثار خطاب تاليران ذلك حفيظة بعض رافضي الاستعمار من فلاسفة عصر التنوير، مما انتقدوا ظلم الشعوب الأخرى، ونادوا بالمساواة والحريَّة. غير أنَّ تاليران لم يتراجع عن موقفه، زاعمًا قدرة الحملات الغربيَّة على تأسيس "مستعمرات ما بعد الرقِّ"، ويقصد بذلك استبدال إجبار سكَّان العالم من غير الغربيِّين لمصلحة الغرب، ولكن بدون استخدام العنف**؛ ولا يتسنَّى حدوث ذلك سوى من خلال إعادة تشكيل هويَّة غير الغربيِّين الفكريَّة بما يتَّفق مع نظام الحياة في الغرب (ص١٣). أثار خطاب تاليران، المشار إليه في مقالٍ له بعنوان " **Essai sur les avantages à retirer de colonies nouvelles dans les circonstances présentes –مقال عن مزايا استعادة المستعمرات الجديدة في ظلِّ الظروف الحالية**"، هذا اهتمام الكثير من قادة الجيش، ممن أغراهم إعادة النشاط الاستعماري الفرنسي بتحقيق طموحات سياسيَّة واقتصاديَّة هائلة، وكان نابليون بونابرت من بين هؤلاء.

في غمرة نجاح حملته على إيطاليا، تواصل بونابرت مع تاليران بشأن إمكانيَّة وضع خطَّة لفرض بعض السيطرة على حوض البحر المتوسِّط، بما يضرُّ بمصالح بريطانيا–أكبر منافس من القوى الاستعماريَّة. ويذكر تشارل–رو فرانسوا في كتابه **Les Origines de l'expédition d'Égypte–أصول الحملة الفرنسيَّة على مصر (١٩١٠)** ما ورد في خطاب لنابليون بتاريخ ١٦ أغسطس من عام ١٧٩٧ ميلاديًّا عن هدفه الأساسي من حملته على مصر "لم يبقَ وقتٌ طويلٌ حتَّى نشعر أنَّ، في سبيل القضاء على إنجلترا، لا بدَّ أن تسولي على مصر. تجبرنا الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، الآخذة في الزوال تدريجيًّا، على التفكير بتروٍّ بشأن طرق حماية تجارتنا في الشام". خشي بونابرت وتاليران من إمكانيَّة استيلاء بريطانيا وروسيا على أراضي الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، مما شكَّل تهديدًا لمستقبل مصالح فرنسا في المشرق.

لن ننسى أنَّ نابليون قد نال مكانته العسكريَّة المرموقة من خلال حملاته على إيطاليا في الفترة ما بين عامي ١٧٩٦ و١٧٩٧ ميلاديًّا، حيث نجحت تلك الحملات في تأسيس جمهوريَّات تابعة، وانطبق الأمر ذاته على سويسرا، التي أُخضعت إلى سُلطان فرنسا مطلع عام ١٧٩٨، وأُسست فيها جمهوريَّة ديموقراطيَّة. شجَّع نجاح التجربة الفرنسيَّة في أوروبا بتأسيس جمهوريَّات ديموقراطيَّة، يُطلق عليها directorial republics، تقوم على مشاركة السلطة بين إدارة حاكمة، يرأسها رئيس جمهوريَّة، أو رئيس وزراء، بونابرت على الاعتقاد في إمكانيَّة نجاح التجربة ذاتها في المشرق الإسلامي. لم يخطر على ذهن القائد العسكري المظفَّر، ابن الثامنة والعشرين، أنَّ نجاح تجربته في أوروبا يرجع إلى اشتراك مواطني الجمهوريَّات التي أسَّسها مع بلاده في الثقافة والعقيدة الدينيَّة؛ فوجد في تلك التجربة "نموذجًا للبلدان الأخرى، يجب تطبيقه، ولو بالقوَّة" (ص١٩). **ويعترف كول أنَّ سكَّان تلك الجمهوريَّات الجديدة لم يتمتَّعوا بقدر كبير من الحريَّة الشخصيَّة، وإن لم يخفِ حصولهم على قسط غير مسبوق من الديموقراطيَّة، وحريَّة الصحاف، ولكن على حساب سلب ثرواتهم وتحفهم الفنيَّة.**

كان قادة الحملة على علم بمحوريَّة دور استعمار مصر على يد قوَّات أجنبيَّة في السيطرة على منطقة المشرق العربي. كان القادة يسترجعون تجارب الإسكندر المقدوني في احتلال مصر، وتأسيس بطليموس، أحد مساعديه، فيها مملكة استمرَّت لقرون؛ وكذلك فعل أوكتافيوس قيصر، مساعد أنطونيو، بعد إسقاطه كليوباترا، آخر ملكة حاكمة من سلالة البطالمة. وكان القائد العربي عمرو بن العاص قد نجح في فتح مصر عام ٦٣٩ ميلاديًّا، وضمِّها إلى حظيرة الإسلام، وإلحاقها بالدولة الإسلاميَّة الناشئة حينها. غير أنَّ هذا النجاح لم يحالف الملك الفرنسي لويس التاسع، الذي هُزم عام ١٢٤٩ ميلاديًّا شرَّ هزيمةً، ونكص على عقبيه إلى بلاده.

يعترف بونابرت أنَّ من بين أهداف حملته تأسيس "مستعمرة فرنسيَّة على ضفاف النيل، قد تزدهر بدون عبيد، وتخدم فرنسا، عوضًا عن جمهوريَّة سان دومينجو، وكلِّ جُزُر السكَّر"، كما أخبر هو في مذكِّراته Napoleon's Memoirs. **وأكثر ما أثار انتقاد**

أعضاء الحملة في الإسكندريَّة عدم منح العثمانيِّين الآثار القديمة في المدينة العتيقة الاهتمام المناسب، لدرجة أنَّهم اعتبروها شبه مدمَّرة، برغم ما كانت عليه في السابق من بهاء. والمقصود من هذه الإشارة للكاتب التلميح إلى **فقدان الحُكم الإسلامي العنصر الإبداعي والجمالي، الذي عُرف به المستعمرون الأوروبيُّون من قبل، متجاهلًا حقيقة أنَّ الآثار الأوروبيَّة القديمة في الإسكندريَّة معظمها معابد، وتماثيل لآلهة وثنيَّة، وأنَّه ربَّما لم تسمح الهويَّة الدينيَّة لنظام الحُكم في آسيا الصغرى-بعد دخوله الإسلام- لممثليه في مصر بالاهتمام بأماكن عبادة تتعارض عقيدتها بالكامل مع الإسلام.** اعتبر الفرنسيُّون **أبناء مصر في تلك الفترة غير جديرين بالإرث الحضاري الذي تركه غزاة أوروبا السابقين على أرض مصر؛ فاعتبروا الآثار القديمة ملكًا لهم هم، وعكف المتخصِّصون منهم على دراستها، وفق علومهم الحديثة.** اعتقد أعضاء الحملة أنَّ سبب الانحدار الذي آل إليه حال الإرث الحضاري هو الاستبداد الذي عاشه المصريُّون في ظلِّ الدولة العثمانيَّة؛ فأخذوا على عاتق مهمَّة ترقية المصريِّين، وإعادتهم إلى عهود العظمة، و"معالجة انحدارهم من خلال الحريَّة والتحديث"، كما يذكر كول (ص٢٩).

يروي فرنسوا بيرنوي في كتابه Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800-مع بونابرت في مصر وسوريا، ١٧٩٨-١٨٠٠، أنَّ بونابرت لدى وصوله إلى الإسكندريَّة أرسل إلى السيِّد محمَّد كريِّم، حاكم الإسكندريَّة وقت الحملة، رسالةً عبَّر فيها عن اندهاشه من الموقف العدائي للمصريِّين من حملته، ويطلب منه التسليم الفوري ورفع الراية البيضاء، وإلَّا صار مسؤولًا عن دماء الضحايا. لم يستسلم المماليك والأمراء بسهولة، وأعدُّوا العدَّة للمواجهة على أتمِّ وجه، لكنَّ الفرنسيِّين تفوَّقوا عليهم عددًا وعتادًا؛ ومع ذلك، لم يمتنع جيش المماليك-المكوَّن من ٦ آلاف فرد-عن الدخول في جولة ثانية، ولو كانت نتيجتها محسومة. وفي النهاية، استسلمت المدينة بعد مقاومة، وقُبل الوضع، وأُبقي على كريِّم حاكمًا للمدينة. حرص بونابرت على التودُّد إلى رجال الدين والمفتين، وميَّزهم بإلزامهم بارتداء وشاح ثلاثي اللون، معتبرًا إيَّاهم من أهم دعائم حُكمه؛ حيث كان يخطِّط لاستغلالهم في إقناع العامَّة من المصريِّين بقبول الوضع

الجديد، والتكيُّف مع التعديلات المخطط أن يخضع لها المجتمع بأكمله، كما كان يريد الاستقواء بهم في مواجهة الطبقة الحاكمة من المماليك والمحسوبين عليهم. وجَّه بونابرت خطابًا للشعب المصري بالعربيَّة، صاغه مستشرقٌ فرنسيٌّ كان يعيش في تونس. **وادَّعى بونابرت أنَّه جاء بتفويض من السلطان العثماني سليم الثاني لتأديب المماليك "الأجانب"، الذين أرهقوا المصريِّين بالضرائب، وأساؤوا معاملتهم؛ ونصح بونابرت الشعب بعد الاصطفاف مع المماليك ضدَّه. ولأنَّ الخطاب كُتب بلغة ركيكة لا تراعي قواعد العربيَّة، لم يفهم غالبيَّة المصريِّين معظم ما جاء به.**

وصل خطاب بونابرت إلى القاهرة في صورة منشورات، وعمد عبد الرحمن الجبرتي إلى نسخها، بعد تصحيح أخطائها اللغويَّة. ويصف الجبرتي في كتاب المؤرِّخ لفترة بقاء الفرنسيِّين في مصر **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر**، شعوره لمَّا قرأ المنشور، الذي اختلطت فيه الدهشة بالحيرة والسرور. وأهم ما ذكره الجبرتي في ملاحظاته عن الخطاب أنَّه برغم البدء بالبسملة، فهو لم يتضمَّن الشهادتين، التي تشير ثانيهما إلى أنَّ نبيَّنا مُحمَّدًا (ﷺ) رسول من عند الله، مما يعكس عدم اعتقاد تلك الفئة من المسيحيِّين ببعث الأنبياء والرُّسُل، أو تنزُّل الوحي الإلهي على تلك الفئة من عباده الله. وأضاف الجبرتي أنَّ انحراف عقيدة هؤلاء عن المسار السائد في أوروبا تتجلى في قتلهم القساوسة وتدميرهم الكنائس، إلى جانب رفضهم التسلسل الهرمي داخل الكنيسة. وبرغم اشتراك تلك العقيدة مع الكاثوليكيَّة في العديد من الطقوس، فهناك خلافات بشأن التثليث، وأمور أخرى. **لم يقبل الجبرتي زعْم بونابرت احترامه للإسلام؛ لأنَّ احترام الإسلام بالنسبة له كان يعني اعتناقه.** وسخر المؤرِّخ المصري كذلك من ادِّعاء الخطاب أنَّ عقيدة الفرنسيِّين تعتبر عقيدة "مسلمة"؛ ليس فقط لعدم اقتناع بها، ولكن لوضع الصفة في صيغة الجمع. **صحيحٌ أنَّ الفرنسيِّين اعتنقوا عقيدة الكنيسة التوحيديَّة–أحد مذاهب البروتستانتيَّة أصبح عقيدة رسميَّة معترفًا بها منذ أواخر القرن الثامن عشر–لكنَّ هذا لا ينفِ اشتراك تلك العقيدة في العديد من طقوس المذاهب المسيحيَّة الأخرى، ورفضها**

شقًّا أساسيًّا في العقيدة الإسلاميَّة، هو تنزُّل الوحي على الرسول (ﷺ)، مما يعني ضمنيًّا عدم الاعتراف بالقرآن الكريم.

رأى بونابرت، بعد سيطرته على القاهرة، أنَّ الطبقة المتوسِّطة المتحدِّثة بالعربيَّة من سُكَّان مصر هم العمود الفقري للجمهوريَّة الديموقراطيَّة التي أراد تأسيسها، معتبرًا رجال الدين الإسلامي صفوة تلك الطبقة وأهم المؤثِّرين فيها. كان رجال الدين، أو العلماء، يجتمعون في الأزهر، الذي يُعتقد أنَّه من أقدم الجامعات، حيث أُسس أواخر القرن العاشر الميلادي. حرص قادة الحملة بعد ذلك على إعادة تشكيل الهيئة الموكَّلة بالأعمال الإداريَّة والعسكريَّة، وكان التفضيل للشراكسة والجورجيِّين.

فطن بونابرت من خلال تجربته في مصر إلى أنَّ أقصر طريق يوصله إلى عقول الشعب إبداء احترامه لدينهم، والمشاركة في طقوسه. ولمَّا قرَّرت الصفوة من طبقة علماء الدين في مصر الامتناع عن الاحتفال بالمولد النبوي، أصرَّ قائد الحملة الفرنسيَّة على إقامة الاحتفال، مثل كلِّ عام. **شارك بونابرت نفسه في الاحتفال، مما أثار الانتقادات حول محاولاته للتقرُّب من المسلمين بطريقة رآها البعض مدعاة للسخرية، أكثر من الاحترام. ووصل الأمر بقادة الحملة الفرنسيَّة أن طالب علماء الأزهر بفتوى تسمح بمطالبة الشعب بالولاء والطاعة لحاكم غربي مسيحي، بل وتسمح كذلك بذكر اسمه في خُطب الجمعة، بدلًا من اسم السلطان العثماني.** وحينها، أشار الشيخ عبد الله الشرقاوي، وهو أحد مشايخ الأزهر المؤثِّرة آراؤهم في ذلك الحين، على بونابرت أن يدخل الإسلام؛ فيضمن بذلك ولاء مسلمي مصر والجزيرة العربيَّة. اعتقد الشرقاوي وبعض المشايخ المجتمعين بالقائد الفرنسي الشاب إمكانيَّة قبوله عرضهم، بل ودعوا الله أن يهديه للإسلام.

بدهاءٍ سياسي، نجح بونابرت في استغلال الأمر لصالحه؛ فردَّ على الشرقاوي بما يفيد عدم رفضه اعتناق الإسلام من حيث المبدأ، لكنَّ هناك عقبتين تمنعانه وجيشه عن فعل ذلك: الختان والإدمان على الخمر منذ الطفولة. **وبرغم أنَّ ما أبداه بونابرت من احترام للإسلام كان محاولةً منه لاكتساب ثقة المسلمين، ثم تطوير مذهب ديني مشترك**

يطمس هويَّة الإسلام بالتدريج ويجرِّده من مضمونه، كما يرى البعض. ازداد نجاح بونابرت بعد أن سعد الشعب لسماع قصَّة نيَّته اعتناق الإسلام؛ حيث وجد أنَّ مجرَّد تصديق الناس الزعم باحترامه الإسلام وحفظه القرآن قد خدم هدفه. والمفارقة أنَّ الشيخ محمَّد المهدي، وهو مسيحي اعتنق الإسلام للدراسة في الأزهر، قد أفتى لبونابرت بأنَّ الختان ليس من الأركان الأساسيَّة للإسلام؛ فأزيلت العقبة الأولى. غير أنَّ العقبة الثانية بقيت، بإفتاء المهدي بأنَّ مواصلة شُرب الخمر بعد دخول الإسلام تودي إلى النار.

سعِد بونابرت بزوال العقبة الأولى، لكنَّه وجد في بقاء الثانية مبرِّرًا للبقاء على ملَّته (ص١٢٩). ما يضاعف الدهشة أنَّ الشيخ المهدي عاد ليخبر بونابرت بأنَّ–بعد مناقشة مشايخ الأزهر مسألة مواصلة تناوُل الخمر بعد دخول الإسلام، بل ومشاورة مشايخ الحرم المكِّي–من الممكن للمسلم أن يُدمن على الخمور، ولكن "سيتوجَّب عليه دفْع كفَّارة" (ص١٢٩). وجاءت هذه الفتوى بنهاية ذلك الجدال، حيث لم يستطع بونابرت إعادة فتح الموضوع، بعد أن انتهت أعذاره. مع ذلك، لم يمتنع بونابرت عن مواصلة اللعب على وتر احترام مبادئ الإسلام، بحرصه على التواصل مع علماء الأزهر بشأن "تأسيس نظام موحَّد يقوم على مبادئ القرآن، الوحيدة الصحيحة، والوحيدة القادرة على ضمان رفاهة البشر" (ص١٣٠). وصل الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك، بأن أرسل بونابرت خطابًا إلى شريف مكَّة، يُخبره فيه أنَّه أصبح حينها مُمسكًا بزمام الأمور في مصر، وبأنَّه اتَّخذ التدابير اللازمة لحماية الحرمين مواصلة دعمها، بتخصيص عائدات مزارع في مصر لهما. سعى القائد العسكري الطموح بذلك إلى القيام بدور السلطان سليم الثالث، الذي كان يتولَّى إرسال الأطعمة إلى الحرمين.

يحسم الكاتب جوان كول مسألة اعتناق بونابرت الإسلام باستشهاده برأي الدبلوماسي الفرنسي المعاصر لبونابرت، لويز أنطوان دي بوريان، الذي **قال في مذكِّراته عن قائد الحملة الفرنسيَّة أنَّه لم يثبُت عنه تحوُّله إلى الإسلام، أو ممارسته طقوس العبادة الإسلاميَّة على الإطلاق.** يستطرد كول، قائلًا "من الواضح جدًّا أنَّه (بونابرت) كان

يسعى لإيجاد طريق إعلان معتنقي الربوبيَّة مسلمين لخدمة أغراض سياسيَّة" (ص١٢٩). لا يجد كول في ذلك الزعم من بونابرت سوى استكمال لمحاولته في خطابه الأول، الصادر بالعربيَّة فور سيطرته على الإسكندريَّة، تمرير مسألة اعتبار المؤمنين بالعقيدة المسيحيَّة التوحيديَّة، أو بالربوبيَّة، مسلمين بسبب رفضهم التثليث. **أمَّا عن مسألة احترام للنبي مُحمَّد، فهي ربَّما صحيحة؛ لأنَّه اعترف في مذكِّراته بتقدير لاستطاعة النبي توحيد دين الجزيرة العربيَّة، بعد تعدُّد الإلهة الوثنيَّة، وممارسات الجاهليَّة المنافية لأساليب التحضُّر واحترام آدميَّة الإنسان؛ فنجح في ١٥ عامًا فقط القضاء على الوثنيَّة، بينما عجزت اليهوديَّة والمسيحيَّة عن ذلك في ١٥ قرنًا**. أبدى بونابرت كذلك قدرة العقيدة الإسلاميَّة على تربية جيل من المسلمين استطاع السيطرة على نصف العالم تقريبًا.

أسس بونابرت المعهد المصري، على غرار المعهد الفرنسي، ليكون عبارة عن مجمع علمي يدرس مصر، ويساعد في الوفاء باحتياجات الجيش. كان القصد من إنشاء ذلك المعهد أن يؤدِّي مهامَّ ثقافيَّة وعلميَّة في آن واحد. واهتمَّ بونابرت كذلك بتأسيس أماكن ترفيهيَّة، من بينها مسرح لأعداء العروض الفنيَّة؛ حيث اعتبر تلك العروض "وسيلة للارتقاء بأرواح المبتدئين في مجال الحريَّة، ولخلق روح عامَّة في ذلك البلد، وهي العنصر الخامس لأيِّ شعب حرٍّ" (ص١٤٦). وعملت الحملة على استقطاب المواهب الفذَّة في المجالات الفنيَّة، ومنها الرقص، من خلال الاستعانة بالمطربات والراقصات–أو العوالم–اللاتي اعتبرهنَّ أحد أعضاء الحملة "**قسِّيسات الشهوة**" (ص١٤٧). واجتهدت الحملة كذلك في تحديث المنهج التعليمي المتَّبع في الأزهر، من خلال الاستعانة بالتقنيات الحديثة في إعداد الموادِّ التعليميَّة؛ ولعلَّ ماكينة الطباعة أحدث مُنتَج استُخدم حينها، ليثير انبهار لفيف من مشايخ الأزهر. اجتهد بونابرت بعد ذلك في إقناع المشايخ باتِّباع مبادئ الجمهوريَّة، وعلى رأسها الحريَّة.

في خضمِّ ذلك التطوُّر على الساحة المصريَّة، وبعد التماهي المتواصل بين مشايخ الأزهر وبونابرت، **قرَّر السلطان سليم الثالث شنّ حرب دفاعيَّة ضدَّ الحملة الفرنسيَّة**

في مصر، معلنًا الجهاد في مواجهة الفرنسيِّين "الكفَّار"، ومعتبرًا ذلك فرض عين على الجميع، وليس فرض كفاية-كما هي طبيعة الجهاد-لأنَّ الحاجة تستدعي مواجهة حاسمة. اتَّهم سليم الثالث الحملة الفرنسيَّة وقائدها بالتعدِّي على قوانين الأمم وأعرافها، ثمَّ ألقى القبض على جميع موظَّفي السفارة الفرنسيَّة، وأودعهم سجن السبعة أبراج، بل وتحفَّظ على أموال التجَّار الفرنسيِّين في الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وسجن بعضهم؛ ففسدت بذلك العلاقات التجاريَّة بين فرنسا والعثمانيِّين، بعد قرون من الازدهار. تجهَّزت دفاعات المجتمع المسلم في انتظار إطلاق نفير الحرب؛ لأنَّ الجهاد-وفق تحليل الكاتب-يقتضي أخذ أمر من المستبصرين من أصحاب القرار؛ لتفادي التنكيل بأبرياء من المسالمين، والنساء، والأطفال. يرى كول أنَّ سليم الثالث "بإعلانه حربًا دفاعيَّة، وكأنَّما قال أنَّ محاربة الفرنسيِّين أصبحت واجبًا فرديًّا، ومن ثمَّ رخَّص خوض المصريِّين في حرب عصابات ضدَّهم؛ ولم يكن هناك أخطر من ذلك على الفرنسيِّين. **لعب سليم الثالث بورقتي الشريعة والقوانين الدوليَّة معًا، من خلال إثارة الحماسة الجهاديَّة، تزامنًا مع اللعب على وتر الأعراف الدوليَّة لأداء الدول**" (ص١٥٧). وتعاونت القوَّات البحريَّة العثمانيَّة والروسيَّة لإنهاء وجود فرنسا في جُزُر البحر الأيوني وفي البحر الأدرياتيكي، بينما اقتربت سريَّة عثمانيَّة إنجليزيَّة مشتركة من سواحل الشام ومصر.

أُصدر منشور يحمل توقيع الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا، يشير إلى معرفة السلطان سليم الثالث بالاحتلال الفرنسي لمصر، ويكذِّب ادِّعاء قائد الحملة بأنَّه موفد إلى مصر لتأديب المماليك، ويكشف زيف المنشورات الموزَّعة باسم السلطنة كذبًا، معلنًا أنَّ كذب ادعاءات الفرنسيِّين كُشف من خلال اعتراض رسائلهم الموجَّهة إلى بلدهم، وأنَّ هدفهم الحقيقي لم يكن سوى احتلال مصر والشام وإيران-وهنا يعلِّق الكاتب بالإشارة إلى ما أشيع عن نيَّة بونابرت احتلال إيران، والتوغُّل منها شرقًا إلى أفغانستان، ثمَّ إلى دلهي؛ بهدف الهجوم على البريطانيِّين في الهند. على ذلك، أمر الصدر الأعظم الجماهير المصريَّة بالتصدِّي للغزو الفرنسي، وإلَّا سُلبت أموالهم، وسُبيت نساؤهم وأطفالهم.

يذكر الكاتب موقف مشايخ الأزهر من منشور السلطان العثماني، مشيرًا إلى ذهاب محاولات بونابرت استقطابهم عرض الحائط، وواصفًا إيَّاهم بالنفاق والتلوُّن حسب الظروف. أبرز كول موقف الشيخ عبد الله الشرقاوي، الذي عيَّنه بونابرت رئيسًا لديوان القاهرة، والذي تناوَب على إهانته وتزكيته، وكذلك على رشوته وازدرائه، مستشهدًا بكتاب ألَّفه الشرقاوي بعنوان **تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين**، كشف فيه عن رأيه في الحملة الفرنسيَّة بعبارته "حقيقة الفرنسيِّين الذين جاؤوا إلى مصر أنَّهم فلاسفة تدفعهم المادَّة والشهوات". يضيف الشرقاوي في كتابه أنَّ أعضاء الحملة **ادَّعوا الاعتقاد في وحدانيَّة الرب، لكنَّ اعتقادهم قائم على الجدال، وليس الإيمان، كما أنَّ عقيدتهم لا تشتمل على الإيمان بالبعث، ولا الحياة الآخرة، ولا بإرسال الأنبياء، ولا بالوحي الإلهي**. يعلِّق كول على رأي الشرقاوي في عقيدة أعضاء الحملة الفرنسيَّة، والذي يجده صحيحًا، ولكن من منظور متحيِّز لأهل بلاده، على حساب أيِّ وافد. يضيف كول أنَّ **المفكِّرين العرب خلال القرون الوسطى شنُّوا حربًا ضروسًا على العقلانيَّة، وبالذات العقلانيَّة الإغريقيَّة، برغم اعتناق المفكِّرين خلال فترة الدولة العباسيَّة-من القرن الثامن إلى الثالث عشر للميلاد-العديد من المنجزات الفلسفيَّة والعلميَّة الغربيَّة. يُذكر أنَّ دراسة الفلسفة كانت من بين الأمور الجدليَّة في الأزهر في ذلك الحين، كما كان هناك انقسام بين الطلاب بشأن تدريس العلوم الفرنسيَّة؛ والمثير للانتباه وجود علاقة بين رفض تدريس تلك العلوم الموقف المتَّخذ من دراسة الفلسفة اليونانيَّة.**

تضاعف الشروع بالنفور من الحملة الفرنسيَّة بعد قرار الجنرال كليبر، قائد الحملة في الإسكندريَّة، إعدام السيِّد محمَّد كريِّم، المحافظ السابق للمدينة؛ لما كان له من شعبيَّة لدى جماهير الشعب، ولانحداره من نسل النبي مُحمَّد. كانت قرار إعدام كريِّم، بتصديق بونابرت، بتُهمة التخابر لصالح المماليك المعادين للفرنسيِّين في الإسكندريَّة. ونُفِّذ الإعدام في ميدان القلعة، وحُملت رأس كُريِّم في جولة في شوارع القاهرة؛ للافتخار بقتله، وتحذير من يتَّبع نهجه في التآمر على الحملة. علاوة على ذلك، صُودرت أموال كُريِّم لصالح الجمهوريَّة الديموقراطيَّة، التي أسستها الحملة في مصر. **وازدادت الجماهير**

سخطًا بعد استجابة بعض نساء مصر إلى دعوة التحرُّر الفرنسيَّة، وخلعهن الحجاب، بل ومصاحبتهن جنود الحملة؛ ويعلِّق الكاتب على ذلك، معتقدًا أنَّ غضب الرجال نُبع من شعورهم بالتهديد من إمكانيَّة تسلُّط النساء لاحقًا ومطالبتهنَّ بالمساواة (ص١٨٨).

كانت الحملة الفرنسيَّة على مصر مثمرةً بالنسبة إلى الغرب في كونها تجربة تعلَّموا منها **كيفيَّة اختراق المجتمع المصري، وتطويعه** بحسب معاييرهم. **ما حدث هو دراسة عميقة لشتَّى أحوال مصر الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة، استخدمها الغرب في حملة الغزو الفكري، التي انطلقت منذ أواخر القرن التاسع عشر**. وما يؤيِّد هذا الرأي أنَّ المستشرق الأمريكي، فلسطيني الأصل، إدوارد سعيد، قد اعتبر تلك الحملة "في صميم النقاش العلمي بشأن الإمبرياليَّة وطرق معرفة العالم في فترة ما بعد الاستعمار. **فقد صوَّر الغزو على أنَّه سعي أوروبا وراء العلم الشامل والسيطرة الكاملة على المجتمع المشرقي، على أنَّه الخطيئة الأولى في العلاقة الحديثة بين المعرفة والقوَّة الغربيَّة المهيمنة**"، كما ينقل كول (ص٢٤٦). وبرغم ما ارتبط بالحملة الفرنسيَّة من إيجابيَّات على المستويين العلمي والثقافي، فقد تعرَّض سعي السلطات المصريَّة والفرنسيَّة الاحتفال بمرور مئتي عام على انطلاق الحملة، عام ١٩٩٨ ميلاديًّا، لانتقادات شعبيَّة واسعة، أجبرت الجانب المصري على إلغاء الجزء الخاص بمصر في ذلك الاحتفال.

يرى الكاتب في الحملة الفرنسيَّة "**أولى التجارب الحديثة لدمج أحد مجتمعات الشرق الأدنى في إمبراطوريَّة أوروبيَّة، لكنَّها لم تكن الأخيرة**. ما نُطلق عليه اليوم الشرق الأوسط ليس كتلة من الدول القوميَّة، بل مجموعة من التفاعلات المعقَّدة مع القوى العالميَّة المهيمنة...لم ينتهِ الاستعمار الأوروبي لأنَّ هذا ما أراده الرئيس الفرنسي شارل ديجول؛ انتهى لأنَّ السياسيِّين والعامَّة في الشرق الأوسط لم يعودوا يريدون التعاون معه، ولأنَّهم اكتسبوا وسائل التصدي له (من خلال التمدُّن، والتصنيع، والتعليم، وتحسين التعليم ووسائل الاتصال، وتعظيم السعة التنظيميَّة من خلال تأسيس أحزاب سياسيَّة، وإدخال مزيد من التقنيات المتقدِّمة، بما في ذلك التقنيات العسكريَّة" (ص٢٤٦-٢٤٧). آذنت نهاية الاستعمار في المشرق الإسلامي في خمسينات وستِّينات القرن الماضي ببداية

هيمنة اقتصاديَّة لمنطقة شمال الأطلسي، أخذت شكل الهيمنة الاقتصاديَّة، وتدخُّلات عسكريَّة مستهدفة؛ كما آذنت بموجة غير مسبوقة من الهجرات إلى أوروبا الغربيَّة والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، أجبرت الغرب على إعادة تشكيل سياسته تجاه الشرق الأوسط، وسياساته الداخليَّة–فيما يتعلَّق بكيفيَّة التعامل مع المسلمين هناك.

كانت حملة بونابرت في صميم النشاط الاستعماري الغربي، ولا يمكن أبدًا التغافُل عن القيمة العالية للمعلومات الجغرافيَّة والاجتماعيَّة التي اكتسبتها الحملة، ومن المؤكَّد أنَّها استُغلت في الحملات الاستعماريَّة اللاحقة، على مصر والشام. ولا ينسى جوان كول استشعار بونابرت حتميَّة سقوط الدولة العثمانيَّة، وإن صمدت لقرن كامل بعد الحملة، بل ويعتقد أنَّ بونابرت "بأسلوبه المتغطرس والساخر المعتاد، كان يشكِّل ما نطلق عليه اليوم ((الشرق الأوسط الجديد))، باعتباره ساحةً للهيمنة الاقتصاديَّة والعسكريَّة لشمال الأطلسي، بمؤسسات سياسيَّة وثقافيَّة مختلطة" (ص٢٤٧). ويرى كول أنَّ "غارات" شمال الأطلسي على الشرق الأوسط تشترك مع حملة نابليون في الخطاب والأساليب، وقبل ذلك في الدافع، وهو التأسُّف على الانحدار المفضي إلى الدمار. يستشهد كول برأي إدوارد سعيد في هذا الشأن، وهو أنَّ هدف الغزو الغربي الجديد هو "إعادة المنطقة من انحدارها الحالي إلى عظمتها السابقة؛ وتعليم المشرق (من أجل مصلحته) أساليب حياة الغرب الحديث؛ والتخفيف من القوَّة العسكريَّة لتعظيم مشروع المعرفة المذهلة، المكتسبة خلال السيطرة السياسيَّة على المشرق...مع الاعتراف الكامل بمكانه في الذاكرة، وبأهميَّته في الاستراتيجيَّة الإمبرياليَّة، وبدوره الطبيعي باعتباره مُلحق بأوروبا" (الاستشراق، ص٨٦). في النهاية، يرى كول أنَّ صراع الفرنسيِّين مع المصريِّين لم يكن بدفع من الثقافة، ولكن من التصارع على السلطة والموارد، حوَّله بونابرت إلى معركة بين الحريَّة والتزمُّت.

غزو فكري لتطبيق الحداثة في إطار احتلال استعماري

قدَّم الباحث جايمي هدسون رسالة ماجستير بعنوان **The French Occupation: A Historiographical View**–**الاحتلال الفرنسي: منظور تأريخي** إلى قسم الآداب

والعلوم الاجتماعيَّة، في الجامعة الأمريكيَّة بالقاهرة، ويرسل الباحث نتائجها إلى الحضارات العربيَّة والإسلاميَّة. ويسعى الباحث من خلال هذه الدراسة إلى تفنيد الآراء المختلفة عن الحملة الفرنسيَّة على مصر، والتي يُطلق عليها "الاحتلال الفرنسي"، للوقوف على أهم أهدافها، وإلى أيِّ مدى حقَّقت نتائج إيجابيَّة تخدم تلك الأهداف؛ ولعلَّ أهم سؤال يطرحه هو: هل كانت **حملة، أم غزو، أم احتلال؟** يشير الباحث في البداية إلى الحقيقة التاريخيَّة عن فشل حملة نابليون بونابرت في تأسيس نظام سياسي واجتماعي على النسق الفرنسي في مصر والشام، وعن تحالُف الإمبراطوريَّتين، العثمانيَّة والبريطانيَّة، لإفشال الحملة. يمتاز تحليل هدسون هكذا بالحياديَّة والواقعيَّة، مقارنةً بجوان كول.

يرصد الباحث آراء بعض المفكِّرين الذين رأوا أنَّ الحملة الفرنسيَّة حملت إلى مصر فكرًا جديدًا يدعو إلى التفكُّر وإعمال العقل، ومن بين هؤلاء ياؤوف دي كابوا في كتابه **Gatekeepers of the Arab Past–حرَّاس الماضي** (٢٠٠٩)، حيث قال أنَّ العصر الحديث في مصر بدأت في نهاية الدولة العثمانيَّة، ولم يتشكَّل نظام الفكر الحديث إلَّا بعد احتكاكه بمفاهيم الحداثة والمدنيَّة والنهضة، التي ظهرت في أوروبا في القرن الثامن عشر، وأثَّرت على الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة هناك نتيجة الاكتشافات العلميَّة.

بدأ عصر التنوير في أوروبا مطلع القرن الثامن عشر، استجابةً للنزعة العلمانيَّة للمفكِّرين في تلك المرحلة، التي وجَّهت إلى التركيز على أهميَّة العقلانيَّة والعلوم الحديثة. اعتقد مفكِّرو عصر التنوير أنَّ لكلِّ سؤال إجابة واحدة ممكنة، يُتوصَّل إليها من خلال التفكُّر، كما رأوا أنَّ العالم يمكن تسييره وتنظيمه عقلانيًّا من خلال "التمثيل العلمي"، كما ينقل هدسون عن العديد من مفكِّري زمن الحداثة وما بعدها، منهم ديفيد هارفي في كتاب **Condition of Postmodernity–حال ما بعد الحداثة** (١٩٨٩) وماكس كورهيمر وتيودور أدورنو في كتابهما **Dialectic of Enlightenment– جدليَّة عصر التنوير** (١٩٤٧). تبنَّى عصر التنوير مسألة التقدُّم، واعتقدت أنَّ البحث العلمي هو السبيل

الوحيد لتحقيق ذلك. ولم يتوقَّف الأمر عند تطوير العلوم، بل تطرَّق كذلك إلى الخطاب العام والثقافة. ورأى مفكِّرو عصر التنوير أنَّ الحضارة تعتمد على عمليَّة غائيَّة، ستصل إلى نهاية في وقت معيَّن، كما رأوا أنَّهم هم من سيحمل على عاتقه تنفيذ تلك العمليَّة، بفضل الاكتشافات العلميَّة الحديثة.

ساد في أوروبا في القرن السابع عشر اعتقاد بأنَّ المشرق يزوي بمرور الزمن، وأنَّ عصر النهضة في الدولة العثمانيَّة بدأ في التراجع، حتَّى أنَّ بعض الكتَّاب بدأوا في نهاية القرن السادس عشر الإشارة إلى ذلك في كتاباتهم، متَّهمين الحكَّام بانعدام الكفاءة، والعجز عن السيطرة على الفساد. **ضمن حملتهم للتنديد بالحكم إسلامي الطابع، وانتقاد تحكُّم الشريعة الإسلاميَّة في مجريات الأمور في الدولة العثمانيَّة**، نشر مستشرقون فكرة وجوب العودة إلى الحضارة الفرعونيَّة، التي رأوها رائدة لحضارة أوروبا وملهمة لها، كما جاء في مقال للكاتب جورجين هابرماس بعنوان **Modernity–An Incomplete Project–الحداثة: مشروع غير مكتمل (١٩٨٠).**

كانت مصر في الماضي حاضنة لحضارات أثرت العالم بأسره، من الفرعونيَّة، إلى الإغريقيَّة، ومنها إلى الرومانيَّة؛ ومن هنا، نشأ في القرن التاسع عشر علم جديد باسم Egyptology–علم المصريَّات، عني بدراسة تاريخ مصر في مختلف العصور القديمة، والاستفادة من تجاربها في إثراء الحاضر بمعارف تسهم في استعادة نهضة الماضي. أشار إسرائيل جرشوني وجيمس جانكوويسكي في كتابهما **Egypt, Islam, and the Arabs–مصر والإسلام والعرب (١٩٨٦)، إلا أنَّ الثقافة التي أدخلها المفكِّرون المصريُّون من معتنقي الفكر الغربي نهاية القرن التاسع عشر اكتسبت هويَّته، ليس من انتماء مصر إلى العالم الإسلامي العربي، إنَّما من حضاراتها السابقة، الفرعونيَّة، والإغريقيَّة، والرومانيَّة.** روَّج جرشوني وجانكوويسكي فكرة أنَّ المصريِّين اليوم هم نسل المصريِّين القدماء، ويحملون نفس صفاتهم وخصائصهم. واشترك كلٌّ من علي مبارك ورفاعة الطهطاوي، من أشهر روَّاد النهضة المصريَّة الحديثة الدارسين في الخارج، مع المستشرقين في أنَّ الحضارة المصريَّة القديمة محلُّ فخر واعتزاز. وعبَّر الكاتب المصري

سلامة موسى في كتابه **نحن المصريُّون** (١٩٣٣) عن فكرة اعتبار المصريِّين امتداد الفراعنة، قائلًا "نحن المصريُّون، نحن عائلة نعيش في هذا الوادي منذ أكثر من عشرة آلاف عام"، بل ورأى أنَّه لا يوجد من بني مصر من لا يحمل "قطرة من نفس الدماء التي جرت في دماء رمسيس، وخوفو، وخفرع، وأخناتون" (ص١٦٥).

ينقل هدسون في رسالته آراء بعض المفكِّرين المعاصرين للحملة الفرنسيَّة على مصر، حول هدف بونابرت الحقيقي من تلك الحملة، ومن بينهم الفرنسي جوزيف فورييه في المقدِّمة التاريخيَّة للكتاب الشهير **Description de l'Egypte–وصف مصر** (١٨٠٨–١٨٢٢)، الذي رأى أنَّ بونابرت قطع رحلة **استهدفت إحلال** "**النظام والعدالة**"، **في ظلِّ الغطرسة التي اتَّسم بها عهد المماليك، والفساد المستشري في أركان الدولة العثمانيَّة**، التي حكم المماليك مصر باسمها. في رأي فورييه، عملت الحملة على منح المصريِّين نموذج للتطوُّر التقني الأوروبي، وبخاصَّة في مجال الصناعة، إلى جانب إرشادهم إلى سبيل الرقي والتحضُّر. وزعم الدبلوماسي البريطاني أندرو باتون في كتابة **History of the Egyptian Revolution–تاريخ الثورة المصريَّة** (١٨٧٠)، أنَّ العرب برغم حبِّهم للاستقلال الشخصي والسياسي، وإيلائهم الحقَّ أهميَّة كبيرة، فهم أدنى منزلة من الأوربيِّين؛ كونهم همج، لم يقدِّروا الآثار المصريَّة القديمة وما يعكسه تاريخها الطويل. رأى باتون في الحملة الفرنسيَّة مخطَّطًا استعماريًّا، يلعب العلم فيه دورًا بارزًا في النهوض بالأحوال، وإزالة العقبات.

ويشارك الفرنسي لويز بريير باتون الرأي، حيث قال في كتابه **L'Egypte de 1798 à 1900–مصر من عام ١٧٩٨ إلى ١٩٠٠** (١٩٠١) أنَّ المصريِّين همج، كانوا في سبات عميق، ولم يوقظهم من سباتهم سوى الحملة الفرنسيَّة، التي أعادتهم إلى العالم المتحضِّر بعد أن فقدوا موقعهم فيه. ولا عجبَ في أن يقول المستشرقون الغربيُّون ذلك عن العرب والمسلمين، إذا كان من المصريِّين الدارسين في أوروبا من رأى في الحملة الفرنسيَّة نقطة تحوُّلٍ، بإدخالها علومًا وتقنيات حديثة من شأنها تحديث البلاد، والمقصود في هذه الحالة هو رفاعة الطهطاوي. يُرجع تكوين الطهطاوي هذا الرأي عن الفكر

الغربي إلى إعجابه الشديد بالعلوم التي تلقَّاها في فرنسا، وانبهاره بالحياة هناك، ودراسة أعمال أشهر مفكِّريها-مثل فولتير ومونتسكيو-وترجمته بعضها. جدير بالإشارة أنَّ الطهطاوي رفض إدخال علوم قد لا تفيد في عمليَّة التحديث والترقية المرجوَّة.

تجلَّى تأثير الفكر الغربي النابع من الثورة الاستعرافيَّة، والمتأثِّر بالتقدُّم التقني الهائل، في ميل معتنقيه إلى المطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانيَّة، وجلاء المستعمر البريطاني، وتأسيس دولة قوميَّة تتبنَّى نظامًا اشتراكيًّا يضمن العدالة وتكافؤ الفرص. اعتبر القوميُّون من شباب مصر في مطلع القرن العشرين، الحملة الفرنسيَّة احتلالًا نافعًا؛ لما أدخلته من مفاهيم تقدُّميَّة. وقد اعتبر بعضهم كذلك الجيش رمزًا لوحدة البلاد، مقدِّرين سعيه إلى خلْق روح من القوميَّة، من خلال مساواته بين المسلمين والمسيحيِّين في المعاملة. وكانت المعايير الغربيَّة هي المطبَّقة في تكوين تصوُّرٍ عن الحداثة والتقدُّميَّة في مصر. ومع ذلك، ظهرت أصوات تعبِّر عن الانتماء القومي لمصر إلى الحضارة الإسلاميَّة، والتي كانت الدولة العثمانيَّة أحدث نموذج لها، وإن كانت حينها في رمقها الأخير. عبَّر العديد من المفكِّرين في الفترة القوميَّة عن اعتقادهم في تفوُّق الفكر الأوروبي على الفكر العربي، وفي ضرورة اتِّباع نهج الغرب في سبيل الوصول إلى الحداثة.

أسفر الاحتلال البريطاني لمصر، في الفترة ما بين عامي ١٨٨٢ و١٩٥٤ ميلاديًّا، عن تكوُّن خطاب معادٍ للاستعمار، وكاشفٍ لمساوئه وآثاره المدمِّرة للهويَّة القوميَّة. وأُعيد إلى الذاكرة الحديث عن الحملة الفرنسيَّة على مصر، وعُدِّدت محاسنها ومساوئها، واعتُبرت أولى محاولات الغرب في العصر الحديث من أجل النهوض بأوضاع سكَّان العالم الثالث. وقد ذكر الكاتب فوزي جرجس في كتابه **دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي** (١٩٥٨)، والذي كتبه بناءً على طلب الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر إعادة كتابة التاريخ، أنَّ الحملة الفرنسيَّة هي أول عامل دفع المصريِّين إلى خوض مجال السياسة في العصر الحديث، كما أنَّها قدَّمت لمصر أوَّل نموذج للحكومة الحديثة. في حين رأى المفكِّر الإسلامي محمَّد عمارة في كتابه **العروبة في العصر**

الحديث (١٩٦٧) أنَّ مصر كانت تمتلك كافَّة مقوِّمات الدولة الحديثة قبل "الاحتلال الفرنسي"، الذي لم يقدِّم للمصريِّين سوى دفعة للثورة على الأوضاع الاجتماعيَّة المُجحفة.

سبقت الإشارة إلى حالة التردِّي التي أصابت الدولة العثمانيَّة منذ أواخر القرن السادس عشر، وانعكاسات ذلك على الأوضاع في كافَّة البلدان التي خضعت لسلطانها في المشرق الإسلامي، ومن بينها مصر. رأى البعض أنَّ السبب في ذلك يرجع إلى الفساد وسوء الإدارة في ظلِّ حُكم المماليك، بينما ظنَّ البعض أنَّ السبب هو عدم التواصل مع الغرب. ورأى الكاتب محمَّد أنيس في كتابه **مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني** (١٩٦٢) **أنَّ العزلة التي فرضتها الدولة العثمانيَّة على مصر كانت سببًا في تردِّي الأوضاع، والتأخُّر عن مصافِّ الأمم المتقدِّمة، وعدم الاستفادة من التغيُّرات الثقافيَّة التي خضعت لها أوروبا منذ عصر النهضة الإيطاليَّة إلى زمن الثورة الفرنسيَّة.**

يلاحظ هدسون، مؤلِّف الرسالة قيد الحديث، نقطة هامَّة، وهي تعمُّد الكتَّاب والباحثين الإقلال من شأن الدولة العثمانيَّة في كتاباتهم عن تاريخ مصر في العصر الحديث منذ عشرينات القرن الماضي، أي منذ سقوط الخلافة، واستقلال مصر وإعلان المملكة المصريَّة، على يد فؤاد الأوَّل، نجل الخديوي إسماعيل. فقد رأى الكاتب إيهود توليدانو في مقاله **Forgetting Egypt's Ottoman Past–نسيان تاريخ مصر العثماني** (١٩٩٧)، أنَّ كتب التاريخ حرصت على إبراز تاريخ أسرة محمَّد علي، باعتبارها الحاكمة لمصر، وليست تابعة للباب العالي؛ لدرجة أنَّ الوثائق الهامَّة التي تتعلق بماضي مصر العثماني صارت في حوزة الملك فؤاد نفسه، كما سُحبت السجلَّات العثمانيَّة من المكتبات، وطُمست كافَّة ملامح العصر العثماني من المتاحف. وما يثير الدهشة هو **ادِّعاء أنَّ مصر في زمن العثمانيِّين كانت في غاية الرجعيَّة، والتخلُّف، والاضمحلال؛ بينما كانت في عصر محمَّد علي، الوالي الألباني المفوَّض من قبل العثمانيِّين، في بداية عصر التنوير، وما تبعه من تقدُّم ونهضة اقتصاديَّة.**

تفتح هذه الملاحظة المجال للحديث عمَّا رآه إدوارد داريو في كتابه **Mohamed Aly et Napoléon (1807-1814) ; correspondance des consuls de**

France en Égypte recueillie et publiée–محمد علي ونابليون (١٨٠٧ – ١٨١٤) مراسلات قناصل فرنسا في مصر (١٩٢٥) من تشابُه كبير بين بونابرت ومحمَّد علي في سياسة التعامل مع الأوضاع في مصر. تجدر الإشارة إلى أنَّ محمَّد علي قد عُيِّن واليًا على مصر عام ١٨٠٥ ميلاديًّا، أي بعد ٤ سنوات فقط من رحيل الحملة الفرنسيَّة. يرى داريو أنَّ محمَّد علي وكأنَّما كان خليفة بونابرت؛ فنفَّذ الأفكار التي قدَّمها قائد الحملة الفرنسيَّة، وأقام البنيان الذي أسس قواعدَه. وليس أدلُّ على ذلك سوى استعانة محمَّد علي بالعنصر الفرنسي في الجيش المصري، وإرساله البعثات إلى فرنسا تحديدًا، وكان رفاعة الطهطاوي الواعظ الديني لأولى البعثات التي أرسلها محمَّد علي إلى فرنسا عام ١٨٢٦ ميلاديًّا، لدراسة العلوم واللغات الأوروبيَّة، قبل أن يأمر الوالي بإلحاقه بالجامعة للدراسة، كباقي طلَّاب البعثة.

أعيدت إلى الأذهان النظرة القديمة للحملة الفرنسيَّة، باعتبارها بداية عصر النهضة الحديثة في مصر، في فترة ما بعد الاستعماريَّة. والمقصود تلك الفترة المرحلة اللاحقة لجلاء قوى الاستعمار عن المشرق الإسلامي، التي شهدت نشر خطاب عمد إلى التخفيف من آثار الاستعمار، وإبراز الجوانب الإيجابيَّة التي ارتبطت به، ودحض الادعاء الاستعماري بتبعيَّة العالم الإسلامي للغرب وعدم كفاءته لتحمُّل مسؤوليَّة إدارة شؤون الحُكم في بلاده. ظهرت منذ نهاية الحرب العالميَّة الثانية مؤلَّفات لكُتَّاب غربيِّين استخدمت لغة الشجب والإدانة في وصف أوضاع شعوب المستعمرات، ويعتبر كتاب **الاستشراق** لإدوارد سعيد الأشهر بين تلك المؤلَّفات. عمل سعيد على التعريف بالخطاب الذي استخدمه الأوروبيُّون من دارسي أحوال المشرق، والذي اعتمد في المرتبة الأولى على تقسيم العالم إلى فريقين متنافرين من البشر، "نحن" و "هم"، مع التشديد على الرقي العرقي للمستعمر الأوروبي، مقارنةً بغير الأوربيِّين. ويشير سعيد إلى الدور الذي لعبه هذا الاعتقاد، النابع من الأصل من الداروينيَّة الاجتماعيَّة، وقبلها من عقيدة السمو العرقي لبني إسرائيل في العهد القديم–المصدر الأساسي للمذهب البروتستانتي، مذهب

بريطانيا، صاحبة أهم دور في إطلاق الحملات الاستعماريَّة، وكذلك مذهب وريثتها أمريكا.

اعتمد إدوارد سعيد على مذهب نقدي جديد حينها، هو مذهب ما بعد البنيويَّة، الذي كان قد بدأ يشكِّل طرق التفكير، بما يتعارض مع الاتجاه المرتبط بالعقلانيَّة، الذي آثر إخضاع الحقائق للتجربة العلميَّة؛ للحصول على نتائج موضوعيَّة تتَّسم بالنزاهة العلميَّة. اعتقد فلاسفة ما بعد البنيويَّة أن مفهومي "الواقع" و"الحق" ليسا ثابتين، إنَّما متغيِّران. اعتمد هذا المذهب على تحليل الخطاب الاستعماري، وتفكيك النصوص المؤرِّخة لزمن الاستعمار، والكشف عن الأفكار الموجَّهة التي ينطوي عليها الخطاب.

يعتقد سعيد أنَّ قراءات بونابرت في صباه عن مجد الإسكندر في مصر كانت من أقوى الدوافع وراء غزوه. عمدت كتب المستشرقين عن مصر إلى تصويرها في حالة من التردِّي والجهل تستدعي تدخُّل يعيد إليها أمجاد الماضي. أيَّد هنري لورين في كتابه **Les origines intellectuelles de l'expédition d'Egypte: l'orientalisme islamisant en France (1698-1798)** –**الأصول الفكريَّة للحملة الفرنسيَّة: الاستشراق الإسلامي في فرنسا** (١٩٨٧)، هذا الرأي، ملفتًا إلى أنَّ كتابات المستشرقين عن مصر في القرن الثامن عشر أظهرت مصر بصورة رومانتيكيَّة، مثيرة مشاعر الحنين إلى ماضيها الثري، ومعتبرة واقعها المرير غمَّة وجب انقشاعها من خلال عودتها إلى المفاهيم التي صنعت بها حضارتها العريقة. يضيف لورين أنَّ خطاب بونابرت اعتمد على التظاهر بأنَّ حملته جاءت لإنقاذ المصريِّين وتحريرهم، ولتعليمهم مفاهيم التحرُّر والمدنيَّة، بما يدفعهم إلى الثورة على المماليك، وبعدها على الدولة العثمانيَّة. غير أنَّ ما حدث هو ثورة الشعب المصري على الفرنسيِّين، الذين رأت في حملتهم احتلالًا يستهدف فرض هيمنة مسيحيَّة على مصر، وإن ادَّعى هؤلاء اعتناقهم عقيدة تشترك مع الإسلام في العديد من الأركان. ومع ذلك، فرأي لورين النهائي في الحملة هو أنَّها تحدِّد **مرحلة بداية تغيُّر الجغرافيا السياسيَّة الإسلاميَّة**.

يجتهد الباحث جايمي هدسون في رسالته في إظهار الجانب السلبي للحملة الفرنسيَّة، مشيرًا إلى الجانب العنيف والوحشي فيها، في محاولة لإظهار صورة منصفة لملابسات الحملة، بما لا يتَّفق مع طبيعة تناوُل فِكر ما بعد الاستعماريَّة لمرحلة الاستعمار.

حملة استعماريَّة لاستنزاف الخيرات وسلب الحريَّات

يقدِّم الكاتب، المقدَّم محمَّد فَرَج، وهو ضابط في الجيش المصري، في كتابه **النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسيَّة** (١٩٦٢)، رؤية مختلفة عن الحملة الفرنسيَّة تتناسب مع حالة السخط على الاستعمار الغربي، بعد رحيل القوَّات البريطانيَّة عن مصر، وانتهاء احتلال تجاوَز ٧٠ سنةً. يعيب الكاتب على الكتابات السابقة عن الحملة تعمُّدها الإغفال عن جانب استبسال الشعب المصري في مواجهة الحملة، معتمدًا في ذلك على تأريخ الجبرتي للحملة، والذي يعتبره مقدِّم الكتاب "المرجع الأصيل الوحيد لنضال شعبنا" ضد الحملة (ص٣). بالطبع، ليس تأريخ الجبرتي للحملة المرجع الوحيد، خاصَّة مع ميله الواضح للجانب العثماني على حساب الفرنسي، واستخدامه ألفاظًا عثمانيَّة يصعب فهمها اليوم، بالإضافة إلى تقديم المحتوى التاريخي في إطار السياق الذي كُتب فيه وبمفرداته، مما يصعِّب على قارئ اليوم فهْم المحتوى بأكمله. أراد الضابط محمَّد فرج تقديم رؤية معاصرة للحملة الفرنسيَّة، وحقيقة أهدافها، ومعاناة الشعب المصري على يد جنود الحملة، من تعذيب وقتل ومصادرة أموال وحرْق دور. يكتب فرج هذا الكتاب ليخلِّد بطولة أبناء مصر في مواجهة الاستعمار الغربي، الذي رآه مقدِّمة لحملة أشدُّ فتكًا أصابت مصر أواخر القرن التاسع عشر، وانتهت بعد كفاح شعبي مضنٍ كبَّد مصر الكثير.

يتحدَّى الكتاب تناوُل جوان كول في كتابه **مصر نابليون** (٢٠٠٧) **لتجاوُب بعض المصريِّين مع بونابرت، وتفهُّمهم لطبيعة هدفه الإصلاحي، حيث يذكر فَرَج في مقدِّمة كتابه "كان الفرنسيُّون في مصر فوق بركان ثائر، لم يهدأ يومًا، ولم يخبُ لحظة؛ وهو ما عجَّل بطردهم وعودتهم من حيث أتوا، يجرُّون أذيال العار والهزيمة، على الرغم من أنَّهم كانوا في ذلك الوقت في أوج مجدهم الحربي"** (ص٤). يستعرض الكتاب أحداث ما بعد خروج الحملة من مصر، مشيرًا إلى تعيين الألباني محمَّد علي واليًا على مصر،

ليكون أوَّل من شغل ذلك المنصب بمطالبة شعبية؛ بسبب نجاحه في التقرُّب إلى أهم رجال الرأي والحلِّ والعقد في ذلك الحين، حتَّى اقتنعوا أنَّه الأجدر بحمل مسؤوليَّة الحُكم، بعد انتشار الظلم على يد المماليك. لم يكن مؤيِّدو محمَّد علي يعرفون أنَّه سيصبح صورة جديدة للاستبداد والظلم؛ فقد انكبَّ على رعاية مصالحه الشخصيَّة، وتكوين مملكة وراثيَّة. وواصل أحفاد محمَّد علي نهجه في التركيز على المصالح الفرديَّة، وإهمال مطالب الشعب؛ فانتشر المرض والجهل، وحدث تردٍّ اقتصادي هائل.

ما أن **أرسَت سفن الحملة الفرنسيَّة في الإسكندريَّة بداية يوليو من عام ١٧٩٨ ميلاديًّا، حتَّى انتفضت جموع الشعب في وجه الاحتلال، وبخاصَّة عندما فرَّ الحُكَّام المماليك بعد مواجهة فاشلة مع جيش بونابرت، الذي فهم منذ اليوم الأوَّل أنَّ القوَّة العسكريَّة لن تفلح مع الشعب المصري؛ فآثر استخدام القوَّة الناعمة، من خلال محاولات التودُّد إلى أفراد الشعب.** عمل بونابرت على **إعادة تنظيم المجتمع المصري، وتحسين أوضاعه، والقضاء على أسباب التردِّي؛ ليثبت للجميع أنَّه لم يأتِ للاحتلال، إنَّما لتحسين الأوضاع الداخليَّة في مصر.** ومع ذلك، لم يصدِّق المصريُّون وعود بونابرت؛ "لأنَّهم أدركوا بنظرتهم العميقة إلى وقائع التاريخ وأحداثه، أنَّ نابليون اتَّخذ ذات السلاح مع غير مصر من الأمم التي غزاها. وأنَّه لم يبر بوعده لأمَّة من الأمم التي فتحها، وأنَّه استغلَّ جميع البلاد التي استسلمت لها جحافله استغلالًا بعيد المدى يخدم مصالحه وأغراضه" (ص٢٨). على ذلك، **رفض المصريُّون الخضوع لمشروع بونابرت الخبيث للسيطرة على الأمم، وتغيير واقعها وتشكيل مستقبلها، بوعود رنَّانة لن يفي بها.**

عرف المصريُّون بقدوم الحملة الفرنسيَّة، لمَّا أراد القائد البحري البريطاني نيلسون الإرساء على ميناء الإسكندريَّة لردِّ الأسطول الفرنسي فور وصوله. غير أنَّ السيِّد محمَّد كريِّم رفض ذلك، معتقدًا أنَّ فيه خديعة لاحتلال مصر. **بدأت حالة من الاستنفار، وحُشدت الجماهير، وجُمع السلاح، وأقيمت الدفاعات، وحُصِّنت الأسوار. أسفرت المواجهة**

الأولى بين الجماهير وجنود الحملة عن إصابة بعض كبار القادة، ومقتل بعضهم، واستماتت الجماهير في الدفاع إلى درجة شهد بها قادة الحملة أنفسهم.

أمَّا عن أهم أسباب نشأة مشاعر الكراهية تجاه أعضاء الحملة، فيأتي على رأسها فرض الضرائب، ولعلَّ ذلك كان أكبر خطأ وقعت فيه الحملة؛ حيث لم يكن الشعب وقتها تنقصه تلك الضرائب، في الوقت الذي عانى فيه الفلَّاحون-غالبيَّة أفراد الشعب، من الحرمان من حقِّهم في التمتُّع بما زرعته أيديهم. دون النظر في أحوال المصريِّين قبل إرهاقهم بمزيد من النفقات، أكثر ما عني به الفرنسيُّون هو جمع نفقات الحملة من دماء الشعب. الأهم من ذلك أنَّ الحملة أنشأت مكاتب في مديريَّات مصر جميعها لتسجيل عمليَّات بيع وشراء العقارات، ففرضت رسومًا غير مسبوقة على التسجيل، وتوعَّدت بسحب ملكيَّة أيِّ عقار لم يُسجَّل خلال ٣٠ يومًا لصالح الحملة. وامتدَّ تحصيل الضرائب إلى فرض ضرائب على أصحاب الحرف والصناعات. لم يكتفِ جنود الاحتلال بتلك الضرائب، فانطلقوا في حملات تخريبيَّة للسلب والنهب والتعدِّي على المسالمين، ما اعترف به بعض قادة الحملة أنفسهم. أشعلت تلك الأسباب الثورة في نفوس المصريِّين، ثم جاء إعدام السيِّد محمَّد كريِّم ليقضي على ما بقي من صبر وتحمُّل لدى أبناء الشعب؛ فاشتعلت ثورة عارمة في أنحاء البلاد، شاركت فيها جميع طوائف الشعب.

تفنَّن أعضاء الحملة الفرنسيَّة في نهب أموال المصريِّين، فصادروا الممتلكات، وفرضوا الغرامات لأسباب غير مشروعة، بل وفُرضت على النساء ضرائب مقابل البقاء في بيوتهنَّ. وصل الأمر إلى مصادرة بعض المساجد والبيوت بحجَّة احتياج الحملة إليها في تحصين المدن. ويقول الكاتب أنَّ أسباب اشتعال الثورة على الحملة الفرنسيَّة في القاهرة من بينها "**المظالم التي تعرَّض لها الأهالي، وذيوع القتل والهدم والتخريب والإرهاب في جميع أنحاء البلاد، مما أثار النفوس على الفرنسيِّين، وزاد في حنق الناس عليهم، وأشعل الثورة في نفوسهم**"، هذا إلى جانب "حوادث القتل في المديريَّات المختلفة، وحوادث حفظ الرهائن واعتقالهم، وحوادث الهدم التي تعدَّدت في أكثر من قرية ومدينة" (ص٦٤).

بدأ هجوم الأهالي على أماكن تجمُّع الفرنسيِّين، وبدأ عمليات هجوم استُخدم فيها السلاح والعصي، ولم يُستثنَ أحدٌ من الهجوم، من جنرالات وضبَّاط وجنود. حُشد في الجامع الأزهر وحده ١٥ ألفًا من الثوَّار، وتعالت أصوات السخط، **فردَّ الفرنسيُّون بأحط الوسائل وأشدِّها غدرًا، مستخدمين إلقاء القنابل وإطلاق النار بكثافة، ومستغلين افتقار الشعب إلى السلاح والتدريب العسكري، وخذلان الحكَّام.** لم يتوقَّف الأمر عند القتل والتعذيب، بل تعدَّاه إلى مهاجمة بيوت المواطنين ونهبها، بحجَّة البحث عن السلاح؛ "وتعدَّدت المظالم، واستبيحت الحرمات، وسُجن الأبرياء، وذاق الناس الأذى والهوان ألونًا وأنواعًا"، هذا إلى جانب إعدام الناس في القلعة بلا تهمة ولا محاكمة (ص٧٠).

تدخَّل كبار علماء الأزهر لإقناع بونابرت بالتوقُّف عن حملة القمع الشديد، التي شنَّها للردِّ على ثورة الجماهير، فطلب بونابرت من المشايخ تهدئة الجماهير، وإقناعهم بضرورة العدول عن الثورة، والعودة إلى بيوتهم وأعمالهم؛ وقال العلماء في البيان "عليكم ألَّا تحرِّكوا الفتن، ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنفاقين، ولا تتَّبعوا الأشرار، ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرؤون العواقب؛ لأجل أن تحفظوا أوطانكم، وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم..." (ص٧٥).

تحرَّك بونابرت إلى **الشام لاحتلالها بعد مصر، وارتكب فيها مجزرة تقشعرُّ منها الأبدان، وقد خلَّد التاريخ تقتيله أهل يافا، ومن وُجد فيها من العثمانيِّين،** وكانت سياسته "إنَّ الذي يعاديني أو يخاصمني لا يجد له ملجأ مخلصًا منِّي في هذا العالم". أمَّا عن موقفه من المصريِّين الذين انتقلوا إليها، مؤثِرين الهجرة من مصر بعد احتلالها إيَّاها، والذين كان من بينهم السيِّد عُمر مكرم–العالم الأزهري والزعيم الوطني–فقد عمل نابليون على التودُّد إليهم، وطلب منهم معاونته في محاربة العثمانيِّين إلى جانبه، فأبوا وآثروا العودة إلى مصر، في إشارة جديدة على بُغض المصريِّين التعاون معه ضدِّ إخوتهم المسلمين.

تجدَّدت الثورة بعد رحيل بونابرت إلى الشام، وبصحبته عددٌ كبير من أفراد جيشه، وإن بقيت مشكلة تفوُّق الفرنسيِّين من حيث المعدَّات والذخائر. أمَّا عن ثورة انتفاضة

الجماهير من جديد فهو سلب جنود الحملة الماشية وحمير والجمال من المزارعين في قرى الوجه البحري، مدَّعين حاجة الحملة إليها. تولَّى أمير الحج التركي مصطفى بك مهمَّة زعامة الثورة على الفرنسيِّين في الشرقيَّة، بعد أن تخلَّف عن مرافقة بونابرت إلى الشام، وحُلَّت مشكلة الذخائر والأسلحة الحديثة لمَّا تمكَّن أفراد الشعب المصري من مهاجمة سفن كانت في طريقها إلى الشام لإمداد بونابرت وجيشه هناك. وظلَّت الثورة تنتقل من مديريَّة إلى أخرى، حتَّى عاد بونابرت ذاته من الشام في يونيو من عام ١٧٩٩ ميلاديًّا، بعد فشل حملته هناك. وتزامَن ذلك مع بداية تدفُّق الجنود العثمانيِّين إلى مصر لمؤازرة الشعب، بمعاونة بريطانيا، عدوِّ فرنسا الألدِّ حينها.

تقهقر قائد الحملة إلى بلاده، برغم نجاح أسلوب القمع وسفك الدماء في بعض جولات الحرب في إسكات الشعب، أو إبطاء ثورتهم. شعر بونابرت بكراهية الشعب له، وبأنَّه مهما فعل فلن يُفلح في مهمَّته؛ فقد كان الحاجز الثقافي–أو الديني، في حقيقة الأمر– أكبر حائل دون وصوله إلى قلوب الجماهير، ولو أبدى احترامًا للإسلام ولرسوله في الظاهر. حتَّى أعضاء الديوان من المشايخ كانوا يتظاهرون أمام قائد الحملة بتأييده، بينما كانوا يتمنون هزيمته أمام الجيش العثماني؛ "**فالغضب والكره كانا يسيطران على نفسيَّة الشعب المصري سيطرة بعيدة المدى، عميقة الأثر...والمصريُّون كانوا يجاهرون بعدائهم للفرنسيِّين، وكراهيتهم له، وكانوا ينتظرون الفرص للانتفاض والثورة عليهم**" (ص٨٩). **ولعلَّ من أهم العوامل الخارجيَّة التي دفعت بونابرت إلى الرحيل عن مصر تسرُّب أخبار هزائمه في بعض معاركه في مصر إلى أوروبا، وقلقه من إمكانيَّة انتقال الثورة إلى البلدان الأوروبيَّة التي احتلَّها فرنسا. رحل بونابرت من مصر سرًّا يوم ١٨ أغسطس من عام ١٧٩٩، بعد ١٣ شهرًا مرَّت على رسو سفينته في ميناء الإسكندريَّة؛ وادَّعى القائد شديد الثقة بقدراته العسكريَّة أنَّه عائد إلى بلاده لبضعة أشهر، على أن يعود بعدها بإمدادات.**

ازدادت المشكلة بين الشعب وأعضاء الحملة تعقيدًا بعد رحيل بونابرت عن مصر؛ فبرغم قسوته وجبروته في المعارك، فقد كان على الأقل حلو اللسان، وودودًا في حديثه إلى

بعض المصريِّين، حتَّى كسب ثقتهم. أمَّا خليفته، الجنرال كليبر، فقد عُرف عنه جموده الشديد، وقسوته المتناهية. كان اندلاع ثورة في مصر في عهد كليبر متوقعًا؛ بسبب الأزمة الاقتصاديَّة الرهيبة التي تعرَّضت لها البلاد، بعد رحيل بونابرت بكلِّ ما في خزينة الدولة، وبعد سلبه أموال الكبراء والأعيان في بداية حملته. وتجدَّدت محاولات الدولة العثمانيَّة انتزاع مصر، التي كانت إحدى ولاياتها، من أيدي الفرنسيِّين؛ فشَنَّت حملة جديدة عالية التجهيز، لكنَّها فشلت من جديد. ومع انتصار الفرنسيِّين من جديد على الجيش العثماني، أدرك كليبر ضرورة عقد اتفاقيَّة صُلح مع الدولة العثمانيَّة والجلاء عن مصر.

وفي مارس من عام ١٨٠٠ ميلاديًّا، **نشبت ثورة جديدة في القاهرة، وكان من أهم دعاء تلك الثورة تسلُّل كتيبة من الجيش العثماني إلى القاهرة، وسعي قائد الكتيبة إلى إثارة مشاعر الجماهير ضدَّ الحملة؛ فاستجاب المصريُّون له، وشنُّوا حملة موسَّعة على الحاميات الفرنسيَّة في القاهرة، ولم تفلح قذائف مدافع الحملة في إرهاب المصريِّين.** أصرَّ الشعب على الاستمرار في ثورته حتَّى جلاء المستعمرين؛ فقتلوا رُسُل قائدهم لمَّا جاء لعرض الصُلح، "وأنشئوا معملًا للبارود، ومعملًا لإصلاح الأسلحة والمدافع، ومعملًا لصُنع القنابل وصبِّ المدافع؛ وجمعوا الحديد من المساجد والحوانيت، وبدأ العمَّال يتطوَّعون للعمل في هذه المعامل، وأخذ الأهالي يجمِّعون القنابل الفرنسيَّة التي كانت تسقط عليهم ولا تنفجر ليستعملوها من جديد لضرب الفرنسيِّين" (ص٩٥). **أهم ما يميِّز ثورة القاهرة الثانية اجتماع المصريِّين والأتراك العثمانيِّين والمماليك لمحاربة عدوٍّ واحد، هو الحملة ورجالها، وإن تباينت أهدافهم.** "فالمصريُّون كانوا يريدون استقلالًا وحريَّة، والأتراك يريدون أن يجعلوا مصر جزءً من دولتهم الكبيرة، وأن يعيدوها إلى حظيرتهم ولاية من ولاياتها، والمماليك يطمعون في أن تعود إليهم السلطة في البلاد كما كانت قبل الحملة الفرنسيَّة" (ص٩٦).

لم يتراجع كليبر عن مواصلة مهاجمة المصريِّين وإلحاق الخسائر بهم، فأسرف في التخريب والقتل، وأحرق أحياء بأكملها، واستسلم العثمانيُّون والمماليك وانسحبوا، لكنَّ

المصريِّين أصرُّوا على استكمال المواجهة، ولو بعد هدنة اضطراريَّة. شنَّ كليبر حملة تأديبيَّة على سكان القاهرة بعد ثورتهم، ففرض عليهم دفع ١٢ مليون فرنك، بالإضافة إلى تقديم تعويضات عن الأسلحة التالفة للحملة خلال الثورة التي استمرَّت خمسة أسابيع، وإلى فرض غرامات على المشايخ الذين أيَّدوا الثورة. واستمر كليبر في التنكيل بالمصريِّين حتَّى كتَبَ الله نهايته على يد الطالب الأزهري الشامي سليمان الحلبي، الذي دبَّر حيلة مُحكمة لقتل كليبر، انتقامًا من الفرنسيِّين على مجازرهم في الشام. وتسلَّم قيادة الحملة بعد كليبر الجنرال مينو، لكنَّه كان ضعيف الشخصيَّة، وإن استأنف مسيرة النهب والقتل بأسلوب انتقامي. غير أنَّ الحملة قد أنهكتها كثرة المعارك، فاضطرَّ مينو في النهاية إلى سحب قوَّاته الباقية والرحيل عن مصر في سبتمبر من عام ١٨٠١ ميلاديًّا.

الحملة الفرنسيَّة في سينما "يحيى شكري": الوداع يا بونابرت (١٩٨٥)

يتناول الفيلم مسألة صراع الحضارات، بتسليط الضوء على أهم أسباب الحملة الفرنسيَّة على مصر أواخر القرن الثامن عشر، ولمدَّة ثلاث سنوات، وهو تنوير الشعب المصري وإخراجه من حالة الجمود الفكري. يشهد الفيلم، وفق ما تنشره موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة، **بتأثير الحضارة الفرعونيَّة على الحضارة الغربيَّة ومنجزاتها التقنيَّة، ويدعو إلى الحوار بين الحضارتين، وليس إلى الحرب الغاشمة.** تلفت الأحداث الانتباه إلى وجود علماء ومفكِّرين ضمن أعضاء الحملة، وتمنح أحدهم مساحة كبيرة في الأحداث، أكثر من بونابرت ذاته، الذي يُتَّهم صراحةً باستغلال الحملة العسكريَّة في سبيل تحقيق مجد شخصي، وليس لمجد بلاده، كما يدَّعي.

تدور أحداث الفيلم حول أسرة مصريَّة تعيش في مدينة الإسكندريَّة الساحليَّة، وتتكوَّن من زوجين وثلاثة أبناء من الذكور. تفرُّ تلك الأسرة إلى القاهرة، تجنُّبًا للاجتياح الفرنسي لمصر بدايةً من الإسكندريَّة، حيث رسيت سفن نابليون بونابرت وجيشه الجرَّار. يتَّخذ كل ابن من الأبناء الثلاثة موقفًا مختلفًا من الحملة الفرنسيَّة، وفق خلفيَّته. فالابن الأكبر، بكر، **وهو شيخ أزهري، يقرر فورًا التصدِّي لحملة "الكفرة" بالمواجهة العسكريَّة**؛ أمَّا الابن الثاني، عليٌّ، **فهو يتوخَّى الحذر في المواجهة الحربيَّة، إيمانًا منه بأن التفاهم**

السلمي أنسب، واعترافًا منه بفضل الفرنسيِّين عليه في تعليمه لغتهم وتعريفه بعلوم جديدة، معتبرًا أنَّهم ليسوا جميعًا مسؤولين عمَّا يفعله جيشهم. في حين يحتار الاين الأصغر، يحيى، بين أيٍّ من طريقي أخويه يسلك، لكنَّه ينضم إلى أخيه عليٍّ، ويدخل معه في صداقته لعالم فرنسي ضمن فريق الحملة لا يهدف إلَّا إلى نشر "العدالة والمساواة والإخاء".

تبدأ الأحداث بترقُّب وصول الحملة إلى شواطئ الإسكندريَّة، مع تسليط الضوء على حالة التردِّي العلمي لأهل مصر، مقارنة بالتطوُّر التقني لفرنسا. يُمسك المراهق يحيى منظار خطفه من يد فرنسي من أصدقاء علي، في تعجُّب لمدى قدرته على رؤية الأجسام البعيدة



صورة ١–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يثور الأزهري بكر على علي بسبب ترحيبه الضمني للحملة الفرنسيَّة "الكافرة"، التي يرى فيها الأمل للقضاء على ظُلم المماليك من حكَّام مصر، متَّهمًا الطرفين بالكُفر



صورة ٢–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

أمَّا عن موقف المماليك، فكان الخنوع والتخاذل.



صورة ٣–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

في وسط ارتباك الأزهريِّين وعدم تصوُّرهم لكيفيَّة التعامل مع الموقف.



صورة ٤–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يصل نابليون بونابرت وجيشه، عازمًا على السيطرة على مصر بالكامل، ليس بالجيش فقط، إنَّما بالعلوم التي تغيِّر من هويَّة الشعب الفكريَّة. ويسلِّط الفيلم الضوء على عجز المصريِّين البدائيِّين–كما يصوِّرهم–عن مواجهة الفرنسيِّين بسبب تفوُّقهم التقني المزامن لتأخُّر وسائل الدفاع المصريَّة



صورة ٥–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

فالمصريُّون يحاربون بالسكاكين والعصيِّ.



صورة ٦–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

بينما يستخدم الفرنسيُّون البنادق...



صورة ٧–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

والمدافع الحديثة.



صورة ٨–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

أضف إلى ذلك، التفوُّق العددي للفرنسيِّين، الذي يدفع المحاربين المصريِّين إلى الفرار



صورة ٩-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

بل ولجأ بعضهم إلى الحضرات الصوفيَّة في سبيل الخروج من الأزمة.



صورة ١٠-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

تصل قوَّات الحملة الفرنسيَّة إلى القاهرة، وسط عجز المصريِّين عن التصدِّي لها.



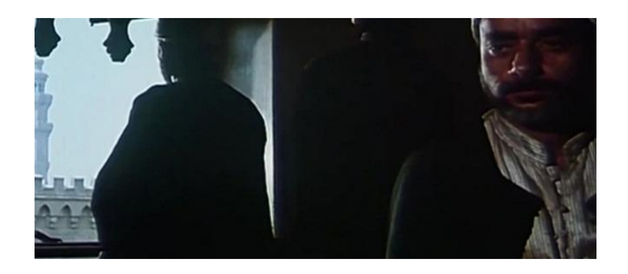
صورة ١١-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

وتصل القوَّات إلى مقر الأزهر في قبل العاصمة، ويعلو علم فرنسا على مئذنة الجامع الأزهر.



صورة ١٢-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

هذا ولم يزل الأزهريُّون في حيرةٍ من أمرهم، حتَّى بعد أن حاصرت القوَّات الجامع.



صورة ١٣-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

وحينها، يجتمع الأزهريُّون مع إمام كفيف يدعوهم إلى التصدِّي للحملة بالسلاح.



صورة ١٤-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يستنكر بكر في حواره مع الشيخ الكفيف خنوع الشعب المصري، وسكوته على وجود الحملة في قبل مصر، بما فيه والده، الذي تعهَّد بإمداد الحملة بالخبز مقابل المال، واصفًا ذلك بـ "التطبيع"، في وسط تهكُّم الشيخ على ادِّعاء بونابرت في خطاب وجَّهَّه إلى الأزهر أكَّد فيه على احترامه للإسلام وللنبي مُحمَّد. يدين الشيخ الكفيف موقف السلطة

الرسميَّة، ويعترف بتفوُّق الحملة عسكريًّا، لكنَّه يدعو إلى الوقوف في وجهها، مذكِّرًا الجمع من طلَّاب الأزهر بأنَّ الله نصَرَ مقاتلي بدر، وقد كانوا ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلًا، في مواجهة عشر أضعاف عددهم، ومستشهدًا بقول الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ" (سورة آل عمران: الآية ١٤٩) في وجوب التمرُّد على الحملة وقائدها. يعطي الشيخ عصاه إلى بكر، ويرفع كلُّ أزهري بعصاة في مظاهرة تناهض الحملة.



صورة ١٥–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يؤكِّد الفيلم بذلك اتِّهام فضل الرحمن في كتابه (١٩٨٢) آنف الذكر لدارسي الأزهر بالجمود الفكري وعدم السعي إلى الحوار أو الانفتاح على علوم جديدة. فالشيخ الكفيف لم يرَ في الحملة سوى رغبتها في السيطرة العسكريَّة، برغم من سعيها إلى فتح سُبُل جديدة للعلم وترقية العقول.

أمَّا عن بونابرت، فقد لجأ إلى التقرُّب من الشعب المصري من خلال المشاركة في حضرة صوفيَّة في المولد النَّبوي.



صورة ١٦–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

ويتزامن ذلك مع نشوء صداقة بين علي ويحيى من ناحية والعالم الفرنسي، كافاريللي، الساعي إلى نشر قيم العدالة والتفاهم بين الشعوب.



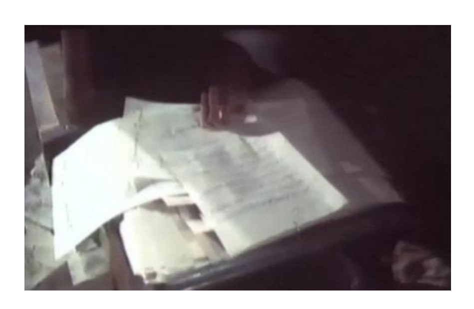
صورة ١٧–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يبدأ الشابان الاطِّلاع على المنجزات العلميَّة الفرنسيَّة، في انبهار تامٍّ ورغبة في التعلُّم.



صورة ١٨–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

ويبدأ علي في استغلال الطباعة في طبع منشورات لتحفيز الشعب على الثورة في مواجهة الاحتلال. ونذكِّر بأنَّ الطابعة من أوائل الأجهزة التقنيَّة الحديثة التي عرفها المصريُّون، وكانت الحملة قد جاءت بها معها إلى مصر. ولا شكَّ أنَّ في استخدام عليٍّ تلك الآلة الحديثة ما يشير إلى نجاح الحملة في نقله نوعيًّا إلى عالم المدنيَّة.



صورة ١٩–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يخرج الأزهريُّون في حملة بقيادة الشيخ الكفيف للاستيلاء على السلاح من المصريِّين المتعاونين مع الحملة، وكان هتاف الشيخ "حي على الجهاد". ينطلق الشباب في حماس بأسلحتهم البدائيَّة.



صورة ٢٠-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

ويتقدَّم المشهد موكب من الحمير في إشارة إلى التخلُّف الحضاري، في مواجهة خيول الحملة المسلَّحة بأحدث وسائل الدفاع، في استهزاء تام بسعي الأزهريين إلى تحرير بلادهم.



صورة ٢١-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يواجه المتعاونون مع الحملة من أبناء المصريِّين جمع الأزهريِّين بإطلاق كثيف للرصاص. **وتجدر الإشارة إلى أنَّ شخصيَّة كبير مورِّدي السلاح للحملة في الفيلم هي محاكاة شخصيَّة حقيقيَّة، هي شخصيَّة المعلِّم-أو الجنرال-يعقوب حنَّا، وهو رجل**

مسيحي من صعيد مصر تعاون مع جنود بونابرت ضدَّ أبناء مصر، مما دفع الكثير من المؤرِّخين إلى اتِّهامه بالخيانة. غير أنَّ مؤرِّخين مسيحيِّين رأوا فيه بطلًا وطنيًّا دافع عن قضيَّة الأقليَّة المسيحيَّة في مصر، ودفع حياته ثمنًا لذلك، ومنهم صاموئيل تادرس في كتابه **الوطن المفقود: السعي المصري والقبطي للحداثة (٢٠١٣)**. فبرغم موت حنَّا على متن إحدى سفن الحملة المبحرة إلى أوروبا بعد انسحاب القوَّات، والتخلُّص من جثَّته دون دفنه، فهناك من يرى أنَّ حنَّا مُنع بموته من توصيل أصوات الأقليَّة المسيحيَّة إلى قادة أوروبا، ومن المطالبة بحقوقهم. على أيِّ حال، فالشخصيَّة الموازية لشخصيَّة يعقوب حنَّا تحمل اسم "فرط الرمَّان"، وهو اسم لا يحمل أيَّ هويَّة دينيَّة.



صورة ٢٢–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يفر الجمع فور إطلاق النيران، ويختبئ الجميع، وأوَّلهم الشيخ الكفيف، في إشارة إلى العجز عن المواجهة، لن نقول الجُبن المتخفي خلف حماسة زائفة وشعارات بالية.



صورة ٢٣–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

وفي وسط هذا المشهد الدامي، يخرج الشاب عليٌّ بهتاف يعبِّر عن الانتماء القومي، وليس الديني "مصر ستبقى غاليَّة عليَّ"، وحينها ينقلب الحال، ويسود المتظاهرون الأزهريُّون المشهد



صورة ٢٤–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يُستفز قادة الحملة مما حدث، فيحاصرون الأزهر بالمدافع.



صورة ٢٥–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

ثمَّ يقتحمونه للرد على العدوان، وتأديب مَن حاربوا أعوان الحملة في جمْع السلاح.



صورة ٢٦–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

بالطبع، يسقط قتلى من طلّاب الأزهر سُفكت دماؤهم بسبب انجرارهم وراء نداء بكر وشيخه الكفيف لاقتحام مقر المتعاونين مع الحملة من أبناء مصر، الذين وصفهم بالخونة.



صورة ٢٧–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

ويطول العبث والتخريب مخطوطات تعود إلى الجامع الأزهر، فينقضُّ أحد علماء الحملة لإنقاذها، واصفًا الجنود بـ "الهمج".



صورة ٢٨–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

ويطول عبث العامَّة المصريِّين، الثائرين على المحتلِّ بسبب اقتحامه الأزهر، معدَّات العالم الفرنسي العلميَّة، فيصف هو هؤلاء بـ "الحيوانات".



صورة ٢٩-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

نأتي إلى نقطة في غاية الأهميَّة في الأحداث، وهي استعراض الفرنسيِّن تقدُّمهم العلمي بإطلاق منطاد طائر يمكنه نقل الأشخاص في الجو...



صورة ٣٠-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

ويتابع العامَّة المشهد في شغف وانبهار.



صورة ٣١-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

غير أنَّ التجربة فشلت في إقناع المصريِّين بضرورة التماهي مع الحضارة الغربيَّة والاستفادة من علومها، **برغم احتجاز الأزهريِّين الداعين إلى الثورة في السجن.**



صورة ٣٢–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

يقتنع قادة الحملة في النهاية بفشلها في تحقيق غاياتها؛ فلا السيطرة العسكريَّة نجحت، ولا التقارب الفكري حدث. ما حدث هو إراقة الدماء من الجانبين، وإن كانت الخسائر البشريَّة والماديَّة للجانب المصري تفوق خسائر الجانب الفرنسي. ما أثمرت عنه الحملة هو الصداقة بين عليٍّ والعالم الفرنسي كافاريللي، واعتراف كلٍّ منهما بفضل الآخر في تعليمه الجديد.



صورة ٣٣–من فيلم "الوداع يا بونابرت"

ويقطع عليٌّ رحلته التنويريَّة بعد ارتباطه بفتاة مسيحيَّة، في وسط عدم اقتناع بني وطنه بأهدافه، واتِّهامهم له بالخيانة. يبقي عليٌّ وحده بعد موت شقيقه الأصغر ضحية للجهل، وسجن الأكبر، **وتخلو الساحة أمامه لنشر الوعي المناسب لتحقيق التماهي مع الغرب وإزالة أسباب الفرقة والصراع.**



صورة ٣٤-من فيلم "الوداع يا بونابرت"

٦.تحليل نظرة الفِكر الحداثي الغربي إلى الإسلام: نماذج من كتابات برنارد لويس

بعد عجز الحملة الفرنسيَّة على مصر والشَّام، مطلع القرن التاسع عشر، عن تحقيق هدفها الجوهري، وكان إخضاع العالم الإسلامي إلى سُلطان الحداثة الغربيَّة، نشأ فِكر جديد في الهجوم على الإسلام استفاد كثيرًا من تجربتي الاستعمار الفرنسي (١٧٩٨-١٨٠١ ميلاديًّا) والبريطاني (١٨٨٢-١٩٥٤ ميلاديًّا) فيما خرج به علماء الغرب الوافدين إلى المشرق الإسلامي من دراسات، أتاحت اختراق العقليَّة المسلمة واستغلال مواطن ضعفها. ويبدو أنَّ برنارد لويس المستشرق الغربي الأشهر خلال القرن العشرين، برنارد لويس، قد استفاد كثيرًا من تخصُّصه في الدراسات الشرقيَّة، وبخاصَّة في تاريخ الإسلام، في جامعة لندن، فيما كتبه عن الإسلام ليثير بآرائه المتعصِّبة والمنغمسة في العنصريَّة، والمائلة عن الحياديَّة جدلًا واسعًا يتردد صداه، حتَّى بعد أن صار بين يدي الله. كما تشير موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة، وُلد لويس في ٣١ مايو من عام ١٩١٦ ميلاديًّا في لندن لأسرة يهوديَّة من الطبقة المتوسِّطة. وبسبب انتمائه الديني، اهتمَّ لويس بدراسة العبريَّة، ثمَّ درس ثم الآراميَّة والعربيَّة، وبعدهما اللاتينيَّة واليونانيَّة والفارسيَّة والتركيَّة. في جامعة لندن، دَرَس لويس التاريخ وتخصَّص في الشرق الأوسط والأدنى، ثم حصل من نفس الجامعة على درجة الدكتوراه في الفلسفة، وكان موضوعه "أصول الإسماعيليَّة"، الذي نشره في كتاب عام ١٩٤٠ ميلاديًّا. المفارقة أنَّ لويس مات في ١٩ مايو من عام ٢٠١٨، أي بعد ٤ أيام من الاحتفال العالمي بنقل السفارة الأمريكيَّة إلى أورشليم/القدس، باعتبارها عاصمة دولة إسرائيل.

ما سبق ذِكره هو ما يُنشر عن الجانب المعلَن لشخصيَّة برنارد لويس؛ أمَّا الجانب الخفي، فهذا ما يوضحه حوار أجراه مع الدكتور حسن حميد في حلقة من برنامج "ساعة فلسطينيَّة" عنوانها "**برنارد لويس...المستشرق الحاقد**" عبر قناة تلاقي السوريَّة، نُشر على موقع يوتيوب، على قناة Sciences and Inventors، روى فيه سهيل زكَّار، أستاذ التاريخ سوري الجنسيَّة عن تجربته، وقتما كان طالبًا للدكتوراه تحت إشراف لويس في بريطانيا. وفي مقدِّمة الحلقة، يصف حميد برنارد لويس بـ "المستشرق الكاره الحاقد العنصري النافث للسموم كالأفاعي، البريطاني الأصل، اليهودي الديانة، الأمريكي الجنسيَّة، الصهيوني العقيدة والانتماء".

ويضيف حميد عن لويس أنَّه "ليس أحد مثله من بين المستشرقين الغربيِّين، يكره العرب والمسلمين، ويحقد عليهم إلى هذا الحدِّ الجنوني، الهستيري، الداعي نهارًا جهارًا إلى تفتيتهم وتدميرهم، والسيطرة عليهم بالقوَّة الراعبة؛ ليس أحد مثله من بين المستشرقين الغربيِّين تجرَّأ فنادى الغرب، وخصوصًا أمريكا، إلى احتلال البلاد العربيَّة واستعمارها مجدَّدًا من أجل حماية المشروع الصهيوني ورعايته في شرق المتوسط، وكأنَّه بستان زهر؛ ليس أحد مثله من بين المستشرقين الغربيِّين من أوغل في التجرؤ فقال ’العرب متخلِّفون ومتأخِّرون وفاسدون ومفسدون وفوضويُّون، وأسباب صعوبة تحظيرهم تكمن في أسباب ثقافيَّة ودينيَّة تخصُّهم وحدهم‘؛ وليس أحد مثله من بين المستشرقين الغربيِّين تجرَّد من كلِّ إحساس أخلاقي ووطني وإنساني، **فدعا إلى تفكيك الدول العربيَّة إلى دويلات وكنتونات عرقيَّة وطائفيَّة ومذهبيَّة وعشائريَّة وقبائليَّة؛ لكي يكون التناحر والتقاتل والتحارب صيغة عيش العرب فيما بينهم، وداخل أحيازهم المكانيَّة**؛ ليس أحد مثله من بين المستشرقين الغربيِّين أنفق عمره الطويل المديد وهو ينادي ويدعو ويحرِّض الثنائي الأمريكي الصهيوني على اقتسام بلاد العرب بالاحتلال المباشر، على أن يتلافيا أخطاء بريطانيا وفرنسا، وأخطاء الصليبيِّين أيضًا، ليكون الاحتلال احتلالًا مؤبَّدًا؛ ليس أحد مثله من بين المستشرقين الغربيِّين من يدافع عن الكيان الصهيوني بشراسة ووقاحة،

داخل البيت الأبيض الأمريكي سياسيًّا، وداخل البنتاجون عسكريًّا؛ لقناعته بأنَّ هذا الكيان يشكِّل الخطوط الأماميَّة للحضارة الغربيَّة..."

درس لويس في كليَّة الدراسات الشرقية والإفريقية (SOAS)، في جامعة لندن، ويقول زكَّار أنَّ هذه الكليَّة، ومثيلات لها في أوروبا وأمريكا، تتخصَّص في تدريس موادَّ عن الاستشراق تتشبَّع بمفاهيم تحرِّض على الكراهية والعنصريَّة ضد الإسلام وأهله، وعلى رأس ذلك الفكر الصهيوني، ومنها جامعة توبنغن الألمانيَّة، التي ذكر زكَّار أنَّها أصبحت "بالكامل لصالح الفكر الصهيوني، وتقوم بأعمال خطيرة جدًّا، وتجهِّز جيلًا من الباحثين سيأتون إلى الوطن العربي ويتسلَّمون الأعمال الأكاديميَّة في مختلف الجامعات"، وقد يدخل منهم إلى مجال السياسة، أو "غير ذلك". يضيف زكَّار أنَّ الأمر "في درجة عالية من الخطورة"؛ نظرًا لإصرار الغرب على تنفيذ مخطط إخضاع المشرق الإسلامي بالكامل لسطوته، بإنفاق مبالغ طائلة، بلا رادع أو مانع.

أولى لويس بسهيل زكَّار اهتمامًا خاصًّا، وأحسن معاملته؛ لدرجة أنَّه كان يُنصفه إذا ما وقع صدام بينه وبين مشرفه الدراسي المباشر، الذي طالما اصطدم معه زكَّار–دون أن يجد سببًا للصدام، الذي وصل إلى حدٍّ تقديم المشرف الدراسي شكوى في حقٍّ زكَّار–ولم يكن هناك أكثر من لويس حنوًّا ورعايةً. يصف زكَّار برنارد لويس بأنَّ له "هيبة ومكانة"، وبأنَّه كان "فارضًا وجوده" في القسم؛ فاستفاد زكَّار ذلك من ذلك في الإسراع بعمليَّة تسجيل رسالته للدكتوراه، لينهيها في ٤ سنوات، أي عام ١٩٦٩ ميلاديًّا. عرض لويس عليه البقاء في جامعة لندن، لكنَّه رفض. من المثير للاهتمام أنَّ فترة دراسة زكَّار (١٩٦٥–١٩٦٩) تخلَّلتها حرب الأيام الستَّة، عام ١٩٦٧ ميلاديًّا، وتصادفت زيارة زكَّار لسوريا خلال تلك الفترة، فسأله لويس باهتمام بالغ عن المنظَّمات الفلسطينيَّة في بلاده، مع كتمان مشاعره.

يذكر زكَّار أنَّ طالبًا باسم ديفيد بيتول جاء إلى الجامعة طالبًا للدكتوراه، لكنَّه اعترف له لاحقًا أنَّه جاء ليصطحب لويس معه إلى الولايات المتَّحدة، وذلك عام ١٩٦٨ ميلاديًّا. يرى زكَّار أنَّ الله تعالى نجَّاه من العمل مع لويس، الذي ما أن التحق للعمل بجامعة

برنستون الأمريكيَّة، "كشف عن وجهه الصهيوني، وصار من أعدى أعداء العرب والإسلام". أسَّس لويس معاهد للدراسات التاريخيَّة، تركيزها على دراسة الإسلام والاستشراق، وأصبح مستشارًا للبيت الأبيض، ووزارتي الخارجيَّة والدفاع، ولمكتب الأمن القومي.

وأصبح من أهم نقاط التركيز لدى لويس العنصريَّة لدى المسلمين، ووضع "كلَّ سمومه"، وفق تعبير زكَّار، في كتاب أطلق عليه **Race and Color in Islam–العرق واللون في الإسلام** (١٩٧١)؛ ويضيف زكَّار نقطة في غاية الأهميَّة، وهي إيلاء لويس اهتمامه الأكبر في دراسته للإسلام بـ "الفكر الباطني". يتطرَّق الأكاديمي السوري المخضرم بعد ذلك إلى مسألة هامَّة أخرى، وهي صلات لويس بإسرائيل خلال حرب الأيام الستَّة، ومعرفته الشخصيَّة بذلك من خلال بطاقة لشخص في عاصمة الكيان الصهيوني وجدها في فصل من رسالته تركه للويس للاطلاع، ثم أخذه بعد مراجعته. فهم زكَّار حينها أنَّ الفصل من رسالته الذي كتبه أُرسل إلى تل أبيب، أو صورة عنه.



صورة ٣٥–خارطة برنارد لويس لتقسيم الشرق الأوسط/العالم العربي

يلخِّص زكَّار رأيه عن لويس قائلًا أنَّه شخص شديد الذكاء، تعلَّم عدَّة لغات–العربيَّة والفارسيَّة والتركيَّة والآراميَّة والروسيَّة–ووُفِّرت له كلُّ الإمكانات الممكنة، فوضع كلَّ خبراته ومهاراته وطاقاته تحت تصرُّف الإمبراطوريَّة العالميَّة الجديدة في الولايات المتَّحدة، وريثة بريطانيا وفرنسا، التي يطلق عليها زكَّار "إمبراطوريَّة النفاق"، التي لا ترى

العالم الإسلامي سوى "بيادق" على رقعة شطرنج، يغيِّرون حدوده، ويعيدون تشكيل خريطته السكَّانيَّة وفق ما شاؤوا.



صورة ٣٦–خارطة برنارد لويس لتقسيم الشرق الأوسط/العالم العربي

ولأنَّ حدود "سايكس–بيكو" لم تعد تتناسب مع مصالح الولايات المتَّحدة الحاليَّة في المنطقة، لا بدَّ من إعادة التقسيم على أساس طائفي يضمن انشغال سُكَّان المنطقة بتناحر بيني؛ فلا يصبح لديهم من الوقت أو الإمكانات للتصدِّي إلى الغزو الاستعماري الغربي.



صورة ٣٧–خارطة برنارد لويس لتقسيم الشرق الأوسط/العالم العربي

وهنا يُذكِّر مقدِّم الحلقة الدكتور حسن حميد، بما قاله ديك تشيني–نائب الرئيس الأمريكي الأسبق جورج دابليو بوش–عند تكريم لويس بأنَّه لم يأتِ إلى الولايات المتَّحدة لأهداف أكاديميَّة، إنَّما "ليكون مستشارًا للبنتاجون".



صورة ٣٨–خارطة برنارد لويس لتقسيم الشرق الأوسط/العالم العربي

ويعتبر زكَّار أنَّ مشروع الشرق الأوسط الجديد ما هو إلَّا تطوير لمخطَّط ورد في كتاب **الأسرار** لمارينو سانوتو، أعدَّه عام ١٣٢٢ ميلاديًّا، وقدَّمه لبابا الفاتيكان حينها.



صورة ٣٩–خارطة برنارد لويس لتقسيم الشرق الأوسط/العالم العربي

أهم ما يتضمَّنه كتاب "أين يكمن الخطأ" (٢٠٠٢)

تحدَّث برنارد لويس في حوار أجرته معه شبكة C–Span التلفزيونيَّة الأمريكيَّة، المتخصِّصة في تغطية الفعاليات الحكوميَّة والبرلمانيَّة، في ديسمبر من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، عن كتابه الحديث حينها **What Went Wrong–أين يكمن الخطأ**، الذي أعدَّه قبل أحداث ٩/١١ من عام ٢٠٠١، وقُدِّر له أن يُنشر في أعقاب الأحداث المدوِّية. كما يشير عنوان الكتاب، يتناول المستشرق الشهير فيه أسباب الانحدار الرهيب للحضارة الإسلاميَّة في عهد الدولة العثمانيَّة، وخسارتها أراضيها بداية من القرن السابع عشر الميلادي، واضطرارها إلى عقد اتِّفاقيَّة مُذلَّة أجبرتها على الخضوع لأوامر العدو

الغربي، الذي توالت انتصاراته، وازدهر اقتصاده؛ فأسَّس حضارةً تسيطر على العالم اليوم.

يعلِّق لويس على إعلان أسامة بن لادن الجهاد ضدَّ الغرب في مقال نشرته مجلَّة Foreign Affairs عام ١٩٩٨ أطلق عليه license to Kill: Usama bin Ladin's Declaration of Jihad–رخصة للقتل: إعلان أسامة بن لادن للجهاد. من بين ما أشار إليه بن لادن كسبب للانتفاض ضدَّ الغرب الذل الذي يعيشه العالم الإسلامي منذ "٨٠ سنةً"، ويسخر لويس من عجز بعض متابعي بن لادن عن فهم المقصود بتلك الفترة الزمنيَّة، موضحًا أنَّه يقصد سقوط الخلافة الإسلاميَّة الفعلي، بعد هزيمة الدولة العثمانيَّة في الحرب العالميَّة الأولى، وتمزيق الدولة، بل واحتلال عاصمتها، واعتقال السلطان العثماني، القائم بمقام خليفة المسلمين. وكما أشار في مقاله **أوروبا والإسلام (١٩٩٠)** إلى أنَّ كمال أتاتورك يُعدُّ الشرقي الوحيد الذي استطاع هزيمة الغرب في العصر الحديث بنجاحه في طرح قوَّات الحلفاء من الأناضول، يعيد لويس الإشارة، مع إيضاح أنَّ هذا النجاح لا يُحسب للإسلام، إنَّما للعلمانيَّة والحداثيَّة، اللتين اعتمد عليهما أتاتورك في منهجه الإصلاحي.

يتطرَّق لويس إلى مسألة **اعتبار حملة نابليون بونابرت على مصر والشام (١٧٩٨–١٨٠١) بداية العصر الحديث للشرق الأوسط، التي يراها أوَّل دليل أثبت قدرة جيش أوروبي صغير على احتلال بلد كبير مثل مصر، وشقِّ الدولة العثمانيَّة من وسطها. يدَّعي لويس أنَّ خروج حملة بونابرت لم يكن بفعل الشعب المصري، ولا "أسيادهم" الأتراك، إنَّما أسطول البحريَّة البريطانيَّة، بقيادة هوريشيو نيلسون. يعتقد لويس أنَّ أهم ما يعكسه تاريخ الحملة الفرنسيَّة هو أنَّ قوَّة أوروبيَّة عظمى يمكنها أن تفعل ما شاءت، وأنَّ قوَّة عظمى أخرى وحدها يمكنها إيقاف طموحها وإفساد لعبتها**، مشيرًا إلى أنَّ الصراع بين بريطانيا وفرنسا أصبح يمثِّله اليوم الصراع بين الولايات المتَّحدة وروسيا. ظلَّ الشرق الأوسط عاجزًا، مثل "مادَّة سلبيَّة" تتلقَّفها الأيدي، دون أيِّ قدرة على تحديد مصيرها، وفق رأي لويس.

يتناول لويس في حواره كذلك مسألة أهم مصالح/اهتمامات الولايات المتَّحدة في الشرق الأوسط، محدِّدًا النفط وإسرائيل. النفط مصدر للطاقة في غاية الأهميَّة، وإسرائيل دولة صغيرة محاطة بجيران "عدائيِّين"، مما يستدعي اهتمام الولايات المتَّحدة بهما. وعلاقة إسرائيل بالنفط، كما يراها لويس، هي أنَّ الثروة النفطيَّة الهائلة للجزيرة العربيَّة مكَّنت أهلها من بناء عشرات المؤسسات التعليميَّة لنشر الفكر الديني المتشدِّد، الذي صار أسامة بن لادن تجسيده؛ وهذا الفكر هو أساس عداء جيران إسرائيل لها. لولا أموال النفط، لبقي هذا التيَّار الإسلامي المتشدِّد في موضعه، وما انتشر إلى بقاع أخرى من العالم العربي. ويضيف لويس أنَّ الولايات المتَّحدة تشجِّع نشر ذلك التطرُّف من خلال شرائها النفط الخليجي، بل ويجد أنَّ في اعتماد بلاده على هذا النفط ما يجعلها تتغاضى عن بعض الممارسات القمعيَّة لقادة تلك المنطقة، الذين يراهم يتمتَّعون بسطوة تفوق ما تمتَّع به "سليمان القانوني" أو "هارون الرشيد" في أوج عظمة الدولة الإسلاميَّة. تعاظمت قوَّة الأنظمة الديكتاتوريَّة العربيَّة، وفق وصف برنارد لويس، بفضل عائدات النفط، فلم تعد تحتاج إلى تأييد جماهيري، وأيِّ خروج عن النهج الذي تفرضه الحكومة ترصده أجهزة متطوِّرة يمكنها تسهيل القمع والتحكُّم في أي تمرُّد. يجد لويس نهاية اعتماد الغرب على النفط الخليجي، وما يستتبعه ذلك من اضطرار للتغاضي عن بعض الممارسات القمعيَّة المنافية لمفاهيم الديموقراطيَّة، في نفاد النفط، أو ظهور مصدر بديل للطاقة يُغني عنه. تسببت عائدات النفط في تعطيل مساعي التنمية الاقتصاديَّة في مجالات حيويَّة، مما أسفر عن تراجُع شديد لمعدَّلات النمو الاقتصادي للشرق الأوسط في النصف الثاني من القرن العشرين.

يعلِّق لويس على عبارة ذكرها في أحد مقالاته، هي "إمَّا أن نكون أشدَّ قسوة أو نترك الساحة"، مشيرًا إلى اعتقاده أنَّ السياسة المرنة في التعامل مع الشرق الأوسط في السابق ما كانت لتفلح في هذه الآونة، وبعد أحداث ١١/٩. لفت لويس إلى نبرة الاستخفاف والسخرية في دعوة بن لادن إلى الجهاد ضدَّ الإمبراطوريَّة الغربيَّة الجديدة، واستشهاده بفشل الولايات المتَّحدة في حروبها في السابق، وعلى رأسها فيتنام والصومال ولبنان،

وإشارته لها بأنَّها "نمر من ورق". يزعم لويس أنَّ السياسة الرخوة في السابق هي ما شجَّعت بن لادن على تكوين تلك الصورة عن الولايات المتَّحدة. ويجد لويس في الحرب الأمريكيَّة على تنظيم طالبان في أفغانستان نموذجًا للقمع الواجب تطبيقه للقوى الإرهابيَّة المعادية للغرب، مشيرًا إلى حالة السعادة بين شعب أفغانستان بعد إسقاط النظام المتشدِّد.

يحدِّد لويس في ختام الحوار بعض العوامل التي نتج عنها تراجُع الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة أمام الوحش الغربي الآخذ في النمو، **وأوَّلها تأخُّر المسلمين في مجال تصنيع السفن الناقلة للأسلحة عبر المحيط الأطلسي في حالات الحروب، والبضائع في حالة السلم؛ أضف إلى ذلك التقدُّم العلمي، وبخاصَّة في تصنيع الأسلحة والمعدَّات الحربيَّة، والذي يُرجعه البعض إلى الإصلاح الديني الذي طبَّقه الغرب في القرن السادس عشر الميلادي.**

محتوى الكتاب

يستهلُّ المستشرق اليهودي، صاحب التاريخ الطويل في دراسة الإسلام وتاريخ الدولة الإسلاميَّة، مقدِّمة كتابه بطرح تساؤل، هو عنوان الكتاب ذاته، What Went Wrong?، أو أين يكمن الخطأ، ويستفسر بذلك عن أسباب التردِّي الحضاري الذي عانى منه المسلمون على مدار القرن العشرين بأكمله، ووضعهم تحت وطأة الاستعمار الغربي المسيحي، بعد أن ساد المسلمون العالم لقرون، ووصلت حدود دولتهم إلى قلب أوروبا. نجح المسلمون، وتحديدًا العثمانيُّون، في دحر الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وسقطت عاصمتها، القسطنطينيَّة، في أيديهم عام ١٤٥٣ ميلاديًّا، لتبدأ دولة آل عثمان في الازدهار، حتَّى صار أهل الأقطار الأخرى من الجهلاء والمعدمين، يحلمون بالالتحاق بـ "إمبراطوريَّة الخلفاء، ومن ثمَّ تحصيل المنافع الدينيَّة والحضاريَّة" (ص٤).

قبل فتح القسطنطينيَّة في القرن الخامس عشر الميلادي، فتح المسلمون الشام والعراق وفارس ومصر وشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي؛ وفي القرن الثامن، فقد فتحوا

إسبانيا والبرتغال وغزوا فرنسا، مستعينين بمعتنقي الإسلام من البربر، ومنطلقين من القواعد التي أسَّسوها في شمال إفريقيا؛ أمَّا في القرن التاسع، فقد غزوا صقلية، وأغاروا على الدولة الرومانيَّة في عقر دارها. ويزعم لويس أنَّ الهجمات المتكرِّرة للمسلمين على أجزاء من أوروبا هي التي دفعت المسيحيِّين إلى تنظيم هجمة مضادَّة، بإطلاق الحملة الصليبيَّة الأولى قبيل نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وإن كانت قد مُنيت بالفشل، وكذا سائر الحملات الصليبيَّة التالية، وانتهت بإجلاء القوَّات الأوروبيَّة المسيحيَّة عن العالم الإسلامي. ومع الانتصارات المؤزَّرة للمسلمين، فقد واجهوا من مسيحيِّي أوروبا بسالة أجبرتهم على الانسحاب من صقلية نهاية القرن الحادي عشر ميلاديًّا، ثمَّ قلَّصت من سلطانهم في إسبانيا، أو الأندلس، تدريجيًّا، إلى أن أُجلوا عنها بالكامل عام ١٤٩٢ ميلاديًّا.

كما يروي لويس، ظلَّ الإسلام على مدار قرون "القوَّة العسكريَّة الأعظم على وجه البسيطة"؛ حيث أنَّ "جيوشه، وفي ذات الوقت، كانت تجتاح أوروبا وإفريقيا، والهند والصين"؛ كان الإسلام "القوَّة الاقتصاديَّة الرائدة على مستوى العالم، بتداول مجموعة واسعة من السلع، من خلال شبكة واسعة الانتشار من التجارة والاتصالات، شملت آسيا وأوروبا وإفريقيا...حقق الإسلام أرقى منجزات آداب الحضارة وفنونها في تاريخ البشريَّة على الإطلاق" (ص٥). يعترف لويس بحُسن استغلال المسلمين لما ورثوه من منجزات علميَّة عن الحضارات السابقة في الأزمنة القديمة، في الشرق الأوسط، وبلاد الإغريق، وفارس، وتطويرهم تلك المنجزات، مضيفًا أنَّ أوروبا في القرون الوسطى كانت بمثابة "التلميذ" و "التابع" للعالم الإسلامي، في أخذ العلوم والآداب (ص٦).

غير أنَّ جذوة تلك الحضارة الباهرة انطفأت، ولم تعد أوروبا تعتمد على ما تستمدُّه من معارف من العالم الإسلامي، حتَّى قبل عصر النهضة-Renaissance Age في القرن الخامس عشر الميلادي؛ بفضل ظهور الحركة الفلسفيَّة المعروفة بـ "التعليم الجديد-New Learning"، التي أعادت قراءة الفلسفات الإغريقيَّة والرومانيَّة القديمة، التي تقوم على التأمُّل والتحرُّر العقلي، ليُعاد تطبيقها في عصر النهضة، وتسفر عن

تطوير العلوم التقنيَّة التي صنعت حضارة الغرب وعظَّمت من ثروته الماديَّة. توقَّفت حركة الترجمة التي أثرت الفكر الإسلامي في السابق، ويسخر لويس من كون الكتاب الوحيد الذي تُرجم منذ بداية عصر النهضة وحتَّى أواخر القرن الثامن عشر، كان كتابًا عن مرض الزُّهري–مرض بكتيري مزمن ينتقل عند الاتصال الجسدي–قُدِّم للسلطان العثماني محمَّد الرَّابع بالتركيَّة عام ١٦٥٥ ميلاديًّا.

يمثِّل القرن الخامس عشر نقطة فارقة في تاريخ المسلمين، حيث شهد تراجُع الوجود الإسلامي في غرب أوروبا وشرقها، ليتزامن ذلك مع ظهور دولة إسلاميَّة جديدة على أطراف أوروبا، شكَّلت تهديدًا كبيرًا لها على مدار قرون. كما سبقت الإشارة، سقطت آخر حصون للمسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢ ميلاديًّا، ليحكم شبه الجزيرة الإيبيريَّة فرناندو الثاني، ملك أراغون، وإيزابيلَّا الأولى، ملكة قشتالة، بعد أو وحَّدا أراضيها، ليدعما أشهر رحلة استكشافيَّة غيَّرت مجرى التاريخ، وهي رحلة الملَّاح الإيطالي، واليهودي الماسوني، كريستوفر كولومبوس، التي أسفرت عن "اكتشاف" الأميركتين. تلقَّى المسلمون في روسيا صفعة مشابهة، حينما أطيح بالحكَّام التتار معتنقي الإسلام؛ فمع اجتياح أستراخان على يد القيصر الروسي إيفان الرهيب عام ١٥٥٦ ميلاديًّا، وصل الروس إلى شواطئ بحر قزوين، وبلغوا في القرن التالي الشاطئ الشمالي للبحر الأسود؛ فبدأت بذلك عمليَّة طويلة من الغزو والاستعمار ضمَّت أراضٍ واسعة من ديار المسلمين إلى روسيا القيصريَّة.

ملاحظات ختاميَّة

لم يغب عن وعي المراقب أنَّ العالم الإسلامي شهد خلال القرن العشرين تراجعًا شديدًا على كافَّة الأصعدة، وبخاصَّة على المستوى الاقتصادي، والسياسي، والمعرفي. في حين كان للعالم الغربي الأسبقيَّة في كافَّة المجالات، ممَّا منحه القدرة على استعمار العالم الإسلامي، منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم. لم تتوقَّف جهود الحداثيِّين من أبناء العالم الإسلامي، منذ بداية التراجع، وتركَّزت جهود هؤلاء على النواحي العسكريَّة، والاقتصاديَّة، والسياسيَّة. غير أنَّ نتائج جهود هؤلاء كانت محبِطة في مجملها؛ حتَّى تزويد الجيوش

بأحدث العتاد العسكري لم يضمن الانتصار، أو يكف أيادي العبث الخارجيَّة. أسفرت مساعي الازدهار الاقتصادي في العالم الإسلامي عن اقتصادات هزيلة وفاسدة، على حدِّ تعبير لويس، وليس للاقتصادات الغنيَّة في العالم الإسلامي سوى مصدر واحد، هو الوقود الأحفوري (ص١٥١). حتَّى ذلك المصدر الأوحد للثروة تولَّى الغرب اكتشافه واستخلاصه، وسهَّل استخدامه؛ الأهم من ذلك أنَّه "مقدَّر له، إن آجلًا أم عاجلًا، أن ينفد أو يُستبدل، ويحتمل استبداله، مع تنامي قلق المجتمع الدولي من استخدام وقود يلوِّث الأرض والبحر والهواء، أينما نُقل أو استُخدم، ويضع الاقتصاد العالمي تحت رحمة زُمرة مستبدِّين تحكمهم الأهواء" (ص١٥١). أمَّا على المستوى السياسي، "فالسعي الطويل من أجل الحريَّة خلَّف مجموعة من الأنظمة الاستبداديَّة المتهالكة، تتراوح بين الأوتوقراطيَّات التقليديَّة والديكتاتوريَّات الجديدة، الحديثة فقط في أجهزة القمع والتلقين" (ص١٥١).

يبدو أنَّ ما توعَّد به لويس عام ٢٠٠٢ ميلاديًّا، عن استغناء الغرب عن النفط الخليجي مستقبلًا في مقابل الاستعانة بمصدر آخر للطَّاقة، أنظف وأسهل في الاستخلاص، بدأ يتحقَّق بعد عقد كامل؛ فقد أعلن الرَّئيس الأمريكي السَّابق، باراك أوباما، في حوار أجرته معه مجلَّة التَّايم الأمريكيَّة (TIME Magazine) في ديسمبر من عام ٢٠١٢ ميلاديًّا، أنَّ بلاده ستشهد في السَّنوات القليلة المقبلة طفرة في إنتاج النفط والغاز الطَّبيعي، بفضل اكتشاف تقنيات جديدة. أضاف أوباما أنَّ إنتاج أمريكا من النفط بحلول عام ٢٠١٧ ميلاديًّا سيتجاوز المملكة العربيَّة السَّعوديَّة، أكبر منتج للنفط الأحفوري في العالم. وقد ذكر الخبير الاقتصادي الصِّيني، منكي لي، في كتابه **Peak Oil, Climate Change, and the Limits to China's Economic Growth–ذروة النفط وتغير المناخ وحدود النمو الاقتصادي في الصين** (٢٠١٤) أنَّ أسعار النفط بلغت ١١٤ دولارًا للبرميل الواحد بحلول عام ٢٠١١ ميلاديًّا (ص٨):

During the first half of the 1980s, the sluggish global economy reduced oil demand and the development of new oil fields increased supply. Real oil prices collapsed. From 1986 to 2003, as the world oil supply expanded steadily from 62 million barrels per day to 80 million barrels per day, real oil prices fluctuated around 30 dollars a barrel.

In 2004, the real oil price rose above 45 dollars a barrel for the first time since 1985. From 2004 to 2008, the real oil price rose by 57 dollars over four years. The oil price shock of 2008 was an important factor that contributed to the deepest global economic recession that had taken place since the Second World War. The real oil price fell back to 66 dollars a barrel in 2009 but surged again as the global economy recovered. By 2011, the real oil price reached 114 dollars a barrel, the highest level on record.

وفق إحصاءات نشرتها موسوعة ويكيبيديا الرَّقميَّة عن مقدار إنتاج النفط لعام ٢٠١٩ ميلاديًّا، بلغ إنتاج النفط الأمريكي ١٥ مليون برميل في اليوم، بزيادة تجاوزت ٣ ملايين برميل عن السَّعوديَّة. أسهم تضاعُف الإنتاج النفطي الأمريكي في السَّنوات القليلة الماضية في تهاوي أسعار النفط في العالم. وفق ما نشره موقع OIL-PRICE.NET، المصدر الأوَّل في تحديد أسعار النفط في العالم، يتراوح سعر برميل النفط في ديسمبر من عام ٢٠١٩ ميلاديًّا، ما بين ٥٨ و٦٥ دولار أمريكي، ممَّا يعني أزمة اقتصاديَّة كبيرة تهدِّد أباطرة النفط في الخليج.

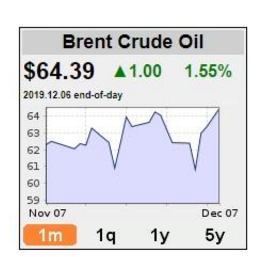


Language:
English

Crude Oil and Commodity Prices

December, Saturday 7 2019 - 05:29:52





التنصُّل من أسباب الفشل بإلقاء اللوم على عدو غادر شيمة المسلمين!

لم يكن من السهل على المسلمين تقبُّل الضعف والفقر، بعد سنوات من القوَّة والثراء، والتبعيَّة للغرب، بعد الريادة والأسبقيَّة. الأسوأ من ذلك أنَّ النصف الثاني من القرن العشرين شهد ظهور قوى جديدة في شرق آسيا، كوَّنت اقتصادات قويَّة بعد تطبيق

معايير الغرب، ويعتبر لويس ذلك "تشجيعًا وإهانةً" أن تسبق اقتصادات اليابان وكوريا الجنوبيَّة وتايوان، وهي دولة صغيرة، العالم الإسلامي مترامي الأطراف (ص١٥٢). يزيد لويس من انتقادات اللاذعة للمسلمين، الذين اتَّهمهم بالتنصُّل من تقصيرهم بإلقاء اللوم على الآخر بأنَّه المتسبِّب في معاناتهم؛ فتارةً يتَّهمون المغول، وتارة الغرب. ولا يجد لويس حرجًا في وصف "الإمبرياليَّة الغربيَّة" وذراعها الاستعمار خلال القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد، بـ "كبش فداء جديد" أسقط عليه المسلمون تأخُّرهم؛ أمَّا عن سبب جرأته في هذا التصريح، فهو اعتباره الاستعمار الغربي مشعل هداية وفَد إلى بلاد المسلمين لإخراجهم من الرجعيَّة إلى المدنيَّة، علاوةً على افتراضه أنَّ التدخُّل الأجنبي نتيجة للضعف الداخلي في العالم الإسلامي، وليس سببًا (ص١٥٣).

يضيف لويس أنَّ أمريكا ورثت عن الاستعمار البريطاني والفرنسي للعالم الإسلامي دور العدو، ولا يجد لذلك تبريرًا، كما يشير إلى أنَّ اليهود، بفضل النمط المتداوَل لهم باعتبارهم أصل كلِّ الشرور، صاروا كذلك شمَّاعة يُسند إليها العجز. وجد العرب في النمط الشائع لليهود بفضل معاداة الساميَّة وسيلة للتهدئة، هروبًا من صدمة هزيمة ٥ دول عربيَّة وجيوشها في حرب فلسطين، عام ١٩٤٨ ميلاديًّا، وعجزها عن منع نصف مليون يهودي من إقامة وطن لهم "على أنقاض الانتداب البريطاني على فلسطين" (ص١٥٤). يشير لويس إلى حقيقة أنَّ اليهود عاشوا في ظلِّ دولة الخلافة الإسلاميَّة، على مرِّ العصور، حياة أفضل مما عاشوه تحت الحُكم الأوروبي المسيحي، متغافلًا عن الإشارة إلى أنَّ اليهود والحركات السريَّة التي يدعمونها أسقطت دولة الخلافة، بما دبَّرته من مكائد، بدءًا من فتنة عبد الله بن سبأ، اليهودي الذي حرَّف صحيح الإسلام إلى ملَّة باطنيَّة، نهاية زمن الخليفة عثمان بن عفَّان (رضي الله عنه وأرضاه)، وحتَّى يهود الدونمة وما حاكوه من مؤامرات خلخلت الدولة العثمانيَّة من أساسها.

وبرغم بغض كثير من الدول الأوروبيَّة لليهود، وتعمُّدها عزلهم في أحياء خاصَّة بهم، بفعل نشرهم الفساد وتعاملهم بالربا وأكلهم الأموال بالباطل، يلعب لويس على وتر اضطهاد اليهود، وما تعرَّضوا له من مآسٍ على يد ألمانيا النازيَّة في ثلاثينات وأربعينات

القرن العشرين، التي يتَّهمها بنشر أكاذيب عن اليهود شكَّلت النمط الشائع في العالم الإسلامي لمعاداة الساميَّة في العصر الحالي. وفي هذا يقول لويس "سهَّل الصراع من أجل فلسطين كثيرًا قبول التفسير المعادي للساميَّة للتاريخ، وأدَّى إلى نوع من إلقاء اللوم على في كلِّ الشرور في الشرق الأوسط، وبالطبع في العالم، على مخطَّطات اليهود السريَّة" (ص١٥٤). يعتبر لويس أنَّ اليهود الذي عاشوا في كنف العالمين الإسلامي والمسيحي، خلال الـ ١٤ قرنًا الماضية، أسهموا في تأسيس حضارتي العالمين، بل وكانوا من بين مكوِّنات الحضارتين. وعند تأسيس إسرائيل، جلب اليهود معهم ما أخذوا عن العالمين الإسلامي والمسيحي.

هل الإسلام هو الأجدر باللوم في تأخُّر العالم الإسلامي؟

يفترض لويس أنَّ هناك عنصرًا داخليًّا، ربَّما يكون الأحرى باللوم في الوضع الحالي للعالم الإسلامي، وهو "**الدين، أو الإسلام على وجه الخصوص**" (ص١٥٦). وهنا يطرح لويس تساؤلًا، وهو كيف يمكن أن يكون الإسلام في العصر الحديث سبب التأخُّر، بينما كان منذ ظهوره في القرن السابع الميلادي، وحتَّى القرن الخامس عشر، صاحب حضارة تعلَّم الغرب المسيحي منها وأخذ عنها مقوِّمات حضارته؟، مشيرًا إلى أنَّ البعض وجدوا أنَّ الأصح من سؤال "ماذا فعل الإسلام للمسلمين؟"، أن يتساءلوا "ماذا فعل المسلمون للإسلام؟"؛ ليجدوا أنَّ اللوم على عاتق "بعض المعلِّمين والعقائد والجماعات" (ص١٥٦). يعتقد مَن يُطلق عليهم أصوليُّون (Islamists or fundamentalists) أنَّ تأخُّر الأمَّة الإسلاميَّة يرجع إلى تطبيق مفاهيم وقيم غريبة، وأنَّ المسلمين "فقدوا عظمتهم السابقة" حينما "بعدوا عن جوهر الإسلام" (ص١٥٦). أمَّا الحداثيُّون أو الإصلاحيُّون (Modernists or reformers)، فيرون أنَّ التأخُّر يكمن في "الإبقاء على الطرق القديمة، وليس التخلِّي عنها"، مشيرين بأصابع الاتِّهام إلى علماء الإسلام المتحجِّرين، **في تمسُّكهم بـ "عقائد وممارسات ربَّما كانت بنَّاءة وتقدُّميَّة قبل ألف عام"** (ص١٥٧).

يعتقد لويس أنَّ التيَّار العلماني، المؤيِّد لفكرة فصل الدِّين عن سياسة الحُكم، يؤسِّس لنظام ديموقراطي يمكنه نشل العالم الإسلامي من العوز، والضعف، والاتِّكال على

الغرب. الأفضل من إلقاء اللوم على عوامل خارجيَّة هو اتِّباع منهج النقد الذاتي، بتجنُّب سؤال "ماذا فعل هذا لنا؟"، واستبداله بـ "أين يكمن خطأنا؟"، الذي يقود إلى السؤال الأهم "كيف يمكننا معالجة الخطأ؟" (ص١٥٨). بدون ذلك، لا ينتظر العالم الإسلامي سوى "دوَّامة من الكراهية والحقد، من الغضب والإشفاق على الذَّات، من الفقر والظلم، **مما يفتح المجال، آجلًا أم عاجلًا، أمام هيمنة أجنبيَّة جديدة؛ ربَّما من أوروبا جديدة تعود إلى طرقها القديمة؛ ربَّما من روسيا النَّاهضة؛ ربَّما من قوَّة خارقة جديدة تتوسَّع في الشرق**" (ص١٥٨). بالتخلِّي عن التظلُّم ولعب دور الضحيَّة، وتسوية الخلافات، وتكاتُف المواهب والطاقات والموارد في سبيل تحقيق هدف مشترك، يمكن للأمَّة استعادة وضعها السابق وتأسيس حضارة جديدة...هكذا يقترح لويس لإنقاذ المسلمين من مصير مأسوي!

مقال مدوَّنة Musings On Iraq عن دور لويس في الدعوة إلى حرب العراق عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا

في يونيو من عام ٢٠١٨، نشرت مدوَّنة **Musings On Iraq** المتخصِّصة في الشأن العراقي، مقالًا مطوَّلًا يتناول سيرة برنارد لويس بعد رحيله. ومن بين ما تناولته فيما يتعلَّق بدور لويس في تشجيع الإدارة الأمريكيَّة على خوض حرب في العراق، ذكرت المدوَّنة أنَّ لجنة السلام والأمن في الخليج أرسلت في فبراير ١٩٩٨ ميلاديًّا، إلى الرئيس الأسبق بيل كلنتون، رسالة دعته فيها إلى الإطاحة بصدَّام حسين ونظامه، من خلال مساندة السياسي العراقي المعارض أحمد الجلبي ومجلس النوَّاب العراقي–المجلس الوطني–في بدء حالة تمرُّد من المفترض انتهاؤها بالإطاحة بنظام حزب البعث. وكان لويس من بين الموقِّعين على الخطاب، إلى جانب لفيف من السياسيين الأمريكيين. أعرب الموقِّعون على الرسالة عن استيائهم من تجاوُز صدَّام حسين حرب الخليج الأولى، عام ١٩٩١ ميلاديًّا، واستمرار نظامه، آملين التدخل الأمريكي للقضاء على ذلك النظام، وإرساء قواعد الديموقراطيَّة في الشرق الأوسط، وتغيير أوضاعه.

أعرب لويس في لقاءات تلفزيونيَّة له في أعقاب أحداث ٩/١١ عن استيائه من عدم خوف المسلمين والعرب من الولايات المتَّحدة، أو احترامهم لها؛ مما كان يستدعي رد بلاده "بعمل عسكري كبير يُظهر قوَّتها". تحدَّث لويس إلى مجلس سياسة الدفاع في البنتاجون بعد أسبوع واحد من الأحداث، قائلًا أنَّ الرد كان ينبغي أن يكون قويًّا؛ كي لا يستضعف المسلمون الولايات المتَّحدة. تحتَّم حينها مساندة أحمد الجلبي، الذي رآه "محدِّثًا". وفي نوفمبر من عام ٢٠٠١، طلب كارل روف-كبير مستشاري جورج دابليو بوش-إلى لويس أن يخبر الرئيس وكونداليزا رايس-مستشارة الأمن القومي وقتها-قولًا موجزًا عن العالم الإسلامي، وفي الشهر ذاته طلب مساعد وزير الدفاع من المعهد الأمريكي للمشاريع إعداد قائمة بالمقترحات لمواجهة ما بعد ١١/٩، وكان لويس عضوًا في هذا الفريق، ورأى أنَّ واشنطن كانت لتواجه صراعًا مع المشرق الإسلامي قد يمتدُّ لجيلين، وربَّما يفلح الإصلاح في العراق في الحدِّ من التحديات المتوقَّعة من الإسلام الأصولي. وتشير المدوَّنة كذلك إلى أنَّ لويس كرَّر محاولات إقناع ديك تشيني-نائب الرئيس الأمريكي حينها-بضرورة غزو العراق؛ لإحداث تغيير ملموس في الشرق الأوسط. لم تكن العراق تمثِّل تهديدًا على الولايات المتَّحدة، لكنَّ لويس كان ينتظر "التفاعل التسلسلي" في المنطقة، الناتج عن غزوها وسقوط صدَّام حسين.

نعي نيويورك تايمز لويس يشير إلى دوره في حرب العراق

في مقال بعنوان **Bernard Lewis, Influential Scholar of Islam, Is Dead at 101-وفاة برنارد لويس، أستاذ الإسلام البارز، عن ١٠١ عام**، تعترف صحيفة نيويورك تايمز الشهيرة بأنَّ برنارد لويس كان له التأثير الأكبر على إدارة جورج دابليو بوش فيما يتعلَّق بحرب العراق. اعتاد لويس إبَّان الحرب عام ٢٠٠٣ ميلاديًّا، على تقديم تقارير موجزة عن أهم التحديَّات التي يشكِّلها الإسلام، معتقدًا أنَّ الحضارة الإسلاميَّة كانت آخذة في الأفول منذ قرون، وأنَّ أسامة بن لادن كان يصبُّ أحقاد المسلمين على الولايات المتَّحدة، بارتكاب جرائم إرهابيَّة على مستوً دولي. وادَّعى لويس في مقال نشرته صحيفة وول ستريت جورنال الأمريكيَّة بعنوان **Time for**

Toppling–وقت الإطاحة في ٢٧ سبتمبر من عام ٢٠٠٢ ميلاديًّا، أنَّ العراقيين "سيفرحون" بالغزو الأمريكي لبلادهم.

THE WALL STREET JOURNAL.

Home World U.S. Politics Economy Business Tech Markets Opinion Life & Arts Real Estate

Time for Toppling

By Bernard Lewis
Updated Sept. 27, 2002 12:01 am ET

Among the many arguments that have been adduced for not taking action against the present regime in Iraq, two have received special emphasis. The first is that the governments and peoples of the Middle East attach far greater importance to the Arab-Israeli conflict than to Iraq or any other problem in the region, and that therefore one should begin by solving that. The second is that even a successful attempt at regime change in Iraq would have a dangerous destabilizing effect on the rest of the region, and could lead to general conflict and chaos.

THE WALL STREET JOURNAL.

Home World U.S. Politics Economy Business Tech Markets Opinion Life & Arts

The fear of destabilization is both genuine and serious, and it is easy to understand the anxiety provoked in the regimes of the Middle East by the prospect of a regime change in Iraq. The crucial question here is not how or by whom Saddam is removed, but what comes in his place. The clear preference of some influential groups in this country and elsewhere is for his replacement to be a kinder and gentler tyrant, who would be amenable to our interests and requirements, while avoiding the hazards of regime change. This would certainly be the preference of our so-called allies in the region, most of whom would feel mortally threatened by the emergence of anything like a democratic regime in Iraq.

But why should we feel threatened by such a change? The overwhelming evidence is that the majority of our terrorist enemies come from purportedly friendly countries, and their main grievance against us is that, in their eyes, we are responsible for maintaining the tyrannical regimes that rule over them -- an accusation that has, to say the very least, some plausibility. Apart from Turkey and Israel, the two countries in the region where the governments are elected and can be dismissed by the people, most of the countries of the Middle East can be divided into two groups: those with what we are pleased to call friendly governments, and therefore increasingly hostile people who hold us responsible for the oppression and depredations of those governments, and, on the other hand, those with bitterly hostile governments, whose people consequently look to us for help and liberation.

أشار لويس في مقاله **وقت الإطاحة** إلى أنَّ من بين أهم الأسباب التي تثني الإدارة الأمريكيَّة عن اتخاذ موقف من النظام العراقي التركيز على الصراع العربي الإسرائيلي، والخوف من زعزعة الاستقرار في الشرق الأوسط بعد شنِّ هجوم على العراق، مما قد يسفر عن صراع عام وفوضى. أشار لويس إلى تخوُّف الإدارة الأمريكيَّة من حدوث فراغ

سياسي بعد رحيل صدَّام، مما ينذر بفوضى واضطرابات، قد تؤثِّر على مصالح بلاده في المنطقة. تتلخَّص المسألة في وجود أدلة على أنَّ الإرهابيين يخرجون عادةً من الدول التي تعاني من بطش حُكَّامها، وتصبُّ غضبها على الولايات المتَّحدة، باعتبارها المسؤولة عن دعم هؤلاء الحكَّام. تقيِّد اليد الباطشة لطغاة العالم الإسلامي نشاطات المتطرِّفين في بلادهم، مما ينذر بانفلات أمني واسع في حال سقوط هؤلاء الحكَّام. ورأى لويس أنَّ هناك علاقة بين تغيير النظام في العراق وحلِّ الصراع العربي الإسرائيلي؛ لأنَّ نشر الديموقراطيَّة في الشرق الأوسط من شأنه إحلال السلام، بينما لا تسفر الديكتاتوريَّة إلَّا عن الصراعات والحروب.

https://www.middleeasteye.net/columns/bernard-lewis-neocons-high-priest-war-and-bloodshed-middle-east

A racist approach

Lewis's influence continues to this day. US Secretary of State and former CIA boss Mike Pompeo declared on 20 May: "I owe a great deal of my understanding of the Middle East to his work." Regime change in Iran was one of Bernard Lewis's political projects and, inspired by his intellectual hero, Pompeo may be about to have a go at achieving it.

We have been here before. Lewis was the moral leader of the small group of intellectuals who argued for the Iraq invasion of 2003. Within days of the attacks on the World Trade Centre, he was agitating for the downfall of Saddam Hussein, expressing opinions which delighted the neoconservatives pressing for military action in the Middle East.

He later deceitfully claimed that he had been against the Iraq invasion. This is rubbish. He was directly involved. Even before 9/11 he'd pressed for regime change in Iraq, and after the attack he seized his chance. Lewis was there when the Pentagon's Defense Policy Board held its notorious meeting to consider military action against Iraq at the end of September 2001.

> Lewis's mistake over Iraq was just one manifestation of a hideous world view which included a nakedly racist approach to the Middle East

Lewis told the board that the United States should support so-called democratic reformers in the Middle East, "such as my friend here, Ahmed Chalabi". As one of the world's leading experts on Islam, Bernard Lewis had no excuse for falling for Chalabi, the charlatan who led the Iraqi National Congress.

Yet he did - hook line and sinker - with terrible consequences that the Middle East lives with to this day.

في نعي نشره موقع ميدل إيست آي في ٢١ مايو من عام ٢٠١٨ ميلاديًّا بعنوان **Do not weep for Bernard Lewis, high priest of war in the Middle East–لا تبكوا على برنارد لويس، كاهن حرب الشرق الأوسط الأعظم**، ذُكرت قيادة لويس لفريق من المنظِّرين الذين أيَّدوا الحرب على العراق عام ٢٠٠٣، وقد بدأت نداءاته للإطاحة بنظام صدَّام حسين منذ تفجير برجي التجارة؛ على اعتبار أنَّ الأنظمة الديكتاتوريَّة في الشرق الأوسط هي المصدِّر الأساسي للإرهابيين. ويؤكِّد هذا المقال ما

سبق وأن أكَّدته مدوَّنة **Musings On Iraq** عن دعوته إلى الإطاحة بصدَّام ونظامه حتَّى قبل أحداث ٩/١١ في عام ٢٠٠١، وإلى حضوره اجتماع مجلس سياسة الدفاع في البنتاجون لمناقشة إمكانيَّة إجراء عمل عسكري في العراق في سبتمبر من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا.

ويؤكِّد مقال نشره موقع جلوب أند ميل يوم ٢٦ من مايو ٢٠١٨، بعنوان **Middle east expert Bernard Lewis wrote about 'clash of civilizations'–خبير الشرق الأوسط برنارد لويس كتب عن "صراع الحضارات"**، أنَّ لويس كان المنظِّر الأبرز لحرب العراق عام ٢٠٠٣، وقد عبَّر عن مبررات دعواه إلى تلك الحرب في مقال وول ستريت جورنال آنف الذكر، إلَّا أنَّه عاد وأنكر ذلك، ووصف اعتباره بأنَّ صاحب فكرة حرب العراق محض "هراء". وسبق هذا المقال ببضعة أيام مقالٌ نُشر في صحيفة هآرتس الإسرائيليَّة بعنوان **From Netanyahu to Leftists, Praise and Scorn for Late Middle East Scholar Bernard Lewis–من نتنياهو إلى اليساريين، المدح والذم تجاه خبير الشرق الأوسط الراحل برنارد لويس**، حيث قال أنَّ لويس يعتبر الرأس المدبِّر للحرب، لكنَّه نفى تأييده الحرب لاحقًا.

https://www.haaretz.com/middle-east-news/praise-and-scorn-for-late-middle-east-scholar-bernard-lewis-1.6104535

> Some have blamed him for providing intellectual justification for the United States' decision to go war with Iraq after 9/11. He later said he did not support the war.

"جذور الغضب الإسلامي" من منظور برنارد لويس

نُشر مقال The Roots of Muslim Rage–جذور الغضب الإسلامي في سبتمبر ١٩٩٠ ميلاديًّا، عبر مجلة ذا أتلانتيك الأمريكيَّة، المعنيَّة بالنشر في مجالات الأدب والثقافة والتعليم. يطرح المقال سؤالًا هامًّا، هو بمثابة عنوان فرعي للمقال: ما سرُّ الكره العميق لدى الكثير من المسلمين تجاه الغرب؟ ولماذا لن يهدأ سخطهم بسهولة؟ يعترف لويس في بداية مقاله أنَّ الإسلام من أعظم الديانات التي يعتنقها المؤمنون في العالم،

وأنَّه جاء بالراحة والطمأنينة للعديد من الناس، وأنَّه منح المكانة والقيمة للكثير من المهمَّشين من المسلمين الأوائل، وأنَّه شجَّع معتنقيه على التآخي والتكاتف، مما أثمر عن حضارة عظيمة سادت العالم لقرون. مع ذلك، فقد بثَّ الإسلام في نفوس معتنقيه، وفق تعبيره، بعض الكراهية والنزوع إلى العنف. ومن سوء حظ الحضارة الغربيَّة أنَّ مشاعر الكراهية التي نشأت لدى المسلمين موجَّهة في معظمها، وليس كلِّها، تجاه الغرب (ص٤٨).

THE ATLANTIC MONTHLY

Why so many Muslims deeply resent the West, and why their bitterness will not easily be mollified

THE ROOTS OF MUSLIM RAGE

BY BERNARD LEWIS

يدعو لويس إلى عدم المبالغة في وصف مشاعر الكراهية لدى المسلمين تجاه الغرب، ملفتًا إلى أنَّ تلك الكراهية ليست عامَّة، وأنَّ العدائيَّة لا تمثِّل شعورًا عامًّا بين المسلمين في العالم الثالث. يعترف لويس بأنَّ أمريكا حتَّى ذلك الحين لم تلاقِ أبدًا المتاعب والمشكلات التي واجهتها في أماكن أخرى من العالم، مثل جنوب شرق آسيا أو أمريكا الوسطى؛ مع ذلك، فلهجة التعبير عن الكراهية المعلن عنها في ليبيا وإيران ولبنان تنذر بمواجهات غير مُحبَّبة. ومن نماذج تلك اللهجة وصْف الغرب بأنَّهم "أعداء الله"، على اعتبار أنَّ المسلمين يحاربون في سبيل إعلاء كلمة الله، وبالتالي يكون عدوُّهم "عدو الله". ولا يعتبر لويس فكرة "أعداء الله" غريبة؛ حيث وردت في الكتاب المقدَّس، وفي القرآن الكريم، وإن كانت تتجلَّى أكثر شيء في الزرادشتيَّة، التي تعتبر أنَّ هناك قوَّة شرٍّ يجسِّدها إله مستقل، لا يخضع لسلطان إله الخير والعدل، بل يعمل ضدَّه.

يعلِّق لويس على الجانب السياسي في حياة النبي مُحمَّد (ﷺ) مدَّعيًا أنَّ الصراع بين الخير والشرِّ، الذي تدور حوله عقيدة الدين، اتَّخذ جانبًا سياسيًّا. يعتقد لويس أنَّ القرآن الكريم يدور حول صراع بين إطاعة الله واتِّباع إغواء الشيطان، وهو صراع وضعه الله

تعالى ليختبر البشر، ونتيجة محسومة من قبل. وبما أنَّ الشيطان عدوٌّ لله، فمحاربته في سبيل الله؛ وبما أنَّ المحاربة في سبيل الله، **فالخصم دائمًا هو عدوٌّ لله، ومهمَّة المسلم هي إرسال أعداء الله إلى حيث سيتلقَّون العقاب المناسب من الله على ما اقترفوه.** ويعتبر لويس هذا النموذج لتقسيم البشر هو أساس معتقد الإسلام بأنَّ الناس إمَّا مؤمنين أو كافرين؛ وأنَّ ما يجمع المسلمين هو دار الإسلام، وما يجمع غيرهم من الناس هو دار الكفر، أو دار الحرب، الذي يُأمر المسلم–على حدِّ قول لويس–بضمِّه إلى دار الإسلام. وقد تبلور هذا الشعور بالسمو على الآخرين في أوج الحضارة الإسلاميَّة، حينما رأى المسلمون أنفسهم مركز العلوم والتنوير، المحاط بعالم من الوحشيَّة من المفترض تهذيبه وهدايته إلى الإسلام.

اشتعل الصراع بين الإسلام والمسيحيَّة، الديانة صاحبة العدد الأكبر من الأتباع على الإطلاق، منذ ظهور الإسلام قبل ١٤ قرنًا؛ لكنَّ الكرَّة انقلبت على المسلمين في القرون الأربعة الأخيرة، بعد سلسلة من الحروب والحملات الجهاديَّة/الصليبيَّة. ويرى لويس أنَّ مشروعيَّة الحروب الصليبيَّة في القرون الوسطى تنبع من رغبة المسيحيِّين في إعادة الشام وشمال إفريقيا إلى الحاضنة المسيحيَّة، لكنَّ المساعي أُحبطت على يد المسلمين، الذي أُحبطت مساعيهم هم الآخرين لنشر الإسلام في الغرب، التي عجز المسلمون عن الوصول فيه إلى ما بعد أسوار فيينا غربًا، وجبال البرانس في جنوب فرنسا شمالًا. ونتج عن هذا العجز، وفق اعتقاد لويس، حقد شديد على الغرب الذي لم يستعصَ على الفتح فحسب، إنَّما سلبهم كذلك السيطرة على مصائرهم في دار الإسلام بفرض هيمنة مُذلَّة. برغم أنَّ اكتشاف أوروبا شارك فيه العديد من المنتمين إلى الأعراق غير الأوروبيَّة، فقد كان للأوروبيِّين السَّبق في فرض السيطرة، ونشر الثقافة واللغة، وفرض الديانات السائدة في بلادهم. ويشير لويس إلى أنَّ بعض المهاجرين الأوائل إلى الولايات المتَّحدة كانوا من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وإن كان غالبيَّتهم من المسيحيِّين، ومن بينهم قلَّة من اليهود. ومن المفترض أن يكون ذلك قد أعلى من مكانة الولايات المتَّحدة في أعين المسلمين، ولم يُقل من مكانتها. كان اتصال الشرق بأمريكا محدودًا في الماضي، لكنَّ

الحرب العالميَّة الثانية والتطوُّرات اللاحقة لها، وكذلك الصناعات النفطيَّة، أجبرت الطرفين على الاجتماع، وخلقت سببًا مباشرًا للتواصل. كانت أمريكا بالنسبة إلى البعض تمثِّل "الحريَّة والعدالة والفرص"، بينما رآها البعض الآخر مصدر "الثروة والقوَّة والنجاح"؛ غير أنَّ هذه النظرة لأمريكا اختلفت حينما بدأ الصحوة الإسلاميَّة تصف أعداء المسلمين بأنَّهم "أعداء الله". حينها، على حدِّ وصف لويس، أصبحت أمريكا "ألد الأعداء، وتجسيد للشر، والعدو الشرير لكلِّ ما هو خير، وبخاصَّة للإسلام والمسلمين"؛ وهنا يتساءل الكاتب "لماذا؟" (ص٥٠-٥١).

يتساءل لويس عن أسباب كراهية الشرق المسلم للولايات المتَّحدة، برغم عدم وجود سياسات أو تصرفات فرديَّة لأي حكومة غربيَّة ربَّما أثارت استياء المسلمين. يتعجَّب لويس من سبب الكراهية، برغم خروج الاستعمار الأوروبي من دار الإسلام، وتوقُّف السيطرة على حقول النفط في إيران، واختفاء إمبراطورها الموالي للغرب والناشر لمفاهيمه. غير أنَّ الكاتب يجد سببًا وجيهًا لهذه الكراهية، وهي مساندة الولايات المتَّحدة لإسرائيل منذ نشأتها، وإلى اليوم. وبرغم أنَّ الاتحاد السوفييتي كان أسبق من الولايات المتَّحدة في الاعتراف بإسرائيل، ومن أوائل داعميها بالسلاح، فلم تتكوَّن ضدَّه مشاعر كراهية مثل التي يبديها المسلمون تجاه الولايات المتَّحدة. ويشير لويس إلى مواقف إيجابيَّة للولايات المتَّحدة تجاه العرب، من بينها إجبارها إسرائيل على الانسحاب من سيناء عام ١٩٥٦ ميلاديًّا.

يضيف لويس أنَّ مشاعر الكراهية والعداء تجاه الولايات المتَّحدة لم تعد تقتصر على المسلمين، بل امتدَّت إلى أمم أخرى. وتتضمن قائمة الاتهامات الموجَّهة لأمريكا التفرقة على أساس النوع والعرق، والإمبرياليَّة، وإضفاء الطابع المؤسسي للأبويَّة والعبوديَّة، والغطرسة، والاستغلال. يرى لويس أنَّ هذه الاتهامات لا تختصُّ بها أمريكا دون غيرها من القوى الغربيَّة، بل يرى–على العكس من ذلك–**أنَّ أمريكا كانت أقل إضرارًا للعالم الإسلامي من غيرها**. ويجري المستشرق، الموصوف بأشدِّ المستشرقين عداوةً للإسلام، مقارنةً بين موقف القوتين الإمبرياليتين، الاتحاد السوفييتي والولايات المتَّحدة، من

المسلمين، ساعيًا إلى إثبات أنَّ أمريكا كانت دائمًا أقل إثارةً لمشاعر المسلمين ضدَّها من غيرها، نافيًا أن تكون النشاطات الاستعماريَّة الأمريكيَّة في العالم الإسلامي سبب الكراهية.

> At first the Muslim response to Western civilization was one of admiration and emulation—an immense respect for the achievements of the West, and a desire to imitate and adopt them. This desire arose from a keen and growing awareness of the weakness, poverty, and
>
> backwardness of the Islamic world as compared with the advancing West. The disparity first became apparent on the battlefield but soon spread to other areas of human activity. Muslim writers observed and described the wealth and power of the West, its science and technology, its manufactures, and its forms of government. For a time the secret of Western success was seen to lie in two achievements: economic advancement and especially industry; political institutions and especially freedom. Several generations of reformers and modernizers tried to adapt these and introduce them to their own countries, in the hope that they would thereby be able to achieve equality with the West and perhaps restore their lost superiority.

لا يجد لويس سببًا للكراهية ضد بلاده أهم **من شعور النقص والعجز أمام حضارة الولايات المتَّحدة، بعد اطِّلاع المسلمين عليها من خلال وسائل الإعلام المرئيَّة. بدأت مشاعر المسلمين تجاه الغرب بالإعجاب، لكن ما لبث أن تحوَّل الأمر إلى شعور بالحقد والكراهية، نتج عن إدراك حالة الرفاهية التي يعيشها الغرب، مقارنةً بالضعف، والفقر والتخلُّف في العالم الإسلامي (ص٥٦-٥٧).**

وكان المفكِّرون المسلمون من دعاة الحداثة من أكثر من كَتَب عن الفرق المادِّي الشاسع بين الشرق والغرب، وعن مدى تفوُّق الغرب العلمي، وبخاصَّة في مجال التقنيات الحديثة. واعتقادًا أنَّ سرَّ التقدُّم الأمريكي والنهضة واسعة النطاق يكمنان في التقدُّم الاقتصادي-بخاصَّة في الصناعة-واتِّباع نظام المؤسسات السياسيَّة، مما ضمن نشر الحريَّات، سعى دعاة التحديث إلى اتِّباع النهج الغربي وتطبيق وسائل نهضته، ولكن عبثًا أُجريت المحاولات. فالنمو الاقتصادي الناتج عن استخدام آليَّات غربيَّة في

الاستثمار وتشجيع الاستثمار الأجنبي في بلاد المسلمين لم يستفد منه سوى فئة محدودة من المنتفعين، بينما ظلَّ الباقون على حالهم. أمَّا تطبيق السياسات الغربيَّة وإتاحة الحريَّات، فقد أساءت السلطة استغلال ذلك بفرض مزيد من السياسات القمعيَّة. وفي وسط هذا المشهد، ظهرت أصوات تنادي بنبذ الطرق الغربيَّة الحداثيَّة، والعودة إلى صحيح الإسلام من خلال "التخلي عن ابتكارات الإصلاحيين الوثنيَّة والعودة إلى سبيل الله، الذي حدَّده لعباده" (ص٥٧). من هنا، تركَّز صراع "الأصوليين" على خصمين أساسيين، هما "العلمانيَّة والمدنيَّة".

يحارب أعداء التغريب العلمانيَّة علانيةً، باعتبارها نموذجًا جديدًا للوثنيَّة، وينسبون نشرها إلى الغرب، ويعتبرونها من تدابير اليهود ضد المسلمين. أمَّا الحرب على المدنيَّة، فلا تعد معلنة ولا تعتبر خفيَّة، وهي موجَّهة إلى عمليَّة التغيير التي جرت في العالم الإسلامي في القرنين الماضيين، وتغيَّرت العديد من المفاهيم والأسس، على المستويات السياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، بل والثقافيَّة. أشعل الإسلاميُّون الأصوليُّون حالة العداء ضدَّ الغرب الناشر للعلمانيَّة والمدنيَّة، باعتباره متَّهمًا بالإقلال من شأن قيم المسلمين وولاءاتهم، وبالنيل من معتقداتهم وتطلُّعاتهم، بل ومن أقواتهم إلى درجة ما. ومع هذه النظرة العدائيَّة تجاه الغرب، توجد تيَّارات إسلاميَّة أقل عداوةً، أسهمت في السابق في تحقيق إنجازات حضاريَّة.

يلفت لويس إلى ضرورة اتِّخاذ التدابير اللازمة لتجنُّب أيَّة مواجهات حربيَّة على أساس ديني، مما يستدعي إبداء الاحترام تجاه المعتقدات الدينيَّة والاتجاهات للأمم الأخرى، من خلال دراسة تاريخها، وأدبها، ومنجزاتها. ويضرب لويس المثل في الانفتاح الأمريكي على أصحاب الديانات الأخرى، وإتاحتها الحريَّة الدينيَّة بما ذكره الرئيس الأسبق جون تايلر في خطاب له ألقاه في ١٠ يوليو من عام ١٨٤٣ ميلاديًّا، جاء فيه تأكيد الإدارة الأمريكيَّة على الفصل بين الدين والسياسة، وضمان حريَّة ممارسة الطقوس الدينيَّة لكلِّ فرد في الولايات المتَّحدة؛ ينعم "المحمِّداني" بحق ممارسة شعائره وفق ما جاء في القرآن؛ ومن حق الهندوسي أن يُبنى له معبدًا لعبادة إلهه براهمن، كما يحق للعبراني ممارسة

طقوسه بحريَّة، بعيدًا عن الملاحقات والمخاوف. وكانت آخر رسائل تايلر في خطابه "ينبغي أن يتحرَّر العقل، مثل النور، أو الهواء" (ص٦٠).

THE MOVEMENT NOWADAYS CALLED FUNDAMENTALISM is not the only Islamic tradition. There are others, more tolerant, more open, that helped to inspire the great achievements of Islamic civilization in the past, and we may hope that these other traditions will in time prevail. But before this issue is decided there will be a hard struggle, in which we of the West can do little or nothing. Even the attempt might do harm, for these are issues that Muslims must decide among themselves. And in the meantime we must take great care on all sides to avoid the danger of a new era of religious wars, arising from the exacerbation of differences and the revival of ancient prejudices.

To this end we must strive to achieve a better appreciation of other religious and political cultures, through the study of their history, their literature, and their achievements. At the same time, we may hope that they will try to achieve a better understanding of ours, and especially that they will understand and respect, even if they do not choose to adopt for themselves, our Western perception of the proper relationship between religion and politics.

مقال ناري آخر: ترخيص بالقتل: إعلان بن لادن الجهاد (١٩٩٨)

نشر برنارد لويس هذا المقال عبر مجلَّة الشؤون الخارجيَّة–Foreign Affairs، الصادرة عن مجلس العلاقات الخارجيَّة الأمريكي، في عددها ٧٧، الصادر في نوفمبر/ديسمبر عام ١٩٩٨ ميلاديًّا، تعليقًا على مقال نشرته جريدة القدس العربي، الصادرة بالعربيَّة من لندن، تناولت فيه فتوى أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، الصادرة بعنوان "الجبهة الإسلاميَّة العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيِّين"، في ٢٣ فبراير من عام ١٩٩٨ ميلاديًّا، والتي تضمن تحريض صريح بقتل الأمريكيِّين حيث وُجدوا بما فيهم المدنيِّين. يبرِّر بن لادن تحريضه على "قتل الاميركيِّين ونهب أموالهم" بأنَّ هؤلاء احتلُّوا ديار المسلمين بصورة غير مباشرة؛ ليخدموا مساعي "دويلة اليهود".

FOREIGN AFFAIRS LICENSE TO KILL: USAMA BIN LADIN'S DECLARATION OF JIHAD
Bernard Lewis

License to Kill: Usama bin Ladin's Declaration of Jihad

By Bernard Lewis

On February 23, 1998, Al-Quds al-Arabi, an Arabic newspaper published in London, printed the full text of a "Declaration of the World Islamic Front for Jihad against the Jews and the Crusaders." According to the paper, the statement was faxed to them under the signatures of Usama bin Ladin, the Saudi financier blamed by the United States for masterminding the August bombings of its embassies in East Africa, and the leaders of militant Islamist groups in Egypt, Pakistan, and Bangladesh. The statement -- a magnificent piece of eloquent, at times even poetic Arabic prose -- reveals a version of history that most Westerners will find unfamiliar. Bin Ladin's grievances are not quite what many would expect.

يقول البيان التأسيسي للجبهة العالميَّة لمحاربة الأمريكيِّين، كما نشرته جريدة الحياة السعوديَّة، الصادرة من لندن، بتاريخ ١٠ مارس من عام ١٩٩٨ "كل تلك الجرائم والبوائق هي من الأمريكان إعلان صريح للحرب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد أجمع العلماء سلفًا وخلفًا عبر جميع العصور على **إنَّ الجهاد فرض عين إذا داهم العدو بلاد المسلمين** ... ونحن بناء على ذلك وامتثالًا لأمر الله تعالى نفتي جميع المسلمين بالحكم التالي: **إنَّ حكم قتل الأمريكان وحلفائهم، مدنيِّين وعسكريِّين، فرض عين على كل مسلم** أمكنه ذلك في كل بلد تيسَّر فيه ذلك حتى يتحرر المسجد الأقصى من قبضتهم وحتى تخرج جيوشهم من كل أرض الإسلام...إنَّنا باسم الله ندعو كل مسلم يؤمن بالله ويرغب في ثوابه الى امتثال أمر الله بقتل الأمريكان ونهب أموالهم في أي مكان وجدهم فيه وكل وقت أمكنه ذلك". بمنتهى الوضوح، يدعو البيان إلى قتل "جنود إبليس من الأمريكان" حيثما وُجدوا في أراضي المسلمين، معتبرًا ذلك خطوة هامَّة في طريق "تحرير المسجد الأقصى". يستند بن لادن في دعواه إلى قتال الأمريكان إلى: ١- نهب أموال النفط في الخليج العربي، وبخاصة المملكة العربيَّة السعوديَّة، حيث وُلد ونشأ؛ و٢-حصار العراق ونهب نفطه من خلال تحالُف صليبي-صهيوني، تسبَّب في قتل مئات الآلاف؛ و٣-تعمُّد إلهاء المسلمين بمشكلاتهم الداخليَّة للانشغال عن نُصرة قضيَّة فلسطين، ولتمزيق العالم الإسلامي وتفتيته إلى دويلات.

بالطبع، وبلا شكَّ، فإنَّ فيما يحرِّض عليه البيان إشاعة للفوضى، وتهديد للأمن العام، وإفساح للمجال لمواجهات دوليَّة غير محسوبة العواقب، وكذلك تحريض ضمني على الاقتصاص من المسلمين، مدنيِّين وعسكريِّين، بإعمال القتل في رعايا البلدان الأجنبيَّة، وحتَّى لو صحَّ ادِّعاء بن لادن باستباحة هؤلاء أموال المسلمين؛ وحتَّى لو أنَّ هؤلاء تحرِّكهم عقائد دينيَّة متشدِّدة، تدعو إلى التوسُّع على حساب أراضي الغير وحقوقه، وتُعلي من قدر فئة بشريَّة على غيرها بما لم يحكم به الله، وتزدري الآخر في نفسها، وإن ادَّعت احترامها لتاريخه وإنسانيَّته، وإن كان هدفها الأساسي محو هويَّته الدينيَّة لكي يصبح تابعًا لها. لا يمكن الجدال في صحَّة اختيار برنارد لويس في عنوان مقاله عبارة

"ترخيص بالقتل"؛ لمضمونها الهادف إلى التنديد بالقتل الجماعي لأبرياء على يد جماعات متطرِّفة، تستهدف إخضاع العالم لسلطانها، وتستند في ذلك إلى نبوءات دينيَّة، الله وحده يعلم مدى صحَّتها.

يبدأ لويس تحليله الإعلان المشار إليه بالتعليق على تصنيف بن لادن الأمريكان باعتبارهم "جنود إبليس"، و"أعداء الله"، مشيرًا إلى أنَّ هذا يعود في الأصل إلى اعتبار المسلمين أنَّ حربهم "في سبيل الله"، وبالتالي فإنَّ عدوهم عدو الله، كما فُصِّل في مقال "جذور الغضب الإسلامي". يعتبر بن لادن، وفق رأي لويس، أنَّ "المؤمن" يظنُّ نفسه دائمًا المُصح، ويرى "الكافر" دائمًا المخطئ، كما يعتبر أنَّ حرب الخليج الأولى عام ١٩٩٠ ميلاديًّا، عدوانًا أمريكيًّا على العراق، وهذا ما يشكِّك فيه لويس، ويراه رأيًا معيبًا يشكِّل الرأي العام المسلم تجاه الحرب. يتطرَّق لويس بعد ذلك إلى إشارة بن لادن إلى ثلاث بلدان عربيَّة طالتها أيادي التخريب والعبث الغربي–كما رأى بن لادن–وهي جزيرة العرب، والعراق، وفلسطين (يشير إليها لويس باسم أورشليم)؛ وبالطبع جزيرة العرب–أرض الحرمين ومهد الإسلام–هي الأهم بين البلدان الثلاث.

ويلفت لويس الانتباه إلى مسألة أمر النبي مُحمَّد بإخراج غير المسلمين من دار الإسلام في جزيرة العرب، في حديثه الذي أخرجه الإمام مالك في **الموطَّأ** "لا يجتمع في جزيرة العرب دينان"، ورواه البخاري (٣١٦٨) ومسلم (١٦٣٧)، ويتَّفق معه حديث رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب–رضي الله عنه–وأخرجه مسلم (١٧٦٧)، يقول فيه: قال رسول الله (ﷺ) "لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا". وامتثالًا لأمر النبي، عمل الخليفة الثاني عمر على إخراج اليهود من خيبر–شمال جزيرة العرب–والنصارى من نجران–جنوب الجزيرة–بقرار أصدره عام ٦٤١ ميلاديًّا، ما يوافق عام ٢٠ هجريًّا. يصف لويس اليهود والنصارى هؤلاء بأنَّهم شكَّلوا مجتمعات "عتيقة ومتأصِّلة، وعربيَّة اللسان والثقافة وأسلوب الحياة، ولا تختلف عن جيرانها في أسلوب الحياة". ويرى لويس في إخراج عمر بن الخطَّاب غير المسلمين من جزيرة العرب "محدودًا ورحيمًا"، على عكس محاكم التفتيش في إسبانيا بعد سقوط دولة المسلمين، وما

فعلته من إجبار لغير المسيحيِّين على التنصُّر، وإلَّا استباحت قتله. غير أنَّ قرار عمر بن الخطاب نهائي وغير قابل للرجعة، ومنذ ذلك الحين، أصبحت جزيرة العرب محرَّمة على غير المسلمين. وليس من المسموح لغير المسلمين في جزيرة العرب بممارسة طقوسهم الدينيَّة علنًا، أو إقامة دور عبادة لهم، وفق ما قاله لويس في المقال المنشور قبل ٢٠ عامًا.

يستشهد لويس بحُسن معاملة صلاح الدين الأيُّوبي للأسرى بعد انتصاره في معركة حطِّين، بل ويعترف المستشرق الشهير بمبرِّر صلاح الدين القوي لشنِّ حربه على الصليبيِّين، وهو هجوم أمير الكرك، أرناط، أو رينالد من شاتيون، على قوافل الحجَّاج المسلمين، ونهبها، برغم عقده هدنةً مع صلاح الدين قبلها بعام، أي في ١١٨٦ ميلاديًّا. ويدَّعي لويس أنَّ المسلمين ربَّما فقدوا اهتمامهم بأورشليم/الأرض المقدَّسة بعد نجاح الحملة الجهاديَّة لصلاح الدين الأيُّوبي؛ فقد تنازل عنها السلطان الكامل الأيّوبي للإمبراطور الروماني فريدريك الثاني عام ١٢٢٩ ميلاديًّا، خلال الحملة الصليبيَّة السادسة، فيما يُعرف بـ "اتفاقيَّة يافا"، التي نصَّت على أن يبقى المسجد الأقصى بكافَّة مصلياته في أيدي المسلمين، وأن يدير قرى بيت المقدس والٍ مسلم. غير أنَّ السيطرة الصليبيَّة انتهت عام ١٢٤٤ ميلاديًّا، بعدما نُقضت الاتفاقيَّة.

أجبر اكتشاف النفط في جزيرة العرب، أوائل القرن العشرين، الغرب على تكرار زيارة تلك المنطقة، وكان ميناء جدَّة، الواقع على البحر الأحمر، منطقة محظورة على الوافدين الأجانب. وأصبحت الجانب الشرقي للجزيرة هو أكثر المناطق التي شهدًا توغُّلًا غربيًّا، ما اعتُبر شكلًا من "تدنيس الأماكن المقدَّسة"، وأشعل فتيل الامتعاض. ويسخر لويس من اعتبار تدخُّل الجيش الأمريكي لحماية السعوديَّة والكويت من غزو صدَّام حسين، خلال حرب الخليج الأولى، تدنيسًا لأرض الحرمين من قِبل "كفَّار".

يختتم لويس مقاله باعتبار ما قاله بن لادن "تحريفًا" لصحيح دعوة الإسلام، وأنَّ في فتواه ضدَّ الأمريكان في جزيرة العرب فيها تعدٍّ على حالة السلم والأمن العام. يرى لويس أنَّ بعضًا من المسلمين قد يرضى عن بيان بن لادن، وقد تطبِّقه قلَّة منهم، وهو ما يستدعي

اتِّخاذ الولايات المتَّحدة الوسائل الفعَّالة لحماية نفسها، "**أيَّما كانت**"، وإن كان الأهم من ذلك تحديد دوافع الإرهاب وفهم أسباب التطرُّف؛ لأنَّ في ذلك سبيل لمعالجة المشكلة من جذورها. يبيح لويس بذلك لبلاده اتِّباع النهج الذي تراه مناسبًا للقضاء على الإرهاب، مهما كلَّف...

أخيرًا، نودُّ التعليق بأنَّه لا يعني وجود عقيدة إسلاميَّة تنصُّ على الجهاد في سبيل الله تكدير السلم بارتكاب جريمة القتل في خارج إطار إعلان الحرب، والصحيح هو الاتفاق السلمي لاستعادة حقوق من اغتُصبت حقوقهم، وضمان سلامة المعتدي، بعد أخذ الحقوق منه، بما يرضي الله تعالى ويتَّفق مع شريعته. غير أنَّ الأهم هو شرعيَّة المطالبة بالحقوق المهضومة؛ فلا أحد فوَّض أسامة بن لادن ولا أيمن الظواهري للمطالبة بحقوق المسلمين، والمسلمون أولى بالتعبير عمَّا يُسخطهم.

أشهر ما كتب لويس للطَّعن في الإسلام: أزمة الإسلام: الحرب الأقدس والإرهاب المدنَّس (٢٠٠٣)

يتناول هذا القسم من المقال ترجمة حازم مالك مُحسن لكتاب **Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror (2003)**، الذي يعدُّ من أكثر كتب لويس تعبيرًا عن نظرته الدونيَّة للإسلام وأهله. أصدر المترجم النسخة العربيَّة عام ٢٠١٣ ميلاديًّا تحت عنوان **أزمة الإسلام: الحرب الأقدس والإرهاب المدنَّس**، مع عنوان فرعي، هو "رؤية المحافظين الجُدد واليمين الأمريكي للإسلام المعاصر". ويعتبر المترجم أنَّ أحداث ٩/١١ من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا تاريخًا فاصلًا في مسيرة صراع العالم الغربي مع العالم الإسلامي، حيث تبع تلك الأحداث هيمنة أمريكيَّة تامَّة على العالم الإسلامي، بدعوى محاربة الإرهاب، الذي يجده الغرب متأصِّلًا في العقيدة الإسلاميَّة. تغيَّرت نبرة الغرب في الإعلام تجاه المسلمين، نتيجةً لاتِّخاذه مواقف سياسيَّة قاسية تجاههم، اتَّخذت شكل حروب واسعة النطاق في كلٍّ من أفغانستان والعراق. وانقسمت الآراء بعد الأحداث التي هزَّت العالم، ما بين اعتبار ما حدث عقوبة إلهيَّة على ما اقترفه الأمريكيُّون في العالم

الإسلامي من انتهاكات، والحذر من تكرار تلك العمليَّة المدمِّرة المنفَّذة ضدَّ أبرياء لا ذنب لهم فيما حدث.

تباينت الآراء حول هويَّة الفاعل، وكان الأصوليُّون الإسلاميُّون المتَّهم الأول، وربَّما أسهمت الدعاية السلبيَّة لهذه الشريحة، ولعقيدة الجهاد في الإسلام، في تثبيت ذلك الاعتقاد. في حين ذهب آخرون إلى استنتاج أنَّ الولايات المتَّحدة ذاتها هي الفاعل الحقيقي؛ والمصلحة في ذلك واضحة، وإن كانت قد مُنيت بخسائر بالغة. منحت أحداث ١١ سبتمبر للولايات المتَّحدة ضوءً أخضر للهجوم على المنطقة العربيَّة الإسلاميَّة من أجل "إعادة رسم خارطتها السياسيَّة، بالصورة التي تشرذم شعوبها، وتقسِّم دويلاتها إلى كيانات سياسيَّة أصغر مما هي عليه الآن، وفرض التبعيَّة إلى الولايات المتَّحدة عليها" (ص١١).

يعرِّف حازم مالك مُحسن الحداثي فؤاد عجمي بأنَّه لبناني "من أصول فارسيَّة"، حصل على الجنسيَّة الأمريكيَّة، وممن نادوا باحتلال أمريكا للعراق، بحجَّة الانتصار للحقوق الإنسان وإنقاذ المستضعفين من الشيعة على يد نظام صدَّام حسين. ساند عجمي سياسات الولايات المتَّحدة في العراق، بما فيها انتهاكات سجن "أبو غريب" (ص٢٣). اعتقد لويس أنَّ احتلال العراق من المنتظر أن يسهم في تحديث الشرق الأوسط وإخراجه من بوتقة التقيُّد بالدين. وادَّعى في كتابه **What Went Wrong–أين يكمن الخطأ** (٢٠٠١) أنَّ كتاباته بدأ تؤثِّر في الرأي العالم الشرق أوسطي، لدرجة أنَّ اجتياح العراق لإسقاط صدَّام حسين صار مرَّحبًا في تلك المنطقة.

يعيد لويس في مقدِّمة الكتاب الإشارة إلى التغيُّر المفصلي في تاريخ العالم الإسلامي بعد إسقاط الدولة العثمانيَّة، وتمزيق أراضيها، وإقامة دولة إسرائيل على الأرض المقدَّسة، مذكِّرًا بما تأسَّف عليه أسامة بن لادن في مقطع مصوَّر بُثَّ عام في ٧ من أكتوبر من عام ٢٠٠١، ميلاديًّا، من معاناة الأمَّة الإسلاميَّة من الهوان والإذلال وضياع الهيبة منذ ٨٠ عامًا من ذلك الوقت، وكان يقصد إسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ ميلاديًّا. تمزَّقت الدولة العثمانيَّة، الجامعة لكافَّة المسلمين تحت لواء واحد، واحتُلَّ إقليم الأناضول من قِبل

المستعمر البريطاني والفرنسي، لكنَّه حُرِّر على يد أحد أبناء التُرك، ليس تحت لواء الإسلام، إنَّما من خلال حركة علمانيَّة قوميَّة اشتراكيَّة قادها كمال أتاتورك، الذي سُرعان ما ألغى السلطنة، وأعلن الجمهوريَّة التركيَّة، وأخيرًا ألغى الخلافة الإسلاميَّة. من جديد، يتناول لويس ما تناوله من قبل في مقال License to Kill، مندِّدًا بدعوة بن لادن إلى قتال أيِّ أمريكي وُجد في جزيرة العرب، كما سبقت الإشارة. ويعيج لويس تحليل نفس الأفكار التي ذكرها في مقاله بنفس التفاصيل والأمثلة.

يتناول لويس في الفصل الأول من الكتاب علاقة الإسلام بالمسيحيَّة بنفس طريقة تناوُله لها في مقاله Europe and Islam–أوروبا والإسلام (١٩٩٠)، الذي فصَّل في الدراسة السابقة عن التبشير والاستشراق، بتحديد السمات المشتركة والاختلافات الجذريَّة. من جديد، نجد المستشرق البارز يقرن الإسلام بالمسيحيَّة واليهوديَّة، باعتبار أنَّ الديانات الثلاث تشكِّل ما يُعرف بالديانات الإبراهيميَّة، لكنَّه يحرص على الإشارة إلى أهم نقطة اختلاف بين المسيحيَّة والإسلام، وهي أنَّ يسوع الناصري–مؤسس المسيحيَّة–قال ما يفيد بفصل الدين عن الدولة، بقوله في إنجيل متَّى "أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ" (إصحاح ٢٢: آية ٢١)، وفي إنجيل مرقس "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلّهِ لِلّهِ" (إصحاح ١٢: آية ١٧). تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ السياق الذي قيلت فيه تلك الآية، بمضمون واحد وعبارة مختلفة، في نفس السياق، وهو محاولة المنافقين من أتباع الإمبراطور هيرودس إيجاد أيِّ زلَّة لسان ليسوع للتنكيل به، والوشاية به إلى الإمبراطور. سأل هؤلاء يسوع إذا ما كان من المفترض دفعهم الجزية للإمبراطور، فأجابهم بما لا يفتح المجال لجدال يؤذيه. والسياق الحقيقي تسرد هذه الآيات في إنجيل متَّى "ذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ تَلاَمِيذَهُمْ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ. فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟». فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ: «**لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ؟** أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ». فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَارًا. فَقَالَ لَهُمْ: «**لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟**». قَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا إِذًا مَا

لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ»" (إصحاح ٢٢: آيات ١٥-٢١). معنى ما قاله يسوع، كما يوضح السياق، هو "اتَّقوا شرَّ القيصر المتهافت على مُلك الدنيا، واعطوه المال الذي يرسم صورته عليه"، والسؤال: أين قال المسيح لا تتقيَّدوا بشرائع دينيَّة، ونظِّموا حياتكم وفق ما تقتضي المصلحة، بلا أيِّ مراعاة لشرع الله الضامن للحقوق والناهي عن الممارسات الضارَّة بالغير؟

يضيف لويس أنَّ المسلمين الأوائل لم يعانوا مما عانى منه المسيحيُّون الأوائل، حيث كانوا مجبرين على عبادة القيصر، مدَّعي الألوهيَّة؛ في حين أثبتت المراجع التاريخيَّة أنَّ هيرودس نفسه اعتنق اليهوديَّة، ولم يكن رومانيًا في الأصل، بل كان واليًا على أرض يهودا في زمن ميلاد المسيح. أضف إلى ذلك، سُمح لبولس الرسول السفر إلى مختلف أقاليم الإمبراطوريَّة الرومانيَّة لنشر المسيحيَّة، كما قال هو ذاته في رسائله المتعدِّدة إلى مُدن جنوب أوروبا وإلى تلامذته، كما تشير الوقائع التاريخيَّة إلى وفاته وبطرس الرسول في روما عام ٦٦ ميلاديًّا، تقريبًا. سبقت في الدراسة السابقة إلى أنَّ بولس الرسول قد قُتل قتلة بشعة على يد الإمبراطور الروماني، لكنَّ المصادر التاريخيَّة أثبتت أنَّ سبب القتل كان اتهامه والمسيحيِّين معه ممارسة الشعوذة، مما يعني أنَّه مارس دعوته في روما لفترة، وعلى إثر ذلك تقرر التخلُّص منه ومن رفاقه، بغضِّ النظر عن صحَّة الاتهام من عدمها. يعني هذا أنَّ الإجبار على ترك المسيحيَّة كان بعج السماح بالدعوة إليها لفترة.

يعود لويس إلى المقارنة بين النبي مُحمَّد (ﷺ)، وسالفيه النبيِّين موشيه ويسوع، مشيرًا إلى أنَّ مُحمَّدًا حقَّق في حياته ما أراد بتأسيس دولة حكمها ومارس فيها سلطة سياسيَّة كاملة، بينما صُلب يسوع، ومات موسى دون دخول الأرض الموعودة. **نسي لويس هنا أن يشير إلى أنَّ بني إسرائيل هم من همُّوا بقتل يسوع، لمَّا اختلف معهم في عقيدتهم، وهذا ما تعترف به الأناجيل، من أنَّ اليهود الفريسيِّين هم من حرَّض على قتل يسوع، وفق ما ذكرته الأناجيل. ونسي كذلك أنَّ بني إسرائيل هم من عصوا الرَّبَّ، فحكم عليهم بالتيه أربعين سنةً، وفق ما جاء في سفر العدد** "فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ

وَأَتَاهَهُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، حَتَّى فَنِيَ كُلُّ الْجِيلِ الَّذِي **فَعَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ**" (سفر العدد: إصحاح ٣٢، آية ١٣)، وما جاء في سفر يشوع "لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَارُوا أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْقَفْرِ حَتَّى فَنِيَ جَمِيعُ الشَّعْبِ، رِجَالُ الْحَرْبِ الْخَارِجِينَ مِنْ مِصْرَ، الَّذِينَ **لَمْ يَسْمَعُوا لِقَوْلِ الرَّبِّ**، الَّذِينَ **حَلَفَ الرَّبُّ لَهُمْ أَنَّهُ لاَ يُرِيهِمِ الأَرْضَ الَّتِي حَلَفَ الرَّبُّ لآبَائِهِمْ أَنْ يُعْطِيَنَا إِيَّاهَا**، الأَرْضَ الَّتِي تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا" (سفر العدد: إصحاح ٥، آية ٦).

ويبدو أنَّ معرفة لويس بالتاريخ الإسلامي لم تدفعه إلى ذِكر قصَّة هجرة النبي من مكَّة إلى يثرب، وطبيعة معاناته لسنوات حتَّى هدى الله جماعة من قبيلة الخزرج إلى الإسلام، لمَّا رأوا فيه النبي الذي يتوعَّدهم به اليهود من سُكَّان يثرب، حيث عملوا على إخافة أهل يثرب بنبي قرب زمانه سيقتلهم مع اليهود "قتل عاد وإرم"، فسارع نفرٌ من الخزرج بُنصرة النبي مُحمَّدٍ (ﷺ)، قائلين "يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنَّكم إليه". وكان موقف اليهود من بعثة النبي الإنكار والتكذيب، ويصدق في ذلك قوله تعالى في سورة البقرة "وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩).

يقدِّم الإسلام منظومة شاملة تنظِّم الحياة العامَّة والاجتماعيَّة، وهذا لا يتوفَّر في ديانات أخرى. ويرى لويس أنَّ المسلمين ترسَّخ في أذهانهم مفهوم جمْع زعيم القوم بين السلطة الدينيَّة والسلطة السياسيَّة وما تستتبعه من قرارات عسكريَّة. يطرح لويس هنا سؤالًا، هو "هل الإسلام ثيوقراطيَّة"–أي دولة تقوم على الحُكم الديني–والإجابة هي نعم، إذا ما اعتُبر الله مالك المُلك وأنَّ الحاكم خليفة يحكم بما أمر به؛ والإجابة لا، إذا ما كانت الثيوقراطيَّة تعني حُكم مباشر للمؤسسة الدينيَّة. يعتقد لويس أنَّ المؤسسة الدينيَّة لعبت دورًا بارزًا في السياسة في الأزمنة الأخيرة في الإسلام؛ بأن انغمست في ممارسات باباوات روما في القرون الوسطى، بالحُكم بحسب ما يحقق المصالح. ويعتبر رئيس إيران

منذ إعلان الجمهوريَّة الإسلاميَّة عام ١٩٧٩ ميلاديًّا، خير نموذج للحاكم الثيوقراطي في الإسلام في العصر الحديث.

يعرِّف لويس "الأصوليَّة الإسلاميَّة" بأنَّها ليست "حركة واحدة متجانسة"، إنَّما هي "أنواع مختلفة في البلدان المختلفة، بل في البلد الواحد أحيانًا" (ص٥٦). تلقى هذه الأشكال من الجماعات الأصوليَّة دعمًا من أنظمة بعض البلدان الإسلاميَّة لخدمة أهدافها، ولكن أنظمة أخرى تشجِّع التيارات الدينيَّة المحافظة، حرصًا على الحدِّ من تأثيرات الأصوليِّين، ومن ثمَّ دحر حركاتهم. ويعتبر الغرب العدو الأوَّل للأصوليِّين، وإن كانت أهدافهم الأساسيَّة توجَّه ضدَّ دولتهم. وبرغم التأثير الحضاري للعالم الإسلامي على الغرب، وبرغم اعتناق شريحة ليست بالهيِّنة في العالم الإسلامي مفاهيم الغرب، واشتراكهم معه في الخلفيَّة العقائديَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة، فإنَّ مشاع الكراهية التي يعبِّر عنها قسم آخر من أبناء العالم الإسلامي تجاه الغرب يؤرقه ويضايقه كثيرًا. يلخِّص لويس موقف مسلمي اليوم من الغرب بانقسامهم إلى ثلاث فئات؛ الأولى ترى ألَّا سبيل للتفاهم مع الغرب والتصالح معه، لتعارُض مفاهيمه مع مفاهيم الإسلام، وعداوته القديمة له؛ أمَّا الثانية، فهي ترى في التعاون مع الغرب مصلحة ومنفعة، فتستفيد من منجزاته الفكريَّة والعلميَّة، مع الاحتفاظ بهويَّتها الدينيَّة. في حين تجد الثالثة في الغرب عدوَّها الألد، لكنَّها تحذر محاربة، في انتظار الوقت المناسب لذلك، والمعركة الأخيرة–على حدِّ وصف لويس–معه.

كانت الحضارة الإسلاميَّة في القرون الوسطى حضارة عالميَّة، حققت إنجازات هائلة لا تُنكر؛ بل وأثَّرت علومها واكتشافاتها في الفكر الأوروبي، حتَّى أخذ عنها الأوروبيُّون الكثير في تكوين حضارتهم الممتدَّة إلى اليوم. وبرغم ما أنجزه الفكر الإسلامي من إبداعات يُشهد لها إلى اليوم، فقد ظلَّ مقيَّدًا بأفكار تبدو عدائيَّة، مثل الجهاد. يعتبر لويس أنَّ أمر الله تعالى في القرآن الكريم، في سور مثل التوبة والأنفال والممتحنة، بالجهاد قد أساء المسلمون تطبيقه، وإن كان فريضة نصَّ عليها القرآن. وبرغم أنَّ بعض المفسرين يرون في الأمر بالجهاد المقصود به جهاد النفس في البعد عن المحرَّمات،

والالتزام بالطاعات، يعتبر التفسير الأكثر شيوعًا للجهاد، وفق رأي لويس، هو القتال في سبيل الله. يتعجَّب الكاتب من حرص المسلمين على محاربة "الكفَّار والمرتدِّين" وحدهم، بينما يأمر الشرع الإسلامي بقتال هذين الصنفين، ولكن معه العصاة وقطَّاع الطرق. ويذكر لويس دعوة بن لادن، التي نشرتها جريدة القدس العربي في فبراير من عام ١٩٩٨ ميلاديًّا، كمثال للدعوة إلى الجهاد، بما يعرِّض أرواح الأبرياء إلى الخطر. **سبق التعليق على دعوة بن لادن، وإبداء أسباب عدم مشروعيَّتها، وأهم تلك الأسباب إثارة الفتنة، وإشاعة الفوضى، وتعريض أرواح المسلمين–المفترض أنَّ دعوة بن لادن في صالحهم–إلى خطر مماثل؛ لأن الخصم سيردُّ من جانبه.** والأهم من ذلك، نهى النبي عن السعي إلى لقاء العدو، في حديثٍ في صحيح البخاري وصحيح مسلم "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ** وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ".

إذا كان لويس يرى في آيات الجهاد في القرآن الكريم تحريضًا غير مباشر على العُنف، فكيف لنا أن نقرأ الآيات (١٥–١٧) في الإصحاح ٢٤ من سفر العدد، التي تعد ببطش بني إسرائيل بجميع الأمم، بعد ظهور المخلِّص الذي سيُردي "كلَّ بني الوغى"؟ وكيف لنا كذلك أن نقرأ وعد الربِّ لبني إسرائيل في **مخطوطة حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام،** بتأييدهم ومع ملائكته في حربهم ضدَّ سائر الأمم في آخر الزمان، في معركة تدور في دمشق، التي يعودون إليها بعد عودتهم من "صحراء الأمم"؟ وكيف نفهم كذلك أمر الربِّ في **مخطوطة الهيكل** بعرض السلام على الأمم التي يغزوها بنو إسرائيل، وبإبادتهم إبادة جماعيَّة في حال عدم الاستجابة؟ وكيف يبدو أمر الربِّ بعدم عرض السلام على أيِّ أمَّة من الأمم التي أعطاها لبني إسرائيل ميراثًا: "...ولكن بالنسبة إلى مدن الشعوب **التي أعطيتكم إيَّاها ميراثًا، عليكم ألَّا تدعو فيها حيًّا أيَّ مخلوق كان، في الحقيقة عليكم محق الحثيين والآموريين، والكنعانيين والحيوتيين، واليبوسيين، والجرجاشتيين والبيرزيتيين محقًا كاملًا، حسبما أمرتكم، حتَّى لا يعلِّمونكم ممارسة الضلال الذي مارسوه نحو أربابهم...**" (مخطوطة الهيكل: ٦٢)؟ أليس من العنصريَّة اعتبار بني

إسرائيل وحدهم "أبناء النور"، بينما يُعتبر أبناء الأمم الأخرى "أبناء الظلام"؟ والسؤال الأهم، ما مدى مشروعيَّة الأمر بإبادة الأمم التي أُعطيت أرضها ميراثًا لبني إسرائيل، أي المذكورة في سفر التكوين "**لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات**" (سفر التكوين: إصحاح ١٥، آية ١٨)، إذا كانت هناك دلائل على بُطلان عهد الربِّ لأبرام العبراني، من العهد القديم قبل القرآن الكريم؟

يدَّعي لويس أنَّ **النبي أعلن الجهاد على أهل قريش فور هجرته إلى يثرب–التي تحوَّل اسمها إلى المدينة المنوَّرة حينها–وتأسيسه دولة صار زعيمها**. يكفي الاستشهاد بما ذكرته موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة عن سبب غزوة بدر، أولى غزوات النبي في المدينة، "**من المؤكد أنه حين خرج الرسول محمد من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده عيرَ قريشٍ التي كانت فيها أموالٌ كان جزءٌ منها للمهاجرين المسلمين من أهل مكة، وقد استولت عليها قريش ظلمًا وعدوانًا**". ويسرد لويس كيفيَّة توسُّع الإسلام في المناطق المجاورة للجزيرة العربيَّة، ووصوله في سنوات معدودة إلى الشام وفارس ومصر واليمن، بالإيحاء بأنَّ عقيدة الجهاد كانت وراء شحذ الهمم، ومنح المبرر والدافع للقتال، متجاهلًا عداء الأمم غير المسلمة لرسالة الإسلام، وتآمرها على المسلمين سرًّا وعلنًا، وسعيها المستمر لإخماد جذوة الدين بالمعاندة في الكُفر ونشر العقائد الباطلة. لا يشير لويس إلى أنَّ أول فتح للمسلمين خارج الجزيرة العربيَّة كان في حياة النبي، حينما بعث الحارث بن عمير الأزدي –رضي الله عنه–إلى أرض البلقاء في الشام لدعوتها إلى الإسلام، فقتله واليها المعيَّن من قِبل قيصر الروم، فأمر الرسول بشنِّ غزوة مؤتة. يذكر لويس يذكر في مقاله **ترخيص بالقتل: إعلان بن لادن الجهاد،** الذي نشرته مجلَّة الشؤون الخارجيَّة–Foreign Affairs في عددها ٧٧، الصادر في نوفمبر/ديسمبر عام ١٩٩٨ ميلاديًّا:

Secure | https://www.foreignaffairs.com/articles/saudi-arabia/1998-11-01/license-kill-usama-bin-ladins-declaration-jihad

FOREIGN AFFAIRS LICENSE TO KILL: USAMA BIN LADIN'S DECLARATION OF JIHAD
Bernard Lewis

Nevertheless, some Muslims are ready to approve, and a few of them to apply, the declaration's extreme interpretation of their religion. Terrorism requires only a few. Obviously, the West must defend itself by whatever means will be effective. But in devising strategies to fight the terrorists, it would surely be useful to understand the forces that drive them.

أي "من الواضح أن الغرب يتحتَّم عليه الدفاع عن نفسه **بأيِّ وسيلة تثبت فعَّاليتها،** ولكن مع ابتكار استراتيجيَّات لمحاربة الإرهابيِّين، سيأتي فهْم الدوافع المحرِّكة لهم، بلا شكٍّ، بالنفع"؛ ويعني هذا إباحته اتِّخاذ التدابير اللازمة للتصدي للإرهاب. ويعود لويس في **أزمة الإسلام** (٢٠٠٣)، ويبيح الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، باعتباره وسيلة وقائيَّة لمواجهة عقيدة الجهاد الإسلاميَّة. السؤال: **لماذا يبيح هذا لبلاده، ولا يبيح الحملات الإسلاميَّة في بداية الدعوة، التي استهدفت تحصين حدود دار الإسلام من تهديدات الأمم غير المسلمة حينها؟**

يعيد لويس في هذا الكتاب ما سبق وأن أشار إليه في دراساته التي سبقت الإشارة إليها، وهو عُقدة النقص لدى المسلمين تجاه الغرب لعجزهم عن استيطانه، وخروجهم من بعض الأجزاء التي استوطنوها في أوروبا، بلا عودة، وعلى رأس شبه الجزيرة الأيبيريَّة. وتجدر الإشارة إلى أنَّ شبه الجزيرة الأيبيريَّة، كما جاء في كتاب **القانون الدولي الإسلامي في ضوء كتابات واجتهادات الإمام الأوزاعي والإمام الشيباني** (٢٠١١)، من تأليف مجمع الفقه الإسلامي في الهند، كان يقطنها قبائل الفندال، "الذين طردوا الرومان، وأسسوا على نهر الوادي الكبير (في قرطبة الإسبانيَّة) مملكة باسمهم (الفندال)، ومنها جاءت كلمة "فندلس"، التي نطق بها العرب "أندلس"، وأطلقوه على هذه البلاد" (ص١٤٤). ويذكر المفكِّر الإسلامي الفلسطيني، دكتور عبد الله أبو عزَّة، في كتابه **حوار الإسلام والغرب** (٢٠٠٦) أنَّ قبائل الفندال كان نصارى على المذهب الآريوسي، وهو مذهب توحيدي نبذ التثليث، وآثر عبادة الله تعالى وفق رسالة نبيِّه عيسى بن مريم الحقَّة. ويُفسَّر قبول شبه الجزيرة الأيبيريَّة الإسلام واستقراره فيها لقرون بتشابُه العقيدة الإسلاميَّة مع العقيدة التي

جاء بها إنجيل عيسى المنزَّل من السماء؛ والأمر نفسه ينطبق على مصر، التي آمنت فئة من أهلها برسالة عيسى الصحيحة، وشكَّلت نواة مسلمي مصر الأوائل.

يستعرض لويس نماذج متنوِّعة من تغلغُل عقيدة الجهاد في ذهن المسلمين، مشيرًا إلى أنَّ الجهاد اعتُبر في فترةٍ من الفترات موازيًا للصليبيَّة، التي شنَّت حروبًا في العالم الإسلامي في سبيل عقيدة دينيَّة. غير أنَّ الصليبيَّة من وجهة نظر لويس تمثِّل انحرافًا عن صحيح ما جاءت به الأناجيل ورسالة يسوع الناصري. يعتبر لويس أنَّ الحروب الصليبيَّة بدأت في القرن الحادي عشر الميلادي، بعد أربعة قرون من الزحف الإسلامي على أراضٍ خضعت لسلطان الإمبراطوريَّات غير المسلمة–إمبراطوريَّة فارس والإمبراطوريَّة الرومانيَّة–مما منح أهل تلك الإمبراطوريَّات على الانتفاض في سبيل تحرير الأراضي التي فقدوها. سبقت إيضاح أسباب الحروب الصليبيَّة من قبل في أكثر من دراسة؛ وتذكيرًا بها، فقد جاء على رأس تعطيل الزحف الإسلامي من آسيا الصغرى تجاه الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الشرقيَّة، والاستفادة من خيرات العالم الإسلامي إبَّان عصور الظلام الأوروبيَّة وتردِّي الأوضاع هناك.

يعود لويس إلى إبراز أهميَّة عقيدة الجهاد في الشريعة الإسلاميَّة، من خلال الإشارة إلى أنَّ الشريعة منحتها اهتمامًا كبيرًا، ونظَّمتها بتحديد الفئات المستهدفة في الحروب، باستثناء النساء والشيوخ والأطفال، والأمر بحُسن معاملة الأسرى، وعدم التمثيل بجُثث القتلى. وعنيت الشريعة كذلك بالفصل في حليَّة استخدام الصواريخ والحروب الكيميائيَّة في القتال منذ العصور الوسطى، حينما استُحدث استخدام المجانيق والأسلحة المسمومة، واختلف آراء الفقهاء ما بين التحريم والإباحة، سواء إباحة تامَّة أو بحذر. ويبرز لويس منظوره لدولة المسلمين بأنَّها تمثِّل لدى أهلها "دار الإسلام"، وما عداها "دار الحرب"، وكأنَّما شاغل المسلمين الأساسي هو الخروج في حروب واسعة لإخضاع الأمم الأخرى إلى سلطانهم بالقوَّة.

يتطرَّق لويس إلى مسألة بناء المسجد الأقصى على أنقاض هيكل سليمان في عهد الدولة الأمويَّة، ويجد في ذلك تحديًا سافرًا للهويَّة المسيحيَّة لبيت المقدس، وإن كان يرى

في ذلك نتيجة طبيعيَّة لسيادة المسيحيِّين على اليهود أو يسودهم المسلمون، بما يشكِّل "تحديًا واضحًا للمسيحيَّة في عقر دارها" (ص٧١). نعيد التذكير بتطابق مواصفات الهيكل، المذكورة في سفر الملوك الأوَّل، ومعابد تقديس آلهة الشمس، وبخاصة الإله البابلي بعل، وبوعد يسوع الناصري في إنجيل متَّى (إصحاح ٢٤: آيات ١٥-٢٢) بهلاك اليهود نتيجة تكذيبهم دعوته، فيما أطلق عليه "رجسة الخراب".

يتناول لويس في الفصل الثالث من الكتاب، الذي منحه عنوان From Crusaders to Imperialists-من الصليبيِّين إلى الإمبرياليِّين، تطوُّر الهجوم الغربي على العالم الإسلامي، منذ القرون الوسطى وإلى اليوم، معتبرًا أنَّ هدف الهجوم في الحالتين واحدٌ، "مقاومة التقدُّم الإسلامي نحو بلاد المسيحيَّة، وعكس اتجاهه" (ص٧٦). يجد لويس في الزحف الغربي على العالم الإسلامي، الذي يوصف في حقيقة الأمر بالتوسُّع الإمبريالي الهادف إلى محو هويَّة الإسلام من داره وإخضاع معتنقيه إلى سُلطان الغرب، وسيلة وقائيَّة لحماية الغرب من مساعي المسلمين البربريَّة إلى استيطان الغرب ونهب خيراته. من جديد، يشير لويس إلى محاولات الدولة العثمانيَّة المتكرِّرة التوغُّل ناحية الغرب، من خلال حصار فيينا-في عامي ١٥٢٦ و١٥٣٢ ميلاديًّا، في عهد سليمان القانوني؛ و١٦٨٣ ميلاديًّا، في عهد محمَّد الرابع-مما أجبر أوروبا على التأهُّب "في وضع دفاعي" (ص٧٦). وبعد فشل حصار فيينا الأخير عام ١٦٨٣ ميلاديًّا، بدأت عهد التراخي في الدولة العثمانيَّة، بعد أن كانت، بشهادة لويس، "أغنى بقاع العالم، وأكثرها سطوة وإبداعًا واستنارة" (ص٧٦). غيَّر التقدُّم التقني المتسارع حينها، والتوسُّع الاقتصادي في شتَّى بقاع العالم، والسيطرة على خطوط الملاحة العالميَّة عظيم، معادلة القوى في العالم.

بعد تطرُّقه إلى تلك المسألة في كتاب **What Went Wrong-أين يكمن الخطأ** (٢٠٠١)، يعيد لويس الإشارة إلى التحوُّل الجذري في تاريخ العالم الإسلامي الحديث **بعد حملة نابليون بونابرت في صيف عام ١٧٩٨ ميلاديًّا، التي سبق وأن اعتبرها محاولة أوروبيَّة جديَّة لتعريف العالم الإسلامي بأحدث منجزات الحضارة الأوربيَّة الحديثة، متمثِّلةً في التطوُّر العلمي، وبخاصَّة في مجال التقنيات الحديثة**، نافيًا من جديد أن

يكون سبب خروج الحملة الفرنسيَّة الانتفاضة الشعبيَّة، ومعتبرًا تواطؤ البحريَّة البريطانيَّة مع الدولة العثمانيَّة السبب. يبرز لويس في **أزمة الإسلام** الدور الحقيقي للحملة الفرنسيَّة على مصر والشام (١٧٩٨-١٨٠١) في فتح المجال أمام مزيدٍ من الحملات الغربيَّة على العالم الإسلامي، فيما عُرف بعصر الإمبرياليَّة الغربيَّة في القرن التاسع عشر الميلادي. بعد أن اعتبر لويس الهجمات الغربيَّة على دار الإسلام مشروعة، باعتبار أنَّها تكفل صدَّ الزحف الإسلامي وإلهاء المسلمين عن الغرب، ينتقد المفكِّر الكبير تنديد المسلمين بالاستعمار الغربي لبلادهم، برغم إباحتهم زحفهم إلى بلاد الغرب، حيث يقول "كانت السيطرة على أوروبا والأوروبيِّين، وبالتالي تمكُّنهم من-لا إجبارهم على-اعتناق الدين الحق أمرًا مشروعًا تمامًا لدى المسلمين. وكان احتلال الأوروبيِّين المسلمين وحُكمهم، والأدهى محاولتهم تضليلهم جريمةً وإثمًا" (ص٧٨).

يشير لويس إلى حقيقة تاريخيَّة في غاية الأهميَّة، وهي سعي الولايات المتَّحدة منذ تأسيسها أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وانفصالها عن بريطانيا، إلى نشر مفاهيم الحريَّة والديموقراطيَّة والمساواة والمؤاخاة؛ وكانت الدولة العثمانيَّة من أولى نقاط التركيز. كانت إسطنبول هي أول عاصمة إسلاميَّة تُعرَّف فيها أمريكا باعتبارها رمزًا سياسيًّا في العالم الإسلامي، حينما أقام سفير فرنسا لديها حفلًا انتهى بإطلاق مدفعية من سفينتين ترفعان رايات الدولة العثمانيَّة والجمهوريَّتين الأمريكيَّة والفرنسيَّة، عام ١٧٩٣ ميلاديًّا، أي سنوات قليلة بعد نجاح الثورة الأمريكيَّة، وخلال أحداث الثورة الفرنسيَّة (١٧٨٩-١٧٩٨). والمفارقة أنَّ سفيرًا فرنسيًّا لاحقًا أوفد إلى إسطنبول كان أمريكي المولد، وشارك بنفسه في عمليَّات عسكريَّة للجيش الأمريكي. وكما يخبر لويس، "كرَّس هذا السفير شيئًا من جهوده لنشر أفكار الثورة الأمريكيَّة في تركيا"، وإن أخذت تلك الجهود شكلًا فرنسيًّا (ص٨٦). بدأت الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ترتبط في الأذهان بأنَّها رمز للحريَّة والديموقراطيَّة، حتى قال عنها رفاعة الطهطاوي في كتابه **قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر** "دولة تتألَّف من أقاليم عدَّة، تجتمع في جمهوريَّة واحدة في أمريكا الشماليَّة، سكانها قبائل، نزحت من...إنكلترا، واستولت على تلك الأرض. ثمَّ حرَّرت تلك القبائل نفسها من

قبضة الإنكليز، فباتوا أحرارًا مستقلِّين في بلادهم. وتعدُّ هذه البلاد إحدى البلاد المتقدِّمة حضاريًّا في أمريكا. تسمح هذه البلاد لمختلف الجاليات الدينيَّة بممارسة طقوسها...".

يروي لويس ما سبقت الإشارة إليه عن بداية النشاط التبشيري الأمريكي في العالم الإسلامي، في إطار نشر مفاهيم التحرُّر والخروج عن القوالب الاجتماعيَّة الجامدة، التي توارثتها الأجيال بلا تفكُّر. عنيت الإرساليَّات الأمريكيَّة إلى العالم الإسلامي، كما سبق القول في الدراسة السابقة، بتأسيس منظمة تعليميَّة جديدة تنشر الأفكار التي تتوافق مع مشروعات الغرب في بلاد المسلمين. يعترف لويس بأنَّ "بعض الأمريكان العاطلين" تمكَّنوا من إيجاد فرص عمل في العالم الإسلامي من خلال خدمة الحكام المسلمين، كما يشير إلى أنَّ بعض خريجي المدارس التبشيريَّة ابتُعثوا إلى الغرب لاستكمال دراستهم، والعودة لنشر مفاهيم الغرب في دار الإسلام، ولن ننسى دور هؤلاء في الدعوة إلى التحديث والتمدين، بما في ذلك الفكر الديني (ص٨٧-٨٨).

من جديد، يشير لويس إلى أنَّ **اكتشاف النفط في الخليج العربي في النصف الأوَّل من القرن الماضي من أهم ما دعَّم اهتمام الغرب بالمشرق الإسلامي.** تكرَّرت زيارات رجال البزنس الأمريكان إلى الخليج، بما في ذلك المملكة العربيَّة السعوديَّة-أرض الحرمين-وازداد استثمار أبناء الخليج في الغرب؛ وانتشرت مظاهر الحداثة، من حيث الأبنية والسيَّارات والملابس والنظم التعليميَّة؛ واستُجلبت كافَّة المنتجات الأمريكيَّة، وعلى رأسها الأجهزة الترفيهيَّة الحديثة؛ وساد شعور بالإعجاب الشديد تجاه الغرب، مصدره الصورة المبهرة التي رآها المسلمون له من خلال السينما الأمريكيَّة. ومع ازدياد الميل إلى اعتناق قيم الغرب "الكافر"، ظهر تيَّار ديني "مُجدِّد" لم يرق له التماهي مع الغربيِّين، الذين اعتبرهم "أعداء الله"، وأصبحت أمريكا "العدو الأوَّل، تجسيد الشر، النقيض الشيطاني لكلِّ ما هو خير" (ص٨٨). لا يجد لويس في الهيمنة الأجنبيَّة على الثروة النفطيَّة في العالم الإسلامي، وتطبيق خطط اقتصاديَّة تزيد من المسلمين فقرًا، وتزيد من ثروات الغرب في ذات الوقت، وفرض مفاهيم الغرب على كافَّة مناحي حياة المسلمين

بصورة جعلت من لا يطبِّق تلك المفاهيم منبوذًا وغريبًا في دار الإسلام، أسبابًا كافية لإثارة كراهية المسلمين تجاه الغرب.

يعبِّر لويس ضمنيًّا عن أحد أهم أسباب كراهية المسلمين لأمريكا، باعتبارها تجسيد الحضارة الغربيَّة المستغرقة في الماديَّة، وهو العجز عن التماهي مع مظاهر تلك الحضارة وتطوير الذات وفق مفاهيم النجاح الغربيَّة، من خلال التعرُّض لسيرة المفكِّر الإسلامي سيِّد قطب، أحد المنظِّرين الأيديولوجيِّين للفكر الإسلامي الأصولي. سافر قطب خلال الفترة ما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٠ ميلاديًّا إلى أمريكا للدراسة، باعتباره موظَّفًا في وزارة التعليم المصريَّة. بدأ قطب تطوير أفكاره عن العلاقة بين الإسلام والغرب بعد عودته من أمريكا، ما تزامن مع ثورة يوليو من عام ١٩٥٢ ميلاديًّا، وأسهم شعوره بالصدمة مما رآه من انحلال أخلاقي في أمريكا في دفعه إلى التمسُّك بأصول الدين الإسلامي، والدعوة إلى إحياء تراثه، بعد أن رأى في العصر الحالي ما يشبه عصر الجاهليَّة، قبل ظهور الإسلام. اعتبر سيِّد قطب أنَّ نموذج الحياة الأمريكي يشكِّل تهديدًا صريحًا للمجتمع الإسلامي، وأصبح هذا التهديد "جزءً اعتياديًّا من قاموس الأصوليِّين الإسلاميِّين وأيديولوجيَّتهم" (ص٩٧). تلقَّى قطب العقوبة التي حكم بها النظام الناصري بالإعدام، لكنَّ أفكاره أثَّرت في الأجيال اللاحقة لجماعة الإخوان المسلمين "**الأصوليَّة**".

يلتفت لويس في الفصل الخامس إلى مسألة صور الراديكاليَّة الإسلاميَّة في عداء الغرب، ساردًا قصَّة احتلال الحرم المكِّي في ٢٠ من نوفمبر من عام ١٩٧٩ ميلاديًّا، **حيث ندَّد الجمع المحتل للحرم بموالاة حكَّام بلادهم للغرب، المتَّهم بتدمير القيم الإسلاميَّة، والتآمر لسلب مصادر الثروة في بلاد المسلمين.** حُكم بالإعدام على قائد تلك الجماعة مع آخرين، كما حُكم بالسجن على غيرهم. ومن عجائب المصادفات أن سبق احتلال الحرم بأيام قليلة احتلال السفارة الأمريكيَّة في طهران، يوم ٤ من نوفمبر من عام ١٩٧٩ ميلاديًّا، وأُخذ حينها ٦٢ رهينةً من الأمريكيِّين. وكان آية الله الخميني من أكثر المندِّدين بالسياسات الأمريكيَّة في العالم الإسلامي، بل واعتبرها عدوَّه الأهم، الذي وجبت

مواجهته. كان الخميني قد نُفي إلى خارج إيران أواخر عام ١٩٦٤ ميلاديًّا؛ بسبب خطاب ألقاه ندَّد فيه بقانون أمريكي فُرض في إيران، قضى بمحاكمة الرعايا الأمريكيّين في إيران وفق القانون الأمريكي، مما يعني منع خضوعهم إلى سلطان القضاء في إيران. أشار نظام الخميني إلى الولايات المتَّحدة في خطابه بـ "الشيطان الأكبر"، وإلى إسرائيل بوصفها "الشيطان الأصغر"، كما اعتبر كلًّا من الرئيسين، المصري الأسبق، أنور السادات، والعراقي الأسبق، صدَّام حسين، باعتبارهما "خادمين لأمريكا وعميلين لها" (ص١٠٢). أمَّا سبب إدانة السادات، فهو إبرام اتفاقيَّة كامب ديفيد أواخر عام ١٩٧٨ مع إسرائيل بمباركة أمريكا؛ لإنهاء العداء المصري الإسرائيلي، وانسحاب إسرائيل من سيناء. وبالنسبة إلى صدَّام حسين، فمشكلته مع النظام الإيراني كانت إقدامه على محاربته بدفع من أمريكا.

يتعجَّب لويس من أسباب عدم إبداء مشاعر كراهية تجاه الاتحاد السوفييتي قبل انهياره، برغم انتهاكاته المتكرِّرة ضدَّ المسلمين في شرق آسيا، وبخاصة في أفغانستان، بنفس الدرجة التي يبديها المسلمون تجاه أمريكا. ويحدِّد الكاتب بعض الأسباب التي تؤجِّج مشاعر العداء الإسلامي تجاه أمريكا، وأهمها مساندة إسرائيل واعتبار بقاءها مصلحة عظمى للغرب في العالم الإسلامي، وفرض سيطرة اقتصاديَّة على دول العالم الإسلامي، ودعم الأنظمة الطاغية في البلدان الإسلاميَّة. وبرغم أنَّ الاتحاد السوفييتي لعب دورًا رئيسًا في جمع التأييد من أجل تأسيس دولة إسرائيل، خلال التصويت المجرى في نوفمبر من عام ١٩٤٩ ميلاديًّا، وبرغم دعمها بالسلاح، لم يبدِ المسلمون تجاه الدب الروسي من العدائيَّة ما أبداه تجاه أمريكا. ويقول لويس عن علاقة أمريكا بإسرائيل أنَّها "علاقة استراتيجيَّة، بدأت في الستِّينات، وازدهرت في السبعينات والثمانينات، وتذبذبت في التسعينات، واكتسبت أهميَّة جديدة حين واجهت الولايات المتَّحدة تهديد مطامع صدَّام حسين الحالية، باحتلال دولة أخرى، وإرهاب القاعدة الأصولي، وعدم القناعة عميق الجذور المتنامي لدى حلفاء أمريكا العرب" (ص١١١).

يعترف لويس بأنَّ منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، تطبِّق أمريكا في الشرق الأوسط سياسة تستهدف الحيلولة دون ظهور أطماع إقليميَّة في المنطقة...تفرض سيطرة احتكاريَّة على نفط الشرق الأوسط. هذا هو الاهتمام الرئيس للسياسات الأمريكيَّة المتوالية إزاء إيران، أو العراق، أو أي تهديد مستقبلي في المنطقة" (ص١١٢). تقوم هذه السياسة على تأييد أمريكا حلفاءها في العالم الإسلامي، ومنحهم السلاح، وإذا لزم الأمر، دعمهم أمنيًّا. ويشير لويس إلى ظهور سبب جديد لإثارة الاستياء الإسلامي من أمريكا، وهو دعمها للأنظمة القمعيَّة ومشاركتها في جرائمها ضدَّ أبناء شعوبه. وبالطبع، هذا الاتهام لا يمكن تناوُله بسهولة في وسائل الإعلام الرسميَّة؛ بسبب ما فرضته أنظمة الدول المسلمة من استراتيجيَّة قاسية لتكميم الأفواه ودحر المعارضة. لم يُمكن مهاجمة أمريكا بسبب دعمها للشاه رضا بهلوي إلَّا بعد سقوط نظامه عام ١٩٧٩ ميلاديًّا، واستغل نظام ملالي الشيعة في إيران ما أشيع عن دعم أمريكا لسياسات الشاه، مقابل تغاضيه عن احتكارها النفط الإيراني.

يعترف لويس بازدواجيَّة معايير الغرب في معاملته المسلمين من منظور أدنى مما يعامله به أبناءه من الغربيِّين، وبأنَّ الغرب يتغاضى عن ممارسات سلبيَّة للحكَّام المسلمين، كانت لتقيم الدنيا وتقعدها وتثير موجة غضب عارمة، إذا ما صدرت من حاكم غربي. ويعلِّق لويس على ذلك، مشيرًا إلى أنَّ السياسات الداخليَّة للبلدان الإسلاميَّة لا تعني أمريكا، التي، لا يمكنها حتَّى أن تمانع قبول البلدان موضع الحديث في عضويَّة مفوَّضيَّة الأمم المتَّحدة؛ كونها تعي جيِّدًا بأن شعوب لا تحترم آدميَّة الإنسان لا بد وأن يحكمها "حاكم فاسد مستبد" (ص١١٦). ما يريد لويس قوله هو "هذه الشعوب غير قادرة على توجيه مجتمع ديموقراطي، وليس لديها لا الرغبة في، ولا القدرة على، احترام حرمة الإنسان...ليس من واجب الغرب إصلاح حالهم، بل ولا تغييرهم. المهم الوحيد أن يكون الحكَّام المستبدُّون أصدقاء، وليس، أعداء، للمصالح الغربيَّة" (ص١١٦). ويذكِّر لويس بموقف أمريكا من طغاة الحكَّام المسلمين، حينما توقَّفت عن دعم صدَّام حسين، وطالبت العراقيين بالثورة عليه خلال حرب الخليج، وكذلك حينما توسَّطت لإقناع حافظ الأسد

بحلِّ مشكلة مدينة حماة، بعد أن أدار فيها عام ١٩٨٢ ميلاديًّا معركة راح ضحيَّتها ما بين ١٠ آلاف و٢٥ ألف مدني.

يتعجَّب لويس من جديد من اتِّهام الغرب بالوقوف وراء تفشِّي الفقر والاستبداد؛ فهيمنة أمريكا على اقتصاد العالم الإسلامي هي سبب انتشار الفقر، ودعمها الحكَّام الطغاة هو دافعهم للبطش وقمع الحريَّات. وبما أنَّه لا يرى لبلاده ذنبًا في الاستبداد في العالم الإسلامي، كما يبرِّر ممارساتها الاقتصاديَّة التي تولي مصلحتها الأهميَّة القصوى، يعتقد لويس أنَّ الغضب من المفترض أن يوجهه المسلمون إلى حُكَّامهم، وليس إلى أمريكا. وكالعادة، فإنَّ الباعث على إبداء مشاعر السخط على أمريكا بسبب قلَّة الفرص ومحدوديَّة وسائل الرفاهية، مقارنةً بالغرب، هو حقد المسلمين على ما ينعم به الغربيُّون، بعد إدراك المسلمين "عمق الأخدود، وسعته بين فرص العالم الحر خارج حدود بلدانهم، والقمع الرهيب داخلها. ومن الطبيعي أن يوجَّه الغضب الناجم عن ذلك إلى حكَّامهم، وإلى من يعدُّونهم عاملين على المحافظة على أولئك الحكَّام في السلطة لأسباب أنانيَّة"؛ والحل الأمثل هو "مزيد من الحداثة والأفضل من صيغها" كي يلحق العالم الإسلامي بركب التقدُّم الغربي (ص١٢٧).

يتناول لويس الحركات الإسلاميَّة المناهضة لفكرة تطبيق مفاهيم الحداثة الغربيَّة، ضاربًا المثل بالحركة الوهَّابيَّة في الجزيرة العربيَّة، باعتبارها الأهم. بدأ محمَّد عبد الوهَّاب، مؤسس الحركة الوهَّابيَّة، حملته التجديديَّة عام ١٧٤٤ ميلاديًّا، داعيًا إلى العودة صحيح الرسالة المنزَّلة على نبيِّنا مُحمَّد. اعتنق حُكَّام إقليم نجد، جنوب شرق جزيرة العرب، وأغراهم المذهب الوهَّابي بالتوجُّه إلى مدينة كربلاء في العراق، قدس الأقداس بالنسبة إلى أتباع الملَّة الشيعيَّة، والواقعة تحت حُكم الدولة العثمانيَّة، في سبيل القضاء على البدع التي أدخلها الشيعة على صحيح الإسلام، ودحر الفتن المنتشرة في تلك المدينة؛ هدم الوهَّابيُّون "المراقد المقدَّسة، منتهكين حُرمة ما أسموه الأماكن المقدَّسة الزائفة، ومواضع تقديس الأشخاص حدَّ الوثنيَّة" (ص١٣١). ازداد تحدِّي الوهَّابيِّين للدولة العثمانيَّة، التي كانت قد بدأت في مرحلة الأفول والتردِّي، بعد سعيهم إلى السيطرة على

الحرمين الشريفين، وتنديدهم بالسلطان العثماني، الذي اعتبروه مرتدًّا عن عقيدة الإسلام. وسرعان ما تداركت الدولة العثمانيَّة الأمر بمساعدة والي صرن محمَّد علي باشا، الذي شنَّ هجومًا على جزيرة العرب، وقمع تمرُّد أمرائها.

وقع اتِّفاق جديد بين الوهَّابيَّة وآل سعود في السنوات الأخيرة من حُكم الدولة العثمانيَّة، وربَّما استمرَّ إلى اليوم؛ ومن أهم نتائج هذا الاتفاق توسُّع آل سعود في جزيرة العرب، وتوحيدها. وأكثر مت أسهم في تحقيق تلك النتيجة انهيار الدولة العثمانيَّة التدريجي في العقد الثاني من القرن العشرين، ثمَّ تفكُّك أراضيها في أعقاب الحرب العالميَّة الأولى، نهاية عام ١٩١٤ ميلاديًّا. وقَّع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود–مؤسس المملكة العربيَّة السعوديَّة–في يناير من عام ١٩١٥ ميلاديًّا اتفاقيَّة مع بريطانيا تقضي بمنحه استقلالًا داخليًّا عن الدولة العثمانيَّة، وبحصوله على مساعدات ماليَّة، وبمساندته في حال تعرُّضه للهجوم.

تقدَّم ابن سعود من جديد عام ١٩٢١ ميلاديًّا، حينما أنهى حُكم مملكة آل رشيد في حائل، شمال وسط جزيرة العرب؛ فاتَّخذ لنفسه لقب سُلطان نجد. لم يبقَ أمام ابن سعود سوى إقليم الحجاز، الذي يضمُّ الحرمين الشريفين، ويقع على البحر الأحمر، أي في الطرف الغربي لجزيرة العرب. ويرى لويس أنَّ سيطرة الملك المؤسس لذلك الإقليم كانت ضروريَّة؛ لأنَّه اعتبرها "تهديدًا لمُلكه" (ص١٣٢). كان خصم ابن سعود في هذا الصراع هو الشريف حسين بن علي، الذي قضى في إسطنبول مع أبنائه الثلاثة–عليٍّ وعبد الله وفيصل–١٦ عامًا، لتنتهي إقامته هناك بتعيينه شريفًا لمكَّة عام ١٩٠٨ ميلاديًّا، ضدَّ رغبة السلطان عبد الحميد الثاني، الذي أُجبر على الموافقة على تعيينه بضغط من الجهات الخارجيَّة المؤثِّرة في حُكمه في أواخره. المفارقة هي أنَّ عبد الحميد الثاني لم يبقَ في منصبه سوى عام بعد تعيين الحسين بن عليٍّ شريفًا لمكَّة، وانتهز الأخير فرصة سقوط الخلافة عام ١٩٢٤ ميلاديًّا، ليعلن نفسه خليفةً للمسلمين. احتدم الصراع بين ابن سعود والحسين بن عليٍّ بعد رفض الأخير السماح للوهَّابيِّين بأداء مناسك الحج؛ فشنَّ ملك السعوديَّة الأوَّل حربه على الحجاز، وانتهت بانتصاره، وضمِّ الإقليم إلى سُلطانه

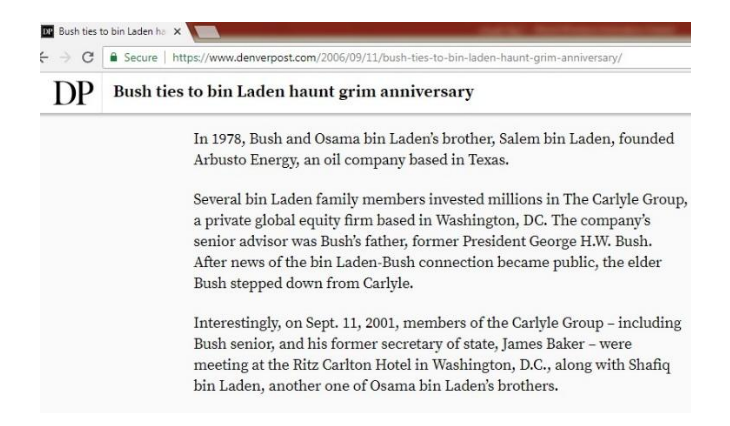
عام ١٩٢٦ ميلاديًّا. توالت اعترافات القوى العظمى في العالم بالنظام الجديد في جزيرة العرب، وكان الاتحاد السوفييتي وبريطانيا العظمى من المعترفين. في حين تعاملت الدول المسلمة مع ذلك التغيير بشيء من الحذر.

بدأ الاهتمام الأمريكي بالنفط السعودي في عشرينات القرن الماضي؛ والسبب "تزايُد الاهتمام باحتمال نفاط مصادر النفط الداخليَّة، والتخوُّف من احتكار أوروبي لنفط الشرق الأوسط" (ص١٣٣). كانت شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا أوَّل شركة أمريكيَّة تدخل مجال التنقيب عن النفط في جزيرة العرب، وقد طلبت الإذن بالتنقيب في المنطقة المطلَّة على الخليج العربي عام ١٩٣٠ ميلاديًّا، ورُفض طلبها في البداية، ولكن وافق الملك عبد العزيز بن سعود لاحقًا؛ بسبب "الكساد الاقتصادي الذي بدأ عام ١٩٢٩ (ميلاديًّا)، وأدَّى إلى تدهور متزايد في ماليَّة المملكة" (ص١٣٤). تعطَّل التنقيب عن النفط نهاية الثلاثينات من القرن الماضي، وعلى مدار سنوات الحرب العالميَّة الثانية، لكنَّه استُأنف عام ١٩٤٥ ميلاديًّا، بعد انتهاء الحرب؛ فتدفَّقت الأموال على المملكة الناشئة، واستُخدمت تلك الأموال في تحسين الأوضاع الداخليَّة، وتحقيق طفرة عمرانيَّة، وتحديث طرق الحياة. وكما كان اكتشاف النفط أهم عامود قامت عليه الطفرة الاقتصاديَّة في المملكة، كان تطبيق المذهب الوهَّابي الداعم الأكبر لمكانة السعوديَّة الدينيَّة في العالم الإسلامي، باعتبارها حاضنة الحرمين الشريفين. ولانتباه المملكة إلى عدائها العقدي مع أتباع المذهب الشيعي، وبخاصَّة بعد إعلان الجمهوريَّة الإسلاميَّة في إيران عام ١٩٧٩ ميلاديًّا، أغدقت المملكة الإنفاق على نشر الفكر السُّنِّي، متمثِّلًا في المذهب الوهَّابي. أسست المملكة مراكز لتحفيظ القرآن الكريم، ومراكز أخرى لتعليم حديثي الدخول في الإسلام أصول الدين.

يستخدم لويس هذا الاستعراض لتطوُّر المذهب الوهَّابي في السعوديَّة في إبراز خطورة استغلال أموال النفط الطائلة في تأسيس مدارس لتلقين الفكر الإسلامي المتشدِّد. وكما أدَّت عائدات النفط الهائلة إلى حياة فئة مجتمعيَّة محدودة في بذخ وترف، حدثت فجوة اجتماعيَّة هائلة بين الطبقة العليا في المجتمع والطبقات الأدنى، مما أشعل فتيل العدائيَّة

وأثار مشاعر الحقد لدى البعض من الشباب متواضع التعليم. بتأثير من التعاليم المتشدِّدة، انضمَّ بعض هؤلاء إلى جماعات أصوليَّة استخدمت العنف ضدَّ الغرب باعتباره سبب الفجوة الاجتماعيَّة في الداخل العربي؛ بدعمه الأنظمة الباطشة بشعوبها وتغاضيه عن انتهاكاتها، في مقابل مقاسمة تلك الأنظمة ما تسلبه شعوبها، كما سبق وأن أشار لويس. غير أنَّ أسامة بن لادن ينفي هذا الافتراض بالكليَّة؛ فمن المعروف أنَّ أسامة بن لادن ينحدر من أسرة فاحشة الثراء، فأبوه الملياردير محمَّد بن لادن هو مؤسس مجموعة بن لادن السعودية، وهي من أكبر شركات الإنشاءات السعوديَّة، التي مُنحت ثقة العاهل السعودي منذ أمد بتولِّي توسعة الحرم المكِّي. في مقال بعنوان " Bush ties to bin Laden haunt grim anniversary "–علاقة بوش ببن لادن تثير ذكرى تعسة، نشره موقع ذا دنفر بوست الأمريكي عن علاقة أسرة الرئيس الأمريكي الراحل جورج بوش الأب مع أسرة بن لادن.

تقول كاتبة المقال، المنشور في ١١ من سبتمبر ٢٠٠٦، أي الذكرى الخامسة لتدمير برجي التجارة العالميَّة في نيويورك، أنَّ أسرة بوش أسست مع سالم بن لادن، شقيق أسامة الأكبر، عام ١٩٧٨ ميلاديًّا شركة نفط باسم Arbusto Energy في ولاية تكساس الأمريكيَّة. وتضيف الكاتبة أنَّ العديد من أفراد أسرة بن لادن كانوا يستثمرون في شركة The Carlyle Group الأمريكيَّة لإدارة الأصول والخدمات الماليَّة، التي كان الرئيس بوش الأب كبير مستشاريها؛ **والمفارقة أنَّ أعضاء الشركة كانوا يوم ١١ من سبتمبر عام ٢٠٠١ في اجتماع، ضمَّ الرئيس جورج بوش الأب، ووزير خارجيته جيمس بيكر، وشفيق بن لادن، أحد إخوة أسامة، المتهم الرئيس بتدبير تفجير برجي التجارة.** يقول المقال نصًّا:


Bush ties to bin Laden haunt grim anniversary

In 1978, Bush and Osama bin Laden's brother, Salem bin Laden, founded Arbusto Energy, an oil company based in Texas.

Several bin Laden family members invested millions in The Carlyle Group, a private global equity firm based in Washington, DC. The company's senior advisor was Bush's father, former President George H.W. Bush. After news of the bin Laden-Bush connection became public, the elder Bush stepped down from Carlyle.

Interestingly, on Sept. 11, 2001, members of the Carlyle Group – including Bush senior, and his former secretary of state, James Baker – were meeting at the Ritz Carlton Hotel in Washington, D.C., along with Shafiq bin Laden, another one of Osama bin Laden's brothers.

عودةً إلى رأي لويس في الجماعات الأصوليَّة الإسلاميَّة، فهو يراها "تتغذَّى...على الحرمان والازدراء، وعلى ما تثيره هذه من حنق وسخط، بعد إخفاق كلِّ العلاجات السياسيَّة والاقتصاديَّة، أجنبيَّة مستوردة كانت، أم محاكاة محليَّة لها (ص١٣٧). تصب تلك الجماعات غضبها على الموالين للغرب في العالم الإسلامي، باعتبارهم "أعداء الإسلام القدامى والدائمين" (ص١٣٧). وما يعظِّم من خطر الأصوليَّة الإسلاميَّة، في رأي لويس، كونها سهلة في الاتباع، ولا يمكن حظرها، على اعتبار أنَّ نشر يكون من خلال المساجد، ولا تملك أيُّ ديكتاتوريَّة إسلاميَّة السلطة على غلق المساجد، أو التحكُّم في اجتماعات مرتاديها.

يعرِّف لويس الأصوليِّين الإسلاميِّين بأنَّهم "الذين يحسُّون أنَّ مشاعر العالم الإسلامي حاليًا، ليست بسبب عدم كفاية التحديث، بل نتيجة فرط التحديث، الذي يعدُّونه خيانةً للقيم الإسلاميَّة الحقَّة. والعلاج برأيهم، العودة إلى الإسلام الحقِّ...والصراع النهائي برأيهم، ليس مع الدخيل العربي، وإنَّما مع الخائن الموالي للغرب في الداخل" (ص١٣٨). يستشهد لويس في ذلك برأي عبد السلام فرج، أحد الضالعين في اغتيال الرئيس المصري الأسبق، أنور السادات، فيما نُسب إليه من قول في كتاب **الجهاد: الفريضة الغائبة**، الصادر في عمان عام ١٩٨٢. يقول فرج "ليست مصارعة الإمبرياليَّة بالعمل الجيِّد أو المفيد، إنَّها مضيعة للوقت...لا شكَّ أنَّ أول معارك الجهاد هي استئصال هؤلاء القادة الكفرة، واستبدالهم بنظام إسلامي، يتَّسم بالكمال" (ص١٣٩).

يتناول لويس في الفصل الأخير من كتابه مسألة ظهور الإرهاب، مشيرًا إلى أنَّ الأصوليَّة الإسلاميَّة تعتنقها فئة محدودة من المسلمين، كما أنَّ جميع الأصوليِّين ليسوا إرهابيِّين، ولكن "أغلب إرهابيي العالم مسلمين"، وفق تعبيره (ص١٤١). ما تشترك فيه الجماعات المتطرِّفة هو الاستشهاد بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبويَّة، على نحو يخدم الأغراض الخاصَّة؛ لأنَّ تلك الجماعات "انتقائيَّة جدًّا في اختيار النصوص المقدَّسة وتفسيرها" (ص١٤٢). يضرب لويس المثل في ذلك بفتوى الخميني عام ١٩٨٩ ميلاديًّا بإهدار دم المؤلف البريطاني–هندي الأصل–سلمان رشدي، بسبب روايته **آيات شيطانيَّة،** التي أثارت جدلًا واسعًا؛ لما اعتُبر إساءة صريحة للنبي والقرآن. تعهَّد الخميني بدفع مكافأة ماليَّة كبيرة لمن يقتل رشدي. يستعرض لويس بعد ذلك ترسُّخ عقيدة قتل المخالفين في الرأي عند المسلمين، ضاربًا المثل بطائفة دينيَّة اعتنقت الملَّة الشيعيَّة، هي طائفة الحشَّاشين، التي ظهرت في إيران ونشطت في سوريا في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر للميلاد. عادت هذه الطائفة الحكَّام، الذين اعتبرتهم "مغتصبي عروش فَسَقَة"؛ ويرى لويس أنَّ الحشَّاشين هم "الأسلاف الحقيقيُّون للكثير ممن تُطلق عليهم–اليوم–إرهابيين" (ص١٤٥–١٤٦).

يتحدَّث لويس عن الإرهاب في شكله العصري، الذي يستهدف في الأساس ترويع الآمنين وتهديد الأبرياء، الذين تطالهم أيادي العبث خلال الهجمات الإرهابيَّة، ولا يجد المنفِّذون رادعًا عن تعريضهم للخطر. يضرب الكاتب المثل في ذلك بمنظمة التحرير الفلسطينيَّة، التي أُسست عام ١٩٦٤ ميلاديًّا، وازداد نشاطها بعد هزيمة العرب في حرب الأيام الستَّة، عام ١٩٦٧. يصوِّر لويس هذه المنظَّمة وكأنَّ أهم أهدافها إثارة الرأي وشغل حيِّز من التغطية الإعلاميَّة للأحداث في المنطقة. استهدفت منظمة التحرير الفلسطينيَّة أهدافًا مدنيَّة، من مدارس، ومراقص، ومراكز تجاريَّة، بل وتجمُّعات لمسافرين في بعض العواصم الأوروبيَّة. لم تحقق المنظَّمة في رأي لويس نجاحًا هامًّا في فلسطين، إنَّما في الخارج؛ لأنَّ هدفها كان "هزيمة الحكَّام الأجانب، ورحيلهم، وتأسيس حُكم وطني، يقوده قادة وطنيُّون" (ص١٤٨). ظهر مفهوم جديد لشحذ همم المسلمين في العالم

الإسلامي، وهو الوَحدة الإسلاميَّة–pan Islamism، وهو مفهوم ينطوي على تجاهُل الفوارق بين مختلف المذاهب الدينيَّة الإسلاميَّة، واتحاد المسلمين على هدف واحد، وهو النهوض ببلادهم. نجحت بعض الحركات الدينيَّة، من بينها جماعة الإخوان المسلمون، في استغلال مفهوم ضرورة الوَحدة بين الأقطار المسلمة في تأسيس قاعدة جماهيريَّة، وبخاصَّة بعد إخفاق مفهوم القوميَّة بعد حرب الأيام الستَّة. وتكمن خطورة هذا المفهوم في أنَّ معتنقيه لا يرون حلًّا للقضيَّة الفلسطينيَّة سوى إزالة الكيان الصهيوني بالكامل، دون رؤية أيِّ حقٍّ لليهود في الأرض المقدَّسة. ويعتبر ظهور مفهوم العمليَّات الانتحاريَّة–أو الاستشهاديَّة، وفق تعبيرهم–ضمن طرق الجماعات الأصوليَّة في تنفيذ أهداف إلحاق الضرر بالعدو. وكانت منظَّمتا حزب الله وحماس من أكثر الجماعات التي أجرت عمليَّات انتحاريَّة منذ عام ١٩٨٢ ميلاديًّا إلى اليوم. ولا شكَّ أنَّ عملية تفجير برجي التجارة في ١١ سبتمبر من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا أشهر نموذج للعمليَّات الانتحاريَّة، التي آثرت تحقيق أهدافها، مع "عدم رأفة من أرسلهم، لا على مبعوثيهم، ولا على ضحاياهم الكثيرين" (ص١٥٢).

ويسخر لويس من التفسير الإعلامي العربي للحدث بنفي الاتهام عن المسلمين، وادعاء أنَّ المتسبب جماعات صهيونيَّة بمعاونة أمريكيَّة، وبالاعتقاد أنَّ هذا انتقام إلهي من أمريكا على ما اقترفته من انتهاكات ضدَّ المسلمين. يقول لويس في النهاية "تمثِّل أمريكا اليوم حضارة دار الحرب، وتجسِّد قيادتها، وقد باتت–مثلها مثل روما وبيزنطة–منحلَّة ومتفسِّخة أخلاقيًّا، آيلة للسقوط، لكنَّها–على الرغم من ضعفها–خطيرة" (ص١٥٨). صحيح أنَّ أمريكا تمثِّل لدى البعض "الشيطان الأكبر" في إغوائها ونشرها مفاهيم معادية للدين، لكنَّها تمثِّل لدى آخرين "الوعد بحقوق الإنسان، والمؤسسات الحرَّة، وحكومة مسؤولة ممثلة للشعب" (ص١٥٨). ينهي لويس كتابه بالإشارة إلى توقُّعه نشوء صراع بين الإسلام الأصولي والغرب، متوعِّدًا بمستقبل مُظلم إذا حُسم الصراع لصالح الفريق الأول، "**إذا كان الأصوليُّون على حقٍّ في حساباتهم، وربحوا الحرب، فإنَّ مستقبلًا مظلمًا ينتظر العالم**" (ص١٥٩).

٧."الحرب المقدَّسة" على الإرهاب "الإسلامي": مَن يمنحها الشرعيَّة؟

كما يتَّضح من خلال الاطِّلاع على نظرة برنارد لويس للعالم الإسلامي، فإنَّ السمة الغالبة عليها هي الاستعلاء والعنصريَّة، بالإضافة إلى الاجتهاد في إثبات وجود جانب عنيف ومتطرِّف في الفكر الإسلامي، ينبع من النصوص الدينيَّة المحرِّضة على العُنف، على حدِّ زعمه وغير من المستشرقين. استغلَّ لويس أحداث ٩/١١ من عام ٢٠٠١ ميلاديًّا، في إثبات ادعاء ذَكَره في مقاله **جذور الغضب الإسلامي (١٩٩٠)**، بأنَّ سبب كراهية المسلمين للغرب ينبع من شعور بالحقد على الحضارة الغربيَّة، بعد مشاهدة المسلمين مُنجزات الغرب عبر وسائل الإعلام المرئيَّة. تصادفت أحداث ٩/١١ المدوِّية مع استعداد لويس نشر كتابه **What Went Wrong–أين يكمن الخطأ**، فأجَّله إلى مطلع عام ٢٠٠٢؛ فاستغلَّ الحملة الترويجيَّة للكتاب، كما سبقت الإشارة، في ترسيخ مفهوم الإرهاب الإسلامي والخطر الذي يشكِّله على الغرب، مانحًا الشرعيَّة لأيِّ عمل حربي تقوم به بلاده لمواجهة ذلك الخطر. وبالفعل، خاضت أمريكا حربًا موسَّعة في أفغانستان في ٢٠٠١، أتبعتها بحرب لا تقلُّ ضراوةً في العراق، بعد اتِّهامها نظام صدَّام حسين بالتستُّر على الإرهاب، ومعاونة منظَّمات إرهابيَّة، من بينها تنظيم القاعدة، المتَّهم بتنفيذ عمليَّة تفجير برجي مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك الأمريكيَّة.

في عام ٢٠١٦ ميلاديًّا، مرَّر مجلس النوَّاب الأمريكي قانونًا جديدًا عدَّل من مسألة حصانة الدول الأجنبيَّة فيما يتعلَّق بالمساءَلة في قضايا مكافحة الإرهاب؛ ليمنح الإدارة الأمريكيَّة الحقَّ في مقاضاة أيِّ دولة تورَّط مواطنوها في عمليَّات إرهابيَّة. يحمل القانون اسم Justice Against Sponsors of Terrorism Act–العدالة ضدَّ رعاة الإرهاب، وهو معروف بالاسم المختصَر قانون جاستا. ولأنَّ ١٥ من بين منفِّذي أحداث ٩/١١، من أصل ١٩ شخصًا، سعوديُّون، رُفعت قضيَّة على المملكة العربيَّة السعوديَّة تتهمها بالتورُّط في العمل الإرهابي، وتطالبها بتعويضات هائلة، ربَّما تصل إلى مئات المليارات من الدُّولارات. ووفقًا لما نشره موقع روسيا اليوم في ١٩ ديسمبر من عام ٢٠١٦، مارست السعوديَّة ضغوطًا قويَّة لدفع أمريكا إلى تعديل القانون.

News | USA | UK | Sport | Russia | Business | Op-ed

Saudi Arabia lobbies to amend JASTA law which allows 9/11 victims to sue the Gulf state

Published time: 19 Dec, 2016 07:25

ومن بين **وسائل الضغط التي مارستها السعوديَّة التلويح ببيع سندات في الخزانة الأمريكيَّة وأصول أخرى لها في أمريكا تُقدَّر بقيمة ٧٥٠ مليار دولار أمريكي**، لكنَّ الدعاوى المطالِبة بالتعويض بدأت تتوالى حينها، مما يعرِّض سلامة الأصول الأمريكيَّة للخطر. المثير للانتباه، وفق مقال روسيا اليوم، أنَّ السعوديَّة لم تُقدم، لا على سحب استثماراتها من أمريكا، ولا على التوقُّف عن الاستثمار فيها.

Saudi Arabia recently warned it would pull its money out of the US economy, selling up to $750 billion in US treasury securities and other assets, before lawsuits demanding compensation start pouring in and put these assets in jeopardy.

في ٢٠ مارس من عام ٢٠١٧، كتب موقع يو إس توداي مقالًا يشير إلى إقدام أسر ضحايا أحداث ٩/١١ على مقاضاة السعوديَّة بسبب "دورها في الهجمات". فقد رفعت أسر ٨٥٠ شخصًا لقوا حتفهم في الأحداث، و١٥٠٠ آخرين أُصيبوا دعوى أمام إحدى محاكم مدينة نيويورك، اتَّهموا فيها المملكة العربيَّة السعوديَّة رسميًّا بالمسؤوليَّة عن مساعدة بعض منفِّذي الهجمات.

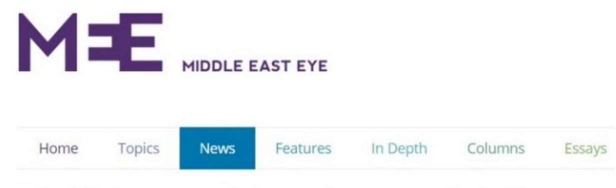
A lawsuit filed Monday in federal court on behalf of the families of 850 people who died and another 1,500 who were injured in the Sept. 11, 2001, terror attacks on the U.S. holds the Kingdom of Saudi Arabia responsible for helping some of the attackers.

وتذكر الدعوى بالاسم عددًا من المؤسسات الخيريَّة السعوديَّة، باعتبارها كيانات تمثِّل المملكة بصورةٍ غير مباشرة ويشغل مناصبها تابعون للحكومة، زعم المدَّعون تنظيم تلك المؤسسات معسكرات تدريب في أفغانستان، وتعاونها مع أسامة بن لادن–زعيم تنظيم القاعدة السابق–في فتح مكاتب لها في أفغانستان وباكستان لدعم التنظيم الإرهابي. وتُتَّهم السعوديَّة كذلك بتقديم مساعدات أخرى لمنفِّذي الهجمات، منها تزويدهم بجوازات سفر، وسُبُل للتنقُّل في شتَّى أنحاء العالم.

The suit names several Saudi Arabian charities that were "alter egos of the government" that were staffed by the government, that ran terrorist training camps in Afghanistan and "the whole world knows they were dirty," Kreindler said. The charities worked with late al-Qaeda leader Osama bin Laden to open offices in Pakistan and Afghanistan and establish the terrorist organization, the suit alleges.

The Kingdom of Saudi Arabia directly funded al-Qaeda, the lawyer said. Saudi Arabia supported the terrorists by supplying assistance such as passports and worldwide transportation, he said.

في ١١ سبتمبر من عام ٢٠١٨، أي في الذكرى السابعة عشرة لأحداث ٩/١١، نشر موقع ميدل إيست مونيتور مقالًا بعنوان "دعوى ٩/١١ تهدِّد طموحات السعوديَّة"، استهلَّته بعبارة تقول "يخطئ السعوديُّون إذا توهَّموا أنَّ دونالد ترامب قد يساعدهم بشأن دعوى تتهمهم بالضلوع في هجمات ٩/١١". يتناول المقال مساعي السعوديَّة، تحت رعاية ولي العهد السعودي، إلى الدخول في نقلة نوعيَّة على المستوى الاقتصادي، من خلال تنويع استثماراتها، وبخاصَّة في مجالات بعيدة عن النفط، حيث تنوي المملكة بيع حصَّة تُقدَّر بـ ٥ بالمائة من أسهم شركة أرامكو، شركة النفط المملوكة للدولة، للحصول على قيمة ١٠٠ مليار دولار لدعم القطاعات الأخرى.


MIDDLE EAST EYE

Home | Topics | News | Features | In Depth | Columns | Essays

The 9/11 lawsuit looming over Saudi Arabia's ambitions

#SaudiStruggle

Saudis would be mistaken to think Donald Trump can help them with lawsuit alleging role in 9/11 attacks, lawyer says

ويشير المقال إلى حقيقة أنَّ جورج داينلز، القاضي لمكلَّف بالنظر في الدعوى، طالَب إيران في مايو الماضي بتسديد ٦ مليارات دولار لصالح أسر ضحايا أحداث ٩/١١؛ بسبب توفيرها الدعم المادي للمتورِّطين في تنفيذ الهجمات، مضيفًا أنَّ إيران التي لا تمتلك أيَّة استثمارات داخل الولايات المتَّحدة طالتها عقوبات وزارة الخزانة الأمريكيَّة بسبب برنامجها النووي، فما الحال مع السعوديَّة التي تمتلك استثمارات هائلة هناك؟ وينقل المقال تصريح أندرو مالني، المحامي الموكَّل من قِبل أسر الضحايا، الذي يفيد بأنَّ في

حال امتناع السعوديَّة عن التعاون مع بلاده في هذا الصدد، ستلقى نفس عقوبات مماثلة للعقوبات المفروضة على إيران، أملًا ألَّا تجبرهم المملكة على ذلك.

Still, in May, Daniels ordered Iran to pay $6bn to the victims' families.

While Iran has no business in the US and is already under Treasury Department sanctions relating to its nuclear programme, Saudi assets in the US are abundant and would be up for grabs if the plaintiffs win.

"If the Saudis were to simply say: 'We're not going to cooperate; see you later,' we can do the same thing that has happened to Iran," Maloney told MEE in a phone interview last month. "I think it would be a very bad move to the Saudis to go down that route."

جدير بالإشارة أنَّ موقع بلومبرج الاقتصادي الشهير قد نشر بتاريخ ٢٢ أكتوبر ٢٠١٩، أنَّ عملاق النفط السعودي ينوي طرح أسهمه قبل نهاية عام ٢٠١٩، وإن كان القائمون على الشركة متردِّدين، خشية إساءة تقدير قيمة الأسهم، في أعقاب تقاعُس بعض المستثمرين الأجانب عن الاستثمار في قطاع النفط السعودي، على خلفيَّة الهجمات التي أصابت منشآت نفطيَّة للشركة في ١٤ سبتمبر ٢٠١٩.

Bloomberg

Markets

Saudi Aramco Pushing to Complete Mammoth IPO This Year

By Dinesh Nair, Archana Narayanan, and Matthew Martin
October 22, 2019

نشرت صحيفة واشنطن بوست الأمريكيَّة الشهيرة في ٢٢ أكتوبر من عام ٢٠١٨، مقالًا بعنوان "حان وقت إسكات آلة الضغط السعوديَّة"، في إشارة إلى امتلاك السعوديَّة ما يقرب من ٣٠ شركة للعلاقات العامَّة والحشد الإعلامي في الولايات المتَّحدة، تعمل على تحسين صورة المملكة هناك بسبب اتهام المملكة برعاية الإرهاب بعد أحداث ٩/١١.


Sections
The Washington Post
Democracy Dies in Darkness
Sign In

It's time to silence the Saudi lobbying machine in Washington

يشير المقال إلى أنَّ السعوديَّة بدأت في السعي إلى تحسين صورتها منذ نهاية عام ٢٠٠١، بعد الإعلان عن أنَّ ١٥ من منفِّذي هجمات ٩/١١، وعددهم ١٩، من

مواطنيها؛ فبذلت في سبيل ذلك ١٠٠ مليار دولار على مدار ١٠ سنوات، وُجِّهت إلى بيوت خبرة وجامعات أمريكيَّة بارزة، بهدف خدمة المصالح السعوديَّة هناك. نجحت حملات تبييض وجه السعوديَّة في عهد الرئيس الأمريكي السابق، باراك أوباما، على حدِّ وصف المقال، وتُرجم ذلك إلى تعاون تجاري، خاصَّة في مجال التسليح. واستمر هذا التعاون في عهد الرئيس الحالي ترامب، الذي أبرم مع المملكة صفقة كبيرة لبيع الأسلحة في مايو من عام ٢٠١٧، في أولى زياراته الخارجيَّة بعد تولِّيه الرئاسة، والموجَّهة إلى السعوديَّة. وينتقد كاتب المقال استخدام ترامب هذه الصفقة مبررًا لعدم معاقبة السعوديَّة على مقتل الصحافي جمال خاشقجي في قنصليَّتها في مدينة إسطنبول التركيَّة في ٢ أكتوبر من عام ٢٠١٨.

The story of the rise of Saudi influence in Washington begins after the terrorist attacks of Sept. 11, 2001, when it was revealed that 15 of the 19 hijackers were from Saudi Arabia. In the next 10 years, the Saudis spent more than $100 million to reshape their image in Washington. They were so successful that the Obama administration — while negotiating the Iran deal that the Saudis opposed — offered Saudi Arabia $115 billion in arms sales, far more than any administration in U.S. history. These are the same arms deals that President Trump keeps falsely claiming credit for and is using as a completely misguided justification for not punishing the Saudis for Khashoggi's death.

يشير كاتب المقال إلى أنَّ الوقت قد حان للنظر في ممارسات السعوديَّة ضد المدنيين، مشيرًا إلى استخدامها السلاح الأمريكي منذ عام ٢٠١٥ في قتل اليمنيين، وسط دفاع الرئيس الأمريكي، الذي يبرر سكوته باحتياج بلاده إلى أموال صفقات السلاح مع السعوديَّة. غير أنَّ حادث مقتل الصحافي السعودي جمال خاشقجي قد "غيَّر المعادلة"، بأن سمح لأوَّل مرَّة في تاريخ "جرائم السعوديَّة" الحديث تعالي أصوات التنديد من كافة الانتماءات السياسيَّة، المطالِبة بفرض قائمة من العقوبات على السعوديَّة، من بينها فرض عقوبات ماليَّة، وحظر بيع الأسلحة إليها، وتوقُّف الدعم الأمريكي لها في حربها على اليمن.

But Khashoggi's murder by the Saudis has changed the equation. For the first time in the recent history of Saudi misdeeds, there are outcries from across the political spectrum. Some of the loudest voices opposing the Saudis are congressional Republicans who, along with many of their Democratic colleagues, have called for a host of punishments for the Saudis, including sanctions, blocking arms sales and ending U.S. support for Saudi Arabia's war in Yemen.

ويعيب كاتب المقال على استمرار بعض شركات العلاقات العامَّة في أمريكا التعاون مع السعوديَّة، برغم امتناع بعض الشركات الأمريكيَّة الأخرى عن مواصلة التعاون معها، منذ اختفاء خاشقجي، ثم إعلان مقتله، مشيرًا إلى بذل الشركات المستمرَّة في التعاون مع السعوديَّة جهدًا مضنيًا لإخراجها من تلك الورطة. غير أنَّ الكاتب يشكك في إمكانيَّة نجاح حملة تبرئة السعوديَّة، مرجعًا الفضل في ذلك إلى الصحافي الراحل، الذي فتح بمقتله المجال أمام المطالبة بإسكات جماعات الضغط التابعة للمملكة، ومعاقبتها على ما ارتكبته.

The story of the rise of Saudi influence in Washington begins after the terrorist attacks of Sept. 11, 2001, when it was revealed that 15 of the 19 hijackers were from Saudi Arabia. In the next 10 years, the Saudis spent more than $100 million to reshape their image in Washington. They were so successful that the Obama administration — while negotiating the Iran deal that the Saudis opposed — offered Saudi Arabia $115 billion in arms sales, far more than any administration in U.S. history. These are the same arms deals that President Trump keeps falsely claiming credit for and is using as a completely misguided justification for not punishing the Saudis for Khashoggi's death.

بعد استعراض أهم نتائج اتهام السعوديَّة بالمشاركة في أحداث ٩/١١، نلقي الضوء على أبعاد أخرى في هذا الصدد، توضح مسؤوليَّة أطراف أخرى عن تنفيذ الهجمات، من شأنها التخفيف من حدَّة اتهام المسلمين بالإرهاب، إن لم تُبطله.

٨. نتنياهو: "التِّكنولوجيا الإسرائيليَّة تقود العالم"؛ والسُّؤال: إلى ما تقوده؟

ألقى رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في ٦ مارس من عام ٢٠١٨ ميلاديًّا خطابًا وجهه إلى الأيباك –AIPAC، أو لجنة الشؤون العامة الأمريكيَّة الإسرائيليَّة، وهي، كمَّا تعرِّف بها موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة، إحدى جماعات الضغط على أعضاء

الكونغرس الأمريكي. جاء خطاب نتنياهو متزامنًا مع مرور ٧٠ عامًا على تأسيس دولة إسرائيل، وبعد اعتراف الرئيس دونالد ترامب–المرشَّح الجمهوري، المدعوم من جماعة المحافظين الجُدد، المنتمين إلى المذهب البروتستانتي الإنجيلي، المعروف كذلك بالمسيحيَّة الصهيونيَّة–بأورشليم/القُدس عاصمة لإسرائيل.



صورة ٤٠–نتنياهو في مؤتمر الأيباك لعام ٢٠١٨

يتقدَّم نتنياهو في مستهلِّ خطابه بالشكر إلى الرئيس الأمريكي على "قراره التاريخي" آنف الذكر، وعلى القرار اللاحق له بنقْل السفارة الأمريكيَّة إلى أورشليم. ويواصل رئيس الوزراء الإسرائيلي تقديم الشكر لكلِّ من شارك في تحقيق حُلم الاعتراف الأمريكي بأورشليم عاصمة للكيان الصهيوني، من وزراء وساسة أمريكيين وإسرائيليين.

يستخدم نتنياهو التورية في توظيفه عنوان فيلم حركة أمريكي شهير باسم The Good the Bad and the Ugly، أو الطيِّب والشرس والقبيح، في التعبير عن مواقف العالم المختلفة من دولة إسرائيل، ولكن بعد تحويل الاسم إلى "الطيِّب والسيِّء والجميل". يقصد نتنياهو بـ "الطيِّب" كلَّ ما يفعله وأقرانه في إسرائيل في سبيل "جعل العالم أفضل"؛ أمَّا "السيِّء"، فهو المؤامرات التي تحيكها القوى "الخبيثة/الحاقدة" ضدَّ إسرائيل والعالم، مختصًّا إيران بالذِّكر. ويبدأ رئيس الوزراء الإسرائيلي بعد ذلك في التحدُّث عن أهم موضوعات خطابه، وأكثر ما يرتبط بهذه الدراسة، وهو التطوُّر التقني الهائل الذي حققته إسرائيل في السنوات القليلة الماضية، مما أهَّلها لـ "قيادة العالم"، على حدِّ وصفه. وأوَّل

ما تناوله نتنياهو بالذِّكر هو **تحديث مجال تصنيع الأسلحة والمعدَّات الحربيَّة**، **في تباهٍ بمنجزات بلاده الحداثيَّة بمعاونته شريكتها الولايات المتَّحدة، واستعراض للقوَّة العسكريَّة "غير المسبوقة"، لافتًا إلى إعداد بلاده طائرة حربيَّة F-35، وهي منظومة للدفاع الصاروخي تُعرف بالقبَّة الحديديَّة**. لم ينسَ نتنياهو الإثناء على **مهارة الاستخبارات الإسرائيليَّة في تأمين الحماية، ليس لإسرائيل وحدها، إنَّما لـ "العالم بأسره"، على حدِّ تعبيره**، بفضل جهود جنود جيش الدفاع الإسرائيلي، المكوَّن من كافَّة طوائف المجتمع الدولي وانتماءاته الفكريَّة والدينيَّة والسلوكيَّة. جنود جيش الدفاع الإسرائيلي هم "**رجال ونساء؛ بيض وسود؛ متديِّنون وعلمانيُّون؛ مستقيمون ومثليُّون؛ يهود، ومسلمون، ومسيحيُّون، ودروز، وشراكسة**"، **وكلهُّم مجتمعون على هدف واحد**: "**حماية دولة إسرائيل**".

That plane could have been blown out of the sky if it weren't for Israeli intelligence. You're boarding planes when you leave this place. You are safer because of Israeli intelligence. It not only protects Israeli lives, it protects innocent lives around the world. And we're able to do all this because of the extraordinary soldiers of the IDF – men and women, black and white, religious and secular, gay and straight, Jews, Muslims, Christians, Druze, Circassians – they come from different backgrounds but they're united with a common missions: To protect the State of Israel.

يتطرَّق نتنياهو بعد ذلك إلى الإثناء على جهود العاملين في مجال ريادة الأعمال، ويعتبر أنَّه يمر بـ "**ثورة**" نوعيَّة، ما كانت لتحدث في زمن أفضل. وأكثر ما يثبت الطفرة الهائلة في عالم التقنية الحديثة أنَّ الشركات الست الأهم في العالم عام ٢٠٠٦ ميلاديًّا تألَّفت من خمس شركات في الطاقة وواحدة في تكنولوجيا المعلومات. أمَّا في ٢٠١٦، فالشركات الست الأعلى إيرادًا في العالم تألَّفت من خمس في تكنولوجيا المعلومات، وواحدة فقط في الطاقة. وتمتلك كبرى الشركات التقنيَّة الأمريكيَّة، أبل وجوجل ومايكروسوفت وأمازون وفيسبوك، مراكز بحثيَّة رئيسة لها في إسرائيل، وتتضافر جهود تلك المراكز مع تقنيات البيانات الضخمة، والاتصال، والذكاء الاصطناعي في "إخضاع الصناعات القديمة لتطوُّر ثوري وتطوير صناعات جديدة لم تُعرف من قبل قط".

Entrepreneurship – there's a revolution taking place, this couldn't happen at a better time. Look at the top countries in 2006 – five energy, one IT. A mere 10 years later, 2016, a blink of an eye in historical terms, it's completely reversed. Five IT companies, one energy company left. The true wealth is in innovation.

You know, these companies – Apple, Google, Microsoft, Amazon, Facebook – guess what? They all have research centers in Israel! Major research centers. And they're not alone, there are hundreds more and there's a reason: something is going on. It's a great change. It's want to hear jargon? This is a terrible sentence, but it's the confluence of big data, connectivity, and artificial intelligence. You get that? You know what they do? It revolutionizes old industries and creates entirely new industries!

وينتقل نتنياهو بعد ذلك إلى مسألة في غاية الحساسية بالنسبة إلى بلاده، وهي التحديث في مجال التقنيات الزراعيَّة، التي امتدَّت إلى حدِّ التحكُّم في أعمال الريِّ والتسميد بأحدث الوسائل، وبحسب حاجة كلِّ نبات؛ ويقول في هذا متباهيًا "تلك هي **الزراعة الدقيقة، إنَّها إسرائيليَّة!**"

Here's an old industry we were always great at, agriculture. Now we have precision agriculture! See that drone in the sky? Connected to a big database there are sensors in the field, in the field drip irrigation, fertilization, and now we can target with this tech the water we give, the fertilizer we give, down to the individual plant that needs it. That's precision agriculture, that's Israeli!

امتدَّ التقدُّم التقني الإسرائيلي إلى حدِّ توفير مصادر مياه شُرب لمناطق قاحلة في مختلف أنحاء العالم. ويروي نتنياهو عن امرأة إفريقيَّة كانت تسير ثماني ساعات لتوفير المياه لأبنائها، حتَّى وفَّرت شركة إسرائيليَّة تقنيَّة تقوم على التناضُح، أو الأزموزيَّة، بتوليد المياه من الهواء الدقيق. ووصلت تقنيات إسرائيل الزراعيَّة إلى الهند، ويفتخر مستخدموها بمضاعفة أرباح الزراعة إلى خمس مرَّات؛ وهنا يقول نتنياهو "**إسرائيل تغيِّر العالم في الهند، وآسيا، وإفريقيا؛ في كلِّ مكانٍ**".

I just heard about an African woman in Africa, who has to walk 8 hours to give water to her children. Four hours one way, four hours back. A young Israeli brought to the country a company that improves osmosis, they made one from thin air – they bring water to Africa, to millions of people in Africa, Israeli technology! I was just recently in India, that's my friend, Modi! Great friend. I'm showing him cherry tomatoes, this is Israeli technology and what I heard there was fantastic. Farmers came from the region, there's a farm there and a place where Israel gives tech know-how to Indian farmers, 65 percent of India's coop is farmers. One after the other gets up and says: "Because of Israeli tech, I've increased crop yields and income three, four, five times." Israel is changing the world in India, Asia, Africa, Latin America, everywhere!

ويقول رئيس الوزراء الإسرائيلي عن تأثير الحداثة على حياة البشر في هذه الآونة "**هذه هي الصناعات القديمة؛ أمَّا الآن، فهناك صناعات جديدة. حرفيًّا، إسرائيل تقود العالم...التكنولوجيا الإسرائيليَّة تقود العالم**".

These are the old industries. Now there are new industries, Israel is literally driving the world. I'm talking about anonymous vehicles! Israel is world leader in autonomous vehicles, 500 tech companies that sprang up instantaneously, one of them just sold to intel for a paltry sum of 15 billion dollar. Here are the keys to our 30 worldwide autonomous vehicles – you run it. Israel technology is driving the world.

إلى جانب السيَّارات ذاتيَّة القيادة، التي تمتلك إسرائيل في مجالها ٥٠٠ شركة، تفوقَّت إسرائيل كذلك في مجال أمن الإنترنت، بل "أصبحت رائدة العالم" في هذا المجال. يتفاخر نتنياهو بأنَّ دولة مثل إسرائيل، تعدادها لا يتجاوز عُشر ١ بالمائة من سُكَّان العالم تتمتَّع بنسبة ٢٠ بالمائة من الاستثمارات في مجال الأمن الإلكتروني في العالم. وبعد أن ردَّد رئيس الوزراء الإسرائيلي سلسلة من "المبشِّرات"، جاء دور "المنفِّرات"، بالإشارة إلى تهديد إيران للأمن القومي الإسرائيلي. ذكَّر نتنياهو بإشارة في آخر خطاب له أمام الأيباك، في ٢٧ مارس من عام ٢٠١٧، إلى "**اتفاق نووي كان بمثابة تهديد لبقاء إسرائيل...لأمن المنطقة، أو لتقل للسلام العالمي**". كان نتنياهو قد تغيَّب عن الحضور إلى الاجتماع السنوي لمناصري إسرائيل في واشنطن في ٢٠١٧، فوجَّه كلمته إلى الاجتماع عبر الفيديو كونفرانس. ندَّد نتنياهو حينها بالإرهاب الذي يستهدف أمن الولايات المتَّحدة وإسرائيل، مشدِّدًا على التأكُّد من أنَّ "هزيمة قوى الإسلام المتشدِّد"، قائلًا "لن نسمح لهم بجرِّ البشريَّة من الوعد بمستقبل مشرق، إلى مأساة ماضٍ مُظلم".

For the security of both Israel and the United States, we must ensure that the forces of militant Islam are defeated. We won't let them drag humanity away from the promise of a bright future to the misery of a dark past.

وكما اتَّهم نتنياهو في خطابه أمام الأيباك في ٢٠١٧ إيران رسميًّا بتدبير عمليَّات إرهابيَّة على مستوى العالم، وليس الشرق الأوسط وحده، استوجبت التصدِّي لها، واختصَّها وتنظيم داعش بإحداث الفوضى ومنع التقدُّم في المنطقة، أعاد نتنياهو في خطاب ٢٠١٨ الإشارة إلى تطوير إيران أسلحة نوويَّة تعظِّم من خطورتها على من حولها. يشير

رئيس الوزراء الإسرائيلي إلى أنَّ "**الظلام يخيِّم على منطقتنا**" **مع بناء إيران** "**إمبراطوريَّة من العنف**" **تمتدُّ من أرضها إلى** "**العراق وسوريا ولبنان وغزَّة واليمن، والمزيد في الطريق**". تسعى إيران حاليًا، على حدِّ قول نتنياهو، إلى تأسيس قواعد عسكريَّة دائمة لها في سوريا، وتكوين جسر أرضي لها من طرطوس، على البحر المتوسِّط، كما تنقل دفاعيها، البحري والجوي، إلى سوريا؛ بهدف الهجوم على إسرائيل من نقطة أقرب، وتبني مصانع للقذائف المتطوِّرة في سوريا ولبنان، استعدادًا لذلك، وفي هذا يقول نتنياهو "**لن أسمح بهذا؛ لم نسمح بهذا. لا بدَّ وأن نوقف إيران، وسنوقفها**".

Well. Darkness is descending on our region. Iran is building an aggressive empire, Iran, Iraq, Syria, Lebanon, Gaza, Yemen, more to come. Now Iran is seeking to build permanent military bases in Syria, seeking to create a land bridge from Tartus, the Mediterranean, and in addition to moving its arming its air force, its navy, to Syria, to be able to attack Israel from a closer hand. It's also seeking to develop, to build, precision guided missile factories in Syria, Lebanon, against Israel, I will not let happen. We will not let that happen. We must stop Iran, we will stop Iran.

أخيرًا يتطرَّق رئيس الوزراء الإسرائيلي خطابه إلى "الجميل"، وبعد "الطيِّب" و "القبيح"، ويقصد بذلك تحالُف إسرائيل مع الولايات المتَّحدة في سبيل التصدِّي لخطر الإرهاب، الذي تشكِّل قوى الإسلام المتشدِّد. ويكمن جمال هذا التحالف في استناده إلى "قيم مشتركة"، مُستمَّدة من "كتاب كريم"، هو الكتاب المقدَّس، الذي يقول "أنَّنا خُلقنا جميعًا على صورة الربِّ، وهذا ما ألهم توماس جيفرسون لكتابة إعلان الاستقلال"؛ لأنَّ البشر جميعًا سواسية، بغضِّ النظر عن أيِّ فوارق عنصريَّة.

I'm talking about the beautiful alliance between Israel and the United States of America. I'm talking about the beautiful alliance that has brought all of you to Washington, that you work day in and day out to make stronger, better. What is this beautiful alliance made of? Made of our shared values. That's the wellspring of the great alliance, of the great alliance between our two countries. All you need to do is leave this room, this hall, you walk around a few blocks from here and you see these majestic monuments, you can learn from them all about our common values.

They come from a certain book a great book, a good book, called the bible. It said that all of us are created in the image of god, and it's inspired Jefferson to write the declaration of independence, that all men are created equal, all women too by the way. And that book inspired Abraham Lincoln in the darkest days in Americas civil war. He found inspiration in the words of our greatest king, King David, when he said the wounds of divided America would heal and judgments of the lord are true and righteous.

ويختتم نتنياهو خطابه بقوله أنَّه كما أثَّرت قيم الكتاب المقدَّس في أبراهام لنكولن في أحلك سنوات الحرب الأهليَّة الأمريكيَّة، وكما "وجد الإلهام في كلمات ملكنا العظيم، داود الملك، لمَّا قال (لنكولن) "ستندمل جراح أمريكا المقسَّمة، وأنَّ أحكام الربِّ حقَّة وصالحة"..."**وهذه القيم هي جزء لا يتجزَّأ من قصَّة أمريكا، ومن قصَّة إسرائيل...اليوم نكتب فصلًا جديدًا في قصَّتنا المشتركة، قصَّة الحريَّة، والعدالة، والسلام، والأمل؛ لأنَّ الفكرة ذاتها تُلهمنا...لأنَّنا نحيا بنفس القيم، بأنَّ أمريكا وإسرائيل قد أقامتا أواصر لا يمكن كسرها**".

Just as the stirring words of prophet Amos inspired Martin Luther King Junior when he stood before Lincoln memorial and promised to carry on the struggle until justice runs down like water, and righteousness like a mighty stream. These values are an inseparable part of America's story, of Israel's story.

Today, together, we are writing a new chapter in our common story — a story of freedom, of justice, peace, of hope, and it's because we're inspired by the same idea. Because we're animated by the same values, that American and Israel have forged an eternal bond that can never, ever be broken.

المفارقة هي أنَّ الجملة الافتتاحيَّة للمقال المنشور على موقه صحيفة هآرتس الإسرائيليَّة، يشير إلى أنَّ رئيس الوزراء الإسرائيلي لقي حفاوة بالغة، لتقل "استقبال الفاتحين"، في الأيباك، أثناء تسويقه لابتكارات بلاده في الخارج، برغم تورُّطه في قضايا فساد في الداخل.

Embroiled by scandals at home, Netanyahu receives a hero's welcome at AIPAC as he touts Israeli innovation, vows to 'stop Iran' and says peace won't happen until Abbas stops paying terrorists

فهمنا من خلال خطاب نتنياهو أنَّه يصوِّر إسرائيل باعتبارها وَحدة مع الولايات المتِّحدة، حيث تشتركان في نفس المنظومة الأخلاقيَّة، وتواجهان تهديدًا واحدًا، وهي التشدُّد الإسلامي الضالع في أعمال إرهابيَّة تهدِّد "السلام العالمي" بتهديدها "أمن إسرائيل وبقاءها". تشترك إسرائيل والولايات المتِّحدة وسائر دول العالم في هويَّة جامعة موحَّدة، في مواجهة عدو خارجي، هدفه تعطيل مسيرة التقدم التقني، التي تقودها إسرائيل، وتقود بها العالم؛ وأصبح العالم المتحضِّر، المؤمن بأهميَّة تطبيق مفاهيم الحداثة والأخذ

بأسباب النهضة المدنيَّة الغربيَّة، عرضةً لعبث فئة رجعيَّة، يستعصي تطويعها لتكون عنصرًا إيجابيًّا في منظومة التحديث؛ ومن ثمَّ يجب محو تلك الفئة، والتي يجسِّدها أصحاب الفِكر الإسلامي المتطرِّف، متمثِّلًا في إيران وتنظيم داعش.

وانطلاقًا من إشارة نتنياهو إلى استناد العلاقات الأمريكيَّة-الإسرائيليَّة إلى قيم الكتاب المقدَّس، يجدر النظر إلى الوضع الذي وصلت إليه دولة إسرائيل، ماديًّا وعلميًّا وسياسيًّا، ضمن سياق آيات العهد القديم، التي تناولت العلو الثاني لدولة إسرائيل، قبيل ظهور المخلِّص في آخر الزمان. وقد ورد في سفر اشعياء تصوُّر لحال إسرائيل في آخر الزمان شديد القُرب لوضعها الحالي؛ يقول السفر "قُومِي اسْتَنِيرِي **لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ. لأَنَّهُ هَا هِيَ الظُّلْمَةُ تُغَطِّي الأَرْضَ وَالظَّلاَمُ الدَّامِسُ الأُمَمَ. أَمَّا عَلَيْكِ فَيُشْرِقُ الرَّبُّ**، وَمَجْدُهُ عَلَيْكِ يُرَى. **فَتَسِيرُ الأُمَمُ فِي نُورِكِ، وَالْمُلُوكُ فِي ضِيَاءِ إِشْرَاقِكِ.** «ارْفَعِي عَيْنَيْكِ حَوَالَيْكِ وَانْظُرِي. قَدِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ. جَاءُوا إِلَيْكِ. يَأْتِي بَنُوكِ مِنْ بَعِيدٍ وَتُحْمَلُ بَنَاتُكِ عَلَى الأَيْدِي. حِينَئِذٍ تَنْظُرِينَ وَتُنِيرِينَ وَيَخْفُقُ قَلْبُكِ وَيَتَّسِعُ، **لأَنَّهُ تَتَحَوَّلُ إِلَيْكِ ثَرْوَةُ الْبَحْرِ، وَيَأْتِي إِلَيْكِ غِنَى الأُمَمِ.** تُغَطِّيكِ كَثْرَةُ الْجِمَالِ، بُكْرَانُ مِدْيَانَ وَعِيفَةَ كُلُّهَا تَأْتِي مِنْ شَبَا. تَحْمِلُ ذَهَبًا وَلُبَانًا، وَتُبَشِّرُ بِتَسَابِيحِ الرَّبِّ" (إصحاح ٦٠: آيات ١-٦). تعيش إسرائيل حاليًا أزهي عصر لها؛ بفضل التطوُّر التقني الذي "تقود به العالم"، كما جاء على لسان رئيس وزرائها، مما عظَّم من ثروتها، لمَّا أصبحت تأتيها "**ثَرْوَةُ الْبَحْرِ**"؛ " **جَاءَ نُورُكِ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ**". في الوقت ذاته، يعاني جيرانها العرب من الضيق وقلَّة الفرص والمشكلات الاقتصاديَّة المضنية، و "**هَا هِيَ الظُّلْمَةُ تُغَطِّي الأَرْضَ وَالظَّلاَمُ الدَّامِسُ الأُمَمَ**". لا يُستبعد أن يكون "**الظَّلاَمُ الدَّامِسُ**" المقصود به هو التأخُّر العلمي في مجال التقنيات الحديثة، الذي دفع الأمم إلى السعي إلى اللحاق بركاب التطوُّر، ولا سبيل إلَّا بالاستعانة بتقنيات إسرائيل؛ ولذلك "**تَسِيرُ الأُمَمُ فِي نُورِكِ، وَالْمُلُوكُ فِي ضِيَاءِ إِشْرَاقِكِ**". وتقول الآيات التالية في سفر اشعياء "**وَبَنُو الْغَرِيبِ يَبْنُونَ أَسْوَارَكِ، وَمُلُوكُهُمْ يَخْدِمُونَكِ.** لأَنِّي بِغَضَبِي ضَرَبْتُكِ، وَبِرِضْوَانِي رَحِمْتُكِ. **وَتَنْفَتِحُ أَبْوَابُكِ دَائِمًا.** نَهَارًا وَلَيْلاً لاَ تُغْلَقُ. لِيُؤْتَى إِلَيْكِ بِغِنَى الأُمَمِ، وَتُقَادَ مُلُوكُهُمْ. **لأَنَّ الأُمَّةَ وَالْمَمْلَكَةَ الَّتِي لاَ تَخْدِمُكِ**

تَبِيدُ، وَخَرَابًا تُخْرَبُ الأُمَمُ" (إصحاح ٦٠: آيات ١٠-١٢). نفهم من هذه الآيات أنَّ الربَّ يعد إسرائيل بسُلطان تسيطر به على دول العالم، بحيث أنَّ الدولة التي تعارضها تهلك وتفنى "**لأَنَّ الأُمَّةَ وَالْمَمْلَكَةَ الَّتِي لاَ تَخْدِمُكِ تَبِيدُ، وَخَرَابًا تُخْرَبُ الأُمَمُ**". إذا ما أخذنا في الاعتبار سيطرة اليهود على اقتصاد العالم، ودخول البنك الدولي ذاته تحت سيطرتهم، يصحُّ مضمون هذه الآية، ولعلَّ أزمة تراجُع الليرة التركيَّة صيف ٢٠١٧ إلى ما قرب من نصف قيمتها خير دليل على قدرة القوى المهيمنة على الاقتصاد العالمي، والمشكَّلة من عناصر يهوديَّة أو موالية لليهود. يعترف موقع بزنس انسيدر الاقتصادي الأمريكي في مقال نشره في ١٥ أغسطس من عام ٢٠١٨ بأنَّ أزمة الليرة التركيَّة أحدثها بنك الاحتياط الفيدرالي الأمريكي، بسبب ديون تركيا المتراكمة بالدُّولار الأمريكي. وكلمَّا ارتفعت قيمة الدُّولار، زادت مشكلة تركيا، ومثيلاتها من الدول التي تستدين بهذه العملة.

BUSINESS INSIDER

TECH | FINANCE | POLITICS | STRATEGY | LIFE | ALL

PRIME | INTELLIGENCE

The crisis in Turkey is being caused by the US Fed, and we are only at the beginning

Jim Edwards Aug. 15, 2018, 11:28 AM

- **The US Federal Reserve is unwinding its balance sheet, driving up the price of the dollar.**
- **This is the underlying cause of the Turkish lira crisis.**
- **Lots of countries, such as Turkey, have external debt denominated in US dollars.**
- **The higher the dollar goes, the more expensive this debt becomes, and the closer we get to "contagion" in the shakier emerging markets.**
- **The Fed has only just begun.**

وبنك الاحتياط الفيدرالي الأمريكي في الأصل تملكه أسرة أباطرة المال اليهوديَّة روتشيلد، وسبقت الإشارة إلى أنَّها بذلك قصارى جهدها في سبيل الحصول على حق إصدار

العملة في أمريكا، ونجحت في ذلك، وأضاف إلى تصميم الدُّولار العديد من رموز جماعة النُّورانيين ، بما في ذلك تاريخ تأسيسها، عام ١٧٧٦ ميلاديًّا. أمَّا عبارة "**وَبَنُو الْغَرِيبِ يَبْنُونَ أَسْوَارَكِ**"، فينطبق عليها ما ذكره نتنياهو عن مشاركة أشخاص من مختلف الأعراق والانتماءات في جيش الدفاع الإسرائيلي، المكوّن من "رجال ونساء؛ بيض وسود؛ متديِّنون وعلمانيُّون؛ مستقيمون ومثليُّون؛ يهود، ومسلمون، ومسيحيُّون، ودروز، وشراكسة"، وليس لديهم عدف سوى "حماية دولة إسرائيل". فالأسوار هي للتحصُّن من الاعتداءات الخارجيَّة، وهذا عمل جيش الدفاع.

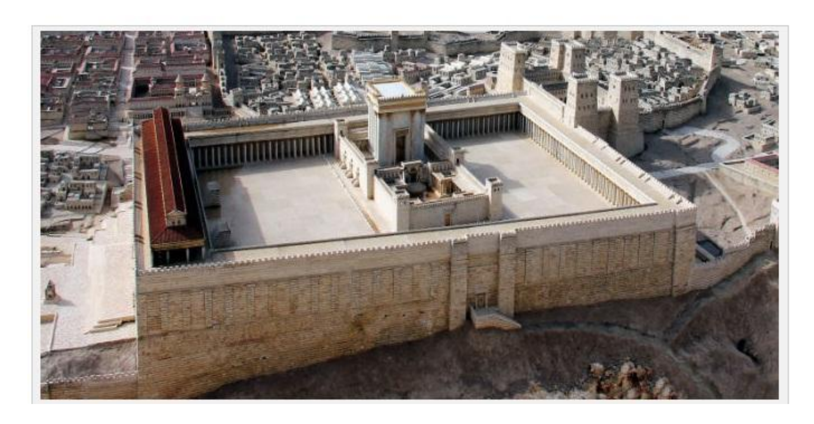


SANHEDRIN CALLS ON ARABS TO TAKE THEIR ROLE IN THIRD TEMPLE AS PROPHESIZED BY ISAIAH

By Adam Eliyahu Berkowitz March 19, 2018 , 1:00 pm



Dust clouds of camels shall cover you, Dromedaries of Midian and Ephah. They all shall come from Sheba; They shall bear gold and frankincense, And shall herald the glories of Hashem. Isaiah 60:6 (The Israel Bible™)



أمَّا عن علاقة إسرائيل بجيرانها العرب، فتتنبأ الآية ١٤ في الإصحاح ٢٠ في سفر اشعياء بتسابُقهم على إرضائها "**وَبَنُو الَّذِينَ قَهَرُوكِ يَسِيرُونَ إِلَيْكِ خَاضِعِينَ، وَكُلُّ الَّذِينَ أَهَانُوكِ يَسْجُدُونَ لَدَى بَاطِنِ قَدَمَيْكِ**، وَيَدْعُونَكِ: **مَدِينَةَ الرَّبِّ**، صِهْيَوْنَ قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ".

نقل موقع Breaking Israel News–أخبار إسرائيل العاجلة، في مقال نشره في ١٨ مارس ٢٠١٨، دعوة السنهدرين، وهو المجلس التشريعي اليهودي الأعلى المكوَّن من ٧١ عضوًا، العربَ للمشاركة في دعم الهيكل الثالث، كُتبت باللغات العبريَّة والإنجليزيَّة والعربيَّة، في خطوة اعتبرها الموقع أنَّها تستهدف "أقرب إلى السلام العالمي الذي سيتميَّز به زمن المسيَّا".

ويقول نصُّ الدعوة "الإخوة الأعزَّاء، أبناء إسماعيل، الأمَّة العربيَّة العظيمة، بعون الربِّ قدُّوس إسرائيل وحاميها، الذي خَلَق العالم بالعهد، تعلن أن خطوات قدم المسيَّا صارت تُسمع، وحان وقت بناء الهيكل على هضبة المُريا في أورشليم، مكانه الأصلي". وتناشد الدعوة العرب بتشجيع ممثليهم على مباركة بناء الهيكل، والقدوم إلى إسرائيل بنيَّة للسلام، للحصول على مباركة الربِّ، وتستشهد الدعوة بالآيات (٤-٦) في الإصحاح ٦٠ من سفر اشعياء، آنفة الذِّكر، ولعلَّ أكثر عباراتها توافقًا مع الدعوة "**يَأْتِي إِلَيْكِ غِنَى الأُمَمِ**. تُغَطِّيكِ كَثْرَةُ الْجِمَالِ، بُكْرَانُ مِدْيَانَ وَعِيفَةَ كُلُّهَا تَأْتِي مِنْ شَبَا. تَحْمِلُ ذَهَبًا وَلُبَانًا، وَتُبَشِّرُ بِتَسَابِيحِ الرَّبِّ".

The nascent *Sanhedrin*, a Biblically mandated court of 71 elders, released a letter in Hebrew, English and Arabic inviting the Arabs as the sons of Ishmael to take their role in supporting the Third Temple as prophesied by Isaiah. This move is far more than symbolic. It is intended to bring the entire world one step closer to the global peace that will characterize the Messianic era.

The letter reads:

"Dear brothers, the distinguished Sons of Ishmael, The great Arab nation,

"With the gracious help of the protector and Savior of Israel, Creator of the world by covenant, we declare that the footsteps of Messiah are evidently heard and that the time has come to rebuild the Temple on Mount Moriah in Jerusalem in its ancient place."

"We, the Jews who advocate building of the Temple, are applying to your Honorable ones, who were nominated by their peoples to give oath, raise vows and gifts to the Temple as prophesied by prophet Isaiah concerning your essential role and honorable position in keeping the Temple and supporting it with lamb sacrifices and incense in order to receive God's Blessings."



Raise your eyes and look about: They have all gathered and come to you. Your sons shall be brought from afar, Your daughters like babes on shoulders. As you behold, you will glow; Your heart will throb and thrill— For the wealth of the sea shall pass on to you, The riches of nations shall flow to you. Dust clouds of camels shall cover you, Dromedaries of Midian and Ephah. They all shall come from Sheba; They shall bear gold and frankincense, And shall herald the glories of Hashem. Isaiah 60:4-6

ويأتي في ختام الدعوة، التي وقَّع عليها ٢٣ من كبار الربَّانيين اليهود "بموجب ذلك، نحن على يقين بأنَّكم ستختارون السُّبَل السلميَّة، وتجتنبون كلَّ طريق للعداء والعنُف؛ كما نحن على يقين بأنَّنا معًا سنفتح أبوابًا للحب والاحترام".

"By virtue of this, we are certain that you will choose peaceful means and avoid all paths to hostility and violence. And we are sure that together we shall open doors to love and respect."

The letter was signed by 23 respected Rabbis who have received *smicha* (Rabbinic ordination) for the purpose of re-establishing the *Sanhedrin*. The rabbis are in the process of acquiring signatures of the full quorum of 71, after which they will send the letter to major Arab institutions and leaders. They hope to hold a conference with Arabs.

Rabbi Yeshayahu Hollander, a member of the Sanhedrin who signed the letter, felt it will serve to be an important bridge to the other nations.

ويرى الربَّاني يشوع هولاندر، وهو أحد أعضاء السنهدرين الموقِّعين على هذه الدعوة، أنَّها ستكون بمثابة جسر هام إلى الأمم الأخرى، مضيفًا أنَّ ذلك هو هدف حياة اليهود؛ ومن ثمَّ، فالسنهدرين يدعو العرب للاستفادة من تلك التجربة؛ لأنَّ الهيكل سيجلب الخير للعالم كلِّه. ويقول هولاندر في ختام حديثه "الجانب العالمي أساسي لما يعنيه الهيكل؛ فهو بيت لكلِّ الشعوب"، مستشهدًا بآية من سفر اشعياء "**آتِي بِهِمْ إِلَى جَبَلِ قُدْسِي، وَأُفَرِّحُهُمْ فِي بَيْتِ صَلاَتِي، وَتَكُونُ مُحْرَقَاتُهُمْ وَذَبَائِحُهُمْ مَقْبُولَةً عَلَى مَذْبَحِي، لأَنَّ بَيْتِي بَيْتَ الصَّلاَةِ يُدْعَى لِكُلِّ الشُّعُوبِ**" (سفر اشعياء: إصحاح ٥٦، آية ٧).

ويعتقد الربَّاني أهارون إسحق شتيرن، وهو عضو بارز في الجماعة اليهوديَّة الحريديَّة الأصوليَّة، أنَّ الوقت قد حان لإعلان عن ضرورة مشاركة العرب في دعم الهيكل الثالث؛ لأنَّ في ذلك خطوة هامَّة لتحقيق السلام. ويقول شتيرن "أصبح الخلاص قاب قوسين، وسيأتي إمَّا بالحروب والمتاعب، أو بالسلام والمرحمة. وندعو أبناء إسماعيل إلى اختيار السلام والتقوى".

Rabbi Aharon Yitzchak Shtern, a member of the Sanhedrin who is prominent in the *Haredi* (Ultra-Orthodox) community, believes the time for such a declaration including the Arabs in the Third Temple is at hand.

"This is precisely what it seems to be: a simple move towards true peace, " Rabbi Shtern told *Breaking Israel News*. "*Geula* (redemption) is very near. It can either come in war and hardship, or it can come in peace and mercy. We are inviting the *B'nei Yishmael* to choose peace and godliness."

ويتأسَّف شتيرن على أنَّ اليهود لم يُتح أمامهم إلى الآن مجال للتمتُّع بالسلام، ولا يختلف عن ذلك حال غير اليهود، مضيفًا أنَّ كلَّ الأمم لديها إيمان بعقيدة المسيًّا، معتبرًا إيَّاه

"نهاية حقيقة، وبداية حقيقة أخرى. ووفق هذه الحقيقة الجديدة، لكلِّ شخص، ولكلِّ ديانة مكان وهدف".

وعن تفسير الآية ١٤ في الإصحاح ٢٠ في سفر اشعياء "**وَبَنُو الَّذِينَ قَهَرُوكِ يَسِيرُونَ إِلَيْكِ خَاضِعِينَ، وَكُلُّ الَّذِينَ أَهَانُوكِ يَسْجُدُونَ لَدَى بَاطِنِ قَدَمَيْكِ**، وَيَدْعُونَكِ: **مَدِينَةَ الرَّبِّ**، صِهْيَوْنَ قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ"، نجد أنَّ أقرب ما تدلُّ عليه هو مساعي الدول العربيَّة التطبيع مع إسرائيل، والذي ذكر أحد الحاخامات أنَّه يجري على قدمٍ وساق، ولكَّن العرب لا يصرِّحون به، خشية استفزاز الجماعات الأصوليَّة، على حدِّ زعمه. ونجد في مقال نشرته جريدة القُدس العربي اللندنيَّة تحليلًا لمسار التطبيع العربي مع إسرائيل، وتأكيدًا من الطرفين على الرغبة المتبادلة في إنهاء الصراع، أملًا في إنهاء النزاعات المسلَّحة وتحقيق التعاون، في ظلِّ "حاجة هذه الدول العربية للتعاون مع إسرائيل في مجالات التقنيات والمسائل الأمنية وغيرها". ويعني ذلك استعداد الدولة العربيَّة لإنهاء الخلاف مع إسرائيل، رائدة عالم الحداثة والنهضة التقنيَّة في العالم، والدخول في تعاوُن يكون لصاحبة تلك النهضة اليد العليا فيه؛ بما أنَّها صاحبة السبق في التطوير والتحديث.


القدس العربي
تجريبي

النسخة المطبوعة | سياسة | صحافة | مقالات | تحقيقات | ثقافة | منوعات | لايف ستايل

الكل | سياسة | إقتصاد | منوعات | بروفايل

التطبيع العربي مع إسرائيل.. المسار والوجهة

24 - ديسمبر - 2018

إسطنبول: اللقاءات بين مسؤولين إسرائيليين وآخرين عرب، تعكس رغبة من الطرفين لرؤية علاقات بين العرب والإسرائيليين تُنهي حالة "العداء" بينهما دون أن يكون الفلسطينيون جزءا منها، بعد ترسيخ واقع عزل المسار الفلسطيني عن المسار العربي؛ والقبول بإدماج إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط كقوة فاعلة.

يتحدث رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، منذ عدة سنوات دون إفصاح عن تفاصيل تحسن العلاقات مع بعض الدول العربية التي تشترك مع إسرائيل في اعتبار إيران عدوا مشتركا، وحاجة هذه الدول العربية للتعاون مع إسرائيل في مجالات التقنيات والمسائل الأمنية وغيرها.

أصبحت إيران العدو المشترك للعرب وإسرائيل، مما يستدعي التكاثُف في مواجهتها؛ ولذلك، ترحِّب إسرائيل بالمشاركة في التحالف الاستراتيجي العسكري للشرق الأوسط، المعروفة بالاختصار MESA، وكذلك باسم الناتو العربي.

لا شك أن إسرائيل حاضرة بشكل أو بآخر في بناء تحالف "الناتو العربي" على الرغم من غياب أي إشارة رسمية إلى دور إسرائيلي في هذا التحالف المنتظر ولادته مطلع العام 2019 ما لم تحل دون ذلك تداعيات أزمتي العلاقات بين قطر والدول الأربع في التحالف (السعودية والإمارات والبحرين ومصر)، وأزمة مقتل جمال خاشقجي وتداعياتها على العلاقات الأمريكية السعودية.

أمَّا عن الصراع العربي–الإسرائيلي، فيشير المقال إلى انحصاره في صراع الفلسطينيين، مع المحتل الصهيوني. المثير للانتباه أنَّ مقال "القُدس العربي" يرى أنَّ انحصار الصراع العربي–الإسرائيلي في قضيَّة الشعب الفلسطيني مع مغتصبي أراضي المسلمين أدَّى إلى "استبعاد الصراع من قائمة أولويات السياسات الخارجية للأنظمة العربيَّة"، وليس العكس. ما يلفت مزيدًا من الانتباه هو تسليط المقال الضوء على سعي الدول العربيَّة على تنشيط التعاون مع إسرائيل فيما يتعلَّق بتطوير التقنيات الحديثة؛ للاستفادة من ذلك في شتَّى المجالات، وكأنَّما أصبح دفاع الأمَّة العربيَّة المسلمة عن مقدَّساتها وأراضيها، ولحاقها بركب الحداثة الأمريكيَّة–الإسرائيليَّة يوزنان على كفَّتي ميزان...وكأنَّما ارتهن مصير كلٍّ منهما بالآخر.

وتجد إسرائيل أن هناك مصالح مشتركة مع دول الخليج وفرصا لتسويق التقنيات الإسرائيلية المتقدمة في مجالات شتى، إلى جانب رؤية خليجية سادت بعد حرب اليمن وتوقيع اتفاقية الملف النووي الإيراني عام 2015 بشراكة خليجية (جزئية) إسرائيلية في مواجهة التهديدات الإيرانية، سواء على ممرات نقل الطاقة، أو في اليمن والعراق وسوريا.

" كما يتحدث مسؤولون إسرائيليون عن إمكانية تعاون إسرائيلي واسع النطاق مع دول الخليج العربية في مجالات التقنيات وتحلية المياه والزراعة والطب وغيرها.

تآكلت مركزية الصراع العربي الإسرائيلي، من وجهة نظر الحكومات العربية، بشكل تدريجي إلى حصر الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ما أدى إلى استبعاد الصراع من قائمة أولويات السياسات الخارجية للأنظمة العربية التي تراجع موقفها في تبني قرارات أو مواقف حازمة ردا على مواقف الدول الأخرى، مثل الموقف من قرار الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بالاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل سفارة بلاده إليها.

" وجود "دولة" إسرائيل، في العقل السياسي للمسؤولين العرب، بات بحكم الأمر الواقع بشكلها الحالي وجغرافيتها التي تمتد على مساحات من الأراضي المحتلة منذ أكثر من سبعة عقود، وهي لاعب مؤثر في الإقليم كأي دولة أخرى.

ويحصر المقال الرفض الإسلامي للتطبيع مع إسرائيل إلى تيَّارين، الأوَّل التيَّار السعودي، الذي لا يرفض التطبيع بالكليَّة، إنَّما يشترط من أجل الموافقة حصول الفلسطينيين على كامل حقوقهم "التاريخيَّة". أمَّا التيَّار الثاني، فهو تيَّار متأثِّر بالخطاب الإيراني العدائي ضدَّ إسرائيل، وهو في ذات الوقت انتقائي، أي لا يهاجم دولة عربيَّة تطبِّع مع إسرائيل، طالما يرتبط بها بعلاقات تجاريَّة، كما ينطبق على عُمان، التي زارها رئيس الوزراء الإسرائيلي مطلع نوفمبر من عام ٢٠١٨ ميلاديًّا.

وينقسم الشارع العربي في نظرته للتطبيع مع إسرائيل إلى تيارين اثنين، الأول يمثل المحور السعودي، وهو رافض للتطبيع إلا وفق شروط استعادة الفلسطينيين لكامل حقوقهم التاريخية في أراضيهم المحتلة، غير أنه لم يعد مؤمنا بالمقاومة المسلحة كسبيل لتحرير كل فلسطين.

أما التيار الثاني، فهو تيار يغلب عليه تبني خطاب المحور الإيراني في المنطقة ممثلا بإيران وحزب الله وجماعة الحوثي والحشد الشعبي العراقي وجماعات وحركات أخرى تدعمها إيران؛ إلا أنه خطاب "انتقائي" يعتمد في رد فعله على الخطوات التطبيعية على عمق العلاقات بين إيران والدول الأخرى، ومنها سلطنة عُمان التي لم تواجه خطوتها باستقبال رئيس الوزراء الإسرائيلي بحملة إعلامية إيرانية مضادة (حيث تحتفظ مسقط وطهران بعلاقات طيبة) خلافا لخطوات تطبيعية أقل حدة حظيت بتغطيات واسعة، ومنها استضافة دولة الإمارات لوزير الثقافة والرياضة الإسرائيلي مع وفد رياضي.

وأغرى ميل العرب إلى التحالف مع إسرائيل في الآونة الأخيرة إلى استبعاد بنيامين نتنياهو الفلسطينيين في تصريحه عن مضيِّ عمليَّة التطبيع العربي مع إسرائيل، وفق الخطَّة المرسومة، كما نشرت القُدس العربي في ١٧ ديسمبر من عام ٢٠١٨.


القدس العربي
تجريبي
النسخة المطبوعة | سياسة | صحافة | مقالات | تحقيقات | ثقافة | منوعات | لايف ستايل
الكل | عربي | فلسطين | سورية | العراق | الخليج العربي | مصر | المغرب العربي | دولي | الولايات المتحدة | أوروبا

نتنياهو: عملية تطبيع تجري مع العرب دون تقدم مع الفلسطينيين

17 - ديسمبر - 2018

القدس المحتلة: قال رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، إن عملية "تطبيع"، تجري مع العالم العربي، دون تحقيق تقدم في العملية الدبلوماسية مع الفلسطينيين.

ورحّب نتنياهو، في تصريحات صحافية لمكتبه، الإثنين بهذا التطور، مُفضلا إياه على تحقيق "التطبيع" مع العرب، عقب التوصل لاتفاق سلام مع الفلسطينيين.

وكان نتنياهو يتحدث مساء الأحد في مؤتمر عقد في مقر وزارة الخارجية الإسرائيلية بمشاركة سفراء إسرائيليين في دول أمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا.

وقال: "ما يحدث في الوقت الحالي هو أننا في عملية تطبيع مع العالم العربي دون تحقيق تقدم في العملية الدبلوماسية مع الفلسطينيين".

وأضاف نتنياهو: "كان التوقع هو أن التقدم أو تحقيق انفراجة مع الفلسطينيين سيفتح لنا علاقات مع العالم العربي، كان هذا صحيحاً لو حدث، وبدا كما لو أنه كان على وشك أن يحدث مع عملية أوسلو (اتفاق السلام مع منظمة التحرير) ولكن ما حدث هو أن رفض العرب، جنبا إلى جنب مع إرهاب الانتفاضة، كلفنا تقريبا 2000 شخص وشطب هذا الأمل".

هذا وقد صرَّح نتنياهو في كلمته في قمَّة الإعلام المسيحي (Christian Media Summit)، وتزامنًا مع تدشين المركز الإعلامي الجديد التَّابع لمتحف أصدقاء صهيون (Friends of Zion Museum) أوائل نوفمبر من عام ٢٠١٩ ميلاديًّا، بأنَّ إسرائيل بالنسبة إلى العرب أصبحت "حليفًا لا يمكن الاستغناء عنه"، نقلًا عن موقع Breaking Israel News.

NETANYAHU TO CHRISTIAN MEDIA: ARAB COUNTRIES SEE ISRAEL AS "INDISPENSABLE ALLY" AGAINST IRAN

By JNS **November 4, 2019 , 2:29 pm**

أضاف نتنياهو أنَّ مفهوم العداء تجاه إسرائيل، والذي كان شائعًا في منطقة الشَّرق الأوسط، تبدَّل مؤخرًا، بعد أن وحَّد خطر "الإسلام المسلَّح" جهود الجانبين، الإسرائيلي والعربي، في مواجهة هذا التَّهديد.

> Addressing a 200-strong crowd in Jerusalem at the kick-off event of the Christian Media Summit and inauguration of the Friends of Zion Museum's new media center, Netanyahu said Israel has gone from being perceived as an enemy in the region to being seen as an "indispensable ally."
>
> "Something very big is happening: the transformation of Israel in the minds of many in the Middle East. It's no longer being perceived as an enemy. We've become an indispensable ally against the enemy of militant Islam," he said.

موقف كلٍّ من السعوديَّة وإيران من إسرائيل

سبقت الإشارة إلى أنَّ إيران صارت الآن عدوًّا مشتركًا بين العرب وإسرائيل، مما استوجب تعاوُن الطرفين في سبيل مواجهة إرهاب إيران، وغيرها من الجماعات الإسلاميَّة المتشدِّدة. ويؤكِّد المقال على وجود خلاف طويل بين إسرائيل وإيران، دون إشارة إلى نقاط ذلك الخلاف أو تجليَّاته. ويتحدَّى الشيخ حامد الطَّاهر، الباحث المصري في مجال مقارنة الأديان والعقيدة الإسلاميَّة، هذا الزعم، خلال استضافته في إحدى حلقات برنامج ستوديو صفا حملت عنوان "تآمر الشيعة واليهود عبر التاريخ، أذيعت في ٢٧ ديسمبر من عام ٢٠١٧، على قناة صفا الفضائيَّة السعوديَّة، الموجَّهة للرد على الخطاب الشيعي والمتخصصة في الشأن الإيراني. عدَّد الطَّاهر أوجه التقارب بين إسرائيل وإيران، لافتًا إلى أنَّ العلاقة بين اليهود ودولة إيران منذ قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ وحتى الثورة الإيرانيَّة عام ١٩٧٩ كانت ظاهرة ومعلنة، وكان نفوذ اليهود كبيرًا هناك؛ أمَّا اليوم فالعلاقة مخفية وإن كانت أقوى منها في زمن الشاه. وقد قال ديفيد ليفي–وزير خارجية إسرائيل الأسبق (مغربي الأصل) –**إنَّ إيران لم تكن أبدًا عدوًّا لإسرائيل، وقال شارون**

في مذكراته (ص٧٧) إنَّ إسرائيل لم تكن على عداء مع الشيعة أبدًا، كما ذكر أنَّه كان يفكر في إمداد الشيعة بالسلاح لقتال أهل السُّنة لأنَّـهم يعانون من إرهابهم كما يعاني اليهود من إرهاب الفصائل الفلسطينيَّة. أضاف الطَّاهر أنَّ الخميني لم يكن يرى مانعًا عن شراء السلاح من إسرائيل، وفق ما رواه أبو الحسن بني الصدر (أول رئيس لإيران بعد الثورة)، **وأنَّ نتنياهو حظر النشر عن أي تعاون بين إسرائيل وإيران في أي مجال، وبخاصة في المجالات الزراعيَّة والعسكريَّة.**



#صفا_يوتيوب #قناة_صفا #قناة_صفا_الفضائية
تآمر الشيعه واليهود عبر التاريخ || ستوديو صفا - الضيف: الشيخ حامد الطاهر - 2017/12/27 .

صورة ٤١–حديث الشيخ حامد الطاهر عن "تآمر الشيعة واليهود"

ضربت إسرائيل المفاعل النووي العراقي أوائل عهد صدام حسين، في ٧ يونيو من عام ١٩٨١ ميلاديًّا، واغتالت العالم الفيزيائي المصري المشرف عليه، الدكتور يحي المشد، في ١٤ يونيو من عام ١٩٨٠–ويُقال أنَّ التي اغتالته عميلة للموساد صارت وزيرة خارجيَّة لاحقًا–**بينما لم تمس المفاعل الإيراني بوشهر، الذي يُعد منذ السبعينات من القرن الماضي، بل إنَّ شركات يهوديَّة هي المعنيَّة بإعداده. الأهم أنَّه افترض أنَّ إيران هي في الأصل فزاعة لإخافة مسلمي المشرق كي يمنحوا الأمن لإسرائيل.**

أمَّا عن موقف السعوديَّة من إسرائيل، فقد نُشرت حديثًا العديد من التصريحات الرسميَّة وغير الرسميَّة في صُحف إسرائيليَّة، تروِّج لترحيب المملكة العربيَّة السعوديَّة بالتطبيع مع إسرائيل، وتحسين صورتها لدى الشعب السعودي، ومن بين ذلك ما نشره موقع الجزيرة. نت في ٢٢ ديسمبر من عام ٢٠١٨، نقلًا عن صحيفة معاريف الإسرائيليَّة.

صحيفة عبرية: محمد بن سلمان أمر بتجميل صورة "إسرائيل"

ذكرت صحيفة "معاريف" الإسرائيلية، نقلاً عن مصادر إعلامية أمريكية، أن ولي العهد السعودي محمد بن سلمان، أسند لمستشاره السابق سعود القحطاني مهمة خاصة تمثلت في تجميل صورة "إسرائيل" لدى الرأي العام السعودي.

وقال الكاتب الإسرائيلي جاكي حوكي، في مقاله بصحيفة "معاريف"، اليوم الأحد: إن "حرص الصحفيين والكتاب والأكاديميين السعوديين المرتبطين بنظام الحكم في الرياض على مغازلة إسرائيل في العام المنصرم والإشادة بها، وتعمُّد تبني مواقفها في كثير من القضايا، يدل على أنه جاء ضمن توجه رسمي لتحسين صورتها لدى الرأي العام السعودي؛ بهدف إضفاء شرعية على تطوير العلاقات معها".

وأضاف حوكي أنه عند مراجعة الكتابات والتصريحات التي صدرت عن النخب السعودية المرتبطة بنظام الحكم في الرياض، يتبين صحة ما كشفته صحيفة "وول ستريت جورنال" من أن القحطاني قاد تحركاً لتجميل صورة "إسرائيل" في السعودية.

كما بين الكاتب الإسرائيلي أنه "تحت تأثير تعليمات القحطاني فقد بدت كتابات الصحفيين والمعلقين والنخب السعودية المرتبطة بدوائر الحكم في الرياض، المشيدة بإسرائيل والمتعاطفة معها والمعادية للفلسطينيين، وكأنها صدرت عن ديوان رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو".

وقد نشر موقع الخليج أونلاين في ٢٢ ديسمبر من عام ٢٠١٨، عن تصريح الكاتب والصحفي السعودي عبد الحميد الغبين، خلال اتصال له بقناة i24 NEWS الإسرائيليَّة، عن تأييده إعلان القُدس عاصمة لإسرائيل، واعتقاده بفقدان القضيَّة الفلسطينيَّة أهميَّتها، تأكيدًا لما ذُكرته القُدس العربي.

في خطوة جديدة تكرس أجواء التطبيع مع "إسرائيل" بالسعودية، زعم الكاتب والصحفي السعودي عبد الحميد الغبين، أن "إسرائيل لا تشكل خطراً وجودياً على السعودية، متوقعاً أن تقوم بلاده بالتطبيع معها في غضون عامين".

وقال الغبين، المعروف بهجومه على الفلسطينيين ودعمه التطبيع، في مقابلة له مع قناة "i24 NEWS" الإسرائيلية، أمس الجمعة: إن "الاعتراف بالقدس الغربية عاصمة لإسرائيل سيؤدي إلى السلام في المنطقة".

وأضاف: "ليس مهماً من يدير الأماكن المقدسة في القدس المحتلة، طالما كان بإمكان أي مسلم زيارتها"، لافتاً إلى أن القضية الفلسطينية لم تعد مهمة"، على حد زعمه.



صورة ٤٢-حديث الإعلامي السعودي عبد الحميد الغبين لقناة إسرائيليَّة عن التَّطبيع

يأتي تصريح الكاتب السعودي، بعد أيام من نشر صحيفة وول ستريت جورنال الأمريكيَّة بتاريخ ١٨ ديسمبر ٢٠١٨، عن تعطُّل قنوات الاتصال السريَّة بين إسرائيل والسعوديَّة في أعقاب حادث مقتل الصحافي السعودي، جمال خاشقجي، في مقر قنصليَّة بلاده في إسطنبول التركيَّة. أمَّا عن سبب تعطُّل مساعي التطبيع بين البلدين، فهو يرجع إلى إعفاء اثنين من المقرَّبين من ولي العهد السعودي من منصبيهما، وهما اللواء أحمد عسيري، نائب رئيس المخابرات السعودية السابق، وسعود القحطاني، المستشار الإعلامي السابق لدى الديوان الملكي السعودي، بعد اكتشاف تورُّطهما في حادث الاغتيال.



THE WALL STREET JOURNAL.

Home World U.S. Politics Economy Business Tech Markets Opinion Life & Arts Real Estate WSJ. Magazine

WORLD | MIDDLE EAST

Covert Saudi Outreach to Israel Sputters After Journalist's Murder

Prince Mohammed's weakened role after the Khashoggi killing sets back efforts to forge closer ties with Israel

By Felicia Schwartz in Tel Aviv, Margherita Stancati in Beirut and Summer Said in Dubai

Dec. 18, 2018 5:30 a.m. ET

A secretive U.S.-backed initiative to forge closer ties between Saudi Arabia and Israel faces setbacks after the crown prince, who spearheaded the effort, was implicated in a journalist's killing along with two of his aides.

ومن جانبها، أكَّدت صحيفة هآرتس الإسرائيليَّة ما نشرته وول ستريت جورنال، مشيرةً إلى ما تردَّد عن إجراء المسؤولين السعوديين المعفيين من منصبيهما "محاولات سريَّة لتحسين الروابط بين أورشليم والرياض". غير أنَّ "مشاركة" المسؤولين السابقين "في قتل الصحافي المنشق" حدَّت من استعداد السلطات الرسميَّة لاتخاذ تدابير سياسيَّة تتسم بالمجازفة.

HAARETZ | Israel News | All sections | Israel Election 2019 | Cyberattack | Amos Oz | Best of 2018

Saudi-Israel Backchannel Takes Hit After Officials Dismissed Over Khashoggi Murder, Report Says

Two of MBS' close aides allegedly led covert efforts to improve ties between Jerusalem and Riyadh, but sources tell WSJ their involvement in killing of dissident journalist 'dampened appetite for risky foreign policy endeavors'

Haaretz | Send me email alerts

Dec 18, 2018 7:23 PM

وكان موقع روسيا اليوم قد نشر في ٩ ديسمبر ٢٠١٨، نقلًا عن قناة i24 news الإسرائيليَّة، أنَّ رئيس الوزراء الإسرائيلي قد صرَّح ببذله جهودًا جديَّة للتطبيع مع السعوديَّة، لتحويل العلاقة بينها وبين إسرائيل "من السرِّ إلى العَلَن".



الأخبار الاقتصاد الرياضة البرامج منوعات ميديا

كشفت وسائل إعلام إسرائيلية عن جهود حثيثة يبذلها رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، لإقامة علاقات دبلوماسية مع السعودية.

وقال التلفزيون الإسرائيلي: "نتنياهو يهدف إلى اختراق غير مسبوق يتعلق بتحويل العلاقات الإسرائيلية السعودية من السر إلى العلن، وجعلها رسمية وعلنية قبل الانتخابات البرلمانية المقبلة".

وأضاف: "رئيس جهاز الموساد يوسي كوهن يدعم ويساعد نتنياهو في جهوده، كما أن الأمريكان شركاء أيضا في هذا المشروع"، مشيرا إلى أن مكتب رئيس الوزراء رفض التعقيب على هذه المعلومات.

وتبذل إسرائيل جهودا حثيثة لتطبيع العلاقات مع دول عربية وإسلامية عديدة في الأونة الأخيرة، فيما أكد نتنياهو على أنه سيزور دولة عربية قريبا لم يذكر اسمها، وذلك خلال زيارة رسمية قام بها رئيس تشاد إلى إسرائيل، اعتبرت تاريخية في إطار التقارب الإسرائيلي مع العالمين العربي والإسلامي.

كما زار نتنياهو سرا سلطنة عمان والتقى بالسلطان قابوس، وأفادت تقارير إسرائيلية بأنه يسعى أيضا للتطبيع مع البحرين.

ومؤخرا، قالت صحيفة "يديعوت أحرونوت" في تقرير لها، إن دولة البحرين تجري حوارا سريا مع إسرائيل للإعلان عن إقامة علاقات علنية بين الجانبين، تدشنها زيارة مرتقبة لرئيس الوزراء الإسرائيلي إلى المنامة.

المصدر: "i24 news"

يُذكر في السياق ذاته أنَّ دعوات التطبيع مع إسرائيل تتعالى في العالم العربي، ولعلَّ من أحدثها إعلان الكاتبة الكويتيَّة فجر السَّعيد، في تغريدة على تويتر، تأييدها "وبشدَّة" التعاون التجاري مع إسرائيل، وذلك تزامنًا مع نهاية عام ٢٠١٨.



صورة ٤٣–تغريدة الكاتبة الكويتيَّة فجر السعيد الدَّاعية إلى التَّطبيع مع إسرائيل

مصير إسرائيل بين سفري اشعياء ودانيال: وعد بـ "نور أبدي وشمس لا تغيب" أم بـ "رجسة الخراب"؟

يبشِّر سفر اشعياء دولة إسرائيل بميراث أبدي على الأرض، وبانتشار العدالة والمساواة بين البشر وانتهاء عصور الظلم، وبزهو وعزَّة ووفرة لا نفاد لها، بل وبعمران وعلوٍّ لا يفنيهما خراب "**لاَ يُسْمَعُ بَعْدُ ظُلْمٌ فِي أَرْضِكِ، وَلاَ خَرَابٌ أَوْ سَحْقٌ فِي تُخُومِكِ**، بَلْ تُسَمِّينَ أَسْوَارَكِ: خَلاَصًا وَأَبْوَابَكِ: تَسْبِيحًا. لاَ تَكُونُ لَكِ **بَعْدُ الشَّمْسُ نُورًا فِي النَّهَارِ، وَلاَ الْقَمَرُ يُنِيرُ لَكِ مُضِيئًا، بَلِ الرَّبُّ يَكُونُ لَكِ نُورًا أَبَدِيًّا وَإِلهُكِ زِينَتَكِ.** لاَ تَغِيبُ بَعْدُ شَمْسُكِ، وَقَمَرُكِ لاَ يَنْقُصُ، لأَنَّ الرَّبَّ يَكُونُ لَكِ نُورًا أَبَدِيًّا، وَتُكْمَلُ أَيَّامُ نَوْحِكِ. وَشَعْبُكِ كُلُّهُمْ أَبْرَارٌ. **إِلَى الأَبَدِ يَرِثُونَ الأَرْضَ،** غُصْنُ غَرْسِي عَمَلُ يَدَيَّ لأَتَمَجَّدَ" (سفر اشعياء: إصحاح ٦٠، آيات ١٨–٢١). وكما تشير الآيات في الإصحاح ٦١ في نفس السفر، يأتي هذا الوعد على لسان المخلِّص، الذي التحم به الرُّوح القُدُس "**رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي**" (آية ١)، وصار تجسيدًا للربِّ لرفع الظلم والمعاناة "**لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ.** لأُنَادِيَ بِسَنَةٍ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ، وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لإِلَهِنَا. **لأُعَزِّيَ كُلَّ النَّائِحِينَ. لأَجْعَلَ لِنَائِحِي صِهْيَوْنَ،** لأُعْطِيَهُمْ جَمَالاً عِوَضًا عَنِ الرَّمَادِ" (آيات ١–٣). يتَّضح لنا أنَّ المخلِّص يأتي في زمان يكثر فيه القتل والظلم وسجن الأبرياء، وسيأتي هو لرفع الضرَّ عنهم بإذن الربِّ. ويتحدَّث المخلِّص عن إعادة بناء المقهورين من أبناء إسرائيل مُدُن خربة، لا يشير تفسير الإصحاح عن سبب خرابها "**يَبْنُونَ الْخِرَبَ الْقَدِيمَةَ. يُقِيمُونَ الْمُوحِشَاتِ الأُوَلَ، وَيُجَدِّدُونَ الْمُدُنَ الْخَرِبَةَ، مُوحِشَاتِ دَوْرٍ فَدَوْرٍ**" (آية ٤). زمن اللافت أنَّه برغم وعد المخلِّص بانتهاء عهد الظلم والاستعباد، فهو يعد شعب إسرائيل بخضوع الأغيار لسلطانهم، وعملهم في خدمة الشعب "**وَيَقِفُ الأَجَانِبُ وَيَرْعَوْنَ غَنَمَكُمْ، وَيَكُونُ بَنُو الْغَرِيبِ حَرَّاثِيكُمْ وَكَرَّامِيكُمْ**" (آية ٥)؛ ويعني ذلك احتفاظ شعب إسرائيل بالشعور العنصري بالسمو على الأجناس الأخرى، وهذا ما يؤكِّده المخلِّص "**أَمَّا أَنْتُمْ فَتُدْعَوْنَ كَهَنَةَ الرَّبِّ، تُسَمَّوْنَ خُدَّامَ إِلهِنَا. تَأْكُلُونَ ثَرْوَةَ الأُمَمِ، وَعَلَى مَجْدِهِمْ تَتَأَمَّرُونَ**" (آية ٦). سيصبح

شعب إسرائيل "**كَهَنَةَ الرَّبِّ**" وسيرثون "**ثَرْوَةَ الأُمَمِ**" الأخرى، بل وسينتقمون من أبنائهم الذين تعالوا عليهم في السابق "**عَلَى مَجْدِهِمْ تَتَأَمَّرُونَ**".

وعلى النقيض من الوعد بالمجد الأبدي، وبالنعيم الدائم، وبتكفير الآثام في ظلِّ وجود المخلِّص في نهاية سفر اشعياء، نجد في سفر دانيال وعدًا بالحرب والخرب والعذاب لأهل أورشليم، بصورة تتفق مع ما ورد عن "**نَائِحِي صِهْيَوْنَ**" و "**الْمُدُنَ الْخَرِبَةَ**" في الإصحاح ٦١ من سفر اشعياء. يقول النبي دانيال عمَّا ورد في رؤياه، التي جاءه فيها "الرَّجُل جِبْرَائِيلَ" ليبشِّره فيها بعودة بني إسرائيل من السبي البابلي "بَعْدَ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ أُسْبُوعًا **يُقْطَعُ الْمَسِيحُ** وَلَيْسَ لَهُ، **وَشَعْبُ رَئِيسٍ آتٍ يُخْرِبُ الْمَدِينَةَ وَالْقُدْسَ، وَانْتِهَاؤُهُ بِغَمَارَةٍ، وَإِلَى النِّهَايَةِ حَرْبٌ وَخِرَبٌ قُضِيَ بِهَا**. وَيُثَبِّتُ عَهْدًا مَعَ كَثِيرِينَ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ، وَفِي **وَسَطِ الأُسْبُوعِ** يُبَطِّلُ الذَّبِيحَةَ وَالتَّقْدِمَةَ، وَ**عَلَى جَنَاحِ الأَرْجَاسِ مُخَرَّبٌ حَتَّى يَتِمَّ وَيُصَبَّ الْمَقْضِيُّ عَلَى الْمُخَرِّبِ**" (سفر دانيال: إصحاح ٩، آيتان ٢٦-٢٧). سبقت الإشارة في الدراسة بعنوان **وصف الرَّب وبيته في الكتاب المُقدَّس**، إلى تفسير رؤيا السبعين أسبوعًا، وهي الفترة ما بين وعدي الأولى والآخرة لبني إسرائيل المرتبطين بالتوراة والإنجيل. وتذكيرًا بما سبق إيضاحه، يشير التفسير إلى أنَّ الأسبوع يعادل ٧ أعوام، وقد قُضتي الأسابيع السبعة الأولى-٤٩ عامًا-في ترميم أورشليم وهيكلها؛ وتشكِّل فترة ٦٢ أسبوعًا التالية الفترة من ترميم الهيكل والمدينة إلى ظهور المسيح؛ في حين يبدأ الأسبوع الأخير ببعثة المسيح. ووفق ما جاء من تفسير لهذا الحدث على موقع St. Takla التبشيري، فإنَّ المقصود بـ "**يُقْطَعُ الْمَسِيحُ**" تقديم المسيح نفسه فداءً للبشريَّة للتكفير عن خطاياهم، ويكون ذلك "فِي **وَسَطِ الأُسْبُوعِ**" الأخير. ويبقى بنو إسرائيل الفترة المتبقية، ٣٥ عامًا، في هدوء نسبي، حتى يأتي زمن الهلاك واستحقاق وعد الآخرة، وحينها "**يُصَبَّ الْمَقْضِيُّ عَلَى الْمُخَرِّبِ**".

وتفسير لهذا الخراب، كما جاء على موقع St. Takla، هو ما لحق بأورشليم على يد الرُّومان، بعد ثورة اليهود عليهم، التي بدأ عام ٦٦ ميلاديًّا، واستمرَّت ٤ سنوات إلى عام ٧٠. ولتفادي سوء الفهم، يذكر التفسير على الموقع ذاته أنَّ هناك خطأً في حساب تاريخ

ميلاد المسيح، باعتبار أنَّه وُلد عام ٢٦ قبل الميلاد، وبُعث في سن ٣٠ عامًا، أي عام ٢٦ ميلاديًّا، وصُلب في سنِّ ٣٣ عامًا، أي عام ٢٩ ميلاديًّا تقريبًا. وبحساب الفترة ما بين الصلب وثورة اليهود، نجد حوالي ٣٧ عامًا، بفارق بسيط عن الفترة المذكورة في رؤيا دانيال، وهي ٣٥ عامًا. ومع أنَّ أقرب تفسير لحدوث "**حَرْبٌ وَخِرَبٌ**" في دولة بني إسرائيل مع استحقاق وعد الآخرة هو حربهم مع الرومان (٦٦-٧٠ ميلاديًّا)، فموقع St. Takla يفترض أنَّ النبوءة تتكرر، استدلالًا بما جاء في رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل تسالونيكي، وتبشيره بقدوم ضدِّ المسيح "إِنْسَانُ الْخَطِيَّةِ، ابْنُ الْهَلاَكِ" إلى أورشليم، وتدنيسه الهيكل، وادِّعائه الألوهيَّة. وبعد أن يقضي ضدُّ المسيح فترة تُقدَّر بنصف أسبوع، أي نفس الفترة من "**قَطْعُ الْمَسِيحُ**" وحتَّى استحقاق وعد الآخرة جزاءً على تكذيبه؛ لأنَّ ضدَّ المسيح سيأتي "بِكُلِّ قُوَّةٍ، وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ. **وَبِكُلِّ خَدِيعَةِ الإِثْمِ**" (رسالة تسالونيكي ٢: إصحاح ٢، آيتان ٩-١٠) لاختبار "الْهَالِكِينَ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا مَحَبَّةَ الْحَقِّ حَتَّى يَخْلُصُوا. وَلأَجْلِ هذَا سَيُرْسِلُ إِلَيْهِمُ اللهُ عَمَلَ الضَّلاَلِ، حَتَّى يُصَدِّقُوا الْكَذِبَ. لِكَيْ يُدَانَ جَمِيعُ الَّذِينَ لَمْ يُصَدِّقُوا الْحَقَّ، بَلْ سُرُّوا بِالإِثْمِ" (رسالة تسالونيكي ٢: إصحاح ٢، آيات ١٠-١٢). وبعد انخداع أصحاب النفوس الضعيفة والمنافقين بالآيات الزائفة لضدِّ المسيح، يأتي المخلِّص، الذي مسَحَه الربُّ وعليه روحه، ليرفع الظلم عن المؤمنين، ويجبر كسر المظلومين، ويعيد بناء الخراب الذي أحدثه ضدُّ المسيح (سفر اشعياء: إصحاح ٦١). ولهؤلاء يقول بولس الرسول "فَاثْبُتُوا إِذًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ وَتَمَسَّكُوا بِالتَّعَالِيمِ الَّتِي تَعَلَّمْتُمُوهَا...وَرَبُّنَا نَفْسُهُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ...يُعَزِّي قُلُوبَكُمْ وَيُثَبِّتُكُمْ فِي كُلِّ كَلاَمٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ"(رسالة تسالونيكي ٢: إصحاح ٢، آيات ١٥-١٧).

تجدر الإشارة إلى أنَّ دانيال قد أخبر في سفره في موضع آخر عن هلاك بني إسرائيل وتخريب هيكلهم "وَيَكُونُ زَمَانُ ضِيق لَمْ يَكُنْ مُنْذُ كَانَتْ أُمَّةٌ إِلَى ذلِكَ الْوَقْتِ" (سفر دانيال: إصحاح ١٢، آية ١)؛ كما أخبر عن ذلك صفنيا في سفره "أُضَايِقُ النَّاسَ فَيَمْشُونَ كَالْعُمْيِ، **لأَنَّهُمْ أَخْطَأُوا إِلَى الرَّبِّ**، فَيُسْفَحُ دَمُهُمْ كَالتُّرَابِ وَلَحْمُهُمْ كَالْجِلَّةِ. لاَ فِضَّتُهُمْ وَلاَ ذَهَبُهُمْ يَسْتَطِيعُ إِنْقَاذَهُمْ في **يَوْمِ غَضَبِ الرَّبِّ**، بَلْ بِنَارِ غَيْرَتِهِ تُؤْكَلُ الأَرْضُ

كُلُّهَا، لأَنَّهُ يَصْنَعُ **فَنَاءً بَاغِتًا لِكُلِّ سُكَّانِ الأَرْضِ**" (سفر صفنيا: إصحاح ١، آيتان ١٧-١٨). يقول صفنيا أنَّ "**يَوْمِ غَضَبِ الرَّبِّ**" يأتي عقابًا لبني إسرائيل؛ "**لأَنَّهُمْ أَخْطَأُوا إِلَى الرَّبِّ**"، وهو لذلك يُحدث "**فَنَاءً بَاغِتًا لِكُلِّ سُكَّانِ الأَرْضِ**"، فلا ينفع ذهب ولا فضَّة. وبما أنَّ الهلاك في هذا الوصف يعمُّ الأرض، فهذا ينطبق على آخر الزمان، واستحقاق بني إسرائيل وعد الآخرة المرتبط بالقرآن الكريم، كتاب آخر الأمم. وقد ذكر المسيح في إنجيل متَّى عن خراب أورشليم ودمار الهيكل، عقابًا لبني إسرائيل على كُفرهم "فَمَتَى نَظَرْتُمْ «**رِجْسَةَ الْخَرَابِ**» الَّتِي قَالَ عَنْهَا دَانِيَالُ النَّبِيُّ قَائِمَةً فِي الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ. **فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ**...لأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ **ضِيقٌ عَظِيمٌ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْعَالَمِ إِلَى الآنَ وَلَنْ يَكُونَ**. وَلَوْ لَمْ تُقَصَّرْ تِلْكَ الأَيَّامُ لَمْ يَخْلُصْ جَسَدٌ. وَلكِنْ لأَجْلِ الْمُخْتَارِينَ تُقَصَّرُ تِلْكَ الأَيَّامُ" (إنجيل متَّى: إصحاح ٢٤، آيات ١٥-٢٢). وبما أنَّ الضيق العظيم التي وُعد به بنو إسرائيل "**لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْعَالَمِ إِلَى الآنَ وَلَنْ يَكُونَ**"، فهذا إشارة جديدة على أنَّ هذا الهلاك يكون في آخر الزمان.

ما فهمناه مما سبق أنَّ بني إسرائيل موعودون بهلاك وفتنٍ على يد ضدِّ المسيح، وهذا يتَّفق مع وعد الآخرة في الآية ٧ من سورة الإسراء؛ غير أنَّ الهلاك النهائي، وفق النموذج الإسلامي لنفس هذه المرحلة، لا يتبعه علو جديد لبني إسرائيل. إذا سلَّمنا بأن ضدَّ المسيح يعادل شخصيَّة المهدي، فالمسلمون يترقَّبون أن يظهر بعده الدجَّال "الْمُقَاوِمُ وَالْمُرْتَفِعُ عَلَى كُلِّ مَا يُدْعَى إِلهًا أَوْ مَعْبُودًا...**مُظْهِرًا نَفْسَهُ أَنَّهُ إِلهٌ**" (رسالة تسالونيكي ٢: إصحاح ٢، آية ٤)، ويتبعه المؤمنون بالتجسُّد والحلول، واتِّحاد الرُّوح القُدُس بأجسام البشر؛ فإلى هؤلاء "يُرْسِلُ اللهُ **عَمَلَ الضَّلاَلِ، حَتَّى يُصَدِّقُوا الْكَذِبَ**" (رسالة تسالونيكي ٢: إصحاح ٢، آية ١١). غير أنَّ الدجَّال لا "**يَجْلِسُ فِي هَيْكَلِ اللهِ كَإِلهٍ**"؛ لأنَّ نبي الله عيسى "**يُبِيدُهُ بِنَفْخَةِ فَمِهِ، وَيُبْطِلُهُ بِظُهُورِ مَجِيئِهِ**" (رسالة تسالونيكي ٢: إصحاح ٢، آية ٨). ويقول رسول الله (ﷺ) في الحديث (١٥٦) في صحيح مُسلم عن استعصاء دخول الدجَّال المسجد الأقصى/الهيكل "فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ"، ويعزز هذا الحديث

آخر في صحيح مُسلم (٢٨٩٧) أبي هريرة (رضي الله عنه)، قال رسول الله (ﷺ) "**فَيَنْزِلُ** عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (عليه السلام)، فَأَمَّهُمْ، **فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللهُ بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ**". ويروي الإمام مُسلم في صحيحه حديثًا (٢٩٢٢) يبشِّر بنهاية اليهود في آخر الزمان، وبين يدي الساعة، فعن أبي هريرة أنَّ رسول الله (ﷺ) قال "**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**". يقضي عيسى، نبي الله ورسوله إلى بني إسرائيل، على فتنه تأليه البشر من دون الله، والزعم بأنَّه صُلب للتكفير عن ذنوب البشر، بل ويجبر أهل الكتاب على الدخول في الإسلام بوضعه الجزية. فعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، أنَّ رسول الله(ﷺ) قال "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ **يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ** وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ"، رواه البخاري (٢٢٢٢)، ومُسلم (١٥٥).

وصول التيَّار الحداثي إلى بلد الحرمين: مشروع نيوم "قبلة" لعالم التقنية

في ٢٤ أكتوبر من عام ٢٠١٧ ميلاديًّا، أعلن ولي العهد السعودي عن مشروع جديد يحمل الاسم NEOM، وهو عبارة عن مدينة تقنيَّة عابرة للحدود، تشغل أراضٍ من السعوديَّة ومصر والأردن، ستكون أوَّل مدينة رأسماليَّة في العالم، وموضع الربط بين ثلاث قارَّات، آسيا وإفريقيا وأوروبا. سينصبُّ تركيز المشروع على ٩ مجالات استثماريَّة، هي: مستقبل الطاقة والمياه، ومستقبل التنقل، ومستقبل التقنيات الحيويَّة، ومستقبل الغذاء، ومستقبل العلوم التقنيَّة والرقميَّة، ومستقبل التصنيع المتطور، ومستقبل الإعلام والإنتاج الإعلامي، ومستقبل الترفيه، ومستقبل المعيشة، كما توضح موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة. وحرص ولي العهد السعودي خلال مؤتمر تدشين المشروع العملاق، الذي سيتكلَّف نصف تريليون دولار، على الإشارة إلى تميُّز NEOM عن أيِّ مشروع مستقبلي

في قدرته على تحسين الأوضاع الحياتيَّة والارتقاء بها، كما هو الفرق بين قدرات أيِّ جوَّال عادي وأحدث الجوَّالات الذكيَّة.



صورة ٤٤–ولي العهد السُّعودي في تدشين مشروع نيوم

أمَّا عن سرِّ تسمية المشروع NEOM، فالاسم ينقسم إلى NEO، التي تعني "جديد" باللاتينيَّة، بينما يشير الحرف M إلى كلمة "مستقبل" بالعربيَّة. غير أنَّ زلَّة لسان كشفت عن إمكانيَّة إشارة الحرف M، إلى مُسمى آخر. فقد ذكر ماسايوشي سون، رئيس مجموعة سوفت بنك ومديرها التنفيذي، أنَّ القائمين على المشروع بصدد تأسيس "مكَّة ثانية"، فسارع ولي العهد السعودي بتصحيح الخطأ، وإيضاح أنَّ المقصود هو نقطة جذب جديدة تلفت أنظار العالم، كما يفد إلى مكَّة المكرَّمة الملايين لأداء مناسك الحجِّ والعُمرة.

عكاظ (جدة)

لم تكن رمزية «مكة الثانية» التي استشهد بها رئيس مجموعة سوفت بنك اليابانية ماسايوشي سون إلا دليلاً جلياً على أهمية مكة المكرمة لدى الحكومة السعودية التي استطاعت أن تجعل من قبلة المسلمين أكبر نقطة جذب يعرفها المسلمون وغير المسلمين حتى من أبناء الشرق الأقصى، من خلال مشاريع الإعمار الضخمة فيها، وحجم التوسعات في العاصمة الإسلامية المقدسة، الأمر الذي دفع بـ«ماسايوشي سون» أن يتعهد بصنع طاقة لـ«نيوم»، تكون مصدر جذب ولفت للأنظار من خلال الشمس.

ويبدو أن حنكة وسرعة بديهة ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان كانت قد أنقذت شريكه الياباني من خيانة التعبير، بعد أن صحح للحضور والمشاهدين ما ذهب إليه ماسايوشي يون، في دليل على أن محمد بن سلمان لا يعرف شركاء دولته فحسب، بل يعرف أيضاً كيف هم يفكرون، عندما قال «أتمنى أن لا يفهم تصريحه بشكل خاطئ».

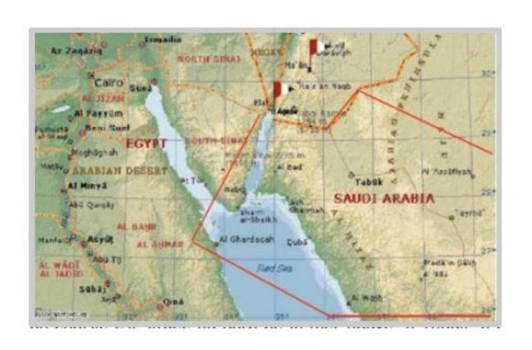
غير أنَّ زلَّة لسان المسؤول الياباني من الواضح أنَّ عدواها أصابت صحيفة واشنطن بوست الأمريكيَّة، فنشرت مقالًا بعنوان **مدينة السعوديَّة الجديدة، نيوم، قبلة الروبوتات**، أوضحت فيه أنَّ المملكة العربيَّة السعوديَّة قد أعلنت عن مشروعها العملاق خلال مؤتمر

مبادرة مستقبل الاستثمار، ونبَّهت إلى إيلاء دراسات الروبوتيات واستخدام الطائرات ذاتيَّة القيادة اهتمامًا كبيرًا.



استوقف اسم NEOM الدكتورة زينب عبد العزيز–أستاذ الحضارة الفرنسيَّة في جامعة الأزهر–فنشرت على مدوَّنتها مقالًا عنوانه **تأملات تجريدية حول** "**نيوم**"، تناولت فيه أبعاد المشروع، وربطت بين المعني الفرنسي للاسم وطبيعة المشروع غير المُعلن عنها. فقد وجدت عبد العزيز أنَّ الكلمة تعني "وحش؛ شيطان؛ شخص شرير بلا إنسانيَّة" في قاموس ڤيكسيونير الفرنسي.

تأملات تجريدية حول "نيوم"



الخط المستقيم الأحمر المتعدد الأضلاع يوضح حدود مدينة نيوم وما تم استقطاعه من مصر

لمن لا يعرف، فالاسم التجريدي لمدينة "نيوم" مشتق من اللاتينية "نيو" (neo) والميم مأخوذة من الكلمة العربية "مستقبل".. والغريب أن يتم اشتقاق لا مبرر له لاسم أجنبي أساسا لأن حرف الميم موجود في اللغات اللاتينية أيضا. وفرض كلمة أجنبية على المشروع، لها دلالتها خاصة وانه من الثابت علميا وتاريخيا في كل القرون، أن اللغة العربية من أثرى لغات العالم من كثرة وسهولة اشتقاقاتها الشديدة الدقة. ومن الغريب أن تعني كلمة "نيوم": "وحش، شيطان أو شخص شرير بلا إنسانية" في قاموس "ڤيكسيونير" الفرنسي ! والتجريد ليس في اسم المدينة فحسب ولا في وصفها على الموقع الرسمي الخاص بها، وإنما ينبثق منها، من نفس تخطيطها القائم على أراضي مملوكة لثلاثة دول هي المملكة السعودية ومصر والأردن! فلأول مرة في التاريخ تقام مدينة على أراضي من ثلاثة دول وتفصل المياه كثير من أجزائها خاصة مع مصر. وذلك هو ما نطالعه في الخريطة بعاليه والتي تم نشرها في موقعين رسميين وغاب عن الخرائط الأخرى المنشورة حول نفس الخبر.

ومما توصف به على الموقع الخاص بها، قبل صفحات من الكلام التفصيلي، ما يلي:

"أنها أكثر المشاريع طموحا في العالم، على أرض جديدة بالكامل، وهدف بناؤها هو من أجل أسلوب حياة جديدة.. مدينة حيث نعيش المستقبل فهو مفهوم لا منافس له ولا مثيل له في الذكاء، ولا ينافسه التاريخ، ومبني على أكبر موارد الإنسانية التي هي: الخيال... و"نيوم" هي نوع جديد من الغد في مجال عمل مكان على الأرض لا مثيل له على الأرض. أنها بصمة جديدة لحياة على مستوى لم نره من قبل حيث الابتكار يخلق نوعا جديدا لزمن ملهم لحضارة إنسانية (...) أنها موقع استراتيجي على أحد أهم الشرايين الاقتصادية، سيجعل من "نيوم" قطبا للتجارة والابتكار والمعرفة. **وسوف يعمل مشروع نيوم كمنطقة اقتصادية بقوانينها الخاصة بها من ضرائب وتنظيمات، تم اختلاقها لتفعيل نمو صحّي وثري للمنطقة والمستثمرين والمقيمين"...**

ومن أهم ما يميز تلك المدينة ـ الدولة كما تطلق عليها بعض المواقع، أنها ستدار أساسا بالروبوتات وبالخيال.. و"روبوتات" هي جمع "روبوت"، أي إنسان آلي وفقا لشرح الموقع.. "ويأتي هذا المشروع في إطار التطلعات الطموحة لرؤية عام 2030، بتحول المملكة الى نموذج عالمي في مختلف نواحي الحياة"، نموذج لا مكان فيه للإسلام والمسلمين إذ سيتيح للسعوديات ارتداء البيكيني إن شئن...

تعلَّق أستاذ الحضارة الفرنسيَّة على آثار المشروع العملاق على مصر، بسلبها بعض شواطئها الهامَّة، وإغلاق خليج السويس تمامًا، على حدِّ وصفها، كما تربط بين المشروع وخطط مستقبليَّة للصهيونيَّة العالميَّة، تستهدف سلب أموال العرب والسيطرة على أراضيهم، معتبرةً أنَّ المشروع إعداد للتوسُّع "الكاسح" للكيان الصهيوني في العالم الإسلامي، مسترشدةً في ذلك بمقطع على يوتيوب عنوانه Saudi Arabia's New Mega-City Sets the Stage for Prophetic Events-المدينة العملاقة الجديدة للسعوديَّة تهيِّئ الساحة لتحقُّق النبوءات.

من الواضح أن "نيوم" هذه هي في الواقع بداية التوسع الراسخ لتنفيذ المخطط الكاسح للإسلام والمسلمين والمسمى "إسرائيل الكبرى".. فإعمار شمال غرب السعودية وخاصة الجزء المستقطع من الأردن، والذي يشغل المساحة المتبقية لتصل حدود هذه المدينة إلى امتلاك كل امتداد خليج العقبة، الذي يتم إعداده ليكون طريق التجارة الدولية بعد تدويل مضيق تيران، وسيسمح قطعا للصهاينة بالوصول سيرا على الأرض الصلبة الممهدة الطرق والملكية لبداية تنفيذ مخطط "إسرائيل الكبرى".. فهذه المنظومة التجريدية، من النيل للفرات، التي لا سند تاريخي ولا ديني لها، هي ما لا يكف الإعلام الصهيوني والإعلام المماليئ للصهاينة عن ترديده.

ولو عدنا الى تأمل خريطة "نيوم" لوجدنا أنها تسلب مصر أهم أو كل شواطئها التي تقوم عليها السياحة المصرية المعتمدة على السواح الأجانب خاصة في الشتاء، وتستقطع شريحة هائلة من مياهها الإقليمية من نفس البحر الأحمر، وتغلق خليج السويس تماما على كل ما به من مشاريع ووسائل اتصال بحرية بالعالم الخارجي. أفلا يدخل ذلك في صميم عبثيات التجريد العمراني؟

ولو أضفنا العبارة الشهيرة، والخارجة عن حدود اللياقة، التي قالها ترامب في حضور ولي العهد السعودي، أثناء زيارته الأخيرة للولايات المتحدة في 22 مارس الحالي: " السعودية دولة شديدة الثراء وآمل أنك ستعطي جزءا من هذه الثروة للولايات المتحدة على شكل وظائف وعلى شراء أفضل المعدات الحربية في العالم"، لأدركنا حقيقة ما نحن مقبلون عليه، وكيف أننا حيال مرحلة، إن صحت وتم تنفيذها، فهي مرحلة تجريدية لا مثيل لها في كل مكونات هذا المشروع..

غير أن ما نطالعه في فيديو أحد الصهاينة والذي أورد رابطه أيضا، يوضح أن المسألة ليست مجرد "إسرائيل الكبرى من النيل للفرات"، وإنما هي إحياء لخريطة بني إسرائيل الوهمية القديمة من قبيل مديَن ومؤاب وإيدوم..

والتجريد هنا بكل معانيه اللغوية والفنية..

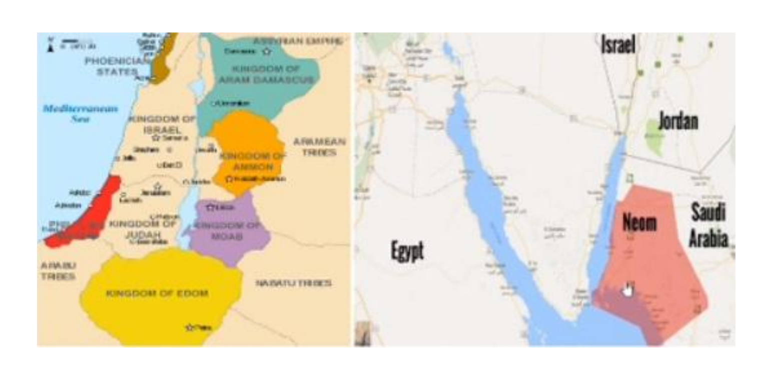
زينب عبد العزيز

2 إبريل 2018

نشر هذا المقطع على قناة Watchman Alexander، أو المراقب ألكسندر، في إشارة إلى مدير القناة، وهو شاب يُدعى ألكسندر لورانس، يعرِّف نفسه بأنَّه يعدُّ "الصفوة" لذروة

أحداث التاريخ، من خلال شرح الأسفار المقدَّسة، من منظور عبري مستقل. يتولَّى المراقب ألكسندر مهمَّة الشرح، من خلال استعراض تطابُق تأسيس مدينة نيوم التقنيَّة مع نبوءات الكتاب المقدَّس عن آخر الزمان. يشير ألكسندر إلى أنَّ المنطقة المخصَّصة لتأسيس المدينة العملاقة تشغل أراضٍ ذُكرت في التوراة، وصار لبعضها أسماء جديدة اليوم، وهي سيناء، الواقعة في مصر، ومؤاب وأدوم، الواقعتين في الأردن، ومدين، الواقعة في غرب السعوديَّة؛ وكانت مؤاب وأدوم قد تكاتفت مع مدين في الأزمنة القديمة للهجوم على إسرائيل، كما تُخبر التوراة. ويدَّعي المراقب ألكسندر أنَّ جبل الطُّور ليس في سيناء، وأنَّ بني إسرائيل لم يجدوه بعد عبورهم خليج السويس، **إنَّما بعد عبورهم خليج العقبة، أي في أرض مدين،** مما يعني أنَّ نيوم تُبنى في الأرض المقدَّسة في التوراة، ويرى ألكسندر أنَّ "**لا بدَّ أنَّ لذلك مدلولًا**".

يعرض المراقب ألكسندر الحدود الواقعة بين أراضي المملكتين، العربيَّة السعوديَّة والأردنيَّة الهاشميَّة، في الزمن الحالي على خريطة مُصغَّرة، مشيرًا إلى اعتقاد تجاوُز حدود نيوم، كما تُظهرها الخريطة التي يستشهد بها، والمنشورة ضمن مقال على موقع New Atlas، تلك الحدود مستقبلًا، شمالًا إلى جنوب الأردن. يستعرض ألكسندر بعد ذلك آيات من سفر حبقوق، تشير إلى زمن عودة المسيَّا في آخر الزمان، ومرور المُدن المحيطة بإسرائيل باضطرابات وأزمات طاحنة، وستأتي في قسم لاحق الإشارة إلى أنَّ عند ظهور المسيَّا المخلِّص، وفق المعتقد اليهودي، لن يكون في أمن وسلام إلَّا المعتصمون على جبل صهيون.



صورة ٤٥ –خارطة نيوم في مقابل خارطة للشَّام قبل الميلاد

يقول سفر حبقوق "اَللهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ، وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. سِلاَهْ. جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ. وَكَانَ لَمَعَانٌ كَالنُّورِ. لَهُ مِنْ يَدِهِ شُعَاعٌ، وَهُنَاكَ اسْتِتَارُ قُدْرَتِهِ. قُدَّامَهُ ذَهَبَ الْوَبَأُ، وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الْحُمَّى. وَقَفَ وَقَاسَ الأَرْضَ. نَظَرَ **فَرَجَفَ الأُمَمُ وَدُكَّتِ الْجِبَالُ الدَّهْرِيَّةُ وَخَسَفَتْ آكَامُ الْقِدَمِ**. مَسَالِكُ الأَزَلِ لَهُ. **رَأَيْتُ خِيَامَ كُوشَانَ تَحْتَ بَلِيَّةٍ. رَجَفَتْ شُقَقُ أَرْضِ مِدْيَانَ**" (سفر حبقوق: إصحاح ٣، آيات ٣-٧). تشير الآية ٧ إلى أنَّ الاضطرابات والبلايا أصابت جزيرة العرب كلَّها، بل وامتدَّت إلى أرض كوشان، الواقعة في أواسط آسيا، في أفغانستان.

ينتقل ألكسندر إلى سفر حزقيال للتدليل على اعتقاده بورود نبوءة في الكتاب المقدَّس عن مدينة على الأرض المخصصة لمدينة نيوم. تشير الآيتان إلى مرور أدوم وجبل سعير بضيق قبيل ظهور المخلِّص " هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: عِنْدَ فَرَحِ كُلِّ الأَرْضِ أَجْعَلُكَ مُقْفِرًا. **كَمَا فَرِحْتَ عَلَى مِيرَاثِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ لأَنَّهُ خَرِبَ، كَذلِكَ أَفْعَلُ بِكَ. تَكُونُ خَرَابًا يَا جَبَلَ سَعِيرَ أَنْتَ وَكُلُّ أدوم بِأَجْمَعِهَا، فَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ**" (سفر حزقيال: إصحاح ٣٥، آيتان ١٤-١٥). يتوعَّد الربُّ بتخريب أدوم وجبل سعير بسبب "**بغضة أبديَّة**" من جهتهما إلى إسرائيل. وينتقل المراقب بعد ذلك إلى سفر إشعياء، حيث ذُكر أنَّ أدوم وبُصرة تتعرَّضان لهجوم عنيف يُعمل فيه السيف بضراوة " ٦ لِلرَّبِّ سَيْفٌ قَدِ امْتَلأَ دَمًا، اطَّلَى بِشَحْمٍ، بِدَمِ خِرَافٍ وَتُيُوسٍ، بِشَحْمِ كُلَى كِبَاشٍ. **لأَنَّ لِلرَّبِّ ذَبِيحَةً فِي بُصْرَةَ وَذَبْحًا عَظِيمًا فِي أَرْضِ أدوم**" (سفر اشعياء: إصحاح ٣٤، آية ٦). ويؤكِّد حدوث هذه المعمعة آية أخرى في نفس السفر "مَنْ ذَا الآتِي **مِنْ أَدُومَ، بِثِيَابٍ حُمْرٍ مِنْ بُصْرَةَ؟** هذَا الْبَهِيُّ بِمَلاَبِسِهِ، الْمُتَعَظِّمُ بِكَثْرَةِ قُوَّتِهِ. «أَنَا الْمُتَكَلِّمُ بِالْبِرِّ، الْعَظِيمُ لِلْخَلاَصِ»" (سفر اشعياء: إصحاح ٦٣، آية ١). ويأتي ذكر خراب بُصرة في سفر ارميا "لأَنِّي بِذَاتِي حَلَفْتُ، يَقُولُ الرَّبُّ، **إِنَّ بُصْرَةَ تَكُونُ دَهَشًا وَعَارًا وَخَرَابًا وَلَعْنَةً، وَكُلُّ مُدُنِهَا تَكُونُ خِرَبًا أَبَدِيَّةً... وَتَصِيرُ أَدُومُ عَجَبًا. كُلُّ مَارّ بِهَا يَتَعَجَّبُ وَيَصْفِرُ بِسَبَبِ كُلِّ ضَرَبَاتِهَا!**" (سفر ارميا: إصحاح ٤٩، آيتان ١٣ و١٧). يرى ألكسندر أنَّ المقصود بإصابة المار بمدينة أدوم بضربات يعني تعرُّض المدينة لهجمات إشعاعيَّة يُقصد بها "**يَصْفِرُ بِسَبَبِ كُلِّ ضَرَبَاتِهَا**".

يرد ذِكر خراب أدوم في سفر عوبديا كذلك "رُؤْيَا عُوبَدْيَا: هكَذَا **قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ عَنْ أَدُومَ**: سَمِعْنَا خَبَرًا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ وَأُرْسِلَ رَسُولٌ بَيْنَ الأُمَمِ: «**قُومُوا، وَلْنَقُمْ عَلَيْهَا لِلْحَرْبِ**». «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُكَ صَغِيرًا بَيْنَ الأُمَمِ. أَنْتَ مُحْتَقَرٌ جِدًّا. **تَكَبُّرُ قَلْبِكَ قَدْ خَدَعَكَ أَيُّهَا السَّاكِنُ فِي مَحَاجِئِ الصَّخْرِ، رِفْعَةَ مَقْعَدِهِ، الْقَائِلُ فِي قَلْبِهِ: مَنْ يُحْدِرُنِي إِلَى الأَرْضِ؟ إِنْ كُنْتَ تَرْتَفِعُ كَالنَّسْرِ، وَإِنْ كَانَ عُشُّكَ مَوْضُوعًا بَيْنَ النُّجُومِ، فَمِنْ هُنَاكَ أُحْدِرُكَ، يَقُولُ الرَّبُّ**" (سفر عوبديا: إصحاح ١، آيات ١-٤). لا ينطبق وصف تطاوُل البنيان والقصور الفارهة في الإصحاح "**مَحَاجِئِ الصَّخْرِ، رِفْعَةَ مَقْعَدِهِ**" على حال أدوم اليوم، ولكن، وكما يرى ألكسندر، بعد بناء نيوم، سينطبق عليها ذلك. أمَّا عن سبب الإهلاك، فهو "**كَبُّرُ قَلْبِ**" ساكن المدينة، ممن خدعه العلو في الأرض فقال من أشدُّ منِّي قوَّة، لدرجة أنَّه قال "**فِي قَلْبِهِ: مَنْ يُحْدِرُنِي إِلَى الأَرْضِ؟**"؛ فجاء ردُّ الربِّ "**إِنْ كُنْتَ تَرْتَفِعُ كَالنَّسْرِ، وَإِنْ كَانَ عُشُّكَ مَوْضُوعًا بَيْنَ النُّجُومِ، فَمِنْ هُنَاكَ أُحْدِرُكَ** ". ويأتي ذِكر خراب أدوم كذلك في سفر يوئيل "مِصْرُ تَصِيرُ خَرَابًا، **وَأَدُومُ تَصِيرُ قَفْرًا خَرِبًا، مِنْ أَجْلِ ظُلْمِهِمْ لِبَنِي يَهُوذَا الَّذِينَ سَفَكُوا دَمًا بَرِيئًا فِي أَرْضِهِمْ**" (سفر يوئيل: إصحاح ٣، آية ١٩). يعلِّق المراقب ألكسندر بأنَّ هذه المنطقة خالية الآن، لكنَّها ستُعمَّر، ولكن وكأنَّ تدميرها في تعميرها الأخير، على حدِّ وصفه.

ربَّما يكون أهم ذِكر لخراب أدوم في العهد القديم قد أتى في سفر ملاخي، بالإشارة إليها باعتباره مملكة عيسو، توأم نبي الله يعقوب "وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ، **وَجَعَلْتُ جِبَالَهُ خَرَابًا وَمِيرَاثَهُ لِذِئَابِ الْبَرِّيَّةِ**؟ لأَنَّ أَدُومَ قَالَ: قَدْ هُدِمْنَا، فَنَعُودُ وَنَبْنِي الْخِرَبُ. هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: **هُمْ يَبْنُونَ وَأَنَا أَهْدِمُ. وَيَدْعُونَهُمْ تُخُومَ الشَّرِّ، وَالشَّعْبَ الَّذِي غَضِبَ عَلَيْهِ الرَّبُّ إِلَى الأَبَدِ**" (سفر ملاخي: إصحاح ١، آيتان ٣-٤). تشير الآية ٤ إلى أنَّ أيَّ تعمير للمدينة مصيره التدمير والإهلاك "**هُمْ يَبْنُونَ وَأَنَا أَهْدِمُ**"؛ لأنَّ المدينة ملعونة، وشعبها "**غَضِبَ عَلَيْهِ الرَّبُّ إِلَى الأَبَدِ**".

يعلِّق ألكسندر على القُرب الشديد لاسم نيوم-NEOM من أدوم-EDOM؛ حيث يشترك الاسمان في ٣ من أصل ٤ أحرف كُوِّن منها الاسمان. كما أنَّ الاسم NEOM يمكن

تحويره إلى ENOM. ويقول ألكسندر أنَّ هذا التقارب "لا يمكن أن يكون مصادفة" أن يشير اسمان متقاربان إلى هذا الحدِّ إلى مدينتين تقعان في نفس المنطقة الجغرافيَّة. ويعتقد المراقب أنَّ هذه المدينة هي مقدِّمة لمدينة بابل العظيمة، المذكورة في سفر اشعياء، (إصحاح ٤٧: آيات ١-٣) باسم "**الْعَذْرَاءُ ابْنَةَ بَابِلَ**"، ووصفت بـ "**سَيِّدَةِ الْمَمَالِكِ**"، التي تحيا حياةً "نَاعِمَةً وَمُتَرَفِّهَةً"، ويتوعَّدها الربَّ بالإهلاك قائلًا لها سوف "**تَنْكَشِفُ عَوْرَتُكِ وَتُرَى مَعَارِيكِ. آخُذُ نَقْمَةً**. ألكسندر يعتقد أنَّ بابل العظيمة الموعودة بالهلاك ليست إلَّا الواقعة في العراق، في ضوء ما جاء عنها في سفر ارميا "وَأُرْسِلُ إِلَى **بَابِلَ** مُذَرِّينَ فَيُذَرُّونَهَا وَيُفَرِّغُونَ أَرْضَهَا، لأَنَّهُمْ يَكُونُونَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فِي يَوْمِ الشَّرِّ. عَلَى النَّازِعِ فِي قَوْسِهِ، فَلْيَنْزِعِ النَّازِعُ، وَعَلَى الْمُفْتَخِرِ بِدِرْعِهِ، فَلاَ تُشْفِقُوا عَلَى مُنْتَخَبِيهَا، بَلْ حَرِّمُوا كُلَّ جُنْدِهَا. فَتَسْقُطَ الْقَتْلَى **فِي أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ**، وَالْمَطْعُونُونَ فِي شَوَارِعِهَا" (سفر ارميا: إصحاح ٥١، آيات ٢-٤). لا يمكن للباحث والمعلِّق أن يتوصَّل إلى حدود "**أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ**" في الأزمنة القديمة، ويعتقد أنَّ سكَّان تلك الأرض ربَّما توغَّلوا جنوبًا إلى ما يُعرف الآن بـ "السعوديَّة". **ويما أنَّ المدينة سينتهي العمل عليها عام ٢٠٢٥ ميلاديًّا، فهناك مجال لأن تكون هي المقصود بمدينة أدوم الموعودة بالهلاك؛ لأنَّ المعتقد اليهودي يشير إلى أنَّ المخلِّص يظهر ما بين عامي ٢٠٥٥ و٢٠٧٠ ميلاديًّا**. ويعتقد ألكسندر أنَّ الانتهاء من المدينة العملاقة قد لا يحتاج إلى سنوات؛ لأنَّ مدن مثلها تُؤسس خلال أيام في الشرق الأقصى، على حدِّ وصفه. السؤال: هل مدينة أدوم الجديدة هي "**الزَّانِيَةِ الْعَظِيمَةِ**" و "**الْعَذْرَاءُ ابْنَةَ بَابِلَ**" المذكورة في سفر اشعياء؟ هذا ما يستوضحه القسم التالي.

٩.مستقبل الحداثة في ظلِّ ريادة أمريكا وإسرائيل

يقول الكاتب هشام كمال عبد الحميد في مقدِّمة الطبعة الثانية لكتابه **هلاك ودمار أمريكا في الكُتُب السماويَّة (٢٠١٢)**، الذي أصدره دار الكتاب العربي لأوَّل مرَّة عام ١٩٩٧ ميلاديًّا، أنَّه تنبَّأ بأحداث جرت بالفعل لاحقًا، أخذت صورة أزمات اقتصاديَّة ومواجهات شرسة واجهتها الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة في العالم الإسلامي، أصبحت تهدِّد بزوالها.

وضعت أمريكا، بحروبها في العالم الإسلامي، ورغبتها الجامحة في السيطرة عليه؛ **لتنفيذ مخططات إعادة تقسيمه، بما يضمن مصالح حليفتها الأهم في المنطقة، الكيان الصهيوني**، في مأزق "**بدأ يهدِّد وجودها وبقاءها، ويعجِّل بانهيارها وسقوطها بوتيرة أسرع**" (ص٥). يؤيِّد عبد الحميد رأي سوزان لينداور في كتابها آنف الذكر (٢٠١٠) في تواطؤ الإدارة الأمريكيَّة في تنفيذ أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة مع "**الصهيونيَّة العالميَّة أو حكومة العالم الخفيَّة؛ لغزو العالم والانفراد بالسيطرة والهيمنة عليه**" (ص٥). جلبت مواجهات أمريكا في العالم الإسلامي مزيدًا من الكراهية، ومن الاتهامات بالتآمر على المسلمين لصالح اليهود، وكذلك من النفور من السياسات الغربيَّة تجاه العالم الإسلامي. الأهم من ذلك، أنَّ القدرة الإلهيَّة بدأت تقهر العنفوان الأمريكي، بالتسبُّب في أزمات اقتصاديَّة تخلخل البنيان الأمريكي؛ ناهيك عن الأحداث الكونيَّة، من أعاصير وفيضانات وحرائق طبيعيَّة، التي تخلِّف ضحايا وترهق ميزانيَّة الدولة بالتعويضات والإصلاحات. يتحدَّى الكاتب الزعم الغربي بأنَّ الأمَّة الإسلاميَّة آخذة في الزوال، وأنَّها لن تستمرَّ طويلًا بعد نفاد النفط الخليجي، مستندًا إلى المبشِّرات النبويَّة بانصلاح حال الأمَّة، وانهيار الأمم المتربِّصة بها.

يجد الكاتب في **أمريكا مجرَّد أداة استخدمها الصهاينة**، منذ إشعال الثورة الأمريكيَّة (١٧٦٥-١٧٨٣ ميلاديًّا)، واستقلال الولايات المتَّحدة عن بريطانيا، في سبيل تنفيذ مخطَّطهم للسيطرة على العالم، بنشر ثقافة عالميَّة تحارب الوحي السماوي، وتفرض وعيًا موحَّدًا، ومن يحيد عنه يُنبذ. ويرى الكاتب أنَّ التاريخ وكأنَّما يعيد نفسه؛ فأمريكا اليوم سيف على رقاب المسلمين، كما كان البابليُّون والرومان سيفًا أباد بني إسرائيل عن بَكرة أبيهم. المثير أنَّ الكاتب يتوقَّع أن تعصف بأمريكا مصائب، جزاءً من الله على ما جنته أيديها؛ وفي هذا يقول "سنشهد المزيد من الكوارث والمصائب التي ستحيط **بالإمبراطوريَّة الشيطانيَّة الأمريكيَّة**، حتى تأتي اللحظة التي يحشد الله فيها المسلمين وأوروبا ومعظم دول العالم ضد أمريكا" (ص٦).

نشأة أمريكا ودور اليهود في تأسيسها

يفترض الكاتب من البداية أنَّ **أمريكا وإسرائيل ليستا دولتين منفصلتين**؛ إنَّما هما دولة واحدة، تحكمها الصهيونيَّة العالميَّة، أو ما يُعرف بـ "**حكومة العالم الخفيَّة، أو السريَّة**" (ص١٠) –رأينا في خطاب رئيس الوزراء الإسرائيلي أمام الأيباك في مارس ٢٠١٨ إشارة إلى أنَّ **أمريكا وإسرائيل تربطهما** "**أواصر لا يمكن كسرها**". يستعرض الكاتب تاريخ نشأة الولايات الأمريكيَّة في صورة مستعمرات، احتلَّها المستعمر البريطاني واحدةً تلو الأخرى، في حرب إبادة للسكَّان الأصليِّين–Native Americans، الذي أُطلق عليهم الاسم التحقيري Red Indians، أو الهنود الحُمر–استمرَّت لعقود، من أواخر القرن الخامس عشر، وحتَّى النصف الثاني من القرن الثامن عشر. لم تقتصر الحرب على القتل بالسلاح، إنَّما امتدَّ الأمر إلى نشر الأوبئة، والتهجير القصري إلى قارَّة أمريكا الجنوبيَّة. وبعد أن استتبت الأمور للحكومة البريطانيَّة في أمريكا، أرادت الإمبراطوريَّة الاستعماريَّة الأشرس حينها تمويل لما تنفقه في حروبها؛ فاقترضت من البنوك التي أدارها المرابون اليهود، وفرضت على المواطنين ضرائب لتعويض خسائرها. ويرى عبد الحميد أنَّ أزمة فرض الضرائب، المفترض أن تكون السبب في إشعال الثورة الأمريكيَّة، لم تكن سوى أزمة مفتعلة، أراد بها آل روتشيلد، أباطرة المال في العالم، كما يُطلق عليهم، "السيطرة على حقِّ إصدار النقد في الولايات الأمريكيَّة" (ص١٤).

وبذِكر الرِّبا، يعيد عبد الحميد إلى الأذهان تاريخ اليهود مع أكل الأموال بالباطل، واعتقادهم أنَّ ذلك المال هو دعامة حياتهم الدنيا، وسبيل سيطرتهم على العالم مجيء المخلِّص. وكما أنذرهم المسيح في فترة بعثته إليهم بالهلاك بسبب الربا والممارسات الماليَّة الباطلة، صدق الله وعد رسوله ونبيِّه عيسى بأن أهلك بني إسرائيل، الذين هادوا، وتنصَّلوا من عقيدة السماء التي جاء بها أنبياؤهم. كان الهلاك على يد الرومان، الذين جُرَّ ملكهم نيرون إلى التعامل مع المرابين اليهود، الذين روَّجوا لديانة جديدة قوامها انتظار مُخلِّص، حلَّ عليه الروح القُدُس، وصار تجسيدًا للربِّ. استجاب نيرون في البداية لخديعة اليهود، ولكنَّه انقلب عليهم لمَّا انكشفت حقيقتهم، كما سبقت الإشارة في

أكثر من دراسة. نعرف من الدراسة السابقة عن التبشير والاستشراق أنَّ بنى إسرائيل تفرَّقوا في بلاد العالم، بحثًا عن الفرص النفعيَّة، وسعيًا إلى نشر عقيدتهم المبشِّرة بمجيء المخلِّص؛ وكانت أوروبا من بين وجهاتهم، وبالذَّات جنوبها. غير أنَّ بطش الرومان ببني إسرائيل أجبرهم على النزوح شمالًا، إلى ما يُعرف اليوم بأوروبا الاسكندنافيَّة، هربًا من البطش. وبرغم ما لاقاه بنو إسرائيل من أذىً بسبب ممارساتهم غير المشروعة، لم يمتنع هؤلاء عن مواصلة نشاطهم في الربا، بل عملوا في تجارة المخدِّرات، والدعارة، والتهريب، دون امتناع عن أيِّ فعل فاحش، وفق ما قاله وليم جاي كار في كتابه الشهير **أحجار على رُقعة الشطرنج** (١٩٥٥). وآخر ما يجدر بالتذكير في هذا الصدد، اعتبار كار في الكتاب آنف الذكر أنَّ المستفيد الأساسي من الحروب الصليبيَّة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد كان اليهود؛ بما قدَّموه من قروض ربويَّة للدول الأوروبيَّة المحاربة، أملًا في نيل نصيب من غنائمها.

حقيقة النظام الاقتصادي العالمي وملابسات تأسيسه

بدأت الدعوة إلى **فصل الدين عن الدولة، والتحرُّر من قيود الكنيسة** بعد انعقاد المجمع المسكوني الرابع عام ١٢١٥ ميلاديًّا، ونظره في مسألة التجاوزات اليهوديَّة؛ **وقرر المجمع وضع حدٍّ للممارسات الربويَّة لليهود، بل وأمر بعزل اليهود عن باقي سكَّان المُدن، وعيشهم في جماعات منفصلة تُعرف بالجيتو. وفي عام ١٢٥٣ ميلاديًّا، قرَّرت فرنسا وضح حدٍّ نهائي لممارسات اليهود، بطردهم، وحينها وجد اليهود في إنجلترا الحماية والأمان. استثمر هؤلاء أموالهم بنفس الطرق، ومارسوا نفس النشاطات، لكنَّهم واجهوا مضايقات في بلاد أوروبيَّة أخرى أُجبروا على الخروج منها، وكان شمال أوروبا دائمًا الملجأ الآمن على أرواحهم وأموالهم. تكرَّر طرد اليهود من دول أوروبا، لكنَّ أوضاعهم استقرَّت في الدولة العثمانيَّة، منذ هجرة نسبة كبيرة منهم إليها في القرن السادس عشر**. وعاد اليهود إلى شمال أوروبا في القرن السابع عشر، **تزامنًا مع الطفرة العلميَّة، الناتجة عن الثورة الاستعرافيَّة، واتِّباع المنهج العقلاني في العلوم.** استطاع اليهود تكوين إمبراطوريَّة ماليَّة سيطرت على أموال الشعوب من خلال التجارة،

وكذلك النشاطات الماليَّة الربويَّة. وكانت عائلة الدرع الأحمر الشهيرة هي صاحبة السبق في تكوين شبكة غزت عواصم أوروبا، وزرعت فيها من سلب أموال الناس، واحتكر جهودهم في مقابل أوراق ماليَّة، هي عبارة عن سندات للثروة المعدنيَّة الفعليَّة. أسس المرابون اليهود الطائفة النورانيَّة، التي تتحكَّم في سياسة العالم، وبالتالي في اقتصاده، من خلف الستار، وظلَّت شبكتهم تتشعَّب في الولايات المتَّحدة حتَّى سيطروا من خلالها على العالم بأسره.

باختصار، لعب المرابون اليهود دورًا لا يُمكن تصوُّره في إخضاع العالم تحت سلطانهم، من خلال استغلال تهافُت ضعاف النفوس على المال، وسعيهم إلى تأسيس إمبراطوريَّات وتوريثها إلى نسلهم، بغضِّ النظر عن مدى تأثير ذلك على الشعوب، ومدى أحقيَّة تلك الشعوب في الأموال التي يدفعها أصحاب السلطة للمرابين نظير القروض. أصبح المذهب البروتستانتي مفروضًا على النظام الحاكم في إنجلترا منذ القرن السابع عشر، حتَّى أنَّ الملك جيمس الثاني لمَّا أراد إعادة المذهب الكاثوليكي بعد تولِّيه الحكم عام ١٦٨٥ ميلاديًّا، سارع اليهود بإزاحته، ونصَّبوا مكانه وليم–أمير أورانج الهولندي–بعد زواجه من ابنة جيمس الثاني، ماري، ليصبحا معًا الملكان الحاكمان، وليم الثالث وماري الثانية، في عام ١٦٨٩ ميلاديًّا. كانت مكافأة وليم الثالث للمرابين اليهود، الذين نصَّبوه ملكًا، أن أقنع الخزانة باقتراض مليون جنيه إسترليني وربع المليون، وما كان من المرابين إلَّا أن وافقوا على الطلب، ولكن بشروط، هي: الحفاظ على سريَّة المقرضين؛ ومنح المرابين ميثاقًا لتأسيس بنك إنجلترا، مع الحق في تحديد سعر العملة مقارنةً بالذهب؛ وفرض ضرائب على الشعب لتسديد القرض.

بعد موافقة الجانب الإنجليزي على تلك الشروط، مُنح المرابون اليهود حقَّ إصدار النقد، وبالتالي أصبح هؤلاء المرابون هم المتحكمين في كل شيء في بريطانيا، سواء في السياسات الداخليَّة أو الخارجيَّة"، كما يشير عبد الحميد (ص٢٦). ويستند الكاتب في افتراضه أنَّ اليهود هم الحاكم الفعلي لأيِّ بلد من خلال مقولة مؤسس عائلة الدرع الأحمر، أو روتشيلد، "**دعنا نُصدر النقد في أيِّ بلد، ولا تسأل بعد ذلك من الذي يحكم**

البلد". المثير للاهتمام أنَّ الاقتراض لم يقتصر على قرض المليون وربع المليون، بل تواصل السحب من المرابين، إلى أن بلغ الدين ٢٢ مليارًا ونصف في عام ١٩٤٥ ميلاديًّا.

سبقت الإشارة إلى أنَّ **المذهب البروتستانتي، المستند إلى العهد القديم، والمعتمد في مفهومه الأساسي على فكرة عودة المخلِّص آخر الزمان**؛ لتأسيس دولة إسرائيل، وجمع شتات بني إسرائيل الموطِّئين لحُكمه، وإظهارهم على الأمم. وانتقل هذا المذهب مع المهاجرين الأوائل إلى المستعمرات الجديدة في أمريكا الشماليَّة. يذكر عبد الحميد أنَّ عائلة روتشيلد، بمعاونة مرابين يهود آخرين، أسست جماعة النُّورانيين، تحت إشراف كبار الحاخامات؛ بهدف "إحكام السيطرة على أمم الأرض، وتدميرها، وتدمير جميع الأديان؛ لتمهيد الأرض لحُكم مسيح اليهود المنتظر (المسيح الدجَّال)" (ص٢٨). ولأنَّ المستعمرات الأمريكيَّة حديثة التأسيس كانت تنعم بازدهار اقتصادي، وتُصدر عملتها بنفسها، سعى المرابون اليهود إلى السيطرة على تلك الولايات، فما كان من أمشيل ماير روتشيلد إلَّا أن طلب من الحكومة البريطانيَّة أن تستصدر قانونًا يمنع المستعمرات في أمريكا من إصدار عملتها بنفسها. استغلَّ روتشيلد، الذي كان يعيش أصلًا في ألمانيا ويدير منها مؤسسات مصرفيَّة متعدِّدة، منها بنك إنجلترا، نفوذه في بريطانيا، التي كانت تقترض منه ومن مرابين آخرين الأموال لأغراض البذخ والترف.

اشتعلت الثورة الأمريكيَّة من جرَّاء سنِّ ذلك القانون، وانتهت باستقلال المستعمرات الأمريكيَّة عن بريطانيا، لكن هذا لا يعني أنَّ عائلة روتشيلد لم تحقِّق أهدافها. فإلى جانب جني أرباح هائلة مقابل تزويد بريطانيا بجنود مرتزقة في حربها مع أمريكا، نجحت تلك العائلة في إجبار الإدارة الأمريكيَّة الجديدة على منحها حقِّ إصدار العملة النقديَّة في الدولة الجديدة المستقلَّة. وفي هذا، يقول عبد الحميد، نقلًا عن كتاب **أحجار على رُقعة الشطرنج** (١٩٥٥)، **أنَّ روبرت موريس، المراقب المالي للكونجرس الأمريكي نجح في إصابة الخزانة الأمريكيَّة بعجز تامٍّ؛ فلم يعد هناك مفرٌّ من الاقتراض من المرابين اليهود. كان موريس هذا عميلًا للمرابين، كما يذكر الكاتب، فأقنع الخزانة الأمريكيَّة**

بتنفيذ فكرة ألكسندر هاملتون، مندوب بنك إنجلترا في أمريكا، بتأسيس مصرف فيدرالي يمتلكه القطاع الخاص بمبلغ ١٢ مليون دولار، يدفع مليونين منها أثرياء أمريكا. وبالفعل، تأسس بنك أوف أمريكا، وكان مؤسساه في الأصل عميلين لآل روتشيلد. وبوصول ألكسندر هاملتون إلى منصب وزير الماليَّة، أصبحت موافقة الإدارة الأمريكيَّة على منح بنك أوف أمريكا على حقِّ إصدار النقد محسومة.

جدير بالذكر أنَّ الشعار الذي اتَّخذته جماعة اليهود النُّورانيين عند تأسيسها عام ١٧٧٦ ميلاديًّا موجود على الدُّولار، كما أنَّ الرقم المكتوب بالأحرف الرومانيَّة أسفل الهرم–MOCCLXXVI–هو ١٧٧٦، المفترض أن يكون تاريخ وثيقة الاستقلال الأمريكيَّة، ولكنَّه في الأصل تاريخ تأسيس جماعة النُّورانيين.



صورة ٤٦–شعار النُّورانيين



صورة ٤٧–شعار النُّورانيين على الدُّولار

يتطرّق عبد الحميد إلى مسألة تمركُز الأنشطة اليهوديَّة في هذه الآونة في الولايات المتَّحدة، من خلال المؤسسات الماليَّة والتجاريَّة. وكانت أول رحلة حملت جماعة من اليهود إلى المستعمرات الأمريكيَّة قد رست على ميناء أمستردام (نيويورك لاحقًا) في سبتمبر من عام ١٦٥٤ ميلاديًّا، وكانت تضمُّ ٢٣ شخصًا. وتواصل تدفُق اليهود إلى أمريكا، وإن كانت النسبة الأكبر من هؤلاء قد قدمت إلى هناك بعد تأسيس بنك أو أمريكا، وازدياد السيطرة الماليَّة لليهود في عالم التجارة الأمريكي. **ويتراوح عدد اليهود في أمريكا في هذه الآونة، وفق إحصاءات ديموغرافيَّة أُجريت عام ٢٠١٢ ميلاديًّا، ما بين**

٨ و١٠ ملايين شخص، يتركَّزون في المدن المعروفة بنشاطها التجاري والسياحي، مثل نيويورك، وسان فرانسيسكو، وميامي، وبالتيمور، ويوسطن، وشيكاغو. وأهم مجالات استثمار اليهود السينما والإعلام والبنوك والبورصات والتجارة العابرة للقارَّات. وبما أنَّ عدد اليهود في إسرائيل ذاتها لا يتجاوز ٦.٥ مليون، وفق تقديرات نشرتها موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة، فإنَّ أمريكا تحتضن أكبر عدد من اليهود في دولة واحدة، مما يعني أنَّ "الحكومة الإسرائيليَّة خاضعة أوَّلًا وأخيرًا لما يمليه عليها سادة اليهود الموجودون بأمريكا"، كما يرى عبد الحميد (ص٤١).

مؤامرات يهود أمريكا لاحتلال الأرض المقدَّسة ثمَّ السيطرة على العالم

نأتي إلى مسألة في غاية الأهميَّة، **وهي سعي اليهود تأسيس منظَّمة، أو لتقل حكومة، عالميَّة تُخضع العالم إلى سُلطانها، وتعدُّ العدَّة لاستقبال المخلِّص في آخر الزمان.** وتحقَّق الحُلم، وتمَّ لليهود ما أرادوا، بتأسيس **عُصبة الأمم** عام ١٩١٩ ميلاديًّا، تزامنًا مع نهاية الحرب العالميَّة الأولى، باعتبار تأسيسها من بين توصيات مؤتمر السلام في باريس. ووفقًا لما جاء في كتاب **حكومة العالم الخفيَّة** (١٩٢٦) للكاتب آرثر–شيريب سبيريدوفيتش، قال الكاتب البريطاني يسرائيل زانغويل "**هذه العصبة هي سفارة إسرائيل**". يشير عبد الحميد إلى ما ذكره الكاتب يوسف محمود يوسف في كتابه **إسرائيل البداية والنهاية،** عن أنَّ أول أعمال عصبة الأمم كان إرسال طمأنة لحاييم وايزمان، زعيم الصهيونيَّة بعد هرتزل، وأول رئيس لدولة إسرائيل، لأنَّ حماية مصالح اليهود من أولويَّات العصبة؛ والأكثر إثارة للاهتمام أنَّ **أوَّل أعمال عُصبة الأمم كان** "**فرض الانتداب البريطاني على فلسطين**" **في سبيل تنفيذ وعد بلفور** (ص٥٨). وبعد الحرب العالميَّة الثانية، تأسست منظَّمة الأمم المتَّحدة، تحديدًا عام ١٩٤٥ ميلاديًّا، **وشكَّل اليهود نواة الهيكل الإداري للمنظَّمة العالميَّة، وعلى رأسهم تريجفى لي، الأمين العام الأوَّل للأمم المتَّحدة، وبنيامين كوهين، مساعده.**

نبوءات الكتاب المقدَّس عن هلاك أمريكا من وجهة نظرة عبد الحميد

يستعرض الكاتب هشام كمال عبد الحميد في الفصل الثاني من كتابه وصْف أمريكا في النبوءات الواردة في الكتاب المقدَّس والقرآن الكريم. يبدأ الكاتب بالإشارة إلى نبوءات العهد القديم عن تلك البلاد، التي ورد ذكرها في سفر اشعياء (إصحاح ٤٧: آيات ١-٣) باسم "**الْعَذْرَاءُ ابْنَةَ بَابِلَ**"، ووصفت بـ "**سَيِّدَةِ الْمَمَالِكِ**"، التي تحيا حياةً "نَاعِمَةً وَمُتَرَفِّهَةً"، لكنَّ الربَّ يتوعَّدها بأنَّ نعمتها لن تدوم، قائلًا لها سوف "**تَنْكَشِفُ عَوْرَتُكِ وَتُرَى مَعَارِيكِ. آخُذُ نَقْمَةً**". من الواضح أنَّ هذه المدينة الموعودة بالهلاك في الآية ٥ من الإصحاح ٤٧ في سفر اشعياء ذاته "**اجْلِسِي صَامِتَةً وَادْخُلِي فِي الظَّلاَمِ يَا ابْنَةَ الْكَلْدَانِيِّينَ، لأَنَّكِ لاَ تَعُودِينَ تُدْعَيْنَ سَيِّدَةَ الْمَمَالِكِ**"، اعتمدت على العلم والحكمة في تطويرها إمكاناتها، وتأسيسها حياةً "**نَاعِمَةً وَمُتَرَفِّهَةً**". غير أنَّ تلك المدينة لم تشكر أنعُم الربِّ، وخانت عهده، وأرادت أن تبقى "**سَيِّدَةِ الْمَمَالِكِ**" المسيطرة على الدنيا: "غَضِبْتُ عَلَى شَعْبِي. دَنَّسْتُ مِيرَاثِي وَدَفَعْتُهُمْ إِلَى يَدِكِ. **لَمْ تَصْنَعِي لَهُمْ رَحْمَةً**. عَلَى الشَّيْخِ ثَقَّلْتِ نِيرَكِ جِدًّا. وَقُلْتِ: **إِلَى الأَبَدِ أَكُونُ سَيِّدَةً!** حَتَّى لَمْ تَضَعِي هذِهِ فِي قَلْبِكِ. لَمْ تَذْكُرِي آخِرَتَهَا" (إصحاح ٤٧: آيتان ٦-٧).

يوضح الربُّ لابنة بابل سبب هلاكها، وهو اعتمادها على "**حكمتها ومعرفتها**" في الحفاظ على كيانها، متناسيةً أنَّ الربَّ يراقب طغيانها "أَنْتِ اطْمَأْنَنْتِ فِي شَرِّكِ. **قُلْتِ: لَيْسَ مَنْ يَرَانِي. حِكْمَتُكِ وَمَعْرِفَتُكِ هُمَا أَفْتَنَاكِ**، فَقُلْتِ فِي قَلْبِكِ: **أَنَا وَلَيْسَ غَيْرِي**" (سفر اشعياء: إصحاح ٤٧، آية ١٠). ويشير الربُّ كذلك إلى أنَّ من أسباب الهلاك ممارسة السحر، كما تقول الآية ٩ في نفس الإصحاح "فَيَأْتِي عَلَيْكِ هذَانِ الاثْنَانِ بَغْتَةً فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ: الثَّكَلُ وَالتَّرَمُّلُ. **بِالتَّمَامِ قَدْ أَتَيَا عَلَيْكِ مَعَ كَثْرَةِ سُحُورِكِ، مَعَ وُفُورِ رُقَاكِ جِدًّا**". ما يزيد من التأكيد على أنَّ أمريكا هي المقصودة بالوصف في هذا الإصحاح، تبشير الربِّ بأنَّ هلاك "ابنة بابل" الغارقة في الشهوات، والباردة التي تحتاج نارًا "**لِلاسْتِدْفَاءِ**" يكون بقوى كونيَّة، في صورة نيازك وشُهُب حارقة تنهال من السماء، يعجز علماء الفَلَك عن صدِّها "**لِيَقِفْ قَاسِمُو السَّمَاءِ الرَّاصِدُونَ النُّجُومَ، الْمُعَرِّفُونَ عِنْدَ رُؤُوسِ الشُّهُورِ، وَيُخَلِّصُوكِ**

مِمَّا يَأْتِي عَلَيْكِ. هَا إِنَّهُمْ قَدْ صَارُوا كَالْقَشِّ. أَحْرَقَتْهُمُ النَّارُ. لاَ يُنَجُّونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ يَدِ اللَّهِيبِ. لَيْسَ هُوَ جَمْرًا لِلاسْتِدْفَاءِ وَلاَ نَارًا لِلْجُلُوسِ تُجَاهَهَا" (سفر اشعياء: إصحاح ٤٧، آيتان ١٣-١٤). وهكذا، تنهار المدينة التي قالت "**أَنَا وَلَيْسَ غَيْرِي**"، وتفقد كيانها التجاري، الذي كان عماد قوَّتها "**تُجَّارُكِ مُنْذُ صِبَاكِ** قَدْ شَرَدُوا كُلٌّ وَاحِدٍ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَيْسَ مَنْ يُخَلِّصُكِ" (سفر اشعياء: إصحاح ٤٧، آية ١٥).

يرى الكاتب كذلك أنَّ ما ورد في الإصحاح ٥١ من سفر ارميا (آيات ٧-٢٥) عن مدينة بابل ينطبق على أمريكا؛ فهي مدينة فاتنة ساحرة، اجتذبت أنظار العالم، وحيَّرت عقولهم "كَأْسُ ذَهَبٍ بِيَدِ الرَّبِّ تُسْكِرُ كُلَّ الأَرْضِ. مِنْ خَمْرِهَا شَرِبَتِ الشُّعُوبُ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ جُنَّتِ الشُّعُوبُ" (آية ٧)، وهي تطلُّ على مسطَّحات مائيَّة واسعة، وتنعم بوفرة من العيش "سَّاكِنَةُ عَلَى مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ" و "وَافِرَةُ الْخَزَائِنِ" (آية ١٣). تشترط هذه المدينة على من تمنحهم سبيل العيش فيها أن يتمتَّع بمعرفة تثمر عن نفع مادِّي "بَلُدَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَعْرِفَتِهِ"، وهي كذلك تنشر دعايةً زائفة عن نفسها، وترمز إلى ذلك بتمثال يقوم على مبدأ إنساني، بينما هو مجرَّد خديعة "خَزِيَ كُلُّ صَائِغٍ مِنَ **التِّمْثَالِ لأَنَّ مَسْبُوكَهُ كَذِبٌ وَلاَ رُوحٌ فِيهِ**" (آية ١٧). ليس "**التِّمْثَالُ**" المذكور في هذه الية بالتمثال الحقيقي، فهو مجرَّد رمزٍ لمفهوم-مثل المساواة، أو العدالة، أو حتَّى الحريَّة-أرادت بابل تعريف العالم بأنَّها تتبنَّاه، لكنَّه مظهر خارجي برَّاق يخفي خلفه عكس ذلك. توصف هذه المدينة بأنَّها "**بَاطِلَةٌ، صَنْعَةُ الأَضَالِيلِ**"؛ ولذلك، فهي "فِي وَقْتِ عِقَابِهَا تَبِيدُ" (سفر ارميا: إصحاح ٥١، آية ١٨).

ورد في العهد الجديد، تحديدًا في رؤيا يوحنَّا اللاهوتي، إصحاح ١٧، وصْف لمدينة "بابل العظيمة" من جديد، صوِّرت فيه بما يتَّفق مع وصفها في سفري اشعياء وارميا، من حيث الاستغراق في الملذَّات، وفتنة الناس؛ فهي "دَيْنُونَةَ **الزَّانِيَةِ الْعَظِيمَةِ** الْجَالِسَةِ عَلَى الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ. **الَّتِي زَنَى مَعَهَا مُلُوكُ الأَرْضِ، وَسَكِرَ سُكَّانُ الأَرْضِ مِنْ خَمْرِ زِنَاهَا**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٧، آيتان ١-٢)؛ ومن حيث سيطرتها على أمم الأرض "الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ **الَّتِي لَهَا مُلْكٌ عَلَى مُلُوكِ الأَرْضِ**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٧، آية ٢٠). وما يثبت ثراء هذه المدينة بالنعم الماديَّة أنَّها كانت "مُتَسَرْبِلَةً بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ،

وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ، وَمَعَهَا كَأْسٌ **مِنْ ذَهَبٍ** فِي يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا" (آية ٤). وما يثبت تورُّطها في أعمال إجراميَّة سُفكت فيها دماء أبرياء بسبب مكائد اليهود، أنَّها كانت "**سَكْرَى مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٧، آية ٦). توعد هذه المدينة من جديد بالهلاك حرقًا بالنَّار "الْعَشَرَةُ الْقُرُونِ الَّتِي رَأَيْتَ عَلَى الْوَحْشِ فَهؤُلاَءِ سَيُبْغِضُونَ الزَّانِيَةَ، **وَسَيَجْعَلُونَهَا خَرِبَةً وَعُرْيَانَةً، وَيَأْكُلُونَ لَحْمَهَا وَيُحْرِقُونَهَا بِالنَّارِ**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٧، آية ١٦).

ويستكمل يوحنَّا اللاهوتي في الإصحاح ١٨ حديثه عن تاريخ "بابل العظيمة"، "سيِّدة الممالك"، التي تواطأت مع حكَّام العالم، في سبيل تحقيق مصالحها، موضحًا أنَّ سياستها الانتهازيَّة، وأساليبها النفعيَّة الهادفة للربح كانت وراء هلاكها "**سَقَطَتْ! سَقَطَتْ بَابِلُ الْعَظِيمَةُ! وَصَارَتْ مَسْكَنًا لِشَيَاطِينَ**، وَمَحْرَسًا لِكُلِّ رُوحٍ نَجِسٍ، وَمَحْرَسًا لِكُلِّ طَائِرٍ نَجِسٍ وَمَمْقُوتٍ. **لأَنَّهُ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ زِنَاهَا قَدْ شَرِبَ جَمِيعُ الأُمَمِ، وَمُلُوكُ الأَرْضِ زَنَوْا مَعَهَا، وَتُجَّارُ الأَرْضِ اسْتَغْنَوْا مِنْ وَفْرَةِ نَعِيمِهَا**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٨، آيتان ٢-٣). يخاطب الربُّ شعبه، مطالبًا إيَّاهم بالخروج من تلك المدينة الهالكة، التي وصلت آثامها عنان السماء، وتجاوزت في حقِّ شعوب الأرض أشدَّ التجاوزات، مما خوَّل تلك الشعوب بالانتقام منها على ما قدَّمنه فيما سبق من إيذاء في حقِّهم "**اخْرُجُوا مِنْهَا يَا شَعْبِي لِئَلاَّ تَشْتَرِكُوا فِي خَطَايَاهَا**، وَلِئَلاَّ تَأْخُذُوا مِنْ ضَرَبَاتِهَا. لأَنَّ خَطَايَاهَا لَحِقَتِ السَّمَاءَ، وَتَذَكَّرَ اللهُ آثَامَهَا. **جَازُوهَا كَمَا هِيَ أَيْضًا جَازَتْكُمْ، وَضَاعِفُوا لَهَا ضِعْفًا نَظِيرَ أَعْمَالِهَا**. فِي الْكَأْسِ الَّتِي مَزَجَتْ فِيهَا امْزُجُوا لَهَا ضِعْفًا" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٨، آيات ٤-٦). بما أنَّ هلاك تلك المدينة سيأتي بالمسرَّة والبِشر إلى الشعوب المقهورة، فإنَّ ذلك الهلاك المباغت سيأتي بالخراب والوبال على معاوني تلك المدينة-الآثمة في عيني الربِّ-من ملوك الأرض؛ لأنَّ هؤلاء بذلك فقدوا داعمهم في طغيانهم في حقِّ شعوبهم "سَيَبْكِي وَيَنُوحُ عَلَيْهَا مُلُوكُ الأَرْضِ، الَّذِينَ زَنَوْا وَتَنَعَّمُوا مَعَهَا، **حِينَمَا يَنْظُرُونَ دُخَانَ حَرِيقِهَا**. وَاقِفِينَ مِنْ بَعِيدٍ لأَجْلِ خَوْفِ عَذَابِهَا، قَائِلِينَ: وَيْلٌ! وَيْلٌ! الْمَدِينَةُ

الْعَظِيمَةُ بَابِلُ! الْمَدِينَةُ الْقَوِيَّةُ!" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٨، آيتان ٩-١٠). ولا يختلف موقف التجَّار عن موقف الحكَّام؛ فتجارتهم المبهرة للعيون، والسالبة للعقول والأموال، ستبور؛ لأنَّ هلاك المدينة المنكبَّة على الشهوات، والناشرة لمفاهيم تشجِّع على نبذ الدين واتِّباع الهوى، يعني انتهاء زمن الانفلات الأخلاقي "**يَبْكِي تُجَّارُ الأَرْضِ وَيَنُوحُونَ عَلَيْهَا**، لأَنَّ بَضَائِعَهُمْ لاَ يَشْتَرِيهَا أَحَدٌ فِي مَا بَعْدُ. **بَضَائِعَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْبَزِّ وَالأُرْجُوانِ وَالْحَرِيرِ وَالْقِرْمِزِ، وَكُلَّ عُودٍ ثِينِيٍّ، وَكُلَّ إِنَاءٍ مِنَ الْعَاجِ، وَكُلَّ إِنَاءٍ مِنْ أَثْمَنِ الْخَشَبِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالْمَرْمَرِ. وَقِرْفَةً وَبَخُورًا وَطِيبًا وَلُبَانًا وَخَمْرًا وَزَيْتًا وَسَمِيذًا وَحِنْطَةً وَبَهَائِمَ وَغَنَمًا وَخَيْلاً، وَمَرْكَبَاتٍ، وَأَجْسَادًا، وَنُفُوسَ النَّاسِ**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٨، آيات ١١-١٣).

يختصر الكاتب تحليل الإصحاحين ١٧ و١٨ في سفر رؤيا يوحنَّا اللاهوتي باعتقاده أنَّ المقصود بهذا الوصف لمدينة باسم "بابل العظيمة"، كما في الآيات آنفة الذكر في سفري اشعياء وارميا، هو الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وفي هذا يقول "**جميع الأنبياء السابقين أكدَّوا أنَّ بابل العظيمة، أو الزانية العظيمة، ستظهر في نهاية الزمان، وها هي أمريكا قد ظهرت في آخر الزمان...وأمريكا هي الزانية العظيمة، وأم الزواني التي زنى معها ملوك وحكام الأرض، وسكر أهل الأرض من خمرها الذي أسقتهم إيَّاه بكأسها الذهبية**" (ص٨٦). يضيف عبد الحميد أنَّ جميع سكَّان الأرض حاليًا لم يزالوا منبهرين بالحضارة الأمريكيَّة الماديَّة العظيمة، ومفتونين بما تروِّج لها في وسائل الإعلام التابعة لها عن مفاهيم الديموقراطيَّة، والمؤاخاة، والحريَّة، ونبذ العنف، والنزوع إلى السلام، بينما يثبت الواقع خلاف ذلك. أمريكا هي التي تعاون معها حُكَّام الأرض لاكتساب الشرعيَّة والاستمرار في مناصبهم، مقابل تنفيذ مخططاتها، ولو على حساب الشعوب ومن أموالهم. تسيطر أمريكا على التجارة العالميَّة، وبيدها مفاتيح الثراء المادِّي، لكلِّ من يسير على نهجها، ويتَّبع قيمها، من الفئة المحدودة من أصحاب المصالح؛ أمَّا باقي شعوب الأرض، فهم مكتوفو الأيدي، ويدفعون عرق جهودهم فيما تنتجه هذه الفئة من بضائع مبهرة لا تستهدف إلَّا متاع الغرور. بالطبع، إذا ما صحَّت نبوءة هلاك أمريكا، كما يرى

الكاتب، كما يشير اسم الكتاب ذاته، لن يحزن على هلاكها سوى المنتفعين ممن منحته ثقتها وباعوا لها أنفسهم؛ من الحكَّام المتسلِّطين على شعوبهم، وليس لهم داعم أقوى من أمريكا في العالم؛ من التجَّار والصيارفة والمبتكرين، الذي تتحصر جهودهم في تطوير كلِّ ما يبهر العين، دون أن يسمن أو يغني من جوعٍ.

نأتي إلى مسألة ذِكر أمريكا في القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة، وفي هذا يقول الكاتب أنَّ المقصود بقوله تعالى في سورة النجم في الآية ٥٠ "وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى"، أنَّ إمبراطوريَّة أخرى سوف تظهر في الوجود لها من الطغيان والتجبُّر والبأس ما كان لقوم عاد، برغم أنَّ التفسير المتعارف عليه لإشارته لعاد بـ "الأولى" أنَّ عاد من أول الأمم. يستشهد عبد الحميد في رأيه هذا بما جاء في كتاب **زلزال الأرض العظيم** لبشير محمَّد عبد الله، عن تطابُق مواصفات عاد الأولى وأمريكا. ويعدِّد الكاتب أوجه التشابه بين عاد وأمريكا، كما يلي:

-التطاوُل في البنيان: من المعروف أنَّ أمريكا تفننت في تصميم أطوال مباني العالم، أو **ما يُعرف بناطحات السحاب**، واستخدمت أحدث تقنياتها في زخرفة مبانيها من الداخل والخارج لتصبح في أزهى حُلَّة. ولو تأمَّلنا ما روي لنا في القرآن الكريم عن وصْف عاد، لوجدنا أنَّ أكثر ما ركَّز عليه الله تعالى في وصفها الإشارة على التفنن في البناء. تقول الآيات (٦٥-٦٩) من سورة الأعراف "وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إله غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ولكنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُم وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ **وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً** فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)"؛ وتقول الآيتان (١٢٨-١٢٩) من سورة الشعراء "**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ** (١٢٨) **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** (١٢٩)"؛ وتقول الآيات (٦-٨) في سورة الفجر "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ **بِعَادٍ** (٦) **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** (٧) **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** (٨)". ويقول الدكتور زغلول النجَّار، الداعية

الإسلامي والعالم الجيولوجي، في إحدى حلقاته عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، في برنامج "نور على نور"، أُذيعت على التلفزيون المصري، أنَّ المؤرِّخين كانوا يشكِّكون في حقيقة وجود قوم عاد؛ لأنَّهم لم يجدوا لهم أثرًا أبدًا. غير أنَّ صورًا لربع الرمال الخالي، التقطها رادارٌ له قدرة على اختراق التربة، خلال إحدى الرحلات الاستكشافيَّة على مكوك فضائي، أثبتت وجود مجرى لنهرين جافَّين في تلك المنطقة، مما يثبت وجود حياة فيها من قبل. ولما كان لتلك النتائج من تأثير صادم، زُوِّد المكوك الفضائي في رحلة ثانية برادار له قدرة اختراق أعلى، **ففوجئوا بآثار لعمران "لم تعرف البشريَّة نموذجًا له"**.

-التجبُّر والبطش والغرور بالقوَّة والأنعم: من المعروف للجميع أنَّ أمريكا تعتبر نفسها القوَّة العظمى في العالم، ولا تقبل منازعتها في سيادتها على الأرض، وفي هذا ما يتطابق مع ما رآه قوم عاد في أنفسهم، كما يرى عبد الحميد، الذي يقول "وأمريكا مثل عاد الأولى، فقد استكبرت في الأرض بغير الحق، وظنَّت أنَّها أعظم قوة على وجهها، ولا تستطيع أية قوة أن تقف أمامها، ولو كانت قوة الله سبحانه وتعالى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا" (ص٩٦). تقول الآية ٥٢ من سورة هود "وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا **وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ** وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ"؛ وورد ذِكر طغيانهم هكذا في الآية ١٣٠ من سورة الشعراء "وَإِذَا **بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**"؛ ولعلَّ الآية ١٥ من سورة فصِّلت تقرِّب الصورة عن رؤيتهم أنفسهم أكثر "فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا **مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ". وعُرِف عن قوم عاد كذلك التمتُّع بأنعم الله الكثيرة، وفق ما جاء في الآيات (١٣٢-١٣٤) في سورة الشعراء "وَاتَّقُوا الَّذِي **أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)**".

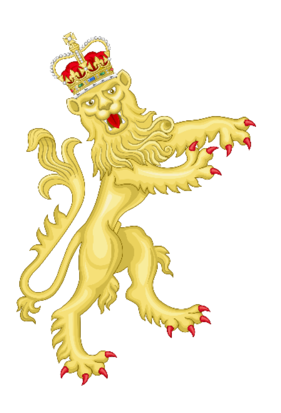
-اللهو والترف: تشير الآيتان الكريمتان في سورة الشعراء "**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)**" إلى أنَّ الترف كان جزءًا مما سلَّط عليه قوم عادٌ اهتمامهم؛ فقد كان "العبث" من سماتهم، وكأنَّما ظنُّوا أنَّ الحياة لهو وعبث،

وأنَّ الإنسان يخلد على الأرض بلا حساب في الآخرة. ولا يختلف حال أمريكا اليوم عن ذلك، بما تنفقه من أموال على وسائل الترفيه، من خلال البرامج والسينما والمباريات الرياضيَّة وحفلات الغناء.

-رصد المناخ والتقلُّبات الجويَّة: تشير الآية ٢٤ في سورة الأحقاف "فَلَمَّا **رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ** قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ" إلى أنَّ قوم عادٍ كانت لديهم القدرة على رصد حالة الجو، والتنبُّؤ بالظواهر الكونيَّة؛ فاعتقدوا أنَّ الريح القادمة تحمل أمطارًا. غير أنَّ ظنَّهم خاب، وكات عاصفة ترابيَّة أهلكتم عن بَكرة أبيهم. وتتزوَّد أمريكا بأحدث الأجهزة المتخصِّصة في رصد تقلُّبات الجو، ولكن رأي الكاتب أنَّ هذه الأجهزة ومستخدميها من علماء الفلك لن يمنعوا قدر الله، أو يوقفوا أمرًا كان مفعولًا "وأمريكا لديها مثل هؤلاء العلماء، وإن كانوا لديهم أجهزة رصد أكثر تطورا إلا أنهم لن يستطيعوا أيضًا أن يصرفوا عنها ما سينزله الله عليها من نكبات" (ص٩٨).

يتناول الكاتب فيما بعد رؤيا النبي دانيال عن القوة العظمى التي ستتحكَّم في الأرض في آخر الزمان، والمذكورة مع تفسيرها في الإصحاح ٧، من السفر الذي يحمله اسم النبي، والتي عرَّفها في الآية ١٧ بأنَّها ممالك ستحكم الأرض "هؤُلاَءِ الْحَيَوَانَاتُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي هِيَ **أَرْبَعَةٌ هِيَ أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ يَقُومُونَ عَلَى الأَرْضِ**". تقول الرؤيا "فِي السَّنَةِ الأُولَى لِبَيْلْشَاصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ، رَأَى دَانِيالُ حُلْمًا وَرُؤَى رَأْسِهِ عَلَى فِرَاشِهِ. حِينَئِذٍ كَتَبَ الْحُلْمَ وَأَخْبَرَ بِرَأْسِ الْكَلاَمِ. أَجَابَ دَانِيالُ وَقَالَ: «كُنْتُ أَرَى فِي رُؤْيَايَ لَيْلاً وَإِذَا بِأَرْبَعِ رِيَاحِ السَّمَاءِ هَجَمَتْ عَلَى الْبَحْرِ الْكَبِيرِ. وَصَعِدَ مِنَ الْبَحْرِ **أَرْبَعَةُ حَيَوَانَاتٍ عَظِيمَةٍ،** هذَا مُخَالِفٌ ذَاكَ. **الأَوَّلُ كَالأَسَدِ وَلَهُ جَنَاحَا نَسْرٍ.** وَكُنْتُ أَنْظُرُ حَتَّى **انْتَتَفَ جَنَاحَاهُ** وَانْتَصَبَ عَنِ الأَرْضِ، وَأُوقِفَ عَلَى رِجْلَيْنِ كَإِنْسَانٍ، وَأُعْطِيَ قَلْبَ إِنْسَانٍ. **وَإِذَا بِحَيَوَانٍ آخَرَ ثَانٍ شَبِيهٍ بِالدُّبِّ،** فَارْتَفَعَ عَلَى جَنْبٍ وَاحِدٍ وَفِي فَمِهِ ثَلاَثُ أَضْلُعٍ بَيْنَ أَسْنَانِهِ، فَقَالُوا لَهُ هكَذَا: قُمْ كُلْ لَحْمًا كَثِيرًا. **وَبَعْدَ هذَا كُنْتُ أَرَى وَإِذَا بِآخَرَ مِثْلِ النَّمِرِ وَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةِ طَائِرٍ.** وَكَانَ لِلْحَيَوَانِ أَرْبَعَةُ رُؤُوسٍ، وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا. بَعْدَ هذَا كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ **وَإِذَا**

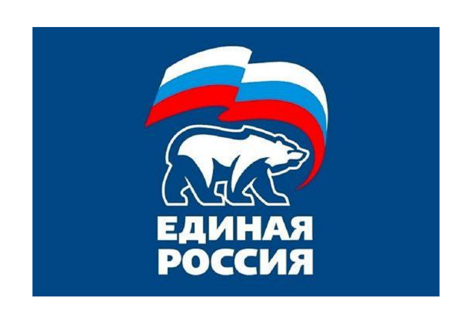
بِحَيَوَانٍ رَابعٍ هَائِلٍ وَقَوِيٍّ وَشَدِيدٍ جِدًّا، وَلَهُ أَسْنَانٌ مِنْ حَدِيدٍ كَبِيرَةٌ. أَكَلَ وَسَحَقَ وَدَاسَ الْبَاقِيَ بِرِجْلَيْهِ. وَكَانَ **مُخَالِفًا** لِكُلِّ الْحَيَوَانَاتِ الَّذِينَ قَبْلَهُ، **وَلَهُ عَشَرَةُ قُرُونٍ**" (سفر دانيال: إصحاح ٧، آيات ١–٧). يتعارض تفسير عبد الحميد لهذه الرؤيا مع تفاسير الكتاب المقدَّس، بينما يتَّفق مع تفسير بشير محمَّد عبد الله، في كتابه **زلزال الأرض العظيم** آنف الذكر.



صورة ٤٨–شعار الإمبراطوريَّة البريطانيَّة

يرى عبد الحميد أنَّ الأسد يمثِّل الإمبراطوريَّة البريطانيَّة، التي اتَّخذت لنفسها بالفعل الأسد رمزًا. ويشبه الأسد في الصورة أعلاه، ذاك الموصوف في رؤيا دانيال؛ فقدماه الأماميتان ممتدَّتان مثل جناحين، وهو منتصب على قدميه "انْتَصَبَ عَنِ الأَرْضِ، وَأُوقِفَ عَلَى رِجْلَيْنِ كَإِنْسَانٍ". يشير قول دانيال عن الحيوان الأوَّل "**انْتَتَفَ جَنَاحَاهُ**" إلى فقدان ذاك الوحش شيئًا من قدرته وسلطانه؛ لأنَّ الجناحين يرمزان إلى قدرته على ضم الممالك الأخرى، وإخضاعها لسطوته. وينطبق ذلك على بريطانيا العظمى، التي فقدت سيادتها للعالم، والتي تمتَّعت بها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وحتَّى منتصف القرن العشرين، وقت كانت إمبراطوريَّة لا تغيب عنها الشمس، حينما تركت عرشها لوليدتها وربيبتها، أمريكا، بعد الحرب العالميَّة الثانية. **يقول الداعية الإسلامي الأردني أحمد الجوهري، على مدوَّنته النقش العجيب–mosestablet.info**، "**إنَّ الأمة التي ولدت سيدتها ليست امرأة من البشر، بل هي دولة من الدول، وبالتحديد بريطانيا، التي خرجت من رحمها أمريكا، فصارت سيدة عليها**". ويثبت ذلك أنَّ الحيوان الرابع "**أَكَلَ**

وَسَحَقَ وَدَاسَ" هذا الأسد، مع غيره؛ ومن ثمَّ فوفق هذا التفسير، فالحيوان الرابع هو أمريكا.



صورة ٤٩–شعار الإمبراطوريَّة الرُّوسيَّة

أمَّا الحيوان الثاني، الذب كان "**شَبِيهٍ بِالدُّبِّ**"، فهو يرمز إلى روسيا، التي تتخذ الدبَّ رمزًا لها، كما يبدو في الصورة أعلاه. والمقصود بقول دانيال "وَفِي فَمِهِ **ثَلاَثُ أَضْلُعٍ بَيْنَ أَسْنَانِهِ**" الديانات الإبراهيميَّة الثلاث، التي محقها الاتحاد السوفييتي، بعد اتِّباعه المذهب الشيوعي، الكافر بالأديان، والمتَّخذ الإلحاد مذهبًا له. نأتي إلى الحيوان الثالث، وهو "**مِثْلِ النَّمِرِ وَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةِ طَائِرٍ**"، وله "أَرْبَعَةُ رُؤُوسٍ"، وهو في رأي الكاتب ألمانيا وحلفاؤها دول المحور. يُعرف النمر بسرعته المتناهية، وهذا هو حال النمو الاقتصادي الألماني منذ خمسينات القرن الماضي. برغم خسارتها في الحرب العالميَّة الثانية، ومعاناتها من تضخُّم تسبب في فقدان المدَّخرات والديون ٩٩ بالمائة من قيمتها، نجحت ألمانيا في تجاوُز المحنة الاقتصاديَّة بسرعة فائقة، عُرفت بـ Wirtschaftswunder، أي **المعجزة الاقتصاديَّة الألمانيَّة**. ووفق إحصاءات نشرتها موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة، فإنَّ **معدَّل النمو الاقتصادي الألماني طوال خمسينات القرن الماضي تواصل ارتفاعه، وبلغ في بعض السنوات ٢٥ بالمائة.**

وأخيرًا، نتناول بالتحليل الحيوان الرابع، والموصوف بأنَّه "**هَائِل وَقَوِيّ وَشَدِيد جِدًّا**"، وأنَّه "**لَهُ أَسْنَانٌ مِنْ حَدِيدٍ كَبِيرَةٌ. أَكَلَ وَسَحَقَ وَدَاسَ الْبَاقِيَ بِرِجْلَيْهِ**"، وهو أمريكا، كما سبقت الإشارة. نجحت أمريكا بعد نهاية في الحرب العالميَّة الثانية، عام ١٩٤٥ ميلاديًّا، في فرض سيطرتها على العالم بأكمله؛ بتكوين إمبراطوريَّة اقتصاديَّة هائلة، سحقت

اقتصادات العالم، وداست على الدول الصغيرة برجليها، خاصَّةً وأنَّ التجارة العالميَّة تعتمد في تعاملاتها على العملة الأمريكيَّة. أمَّا عن وصْف الحيوان بأنَّ له "**عَشَرَةَ قُرُونٍ**"، فالكاتب يرى أنَّ في ذلك رمزًا لحلف الناتو، الذي تتزعمه أمريكا، الذي أسسته ١٢ دولة؛ وإذا أضفنا العشر قرون إلى الحيوان، فلدينا ١١، وهو رقم قريب من عدد الدول المؤسسة للناتو. وتؤكِّد الآية ٢٣ في الإصحاح ٧ في سفر دانيال هذا التفسير "**أَمَّا الْحَيَوَانُ الرَّابعُ فَتَكُونُ مَمْلَكَةٌ رَابِعَةٌ عَلَى الأَرْضِ مُخَالِفَةٌ لِسَائِرِ الْمَمَالِكِ، فَتَأْكُلُ الأَرْضَ كُلَّهَا وَتَدُوسُهَا وَتَسْحَقُهَا**". ومن المثير للاهتمام أنَّ هذه المملكة المسيطرة على العالم موعود بالهلاك بالنار " كُنْتُ أَرَى إِلَى أَنْ **قُتِلَ الْحَيَوَانُ وَهَلَكَ جِسْمُهُ وَدُفِعَ لِوَقِيدِ النَّارِ**" (إصحاح ٧: آية ١١)، تمامًا مثل بابل العظيمة، المذكورة في سفري إشعياء وارميا.

تنتقل الرؤيا إلى ما بعد هلاك تلك الممالك، وسيطرة "القديم الأيَّام" على الأرض بعد ذلك "كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ وُضِعَتْ عُرُوشٌ، وَجَلَسَ **الْقَدِيمُ الأَيَّامِ**. لِبَاسُهُ أَبْيَضُ كَالثَّلْجِ، وَشَعْرُ رَأْسِهِ كَالصُّوفِ النَّقِيِّ، وَعَرْشُهُ لَهِيبُ نَارٍ، وَبَكَرَاتُهُ نَارٌ مُتَّقِدَةٌ" (سفر دانيال: إصحاح ٧، آية ٩). يرى عبد الحميد أنَّ "**الْقَدِيمُ الأَيَّامِ**" هذا هو المهدي، المبشَّر به في السُّنَّة النبويَّة، والمفترض ظهوره في آخر الزمان، قبيل الدجَّال، ونزول نبي الله عيسى (عليه وعلى سائر أنبياء الله ورُسُله أزكى الصلوات وأتم التسليم). بما أنَّ الكتاب المقدَّس بعهديه لا يشير إلَّا إلى ظهور ضدِّ المسيح–منتحل صفة المخلِّص–والمخلِّص ذاته، بلا أيِّ ذكر لشخص ثالث، كما هو الحال في السُّنَّة النبويَّة، فشخصيَّة "**الْقَدِيمُ الأَيَّامِ**" شخصيَّة لملك شرير يظهر قبل المخلِّص يجمع بين صفات المهدي والدجَّال معًا؛ وتوضح الآيات التالية الكثير عن سيرة هذا الشخص "وَالْقُرُونُ الْعَشَرَةُ مِنْ هذِهِ الْمَمْلَكَةِ هِيَ عَشَرَةُ مُلُوكٍ يَقُومُونَ، **وَيَقُومُ بَعْدَهُمْ آخَرُ، وَهُوَ مُخَالِفٌ الأَوَّلِينَ، وَيُذِلُّ ثَلاَثَةَ مُلُوكٍ. وَيَتَكَلَّمُ بِكَلاَمٍ ضِدَّ الْعَلِيِّ وَيُبْلِي قِدِّيسِي الْعَلِيِّ**، وَيَظُنُّ أَنَّهُ يُغَيِّرُ الأَوْقَاتَ وَالسُّنَّةَ، وَيُسَلَّمُونَ لِيَدِهِ إِلَى زَمَانٍ وَأَزْمِنَةٍ وَنِصْفِ زَمَانٍ. **فَيَجْلِسُ الدِّينُ وَيَنْزِعُونَ عَنْهُ سُلْطَانَهُ لِيَفْنَوْا وَيَبِيدُوا إِلَى الْمُنْتَهَى**" (سفر دانيال: إصحاح ٧، آيات ٢٤–٢٦). المقصود بـ "**الْعَلِيِّ**" هو المخلِّص، ويعني "**ضِدَّ الْعَلِيِّ**" ضدَّ المسيح، أي المهدي بحسب المفهوم الإسلامي. يبسط هذا الملك

سلطانه "يُسَلَّمُونَ لِيَدِهِ إِلَى زَمَانٍ وَأَزْمِنَةٍ وَنِصْفِ زَمَانٍ"، وتقدَّر هذه الأزمنة بثلاث سنين ونصف، يلاقي فيها أتباع العليّ، أو "**قِدِّيسِو الْعَلِيِّ**"، الاضطهاد والأذى. غير أنَّ بقاءه لن يطول؛ لأنَّ المخلِّص، أو "**الْعَلِيَّ**"، سيقضي عليه وعلى أتباعه "**لِيَفْنَوْا وَيَبِيدُوا إِلَى الْمُنْتَهَى**".

يتناول عبد الحميد النبوءات في المصادر اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلاميَّة عن الأحداث التي تسبق "دمار أمريكا"، مشيرًا إلى أنَّ بعض تلك النبوءات قد حَدَث، أي قبل ٢٠١٢ ميلاديًّا، والباقي سيحدث. فقد ظهرت الإمبراطوريَّات البريطانيَّة، والروسيَّة، والألمانيَّة، ثمَّ تراجعت قواها، وانحسرت سطوتها أمام العملاق الأمريكي؛ مما يعني أنَّ الأخير سيتحقَّق فيه الوعد بالهلاك، كما تحقَّق وعد سيطرته على القوى الأضعف منه. يستشهد عبد الحميد بما جاء في الإصحاحين ١٥ و١٦ في رؤيا يوحنَّا اللاهوتي، عن انتشار الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعيَّة في آخر الزمان، في صورة "سبع نكبات" يصيب بها الله الأرض، عقابًا للناس على عصيانهم، ولا بدَّ أن تتحقَّق "قبل دمار أمريكا" (ص١٣٧). تقول رؤيا يوحنَّا اللاهوتي "ثُمَّ رَأَيْتُ آيَةً أُخْرَى فِي السَّمَاءِ، عَظِيمَةً وَعَجِيبَةً: سَبْعَةَ مَلاَئِكَةٍ مَعَهُمُ **السَّبْعُ الضَّرَبَاتُ الأَخِيرَةُ، لأَنْ بِهَا أُكْمِلَ غَضَبُ اللهِ**...وَخَرَجَتِ السَّبْعَةُ الْمَلاَئِكَةُ وَمَعَهُمُ **السَّبْعُ الضَّرَبَاتِ** مِنَ الْهَيْكَلِ، وَهُمْ مُتَسَرْبِلُونَ بِكَتَّانٍ نَقِيٍّ وَبَهِيٍّ، وَمُتَمَنْطِقُونَ عِنْدَ صُدُورِهِمْ بِمَنَاطِقَ مِنْ ذَهَبٍ. وَوَاحِدٌ مِنَ الأَرْبَعَةِ الْحَيَوَانَاتِ أَعْطَى السَّبْعَةَ الْمَلاَئِكَةِ سَبْعَةَ جَامَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ، مَمْلُوَّةٍ **مِنْ غَضَبِ اللهِ** الْحَيِّ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٥، آيات ١ و٦-٧). تتوعَّد هذه الآيات البشر بعذاب من عند ربِّهم في آخر الزمان، في صورة "**سَبْع ضَرَبَاتِ**" ستصيب الأرض، تجسيدًا لـ "**غَضَبِ اللهِ**" على بني البشر.

ويوضح الإصحاح ١٦ في رؤيا يوحنَّا اللاهوتي مزيدًا عن تفاصيل العذاب المنزَّل "وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ الْهَيْكَلِ قَائِلاً لِلسَّبْعَةِ الْمَلاَئِكَةِ: «**امْضُوا وَاسْكُبُوا جَامَاتِ غَضَبِ اللهِ عَلَى الأَرْضِ**». فَمَضَى الأَوَّلُ وَسَكَبَ جَامَهُ عَلَى الأَرْضِ، **فَحَدَثَتْ دَمَامِلُ خَبِيثَةٌ وَرَدِيَّةٌ** عَلَى النَّاسِ الَّذِينَ بِهِمْ سِمَةُ الْوَحْشِ وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِصُورَتِهِ. ثُمَّ سَكَبَ

الْمَلاَكُ الثَّانِي جَامَهُ عَلَى الْبَحْرِ، **فَصَارَ دَمًا كَدَمِ مَيِّتٍ.** وَكُلُّ نَفْسٍ حَيَّةٍ مَاتَتْ فِي الْبَحْرِ. ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الثَّالِثُ جَامَهُ عَلَى **الأَنْهَارِ وَعَلَى يَنَابِيعِ الْمِيَاهِ، فَصَارَتْ دَمًا**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٦، آيات ١-٣). إذا تأمَّلنا في النكبة الأولى، المتمثِّلة في ظهور بقع جلديَّة ورديَّة اللون، فقد تحقَّقت بالفعل، مع انتشار أمراض الإيدز والجدري والزهري، المرتبطة بالممارسات الجسديَّة المحرَّمة.



صورة ٥٠-أمراض جلديَّة

أمَّا عن النكبتين الثانية والثالثة، المتمثِّلة في تحوُّل مياه الأنهار إلى لون الدمِّ، فقد تحقَّقت ذلك على مدار الأعوام القليلة الماضية، في الصين وروسيا وأستراليا. نشر موقع تليجراف البريطاني قبل سنوات عن تحوُّل جزء من نهر يانغ تسي في الصين إلى اللون الأحمر.



صورة ٥١-نهر بلون الدَّم في الصِّين

ونشر موقع سي إن إن الأمريكي في سبتمبر ٢٠١٨، عن تحوُّل نهر في روسيا، يشقُّ مدينة نورلسك، إلى لون الدم.



صورة ٥٢–نهر بلون الدَّم في روسيا

وينطبق الأمر ذاته على إحدى البحيرات العذبة في أستراليا في ديسمبر من عام ٢٠١٨



صورة ٥٣–بحيرة عذبة في أستراليا

وتكرَّر الأمر مطلع عام ٢٠١٩ بتحوُّل ٣ أنهار إلى اللون الدموي في ملاوي وإندونيسيا



صورة ٥٤–نهر بلون الدَّم في إندونيسيا

نأتي إلى الدفعة الجديدة من النكبات، كما تسردها هذه الآيات "ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الرَّابعُ جَامَهُ **عَلَى الشَّمْسِ، فَأُعْطِيَتْ أَنْ تُحْرِقَ النَّاسَ بِنَارٍ. فَاحْتَرَقَ النَّاسُ احْتِرَاقًا عَظِيمًا**، وَجَدَّفُوا عَلَى اسْمِ اللهِ الَّذِي لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى هذِهِ الضَّرَبَاتِ، وَلَمْ يَتُوبُوا لِيُعْطُوهُ مَجْدًا. ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ الخَامِسُ جَامَهُ عَلَى عَرْشِ الْوَحْشِ، **فَصَارَتْ مَمْلَكَتُهُ مُظْلِمَةً**. وَكَانُوا يَعَضُّونَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْوَجَعِ" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٦، آيات ٨-١٠). ربَّما تنطبق نكبة "الاحتراق" أكثر شيء هذه الآونة على حرائق الغابات في ولاية كاليفورنيا الأمريكيَّة، التي يُفترض أنَّها الأشدُّ قسوةً في التاريخ، بحسب زعم البعض.



صورة ٥٥-حرائق الغابات في كاليفورنيا (٢٠١٨)

يذكر موقع USA Today الأمريكي، في مقاله نشره في ٢٢ نوفمبر من عام ٢٠١٨، أنَّ عدد الضحايا قارب ١٠٠ شخص، مع ٥٦٣ مفقودًا. أصابت الحرائق حتَّى ذلك الحين أكثر من ١٥٣ ألف فدَّان، وتمكَّن رجال الإطفاء من احتواء ٨٥ بالمائة منها، بحسب USA Today؛ أمَّا عن الخسائر من المباني، فقد تجاوزت ١٣ ألف منزل، و١٨ ألف منشأة، "لتصبح تلك الحرائق الأشدُّ فتكًا وتدميرًا على الإطلاق".



صورة ٥٦-حرائق الغابات في كاليفورنيا (٢٠١٨)

نشر موقع بي بي سي البريطاني الإخباري عن تحوُّل مدينة بارادايس، أي الجنَّة، في ولاية كاليفورنيا، إلى رماد؛ من جرَّاء الحرائق المدمِّرة. وفقًا للمقال المنشور في ٢٢ نوفمبر من عام ٢٠١٨، فقد ٨١ شخصًا من سكَّان تلك المدينة حياتهم، إلى جانب مئات المفقودين. يُذكر العديد من مشاهير مدينة السينما، هوليوود، قد أُجبروا على مغادرة مدينة باراديس، التي تحوَّلت من جنَّة إلى جحيم، على حدِّ وصف البعض.



صورة ٥٧–حرائق الغابات في كاليفورنيا (٢٠١٨)

تجدر الإشارة إلى أنَّ موقع لوس أنجلوس تايمز نشر في يوم ٣٠ نوفمبر من عام ٢٠١٨، خبرًا يفيد بعجز نُظم الإنذار عن إرسال بلاغات لثلث المعنيين بتلقِّيها من سكَّان مدينة بارادايس. وذكر العديد من السكَّان أنَّهم تلقُّوا الإنذار للإخلاء من أقارب وأصدقاء، بينما سمع آخرون الإنذار من خلال دوريَّات الشرطة، التي استخدمت مكبِّرات الصوت في إبلاغ المواطنين. يقول رئيس الشرطة في المدينة أنَّ "استراتيجيَّة الإنذار فشلت"، ولم يتَّسع الوقت لإصدار أمر بالإخلاء على مستوى المدينة بأكملها، **ناهيك عن تعطُّل نظام الإنذار أثناء إصدار أحد الأوامر.**



Camp fire evacuation warnings failed to reach more than a third of residents meant to receive calls

By PAIGE ST. JOHN and JOSEPH SERNA NOV 30, 2018 | 5:20 PM

Thousands of people in Paradise never received an evacuation warning call as the Camp fire tore through the town. At least 88 people were killed in the blaze. (Josh Edelson / AFP/Getty Images)

أجرى الرئيس الأمريكي، دونالد ترامب، زيارة إلى ولاية كاليفورنيا في نوفمبر ٢٠١٨؛ لمعاينة الحدث. وفقًا لما نشره موقع واشنطن بوست في ٢٧ نوفمبر من عام ٢٠١٨، قال ترامب "لم نرَ مثل هذا أبدًا في كاليفورنيا. إنَّه دمار كامل". لم ينسب الرئيس الأمريكي السبب في الحرائق إلى تغيُّر المناخ، إنَّما قال إنَّ السبب هو "سوء إدارة الغابات في كاليفورنيا"، ملقيًا باللوم على خلل السياسات المتَّبعة في حماية البيئة. غير أنَّ تقرير التقييم الوطني للمناخ (NCA)، الصادر بعد أقل من أسبوع على زيارة ترامب، أشار إلى أنَّ تغيُّر المناخ هو السبب الرئيس في تلك الحرائق. يُذكر أنَّ بعض وسائل الإعلام تستبعد أن يكون تغيُّر المناخ السبب في الكارثة البيئيَّة، ومن بينها موقع فوربس المعني بنشر أخبار عالم البزنس، والذي نشر في مقال له بتاريخ ٢٧ نوفمبر من عام ٢٠١٨، تأييدًا لرأي ترامب بأنَّ تغيُّر المناخ ليس المسبب للحرائق.



صورة ٥٨–ترامب يتفقَّد حرائق الغابات في كاليفورنيا (٢٠١٨)

حريٌّ بالذكر أنَّ أنباء عن سعي الرئيس الأمريكي إلى تأسيس قوَّة دفاع فضائيَّة للتصدِّي للتهديدات الكونيَّة الخارجيَّة، تتردَّد منذ أشهر. ففي ١٨ يونيو من عام ٢٠١٨، نشر موقع ذا هيل أنَّ ترامب أمر وزارة الدفاع الأمريكيَّة–البنتاجون–بتأسيس سلاح جديد، هو السادس في أسلحتها الدفاعيَّة، قائلًا في اجتماع له مع أعضاء المجلس الوطني للفضاء "إذا ما توقَّف الأمر على الدفاع عن أمريكا، فلا يكفي أن يكون لنا وجود في الفضاء؛ فمن الأحرى أن يكون لنا سيادة فيه".

وتجدَّدت حرائق الغابات في ولاية كاليفورنيا الأمريكيَّة، مع اقتراب فصل الشتاء لعام ٢٠١٩، ونشر موقع ذا نيويورك تايمز–The New York Times بتاريخ ٢٥ أكتوبر

٢٠١٩، أنَّ ٥٠ ألفًا أُجبروا على مغادرة شمال مقاطعة لوس أنجلوس من جرَّاء تطايُر لهيب نيران حرائق الغابات.

The New York Times

LIVE UPDATES Updated Oct. 25, 2019, 8:40 a.m. ET

California Fires Updates: 50,000 Forced to Evacuate

Strong wind gusts fanned the flames of a wildfire in northern Los Angeles County on Thursday, forcing the evacuation of at least 50,000 people, the authorities said.

وأُرفق الخبر بصورة من قلب الحدث توضح الوضع المأسوي.



صورة ٥٩–حرائق الغابات في كاليفورنيا (٢٠١٩)



صورة ٦٠–ترامب يعلن عن سلاح "الدفاع الفضائي" (٢٠١٨)

أشار ترامب إلى توجيهه البنتاجون لفصل إدارتي الدفاع الجوِّي والدفاع الفضائي، على أن يوجَّه إلى إدارة الدفاع الفضائي نفس الاهتمام. غير أنَّ البيت الأبيض، وفق ما نشره

موقع بزنس إنسيدر، بتاريخ ٢٨ نوفمبر ٢٠١٨، لم يزل غير متأكِّد من جديَّة سعي ترامب إلى تخصيص إدارة منفصلة للدفاع الفضائي.



ومع ذلك، أعلن مايك بنس، نائب الرئيس الأمريكي، خلال مشاركته في فعاليَّات إطلاق صاروخ سبيس إكس في ولاية فلوريدا، في ١٨ ديسمبر من عام ٢٠١٨، أنَّ الرئيس الأمريكي وقَّع على مذكِّرة رسميَّة تنصُّ على تأسيس ما أطلق عليه " interstellar armed forces"، أو القوَّات المسلَّحة البين نجميَّة. وذكر بنس في خطابه المتزامن مع يوم توقيع المذكِّرة، أنَّ الولايات المتَّحدة تتخذ، تحت قيادة ترامب، خطوات في سبيل ضمان سيطرة الأمن الوطني الأمريكي على أيَّة مخاطر فضائيَّة، كما الحال مع المخاطر الأرضيَّة. تجدر الإشارة إلى أنَّ ترامب قد وقَّع على أمر رسمي بتكليف وزارة الدفاع الأمريكيَّة بفصل إدارة القوَّات الفضائيَّة عن القوَّات الجويَّة، قبل توقيع تلك المذكِّرة بأسابيع-كما تُظهر الصورة أدناه، وفيها ينظر إلى الرئيس نائبه مايك بنس بإعجاب.



صورة ٦١-ترامب يوقِّع قرار تأسيس سلاح "الدفاع الفضائي" (٢٠١٨)

عودةً إلى السادسة في النكبات الموعودة في آخر الزمان، ففي ذلك تقول الآية ١٢ في الإصحاح ١٦ في رؤيا يوحنَّا اللاهوتي "ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ السَّادِسُ جَامَهُ **عَلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ الْفُرَاتِ، فَنَشِفَ مَاؤُهُ** لِكَيْ يُعَدَّ طَرِيقُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ". تتردَّد منذ بداية فصل الصيف في عام ٢٠١٨ أنباء عن جفاف نهر الفرات، وقد نشرت شبكة روداو الإخباريَّة في ٦ يونيو ٢٠١٨، مقالًا بعنوان **عراقيون يستغيثون بعد جفاف نهر الفرات**، نقلن فيه عن العراقيين "مخاوفهم من جفاف نهر الفرات وتوقف الزراعة، فضلا عن تخوفهم من انتشار الأمراض والأوبئة". وأشار أحد المواطنين إلى أنَّ مشكلة نقص المياه منذ عام ٢٠١٢، مضيفًا أنَّ السلطات الحاكمة عجزت عن تدبير حلٍّ لها، برغم أهميَّة المياه الحيويَّة. ونقلت الشبكة عن أحد الفلَّاحين قوله "أصبحنا نعمل في بيع الخضار في سوق المدينة، بعد أن هجرنا أراضينا الزراعية، التي أصبحت خاوية على عروشها".



صورة ٦٢–جفاف نهر الفرات

ولعلَّ من أحدث ما نُشر في هذا الصدد مقال بعنوان **الجفاف يجبر فلاحي المثنى على هجر أراضيهم والنزوح إلى المدن**، على موقع بغداد بوست، بتاريخ ١٧ ديسمبر ٢٠١٨. يتناول المقال الهجرة الجماعيَّة للفلاحين من المحافظات الريفيَّة في العراق، إلى المدن، بحثًا عن مصدر للعيش؛ لأنَّ " مناطق كبيرة...تضرَّرت جراء شح المياه والنقص الحاصل في نهر الفرات".

بغداد بوست الإثنين، 17 كانون الأول 2018 10:40 ص

الجفاف يجبر فلاحي المثنى على هجر أراضيهم والنزوح إلى المدن



أمَّا النكبة الساب، فتتحدَّث عنها الآيتان التاليتان في سفر الرؤيا "ثُمَّ سَكَبَ الْمَلاَكُ السَّابعُ جَامَهُ عَلَى الْهَوَاءِ، **فَخَرَجَ صَوْتٌ عَظِيمٌ مِنْ هَيْكَلِ السَّمَاءِ مِنَ الْعَرْشِ قَائِلاً: «قَدْ تَمَّ!» فَحَدَثَتْ أَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَبُرُوقٌ. وَحَدَثَتْ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ**، لَمْ يَحْدُثْ مِثْلُهَا مُنْذُ صَارَ النَّاسُ عَلَى الأَرْضِ، زَلْزَلَةٌ بِمِقْدَارِهَا عَظِيمَةٌ هكَذَا" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ١٦، آيتان ١٧-١٨). تشير الآيتان إلى ظواهر كونيَّة أخرى تنتشر في آخر الزمان، عقوبةً من الله للفسَّاق من خَلْقه، في صورة زلازل وصواعق وأعاصير وانشقاقات أرضيَّة. وتشير إحصاءات الماسح الجيولوجي الأمريكي للزلازل التي ضربت الأرض خلال السنوات العشر الأخيرة، إلى تجاوُز عدد الزلازل في العام ١٠ آلاف زلزال، وكان نصيب عام ٢٠١٨ ما يزيد على ١٣.٥ ألف زلزال. تعرَّت إندونيسيا إلى أشد زلازل ٢٠١٨ خطورةً، بزلزال ضربها في ٢٨ سبتمبر، قوَّته ٧.٥ درجة بمقياس ريختر، مخلِّفًا ٢٢٥٦ حالة وفاة، وكان قد سبقه زلزال في ٥ أغسطس من العام ذاته، بقوَّة ٦.٩ درجة، وعمق ٣١ كيلومترًا، متسببًا في وفاة ٥١٣ شخصًا.



صورة ٦٣-زلزال إندونيسيا (أغسطس ٢٠١٨)

وتعرَّضت إندونيسيا في ١٩ ديسمبر من عام ٢٠١٨ لخسف أرضي هائل، بعمق ١٥ مترًا، وعرض ٣٠ مترًا.



صورة ٦٤–خسف إندونيسيا (ديسمبر ٢٠١٨)

وكانت الولايات المتَّحدة قد أصيبت بزلزالين من الأشد قوَّة خلال ٢٠١٨، الأوَّل في ٢٣ يناير، بقوَّة ٧.٩ درجة، والثاني في ٣٠ نوفمبر بقوَّة ٧ درجات، ولم يُعلن عن حالات وفاة.



صورة ٦٥–زلزال ألاسكا (نوفمبر ٢٠١٨)

وتعرَّضت الولايات المتَّحدة كذلك للعديد من حالات الخسف الأرضي في ٢٠١٨، من بينها خسف في البيت الأبيض ذاته، وفق ما نشره موقع نيويورك تايمز في ٢٢ مايو ٢٠١٨، في مقال بعنوان **خسف في البيت الأبيض (حقًّا).**



The New York Times

There's a Sinkhole at the White House. Blame the Swamp. (Really.)

ونشر موقع NBC News في ٢٤ مايو من عام ٢٠١٨، أنَّ ولاية فلوريدا شهدت في ٢٠١٨ عددًا غير مسبوق من حالات الخسف الأرضي بسبب الفيضانات الناتجة عن الأمطار، من خلال مقطع مصوَّر، يستعرض الحالات، التي وصلت في مايو وحده إلى ما يزيد على ٣٠ حالة.

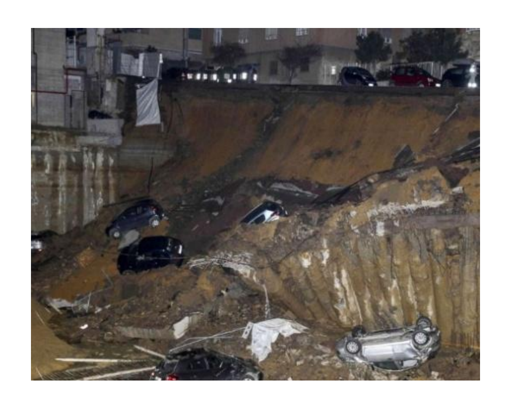


صورة ٦٦-خسف في ولاية فلوريدا (مايو ٢٠١٨)

وفي مقال بعنوان **Incredible sinkholes around the world-حالات خسف هائلة حول العالم**، رصد موقع ABC News الأمريكي مجموعة من أشدِّ حالات الخسف خطورةً خلال الفترة الماضية، ومنها:



صورة ٦٧–خسف نيوزيلندا، ٢ مايو ٢٠١٨



صورة ٦٨–روما الإيطاليَّة، ١٤ فبراير ٢٠١٨



صورة ٦٩–فلوريدا الأمريكيَّة، ١١ سبتمبر ٢٠١٧

يذكر أنَّ المملكة العربيَّة السعوديَّة تعرَّضت خلال عامي ٢٠١٧ و٢٠١٨ لعدد من حالات الخسف في المناطق الصحراويَّة، وفي المدن، نتيجة السيول.



صورة ٧٠-خسف أرضي، إحدى صحاري السعوديَّة (٢٠١٧)



صورة ٧١-خسف أرضي، إحدى صحاري السعوديَّة (٢٠١٨)

وقد نشر موقع بوَّابتي بتاريخ ٧ مايو ٢٠١٧، أنَّ حالات خسف متكررة في الصحاري تسببت في حوادث هائلة

أخبار بوابتي

الأرض تبتلع المتنزهين في صحاري السعودية.. والجهات الحكومية تخلي مسؤوليتها!

Abo mogahed 7 مايو، 2017 no comment

أدت خسوفات أرضية في مناطق صحراوية بالسعودية إلى حوادث مميتة تعرض لها سعوديون، خلال نزهات برية في مناطق عدة من المملكة، حتى تحولت إلى «شَرَك» يبتلع المركبات بمن فيها.

ويظهر الخسوف فجأة بسبب ضعف التربة على شكل فوهات، فيما تبرأت جهات حكومية سعودية من مسؤوليتها، وخصوصاً أنها وقعت خارج النطاق العمراني.

وتشكل تلك «الخسوفات» خطراً داهماً على محبي الرحلات البرية والصيد في صحاري المملكة، لاسيما في منطقة الحدود الشمالية، وتحديداً في هضبة الصمان، إذ تكون على مستوى سطح الأرض، فلا تظهر للمارة، وخصوصاً أصحاب المركبات، الذين ينزلقون فيها لعدم وجود إشارات أو لوحات تحذيرية، وهو ما يتسبب في مقتلهم غالباً، بسبب عمقها الكبير الذي يصل إلى عشرات الأمتار.

ورصدت هيئة المساحة الجيولوجية السعودية خسوفات وسيجتها، فيما لا تزال مئات منها معرضة للظهور نتيجة ذوبان الطبقات الجيرية بفعل مياه الأمطار، التي تأكل منها ببطء، وقد تكون فوهاتها الصغيرة مغطاة بنباتات تخفيها عن العيون لتصبح «شَرَكاً مميتاً» للعابرين.

وفي آذار (مارس) الماضي لقي قائد مركبة مصرعه بعدما سقط في خسف أرضي بالعويقلية في منطقة الحدود الشمالية السعودية، واستخرجت فرق الدفاع المدني جثته من عمق 12 متراً، وأكدت آنذاك أن الحادثة سببها عدم وجود لوحات تحذيرية حول المكان.

وفور وقوع الحادثة سارعت جهات حكومية سعودية عدة لتنفي مسؤوليتها عن معالجة تلك الخسوفات الأرضية، بينها هيئة المساحة الجيولوجية التي أكدت أنها «جهة استشارية مختصّة في الدراسات ورفع التقارير، وليست تنفيذية»، وتلتها المديرية العامة للمياه في المنطقة، التي اعتبرت بدورها أن معالجة تلك الظواهر الطبيعية تخرج من نطاق مسؤولياتها، الأمر نفسه انتهجته بلدية المحافظة بتبرئتها من المسؤولية «لوقوع الخسف خارج النطاق العمراني».

بدوره، أكد مدير بلدية العويقلية محمد هلال أن معالجة الخسوفات الأرضية تعجز عنه جهة بمفردها، لافتاً إلى أن الفتحات يبلغ عددها أكثر من 300 فتحة بين «دحول» أرضية و«قلبان» تحتاج إلى موازنة ضخمة، وتكاتف جهات عدة.

فيما قررت إمارة الحدود الشمالية بعد حادثة «مصرع قائد المركبة» تشكيل لجان خاصة لمعالجة الآبار و«الدحول» أو «الخسوف الأرضية» وحصر أعدادها وتحديد مدى خطورتها وطرق معالجتها.

وتكررت الحوادث الناجمة عن ضعف التربة حتى ضمن النطاق العمراني، إذ شهدت منطقة حفر الباطن في شهر كانون الثاني (يناير) الماضي هبوطاً أرضياً في فناء منزل أحد المواطنين، هوت فيها سيارته، وأكد المواطن أن الحادثة جاءت بسبب ضعف البنية التحتية للحي، إذ لم تكن هناك أية حفرة للصرف الصحي.

وشهدت محافظة الخرج في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي، هبوطاً في الطبقة الأسفلتية أمام مدرسة بنات، مما تسبب في عرقلة حركة السير وإغلاق الطريق، وأوضحت بلدية الخرج آنذاك أن الهبوط لا يخص أي أعمال أو مشاريع إنشائية لهم، وإنما نتج عن كسر في مواسير الصرف الصحي.

أمَّا ما ذكرته الآية ١٧ في الإصحاح ١٦ من سفر رؤيا يوحنَّا اللاهوتي عن "**أَصْوَاتٌ وَرُعُودٌ وَبُرُوقٌ**"، فقد شهدت عام ٢٠١٨ وحده العديد من العواصف الرعديَّة، ناهيك عن الفيضانات والسيول.



صورة ٧٢–صواعق رعديَّة

هذا ويتضمَّن سفر رؤيا يوحنَّا اللاهوتي العديد من الآيات، التي تبشِّر بحدوث زلازل، وعواصف رعديَّة، وبروق، منها (إصحاح ٨، آية ٥)، و(إصحاح ١١، آية ١٣)، و(إصحاح ١١، آية ١٩). وتروي السيدة عائشة-رضي الله عنها وعن أبيها-عن رسول الله (صلَّى الله عليه وسلم)، أنَّه قال "**يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف،** قالت، قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟، قال: نعم، إذا ظهر الخبث"، والحديث في صحيح الترمذي. وقد أخبر الرسول الكريم كذلك عن كثرة الزلازل في سُنَّته، ومن هذا حديث في صحيح البخاري، عن الصحابي أبي هريرة، أنَّ الرسول (ﷺ) قال "لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَحَتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ **وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ**، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ: وَهُوَ القَتْلُ".

مؤشّرات على انهيار الاقتصاد الأمريكي

يتناول عبد الحميد (٢٠١٢) مسألة في غاية الخطورة، وهي إيذان الاقتصاد الأمريكي بالانهيار؛ بسبب تراكم الديون، التي تُقدَّر بـ ٢١.٦ تريليون دولار، في ٢٨ أكتوبر ٢٠١٨، وفقًا لتقديرات نشرها موقع Treasury Direct، التابع لوزارة الخزانة الأمريكيَّة. ووفقًا لتحليلات مكتب التحليل الاقتصادي التابع لوزارة التجارة الأمريكيَّة، فإنَّ الدين العام، بدءًا من عام ٢٠١٢، أصبح يجاوز الناتج المحلِّي الإجمالي؛ حيث أنَّ الناتج الإجمالي لم يصل إلى ٢٠ تريليون دولار، بينما تخطَّى الدين العام ٢١ تريليونًا. ويستعرض عبد الحميد آراء المحللين الغربيين بشأن السقوط المتوقَّع لأمريكا؛ نتيجة لانهيار اقتصادها. ومن بين ما تعرَّض له الكاتب، التوقُّعات بحدوث أزمة شديدة في أمريكا بسبب عجز الإدارة عن تسديد مديونيَّتها، وستأخذ تلك الأزمة شكل فقدان الدُّولار قيمته، وارتفاع جنوني في الأسعار؛ سيسفران عن تضخُّم حاد، وكذلك عن هروب رؤوس الأموال من أمريكا، إيذانًا بحالة من الفوضى والانهيار الداخلي (ص١٥١). يستشهد عبد الحميد في ذلك بما جاء في كتاب **Bankruptcy 1995: The Coming Collapse of America and How to Stop It-الإفلاس ١٩٩٥: سقوط**

أمريكا القادم وكيفيَّة إيقافه (**١٩٩٣**)، والذي تنبَّأ كاتباه بكارثة اقتصاديَّة ستعصف بالإمبراطوريَّة الأمريكيَّة، إن لم تُتَّبع تدابير الوقاية اللازمة. يشير أحد مؤلفي الكتاب إلى اعتقاده صعوبة خروج أمريكا من أزمتها الاقتصادية، وإن كانت دولٌ أخرى خرجت من مشكلات مشابهة؛ **والسبب هو تراكُم الديون الداخليَّة والخارجيَّة، التي تُنذر بتجاوُز المديونيَّة الناتج المحلِّي، وهذا ما حدث بالفعل منذ عام ٢٠١٢، كما سبقت الإشارة.**

ويقول جور فيدال في كتابه **The Decline and Fall of the American Empire-هبوط الإمبراطوريَّة الأمريكيَّة وسقوطها** (**١٩٩٢**)، إنَّ الدفاع يستنزف ٩٠ بالمائة من ميزانيَّة الدولة، التي تضطر إلى تزييف نسب عائداتها لإخفاء ذلك. ويقترح فيدال حلًّا لذلك الانسحاب من حلف الناتو، وإيقاف المعونات العسكريَّة لإسرائيل. ويضيف فيدال أنَّ الولايات المتَّحدة خاضت حروبًا في شرق آسيا، وأمريكا الوسطى، والشرق الأوسط حروبًا لا جدوى منها، لعب الإعلام دورًا مخادعًا فيها، بأن أشاع أنَّ تلك الحروب كانت لمساندة العالم الحر، بينما هي كانت لمساندة أنظمة ديكتاتوريَّة تعادي حقوق الإنسان.

تناولت قناة روسيا اليوم في تقرير مفصَّل لها مع الخبير الاقتصادي الأمريكي اشتراكي النزعة، ريتشارد وولف، **خطر الانهيار الاقتصادي في أمريكا، المتوقَّع خلال الفترة المقبلة**. يعيب وولف أوَّل الأمر على **النظام الاقتصادي الرأسمالي، الذي تتَّبعه أمريكا، خلقه فجوة اجتماعيَّة صارخة بين طبقات المجتمع الواحد، بما لا يختلف بالكليَّة عن النظم الإقطاعيَّة التي حكمت أيِّ من بلاد العالم، بما في ذلك المستعمرات الأمريكيَّة قبل الاستقلال**. يرى الخبير الاقتصادي أنَّ الرأسماليَّة عجزت عن تنفيذ ما وعدت به، **والآن تعمل على إلهاء الناس عن هذه الحقيقة. يلقى وولف اللوم أكثر شيء على ارتفاع النفقات، ولا يري أيَّة دلائل على ما تدَّعيه الإدارة الأمريكيَّة من اتخاذ إجراءات لإنعاش الاقتصاد، وبخاصَّة ما يقال عن تحسين أوضاع العمالة، مع ركود مستويات الأجور**. ويتَّهم وولف الإدارة الحالية **للرئيس دونالد ترامب بمحاولة تشتيت الجماهير عن التردِّي الاقتصادي، بإبراز مشكلة التهديدات الإرهابيَّة "الخارجيَّة"، وكأنَّ الإرهاب**

صار استراتيجيَّة إلهاء عن حقيقة الأوضاع داخل أمريكا؛ وكأنَّ الإدارة تلقي اللوم في مشكلات نتجت عن سوء الأداء الاقتصادي على عاتق آخرين.

ونشرت روسيا في ٢٤ أكتوبر من عام ٢٠١٨ ميلاديًّا، تقريرًا **عن قُرب انهيار الاقتصاد الأمريكي، وتوقُّعات بهبوط الدُّولار معه، وأجرت خلاله مداخلة مع الخبير الاقتصادي الأمريكي بيتر شيف**، المدير التنفيذي لشركة "يورو باسيفيك" للتحليلات الماليَّة وإدارة الأصول. تأسَّف شيف على أنَّ **أزمة التجارة العالميَّة في ٢٠٠٨، لم تُحل، إنَّما تفاقمت، بتفاقم الدين الأمريكي**. يقول الخبير المالي المخضرم أنَّ الانهيار الاقتصادي سيكون مدوِّيًا، كلَّما تباطأت مساعي الحل، ولكنَّ السياسيين لا يريدون مواجهة هذه الحقيقة، على حدٍّ وصفه. **يزداد العجز بسبب تجاوُز النفقات العائدات، والرئيس الأمريكي يتَّجه إلى تحسين القدرات الدفاعيَّة لأمريكا، مستحدثًا سلاح الدفاع الفضائي الجديد، مما سيستنزف مزيدًا من الأموال**. يضيف شيف أنَّ البورصة تتراجع، مما ينذر بكساد جديد؛ وقد ينتج عن هذا الكساد مشكلة سياسيَّة متضافرة مع المشكلة الاقتصاديَّة؛ لأنَّ اللوم سيُلقى على عاتق الحزب الجمهوري، وستبرز الاشتراكيَّة، بوصفها حل المشكلة. ستصيب الكارثة الدُّولار الأمريكي أكثر شيء، وسيتبع ذلك تراجُع في مستوى معيشة الفرد في أمريكا. المفارقة أنَّ مجري الحوارين، مع ريتشارد وولف ومع بيتر شيف، هو **الصحافي الأمريكي كريس هيدجز، الذي هو في الوقت ذاته من كهنة الكنيسة المشيخيَّة البروتستانتيَّة**. يقدِّم هيدجز نفسه باعتباره **اشتراكيًّا**، معترفًا باعتناقه فِكر **اللاسلطويَّة المسيحيَّة**، وهي حركة دينيَّة تدعو إلى **فصل المسيحيَّة عن السلطة**. ألَّف الإعلامي الأمريكي عدَّة كتب، أحدثها **America, The Farewell Tour–أمريكا، رحلة الوداع**، الصادر في عام ٢٠١٨، والذي يتناول حالة التردِّي التي أصابت أمريكا في العقود الأخيرة، وتنذر بسقوط تلك الإمبراطوريَّة العظمى.

انهيار المُجتمع الأمريكي

شارك كريس هيدجز في عدَّة ندوات للتعريف بما في كتابه الجديد، كما حلَّ ضيفًا على برنامج The Agenda with Steve Paikin، المذاع على قناة TVOntario الكنديَّة،

كشف فيه عن نظرته "**التشاؤميَّة**" تجاه بلاده، **الناتجة عن اشتراك أمريكا في العديد من الحروب المخلِّفة لملايين الضحايا، وانتشار تعاطي المخدِّرات، وارتفاع مستوى البطالة.** يختلف هيدجز مع المحاور في طرحه أنَّ الإعلامي اشتراكي النزعة، يشترك مع الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في نظرته إلى حالة البلاد؛ لأنَّ ترامب، كما يرى هيدجز، **يلقي باللوم دائمًا على عوامل خارجيَّة، من بينها التيارات السياسيَّة المعارضة، والإرهاب الإسلامي، دون تركيز على أداء الإدارة الحاكمة.** يشير هيدجز إلى أن المقصود بـ "رحلة الوداع" هو **رحلة الإمبراطوريَّة الأمريكيَّة إلى الفناء، وهي رحلة قد تمتدُّ لأعوام، كما ينطبق على الإمبراطوريَّة البريطانيَّة، التي بدأت تتراجع مكانتها، منذ نهاية الحرب العالميَّة الأولى في ١٩١٩ ميلاديًّا، وحتَّى تأميم قناة السويس في عام ١٩٥٦، حينما صعدت أمريكا إلى الواجهة، وتسلَّمت زعامة العالم. يرى هيدجز أنَّ المؤسسات الاجتماعيَّة والثقافيَّة في أمريكا تتهاوى، وأنَّ المجتمع الأمريكي بطبيعته "عنيف"، شغوف بتطوير الأسلحة بكافَّة أنواعها، معربًا عن خشيته من أن تتسبب سهولة الحصول على الأسلحة، خلال فترة تفكُّك الإمبراطوريَّة العظمى، في كوارث.**

يعتقد هيدجز أنَّ تراجُع الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة بدأ في السبعينات من القرن الماضي، حينما تبدَّل الحال من التركيز على الإنتاج، إلى الانشغال بالاستهلاك، ومنذ ذلك الحين بدأ معدَّل النمو في الانخفاض، بينما زاد معدَّل الاستهلاك. ويرى الصحافي الأمريكي أنَّ ما يُعرف بـ corporate capitalism، أو رأسماليَّة الشركات، من أهم أسباب تفاقُم الأزمة الاقتصاديَّة، ضاربًا المثل في ذلك بشركة أبل الإلكترونيَّة الشهيرة. تستعين أبل بمتعهِّدين في دول آسيويَّة، مثل الصين وتايوان، في تصنيع أجزاء منتجاتها؛ ويستعين هؤلاء المتعهِّدون بدورهم بعمَّال محليين، يحصلون على أبخس الأجور، ويعانون من سوء المعاملة، وانخفاض مستويات المعيشة، وتردِّي حالة الإقامة، مما يدفع بعض هؤلاء العمَّال إلى الانتحار، أو إلى احتراف مهن محظورة. **يعطي هيدجز بذلك صورة في غاية الوضوح لطبيعة انتهازيَّة الشركات الكبيرة، وتركيزها على أرباحها الفرديَّة، بغضِّ النظر عن مدى استفادة العاملين لديها.**

يتناول هيدجز في كتابه كذلك المشكلات الاجتماعيَّة الخطيرة التي تعاني منها الولايات المتَّحدة، على رأسها **تعاطي المخدِّرات، مشيرًا إلى إجرائه جولة شملت مختلف أنحاء البلاد، وتأكَّد بنفسه من ارتفاع نسبة الإدمان.** يتأسَّف الصحافي الأمريكي على تسبُّب الإدمان في الكثير من حالات الانتحار، وفي غير ذلك من المآسي التي تمزِّق المجتمع الأمريكي؛ على ذلك، يدعو هيدجز إلى مواجهة ذلك "العدو" بالطرق السليمة، من خلال مساعدة المدمنين في العلاج، ثمَّ في تجاوُز الاكتئاب المصاحب للعلاج، ثمَّ في العودة إلى المجتمع من خلال أداء أدوار بنَّاءة؛ ويحذِّر من عدم استجابة منظومة المجتمع إلى احتياجات هؤلاء، وإلَّا تزايدت مآسي المجتمع الأمريكي، الذي يعاني من التفسُّخ من الأصل بسبب تفكُّك اللحمة الاجتماعيَّة.

نشرت صحيفة واشنطن بوست، عبر موقعها، في ١٤ سبتمبر من عام ٢٠١٨، مراجعة لكتاب كريس هيدجز **America, The Farewell Tour–أمريكا، رحلة الوداع** (٢٠١٨)، تحت عنوان **A relentlessly dark indictment of global capitalism**، أو إدانة شديدة اللهجة للرأسماليَّة العالميَّة، شدَّدت على "التأثيرات المدمِّرة" للنظام الرأسمالي العالمي على المجتمعات العالميَّة، وأوَّلها المجتمع الأمريكي. يرى هيدجز أنَّ **الرأسماليَّة العالميَّة تشكِّل نظامًا قاسيًا "يستخدم فقط سياسات انتقاميَّة.** التعسُّف، والخوف، والعنف، والترويع الشرطي، والسجن الجماعي وسائل هذا النظام لفرض الرقابة الاجتماعيَّة، **وهو يفتت الأمَّة والعالم بأسره لتحقيق الربح**". يصوِّر هيدجز هذا الوضع المأسوي، على حدِّ وصف صحيفة واشنطن، باعتباره تجسيد لما توقَّعه كارل ماركس نهايةً للرأسماليَّة. يرى هيدجز أنَّ **المواطن الأمريكي قد وقع ضحيَّة ستَّة أمور أصبحت تسيطر على حياته، هي الإدمان على المخدِّرات، والإباحيَّة، والقمار، ونظام العدالة الجنائيَّة، والجماعات المتطرِّفة، والبحث عن عملٍ مجدٍ ومربح.** ولا يجد الصحافي الأمريكي، والقسُّ المشيخي، مخرجًا من تلك الأزمة إلَّا من خلال مقاومة مدنيَّة للرأسماليَّة، معتقدًا أنَّ "أواصر التضامن والوعي ستوحِّد معدمي الأرض في مواجهة أسياد الشركات في العالم". ويطرح كاتب مقال واشنطن بوست تساؤلات في النهاية، وهي

إذا كانت **الدعوات إلى ثورة اشتراكيَّة عالميَّة على الرأسماليَّة تتعالى،** "**كيف ستكون هذه الثورة؟ وكيف ستحصل حركات النشطاء محدودة النطاق على القوَّة اللازمة لهزيمة الآليَّة الرأسماليَّة العالميَّة؟ والسؤال الذي ربما يكون أهم، ما هو الشكل الذي ستتخذه الاشتراكيَّة، ويختلف عن المحاولات المأساويَّة خلال القرن العشرين للوصول إلى بدائل مضادَّة للرأسماليَّة؟**".

تراجُع الاقتصاد الأمريكي في الصحافة العالميَّة

يبدو أنَّ الإعلام الأمريكي بدأ يميل إلى الصراحة في الاعتراف بتراجع الاقتصاد الأمريكي عن موقع الريادة، لصالح الصين؛ وربَّما هذا ما شجَّع قناة CBS News على نشر تقرير في ٢٠ يناير من عام ٢٠١٨ ميلاديًّا، عنوانه **China surpasses U.S. as world's largest Economy–الصين تتجاوز أمريكا بوصفها أقوى اقتصاد في العالم،** وفقًا لبيانات أصدرها صندوق النقد الدولي. احتلَّت أمريكا موقع الصدارة بين اقتصادات العالم منذ عام ١٨٧٢ ميلاديًّا، حينما تجاوز ناتجها الإجمالي المحلِّي ناتج بريطانيا العظمى. غير أنَّ عرشها بدأ يهتزُّ مؤخرًا، مع الصعود المتواصل للصين، التي أشار التقرير أنَّها لن تسحب البساط من تحت أقدام أمريكا بالكامل إلَّا بعد فترة لا تقل عن ١٠ سنوات.



صورة ٧٣–صعود اقتصاد الصين على حساب اقتصاد أمريكا (٢٠١٨)

وبرغم استناد تقرير CBS News إلى بيانات دقيقة، عكست الحالة الاقتصاديَّة لكلٍّ من أمريكا والصين في بداية ٢٠١٨، فهناك آراء تحليليَّة تشير في نهاية العام ذاته إلى أنَّ تجاوُز الصين لأمريكا قد تمَّ بالفعل، ومن بين تلك الآراء تقريرٌ نشره موقع بلومبرج الاقتصادي الشهير، في ١٨ ديسمبر ٢٠١٨، بعنوان **اعتادوا على ذلك أيُّها الأمريكيُّون: لم نعد رقم ١.**



Bloomberg Opinion

Economics

Get Used to It, America: We're No Longer No. 1

China probably has become the world's biggest economy and will reap the benefits that once flowed to the U.S.

By Noah Smith
December 18, 2018, 12:00 PM GMT+2

يشير التقرير إلى أنَّ الصين أوشكت أن تصبح الاقتصاد الأقوى في العالم، منتزعة الأرباح التي كانت الولايات المتَّحدة تجنيها في السابق، مضيفًا أنَّ الصين حاليًا أكبر مُصنِّع ومُصدِّر في العالم، وأنَّ فرصها في النمو أعظم بكثير من أمريكا؛ بفضل ارتفاع عدد سكَّانها، مما يزوِّدها بعدد هائل من العمالة. وستزداد نسب النمو الاقتصادي الصيني، إذا ما طُرحت عملتها للمضاربة بالنقد الأجنبي، مما يعني ارتفاع قيمة اليوان الصيني أمام الدُّولار الأمريكي. يعني ذلك، "إن لم تكن الصين الآن القوَّة الاقتصاديَّة السائدة في العالم، فتصبح هكذا قريبًا"، على حدِّ وصف التقرير، الذي يوضح أنَّ صعود الصين إلى الريادة الاقتصاديَّة يعني مزيدًا من التراجع الاقتصادي الأمريكي؛ حيث ستستفيد الصين، على حساب أمريكا مما يُعرف بـ "تأثير التكتُّل"، وهو ميل المستثمرين إلى الاستثمار في بيئة اقتصاديَّة واحدة. ستجتذب الصين مزيدًا من المستثمرين الأجانب خلال المستقبل القريب، مما يعني مزيدًا من التأزُّم الاقتصادي الأمريكي.

ويعيد موقع فوتشن الاقتصادي نشر تقرير بلومبرج في اليوم التالي تحت عنوان **لماذا تحتاج أمريكا أن تدرك أنَّ الصين ستصبح رقم ١.**

FORTUNE

Why America Needs to Realize That China Will Be No. 1



وكان موقع فورتشن قد نشر في ٢١ نوفمبر ٢٠١٨، تقريرًا عن تنبُّؤ المحللين الاقتصاديين بتباطؤ نمو الاقتصاد الأمريكي في ٢٠١٩، بل وبإمكانيَّة حدوث كساد في ٢٠٢٠.

FORTUNE

BRIEFING • U.S. ECONOMY

U.S. Economy Will Slow in 2019, May Enter Recession in 2020, Economists Forecast. Trump Administration Disagrees

وسبق موقع واشنطن بوست فورتشن في الإشارة إلى التنبُّؤات بكساد كبير في ٢٠٢٠، مما قد يشكِّل تحديًا أمام دونالد ترامب، إذا ما ترشَّح لفترة رئاسيَّة ثانية، خاصَّة وأنَّ أداءه النصفي كان الأسوأ لرئيس من الحزب الجمهوري، منذ نيكسون، بعد فضيحة ووترجيت في ١٩٧٤.



Business

Trump's big 2020 problem: The economy could be in recession

ونشرت قناة روسيا اليوم تقريرًا إخباريًّا بعنوان **China surpasses US economically; Washington rages**–**الصين تتفوّق اقتصاديًّا على الولايات المتَّحدة، وواشنطن تغضب**، في ٢٠ ديسمبر من عام ٢٠١٨، تناول فيه المحللون

أسباب تراجُع أمريكا اقتصاديًّا، والتي يرون أنَّ تفوُّق الصين في مجال الذكاء الاصطناعي من أهمِّها. حققت الصين تقدُّما هائلًا في المجال التقني في السنوات القليلة الماضية، وبالذات في مجال تطوير تقنيات معالجة البيانات، التي أحدثت الصين فيها طفرة نوعيَّة، بما تجاوَز إمكانات أمريكا في المجال ذاته. هذا وقد نشرت شبكة فوكس نيوز الإخباريَّة في ٢٠ ديسمبر من عام ٢٠١٨ مقالًا، أشارت فيه إلى اعتقاد المحللين أنَّ الولايات المتَّحدة تمرُّ بـ "لحظة سبوتنيك" فيما يتعلَّق بصراعها التقني مع الصين، أي لحظة إدراك لطبيعة التهديد الذي أصبحت الصين تشكِّله، وبخاصَّة في مجال الذكاء الاصطناعي، وإمكانيَّة أن تتجاوزها الصين في هذا المجال بحلول عام ٢٠٣٠ ميلاديًّا.



OPINION

Gen. Anthony Tata: One more reason to beware of the emerging China threat

The U.S. National Security Strategy states: "China and Russia challenge American power, influence, and interests, attempting to erode American security and prosperity. They are determined to make economies less free and less fair, to grow their militaries, and to control information and data to repress their societies and expand their influence... (and) now view cyber capabilities as tools for projecting influence, and some use cyber tools to protect and extend their autocratic regimes. Cyberattacks have become a key feature of modern conflict."

يضيف المقال ذاته أنَّ التنافُس بين القوى العظمى في العالم خلال الستين عامًا القادمة سيتحوَّل من مجال أبحاث الفضاء، إلى مجال الذكاء الاصطناعي والتعلُّم الآلي، لافتًا إلى أنَّ الصين تعمل على تطوير إمكاناتها؛ كي تلحق بالولايات المتَّحدة في ٢٠٢٥، ثمَّ تتجاوزها في ٢٠٣٠، مما يعني إصرار الصين على أن تصبح رائدة الذكاء الاصطناعي في العالم. هذا، وتذكر استراتيجيَّة الأمن القومي الأمريكيَّة أنَّ كلًّا من الصين وروسيا تسعيان إلى تحدِّي سُلطة الولايات المتَّحدة، ونفوذها، ومصالحها، من خلال تبديد أمنها ورخائها. وتعتزم الدولتان الحدَّ من حريَّة اقتصاديهما ونزاهته، وتعظيم إمكانات جيشيهما، والسيطرة على المعلومات والبيانات؛ بهدف قمع مجتمعيهما وتوسيع نطاق

نفوذهما...وهما الآن تريان في القدرات الإلكترونيَّة وسائل لتعظيم النفوذ، وتستخدمان وسائل إلكترونيَّة في حماية نظاميهما المستبدَّين؛ حيث أنَّ " الهجمات الإلكترونية أصبحت عنصرًا أساسيًّا في الصراع الحديث" بين الأمم.

CNN BUSINESS Markets Tech Media Success Perspectives Video International Edition +

US charges Chinese hackers in global scheme targeting business and military

By Chris Isidore and Nicole Gaouette, CNN
Updated 0348 GMT (1148 HKT) December 21, 2018



جدير بالذكر أن موقع سي إن إن الشهير قد نشر في ٢١ ديسمبر من عام ٢٠١٨ عن اتِّهام وزارة العدل الأمريكيَّة صينيين اثنين يعيشان في الولايات المتَّحدة بتدبير هجمات إلكترونيَّة تستهدف الاستيلاء على بيانات حسَّاسة، تخصُّ مجال البزنس، وتتعلَّق بأسرار الشركات، مما يؤثِّر على الاقتصاد الأمريكي. يضيف المقال اعتقاد السلطات الأمريكيَّة أنَّ تلك الهجمات جزء من حلمة تديرها الحكومة الصينيَّة، وفقًا لما صرَّح به نائب المدعي العام الأمريكي، الذي أشار إلى استهداف الهاكرز الصينيين الاستيلاء على بيانات عسكريَّة تخصُّ أعضاء في البحريَّة الأمريكيَّة. واتَّهم نائب المدعي العام الصين، في مؤتمر صحافي، بتحقيق منفعة شخصيَّة، على حساب الشركات الملتزمة بالقانون، والدول التي تراعي القواعد الدوليَّة. وشدَّد نائب المدعي العام الأمريكي على أنَّ الصين لم يعد في مقدورها نفي ضلوعها بتلك العمليَّات الملتوية، واصفًا سرقتها أسرار الشركات الأمريكيَّة بـ "التعدِّي الاقتصادي".

غير أنَّ الطَّفرة الاقتصاديَّة الصّينيَّة قد شهدت تراجعًا ملحوظًا خلال العام المالي ٢٠١٩، فقد نشر موقع فورتشن الاقتصادي بتاريخ ١٧ يناير ٢٠٢٠م، مقالًا تحت عنوان "الحرب التّجاريَّة الأمريكيَّة تُبطئ الاقتصاد الصّيني إلى أضعف وتيرة له في ٣٠ عامًا". يشير المقال إلى أنَّ إجمالي الناتج المحلي للصّين قد تنامى بنسبة ٦.١ بالمائة، وتلك كانت أضعف نسبة للنُّمو منذ عام ١٩٩٠.

FORTUNE RANKINGS MAGAZINE NEWSLETTERS VIDEO CONFERENCES

The U.S. trade war slowed China's 2019 economic growth to its weakest pace in nearly 30 years

ووفق إحصاءات نشرتها صحيفة بيزنس إنسايدر الرَّقميَّة الاقتصاديَّة عن أضخم اقتصادات العالم خلال عام ٢٠١٩، احتل الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة المركز الأوَّل من حيث إجمالي النَّاتج المحلّي، الذي بلغ ٢١ تريليون دولار، ما يعادل ٢٠ بالمائة من النَّاتج العالمي، بينما حلَّت الصّين في المركز الثَّاني بفارق تجاوز ١١ تريليون دولار.

BUSINESS INSIDER INDIA TECH INSIDER BUSINESS POLICY STRATEGY ADVERTISING SCIENCE LIFE

Here is the latest list of top 10 economies of the world for 2019-20.

1. United States

In 2019, the nominal GDP of the US is expected to exceed USD 21 trillion. The US economy accounts for 20% of the global output and the economy is still much larger than that of China. The services sector of the US is much developed and technologically sophisticated. This fact accounts for about 80% of the total output. Hence the largest corporations and the part played by the firms offering their services in the fields of technology, retail, finance and healthcare play the major role on the global stage.

2. China

The Chinese economy has witnessed an astonishing growth over the last few decades. This fact has helped the country capture the much coveted second place in the list of top 10 economies of the world. The nominal GDP of China in 2019 is USD 9.2 trillion.

مما سبق طرحه عن صورة الغرب الحداثي عن الاستعداد الفطري لدى المسلمين للتطرُّف وممارسة أعمال عدائيّة تجاه غير المسلمين، وعن ارتباط مفاهيم الرجعيَّة والركون إلى التخلُّف عن سير الحداثة والجمود الفكري والانغلاق عن الآخرين والإصرار على استبعاد التعقُّل والتأمُّل بالعالم الإسلامي، فما هي أفضل صورة للداعية الإسلامي ترضي الغرب وتطمأنه على استقراره؟ تجيب شخصيَّة الشيخ "حاتم الشنَّاوي" في رواية **مولانا** عن هذا السؤال.

١٠.مواقف "الديانات الإبراهيميَّة" من متاع الدنيا (الحداثة) ومن حساب الآخرة: أين يكمن الخطأ؟

الديانات الإبراهيميَّة–Abrahamic religions، أو Abrahamism–هو مصطلح صاغه المستشرق الفرنسي البارز، ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسيَّة في شؤون شمال أفريقيا، والراعي الروحي للجمعيَّات التبشيريَّة الفرنسيَّة في مصر، لويس ماسينيون، للإشارة إلى للديانات المشتقَّة عن ملَّة أب الأنبياء إبراهيم، أو تقاليد أبرام العبراني، في إقرار بالجوانب المشتركة بينها، وأهمَّها توحيد الألوهيَّة، وإن اختلف مفهوم التوحيد في كلِّ ديانة. وفي الغالب، **فالمقصود بالديانات الإبراهيميَّة يكون الإسلام واليهوديَّة والمسيحيَّة،** وإن كانت هناك ديانات إبراهيميَّة مُعترف بها، ولكن أقل شيوعًا، مثل المندائيَّة والسامريَّة والدرزيَّة والبابيَّة والبهائيّة والمورمونية والراستافاريَّة، كما تنشر موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة. ويعترف علماء الغرب بأنَّ هناك اختلافات جذريَّة بين الإسلام واليهوديَّة والمسيحيَّة، وبخاصَّة في مفهوم الوحدانيَّة للخالق، ومن هؤلاء ألان برجر، أستاذ الدراسات اليهوديَّة، الذي رأى في كتابه **Trialogue and Terror: Judaism, Christianity, and Islam after 9/11–الحوار الثلاثي والإرهاب: اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام بعد ٩/١١** (٢٠١٢)، أنَّ اليهوديَّة هي أصل المسيحيَّة والإسلام، لكنَّ الديانتين المتولِّدتين عنها افترقتا عنها، بل احتفظت كلٌّ منهما بمفهوم توحيدي خاص؛ فتفاوتت العلاقات بين الديانات الثلاث، وصارت "غير متوازنة ديمغرافيًّا، ومتنوعة أيديولوجيًّا" (صxiii).

إن كانت الديانات الإبراهيميَّة الثلاث، الأهم والأكثر اتِّباعًا، قد اتَّفقت على توحيد الألوهيَّة، فقد اختلفت في اعتقاد كلٍّ منها بالآخرة، وبيوم الحساب، ولا شكَّ أنَّ لذلك تأثيره الكبير في المساعي الدنيويَّة. لا جدال على أنَّ تعامُل المؤمن بزوال متاع الدنيا وحقارة زينتها بالمقارنة بنعيم الآخرة، لن ينكبَّ على تحقيق الثراء المادِّي، وتطبيق وسائل الارتقاء الحضاري، وكأنَّما سيعيش أبدًا، لن يكون مثل تعامُل الموعود بالنعيم الأبدي بمجرَّد الإيمان بعقيدة لا تستلزم العمل، بخاصَّة إذا ندُر الحديث عن الموت والحساب

والوعيد بالنَّار للمذنبين في الكتاب المنزَّل على النبي الذي يؤمن به، هذا ما يوضحه هذا القسم في الدراسة.

الإيمان بالآخرة والحساب يوم القيامة في الإسلام

أمَرَنَا الله تعالى في مُحكم آيات كتابه الكريم، المنزَّل على خاتم النبيين وإمام المرسلين، سيدنا مُحمَّد (ﷺ) بتلاوة القرآن "وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ" (سورة النمل: الآية ٩٢)، وكذلك بتدبُّر آيات "كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ **لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**" (سورة ص: الآية ٢٩)، أي أنَّ هدف التدبُّر أن "**يَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**". وسيكتشف من يتلو كتاب الله أنَّ هناك فكرة أساسيَّة لا يتوقَّف الكتاب عن تكرارها، وتكاد لا تخلو منها سور القرآن، وهي تذكير الله تعالى خَلْقَه بأنعمه عليهم، وبتسخيره الكون لهم، وبتنزيله الشريعة الحقَّة ليطبِّقوا في تسيير أمورهم الحياتيَّة، ولا يريد مقابل ذلك إلَّا أن يشهدوا له بالربوبيَّة؛ فيعبدوه وَحدَه لا شريكَ له "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** (٢١)" (سورة لقمان).

آثرت فئة ممن خَلَق الله تعالى أن تتَّبع الهوى، الذي أغراها الشيطان باتِّباعه، وتعبد من دونه أربابًا ما أنزل الله بها من سُلطان، متناسين شهادتهم لله وَحده بالربوبيَّة يوم أخذهم من ظهر آدم ذريَّته، وأشهد بني آدم جميعًا على ذلك، خشية أن يصيب "**عَذَابِ السَّعِيرِ**" في الآخرة، إذا ما نسوا ميثاقهم مع الله، وفعلوا ما ينقضه "**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** (١٧٢) **أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** (١٧٣)" (سورة الأعراف). ونقلًا عن موقع الإسلام سؤال وجواب، روى الإمام أحمد (٢٤٥٥)، والحاكم (٧٥) عن تفسير هاتين الآيتين، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ)، أنَّه قَالَ: (**أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ**،

فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا، قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...)، وأكمل الرسول قوله تعالى إلى نهاية الآيتين.

ويتَّفق الفقهاء المعاصرون، ومنهم عبد العزيز بن فوزان الفوزان–أستاذ الفقه المقارن في المعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة–مع هذا التفسير ويقول في تفسيره للآيتين في ظهور له على قناة الرسالة الفضائيَّة "نحن لا نذكر هذا الآن، ونحن من ذريَّة آدم"، مشيرًا إلى قول العلماء بأنَّ "**الْمِيثَاقَ**" هو "فطرة الله التي فَطَر الناس عليها"، وهي فطرة التوحيد. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة (رضي الله عنه) "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"؛ أي أنَّ لو تُرك كلُّ مولود على الفطرة، لصار موحِّدًا لله، عابدًا إيَّاه، بلا ند ولا شريك. ويقول الشيخ محمَّد متولي الشعراوي–العالم الديني، وأستاذ علم التفسير واللغة الغربيَّة، ووزير الأوقاف المصري الأسبق–عن هاتين الآيتين، أنَّ الله تعالى أراد أن يربط البشر من ذريَّة آدم بإلف معه، بإشارته إلى ارتباط البشر جميعًا بآدم في تسلسُل، من خلال انتقال جزيء حيٍّ من آدم إلى كلِّ بنيه، وارتباط البشر به عزَّ وجلَّ من قبل ميلادهم. ولهذا السبب، اختار الله الإشارة إلى علاقته بالبشر بقوله "**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**"، كما خاطب نبيَّه مُحمَّدا بالتركيز على نفس الصلة "**رَبُّكَ**"؛ فأكَّد الله بهذا أنَّ كلمة "رب" هي "الإلف الأوَّل" الذي يصاحب الإنسان مع الله من قبل ميلاده، وهذا ما يفسِّر قوله "وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا **رَبَّهُ** مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ **نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا** لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ **النَّارِ**" (سورة الزمر: الآية ٨). يتذكَّر الإنسان "**رَبَّهُ**"، قديم الصلة به، في الشدائد، لكنَّه سرعان ما ينساه بعد أن تُقضى حاجته، بل وربَّما "**جَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا**"؛ فاستحقَّ بذلك أن يكون "مِنْ أَصْحَابِ **النَّارِ**". ونلاحظ أنَّ الله تعالى قد استخدم كلمة "رب" كذلك لمَّا ذَكَر قصَّة الخلْق "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ **فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا **مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (سورة البقرة: آية ٣٠).

بالعودة إلى قصَّة خلْق الله تعالى آدمَ، نجد أنَّ الله أراد أن يجعل في الأرض "**خَلِيفَةً**"، واختلفت آراء المفسِّرين حول المقصود بقوله تعالى "**خَلِيفَةً**". فمن المفسِّرين من رأى أنَّ المقصود أنَّ جيلًا يخلف جيلًا من بني آدم إلى قيام الساعة، مصداقًا لقول الله في الآية ١٦٥ من سورة الأنعام "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ"، وفي الآية ٦٢ من سورة النمل "وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ". وهناك رأي آخر أكثر شيوعًا، وهو أنَّ الإنسان خَلَف الجنَّ على الأرض، ويعزز ذلك التفسير قوله تعالى في الآية ٣٠ من سورة البقرة "أَتَجْعَلُ فِيهَا **مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**"؛ إذ نما هذا الاعتقاد لدى الملائكة من قياسهم على ما فعلته الجنُّ على الأرض. وقد روى الطبري في تفسيره (٢٣٢/١) عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال "أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضًا"، نقلًا عن موقع الإسلام سؤال وجواب. وبرغم أنَّ هذا الأثر يدعمه أثر يحمل نفس المضمون للصحابي عبد الله بن عمرو، يرى الداعية الإسلامي المعاصر الشيخ محمَّد حسَّان أنَّ هذا الأثر من الإسرائيليَّات، ولا يصح أن يُستدل به في تفسير الآية، لا محيث السَّند ولا من حيث المتن. وسواء كان الإنسان أوَّل من استُخلف على الأرض، أو كان خليفةً لقوم آخرين أفسدوا وأُهلكوا بشؤم ذنوبهم، فقد أبان الله تعالى للمخلوق الجديد أنَّ حياته في الأرض مؤقَّتة، وأنَّ له ولذريَّته "**فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**" (سورة البقرة: الآية ٣٦). سبقت الإشارة في الدراسة السابقة عن القبَّالة اليهوديَّة وعقيدة بابل السريَّة، إلى أنَّ المقصود بقول الله في الآية ٣٧ من سورة البقرة "**فَتَلَقَّى** آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" أنَّ آدم تلقَّى وعدًا من الله بالعودة إلى الجنَّة، في حال تاب وأصلح؛ غير أنَّ اليهود أعادوا تعريف هذا التلقِّي، وشكَّلوا عقيدتهم السريَّة، التي سبق شرحها بالتفصيل.

قد حذَّرنا الله تعالى من مغبَّة الركون إلى "**مَتَاع**" الدنيا، واعدًا الساعين وراءه بالخلود في النار "لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)"، كما جاء في سورة آل عمران؛ وأوضح الله تعالى أنَّ ميراث الجنَّة يكون بالتقوى "**لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** نُزُلًا مِّنْ

عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨)". ما يعنيه ما سَبَق ذكره، أنَّ الله تعالى خَلَق البشر، واستخلف أجيالهم المتعاقبة في الأرض، وأمرهم بعبادته طالما حيوا فيها، مصداقًا لقوله في سورة الذاريات "**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) **مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** (٥٧) **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** (٥٨)"؛ لأنَّ تلك في هذه العبادة السبيل إلى حياة الخلود في الآخرة في الجنَّة. أمَّا عن مهر الجنَّة، فهو الإيمان والعمل الصالح، وهذا ما تقوله آيات الله تعالى في العديد من سور القرآن، ونذكر من ذلك قول الله "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)" (سورة البقرة)، و "**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٤٢)" (سورة الأعراف)، و "إِنَّ **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ **تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)" (سورة يونس)، و "**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢٣)" (سورة هود)، و "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ **وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** (٩)" (سورة الإسراء)، و "**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)" (سورة الحج).

يفوز الإنسان بنعيم الجنَّة بصدق العبادة لله، والإخلاص في الطاعة لله، **وتقواه** عزَّ وجلَّ، والتوبة إليه في حال الوقوع في الإثم؛ فالخطأ سمة ابن آدم، كما قال النبي (ﷺ)، عن أنس بن مالك، في حديث رواه ابن ماجة والترمذي والدرامي وأحمد "كلُّ بني آدم خَطَّاءٌ، وخَيرُ الخَطَّائِينَ التوَّابُون". وإذا ما طالعنا الآيات التي وردت عن أهل الجنَّة، لوجدنا أنَّ صفتهم الأساسيَّة، بعد الإيمان والعمل الصالح، هي التقوى، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله تعالى في "**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦)

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)" (سورة الحجر)، و "وَقِيلَ **لِلَّذِينَ اتَّقَوْا** مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ** (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)" (سورة النحل)، و "**لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)" (سورة الزمر)، و "**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ** (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)" (سورة القمر).

سخَّر الله تعالى الأرض وما عليها لخدمة الإنسان، واستحقَّ العبوديَّة؛ لأنَّه "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا **إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** (٣٤)" (سورة إبراهيم). مع كلِّ نعم الله، ينسى الإنسان ميثاق الله معه؛ لأنَّ "**الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**". يتحدَّى الله تعالى كلَّ من يتَّخذ من نفسه إلهًا على الأرض، وينسى أنَّ الله "**ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**"، ويحسب "أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ" (سورة البلد: آية ٥). كما سبقت الإشارة، فسور القرآن الكريم تكاد لا تخلو من تذكير الله تعالى للإنسان، الذي خَلَقه " نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)" (سورة يس)، وسبقت الإشارة في الدراسة عن دور القبَّالة/الصوفيَّة المغالية في إسقاط دولة آل عثمان، إلى أنَّ هاتين الآيتين نزلتا لدحض تحدِّي أبيٍّ بن خلف للرسول قائلًا "يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟" فقال الرسول، في حديث رواه مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسدي، وقتادة "نعم، يميتك الله تعالى ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار". وسبقت الإشارة كذلك إلى أنَّ الله ردَّ على هذا الادِّعاء في قوله " وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ**

حَدِيدًا (٥٠) **أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ** (٥١)" (سورة الإسراء)، وإلى مصدر هذا الادِّعاء وسبيل النجاة من تصديقه "**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ** (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) **وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** (٥٧) **أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ** (٥٨) **إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** (٥٩) **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (٦٠) **لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** (٦١)" (سورة الصافَّات). أراد قرين الجن أن يقنع الإنسان بألَّا حياة بعد الموت، وأنَّ جسده يفنى بعد هلاكه؛ ومن ثمَّ لا سبيلَ لحساب أو عقاب، وهذا هو بالضبط مفهوم القبَّالة اليهوديَّة والصوفيَّة المغالية المحسوبة على الإسلام لحال الإنسان بعد موته، كما سبقت الإشارة، وقد تبيَّن كذلك أنَّ لهذا الاعتقاد أصل في التلمود اليهودي.

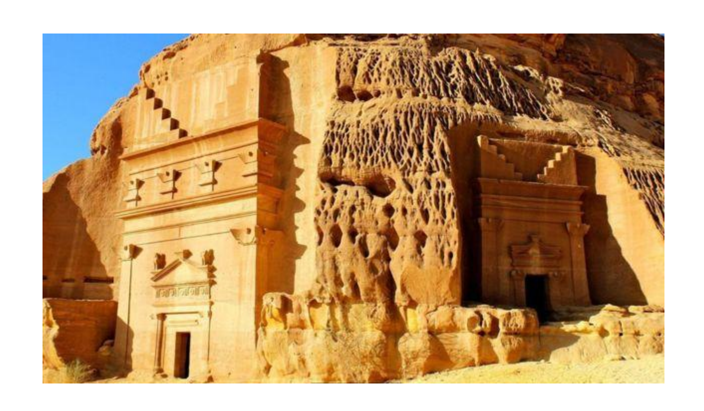
يتحدَّى الله تعالى في قرآنه من تناسوا الميثاق الذي قطعه عليهم منذ أخذهم من ظهر أبيهم آدم، بإظهار من القدرة والسلطان ما يتفرَّد به سبحانه عن غيره، فقال "**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** (٣٣)" (سورة الرحمن)، واتَّفقت آراء المفسِّرين على أنَّ المقصود بتلك الآية تحدِّي الله تعالى خَلْقه من الجن والأنس أن يفلتوا من قَدَره، أو يتجاوزا سُلطانه، وإن اختلفت حول إذا كان ذلك في الحياة الدنيا، أم عند الموت، أم يوم القيامة. لا يريد الله من عباده سوى الإقرار بالوحدانيَّة، والعمل الصالح، وشكر النعمة، والصبر عند البلاء، وعدم الافتتان بـ "**مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**" الزائل؛ لأنَّ مهما "**أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَت**"، ومهما اغترَّ أهلها بقوَّتهم وظنُّوا "**أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا**"، وعصوا ربَّهم وتناسوا ميثاقه معهم، فالله قادر على أن يجعل الأرض وما عمروه فيها "**حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**" بسبب كفرهم. وتذكيرًا بمعنى كلمة "كفر" في المعاجم العربيَّة، فهو كتم الشيء، وتغطيته، ومنها هذا المعنى اشتُقَّت كلمة Cover في الإنجليزيَّة، وCouvrir في الفرنسيَّة؛ والكتم في هذه الحالة هو لميثاق الله تعالى مع بني آدم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وألَّا يدَّعوا يوم القيامة أنَّهم اتَّبعوا آباءهم في ضلالهم عن الحقِّ، كما ورد في الآيتين ١٧٢

و١٧٣ من سورة الأعراف. وتعبِّر الآيات التالية من سورة يونس عن هذا المعنى بمنتهى الوضوح: "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ **دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم **مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى **إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَت وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ** كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٢٥) (سورة يونس).

ومن إعجاز الله تعالى في قرآنه الكريم أن أشار إلى تقلُّب الذين كفروا، وتناسوا ميثاقه معهم، في البلاد، وتكثر الآيات التي تناولت إهلاك الله للكافرين ممن غرَّتهم الحياة الدنيا واطمأنوا بها، بل وتتكرَّر قصص تلك الأقوام في القرآن، ويُعاد سردها بتفاصيل جديدة في كلِّ مرَّة. ومن أكثر الآيات التي تتناول عاقبة أقوام اغترَّت بالقوَّة والمنعة والسيطرة على مصادر الطاقة اللازمة لتكوين حضارات والارتقاء بأحوال المعيشة الدنيويَّة، ما ورد في **سورة الرُّوم** "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا **كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن **كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** (١٠) **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ **السَّاعَةُ** يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) **وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ** (١٣)". سبقت الإشارة في استعراض أهم ما جاء في كتاب **هلاك ودمار أمريكا في الكُتُب السماويَّة** (٢٠١٢) للكاتب هشام كمال عبد الحميد، إلى تشبيه الكاتب للولايات المتَّحدة في حضارتها الحاليَّة وما توصَّلت إليه في التمدُّن والتحديث، بقوم عاد، الذي بُعث فيهم نبي الله هود، فعصوه وأصرُّوا على الكفر وكتم

حقيقة عبوديَّتهم لربِّهم؛ وكان التقدُّم الحضاري السبب الأكبر وراء ذلك الكِبر والعناد في مواجهة الدعوة إلى سبيل ربِّهم. اعتبر عبد الحميد، كما ذُكر آنفًا، أنَّ أمريكا هي "عادٌ الثَّانيَةُ"، مستدلًّا على ذلك من قوله تعالى في الآية ٥٠ من سورة النجم "**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى**". وبعد إيضاح أهم مواطن التشابه بين حضارتي قوم عادٍ وأمريكا، وأسباب غطرسة قوم عادٍ المتسبِّبة في نهايتهم المأساويَّة، تجدر الإشارة إلى قصَّة أخرى من قصص القرآن الكريم، تناولت صراع الحضارة مع الإيمان، وتألُّه الخَلْق على خالقهم، والتنكيل بالمؤمنين لإجبارهم على اتِّباع سبيل الكُفر.

تحدَّى الله تعالى المكذِّبين بآياته بأن ترك من آثار الأمم الهالكة بسبب آثامها ما يحضُّ على أخذ العبرة والعظة ممَّا حلَّ بغيرهم، فقال في سورة غافر "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ **فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** (٨٢)". ومن بين الأمم الهالكة التي حدَّثنا عنها القرآن، وأثارها لم تزل على أعين النَّاس ثمود، قوم رسول الله صالح، أو أصحاب الحجر، الذين نزلت بشأنهم سورة من سور القرآن تحمل اسمهم، وتذكِّر بنهايتهم المأساويَّة. تقول سورة الحِجر عن قصَّة قوم صالح "وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ** (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)". تعدَّدت أنعُم الله تعالى على قوم صالح، ومن بينها الأمان والسِّلم، وتوافر كافَّة احتياجات المعيشة، بل ووصل الأمر إلى حدِّ الرفاهية ببناء البيوت في الجبال، كما يخبرنا جانب القصَّة في سورة الشعراء "أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا **آمِنِينَ** (١٤٦) فِي **جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** (١٤٧) **وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ **بُيُوتًا فَارِهِينَ** (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)".



صورة ٧٤–مدائن صالح

كفرًا بأنعُم الله، ونزولًا على رأي المفسدين–حيث كان بينهم "وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ **تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ**" (سورة النَّمل: آية ٤٨) –كذَّب أصحاب الحِجر رسول الله إليهم، ورفضوا الخضوع لأمر الله بالتقوى والصلاح، "إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ **أَلَا تَتَّقُونَ** (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** (١٤٤)" (سورة الشعراء). ونلاحظ من قول الله تعالى، على لسان رسوله صالح، "**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**" أمرين: الأوَّل معرفة أصحاب الحِجر اللهَ عزَّ وجلَّ، وتناسيهم ميثاقه معهم، وانشغالهم بمتاع الدنيا عن اجتناب المحرَّمات؛ أمَّا الثاني، فهو معرفة هؤلاء الخطأ والصَّواب، وإلَّا لما قال لهم "**أَلَا تَتَّقُونَ**". ونتيجة التكذيب والامتناع عن تقوى الله أن همَّ أحد اللهاة المفسدين بذبح النَّاقة، التي جعلها الله آيةً للمنعَّمين من قوم صالح "إِذِ **انبَعَثَ أَشْقَاهَا** (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤)" (سورة الشَّمس). وبرغم أنَّ التفسير الشائع لمقصود الله من قوله تعالى "**أَشْقَاهَا**" هو الإشارة إلى أشقى أهل قبيلة ثمود، كما يوضح الحديث في صحيح البخاري، أنَّ رسول الله (ﷺ) قال أنَّ المقصود "**انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه**، مثل أبي زمعة"، فهناك افتراض أنَّ المقصود هو أشقى أهل الأرض، كما يروي حديث يُنسب للرسول (ﷺ) مع عليٍّ–كرَّم الله وجهه–يقول " ألا أحدثك بأشقى الناس؟ " قال: بلى، قال: "رجلان؛ **أحيمر ثمود الذي عقر الناقة**، والذي يضربك يا علي على هذا–يعني قرنه". وأيَّما كان التفسير الأصح للمقصود من قوله تعالى "**أَشْقَاهَا**"، فمن

المؤكَّد أنَّ عاقبة السكوت عن الإفساد وعدم إنكار المنكر تكون وخيمة، ليس على المفسد وحده، إنَّما على كلِّ من سايروه وتعاونوا معه.

نبأ موسى وفرعون: صدام الدُّعاة إلى سبيل الله مع دُعاة الحداثة والمدنيَّة

تختلف قصَّة رسول الله موسى مع فرعون عن قصص الرُّسُل الآخرين، التي يسرد القرآن الكريم عن عنادهم وكفرهم، مثل قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، في أنَّ الله تعالى قد اختصَّ ببعثة الرسول ودعوته إلى سبيل الله الحاكم والبطانة التي تعينه في بطشه، دون الرعيَّة، كما اختصَّ الحاكم الظالم وبطانته بالهلاك. الله تعالى يقول "ثُمَّ **بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى** بِآيَاتِنَا **إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ** فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)" (سورة الأعراف). وتتميَّز دعوة رسول الله موسى لفرعون وملئه بتكليف الله معاونًا له في دعوته، بناءً على طلبه "**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي** (٢٩) **هَارُونَ أَخِي** (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)" (سورة طه)، وإن لم تكن الحادثة الوحيدة، التي قصَّها القرآن عن بعثة أكثر من رسول إلى نفس القوم المعاندين، مصداقًا لقوله تعالى في سورة يَس "وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ **اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ** فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)". ويُعتبر "نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ" أكثر قصَّة تكررت في القرآن الكريم؛ إذ ذُكرت، سواءً اختصارًا أو تفصيلًا، في ٢٠ سورة، هي البقرة، والنِّساء، والأعراف، ويونس، وهود، وإبراهيم، والإسراء، وطه، والمؤمنون، والفرقان، والشُّعراء، والنَّمل، والقصص، والعنكبوت، وغافر، والزُّخرف، والدخان، والذَّريات، والقمر، والنَّازعات.

لعلَّ أهم الشخصيَّات المؤثِّرة في أحداث قصَّة موسى وفرعون، إلى جانب الفاعلين الأساسيين، موسى وهارون، وخصمهما، فرعون، نجد ملأ فرعون، وخاصَّة هامان وقارون، وبني إسرائيل، وسَحَرة فرعون. ويشهد سرد جانب القصَّة في سورة القصص مشاركة العديد من الشخصيَّات الهامَّة، التي قد لا تظهر في جوانب القصَّة المذكورة في السور الأخرى، ومن بينها أمُّ موسى وأخته، وامرأة فرعون، ورجل ينصح موسى بالهرب؛ ليتفادى مؤامرة ملأ فرعون، بعد أن قتل موسى رجلًا منهم قوم فرعون بالخطأ، ويُعتقد أنَّ

هذا الرجل هو ذاته الرجل المؤمن من قوم فرعون المذكور في سورة غافر (آيات ٢٧-٤٥)، الذي واجه فرعون وقومه بحقيقة فساد عقيدتهم، وكفرهم بآيات ربِّهم، وكتمانهم الحقَّ برغم معرفته.

يحدِّد الله تعالى في سورة الزُّخرف من استهدفتهم دعوة رسول الله موسى وأخيه هارون "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَى **فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ** فَقَالُوا **سَاحِرٌ كَذَّابٌ** (٢٤)". ويوضح جانب القصَّة في سورة طه بداية دعوة رسولي ربِّ العالمين، موسى وهارون، فرعون إلى الإيمان بالله "اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي **وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** (٤٢) اذْهَبَا إِلَى **فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** (٤٣) فَقُولَا لَهُ **قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا **إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ** فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ **بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى** (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا **أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى** (٤٨)". بعث الله تعالى موسى وهارون إلى قومٍ آمنوا بعقيدة باطنيَّة، تعتمد على طقوس السمو الروحاني وتنزُّل الحكمة على صفوة من الخَلْق؛ فطبَّقوا تعاليمها، وحقَّقوا بذلك وفرة ماديَّة عظيمة، أغرتهم بالشعور بالاستغناء عن خالق الكون ومدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم؛ فصدَّهم عن السبيل، وتناسوا الميثاق الذي أخذه منهن ربُّهم (سورة الأعراف: الآية ١٧٢). لذلك، أمر الله تعالى رسوليه بأن يوجِّها إلى فرعون خطابًا ليِّن القول، أملًا في أن "**يَتَذَكَّرُ** " ميثاق ربِّه أو "**يَخْشَى**" عذابه؛ لأنَّ "**الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى**". وفق الأمر الإلهي، قدَّم موسى وهارون نفسيهما إلى فرعون، قائلين "**إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ**"؛ لتذكير فرعون بميثاق ربِّه بعبادته وحده بلا ندٍّ ولا شريك؛ فيتَّقي عذاب من أسرف ولم يرد إلَّا متاع الحياة الدنيا.

تناولت الدراسة بعنوان **القبَّالة اليهوديَّة وديانة بابل السريَّة** قصَّة موسى مع سَحَرة فرعون بالتفصيل، ولعَّل أهم ما خرج به تحليل الآيات التالية للقصَّة، في سور الأعراف ويونس وطه والشعراء، تغلغُل الإيمان بالخوارق والقوى الكونيَّة الخفيَّة في المجتمع المصري حينها، واستغلال عتاة السَّحَرة ذلك الضعف في المصريين من خلال ترديد

تعاويذ وتمائم لاستحضار الشياطين تقوم على الشِّرك بالله، كما يوضح قوله تعالى "فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا **بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ**" (سورة الشعراء: الآية ٤٤). واعتمدت تعاويذ السَّحرة كذلك على أقوى وحدة صوتيَّة في ديانات الشرق الأدنى، الموجود على العديد من الإشارات المسماريَّة، وهي /هوه/، وهو صوت مزماري يُعتقد في تأثيره في إحداث خوارق من خلال تحريك الهواء من لسان المزمار. وسبقت الإشارة كذلك إلى أنَّ تصوير ردِّ فِعل السَّحرة في سورة طه (الآية ٧٠) "فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ **سُجَّدًا** قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ **هَارُونَ** ومُوسَى"، يتمثَّل في التعبير عن سجود السَّحرة بقوله تعالى "**سُجَّدًا**"، وتقديم "**هَارُونَ**" على "مُوسَى" في الشهادة بالربوبيَّة لربِّهما؛ وتفسير ذلك هو أنَّ كلمة "**سُجَّدًا**" تشير إلى سجود التبجيل والاحترام، وليس العبادة، قياسًا على قوله تعالى في الآية ١٠٠ من سورة يوسف "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ **سُجَّدًا**". ويعني ذلك اعتراف السَّحرة بعجز حيلهم أمام القدرة الخارقة التي أبداها موسى، مستغلًّا حرف الهاء في مختلف حركاته؛ ولذلك قدَّموا "**هَارُونَ**" عليه. وتناولت دراسة **القبَّالة** كذلك مسألة العلوم السريَّة التي احترفها قدماء المصريين، ومن بينها التحنيط، المشار إليه في الآية ٩٢ من سورة يونس "فَالْيَوْمَ **نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ"، كما تناولت تباهي فرعون بسيطرته على مصادر الطَّاقة الأربعة، الماء والهواء والتراب والنَّار، كما يتَّضح في قول الله تعالى عن لسانه "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إله** غَيْرِي **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ** فَاجْعَل لِّي صَرْحًا **لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إله مُوسى** وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِين" (سورة القصص: الآية ٣٨).

ولأنَّ قوم فرعون آمنوا بعقيدة القبَّالة، تحدَّاهم الله تعالى على يد رسوله موسى "**بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ**" فيما إن رأوه من معجزات في تسخير القوى الكونيَّة الخفيَّة آمنوا. ودخل فرعون مع رسولي ربِّه في حوار ظاهره الاستفسار عن هويِّة ربِّهما، وباطنه التكذيب والاستعلاء، كما ترينا الآيات التالية في سورة طه "قَالَ **فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى** (٤٩) قَالَ **رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** (٥٠) قَالَ **فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى** (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ**

فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ **آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى** (٥٦)". ردًّا على سؤال موسى عن ربِّ موسى وهارون، ناسيًا ميثاق ربِّه ومنغمسًا في ضلاله، سأل فرعون "**فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**". اتَّفق الكثير من المفسِّرين، بما فيهم إمام الدعاة الشيخ محمَّد متولي الشعراوي، على أنَّ سبب طرح فرعون هذا السؤال هو رغبة فرعون في تغيير مسار الحديث وإلهاء الرسولين بسؤال يعجزهما عن الرّد. في حين يأتي الدكتور زغلول النجَّار في إيضاحه تفسيرهِ حوار موسى وفرعون في سورة طه، ضمن تفسيره الإعجاز العلمي في القرآن في سلسلة حلقات أذاعتها قناة رسالة الفضائيَّة، بتفسير مخالف للتفسير الشائع. أراد فرعون أن يثبت لموسى أنَّ الإنسان إذا هلك وصار ترابًا، فلا سبيل لإحيائه من جديد لمحاسبته، ودليله زوال أهل "**الْقُرُونِ الْأُولَى**" بما فعلوه؛ ومن ثمَّ فلا داعي لخشية العذاب الذي توعَّد به موسى وهارون لمن كذَّب وتولَّى، كما أوضحت من قبل الآية ٤٨ " إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا **أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى**".

عن تفسير قوله تعالى عن وصفه قدراته التي تفرَّد بها في تسخير الكون لعباده "**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى** (٥٤)"، يوضح النجَّار أنَّ الأرض بدأ بتضاريس معقَّدة للغاية، ثمَّ سخَّر الله تعالى عوامل التعرية من الرياح والمياه والجليد، تجري في قمم الجبال، وترمي في المنخفضات، فتتكوَّن السهول والوديان والأنهار والبحيرات، وأصبحت الأرض بذلك أكثر ملاءمة لحياة الإنسان والحيوان. يقول النجَّار "لو بذلت الأرض ثمن هذه الطاقة، التي بُذلت من أجل تسوية سطح الأرض وتهيئته للحياة، ما كانت كلُّ أموال الأرض كافية لذلك؛ فهي نعمة من نعم الله يمنُّ بها علينا". تتم دورة الماء حول الأرض، على حدِّ وصف النجَّار، بإعجاز كامل "يشهد للخالق سبحانه وتعالى بالربوبيَّة والألوهيَّة...والوحدانيَّة المُطلقة فوق جميع خَلْقه"، فهو وحده القادر على تسخير الشمس لتبخِّر الماء من المسطَّحات المائيَّة، ومن تنفُّس

الإنسان والحيوان والنبات؛ وبعد صعود تلك الأبخرة إلى السماء، فتجد طبقة باردة، فتتكثَّف، وتبقى قطيرات "فائقة الدقَّة"، لا يمكن أن تنزل إلى الأرض بفعل الجاذبيَّة الأرضيَّة؛ فيرسل الله الرياح بمزيد من مقوِّمات التكثُّف؛ ومن ثمَّ تزداد كثافة المياه، وحينها يمكن للجاذبيَّة أن تشدَّ المياه إلى أسفل، في صورة مطر. "**ولا يقوم بذلك أحدٌ إلَّا الله سبحانه تعالى**"، المتفرِّد بالوحدانيَّة المطلقة، بينما خَلَق الإنسان والحيوان والجماد في أزواج، وحتّى النبات "**فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى**". وتأتي الآية التالية "**كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (٥٤)**" لتُجمل نعمة الله على عباده، بأن سخَّر لهم سُبل الحياة في آيات تثبت قدرته الفائقة، وتستوجب الإقرار له بالوحدانيَّة من أصحاب العقول الناهية عن الزيغ والتكبُّر والعلو في الأرض، "**أُولِي النُّهَى**". تحدَّى فرعون موسى بهلاك أهل "**الْقُرُونِ الْأُولَى**"، وعدم إمكانيَّة تعريضه للعذاب بعد فناء أجسامهم، وهو تحدٍّ نبع من إيمانه بخلود الرُّوح، التي فاضت عن الخالق وتعود إليه، ومن ثمَّ لا يمكن للخالق أن يعذِّب ما هو جزءٌ منه. ومن هنا، يأتي رد الله تعالى "**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)**"، الذي خَلَق آدم من تراب، وأخرج ذريَّته من ظهره، ثم خَلَقهم في بطون أمَّهاتهم، ثمَّ أخرجهم منها ليتغذُّوا على نبات الأرض، وعلى المياه الجارية في وديانها، وعلى الحيوانات التي تعيش على نفس النبات والمياه، ثمَّ يميته، ويُفني أجسادهم في التراب-إلَّا الصالحين من خَلْقه-ثم يبعثهم ليحاسبهم يوم القيامة. ويصدق في المتكبِّرين المكذِّبين من أمثال فرعون، المتباهين بعظيم عملهم، وهو في الأصل مما سخَّره الله لهم، قوله تعالي في سورة الأنعام "وَلَقَدْ **جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ** وَمَا نَرَى مَعَكُمْ **شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ** لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ **وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)**".

تزيد هذه الدراسة عن قصَّة موسى وفرعون من إيضاح طبيعة العقيدة المحرِّكة لفِكر فرعون، والمؤثِّرة في تصرُّفاته، وهي القبَّالة، بمزيد من البراهين. يؤكِّد ادِّعاء فرعون الألوهيَّة "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إله غيري**" (سورة القصص: الآية

٣٨) إيمانه الخالص بعقيدتي الحلول والاتِّحاد، اللتين شكَّلتا المذهب الشيعي، والديانتين اليهوديَّة والمسيحيَّة من قبل، والنابعتين من الفلسفة الغنوصيَّة. وتذكيرًا بالغنوصيَّة، فهي رؤية جديدة للأفلاطونيَّة، تعتقد في وجود معرفة روحانيَّة تتكوَّن بين الخالق والمخلوق، من خلال رياضة روحانيَّة في أوقات من التأمُّل، يتلقَّى فيها المتأمِّل الحكمة الإلهيَّة، وهذا يحتاج إلى سمو روحاني لا يمتَّع به سوى فئة قليلة من البشر. من الواضح أنَّ فرعون اعتقد في تلبُّس الرُّوح القُدُس بجسده، والتحامه به؛ فأصبح بذلك يتمتَّع بصفات الألوهيَّة، وتحدَّى عجزه البشري، متسلِّحًا بالتقدم العلمي في زمنه، بأن طلب من معاونه استغلال مصادر الطاقة الأربعة في بناء ناطحة سحاب تُطلعه على إله السَّماء "**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ** فَاجْعَل لِّي صَرْحًا **لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إله مُوسى**". وتعيد سورة غافر سرد هذا الموقف بمزيد من التفاصيل وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا **وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ** (٣٧)". تناسى فرعون ميثاق ربِّه، واستسلم للشيطان؛ ونتيجة ذلك أن "**زُيِّنَ سُوء عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ**"، لكنَّ الله يقف للظالمين بالمرصاد، إنَّما يملي لهم ليزدادوا إثمًا؛ فيردَّ كيدهم عليهم، "**وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ**". ويخبرنا جانب القصَّة في **سورة الزُّخرف** أنَّ الله أرسل على فرعون وقومه آيات مدرعة، وما أرسلها إلَّا تخويفًا؛ لعَّلهم يتَّقون، لكنَّهم أصرُّوا على عنادهم "وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) **وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠)**". يشير قوله تعالى "**ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ**" إلى تذكُّر قوم فرعون ميثاق ربِّهم، وتوسُّلهم به في سبيل رفع الضرِّ عنهم، ثمَّ نكوثهم بعد أن قُضيت حاجتهم ويتطابق ذلك مع قوله تعالى "وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا **رَبَّهُ** مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ **نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا** لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ **النَّارِ**" (سورة الزمر: الآية ٨).

عودةً إلى سورة الزخرف، فإنَّ النكوث والحنث بالوعد كانا شيمة فرعون وقومه، كما تخبرنا الآية ٥١ "وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي** أَفَلَا تُبْصِرُونَ". عاد فرعون إلى التباهي بالقوَّة والهيمنة، واختار هذه المرَّة الإشارة إلى سيطرته على مصادر المياه العذبة، التي خَلَق الله منها كلَّ شيء حيٍّ. والمتأمِّل في قوله تعالى "**وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي**"، يجد أنَّ المقصود سريان الماء في تدفُّق منتظم لا يُحدث فيضانًا. وتقول مجلة ناشيونال جيوغرافيك الأمريكيَّة، المتخصِّصة في الشؤون الجغرافيَّة ودراسة الظواهر الطبيعيَّة، أنَّ الفيضانات أكثر الكوارث الطبيعيَّة شيوعًا وتدميرًا، وهي تحدث عندما تغمر المياه الأراضي الجافَّة في تدفُّق شديد يخرج عن السيطرة؛ نتيجة السيول، أو دمار سدود الأنهار، أو الذوبان السريع للثلوج أعلى الجبال. وتقول ناشيونال جيوغرافيك أنَّ للفيضانات تأثيرات تدميريَّة على البُنى التحتيَّة، مشيرةً إلى أنَّ خسائر الولايات المتَّحدة الماديَّة نتيجة الفيضانات كلَّ عام تصل إلى ٦ مليارات دولار، ويصل عدد ضحاياها من البشر إلى ١٤٠ شخصًا. ويشير تقرير لمنظَّمة التطوُّر والتعاون الاقتصادي لعام ٢٠٠٧ ميلاديًّا، إلى أن خسائر الفيضانات الساحليَّة على مستوى العالم تصل إلى كلَّ عام إلى ٣ تريليون (٣ آلاف مليار، أي ٣ ملايين مليون) دولار.

In the United States, where flood mitigation and prediction is advanced, floods do about $6 billion worth of damage and kill about 140 people every year. A 2007 report by the Organization for Economic Cooperation and Development found that coastal flooding alone does some $3 trillion in damage worldwide. In China's Yellow River valley, where some of the world's worst floods have occurred, millions of people have perished in floods during the last century.

وكان عاقبة فرعون بعد هذا التفاخُر الأجوف بقدرته البشريَّة أن أغرقه الله تعالى، كما تُكمل سورة الزخرف "فَلَمَّا آسَفُونَا **انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** (٥٥)". نال قوم فرعون نفس الجزاء، برغم أنَّهم لم يشاركوه القول، ولكنَّهم شاركوه الكبر والعناد، وشاع فيهم الفسق؛ لأنَّ فرعون "**اسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ** إِنَّهُمْ كَانُوا **قَوْمًا فَاسِقِينَ**" (سورة الزخرف: آية ٥٤). تعامل فرعون مع قومه من مبدأ "**مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا**

سَبِيلَ الرَّشَادِ" (سورة غافر: آية ٢٩)، فقد وصل به الغرور إلى حدِّ نفي أي عقيدة تتعارض مع عقيدته، ضاربًا عرض الحائط بتحذير رجل مؤمن من قومه، كتم إيمانه خشية البطش، في مطلع الآية ذاتها من سورة غافر "يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ **فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا**". يواصل الرجل المؤمن تحذيره، فبعد تذكيره قومَه بأنعم الله عليهم "**لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ**"، أخذ يذكِّرهم بمصير الأمم الكافرة السابقة عليهم "وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ** (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ** (٣١) وَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ **يَوْمَ التَّنَادِ** (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ **مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** (٣٣)" (سورة غافر). يوضح الرجل المؤمن أنَّ المخطئ هو المسؤول عن مصيره المأسوي في النهاية بسبب كُفره وعناده، "**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ**"، وهذا تعبِّر عنه الآية ١٠١ في سورة هود "**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**". وكما تذكِّر الآية في سورة غافر بزوال أسباب المنعة والغطرسة عندَ الحساب بين يدي الله "**فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا** (٢٩)"، تقدِّم الآية ١٠١ في سورة هود نفس المعنى بتعبير آخر "**فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ**"، بل وتضيف أنَّ عقوبة الشرك بالله تعالى جزاؤها مزيدًا من الإهلاك والتدمير "**وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**".

يعاود مؤمن آل فرعون دعوة قومه إلى طريق الهداية في سورة غافر، ويبيِّنه لهم "وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ **سَبِيلَ الرَّشَادِ** (٣٨) **يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ** (٣٩) **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** (٤٠) وَ يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى **النَّجَاةِ** وَتَدْعُونَنِي إِلَى **النَّارِ** (٤١) تَدْعُونَنِي **لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ** (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ **وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ**

النَّارِ (٤٣)". في عبارات بسيطة ومتناغمة، يوضح مؤمن آل فرعون أنَّ "**سَبِيلَ الرَّشَادِ**"، وكأنَّما يردُّ على كلِّ دعاة التحديث والتطوير، ممن ينبذون صحيح رسالة السماء، ويطالبون باستبدالها بعقيدة روحانيَّة، وهي نفسها العقيدة التي اتَّبعها قوم فرعون، وأوهمتهم بأنَّ الإيمان محلُّه القلب، ولا يحتاج إلى عبادات، وأنَّ الإنسان يمكنه الوصول إلى مرتبة الألوهيَّة. بدأ مؤمن آل فرعون بتذكير قومه " **إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ** "، فما الدافع إلى المبالغة في التعمير والتطاول في البناء وكنز الأموال والتباهي بالمناصب والدرجات العلميَّة، طالما "**إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**"؟ فيما يفيد الشرك بالله، إذا كانت "**النَّجَاة**" في الإقرار بالوحدانيَّة لله "**الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ**"، الذي من رحمته أنه يحاسب المسيء من عباده الخطَّائين بمثل ما يعمل "**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا**"، بينما يجزل العطاء للمُحسن، بشرط الإيمان "**وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**" (سورة غافر: الآية ٤٠)؛ **لأنَّ** "**الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**" (سورة العنكبوت: آية ٦٤). لم يتجاوز مؤمن آل فرعون في دعوة قومه إلى الإيمان بالله تعالى حدَّ النُّصح بالحكمة والموعظة الحسنة، بلا أيِّ استخدام للعنف أو إبداء أي انفعال، تاركًا الفصل بينه وبين قومه لله تعالى؛ لأنَّ مردَّهم جميعًا إلى خالقهم " لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ **وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**" (سورة غافر: الآية ٤٣). وعلى النقيض من هذه النبرة الهادئة، والموعظة النابعة من الحرص على نجاة قومه من النَّار، يأتي على لسان فرعون تهديد صريح بقتل رسول الله موسى، معتبرًا أنَّ دعوته إلى التوحيد، ونبذ متاع الدنيا في مقابل العمل من أجل دار القرار، نشر للفساد " وَقَالَ فِرْعَوْنُ **ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ** إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ **الْفَسَادَ**" (غافر: آية ٢٦).

ينتهي جانب قصَّة موسى وفرعون في سورة غافر بتوقُّف مؤمن آل فرعون عن مواصلة دعوة قومه إلى سبيل الله، مع تبيان مصيره إخلاصه في دعوته، ومصير المكذِّبين "**فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ

سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ **سُوءُ الْعَذَابِ** (٤٥) **النَّارُ** يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ **أَشَدَّ الْعَذَابِ** (٤٦) وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ **الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ **الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ** (٤٨)". كما دعا مؤمن آل فرعون قوة إلى **النَّجَاة**"، كان مصيره النجاة من "**سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا**"، وحاق بالماكرين "**سُوءُ الْعَذَابِ**". وتشير الآيات إلى أنَّ قوم فرعون تكوَّنوا من فئتين، هما "**الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**" و "**الضُّعَفَاءُ**"، وسبقت الإشارة في بداية جانب القصَّة في سورة غافر، إلى أنَّ رسولي الله موسى وهارون أُرسلا "إِلَى **فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ** فَقَالُوا **سَاحِرٌ كَذَّابٌ** (٢٤)". لم يصدر عن هامان أيُّ حديث فردي في القرآن الكريم، إنَّما اشترك مع فرعون وقومه في إبداء رأيهم في دعوة موسى وما جاءهم به من آيات تدحض إيمانهم بالقبَّالة، في إشارة إلى تبعيَّته لفرعون، وعدم معارضته في أيِّ رأي، فقد كان ساعده الأيمن، ومعاونه في كلِّ أفعاله؛ فظلَّ كالخادم المطيع الصامت، الموافق لسيِّده في كلِّ ما يعمل، ويصدق فيه قول الله في الآية ٥٤ من سورة الزُّخرف عن فرعون "**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ** إِنَّهُمْ كَانُوا **قَوْمًا فَاسِقِينَ**". آمن آل فرعون بالله تعالى ونطقوا باسمه لمَّا رأوا عذاب النَّار "قَالَ **الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ**" (سورة غافر: الآية ٤٨)، الذي استهزءوا به، لمَّا اتَّبعوا أمر فرعون عند استخفافه بدعوة موسى "**فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**" (سورة طه: الآية ٥١). لا يجرؤ أهل النَّار –ومن بينهم فرعون وقومه وكلُّ طغاة الأرض ممن تبعوا نهجهم–على النُّطق على مناداة الله بـ "ربَّنا"، المُسمَّى الذي حدَّد علاقته بهم لمَّا أخذهم من ظهر أبيهم آدم (سورة الأعراف: الآية ١٧٢)، إلَّا يوم الحسرة بعد أن يروا العذاب، أملًا في أن يعيد الله عهده معهم؛ فيُخرجهم من النَّار ليعملوا صالحًا ويتَّقوا العذاب الأبدي "وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا** غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ** فَذُوقُوا **فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**" (سورة فاطر: الآية ٣٧)، وجاء ردٌّ مباشر من الله على دعاء الكافرين في النار، وهو "**قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**" (سورة المؤمنون: الآية ١٠٨). ولإدراكهم مدى تأثير مخاطبة الله بتذكيره بعهده مع الشاهدين له بالربوبيَّة، ينادي أهل النَّار خزنة جهنَّم ليتوسَّطوا لهم

عن ربهم ليفنيهم فيتخلَّصوا من العذاب أبدًا "وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا **رَبُّكَ** قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)" (سورة الزُّخرف)، أو حتَّى ليخفف عنهم عقابهم الأبدي "**وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ** لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا **رَبَّكُمْ** يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)" (سورة فاطر).

نال هامان نصيب من إهلاك قوم فرعون، والملفت أنَّه برغم تقديم فرعون عليه وعلى قارون في دعوة موسى وهارون، كما تشير الآية ٢٤ في سورة غافر "إِلَى **فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ**"، إلَّا أنَّ قارونَ قد قُدِّم على فرعون وهامان في العذاب والإهلاك، كما نرى في قول الله تعالى في سورة العنكبوت عن الأقوام المستكبرة التي أهلكها لمَّا عصت رُسُلها "**وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ** وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)". ترد تفاصيل قصَّة قارون في سورة القصص، في آيات (٧٦–٨٢) تبيِّن انتماءه العقائدي، وطبيعة معاونته لفرعون، وجزاءه على فعله "**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ** وَآتَيْنَاهُ **مِنَ الْكُنُوزِ** مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ **لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** (٧٦) **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** (٧٧). ينتمي قارون إلى بني إسرائيل، ورثة كتاب الله وحملة رسالة التوحيد، التي جاء بها أبُّ الأنبياء إبراهيم؛ فهم أحفاد نبي الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، وبُعث منهم نبي الله يوسف، واصطفى من بينهم رسوليه موسى وهارون. ومع انتماء قارون إلى "**قَوْمِ مُوسَى**"، فقد "**بَغَى عَلَيْهِمْ**"، وانسلخ عن انتمائه القبلي، وانضمَّ إلى "فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ"، متناسيًا المبدأ الأساسي الذي تركه أجداده من الأنبياء، هو عبادة الله وحده وعدم الانخداع بمتاع الدنيا، على عكس نُصح المؤمنين من قومه "**لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**"؛ فانصبَّ جهده على جمع المال "وَآتَيْنَاهُ **مِنَ الْكُنُوزِ** مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ". متناسيًا أنَّه "أُوتي" المال واستُخلف فيه، وإن كان قد جمعه من خلال التواطؤ مع فرعون، الذي أخبرنا مطلع سورة القصص أنَّه كان "يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً

مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)"، ضدَّ قومه، رفض قارون الإحسان إلى المقهورين من بني إسرائيل ممن تبعوا موسى. لم يتوقَّف الأمر عند موالاة الحاكم الظالم، مدَّعي الألوهيَّة، والمؤمن بعقيدة باطنيَّة تقوم على تسخير الشياطين بعد التقرُّب إليهم، بل تعدَّى ذلك إلى حدِّ اتِّباع ملَّة قوم فرعون، الكافرة بالآخرة، والمنكبَّة على متاع الدنيا؛ ولذلك نصحه قومه "**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**"، أي اعمل لآخرتك كما تعمل لدنياك، ولا تعمل من محبطات الأعمال ما يودي بك إلى النَّار "**وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ**". آمن قارون بعقيدة قوم فرعون، وصدق فيه معه قول الله تعالى في سورة الجاثية "أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ **إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً** فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا **مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)".

يكشف باقي آيات قصَّة قارون في سورة القصص مزيدًا من التفاصيل "قَالَ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي** أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ **اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا** وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ **الْمُجْرِمُونَ** (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ **الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ **إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** (٧٩) وَقَالَ **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** وَيْلَكُمْ **ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ** (٨٠) **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ** فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ **وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** (٨٢)". جاء ردُّ قارون في القرآن الكريم بعبارة واحدة، هي "**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**"، وهي عبارة تتضمَّن اعترافين هامَّين، الأوَّل أنَّ قارون أوتي المال من قِبل طرف خارجي، ولم يكتسبه من تلقاء نفسه "**أُوتِيتُهُ**"، والثاني أنَّه اكتسب ماله بفضل قدرات خاصَّة لم يفصح عن طبيعتها، يخبر عنها قوله "**عِلْمٍ عِندِي**"، وتكشف هذه السريَّة في

الإشارة إلى هذا العلم إلى كونه **علمًا باطنيًّا**، أعان به فرعون وقومه على نشر "**الْفَسَاد فِي الأَرْضِ**".

انقسم قوم موسى في موقفهم من ابن عمومتهم، المتنعِّم في متاع الدنيا وزينتها، ما بين "**الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**" و "**الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**"، وإن اشتركوا في الإيمان بأنَّ موسى هو مخلِّصهم من بطش فرعون. وكان "**الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**" هم الأقوى حُجَّةً بأن فطنوا إلى أنَّ خير العمل عمل الآخرة، وأنَّ متاع الآخرة هو خير متاع، فقالوا للمنبهرين بمتاع الدنيا "**وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**"، وهم يقصدون الجنَّة، وصدَّق على ذلك التعقيب القرآني "**وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**". عاقب الله قارون، المتجبِّر على النَّاس بقوَّته وماله ونفوذه، على استكباره وفساده "**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ**"، فكان هلاكه آية للذين "تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ"، فأدركوا أنَّ "**اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ** "، أي يبتلي بالحسنات والسيِّئات ليرى صنيع عبده، وهو أعلم به، لكي يُحاسب العبد بحسب عمله، ولا يُظلم فتيلًا. وكانت أعظم قيمتين خرج بهما بنو إسرائيل من قصَّة هارون أنَّ أعظم ثواب هو الفوز بالجنَّة "**وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**"، وأنَّ الله يبتلي بالتضييق في الرِّزق، وأنَّه "**لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**"، الذين يتَّبعون سبيل الشيطان للتخلُّص من ضيق العيش والتنعُّم بمتاع زائل.

هَلَك قارون، وكما قوَّى هلاكه من أهميَّة الصبر لدى بني إسرائيل، كان هلاكه نذير شؤم على قوم فرعون، وكأنَّما بعد زواله وانتهاء ممارسته عِلمَه الباطني، الذي سبقه إيمان السَّحرة بالله، انفرطت حبَّات العقد في يد قوم فرعون، "**فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**" (سورة النَّحل: آية ٢٦). وتخبرنا الآيتان (١٣٦-١٣٧) من سورة الأعراف عن كيفيَّة هلاك قوم فرعون "فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ **فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ** بِأَنَّهُمْ **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** (١٣٦)"، ونال بنو إسرائيل مكافأة صبرهم بأن سهَّل الله خروجهم من مصر بعد أن اتَّعظوا من مصير قارون، المفسد المنكب على متاع الدنيا والكافر بالآخرة، " وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى**

بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)". وتصف الآيات (٩٠–٩٢) من سورة يونس هلاك فرعون، بمزيد من التفاصيل "وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ **نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)". ويشير الدكتور زغلول النجَّار في تحليله الإعجاز العلمي في الآية ٩٢ من سورة يونس، توصَّل فريق من الباحثين الفرنسيين، من بينهم الطبيب والكاتب الشهير موريس بوكاي، إلى أدلَّة تُثبت أنَّ رمسيس الثاني هو فرعون الخروج، بعد فحص المومياء في فرنسا لمعالجتها؛ لأنَّه مات غريقًا، على أغلب الظن، كما نشر النجَّار على موقعه الإلكتروني.

ويقول رب العالمين ـ سبحانه وتعالي:- **ï´؟ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ï´¾** (يونس:90 ـ92).

وفي سنة1977 م أغري دهاقنة الحركة الصهيونية العالمية الإدارة المصرية بإخراج بعض آثار قدماء المصريين لعرضها في متاحف العالم.

وقد رأيت بنفسي طوابير المصطفين أمام أحد تلك المتاحف في مدينة لوس أنجيليس من قبل صلاة الفجر حاملين مظلاتهم تحت وابل الأمطار حتى يلحقوا فرصة لمشاهدة تلك الآثار النادرة. ونتيجة لذلك تعرضت بعض المومياءات لرطوبة الجو التي أدت إلي تعفن أجزاء منها, وكان من المومياءات التي تعرضت لشئ من التعفن مومياء الفرعون مرنبتاح الأول فأرسل إلي فرنسا للعلاج في أواخر الثمانينات من القرن العشرين, واستقبل الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران ووزراؤه وكبار موظفيه تلك المومياء استقبالا ملكيا ثم قدم لمحاكمة هزلية علي التلفاز الفرنسي حاكتها الحركة الصهيونية العالمية, وأتي له بالمحامين والقضاة والمدعين العامين في مسرحية رخيصة لمحاكمة ميت منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

وبعد هذه المحاكمة الهزلية تم نقل المومياء إلي جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي لعلاج ما أصابها من العفن واستكشاف شئ من أسرارها الكثيرة. وكان من بين الدارسين والمعالجين لتلك المومياء الطبيب الفرنسي الشهير موريس بوكاي **(Maurice Bucaille)**. وقد فوجئ دكتور بوكاي وزملاؤه عند فك أربطة المومياء باليد اليسري لهذا الجسد المحنط تندفع فجأة إلي الأمام, وفهم من ذلك أن المحنطين كانوا قد أجبروا تلك اليد علي الانضمام إلي الصدر عنوة, كما ظهرت بقايا ملحية عديدة علي جسد المومياء, وتبين أن عظام المومياء مكسورة في أكثر من موضع بدون تمزق الجلد, واستنتج الدارسون من تلك الملاحظات أن صاحب تلك المومياء لابد وأنه مات غارقا في بحر مالح, وأن تكسر عظامه دون تمزق الجلد مرده إلي قوة ضغط الماء علي جسده بعد غرقه, وأن أمواج البحر ألقت بجثته علي الشاطئ بعد غرقه مباشرة, أو أن فريقا من الغواصين قد استخرجها بعد واقعة الغرق في الحال.

وفسرت الوضعية الغريبة ليد المومياء اليسرى بتشنجها لحظة الغرق وهو يدفع الماء بدرعه التي كان يحملها بها, بينما كان يحمل لجام فرسه أو سيفه باليد اليمني, فتيبست اليد اليسرى علي هذا الوضع واستحالت عودتها إلي سيرتها الأولي.

يُذكر أنَّ موريس بوكاي قد اعتنق الإسلام بعد هذه الواقعة، وألَّف كتابه الشهير **The Bible, the Quran and Science– التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث** (١٩٩٩)، الذي تُرجم إلى سبع عشرة لغة، منها العربيَّة، وفق موسوعة ويكيبيديا الرقميَّة.

نَدُر الحديث عن الآخرة، وبخاصَّة عن العذاب والوعيد بالإهلاك للقوم الكافرين، في العهد القديم. نقلًا عن موقع St. Takla التبشيري، في ردِّه على التساؤل (١٥٥٦) عن "عقيدة البعث والدينونة والجنَّة والنَّار" فقد رأى الدكتور مصطفى محمود، المفكِّر الإسلامي الشهير، في كتابه **التَّوراة** (١٩٧٢) أنَّ النعيم الدنيوي والفوري هو دائمًا الجزاء في التوراة، "لا ذكر لبعث وجنة ونار وحساب وآخرة... والجنة التي تَعِد بها التوراة هي نعمة دنيويَّة" (ص٢٧–٢٨).

1556- هل خلا العهد القديم مِن عقيدة البعث والدينونة والجنة والنار؟

يقول " **د. مصطفى محمود**": "ودائمًا مكافأة الله لعباده وعقابه لهم يكون فوريًا ودنيويًا... لا ذكر لبعث وجنة ونار وحساب وآخرة، ولك ما تقوله التوراة حينما يضطجع أنبياؤهم ليموتوا أنهم يذهبون إلى أرض "شول" التي لا رجعة منها... والجنة التي تَعِد بها التوراة هي نعمة دنيوية " يبارك الرب ثمرة بطنك وثمرة أرضك... قمحك وخمرك وزيتك ونتاج بقرك وإناث غنمك... يعطيك قوة لتصطنع ثروة... يجعلك الرب رأسًا لا ذنبًا... يعطيك أرضًا تفيض لبنًا وعسلًا... يطيل أيامك. كل مكان تدوسه أقدامكم يكون لكم من لبنان في نهر الفرات إلى البحر الغربي تكون تخومكم" أمَّا الجحيم فهو لعنة تنزل بصاحبها في الدنيا (تث 28)" (1).

الحواشي والمراجع لهذه الصفحة هنا في موقع الأنبا تكلاهيمانوت:

(1) التوراة ص 27، 28.

المفارقة أنَّ برغم إشارة موقع St. Takla إلى رأي الدُّكتور مصطفى محمود ذلك في تناوُله مسألة البعث والدَّينونة والجنَّة والنَّار في العهد القديم، بالإشارة إلى وروده في صفحتي (٢٧–٢٨) من كتاب **التَّوراة** (١٩٧٢)، فإنَّ النُّسخة الإلكترونيَّة المتاحة للكتاب حُذفت منها هاتان الصَّفحتان، دون سائر صفحات الكتاب!

خيمة الاجتماع ويوقد الشحم لرائحة سرور الرب » •

ونقرأ عن الوان القرابين التي يحبها الرب في سفر العدد •

اطباقا من فضة وزن الواحد منها ١٣٠ شاقلا من فضة وصحونا من ذهب وزن الواحد منها عشرة شواقل ذهب وثيرانا وابقارا واكباشا ولحما يشوى على المذبح••

وكل ذلك يحتفظ به الكهنة لانفسهم لا ذكر لاي نصيب يوزع على الفقراء •

يقول الرب لهارون : « كل قرابينهم وتقدماتهم وكل ذبائح خطاياهم وكل ذبائح آثامهم التي يردونها لي • قدس اقداس وهي لك ولبنيك ••

كل فاتح رحم من كل جسد يقدمونه للرب من الناس والبهائم يكون لك •• غير انك تقبل فداء بكر الانسان وبكرة البهيمة النجسة تقبل فداءه وفداؤه من ابن شهر تقبله حسب تقديمك فضة خمسة شواقل على شاقل القدس» •

الذهب والفضة والكباش والثيران كلها تدخل الى جيب الكاهن •• لقد أرادوها عملية تجارية واستغلالا صريحا •

٢٩

ورب عجيب •• ما يلبث ان يندم على مافعل•• والرب في حالة خطأ وندم بطول التوراة وعرضها •

« وبسط الملاك يده على اورشليم ليهلكها وندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك الشعب كفى » •

صموئيل الثاني — ٢٤

كيف يخطىء الرب ويندم مع ان التوراة ذاتها تقول في سفر العدد اصحاح ٢٣ الآية ١٩ •

« ليس الله انسانا فيكذب ولا ابن انسان فيندم » هو اذن خلط ودشت من الكلام تكتبه اقلام بشرية وليس وحيا ولا تنزيلا •• والاعتراض بان كلمة الله يندم هي كلمة مجازية مثل كلمة الله يغضب هو اعتراض غير سليم لان الندم معناه الرجوع عن الخطأ ولا يصح مجازا ولا فعلا ان نقول ان الله يخطىء كما لا يصح مجازا ان نقول ان الله يكذب او يظلم او يجهل •• هذه كلمات لا يصح اطلاقها على الله ولو مجازا •

والتوراة تصور هذا الرب في صورة مادية فهو يحب رائحة الشواء التي تتصاعد من الاضاحي على المذبح •

« ويرش الكاهن الدم على مذبح الرب لدى بـاب

٢٦

ويتَّفق رأي الدُّكتور مصطفى محمود مع رأي الكاتب الفرنسي ليو تكسِل، المعروف بعدائه للكاثوليكيَّة وكتاباته المناهضة للإكليروس، في كتابه **La Bible Amusante** (١٨٨٢)، أي الكتاب المقدَّس المسلِّي، والمترجَم بعنوان **التوراة: كتاب مُقدَّس أم جمع من الأساطير**، يقول تكسِل "إنَّ العهد القديم لا يأتي على ذكر جهنم أو المطهر في أي فصل من فصوله" (ص٢٠٧). ويقول حنَّا حنَّا في كتابه **الحكم والأمثال السورية القديمة وأثرها في أدب الحكمة العبرية (٢٠١٠)** "كل صفحات التوراة (العهد القديم) لم تأتِ على ذكر مكان سماوي ينتهي إليه الإنسان كعقاب أو ثواب، إنما الجنة وجهنم فموضعهما أرضي لا سماوي...إنَّ كلمة "جهنَّم" بمفهومها الجحيمي الموضع الذي ينتهي إليه الأشرار **ذُكرت أول ما ذُكرت في العهد الجديد وليس العهد القديم**" (ص١٩٢). ويستشهد حنَّا برأي الخوري بولس الفغالي، القائل بأنَّ "ولكنَّ عدالة الله هذه تتم على الأرض؛ لأنَّ الشعب العبراني لم يكن يؤمن بقيامة الموتى وخلود النفس، لم يكن يؤمن بحياة ثانية بعد الموت".

ويردُّ موقع St. Takla على هذا الزعم بأنَّ عدم تناوُل العهد القديم البعث والحياة بعد الموت لأنَّ من "من البديهيات والمُسلَّمات"، واستشهد في ذلك بآية من سفر التكوين "وسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ **لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ**" (سفر التكوين: إصحاح ٥، آية ٢٤)، وبقصَّة إيليا النبي مع تلميذه أليشع في سفر الملوك الثاني "وَفِيمَا هُمَا يَسِيرَانِ وَيَتَكَلَّمَانِ إِذَا مَرْكَبَةٌ مِنْ نَارٍ وَخَيْلٌ مِنْ نَارٍ فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا، **فَصَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ**" (سفر الملوك ٢: إصحاح ٢، آية ١١). وقد قال اشعياء في سفره عن نهاية الصالحين "وَرِجَالُ الإِحْسَانِ يُضَمُّونَ، وَلَيْسَ مَنْ يَفْطَنُ بِأَنَّهُ مِنْ وَجْهِ الشَّرِّ يُضَمُّ الصِّدِّيقُ. يَدْخُلُ السَّلاَمَ. **يَسْتَرِيحُونَ فِي مَضَاجِعِهِمْ. السَّالِكُ بِالاسْتِقَامَةِ**" (سفر اشعياء: إصحاح ٥٧، آيتان ١-٢). وجاء في سفر حزقيال أنَّ الربَّ سأله إذا كانت العظام اليابسة تكتسي باللحم من جديد، وتدبُ فيها الرُّوح " كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ، فَأَخْرَجَني بِرُوحِ الرَّبِّ وَأَنْزَلَنِي فِي وَسْطِ الْبُقْعَةِ وَهِيَ مَلآنَةٌ عِظَامًا. وَأَمَرَّنِي عَلَيْهَا مِنْ حَوْلِهَا وَإِذَا هِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا عَلَى وَجْهِ الْبُقْعَةِ، وَإِذَا هِيَ يَابِسَةٌ جِدًّا. فَقَالَ لِي: «يَا ابْنَ آدَمَ، **أَتَحْيَا هذِهِ الْعِظَامُ؟**» فَقُلْتُ: «**يَا**

سَيِّدُ الرَّبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ»" (سفر حزقيال: إصحاح ٣٧، آيات ١–٣)، وجاء ردُّ الربِّ " فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ عَلَى هذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ، اسْمَعِي كَلِمَةَ الرَّبِّ: هكذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِهذِهِ الْعِظَامِ: **ها أَنَا ذَا أُدْخِلُ فِيكُمْ رُوحًا فَتَحْيَوْنَ**" (سفر حزقيال: إصحاح ٣٧، آيتان ٤–٥). ويضيف موقع St. Takla التبشيري في ردِّه على نُدرة الحديث عن الموت والحياة الأخرى في العهد القديم إلى رجوع ذلك إلى "بشاعة صورة الموت حينذاك؛ لأنَّه ينقل الإنسان من هذه الحياة إلى الهاوية سجن الجحيم"، ويستشهد الردُّ بالعديد من الآيات من سفر المزامير، ومن بينها "**أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْتِ ذِكْرُكَ. فِي الْهَاوِيَةِ مَنْ يَحْمَدُكَ؟**" (مزمور ٦: آية ٥)، و "**لاَ يُعَايِنُونَ** (الأموات) **النُّورَ إِلَى الأَبَدِ**" (مزمور ٤٩: آية ١٩)، و "فِي الْجُبِّ الأَسْفَلِ، فِي **ظُلُمَاتٍ فِي أَعْمَاق...أَرْضِ النِّسْيَانِ**" (مزمور ٨٨: آيتان ٦ و١٢)، و "**لَيْسَ الأَمْوَاتُ يُسَبِّحُونَ الرَّبَّ**، ولاَ مَنْ يَنْحَدِرُ إِلَى **أَرْضِ السُّكُوتِ**" (مزمور ١١٥: آية ١٧).

واعتقد بنو إسرائيل أنَّ خلاصهم من الموت سيأتي على يد المخلِّص؛ فيحيون في ظلِّه حياةً أبديَّة، وهذا ما جاء في سفر هوشع "مِنْ يَدِ الْهَاوِيَةِ أَفْدِيهِمْ. **مِنَ الْمَوْتِ أُخَلِّصُهُمْ. أَيْنَ أَوْبَاؤُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ شَوْكَتُكِ يَا هَاوِيَةُ؟** تَخْتَفِي النَّدَامَةُ عَنْ عَيْنَيَّ" (سفر هوشع: إصحاح ١٣، آية ١٤). وردًّا على هذه الآية في سفر هوشع، يخصص بولس الرسول الإصحاح ١٥ في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس للحديث عن القيامة من الأموات، مع قيامة المسيح، ويعيد ذكر الآية آنفة الذكر، وكأنَّما يقول إنَّ نبوءة هوشع قد تحقَّقت "**أَيْنَ شَوْكَتُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلَبَتُكِ يَا هَاوِيَةُ؟**" (رسالة كورنثوس ١: إصحاح ١٥، آية ٥٥). يُعتقد بأنَّ المسيح قد أمات الموت بصلبه، وأنَّ الإيمان بقيامته هو ركن أساسي في الإيمان بالأناجيل؛ قيامة المسيح تعني قيامة المؤمنين به، والملتحمين به روحانيًّا. يقول بولس في الإصحاح ذاته أنَّ آدم قد أدخل الموت إلى عالم البشر بالخطيئة الأولى، ومن ثمَّ فإنَّ صلب المسيح للتكفير عن تلك الخطيئة يضمن زوال الموت وقيامة الأموات "فَإِنَّهُ إِذِ الْمَوْتُ بِإِنْسَانٍ، **بِإِنْسَانٍ أَيْضًا قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ.** لأَنَّهُ كَمَا **فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، هكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ**" (رسالة كورنثوس ١: إصحاح ١٥، آيتان ٢١–٢٢).

يواصل بولس الرسول شرح تفاصيل قيامة المؤمنين بالمسيح من الموت "**كَمَا هُوَ التُّرَابِيُّ هكَذَا التُّرَابِيُّونَ أَيْضًا، وَكَمَا هُوَ السَّمَاوِيُّ هكَذَا السَّمَاوِيُّونَ أَيْضًا.** وَكَمَا لَبِسْنَا **صُورَةَ التُّرَابِيِّ**، سَنَلْبَسُ أَيْضًا **صُورَةَ السَّمَاوِيِّ.** فَأَقُولُ هذَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ: **إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لاَ يَقْدِرَانِ أَنْ يَرِثَا مَلَكُوتَ اللهِ، وَلاَ يَرِثُ الْفَسَادُ عَدَمَ الْفَسَادِ.** هُوَ ذَا سِرٌّ أَقُولُهُ لَكُمْ: لاَ نَرْقُدُ كُلُّنَا، **وَلكِنَّنَا كُلَّنَا نَتَغَيَّرُ.** فِي لَحْظَةٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، **عِنْدَ الْبُوقِ الأَخِيرِ.** فَإِنَّهُ سَيُبَوَّقُ، **فَيُقَامُ الأَمْوَاتُ عَدِيمِي فَسَادٍ، وَنَحْنُ نَتَغَيَّرُ.** لأَنَّ هذَا الْفَاسِدَ لاَبُدَّ أَنْ يَلْبَسَ عَدَمَ فَسَادٍ، وَهذَا الْمَائِتَ يَلْبَسُ عَدَمَ مَوْتٍ. **وَمَتَى لَبِسَ هذَا الْفَاسِدُ عَدَمَ فَسَادٍ، وَلَبِسَ هذَا الْمَائِتُ عَدَمَ مَوْتٍ،** فَحِينَئِذٍ تَصِيرُ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ: «**ابْتُلِعَ الْمَوْتُ إِلَى غَلَبَةٍ**»" (رسالة كورنثوس ١: إصحاح ١٥، آيات ٤٨–٥٤). كما تسببت خطيئة آدم في تحقير ذريَّته، بارتداء جسد ترابي "لَبِسْنَا **صُورَةَ التُّرَابِيِّ**"، فبتكفير المسيح خطايا البشر ارتقى المؤمنون به إلى "**صُورَةَ السَّمَاوِيِّ**". لكي يرث المؤمنون "**مَلَكُوتَ اللهِ**"، ستتبدَّل حالتهم؛ لأنَّ "**لَحْمًا وَدَمًا لاَ يَقْدِرَانِ أَنْ يَرِثَا مَلَكُوتَ اللهِ، وَلاَ يَرِثُ الْفَسَادُ عَدَمَ الْفَسَادِ**"؛ ومن ثمَّ، فلا بدَّ من تخلِّي البشر عن الطبيعة التي أنزلتهم إليها خطيئة أبيهم الأوَّل "**التُّرَابِيّ**"، ليكتسبوا طبيعة سماويَّة، طبيعة أبيهم الثاني؛ لأنَّ "**كَمَا هُوَ السَّمَاوِيُّ هكَذَا السَّمَاوِيُّونَ أَيْضًا**". طهَّر تكفير المسيح خطايا البشر، فصاروا غير فاسدين؛ "**فَيُقَامُ الأَمْوَاتُ عَدِيمِي فَسَادٍ**"، وحينها، يأكل الموت نفسه، ولن يبقى متسلِّطًا على البشر، بعد اكتسابهم طبيعة سماويَّة.

وعبَّر بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل فيلبي عن ترحيبه بالموت؛ لأنَّ فيه لقاء المسيح، وإن كان المسيح كامنٌ في جسده وهو حيٌّ "حَسَبَ انْتِظَارِي وَرَجَائِي أَنِّي لاَ أُخْزَى فِي شَيْءٍ، بَلْ بِكُلِّ مُجَاهَرَةٍ كَمَا فِي كُلِّ حِينٍ، كَذلِكَ الآنَ، **يَتَعَظَّمُ الْمَسِيحُ فِي جَسَدِي**، سَوَاءٌ كَانَ بِحَيَاةٍ أَمْ بِمَوْتٍ. **لأَنَّ لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ.** وَلكِنْ إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي الْجَسَدِ هِيَ لِي ثَمَرُ عَمَلِي، فَمَاذَا أَخْتَارُ؟ لَسْتُ أَدْرِي! فَإِنِّي مَحْصُورٌ مِنَ الاثْنَيْنِ: **لِيَ اشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ الْمَسِيحِ، ذَاكَ أَفْضَلُ جِدًّا.** وَلكِنْ أَنْ أَبْقَى فِي الْجَسَدِ أَلْزَمُ مِنْ أَجْلِكُمْ" (رسالة فيلبي ١: إصحاح ١، آيات ٢٠–٢٤).

يوم القيامة في الكتاب المقدَّس

يقدِّم موقع بشارة المسيح الدعوي، المتخصِّص في تعريف المسيحيين بالإسلام من خلال عرض دراسات مقارنة عن أهم النقاط المشتركة بين الإسلام والديانتين الإبراهيميتين الأخريين، مقارنة بين ما ورد في العهدين القديم والجديد عن اليوم الآخر، وما جاء في القرآن الكريم. يحمل يوم القيامة في سفر عوبديا اسم "يوم الربِّ"، وهو يوم نُصرة بني إسرائيل على الأمم، وميراثهم الأرض وكنوز الأغيار؛ وبينما يهلك هؤلاء، ينجو بنو إسرائيل، المتحصِّنين أعلى جبل صهيون "فَإِنَّهُ **قَرِيبٌ يَوْمُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ الأُمَمِ**. كَمَا فَعَلْتَ يُفْعَلُ بِكَ. **عَمَلُكَ يَرْتَدُّ عَلَى رَأْسِكَ.** لأَنَّهُ كَمَا شَرِبْتُمْ عَلَى جَبَلِ قُدْسِي، **يَشْرَبُ جَمِيعُ الأُمَمِ دَائِمًا، يَشْرَبُونَ وَيَجْرَعُونَ وَيَكُونُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا. وَأَمَّا جَبَلُ صِهْيَوْنَ فَتَكُونُ عَلَيْهِ نَجَاةٌ، وَيَكُونُ مُقَدَّسًا، وَيَرِثُ بَيْتُ يَعْقُوبَ مَوَارِيثَهُمْ**" (سفر عوبديا: إصحاح ١، آيات ١٥–١٧). يحصد الأغيار نتاج آثامهم "**عَمَلُكَ يَرْتَدُّ عَلَى رَأْسِكَ**"، على عكس بني إسرائيل، الذين كُفِّرت آثامهم، ومُحيت خطاياهم بفضل إيمانهم بالمخلِّص " **وَأَمَّا جَبَلُ صِهْيَوْنَ فَتَكُونُ عَلَيْهِ نَجَاةٌ، وَيَكُونُ مُقَدَّسًا**".

ويحمل سفر ملاخي، وهو آخر أسفار العهد القديم، تصوُّرًا لليوم الآخر، الذي يهلك فيه الأشرار، وينجو فيه بنو إسرائيل "فَهُوَ ذَا يَأْتِي الْيَوْمُ الْمُتَّقِدُ كَالتَّنُّورِ، وَكُلُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَكُلُّ فَاعِلِي الشَّرِّ يَكُونُونَ قَشًّا، وَيُحْرِقُهُمُ الْيَوْمُ الآتِي، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ، فَلاَ يُبْقِي لَهُمْ أَصْلاً وَلاَ فَرْعًا. وَلَكُمْ **أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ** اسْمِي تُشْرِقُ شَمْسُ الْبِرِّ وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا، **فَتَخْرُجُونَ وتَنشَئُون كَعُجُولِ الصِّيرَةِ. وَتَدُوسُونَ الأَشْرَارَ لأَنَّهُمْ يَكُونُونَ رَمَادًا تَحْتَ بُطُونِ أَقْدَامِكُمْ يَوْمَ أَفْعَلُ هذَا، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ**" (سفر ملاخي: إصحاح ٤، آيات ١–٣). ويحتفظ وصف سفر ملاخي لليوم الآخر بنفس النظرة العنصريَّة الاستعلائيَّة، بأن وعَد بني إسرائيل بالغَلَبة على الأغيار في الآخرة، كما في الدنيا "**تَدُوسُونَ الأَشْرَارَ لأَنَّهُمْ يَكُونُونَ رَمَادًا تَحْتَ بُطُونِ أَقْدَامِكُمْ يَوْمَ أَفْعَلُ هذَا، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ**". ويؤكِّد ذلك ما جاء عن يوم القيامة في سفر زكريَّا "**وَهذِهِ تَكُونُ الضَّرْبَةُ الَّتِي يَضْرِبُ بِهَا الرَّبُّ كُلَّ الشُّعُوبِ الَّذِينَ تَجَنَّدُوا عَلَى أُورُشَلِيمَ. لَحْمُهُمْ يَذُوبُ وَهُمْ وَاقِفُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَعُيُونُهُمْ تَذُوبُ فِي أَوْقَابِهَا،**

وَلِسَانُهُمْ يَذُوبُ فِي فَمِهِمْ. وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ اضْطِرَابًا عَظِيمًا مِنَ الرَّبِّ يَحْدُثُ فِيهِمْ، فَيُمْسِكُ الرَّجُلُ بِيَدِ قَرِيبِهِ وَتَعْلُو يَدُهُ عَلَى يَدِ قَرِيبِهِ" (سفر زكريَّا: إصحاح ١٤، آيتان ١٢-١٣). يوم القيامة هو اليوم الذي ينتقم الربُّ فيه من أعداء بني إسرائيل، وهم "**كُلَّ الشُّعُوبِ الَّذِينَ تَجَنَّدُوا عَلَى أُورُشَلِيمَ**"، وجزاؤهم أنْ "**لَحْمُهُمْ يَذُوبُ وَهُمْ وَاقِفُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَعُيُونُهُمْ تَذُوبُ فِي أَوْقَابِهَا، وَلِسَانُهُمْ يَذُوبُ فِي فَمِهِمْ**".

أمَّا عن يوم القيامة في العهد الجديد، فقد سُمِّي يوم الدينونة، ووردت العديد من الآيات التي تشير إليه، منها "اَلْوَيْلُ لِلأُمَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى شَعْبِيَ، الرَّبُّ الْقَدِيرُ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ وَفِي **يَوْمِ الدَّيْنُونَةِ** يَفْتَقِدُهُمْ" (سفر يهوديت: إصحاح ١٦، آية ٢٠)، و "**وُضِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ الدَّيْنُونَةُ**" (رسالة بولس إلى العبرانيين: إصحاح ٩، آية ٢٧). ونلاحظ أنَّ بالرغم من تصوير العهد القديم بني إسرائيل أنَّهم الفئة الناجية يومَ الربِّ، فإنَّ الأناجيل أشارت إلى أنَّ الفئة الباغية من اليهود، وهم "**الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ**"، ستلقى عذابًا عظيمًا يوم الدينونة، ومن أمثلة ذلك نذكر "وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا **الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ!** لأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ، ولِعِلَّةٍ تُطِيلُونَ صَلَوَاتِكُمْ. **لِذلِكَ تَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ**" (إنجيل متَّى: إصحاح ٢٣، آية ١٤)، و "تَحَرَّزُوا مِنَ **الْكَتَبَةِ، الَّذِينَ يَرْغَبُونَ الْمَشْيَ بِالطَّيَالِسَةِ،** وَالتَّحِيَّاتِ فِي الأَسْوَاقِ، وَالْمَجَالِسَ الأُولَى فِي الْمَجَامِعِ، وَالْمُتَّكَآتِ الأُولَى فِي الْوَلاَئِمِ. **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ، وَلِعِلَّةٍ يُطِيلُونَ الصَّلَوَاتِ. هؤُلاَءِ يَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ**" (إنجيل مرقس: إصحاح ١٢، آيات ٣٨-٤٠)؛ إنجيل لوقا: إصحاح ٢٠، آيتان ٤٦-٤٧). ويحدِّد إنجيل يوحنَّا الفئة الناجية يوم الدينونة، وهي التي آمنت بابن الربِّ، الذي أرسله ليخلِّص به العالم من الإثم، لا ليعذِّبه "**هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ.** لأَنَّهُ **لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ. اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ،** لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ. **وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ:** إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ، لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً" (إنجيل يوحنَّا: إصحاح ٣، آيات ١٦-١٩). توضح الآيات أنَّ الإيمان

بعقيدة ببنوَّة يسوع للربِّ، هو سبيل النجاة من الإدانة–الدينونة–بالإثم "**الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ**"؛ أمَّا من يفكر بهذه العقيدة، فلا سبيل لنجاته من الإدانة "**وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ،** لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ. **وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ**". ولا شكَّ في أنَّ هذا الاعتقاد في إنجيل يوحنَّا هو صُلب العقيدة المسيحيَّة، وقد عبَّر بولس الرسول عن ذلك في رسالته إلى أهل روميَّة "**لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ،** السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ **بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ**" (رسالة أهل روميَّة: إصحاح ٨، آية ١). ويعني ذلك أنَّ الإيمان بالمسيح يحطُّ الخطايا السابقة؛ فهذا ما يكفله الالتحام الروحي بالمسيح، ووقتها سيكون المؤمنون به "سَّالِكِينَ...**حَسَبَ الرُّوحِ**". والردُّ على هذا الاعتقاد يأتينا في سورة الصفِّ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى **تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** (١٠) **تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ **ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (١٢)". أمَّا عن أصل هذا الاعتقاد، فقد ورد في قوله تعالى في سورة البقرة "وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن **كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ** قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)"، وهو أنَّ "**تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ**"، وهكذا سوَّلت إليهم أنفسهم، وإلى هذا قادهم ظنُّهم. ومن المثير للانتباه في قوله "إِلَّا مَن **كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ**" أنَّ الله تعالى قد نبَّه إلى أنَّ كلَّ فئة من المذكورتين ستقصر النجاة في الآخرة على نفسها؛ فقد حصر سفر عوبديا النجاة في بني إسرائيل في ظلِّ وجود المخلِّص–ليس يسوع الناصري–على جبل صهيون "**وَأَمَّا جَبَلُ صِهْيَوْنَ فَتَكُونُ عَلَيْهِ نَجَاةٌ، وَيَكُونُ مُقَدَّسًا، وَيَرِثُ بَيْتُ يَعْقُوبَ مَوَارِيثَهُمْ**" (إصحاح ١: آية ١٧)، بينما تهلك الأمم الأخرى، وكذلك حصر إنجيل يوحنَّا النجاة في المؤمنين بالمسيح، الذي يراه المسيَّا المخلِّص، على عكس اعتقاد اليهود، "**الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ،** لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ" (إنجيل يوحنَّا: إصحاح ٣، آية ١٨)، وهو ما عبَّر عنه بولس الرسول بقوله "**لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ** " (رسالة روميَّة: إصحاح ٨، آية ١). ويأتي بيان الوحي الإلهي في سورة النِّساء ليردَّ على هذا الزعم "لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا **أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن**

دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ **دِينًا** مِّمَّنْ **أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا** وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)**"**.

يخبرنا القرآن الكريم أنَّ الخلاص والنجاة من "**عَذَابٍ أَلِيمٍ**" يوم الدينونة يكون بالإيمان "**بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**"، وليس بالآب و "**ابْنَهُ الْوَحِيدَ**"، الذي ضحَّى به "**لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ**"؛ وإلى جانب الإيمان بالله ورسوله، يشترط الله للفوز الجنَّة العمل الصالح، وفي الآيات آنفة الذِّكر من سورة الصَّف، يحدد الله تعالى التضحية في سبيله بالنَّفس والمال "**وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**"؛ لأنَّ في ذلك نبذًا لمتاع الدنيا، وتفضيل الآخرة عليها، وفي ذلك "**الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**" بالنعيم الأبدي. لم يحصر الله تعالى النجاة في الآخرة على فئة بعينها، بل وعد بالجنَّة "**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى**"، بشرط الإيمان "**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**". وفي ذلك ردٌّ على "**أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ**" بأنَّه "لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن **كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى**"؛ لأنَّه ليس يوجد من هو "أَحْسَنُ **دِينًا**" ممن آمن بالملَّة السماويَّة الحقَّة، المنزَّلة على أب الأنبياء إبراهيم، الذي تُنسب إليه الديانات الإبراهيميَّة الثلاث، باعتبارها مشتقَّة من رسالته، ونتيجة ذلك أن "**أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**"، وقد أخبرتنا سورة البقرة بأصل تلك الملَّة "وَمَن يَرْغَبُ عَن **مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ** إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ **فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ **يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (١٣٣)**"**.

١١.استنتاجات وتساؤلات

١.اشترك كافَّة دعاة الحداثة، على اختلاف انتماءاتهم الفكريَّة، سواء من فئة المفكِّرين الإسلاميين الدارسين في الغرب، أو من التيَّار التوفيقي المحسوب على الفكر الإسلامي، أو من الليبراليين العلمانيين، في دعوتهم إلى تحرُّر الفكر الإسلامي من الجمود

والرجعيَّة، موصين جميعًا بالتركيز على العقلانيَّة والتأمُّل من خلال دمج الفلسفات الأوروبيَّة بالعقيدة الإسلاميَّة. بالرجوع إلى الدراسة السابقة عن **وسائل الغزو الفكري للإعداد لألفيَّة المسيَّا**، نجد أنَّ الاستنتاجات المنبثقة عنها تشير إلى أنَّ الطعن في التعليم الديني الإسلامي، القائم على تعليم القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة المطهَّرة، من وسائل إعادة تشكيل العقيدة الإسلاميَّة لتكون أقرب إلى المسيحيّة، التي اتَّفق علماء الإسلام، أمثال الدكتور عبد الجليل عبده شلبي والإمام محمَّد الغزالي والإمام عبد الحليم محمود، ومؤرخو الغرب، ومنهم شارل جينيبير، على أنَّ ما أفسد صحيح دعوتها هو دمجها بالفلسفات الإغريقيَّة القديمة، مثل الغنوصيَّة والرواقيَّة، لتقل القبَّالة اليهوديَّة. لم يغب عن الدعوة إلى دمج العقيدة الإسلاميَّة بالفلسفة من أصحاب الرأي المشار إلى مؤلَّفاتهم إلَّا الشيخان السعوديَّان عوض القرني وسفر الحوالي، المعتقلان حاليًا. والتساؤل هنا: هل المقصود هو فرض الملَّة الباطنيَّة المحسوبة على الإسلام، ألا وهي الصوفيَّة، على عموم ديار الإسلام؛ فتنحصر علاقة المسلم بربِّه على "اتِّباع الظنِّ" الناتج عن ممارسات تأمُّليَّة؟ تكوَّنت عقيدة ألفيَّة المسيَّا من خلال رؤيا ظنيَّة للقديس يوحنَّا اللاهوتي، كما جاء الأمر بالتبشير في رؤى ظنيَّة للرُّسُل بعد قيامة المسيح، فهل المطلوب هو الاتجاه إلى التأمُّل الروحاني، كما أوصى خالد محمَّد خالد (١٩٥٠)، معتبرًا أنَّ الروحانيَّة تفتح المدارك وتمدُّ الإنسان بالمجهول وتومض إلهامًا يصنع معجزات؟ حينها، يصدق في المسلمين قول الله تعالى "**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**" (سورة النَّجم: الآية ٢٨)، كما صدق في أهل الكتاب قوله تعالى "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ **مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**" (في سورة النِّساء: الآية ١٥٧).

٢.تختلف عقيدة الآخرة والبعث بعد الموت عند المسلمين عنها عند اليهود والمسيحيين؛ ولذلك تأثير في غاية الأهميَّة في الدعوة إلى فصل الدِّين عن الدولة، والتركيز على أسباب التقدُّم المادِّي. حذَّرنا القرآن الكريم من النهم على المادَّة في العديد من آياته، منها

ما جاء في سورة الهُمزة "وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) **الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ** (٤)". وبالعودة إلى العهد الذي أخذه الله تعالى آدم وبنيه يوم أخذ ذريَّة آدم من ظهره (سورة الأعراف: آيتان ١٧٢-١٧٣)، نجد أنَّ آدم نفسه، الذي خَلَقه ربُّه بيده، نسي العهد، مصداقًا لقوله تعالى في سورة طه "وَلَقَدْ **عَهِدْنَا** إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ **فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** (١١٥)"؛ حيث صدَّق إبليس، عدوَّه وعدوَّ ذريَّته إلى يوم يبعثون، لمَّا أغراه بالأكل من الشجرة، لمَّا وسوس إليه وقال "يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى **شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى** (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا **فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا** وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** (١٢١) **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** (١٢٢)" (سورة طه). نسي آدم، أبُّ البشر، أنَّ الله تعالى ابتلاه وذريَّته بمتاع الدنيا ليبلوهم فيما آتاهم، وأنَّ العاقبة للتقوى؛ فاستجاب لعدوِّه، وانتصرت عليه ماديَّته، النابعة من تكوينه الترابي؛ والنتيجة أن انكشفت عورته وزوجه، ونقض عهده مع ربِّه. أمَّا في الكتاب المقدَّس، فنجد أنَّ الخلود كان ممكنًا للإنسان بأكله من "**شَجَرَةِ الْحَيَاةِ**"، لكنَّ الربَّ ضنَّ على آدم بذلك كي لا ينافسه في خلوده "**فَطَرَدَ الإِنْسَانَ**، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، **وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ**" (سفر التكوين: إصحاح ٣، آية ٢٤). انطلاقًا من الاعتقاد بأنَّ الفئة الناجية هي بني إسرائيل المعتصمة بجبل صهيون "لأَنَّهُ كَمَا شَرِبْتُمْ عَلَى جَبَلِ قُدْسِي، **يَشْرَبُ جَمِيعُ الأُمَمِ دَائِمًا، يَشْرَبُونَ وَيَجْرَعُونَ وَيَكُونُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا. وَأَمَّا جَبَلُ صِهْيَوْنَ فَتَكُونُ عَلَيْهِ نَجَاةٌ، وَيَكُونُ مُقَدَّسًا، وَيَرِثُ بَيْتُ يَعْقُوبَ مَوَارِيثَهُمْ**" (سفر عوبديا: إصحاح ١، آيتان ١٦-١٧)، وبأنَّ المخلِّص يعود في آخر الزمان ليحيى المؤمنين به، ويعيش أتباعه معه ألف سنة، بينما تُحرم الأمم الأخرى من هذا الفضل "وَرَأَيْتُ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ يَسُوعَ وَمِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْجُدُوا لِلْوَحْشِ وَلاَ لِصُورَتِهِ، وَلَمْ يَقْبَلُوا السِّمَةَ عَلَى جِبَاهِهِمْ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ، **فَعَاشُوا وَمَلَكُوا مَعَ الْمَسِيحِ أَلْفَ سَنَةٍ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ الأَمْوَاتِ فَلَمْ تَعِشْ حَتَّى تَتِمَّ الأَلْفُ السَّنَةِ. هذِهِ هِيَ الْقِيَامَةُ الأُولَى**" (رؤيا يوحنَّا اللاهوتي: إصحاح ٢٠، آيتان ٤-٥)، فما الداعي للخوف من الآخرة، طالما أنَّ البرَّ بالإيمان، والمؤمنون بالمُخلِّص وملتحمون به روحيًّا يدخلون الجنَّة وحدهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟

والسؤال: كيف يمكن أن يساير هذا الاعتقاد من لا يفرِّق الكتاب المنزَّل على رسوله بين الأمم يوم القيامة، أو يفضِّل أمَّة إلا بالتقوى "يَا أَيُّهَا **النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ** إِنَّ **زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ** شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ** (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن **تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** (٤)" (سورة الحج)؟ إذا كان مطالبة التيَّار السَّلفي بعودة الخلافة يتَّسم بالرومانسيَّة والابتعاد عن الواقع، تمامًا كما هو حال الفِكر الأصولي المتشدِّد من وجهة نظر الكاتب العلماني صلاح سالم، ألا يمثِّل اختصاص التيَّار السلفي الإسلامي بعدم الواقعيَّة السمة الانتقائيَّة التي عدَّدها سالم من بين سمات الفكر الأصولي، بالتغافُل عن التعليق على مساعي التيَّار الأصولي اليهودي والمسيحي إلى تهيئة العالم لحُكم الألف عام للمسيح؟

٣.اتَّفق دعاة الحداثة على ضرورة تطبيق وسائل النهضة الماديَّة الغربيَّة، ولو على حساب ثوابت رسالة الإسلام الحقَّة، معتبرين أنَّ في تطبيق الدِّين رجعيَّة وتخلُّف عن الأمم المتقدِّمة ماديًّا. وهناك إجماع بين هؤلاء على أنَّ سبب التخلُّف الحضاري للأمَّة الإسلاميَّة يكمن في اقتران السُّلطة الدينيَّة بالسُّلطة السياسيَّة، وتستُّر الأولى على انتهاكات الثانية في مقابل المناصب والعطايا، ولعلَّ ما جاء به "مولانا" خير نموذج لذلك. هناك إجماع آخر على أنَّ فِكر يسوع النَّاصري هو أساس الفكر العلماني النفعي، الداعي إلى عدم التقيُّد بحرفيَّة الكتاب والأخذ بما يحقق المصلحة، مستشهدين في ذلك بآيات سبقت الإشارة إليها. والسؤال: كيف يكون يسوع المسيح نموذجًا للفكر الداعي للتكالُب على الدنيا، وهو الذي جاء ليبشِّر بقُرب ملكوت السماوات "«**تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ.** فَإِنَّ هذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: **أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً**»" (إنجيل متَّى: إصحاح ٣، آيات ٢–٣)"؟ إن كان قد فُهم من أقوال المسيح أنَّ البارَّ هو المؤمن بإله، ولو كان جمادًا،

كما هو فِكر المرجئة، فنبي الله عيسى تعهَّد بإقامة فرائض ربِّه طوال حياته "وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ **وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**" (سورة مريم: الآية ٣١).

٤. اشترك دعاة الحداثة كذلك في زعمهم أنَّ الدولة العثمانيَّة، آخر وحدة جامعة للمسلمين تحت لواء واحد، كان عقبة في طريق تطوير العالم الإسلامي، مستشهدين في ذلك بإحباطها سعي الحملة الفرنسيَّة إلى دمج الحضارة الوثنيَّة المصريَّة القديمة في الحضارة الغربيَّة الحديثة، ومعتبرين أنَّ الحضارة العريقة لمصر أُهملت منذ الفتح الإسلامي. سبقت الإشارة إلى أنَّ الحكومات التي حكمت المسلمين تُقسَّم إلى ثلاثة أنواع: **حكومة دينيَّة، وحكومة سياسيَّة، وحكومة الشهوة والاستبداد.** كفلت الحكومة الدينيَّة، أو الخلافة الرَّاشدة، للمسلمين حياة عادلة آمنة؛ لأنَّها طبَّقت شريعة الخالق العليم الخبير بطبيعة خلْقه، لكنَّها لم تدم طويلًا؛ لأنَّ الماديَّات أغرت المسلمين، وألهتهم قليلًا عن دينهم. انتهى عصر الخلافة، ليبدأ عصر الحكومة السياسيَّة، الذي اعتمد على القوانين الوضعيَّة. وبسبب تسلُّط الدنيا على قلوب المسلمين، انتهى هذا العصر بخيره وشرِّه بأن سقطة الدولة العثمانيَّة، ليبدأ عصر "**حكومة الشهوة والاستبداد**"، المتَّسم باتِّباع الهوى وتغليب المصلحة، وهو أكثر عصر عانى فيه المسلمون. يعني هذا أنَّ التهافت على نعيم الدنيا يفضي إلى الهوان والانكسار والتبعيَّة للغير، وهذا حال المسلمين منذ أن غزت بلادهم منتجات الحداثة الغربيَّة وسيطرت على حياتهم، في فتنة ظاهرها السرَّاء وباطنها المضرَّة والمذلَّة. إذا كان دعاة الحداثة يريدون للمسلمين مزيدًا من تغييب الدين وتغليب المنفعة الدنيويَّة، أليس في ذلك ما ينطبق على قول الرسول (ﷺ) "**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا **الْوَهْنُ**؟ قَالَ: **حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**"؟ أخرجه أبي داود في سننه (٤٢٩٧)، وورد في مسند أحمد(٢١٨٩٠)، وفي مسند أبي داود الطيالسي (١٠٨٥).

٥.اشترك دعاة الحداثة في اعتبار أنَّ حل الأزمة الاقتصاديَّة العالميَّة يكمن في تطبيق نظام اشتراكي عادل، يُنقذ العالم من أنانيَّة الرأسماليَّة، كما اتَّفقوا على أنَّ المذهب البروتستانتي المعتدل، الثائر على اقتران السُّلطة السياسيَّة بالمؤسسة الدينيَّة. وسبقت الإشارة إلى أنَّ أوَّل دعوة للفصل بين الدين والدولة جاءت بعد انعقاد المجمع المسكوني الفاتيكاني الرابع عام ١٢١٥ ميلاديًّا، والذي ندَّد بالممارسات الربويَّة لليهود. وسبقت الإشارة كذلك في الدراسة عن **مخطوطات البحر الميِّت وعقيدة بني إسرائيل الحقيقيَّة** إلى أنَّ من بين نبوءات بني إسرائيل في مخطوطة "**حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام**" انهيار كاثوليكيَّة روما، وانضمام أتباعها، وهم النسبة الأكبر من مسيحيي العالم، إلى الدين العالمي في ظلِّ المخلِّص بعد ظهوره في أورشليم؛ فقد جاء في الأعمدة ١٥-١٩/ بعنوان "**المعركة ضد الروم:** إنَّ هذا الزمن **سيكون زمن الخلاص لشعب الربِّ**، وهو عصر حُكم لجميع أعضاء طائفة الربِّ، **والخراب الدائم لجميع طائفة الشيطان**، والاضطراب لأبناء يافث سيكون (كبيرًا) **وآشور سوف تسقط دون أي معين، وإنَّ حُكم الرومان سوف ينتهي وسيختفي الشر والخطيئة**، ولا تترك لها أثرًا (لأنَّ أبناء) الظلام ليس لهم من مهرب (وأبناء الحق/**النور)** سوف يشعُّون فوق نهايات الأرض، وسوف يستمرُّون في **الإشعاع** حتى تُستهلك جميع مواسم الظلام، وفي الموسم الذي عيَّنه الربُّ **سوف يشعُّ بنوره الربَّاني إلى الأبد ليشرق السلام والبركة والمجد والسرور، والحياة الطويلة لجميع أبناء النور**. وفي اليوم الذي سوف **يسقط فيه الرومان**، ستكون معركة هائلة مع ملحمة هائلة، أمام ربِّ بني إسرائيل...".

المفارقة أنَّ "مولانا" حاتم الشنَّاوي قد اعتبر أنَّ المذهب البروتستانتي هو مذهب التحرُّر العقلي والتخلُّص من رقبة المؤسسات الدينيَّة. بعد أن اتضَّح تفصيليًّا في دراسة **عقيدة المسيَّا المخلِّص بين القرآن الكريم والكتاب المقدَّس**، أنَّ الاشتراكيَّة هدفها الأساس تطويع العالم بأكمله إلى ما يُطلق عليه "طليعة اشتراكيَّة"، هي بالطبَّع من شعب الله المختار، وأنَّ صاحب فكرة إذابة الأديان في دين عالمي موحَّد، والموصي بتأسيس مذهب الشيوعيَّة ليحلَّ محل الأديان هو اليهودي الماسوني آدم فيسهاوبت، مؤسس حركة

المتنورين؛ وبعد أن أُثبت في دراسة **مخطوطات البحر الميِّت** أنَّ المذهب البروتستانتي أُسس استنادًا إلى العهد القديم بمعرفة اليهود للخروج عن سيطرة المذهب الكاثوليكي، الذي لا يؤمن بعهد الربِّ لأبرام العبراني بمملكة من "نهر النيل إلى النهر الكبير، نهر الفرات"، غير المذكور من الأصل في العهد الجديد، نتساءل: من هي الفئة المستفيدة من تطبيق نظام اشتراكي عالمي ودين موحَّد يعتمد على الروحانيَّات والطقوس التأمُّليَّة؟

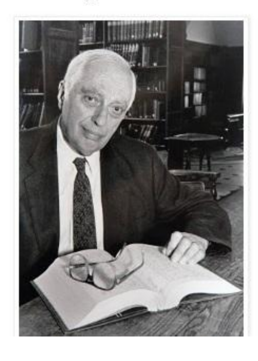
٦.اعتبر برنارد لويس أنَّ "جذور الغضب الإسلامي" تجاه الغرب تكمن في حقد المسلمين من الغرب الحداثي، وعجز المسلمين عن تحقيق التقدُّم الماديِّ الذي حقَّقته الحضارة الغربيَّة بفضل تفوُّقها العلمي. فسَّر لويس بذلك سعي الأصوليَّة الإسلاميَّة إلى شنِّ هجمات إرهابيَّة على الغرب، كان أشدُّها قسوة تفجير برجي مركز التجارة العالمي في ٩/١١ من عام ٢٠٠١؛ فبرَّر المستشرق الأشد كراهيةً للإسلام بذلك ضرورة شنِّ حرب على العراق، المتورِّطة في اعتقاده في دعم تنظيمات إرهابيَّة. سبقت الإشارة أنَّ لويس كان يسعى إلى شنِّ حرب على العراق منذ عام ١٩٩٨، كما نشرت مدوَّنة Musings on Iraq في نعيها لويس في ٦ يونيو من عام ٢٠١٨:

MUSINGS ON IRAQ

Iraq News, Politics, Economics, Society

Wednesday, June 6, 2018

Bernard Lewis And The Invasion of Iraq



In February 1998, the Committee for Peace and Security in the Gulf sent a letter to President Clinton calling for the overthrow of Saddam Hussein. The group called for the U.S. to back Ahmed Chalabi and the Iraqi National Congress and launch a revolt in Iraq that was supposed to overthrow the regime. The letter was written by former Congressmen Stephen Solarz and former Pentagon official Richard Perle, and was signed by Bernard Lewis along with the likes of John Bolton, Douglas Feith, Zalmay Khalilzad, Elliot Abrams, Paul Wolfowitz, Donald Rumsfeld all of which would go to work for the Bush administration. Many were also leading neoconservatives. That group had been upset that Saddam survived the 1991 Gulf War. They argued that Washington needed to get rid of his regime, and that could begin the transformation of the Middle East and democratization. Lewis shared many of these views and was the reason why he began associating with the neoconservative movement, and signed the letter.

إذا أخذنا ذلك في الاعتبار، وأقرنَّاه بما ورد في **حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام**، عن أنَّ "المعركة ضد الروم" في "زمن الخلاص لشعب الربِّ" يسبقها "الخراب الدائم لجميع طائفة الشيطان، والاضطراب لأبناء يافث سيكون (كبيرًا) **وآشور سوف تسقط دون أي معين**"، وأضفنا إلى ذلك ادِّعاء ضابطة الاتصال لدي الاستخبارات الأمريكيَّة، سوزان لينداور، أنَّ السلطات الرسميَّة كانت على عِلم بتفجيرات ٩/١١ قبل حدوثها بفترة كافية، بل واتِّهامها مسؤولين في أمريكا بالتواطؤ مع الموساد الإسرائيلي في تسهيل وقوع التفجيرات، فالسؤال: أيُّ فئة هي المستفيدة من وقوع التفجيرات وشيطنة المسلمين ورميهم بالإرهاب؟ والسؤال الأهم: **ألَّا يحقُّ للمسلمين الخوف من العنف الغربي**، بعد أن اعترف الصحافي والقسُّ البروتستانتي المشيخي كريس هيدجز، في حوارٍ له على قناة TVOntario الكنديَّة، في ١٢ سبتمبر من عام ٢٠١٨، بشغف المجتمع الأمريكي بتطوير الأسلحة، وبخوفه من تسبُّب ذلك في كوارث؟



The Collapse of the American Empire?

صورة ٧٥–كريس هيدجز على قناة TVOntario الكنديَّة

٧.ثبت من قصص هلاك الأقوام المكذِّبة لدين الله مع رُسُلها، أنَّ الرُّسُل التزموا الدَّعوة إلى سبيل ربِّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأنَّ المكذِّبين لصحيح رسالة الله هم مَن استخدموا العنف والتهديد، وكان التدخُّل الإلهي لإهلاك المتكبِّرين بكوارث طبيعيَّة، هو سبيل نجاة المؤمنين لمَّا صبروا، دون أيِّ عُنف من جهتهم، كما تُخبرنا سورة العنكبوت "**فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)**". ولنا في قصَّة موسى وفرعون خير مثال على ذلك، ففرعون لم يكن ملحدًا، بل اعتبر أنَّ رسالة موسى من الله تبديل للملَّة الباطنيَّة التي اتَّبعها، واعتقد أنَّ صحيحة؛ لأنَّها كفلت له من التقدُّم والإنجاز المادِّي ما جعله يسيطر على عناصر الطاقة في مملكته. أُهلك فرعون وقومه غرقًا، بعد أن تحدَّى قدرة الله، ولم يخضع استكباره أمام آيات الله المفصَّلات، "**الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ**" (سورة الأعراف: الآية ١٣٣)، بل وبلغ به الاستكبار أن أراد أن يبلغ أسباب السماوات ويرى الله "**فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ** فَاجْعَل لِّي صَرْحًا **لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إله مُوسى** وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِين" (سورة القصص: الآية ٣٨). السؤال: أليس في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟

٨.أعلن الرئيس الأمريكي عن تأسيس قوَّة دفاع فضائيَّة تقي بلاده التهديدات الكونيَّة الخارجيَّة، بعد انتشار ظواهر كونيَّة كارثيَّة، مثل الحرائق الطبيعيَّة والخسف الأرضي والفيضانات وسقوط النيازك والشُّهُب. كذلك قال رئيس الوزراء الإسرائيلي أنَّ بلاده تقود العالم بتقنياتها غير المسبوقة، وبخاصَّة في مجال الأمن الإلكتروني، وأنَّ إسرائيل وأمريكا تتزعَّمان عالم تطوير الأسلحة. وبرغم هذا التصريح الصادر في مارس من عام ٢٠١٨، نشرت صحف أمريكيَّة نهاية العام ذاته، كما سبقت الإشارة، ما يفيد بتعرُّض أمريكا لاختراقات أمنيَّة من قِبل الصِّين، تستهدف الحصول على بيانات حسَّاسة تخصُّ شركات عملاقة. السؤال: إذا كانت الصِّين تسابق الزمن لكي تُصبح الاقتصاد الأقوى في العالم،

بعد أن كادت تتجاوز أمريكا، فما هو مستقبل الحداثة الغربيَّة في ظلّ التقلُّبات التي تمرُّ بها أمريكا، رائدة عالم الحداثة والتقنيَّة والتقدُّم العلمي؟

٩.يورد البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، الحديث (٦٩٢٨) عن مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ الصَّنْعَانِيُّ، مِنَ اليَمَنِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ(ﷺ)، قَالَ: **لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، **اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟** قَالَ: **فَمَنْ**". والسُّؤال: هل في الدَّعوة تجديد الخطاب الدّيني من خلال التَّركيز على الفلسفة، وما يترتَّب على ذلك من إحياء فِكر الصُّوفيَّة والمرجئة والمعتزلة رغم ما يعتريه من آفات فكريَّة مفسدة لصحيح العقيدة، من شأنها تحريف صحيح الإسلام إلى الملَّة الباطنيَّة الَّتي انحرف إليها اليهود والنَّصارى تحقُّق ما تنبَّأ به النبيُّ الكريم منذ أكثر من ١٤ قرنًا؟ هذا ما يجيب عنه الجزء الثَّاني من هذا الكتاب، "وَإِنِّي خِفْتُ **الْمَوَالِيَ** مِن وَرَائِي"، الَّذي يتناول الانحراف الفكري للملَّة الباطنيَّة المحسوبة على الإسلام، وهي ملَّة الشّيعة، الَّتي نشأت على يد يهودي ادّعى الإسلام، وتطوير زعيم موالي، أو ملالي، إيران في العصر الحديث نظريَّة ولاية الفقيه للسَّيطرة على العالم الإسلامي تحت زعْم انتظار المهدي والإعداد لاستقباله، تمامًا كما يفعل ربَّانيُّو بني إسرائيل وقساوستهم.

فهرس محتوى الكتاب

فهرس الصُّور

المقال الثَّالث

ملحق



يتقدم مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية بالشكر الجزيل لكل من شارك في مسابقة " أفضل مؤلف في القضية الفلسطينية" .
ويأسف المركز لعدم فوز الأبحاث المشاركة؛ لعدم استيفائها الشروط المعلن عنها سابقا.
والله من وراء القصد



وكالة بيت المقدس للخدمات الإعلامية <maqdespress@hotmail.com> Sun, Jun 2, 2019, 4:18 AM
to me

Arabic > English Translate message Turn off for: Arabic

يتقدم مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقيَّة بالشكر الجزيل لكل من شارك في مسابقة " أفضل مؤلف في القضية الفلسطينيَّة" ويأسف المركز لعدم فوز الأبحاث المشاركة؛ لعدم استيفائها الشروط المعلن عنها سابقًا.
ويؤكد المركز اعتذاره عن التأخر في إعلان ذلك؛ لظروف خاصة بالمركز، وأخرى متعلقة برغبة المركز في استنفاذ الوسائل من أجل التدقيق في الأبحاث.
والله من وراء القصد.

Mohammad Abdul Mohsen <mmer84... Jun 2, 2019, 9:25 AM
to وكالة

الأسف هو إرسال رسالة كهذه لا مبرر لها، وأنتم تعلمون أنَّ الكتاب مُنع مقابل رشوة. حسبنا الله ونعم الوكيل. الأسف هو أن يُقايض على قضيَّة الأمَّة مقابل المال، في هذه المرحلة الحالكة. على أي حال، الكتاب نُشر عبر الإنترنت، وبتقديم من أشهر المتخصصين في الحركات الباطنيَّة، بفضل الله تعالى. أمَّا مَن امتنع عن النشر، فيكفيه من الخزي أن تُعرف حقيقة الرشوة وسبب منع النشر. إذا كان كتاب يدحض أكاذيب بني إسرائيل عن أحقيَّتهم في الأرض المقدَّسة، ويوضح حقيقة هيكلهم وسبب رغبتهم في بنائه موضع مصلَّى قبَّة الصخرة، لا يفي بالشروط، فأي مؤلَّف يفي بشروطكم؟ وأفوِّض أمري إلى الله إنَّ الله بصير بالعباد.

